جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⴰⵎⴻⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴰ ⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FÈS
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس
ⵜⴰⵖⵡⴰⵍⵜ ⵏ ⵜⵓⵔⵔⵉⵜ ⴰ ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵜⵉⵏⴻⵙⵜⵉⵜ ⵙⴰⵢⵙ - ⴼⴰⵙ
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES SAÏS-FÈS

مركز دراسات الدكتوراه : "اللغات والتراث والتهيئة المجالية"

تكوين الدكتوراه : التاريخ والتراث

محور : الدراسات الإسلامية

مختبر : البحث في الأصول الشرعية للكونيات والمعاملات

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية

في موضوع :

كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة

للشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي المتوفى

1226هـ-1811م

(دراسة وتحقيق القسم الأول: من بداية الكتاب إلى باب ما جاء في فضل العارفين بالله تعالى يوم القيامة)

إعداد الطالب الباحث: سحنون الرازي

الأستاذ المشرف: الدكتور سعيد المغناوي

تاريخ المناقشة : الأربعاء 7 أبريل 2021م

لجنة المناقشة :

الدكتور: عبد الله معصر.....رئيسا

الدكتورة : ماجدة كريمي.....عضوا

الدكتورة: بثينة الغلبزوري.....عضوا

الدكتور: سعيد المغناوي.....مشرفا

السنة الجامعية :

2020-2019م

مـــقدمـــــة:

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله الذي أحيا بذكره القلوب، ونورها بنور التوحيد، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأفضلهم سيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نتخذها عدة ليوم العرض والميزان، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، المبعوث بالرحمة المؤسسة على قواعد الحكمة والإيمان.

أما بعد، لا يخفى على الجميع الدور التي أولته الجامعات المغربية للمخطوطات العربية، والعناية بها وإخراجها إلى حيز الوجود من حيث تحقيقها تحقيقا علميا ونشرها على شكل رسائل أكاديمية، حتى يتمكن القارئ من الوصول إلى محتواها، والتعرف على تراثه الفكري خاصة أو التراث الإنساني عامة، سواء تعلق الأمر بعلوم اللغة العربية أو العلوم التاريخية أو التصوف أو أصول الفقه، وغيرها من العلوم الإنسانية.

وعادة حين يتناول الباحثون موضوع الصحراء أو ما جاورها من بلاد البيضان يتحدثون عن التراث اللامادي والعادات والتقاليد والأعراف، وكأن المجتمع الحساني ليس له إسهام في الجانب العلمي، وليس له أي تاريخ فكري أو تراث مادي أو حضارات ضاربة في القدم، ويتبادر إلى ذهن الجميع طابع البداوة التي يتسم بها سكان هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من واد نون شمالا إلى نهر السنغال جنوبا، ومن الساقية الحمراء غربا إلى أرض الأزواد شرقا، ويتوهمون كذلك أن طابع التحضر والعمران أو التطور بعيد كل البعد عن نمط عيشهم، وأنهم أقل عناية بالعلم والتعلم حفظا وتلقينا وتأليفا، لكن كل هذا غير صحيح، ففي هذه الأراضي الشاسعة نشأت حضارات إنسانية عريقة ودول وإمارات، ومن هذه الربوع تأسست دولة المرابطين التي انطلقت من مدينة شنقيط التي تلقب بالمنارة،

وامتد نفوذها إلى الأندلس، فهذه البداوة أنتجت العديد من العلماء والشيوخ والأمراء وذوي الفضل الذين لهم باع كبير في مختلف العلوم الإنسانية، ووفرة الكتب والمخطوطات في خزانات الأسر العلمية خير شاهد على ذلك، إلا أن عملية تحقيقها وتوثيقها ودراستها لا يتم إلا من طرف قلة من الباحثين المهتمين بشأن التراث العلمي والفكري، ومئات المخطوطات بل الآلاف بقيت على هامش النسيان، وتعرضت للضياع والسرقة، والاتجار بها وإتلافها، أو تلاشت وتآكلت بسبب عوامل الزمن وظروف الطبيعة، وذلك راجع إلى عدم الحفاظ عليها أو صيانتها، وعدم توفر أجهزة تصويرها ونسخها ليسهل على الباحثين الوصول إليها، وكل هذه العوائق والمشكلات التي تواجه تراثنا الفكري، تكون محفزا للنهوض بحماية هذا الموروث وصونه من الضياع والاندثار، وبرزت عدة عائلات علمية اشتهرت بالعلم والمعرفة وتوارثت ذلك أبا عن جد كالأسرة الكنتية الفهرية التي لها حضورا متميزا، علميا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، والذي اتضح من خلال محاضرها ومدارسها ووفرة تآليف علمائها.

لقد أنجبت هذه الربوع ثلة من العلماء الواصلين، من أبرزهم الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي (ت 1226 هـ- 1811 م) الذي كان له دور في نشر الإسلام وفهمه الصحيح المبني على الوسطية والاعتدال من غير غلو ولا تقصير، وكان له دور كبير في محاربة فكر التطرف والجهل والخرافات الدخيلة على المجتمع والبعيدة عن تعاليم الإسلام الصحيحة، وشمل إشعاعه العلمي مناطق مختلفة من غرب إفريقيا وشمالها، بل وصل تأثير مدرسته إلى مصر والديار العثمانية، واستمر ذلك في ذريته من بعده، وألف رحمه الله العديد من الكتب تجاوزت ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم والفنون، منها كتاب: "المنة في اعتقاد أهل السنة" الذي حفزتني قيمته العلمية على تحقيق القسم الأول منه ودراسته دراسة موجزة.

1) الإطار العام للموضوع:

الإطار العام للموضوع يتمثل في العقيدة الأشعرية عند علماء الصوفية من خلال نموذج الشيخ سيدي المختار الكنتي وكتابه "المنة في اعتقاد أهل السنة" الذي يعد مرجعا مفيدا يجمع فيه المؤلف بين علمين جليلين وهو العقيدة والتصوف، حيث يتناول مباحث مهمة في العلمين، واسترشد فيها بما كتب ودون قبله، يبين فيه المشهور من الآراء، وينتصر للراجح عنده بمنهجه العلمي الفريد.

2) أهمية موضوع البحث وأسباب اختياره :

(أ) أهمية موضوع البحث:

أهمية البحث تتجلى في المجال الذي ينحصر في إطاره وهو العقيدة الأشعرية والتصوف السني على الطريقة القادرية، كما أن للبحث قيمة تاريخية وعلمية وثقافية، كما يمثل مرجعية فكرية ودينية للمنطقة، لأنه يعتبر ذاكرة جماعية وإرثا حضاريا للأمة، وهذا المخطوط دليل على مكانة الشيخ الروحية والسياسية، فالشيخ سيدي المختار الكنتي يجرد في هذا الكتاب كل إمكانياته الفكرية الهائلة لإظهار حقيقة التصوف وعلاقته بالجانب العقدي، كما يتضمن الكتاب أجوبة لعدة مسائل تتعلق بالعقيدة، وغيرها من قصص الأنبياء وكرامات الأولياء، ومناقب الصالحين وأهل الفضل، قال الشيخ رحمه الله متحدثا عن أهمية الكتاب: " وهذا الكتاب أيدك الله بالأنوار والإنصاف وحقائق البر والاعتراف، لم يسمح الزمان بمثله، ولم ينسج السلف في هذا الفن على شكله، أجريت فيه من الأحاديث النبوية عيونا وأنهارا، ورصعته بالحكم الربانية والأمثال الصمدانية، والآداب الفردانية.."[1]، وهذا يدل على أهمية موضوع الكتاب كما صرح به المؤلف، وقد جمع بين العقيدة الوسطية والتصوف السني، ونحتاج في هذا الوقت الحالي إلى مؤلف جامع مثل

[1] انظر الصفحة11 من قسم التحقيق.

هذا الكتاب لمواجهة موجة التطرف التي كادت تعصف بمختلف البلدان العربية والإسلامية، ولم يحقق من قبل نظرا لكبر حجمه وندرة نسخه، وهدفي منذ البداية تحقيقه تحقيقا علميا ليكون في متناول الباحثين والقارئين، والمهتمين بمجال التصوف والعقيدة الأشعرية الوسطية.

(ب) أسباب اختيار موضوع البحث:

أما أهم الدوافع والأسباب التي جعلتني أختار تحقيق هذا الكتاب ودراسته منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي:

فأهم **الأسباب الذاتية:**

- ✓ انتمائي لأسرة الشيخ سيدي المختار الكنتي، ولهذا الحيز الجغرافي من بلاد المغرب.
- ✓ شغفي بالتراث المخطوط مما جعلني أتخصص في شعبة الدراسات التراثية في سلك الدراسات العليا سابقا، إضافة إلى الرغبة الملحة في حفظ المخطوطات من الضياع، خصوصا التراث الكنتي، والتعريف بأعلامه.

أما أهم **العوامل الموضوعية:**

- ✓ إزاحة الغموض عن المسائل المتعلقة بالعقيدة، ليسهل على القارئ معرفة العقيدة الصحيحة الوسطية الخالية من فكر التطرف والتكفير والغلو والتشدد.
- ✓ توضيح أغلب المفاهيم المتعلقة بالتصوف السني وتمييزه عن التصوف البدعي.

- ✓ أهمية الطريقة القادرية الكنتية في المغرب والدول المغاربية ودول الغرب الإفريقي، وكون هذا الكتاب مرجعا أساسيا للمنتسبين لهذه الطريقة الصوفية.
- ✓ التعريف بأحد أهم أعلام المغرب في القرن 13 هـ/18م، والكشف عن الجوانب المغمورة من شخصيته العلمية من خلال كتابه: "المنة في اعتقاد أهل السنة".
- ✓ إخراج هذا النص دراسة وتحقيقا في عمل أكاديمي يتسم بالجودة والإتقان.
- ✓ إثراء الخزانة الوطنية بالتراث الفكري والعلمي الصحراوي.

3) الدراسات السابقة في موضوع البحث:

أما بالنسبة للدراسات السابقة المتعلقة بهذا المخطوط، فلا توجد أية دراسات سابقة له– حسب علمي– ولم يسبق أن قام أي باحث بتحقيقه سواء على المستوى الفردي أو مراكز الدراسات والأبحاث، لكن هناك دراسات سابقة متعلقة بالشيخ سيدي المختار الكنتي وبطريقته الصوفية وبالعقيدة الأشعرية وبمؤلفاته من حيث الدراسة والتحقيق أو الجمع والتقديم، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- **كنتة الشرقيون:** لبول مارتي، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، الناشر: مطبعة زيد بن ثابت (دمشق– سوريا)، سنة: 1985 م.
- **نزهة الراوي وبغية الحاوي:** تحقيق الدكتور سعيد المغناوي، رسالة جامعية لنيل دبلوم السلك الثالث في الدراسات والحضارة الإسلامية، بجامعة السوربون، سنة: 1991م باريس الرابعة، بإشراف الدكتور: دومينيك سورديل.
- **فتح الودود شرح المقصور والممدود:** تحقيق: مأمون محمد أحمد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة– مصر)، طبعة: 1423 هـ– 2002م

- **المواهب اللدنية في شرح القصيدة الفيضية:** تحقيق الباحث نور الدين الشرقاني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (المغرب)، سنة: 2018م، بإشراف الدكتور الطيب الوزاني الشاهدي.
- **الكوكب الوقاد في ذكر فضل المشايخ وحقائق الأوراد:** تحقيق الباحث محمد الدمناتي، رسالة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس بفاس (المغرب)، سنة: 2018م، بإشراف الدكتور: عبد الله معصر.
- **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد،** عبد الملك بن عبد الله أبو يعلى الجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى– علي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، طبعة: 1369هـ–1950 م.
- **أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته،** عبد الباقي مفتاح، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2014م.
- **الأسماء والصفات للبيهقي،** أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م.
- **أم البراهين،** محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، يليها شرح أم البراهين لتلميذ السنوسي أبي عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني، تحقيق: الدكتور خالد الزهري، دار الكتب العلمية، طبعة: 2017م.
- **الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة،** الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: يحيى ولد سيدي أحمد، دار المعرفة: تلمسان، طبعة: 2011م.
- **الروض الخصيب في شرح نفح الطيب،** الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق الباحث: المحفوظ زغمان، رسالة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم

الإنسانية تطوان (المغرب)، سنة: 2021م، بإشراف الدكتور: عبد الكريم المرابط الطرماش نيابة عن الأستاذ الطيب الوزاني الشاهدي.

- **مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري**، أبو بكر بن فورك، تحقيق: دانيال جيماريه، وأحمد عبد الرحيم السايح، الطبعة الثانية: 2006م.
- **لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة**، أبو المعالي الجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، طبعة: 1965م.

ويعد كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" مرجعا لمريدي الطريقة القادرية الكنتية، واعتمد عليه الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في مختلف مؤلفاته، وخصوصا كتابه: " الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين"، واعتمد عليه العديد من العلماء، منهم: الشيخ محمد التسليمي في كتابه: " البشرى شرح المرقاة الكبرى"، كما ذكره القاضي العباس بن إبراهيم السملالي في كتابه: " الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، وغيره من العلماء.

4) أهداف البحث:

هدفي منذ بداية العمل تحقيق كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" تحقيقا علميا، وإخراجه إلى حيز الوجود ليصل إلى القارئ والدارس، وهدفي كذلك بيان العقيدة الوسطية الصحيحة دون غلو ولا تقصير، وكذلك بيان حقيقة التصوف السني وتمييزه عن التصوف البدعي، والكشف عن الغموض فيما يخص نشأة الطريقة القادرية وبعض سير رجالاتها، وتأثيرها وإشعاعها العلمي والروحي في المغرب وشمال افريقيا، وكذلك إبراز القيمة العلمية لكتب الشيخ سيدي المختار الكنتي لتشجيع الباحثين على تحقيقها ونشرها، ونشر كل الكتب التي تعالج القضايا والإشكالات العقدية والغلو والتطرف، وكذلك إطلاع القارئ على معلومات عن الانتماء العربي لهذه المناطق وكذلك التعرف على الهوية الثقافية والدينية لسكانها.

5) مناهج البحث:

جعلت مناهج البحث في قسمين: منهجية الدراسة، ومنهجية التحقيق.

(أ) منهجية البحث في قسم الدراسة:

اعتمدت في قسم الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي، وقمت بدمجهما معا، فالمنهج التاريخي هو عملية إحياء للماضي وللأحداث السالفة التي حدثت فيه، وذلك عن طريق جمع المادة العلمية وتوثيقها، ثم تنظيمها واستقرائها بشكل منهجي وعلمي دقيق تجنبا للأخطاء، وذلك من أجل استنتاج مجموعة من المعطيات التاريخية المتعلقة بالأحداث والوقائع في كل عصر، وخصوصا عصر المؤلف رحمه الله، وكذالك دراسة وافية عن بنية المجتمع والمحيط الذي عاش فيه، وكيف تشكل هذا المجتمع، خصوصا أن المجتمع مبني على أساس القبلية التي لا تخلو من الصراعات والحروب أحيانا، وكل ذلك يحتاج إلى جمع المصادر والرسائل التاريخية، والبحث في ثنايا الكتب التي تتناول هذا المجال، وحبذا إن كانت من مؤلفين ومصنفين ينتمون لنفس المنطقة، والمصادر تحتاج إلى دراسة وتحليل وفق مجموعة من الأسس المنهجية، وذلك من أجل فهم الواقع الذي عاشه المؤلف، ولا يتأتى لنا ولا للقارئ فهم النص المحقق إن لم تتوفر دراسة تاريخية وظيفتها استردادية تحليلية لمحيط المؤلف وسيرته العلمية ودوافع تأليفه للكتاب، ومعرفة الأحداث التاريخية قبل نشأته، فكل ذلك من آليات فهم النصوص من سياقها التاريخي والعلمي. والمنهج التاريخي يقصد به الوظيفة الاستردادية أحيانا، لأن مهمة المنهج التاريخي استرداد ما كان في الزمن، والوثائق أساس معتمد في هذا المنهج بشكل كبير، ولن نكون قادرين على استشراف المستقبل، وتوقع العديد من الأمور إن لم نستفد من المعطيات التاريخية، وإن كان التاريخ يعيد نفسه من حين لآخر.

وقد بذلت المجهود من أجل دراسة وافية تجمع بين المنهجين التاريخي والوصفي، وهذا الأخير يقوم على تحديد الإشكالات وجمع بياناتها على شكل تساؤلات في ذهن الباحث، والباحث يحتاج إلى أدوات وآليات تساعده في جمع هذه البيانات بطرق دقيقة، وتنظيمها بعد ذلك وتفسيرها بشكل منهجي وبأمانة علمية.

وبناءً على ذلك قمت بدراسة المجتمع البيضاني أو ما يسمى بالمجتمع الحساني عبر التاريخ من خلال أصول قبيلة كنتة التي ينتمي إليها المؤلف، التي لها دور كبير في نشأته، إضافة إلى دراسة عصر المؤلف سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، والحركة العلمية والصوفية في عصره، وحياته وشيوخه وتلامذته وثناء العلماء عليه ومؤلفاته، وكل ذلك يحتاج إلى مراعاة الدقة في تنظيم المعلومات، والإجابة عن كافة الإشكالات التي يثيرها القارئ والمطالع، والمتلقي، والدارس، كما تحدثت عن أهم مضامين ومنهجية المؤلف في الكتاب، وفي نهاية القسم وضعت خاتمة تتضمن أهم نتائج البحث، يليها لائحة المصادر والمراجع، ثم فهرس محتويات قسم الدراسة.

(ب) منهجية التحقيق:

يحتل ضبط النص والتعليق عليه أهمية كبيرة في علم تحقيق المخطوطات العربية، ويثير كثيرا من الاختلاف والجدل بين المعنيين بهذا الفن الجليل، فمنذ أن بدأ العرب يعنون بتحقيق المخطوطات العربية ونشرها ظهر رأيان متضاربان حول الطريقة التي ينبغي اتباعها عند نشر التراث العربي، الأول: يرى الاقتصار على إخراج النص مصححا مجردا من كل تعليق، والثاني: يرى أن الواجب يقضي توضيح النص بالهوامش والتعليقات، وإثبات الاختلافات بين النسخ والتعريف بالأعلام، وشرح ما يحتاج إلى شرح وتوضيح. وأقام الفريق الأول رأيه على أن الغاية من التحقيق هي إخراج ما يسمى بالنص الصحيح، فلا حاجة بعد ذلك لإثقاله بالهوامش والتعليقات، وقد أخذت به كثرة كاثرة من المستشرقين ومن سار على نهجهم من العرب، وارتأى الفريق الثاني أن طبع النص

مجردا هو تحريف لطبيعة البحث العلمي واستقامته باعتبار أن الأصل في إخراج النص أن ينظر المحقق فيه وفيما حوله، وأن يكشف إثارته وأن يبين عن إشارته، وأن يدل على المنازع التي صدر عنها، ومثل هذا الجهد الذي لا بد منه في التحقيق، لابد منه بعد ذلك في الدراسة، فمن الخير أن يدمج هذان الجهدان معا[2].

وقد سلكت مسلك أساتذتنا المحققين في ضبط النص وتحقيقه دون إفراط ولا تفريط، فقمت بتنظيم مادة النص، والتعليق عليه بما يفيد تقييده النص بالحركات، وتثبيت الاختلافات المهمة بين النسخ بعد ترجيح الصواب مع التعليل، والإشارة إلى الموارد التي اعتمدها مؤلف النص، ومتابعة النقول التي اقتبسها منه المؤلفون الذين جاءوا بعده، وأي نقص أو إهمال في هذه الأمور يؤدي بلا ريب إلى نقص في التحقيق العلمي، ويخرجه عن مساره الصحيح ويبتعد عنه كلما قصرنا في جانب منه حتى يصبح نشرا لا تحقيقا.

أما المنهج الذي اتبعته في التحقيق فيتلخص بشكل موجز ومختصر فيما يلي:

- نسخت القسم الأول من النسخة (أ) من بدايتها إلى الورقة 204، ثم قابلتها بالنسخ الأخرى التي رمز لها بحرف (ب) و(ج) مع الرجوع للنسخة (د) عند الحاجة، مع إثبات الفروق بينهم.
- قمت برقن الكتاب بالحاسوب متبعا الرسم الإملائي الحديث مع عدم التدخل في نص المؤلف بأي إضافة كيفما كانت، فما كان من تعليق أو تصويب جعلته في الهامش، كذلك رتبت النص على شكل فقرات حسب انسجام الأفكار وتوافقها مع وحدة الموضوع، وقد بسطت المتن بشكل سلس يسهل تلقيه عند الاطلاع عليه من طرف القارئ أو الدارس ناثرا فيه ما يناسب من علامات الترقيم (فواصل، نقط، علامات استفهام..).

---

[2] "ضبط النص والتعليق عليه" لبشار عواد معروف، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1431 هـ- 2010م، (ص7).

- عزوت الآيات القرآنية إلى موضعها في القرآن الكريم بذكر السورة ورقم الآية، وإن كانت الآية الواحدة مفرقة الكلمات بين الصفحات، لأن المؤلف يميل إلى التفسير.
- قمت بتخريج الأحاديث بالرجوع إلى مصادرها، خصوصا أن المؤلف اعتمد كثيرا على كتب الصحاح، فما وجدته بلفظ آخر أشير إليه في الهامش بلفظ: " وجدته بلفظ آخر" أو "ورد بلفظ قريب منه"، أو " ورد بلفظ آخر".
- أما الآثار من أقوال العلماء والصوفية، فقد اجتهدت قدر الإمكان لتوثيقها بعد عناء البحث، وما لم أجده أشير إليه في الهامش بقولي: " لم أقف عليه" أو "لم أعثر عليه".
- شرحت الألفاظ الغريبة والغامضة التي تدعو الحاجة إلى شرحها وتركت ما هو واضح.
- صوبت الكلمات أو الجمل التي يظهر خطأها وأشرت إلى ذلك في الهامش.
- ترجمت للأعلام المغمورين أو الذين لهم أهمية في النص، واعتمدت في ذلك كثيرا على كتاب "الأعلام" لخير الدين الزركلي، فهو أشهر ما ألف في تراجم الأعلام لأنه يتحرى الدقة اللازمة في تحرير الترجمة وإبراز أهم ملامح العلم المترجم، وقام رحمه الله بالاعتماد على المصادر المخطوطة والقديمة وأزال الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام، واعتمدت كذلك على كتاب: "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي وغيره، وفي ترجمة العلم أضع اسمه ونسبته ونبذة موجزة عن حياته، وبعض مؤلفاته إن وجدت وأختم بذكر سنة وفاته قبل الإحالة على المصدر، وتجنبت تكرار الترجمة أو الإشارة إليها كل مرة ممن سبقت ترجمتهم، واكتفيت بترجمة واحدة عند ذكر العلم في النص بشكل أولي، وبعض التراجم لا ترجمة لهم في المصادر أو المعلومات عنهم محدودة، وأشرت إلى ذلك في الهامش.
- قمت بتوثيق المادة الشعرية ونسبتها إلى قائليها مع تحديد الوزن الشعري والإحالة إلى المصدر، وما كان غير تام الوزن أشير إليه بقولي في الهامش: "مكسورة الوزن" إن كانت قصيدة، أو "مكسور الوزن" إن كان بيتا شعريا، وإن كان قائله مجهول بينت ذلك في الهامش.

وفي نهاية قسم التحقيق وضعت مجموعة من الفهارس التي يسهل بها على المطلع معرفة مستويات الكتاب بقراءة أولية فيها، لمن أراد الرجوع إلى المتن وتصفحه، لأن الفهرس يحول الكتاب العادي إلى مرجع تنفجر منه المعلومات والعلاقات بين المعلومات، وهو جزء من منظومة الاتصال العلمي والفكري، وجزء من قضية الضبط الببليوغرافي بمعنى التحكم في مصادر ومخزونات المعلومات والقدرة على الوصول إليها، وأهم الفهارس التي وضعتها في نهاية قسم التحقيق هي:

- ✓ فهرس الآيات القرآنية: وفيه وضعت الآية ورقمها، تليها اسم السورة ورقم الصفحة.
- ✓ فهرس الأحاديث النبوية: مرتبة ترتيبا ألفبائيا، وكل حديث أمامه رقم الصفحة.
- ✓ فهرس الأعلام الرئيسية في المتن: مرتبة ترتيبا ألفبائيا، وكل علم أو اسم أمامه رقم الصفحة.
- ✓ فهرس الأماكن والبلدان الجغرافية: مرتبة ترتيبا ألفبائيا، وأمام كل مكان رقم الصفحة.
- ✓ فهرس الأبيات الشعرية: مرتبة حسب الروي، مع ذكر الوزن والصفحة.
- ✓ فهرس موضوعات قسم التحقيق.
- ✓ ثم لائحة المصادر والمراجع.

أما بالنسبة للرموز والاختصارات فهي كالآتي:

[ ] المعقوفتين، بالنسبة للفروق التي علقت عليها وضعتها بين معقوفتين، وأحلت في الهامش إلى اللفظ الوارد في النسخة أو النسخ الأخرى.

[ ] المعقوفتين، لتحديد السور والآيات، جعلتها بين معقوفتين في فهرس الآيات القرآنية.

[ ] المعقوفتين، ما بينهما فارغ للإشارة إلى بياض أو محو أو شطب أو بتر، وأشير إلى ذلك في الهامش.

﴿ ﴾ القوسين المزهريين، حصرت بينهما الآيات القرآنية.

« » المزدوجتين المقوستين، حصرت بينهما الأحاديث النبوية أو المنسوبة للنبي ﷺ.

" " المزدوجتين، حصرت بينهما أسماء الكتب المتعلقة بالأعلام المترجم لها.

" " المزدوجتين، حصرت بينهما أقوال العلماء والصوفية الواردة في النص.

" " المزدوجتين، حصرت بينهما المصادر والمراجع المشار إليها في الهامش

= علامة تساوي، وضعتها في نهاية الهامش وبداية الهامش الموالي، وهو يدل على تتمة الهامش في الصفحة الموالية.

(أ) حرف الألف، يرمز للنسخة الأصل.

(ب) حرف الباء، يرمز للنسخة الثانية، وهي معتمدة للمقابلة.

(ج) حرف الجيم، يرمز للنسخة الثالثة من المخطوط، وهي معتمد للمقابلة عند الحاجة والاستئناس.

(د) حرف الدال، يرمز للنسخة الأخيرة من المخطوط، وهي للاستئناس.

(ط) حرف الطاء، يرمز للكتب المطبوعة.

(خ) حرف الخاء، يرمز للكتب المخطوطة.

(ت) حرف التاء، يرمز لتاريخ الوفاة.

(هـ) حرف الهاء المشقوقة، يرمز للتقويم الهجري.

(م) حرف الميم، يرمز للتاريخ الميلادي.

(ص) حرف الصاد، يرمز للإحالة على الصفحة.

وبالنسبة لبيان درجة الأحاديث والآثار، فقد وضعت لها رموزا في الهوامش طلبا للإيجاز والاختصار، وهي كالآتي:

ح ص: إشارة إلى أن الحديث صحيح.

ح س: إشارة إلى أن الحديث حسن.

ح ض: إشارة إلى أن الحديث ضعيف.

ح م: إشارة إلى أن الحديث موضوع.

ح ع: إشارة إلى أن الحديث معلق.

ح ن: إشارة إلى أن الحديث منكر.

ح ر: إشارة إلى أن الحديث مرسل.

ح ل: إشارة إلى أن الحديث معضل.

ح ق": إشارة إلى أن الحديث موقوف.

6) مصادر ومراجع البحث:

تنقسم مصادر ومراجع البحث إلى قسمين: مصادر ومراجع قسم الدراسة ومصادر ومراجع قسم التحقيق:

أ- **مصادر ومراجع قسم الدراسة:** اعتمدت في قسم الدراسة على أهم المصادر والمراجع منها على سبيل المثال:

- "الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي.
- "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي.

- "فتح الودود شرح المقصور والممدود" للشيخ سيدي المختار الكنتي.
- "كنتة الشرقيون من عرب مالي والنيجر" لبول مارتي.
- "تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم.
- "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي.
- "الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي.
- "أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي.

ب–مصادر ومراجع قسم التحقيق: ومن أهمها القرآن الكريم وكتب تفسيره وكتب الحديث وشروحه، وأمهات كتب التصوف، وكتب التراجم وغيرها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- المعجم الكبير للطبراني.
- المعجم الأوسط للطبراني.
- السنن الكبرى للنسائي.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم.
- مسند أحمد بن حنبل.
- تفسير الزمخشري.
- تفسير الخازن.
- تفسير البغوي.
- "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري.

- "الرياض النضرة في مناقب العشرة" لأبي العباس الطبري.

7) وصف النسخ المعتمدة في التحقيق:

حاولت قدر المستطاع جمع النسخ المخطوطة للكتاب، فزرت العديد من المكتبات والخزانات بأرجاء المغرب منها: خزانة جامع القرويين بفاس، والخزانة الصبيحية بسلا، والخزانة الحسنية (القصر الملكي) بالرباط، والخزانة العامة بالرباط، واطلعت على الفهارس الموجودة بها، كما اطلعت على الببليوغرافيات المختلفة للمكتبات العربية كمكتبة السيدة زينب التابعة لوزارة الأوقاف المصرية في القاهرة (جمهورية مصر العربية)، كما طالعت فهارس العديد من المكتبات الأجنبية المتخصصة والمهتمة بالتراث العربي والإسلامي، مثل مكتبة الكونغرس الأمريكي، ومكتبة جامعة فرايبورغ بألمانيا، ومكتبة فرنسا الوطنية، كذلك مكتبات أبناء عمومتي من الأسر الكنتية، من كان بالمغرب أو موريتانيا أو أزواد أو الجزائر، وبعون الله تمكنت من الحصول على أربع نسخ خطية معتمدة.

وبعد عملية جمع النسخ حددت النسخة الأصل في التحقيق، والنسخ الثلاثة الباقية جعلتها للمقابلة والاستئناس والرجوع إليها عند الحاجة، ورمزت لها برموز لتمييزها عن غيرها كالتالي: (أ) للنسخة الأصل في التحقيق، و (ب) النسخة الثانية، و(ج) النسخة الثالثة، و(د) النسخة الرابعة، ووصفها كالآتي:

(أ)- **النسخة الأولى:** نسخة كاملة من كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، متواجدة في مكتبة فرايبورغ بجمهورية ألمانيا، مسجلة برقم: MFMAU11 ، وعدد أوراقها 300 ورقة، وصفحاتها 596، وعدد الأسطر والكلمات غير ثابت، أحيانا 31 سطرا أو 33 سطرا أو أكثر أو أقل من ذلك، وعدد الكلمات في كل سطر ما بين 11 إلى 16 أو أكثر، ومصدرها مكتبة أهل الكصري بمدينة النعمة بجمهورية موريتانيا، وهذه النسخة قديمة، واعتمد ناسخها على نظام التعقيبة، واسم ناسخها وتاريخ نسخها غير واضح في نهاية

المخطوط وبشكل يتعذر قراءته، وبالنسبة لوصف حالتها فبعض الأوراق بها تآكل ومحو وبتر نتيجة لسوء الاستخدام أو عوامل الزمن وخاصة من الورقة الأولى إلى الورقة 30، ورغم ذلك فهي نسخة مقبولة ومفيدة، وهذا كله لا يمنع من تحقيقها بالاعتماد على النسخ المقابلة نظرا لندرة نسخ المخطوط، وجعلت هذه النسخة هي الأصل في التحقيق وعليها مدار العمل العلمي.

و**بدايتها:** " قال الشيخ العارف الرباني القطب الفرداني إنسان عين الحقائق".

و**نهايتها:** " تم بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته وجميع أهل وداده والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللهم اغفر لنا وجميع من ذكر بحرمتهم آمين"

وقد أضاف الناسخ قصيدة للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي يمتدح فيها كتاب والده:

مطلعها: قل للحضور وهلم بل للبـــاد وأنـشـد فـديـتـك أرفع الانـشـاد

نهايتها: هيهات ينسج في البرية ناسج قـــدر عـلـى مـنـوالـه أو بـــاد

(ب)- النسخة الثانية من مخطوط المنة في اعتقاد أهل السنة: متواجدة بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية في الرباط، وعنوان المخطوطة: " الارشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد"، وهو نفسه كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة"، فهذا المخطوط له عنوانين وهو مسجل برقم: 935 ك، وهي نسخة جيدة وغير كاملة، عدد أوراقها 213، وصفحاتها 426 صفحة، وعدد الأسطر 29 إلى 30 سطرا تقريبا، وعدد الكلمات ما بين 15 إلى 17 كلمة في كل سطر بشكل تقريبي، وخطها خط مغربي من صنف المجوهر محلى بالألوان الأحمر والأزرق، وهي نسخة تصلح للمقابلة، ولم يرد ذكر للناسخ في المخطوط ولا تاريخ النسخ.

بدايتها: " الحمد لله جاعل قلوب العلماء مفاتح لحل أقفال المشكلات فاطر البريات.."

نهايتها: " ..فإن العبد يعبد الله على الخوف ثم يعبده على الرجاء ثم يعبده على الحب، فما لم يعبده على الحب فالعبادة مدخولة، فإذا عبده على الحب كانت العبادة تامة وحصلت بها قرة".

(ج)- النسخة الثالثة: وهو الجزء الثاني من كتاب " المنة في اعتقاد أهل السنة"، وهي في المكتبة الخاصة بوالدي الشيخ سيدي عمر بن الرايس الكنتي المختاري، وهي بخط ناسخ، وهذا التقسيم للكتاب من عمل الناسخ أيضا، ولم أتمكن من الحصول على الجزء الأول من هذه النسخة بعد بحث طويل، وعدد صفحاتها 182 صفحة، وعدد الأسطر حوالي 38 سطرا، وعدد الكلمات في كل سطر غير ثابت، خطها مغربي صحراوي، وقد اعتمدت عليها في المقابلة والاستئناس.

بدايتها: " بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال".

و**آخرها:** "..انتهى بعون الله وحسن عونه على يد الفقير إلى عفو مولاه الحسن ابن أبياه لأخيه عبد الله كنت كان الله للجميع وليا ونصيرا".

وتاريخ الفراغ من نسخها: يوم الأحد الموافق لـ21 شعبان 1370 هـ، وهي حديثة النسخ.

(د)- النسخة الأخيرة من كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة": متواجدة بمكتبة موما حيدرة التذكارية بتنبكتو في جمهورية مالي، وهي مرقمنة في مكتبة الكونغرس الأمريكي بالولايات المتحدة الأمريكية برقم: AFTM TAM005 وهي نسخة غير كاملة لأن أجزاء كبيرة من أوراقها فقدت وغير مرتبة، وهي نسخة مفيدة للرجوع إليها عند الحاجة، وبالنسبة لحالتها المادية فهي متآكلة الأطراف بفعل عوامل الزمن، وخطها صحراوي مغربي، وعدد أوراقها 319 ورقة، ومقاسها 15.4× 11.5، وغير الأسطر غير ثابتة من 16 إلى 19

سطر في كل صفحة، وهي بخط ناسخ اسمه: باب أحمد بن سيد أحمد بن محمد الكنتي الركابي، وقد نسخها مباشرة من كتاب المؤلف، أما زمن النسخ فالعبارة الدالة عليه مبتورة جزئيا، والمرجح أنها نسخت في القرن 13 هـ، والذي حال بيني وبين اعتمادها كأصل في التحقيق أنها غير كاملة .

بدايتها: " من أمير المؤمنين عمرا".

و**خاتمتها:** " أودعت هنا شهادة أنه لا إله إلا الله لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما ".

أما بالنسبة لصور النسخ الخطية المعتمدة فقد جعلتها في بداية قسم التحقيق.

8) خطة البحث:

أما بالنسبة للتصميم المعتمد في هذا البحث، فقد جعلته في قسمين رئيسيين: قسم للدراسة، وقسم للنص المحقق.

فالقسم الأول يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

المقدمة: تحدثت فيها عن الإطار العام للموضوع وأهمية موضوع البحث وأسباب اختياره والدراسات السابقة فيه، وأهدافه ومناهجه ومصادره، وخطته، وصعوباته، بالإضافة إلى وصف النسخ المعتمدة في تحقيق كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة".

الفصل الأول: عصر المؤلف.

المبحث الأول: الحالة السياسية، من خلال خمس مطالب:

المطلب الأول: الخارطة السياسية في عصر المؤلف.

المطلب الثاني: الإمارات في المجالين البيضاني والسوداني.

المطلب الثالث: دور المؤلف في الصلح بين القبائل.

المطلب الرابع: صلات المؤلف السياسية مع الملوك والأمراء.

المطلب الخامس: الدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي وذريته.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية، من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: نشأة المجتمع الحساني.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي لقبيلة كنتة العربية.

المطلب الثالث: دور الكنتي في حرب شربة الكبرى.

المطلب الرابع: تشكل البنية الاجتماعية الجديدة وعادات وتقاليد المجتمع الحساني.

المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية.

المبحث الرابع: الحركة العلمية، من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: الطريقة القادرية: نشأتها وامتدادها الإفريقي.

المطلب الثاني: تجديدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي وسنده الصوفي.

المطلب الثالث: الطريقة القادرية الكنتية في السودان الغربي.

المطلب الرابع: الطريقة القادرية الكنتية المختارية في المغرب وأعلامها.

الفصل الثاني: التعريف بالمؤلف، من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: حياته.

المبحث الثاني: شيوخه ورحلته في طلب العلم وتلامذته وأساليب تربيتهم.

المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه، من خلال خمس مطالب:

المطلب الأول: شخصيته الذاتية.

المطلب الثاني: شخصيته السياسة.

المطلب الثالث: شخصيته الاجتماعية.

المطلب الرابع: شخصيته العلمية التخصصية.

المطلب الخامس: شخصيته الصوفية الإشعاعية.

المبحث الرابع: مؤلفاته.

الفصل الثالث: التعريف بكتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، وقد جعلته في أربعة مباحث:

المبحث الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه وعنوانه ودوافع تأليفه، في مطلبين:

المطلب الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه.

المطلب الثاني: عنوان الكتاب ودوافع تأليفه.

المبحث الثاني: مضامين كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، جعلته في مطلبين:

المطلب الأول: مضامين القسم الأول المحقق من الكتاب.

المطلب الثاني: مضامين القسم الثاني الغير محقق من الكتاب.

المبحث الثالث: المنهج والمصادر المعتمدة، جعلته في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج المؤلف في التأليف

المطلب الثاني: تكامل المنحى العقدي والصوفي في كتاب المنة.

المطلب الثالث: المصادر التي اعتمدها المؤلف ومنهجه في استعمالها.

ثم خاتمة.

وبعدها لائحة المصادر والمراجع المتعلقة بقسم الدراسة، ثم فهرس الموضوعات الخاص بنفس القسم.

أما القسم الثاني: فيشتمل على صور النسخ الخطية المعتمدة، يليه النص المحقق من القسم الأول من كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" للشيخ سيدي المختار الكنتي.

9) صعوبات البحث:

بالنسبة للصعوبات المتعلقة بالبحث، فذلك لا مفر منه في جميع الرسائل العلمية، وخصوصا المتعلق منها بتحقيق المخطوطات، بداية من عملية جمع النسخ التي لا تكون في متناول الباحث دائما إذ لا يمكن العثور عليها إلا بعد مشقة وبحث طويل في رفوف المكتبات وخزائن المخطوطات، مرورا بكتابته على الورق والحاسوب بشكل منهجي دقيق وكذلك إعادة ترتيبه، خصوصا أن كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" يخلو من الترتيب الداخلي الذي يصعب معه على القارئ مطالعته أو التعرف على مضامينه، وإن كانت أغلب نسخه غير كاملة مما يكمل بعضها بعضا أو ما يصطلح عليه في مناهج تحقيق المخطوطات بالتلفيق، وذلك عندما تكون إحدى أجزاء المخطوط مفقودة في نسخة وتوجد في نسخة أخرى مما يستدعي الاعتماد على هذه العملية بشكل يستدعي التركيز والتدقيق تفاديا للأخطاء، واحتراما لرغبة المؤلف في وصول النص للقارئ كما أراده بشكل صحيح وبأمانة علمية وواجب أخلاقي، تنضاف إلى ذلك كثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء التي استشهد بها المؤلف، والنقول التي استقاها من مصادر في حكم المخطوط وكانت في متناوله ولا وجود لها، ولم أقف عليها، وذلك يسبب المزيد من العناء والتعب مما يتطلب وقتا طويلا لتخريجها وتوثيقها من المصادر. أما بالنسبة للأعلام فقد

ذكر منهم الكثير وبشكل مكرر، منهم المشهور والمغمور والمجهول، وقد انفرد المؤلف رحمه الله بترجمة بعض أعلام الأسرة الكنتية أو تلامذتهم أو شيوخهم، ولم يسبق أن ترجم لهم غيره من العلماء، وخصوصا أن التدوين في منطقته قبل عصره كان شبه منعدم.

أما بالنسبة للدراسات المتعلقة بعصر الشيخ وطريقته الصوفية فهي قليلة جدا ومتفرقة، سواء كانت دراسات محلية أو مجاورة أو أجنبية، ورغم كل هذه الصعوبات، فقد بذلت ما استطعت من المجهودات في سبيل إخراج هذا العمل، وإن كان لا يخلو من الأخطاء كباقي الرسائل العلمية.

الفصل الأول: عصر المؤلف:

المبحث الأول: الحالة السياسية:

المطلب الأول: الخارطة السياسية في عصر المؤلف:

عاش الشيخ سيدي المختار الكنتي في بيئة صحراوية في أزواد، المنطقة الواقعة شرق موريتانيا وشمال نهر النيجر، وجنوب الجزائر وغرب جمهورية النيجر، وهي الآن تابعة لجمهورية مالي، وكانت في ذلك الوقت من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط التي تعرف اليوم بموريتانيا، والسكان الأصليون لهذه المنطقة هم قبائل من الطوارق الملثمين، وقدمت عليهم هجرات عربية عديدة كانت آخرها في ق8هـ/14م، والحرب بين هذه القبائل لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ، فلا سلطة ولا سلطان إلا للقوة.

فإلى الشرق من منطقة الشيخ توجد قبائل الطوارق المحاربة مثل قبائل الأَبِيرْوَايْلْمْدَّنْ، وإلى الشرق من ذلك توجد إمارة مستقرة هي إمارة بُورْنُو، وإلى الشمال توجد قبائل الهُكَّارْ وهم من المحاربين الأشداء، وإلى الجنوب وعلى امتداد نهر النيجر يستقر أجناس من الزنوج لهم نظم وحكومات مستقرة نسبيا قبل الغزو الذي قام به سلطان المغرب الاقصى مولاي أحمد الذهبي مع نهاية ق 10هـ/16م والذي أدى إلى تفكك الحكومات السوداء الإسلامية التي كانت مستقرة، وضاف بالتالي إلى المنطقة فوضى جديدة. وفي الغرب أكثرية من القبائل العربية والامارات الصغيرة على امتداد الأراضي الموريتانية وحتى المحيط الأطلسي، والقانون السائد في هذه المجتمعات هو قانون القوة، لذلك فالحروب مستمرة ومن لم يحارب اعتدي عليه وأصبح تابعا لمن هو أقوى منه[3].

[3] "فتح الودود شرح المقصور والممدود" للشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي تحقيق: مأمون محمد أحمد، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة– مصر)، طبعة: 1423 هـ– 2002م ، (ص 12).

فالشيخ عاصر وجود الدولة العثمانية في أقصى الشرق، ففي عام 1730م توفي السلطان العثماني أحمد الثالث ليخلفه محمود الأول الذي توفي 1754 م، ثم خلفه العديد من السلاطين العثمانيين كان آخرهم الذي عاصر الشيخ السلطان محمود الثاني الذي توفي 1839 م، كما عاصر وجود الدولة العلوية في المغرب الأقصى وسلطانها سيدي محمد بن عبد الله (ت 1204 هـ-1790م) الذي عمل إصلاحات شاملة، واجتهد في المحافظة على بلاده ووحدتها وتأمين شواطئها من العدوان الأوروبي، وانتصر في العديد من المعارك منها معركة العرائش، كما رفض ربط علاقات دبلوماسية مع روسيا بسبب محاربتها للدولة العثمانية، كما اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

كما شهدت هذه الفترة وجود ممالك في إفريقيا الغربية كمملكة البورنو وماسينا وغيرها من الممالك المتفرقة في بلاد الهوسا بالغرب الإفريقي. وكان محمد البَكْر أمير بورنو والمقاطعات المجاورة يتراسل مع الشيخ ويبعث له الهدايا، وقد وضع نفسه تحت إدارته الروحية، كما صنع أمراء الفِلاَّن وزعماؤهم ولا سيما عثمان دانْ فُودْيُو[4] وأخاه الوزير عبد الله وابنه الوزير محمد بِلُّو[5]، وقد استمرت هذه العلاقة مع الشيخ سيدي محمد الخليفة الذي خلف أباه في مقامه الفكري والسياسي[6].

---

[4] عثمان بن فودي، سلطان مملكة سوكوتو في نيجيريا، أشعري العقيدة، ومالكي المذهب، وصوفي على الطريقة القادرية الكنتية، (ت 1232 هـ/1817م)، يلقب بأمير المؤمنين وشيخ الإسلام، له مؤلفات بلغت أكثر من 100 مؤلف، منها: "اتباع السنة وترك البدعة"، و"آداب العبادات والعادات"، و"إرشاد الأمة إلى تيسير الملة"، انظر:"معجم السياسيين المثقفين في التاريخ العربي" لفؤاد صالح السيد، مكتبة حسن العصرية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى" 1432هـ-2011م، ص460.

[5] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق – سوريا، 1985م، (ص 74).

[6] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى" (دراسات ومراجعات) لحماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2010م، (ص56).

وقد نشأت هذه الممالك المتفرقة نتيجة الحملة التي قام بها السلطان المغربي أحمد منصور الذهبي قبل عصر الشيخ أي القرن 16 م، وكان نتيجتها إسقاط امبراطورية السُّنْغَايْ ، والسبب الرئيسي الذي دفع المنصور الذهبي لهذه الحملة علاقة امبراطورية السنغاي بالعثمانيين، وهذا يدل على تشبث سلاطين السنغاي بالشرعية العثمانية ولو من طريق غير مباشر، وهو ما قد يكون السبب الفاعل في الحملة السعدية على دولة السنغاي [7].

ينضاف إلى ذلك شبكة من العلائق السياسية المتعددة بين الشيخ سيدي المختار والقادة والأمراء في غرب الصحراء والسودان وكذا مع محمد علي في مصر، ويذكر أنه كانت للشيخ صلات وطيدة بالدولة العثمانية التي كان يدافع عن شرعيتها الخليفية ويذكر ولاتها بالتعظيم[8].

كما ظلت الحروب والصراعات لصيقة بأزواد وما جاورها منذ فترة قديمة، وقد استمر التنازع والحروب القبلية إلى حدود القرن 18م وهو القرن الذي ظهر فيه الشيخ سيدي المختار الكنتي، ووقعت في عصره حروب طاحنة بين عدة قبائل.

المطلب الثاني: الإمارات في المجالين البيضاني والسودان الغربي:

1- الإمارات العربية والصنهاجية في المجال البيضاني:

عرفت بلاد البيضان نظاما سياسيا عرف بالإمارة، وهو نظام حاول نسبيا تجاوز النظام القبلي المحض، ووضع لبنات ونواة نظام شبه مركزي حيث تحتكر السلطة من

---

[7] "تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس" للقاضي محمود كعت، (المتوفى: 1002 هـ- 1593م)، تحرير وتقديم: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2012م، (ص146).

[8] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى" (دراسات ومراجعات) لحماه الله ولد السالم، (ص56).

طرف زعيم سياسي[9]، ولقد كانت حرب شربة من بين الحروب التي ترتب عنها إزاحة العناصر الصنهاجية بشكل نهائي من الخارطة السياسية للمنطقة التي تسمى بلاد البيضان تمييزا لها عن بلاد السودان التي يقطنها الزنوج، وبلاد البيضان تمتد من واد نون شمالا إلى نهر السنغال جنوبا ومن الساقية الحمراء غربا إلى بلاد الأزواد شرقا.

وقد استمرت حرب شربة مدة طويلة ترتب عنها نتائج سياسة تمثلت في تشكل إمارات عربية حسانية، وبنية اجتماعية جديدة تطرقت إليها وإلى حرب شربة الكبرى في الفصل الخاص بالحالة الإجتماعية، حيث ترتب عن حرب شربة تداعيات اجتماعية كبيرة، أما التداعيات السياسية فقد تمثلت في نشأة النظام الأميري الحساني، حيث تم فرض منطق الإمارة بمزاوجة بين الفكر القبلي المترحل، والفكر الأميري المبني على الاستقرار[10].

وتأسست السلطة الأميرية في بلاد البيضان على تنظيم سياسي واجتماعي وقانوني وعسكري تفاوت في درجة هيكليته حسب المناطق والجهات[11].

وبدأت الإمارات في الظهور على جزء هام من المجال الترابي البيضاني في مطلع القرن 18م، وارتبط ظهورها بتغير مهم في طبيعة البنية السياسية بعد الحرب السالفة الذكر، ومن أهم هذه الإمارات:

أ- **إمارة الترارزة:** وتقع في الجزء الغربي من المجال البيضاني، وبرزت ككيان سياسي على يد أحمد بن دامان بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز[12]

---

[9] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين"، لرحال بوبريك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 2005 م، (ص143).

[10]"الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين 18 و 19، إمارة الترارزة نموذجا"، منشورات حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، نواكشوط، عدد 2، 1990م، (ص36).

[11]" إمارة الترارزة لمحمد المختار ولد السعد"، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، 2002م، (304/1).

الذي أعطاه المولى إسماعيل العلوي سلطان المغرب المحلة (المحلة بمعنى الجيش) التي أفنى بها أولاد رزك، وبالتالي أصبحت هذه الإمارة من أقوى الإمارات الحسانية[13].

ب-**إمارة البراكنة:** تقع في شرق بلاد القبلة وتنتمي إلى الفرع المغفري الذي يجمعها مع الترارزة، وأسسها المدعو نغماش ولد عبد الله البركني، ويدل اسم البراكنة على مجموعة قبلية وفي نفس الوقت مجال جغرافي، ويعود أصل البراكنة إلى استيطان جزء من المغافرة المنحدرين من عبد الله البركني، وأول من تولى منصب الأمير هو محمد بن عبد الله بن كروم بن بركني[14]. ورغم القوة التي كانت لهذه الإمارة إبان نشأتها إلا أنها تدهورت وسقطت سريعا في نهاية القرن 19م نتيجة للصراعات الداخلية والحرب الأهلية بين مكوناتها.

ج-**إمارة إدوعيش:** فإذا كانت الإمارات السالفة تنتمي إلى قبائل ذات أصول عربية، فإن إمارة إدوعيش من بقايا صنهاجة وخصوصا لمتونة المهزومون في حرب شربة الكبرى والذين تعربوا لغويا ونسبيا، واستطاعوا لم شتاتهم وأسسوا كيانا مستقلا، ويعد محمد الشين (ت1788م) هو المؤسس الفعلي للإمارة.

وتقع هذه الإمارة في منطقة تكانت (وسط موريتانيا حاليا)، وقد قادت سلسلة من الحروب ضد جيرانها من الإمارات الحسانية[15]. اتسمت علاقة هذه الإمارة بقبيلة كنتة بتوتر شديد بسبب العداء التاريخي، لأن الكنتيون هم المسئولون عن قلب الموازين لصالح القبائل العربية في حربهم مع القبائل الصنهاجية.

---

[12]"السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن 19م" لمحمد الأمين ولد سيدي أحمد ، نواكشوط، طبعة: 2003 م،(ص 104).

[13] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين" لرحال بوبريك، (ص90).

[14] المرجع نفسه، (ص148).

[15] المرجع نفسه ، (ص150).

2- الإمارات الإسلامية في السودان الغربي:

أطلق الأوروبيون اسم السودان الغربي على منطقتي نهر السنغال والنيجر وما جاورهما، وهذه العبارة لم تظهر إلا في القرن 19م، ويقطن هذه المناطق مجموعة قبلية كبرى تدعى الفلان.

واختلف الباحثون حول أصول الفلان، فمنهم من عدهم من العرب، ومنهم من جعل الفلان من البربر، ومنهم من عدهم من الزنوج[16]، وقد شكل الفلان النواة الحقيقية لانتشار الإسلام، وتخرج منهم عدد من العلماء والفقهاء وأقطاب التصوف، وشكلوا إمارات في السودان الغربي، ومنها إمارتان رئيسيتان من أصل فلاني ظهرت في وسط وشرق بلاد السودان الغربي، وهي كالآتي :

أ- **إمارة سوكوتو الإسلامية:** أسسها عثمان بن فودي (ت 1232 هـ/1817م)، والفودي في لغة الحوصا أو الهوسا تعني الفقيه، وأسس حركة دينية إصلاحية ترمي إلى إنقاذ الساكنة من بطش الأمراء، كما أسهمت مكانته الصوفية والسياسية في شهرته باعتباره من مريدي الطريقة القادرية الكنتية، وتبنى أسلوب الموعظة الحسنة واللين في الدعوة إلى الله، لكن أمير الحوصا اضطره إلى الدخول معه في مواجهة مسلحة والتي انهزم فيها جيش أمير الحوصا، وترتب عن هذه الحرب توحيد كل الإمارة في ظل حكم عثمان بن فودي ثم بناء مدينة سوكوتو. وبعد أن نجح عثمان بن فودي في تأسيس الإمارة وضمان أمنها واستقرارها ترك دوره السياسي والعسكري سنة 1810م بيدي شقيقه ونجله، وبعد ذلك سقطت الإمارة وانقسمت بعد وفاة مؤسسها وسقطت في بداية القرن 20م. كما كانت لهذه الإمارة علاقات جد متميزة مع الكنتيين

[16] "الطريقة التجانية بالمغرب والسودان الغربي" لأحمد الأزمي، أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة بفاس، سنة: 1999م، (ص 403).

حيث كان تأثير الشيخ سيدي المختار الكنتي في نفوس الخاصة والعامة من أهل هذه البلاد[17].

ب-إمارة ماسينا: تقع هذه الإمارة في الدلتا الأوسط لنهر النيجر، واستقرت بها قبائل الفلان في وقت مبكر، وقد شجع قيام دولة سوكوتو الفلان في هذه المنطقة في إنشاء دولة مماثلة لها، خصوصا أنها كانت تخضع لحكم الوثنيين في البداية، وقد قام أحمد لب[18] الملقب أحمدو الأول بثورة نتج عنها تحرير البلاد من الوصاية الأجنبية وفرض الدين الإسلامي والتفاف الفلان حوله ليؤسس دولة قوية في وسط السودان الغربي، كما اتخذ عاصمة له سماها حمد الله، ودخل تنبكتو بعد تمكنه من إجلاء الطوارق عنها[19].

المطلب الثالث: دور المؤلف في الصلح بين القبائل:

لقد شهد عصر الشيخ الحروب بين عدة قبائل من بينها حرب كنتة مع طوارق الهُكَّارْ، وأثر تدخل الشيخ إلى عودة السلام بين الجانبين، وخلال الوقت الذي كان يمارس فيه الشيخ زعامته الدينية في شمال العقفة كانت الهيمنة السياسية من نصيب الطوارق وعلى

17 راجع "الكنتيون وعلاقتهم بالسلطة السياسية بالسودان الغربي خلال القرن 19م، من خلال رسالتين للشيخ أحمد البكاي ت 1865م لسلطان ماسينا أحمدو بن أحمدو ت 1863م"، تقديم وإخراج للباحث عبد الله موما، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، سنة 2007م، كلية الآداب ظهر المهراز-فاس، (ص 72-73).

18 أحمد بن محمد بن سعيد باري المعروف بأحمد لب، مؤسس إمارة ماسينا، ويلقب بأحمدو الأول، (ت1265هـ/1848م)، وولد ببلدة بامغال بأقصى شمال مالي، وهو من قبائل الفلان الذين قاموا بدور فعال في حركة الشيخ عثمان بن فودي، انظر: "الإسلام في نيجيريا ودور عثمان بن فودي في ترسيخه" للدكتور محمد لواء الدين أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، طبعة: 2013م، (ص134).

19 "الإصلاح والثقافة العربية في إفريقيا" لحسن أحمد محمود، دار الفكر العربي، القاهرة-مصر، (ص 270).

وجه الخصوص كل تادمكت[20]، وخلال نوبة تمرد أوقع الرمة في يوم من الأيام زعيم القبيلة وهو بتيتي بن محمد المختار بن عمير في كمين واغتالوه غدرا، وهنا جرحت كرامة قبيلة كل تادمكت في الصميم، فهرعوا على عجل وضربوا الحصار على تنبكتو دون أن يطوقوا المدينة فعلا التي كانت محاطة في ذلك التاريخ بأسوار من طين[21]، غير أن تدخل الشيخ جاء بالسلم واستطاع الشيخ بسياسته الحكيمة ردع هؤلاء الرماة ورفعوا الحصار عن المدينة.

كما كانت للشيخ صلات مع قبائل البرابيش[22] خلال فترة حكم زعيمهم محمد بن رحال، وكانت ودية للغاية.

وشارك الشيخ في إعداد حملات على القبائل الناهبة التي أخضعها وردها إلى طريق الصواب بالإقناع والموعظة الحسنة أو بقوة السلاح، مما أدى إلى استتاب الأمن وتأمين الطرق.

وتزعم الشيخ المختار سياسيا وروحيا قبيلة كنتة، وحظي بمكانة خاصة قبائل المنطقة التي دخلت في صراعات مسلحة بين الفينة والأخرى على الماء والمرعى والتجارة والنفوذ السياسي، وكان بعضها يقدم له الأعطيات من مال وخدم وماشية، وكان الشيخ يتدخل في كل النزاعات المسلحة والمشاكل التي تقع داخل القبيلة الواحدة، أو بين قبيلة وقبيلة، أو بين عشيرة وعشيرة، ومن أمثلة ذلك:

- عقده الصلح بين عشيرة تَادَمْكْت وعشيرة وَايْلْمَدْنْ من الطوارق.

---

[20] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص57).

[21] المصدر نفسه، (ص57).

[22] البرابيش قبيلة بربرية، كانت موجودة منذ عدة قرون، وقد أخضعت من لدن الهجرات العربية الأولى خلال القرن 15 م، وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: مجموعة طارقية ، ومجموعة عربية (حسان بن حم)، ومجموعة عربية أخرى هي حسان أولاد رزق، انظر: "إسعاف المسائل بالكلام على بعض المسائل" لمحمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2014م (ص78).

- صالح البرابيش مع الرَّقَاقِدَة من كنتة.
- تدخل لإعفاء علي بن محمد العلوي الفيلالي من ضريبة المرور التي فرضتها البرابيش.
- صالح سكان أَرَوَانْ المتنازعين.
- قدم الحماية لما تبقى من قبيلة أولاد بَلَّة بعد انهزامهم أمام أولاد عَلُّوش.
- قدم الحماية للبرابيش وصالحهم مع أعدائهم أولاد علوش.
- راسل زعماء القبائل لتقديم النصح والوساطة وكيفية حل النزاعات[23].

المطلب الرابع: صلات المؤلف السياسية مع الملوك والأمراء:

عاصر الشيخ المختار الكنتي المصلح الديني الشيخ عثمان بن محمد بن فُودْيُو (ت1232هـ/1817م) الفلاني الشهير مؤسس إمارة الفِلاَّن بنيجيريا، وكانت بين الأسرتين مودة وإخاء ومراسلات، فهما ينتميان إلى الطريقة القادرية ومن المدافعين عنها والناشرين لها[24].

كما كانت للشيخ صلات وعلاقات وطيدة مع السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله، والرسالة التي بحوزتنا عبارة عن خطاب الشيخ للسلطان جوابا عن رسالة سبق أن تلقاها من القائد عبد الملك بن القائد أحمد الحيوني باسم السلطان، وسأعمل على تحقيقها ونشرها بحول الله. وفي نص الرسالة ما يدل على العلاقة المتينة بينه وبين الشيخ رحمه الله، منها على سبيل المثال قول الشيخ مخاطبا السلطان: " بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، حمدا لمن جعل دعوة الباطل ساعة ودعوة الحق إلى الساعة، والصلاة والسلام يعمان النبي وأتباعه

---

[23] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، طبعة: 2012م، (ص 14).

[24] المرجع نفسه، (ص 14).

وحزبه وأمته ومن أطاع، وعلى آله وأهل بيته الكرام البررة الذين أذل بسيوفهم وزحوفهم جماعة الفجرة الكفرة.

أما بعد من العلامة المسدد بل الوارث المجدد، واسطة عقد الأبرار وقطب دائرة الأخيار الشيخ السيد المختار ابن السيد أحمد بن أبي بكر الكنتي الوافي، إلى من توسط ذؤابة عبد مناف واستعلى أرومة هاشم ذروة الأشراف، وبذخ في عليا خندق ذوي العدل والانصاف ونما في ضئضئ حضر الطامي عزهم على ساكن المدار والأحقاف، وبهر برهان حسبه الحسيب في تشعب شعب معدد العدد والعُدد، والفصاحة واللسان واللدد والسداد والسدد، زرع إسماعيل وعنصر إبراهيم وسليل النبي الأمجد سيد العالمين، خلاصة نابت وأدد، سيدنا وشفيعنا من عم باسم محمد وخص ببالغة اسمه أحمد [ ] الأنبياء عودا وأطولها عمودا، وأعلاها مجدا وأشمخ، وخيرها أصلا وأرسخ، وأرفعها ذكرا وأبذخ، من اتصلت أعرافه بأعرافه وغشاه بنور رواقه، أمير المومنين سيدنا السيد محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل، نصر الله أيامه ونصر أعلامه وأمد بمدد النصر عساكره، ورعا بعين عنايته دساكره، من بيص بجده واجتهاده وجه الدولة الاسلامية، وروض برياضة سياسته رياض العلو والالهية، وغور بغيرة تغيير المنكر مناكر الفرقة الباغية، وأصمت بتصميم صميم هيبته الألسنة اللاغية، وكسر بأكاسير عسجد براعته فخار افتخار الملة الرومية بعد ما علا صرح رمادها ونسف فرع عنادها فتبرت بعون الله ما علوا تتبيرا، وما زدتهم بالصلح إلا تدميرا، ورددت كيدهم في نحورهم فما زادهم كثرة مكرهم إلا تخسيرا، فصاروا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، أو كالتي تحضن بيض غيرها حتى تصير الرياح بيضها، أو كالذي يحفر بظلفه عن حتفه أو يجلب إلى نفسه الردى بعرفه، فلما علموا ولاة حين مناص ولا وجه إلى الفرصة والاقتناص، ولا سبيل إلى

السلامة و[ ] إلا بإعطاء الجزية وترك القصاص، وجنحوا إلى الصلح على أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأذعنوا بعد التمرد أنهم هم الأصغرون.

السلام مني يؤم ساحتك ويقبل بشفتي المحبة راحتك، يشيعه الروح والريحان ويعبق أردانه بالمسك العتيق والزعفران، محلى بالعقائق والعقيان، متوجا باليواقيت واللآلئ والمرجان.

أما بعد فليكن في كريم علم سيدنا أنه ورد علينا كتابك العزيز، ولعل سيدنا ما نظر إليه ولا رفع به رأسا، ولولا أن ابننا وابنك السيد أبا بكر التنواجيوي جاء به لأيقنا أنه مختلق من دونك، لأنه لم يشاكل كل كتب أسلافك الأكرمين التي بأيدينا لما فيها من التحية والسلام والتبجيل والإكرام، وتحرير ساحتنا ومن وضعنا عليه أكنافنا من جميع الأنام، ومن جميع المطالب المخزنية بأن لا سبيل لأحد عليهم وأنهم آمنون حيثما كانوا وأينما حلوا، لا يتعرض لهم إلا من ظلم نفسه من لدن السيد محمد الملقب ابن دميع، ثم مولانا أحمد الذهبي إلى منتهى الدولة السعدية ثم كذلك دولة الأشراف، فأول وثيقة كتبت وثيقة مولانا محمد ثم مولانا الرشيد ثم مولانا إسماعيل ثم مولانا عبد المالك ثم مولانا عبد الله، ثم من الله على العلم والعلماء بطلعتك المباركة فكان الظن بك أجمل فيما لديك، أكمل لقربك من العدل واتصافك بصفات الفضل، فاعتمدنا على ذلك ظنا منا أنك تعلم ما هنالك إذ أنت خلَف لله خَلْفٌ، فحيث لم تزد في احترامنا وإكرامنا كما وجدت آباءك وأجدادك ومن تقدمهم إلى منتهى دولة الاسلام، فأعاذك الله أن تكون سببا لنقص إكرامنا واحترامنا، فهل سمعت بأحد من أمثالك سلط الجهلة على الزوايا القائمين بأوامر الله وسنن رسوله بأن يكونوا في قبضتهم وعند أمرهم ونهيهم، فإن ذلك يؤدي إلى هدم الدين من أصله وثل قواعده، ولقد ملئنا سرورا بأيامك لما يبلغنا من حسن سيرتك الدال على حسن سريرتك، واشتغالك بإذلال المشركين وأهل الظلم والعدوان، لأن ذلك يعجب من في قلبه غيرة الاسلام، فلم

يفاجئنا إلا كتابك برسم خدامنا، وإني جعلتكم في قبضة الشيخ عبد الملك الحيوني وعند أمره ونهيه، فاشمأزت قلوبنا من ذلك وارتعدت فرائصنا، لأنه وآباؤه وأجداده كانوا خدام آبائنا وأجدادنا كما كانوا خدام آبائكم وأجدادكم، لما يرجون من جاهنا وبركتنا واقتداء بأسلافكم الكرام في احترامنا وإكرامنا، فلم يبقى من أيام عبد المالك يوم وعجز عذائه، طمحت نفسه الخبيثة وآراؤه الرثيثة إلى أن تعل له يدا في يهتك بها حرماتنا ويخرق ما سجله آباؤك من حصون حراستنا، كما قال الشاعر:

طـلب الأبـلــق الـعـقـوق فلما أعجزته أراد بيص الأنوق

وأنت تعلم أن عبد الله بن عباس كان يأتي أنس بن مالك خديم رسول الله ﷺ على رسم التعلم، فإذا أتاه قبل راحته فيقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، ثم يقبل أنس يده ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا"[25].

وفي الرسالة ما يدل على أن الشيخ لم يقبل رسالة وجهت إليه من أحد القادة يدعى أحمد الحيوني لما فيها من أسلوب لا يليق في حق العلماء وأهل الفضل، ولم يراعي فيها حرمة علماء الأسرة الكنتية الذين خصص لهم ملوك المغرب الأقصى تقديرا واحتراما وإكراما، بل أصدر كل منهم وثيقة رسمية في شأنهم منذ دولة الأشراف السعديين إلى قيام الدولة العلوية الشريفة.

كما تناول الشيخ في الرسالة كعادته في نصح الأمراء والملوك قصصا وعبرا وأحاديث وحكم، وأثنى على السلطان بقوله: " واعلم أنه لم يبق من ملوك الإسلام من فيه مخائل الغيرة على الإسلام غيرك، لضبطك السقع الذي أنت فيه، وبعثك بالأموال إلى الحرمين، وصلتك شرفاء الينبوع، ومواصلتك الإمام الصنعاني، وفتحك البريجة

[25] من الورقة 1 إلى الورقة 5 من رسالة الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله وهي نسخة خاصة بحوزتي.

وحصرك مليلية، وإقامتك الموسم وسدك الثغور"[26] كما نصح الشيخ رحمه الله السلطان في بناء الثغور مجاورة للسواحل وأن تكون بعيدة عن البحر قليلا لجعل مسافة مهمة من أجل الأمان والحذر من العدو بقوله: "..إلا أني أتمنى أن تجعلها منفصلة من البحر قليلا، لأن أهل الإسلام في البر أقوى منهم في البحر، والروم في البر أذل منهم في البحر، لأنهم وعول أقوياء في السفن والحصون، أذلة على متون الخيل"[27].

واستمرت الصلات السياسية والعلمية والثقافية بين الكنتيين والمغرب التي لم تندثر، وهذه الصلات ظلت قوية ومتينة، كما اعتز الكنتيون بعمق الروابط مع الملوك المغاربة، ويدعون إلى بيعتهم التي يعتبرونها بيعة مشروعة، كما يعتبرون أنفسهم رعايا لهم، وما يدل على ذلك الرسائل المتبادلة بينهم.

كما كانت للشيخ علاقات طيبة بسلاطين الدولة العثمانية، وبأمراء دول الغرب الإفريقي. وكانت لحفيده الشيخ المختار الملقب بالصغير بن الشيخ سيدي محمد الخليفة مراسلات مع السلطان العلوي عبد الرحمان بن هشام، وأشهرها رسالة تعرف **بالرسالة العجالة الرائقة في العمالة.**

المطلب الخامس: الدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي وذريته:

أما بالنسبة للدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي ولمدرسته الصوفية ولأبنائه وأحفاده من بعده، يقول في ذلك الدكتور حماه الله ولد السالم: "مع أننا نرجح أن الوجود الكنتي في الإقليم (أَزَوَادْ) أسبق من ذلك بكثير حيث تشير "تذكرة النسيان" إلى جد الشيخ سيدي المختار الكنتي هو أبو بكر الملقب بالصديق فيما نصه: فعلى إثر معركة نشبت

[26] الورقة 24 من رسالة الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله وهي نسخة خاصة بحوزتي.

[27] الورقة 25 من نفس المصدر.

في 17 مارس 1720 م بين كَابَارَا وتمبكتو– بين قوات الباشا بَاحَدُو من تمبكتو وبين قوات الرماة والطوارق التابعة للقائد منصور، فقد تعرضت جماعة باحدو لخسائر عديدة في الأرواح، وبما أن العدو لا يزال يحتل الموقع فلو لم يكن لدى السكان القدرة على المخاطرة بأنفسهم للذهاب إلى الحركة دون التعرض لأخطار جسيمة، لذا قصد الناس سيدي أبو بكر الصديق الكنتي وسألوه أن ينقل إلى تمبكتو الجثث المتناثرة على الطريق، ومنذ هذه الفترة سيبدأ الدور السياسي الخطير والمتصاعد واللامع للزاوية الكنتية بأزواد وللشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير وعائلته[28].

1–الدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي:

استطاع الشيخ بفضل حنكته السياسية ربط علاقات ودية مع مختلف القوى السياسية في المنطقة من أمراء وملوك وزعماء قبائل وعشائر، كما تدخل في حروب مسلحة مع خصومه تارة أو لإخضاع القبائل المعتدية على قبيلة كنتة أو حلفائها تارة أخرى، كما عمل على فض النزاعات المسلحة في الصراع بين القبائل العربية أو بين العرب والطوارق، وتمكن من إخماد العديد من الحروب الطاحنة وحقن الدماء، واستغل في ذلك سلطته السياسية والدينية.

وللشيخ علاقات قوية وطيبة مع السلاطين العلويين بالمغرب الأقصى وخصوصا مع السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله كما ذكرت سالفا، ويظهر ذلك من خلال العديد

[28] "تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربة الكبرى" لحماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2012م، (ص233).

من المراسلات بينهما، من أبرزها رسالة الشيخ للسلطان[29] والتي بحوزتنا وهي نسخة خاصة.

وهناك كذلك فراغ سياسي خطير شخص الشيخ سيدي المختار الكنتي سببه وهو إسقاط دولة السُّنْغَاي دون تقديم بديل، وأدى تدمير هذه السلطنة أو هذه الإمبراطورية إلى حدوث فراغ وفوضى واقتتال وسلب ونهب، وازدهار ثقافة الوثنية مما دفعه إلى تفضيل وجود دولة، وسعى إلى ملء فراغ الدولة بإقامة شبكة تواصل منظمة وبتراتبية إدارية صوفية لجمع شتات المجتمع وإخضاعه وضمان أمنه واستقراره، وكان النفوذ السياسي للشيخ شاملا للسودان الغربي وعموم بلاد البيضان باعتباره أميرا مطاعا وذو ثقل سياسي وديني، كما راسله أغلب الملوك والأمراء ورؤساء القبائل وزعماء العشائر، بل شمل تأثيره العلمي والسياسي مصر والأراضي العثمانية، ووجد الشيخ نفسه في مواجهة كم هائل من التحديات والتناقضات، فرضت عليه فكر الإصلاح والتجديد تمهيدا للإصلاح الديني والسياسي.

كما كان لابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد الخليفة[30] نفس دوره السياسي، ولحفيده المختار الملقب الصغير[31] تمييزا له عن جده، وابنه سيدي أحمد البكاي[32] الذي راسله

---

[29] "رسالة للشيخ سيدي المختار الكنتي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله"، وقد حققها سيد أحمد أحمد جد، ونشرتها دار قوافل للنشر سنة 2017، وسأعمل لاحقا على إعادة تحقيقها ودراستها دراسة تاريخية بحول الله.

[30] سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت 1242هـ/1826م)، نشأ في ظل رعاية والده ودرس عليه علم الظاهر والباطن، وأخذ عنه نفس العلوم التي أخذها والده عن شيوخه من فقه ولغة وتصوف وغيرها، كما ساهمت والدته للا عائشة الأزرقية الكنتية في تكوينه العلمي باعتبارها عالمة وفقيهة، له مؤلفات عديدة منها: " الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالد والوالدة"، و"الروض الخصيب في شرح نفح الطيب"، و"جنة المريد دون المريد"، انظر: "معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر" لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنسر، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة: 1409هـ–1988م، (634/2).

التاج البريطاني بشكل متكرر من أجل رابط علاقات دبلوماسية وتجارية بين بريطانيا وبلدان الغرب الإفريقي.

2-الدور السياسي للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي:

يعد الشيخ سيدي محمد الخليفة (ت 1242هـ/1826م) الابن الخامس للشيخ سيدي المختار الكنتي، ولقد اجتذب علمه وورعه انتباه والده، وقد اصطفاه ليخلفه عند وفاته، وقد اشتهر بتبحره في العلوم وكثرة تآليفه، فقد كان مؤرخا وفقيها أصوليا، بارعا في علوم الحساب والفلك وغيرها، وعينه والده خليفة له ومقدما للطريقة القادرية المختارية الكنتية من بعده، وكان ينوب عنه في غيابه أو مرضه. كما كان له نفس الدور السياسي لوالده رحمه الله، فقد قام بنسج شبكة صلات سياسية تربطه بقادة الدول من سلاطين وملوك وأمراء وغيرهم، وخصوصا بسلاطين المغرب من الأشراف العلويين، فقد كان يتبادل معهم الرسائل والوفود والمنشورات والإرشاد[33].

وكانت له مراسلات مع ملوك وأمراء السودان الغربي لاسيما أمراء الدولة السكوتية وأمراء دولة ماسينا، حيث اعتمد في سياسته الخارجية على الرسائل التي تحمل لكل قوم ما يناسبهم ويستميلهم ويؤثر في قلوبهم.

---

[31] الشيخ سيدي المختار الملقب بالصغير أو الحفيد بن الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت1263هـ/1847م)، نشأ وترعرع في زاوية جده وغدا من أهم شيوخ الزاوية، وخلف والده على رأس الطريقة القادرية المختارية الكنتية بعد وفاته، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص89).

[32] الشيخ البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت 1284 هـ/1868م)، رابع شيوخ الزاوية المختارية الكنتية، تلقى تعليمه في زاوية جده سيدي المختار الكنتي، وقد كرس حياته في نشر الإسلام بين القبائل الإفريقية وإحياء السنة وإماتة البدعة، له مؤلفات عدة منها: " رسالة إلى أهل وجوابهم له"، و"فتح القدوس في الرد على أكنسوس"، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 99).

[33] انظر: "أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: بادي بن باي بن باب، شركة المدينة المنورة، الطبعة الأولى: 1419هـ، (ص8).

ولجأ العديد من الفارين من الحروب أو النزاعات طالبين الحماية بفضل الثقل السياسي للشيخ، ومنهم الرحالة الألماني ألكسندر جوردن لينج (A.G.LAING)[34]، الذي تعرض لهجوم طوارق الهكار في يناير 1826م وأصيب بجروح جراء ذلك، فلجأ للشيخ طالبا الأمان والحماية، ورجع لتنبكتو فسقط في أيدي البرابيش الذين اغتالوه في شتنبر 1826م[35].

وتمكن الشيخ كذلك بفضل حنكته السياسية من إنقاذ مدينة تنبكتو من الخراب جراء الهجوم الوحشي من قبل قوات الفلان بقيادة الشيخ أحمد لب الماسيني بعد أن أدرك أن الهجوم لا يمكن إيقافه إلا بتدخله شخصيا، فتمكن من إيقاف الاجتياح والقضاء على النهب والتخريب، وسمح له بوجود تمثيل إداري بالمدينة تجنبا للحرب، والسبب في قدوم قوات أحمد لب ليس المساس بالمدينة، بل هدفها القضاء على الطوارق الذين يشكلون حاجزا بينه وبين تمبكتو[36].

وكان لأبناء الشيخ سيدي محمد الخليفة وأحفاده نفس دوره السياسي والصوفي، وحافظوا على الدور الريادي للطريقة القادرية المختارية الكنتية في المنطقة.

---

[34] أول مستكشف أوروبي اسكتلندي يصل إلى تنبكتو في دولة مالي الحالية. وسعى للوصول إلى منبع نهر النيجر إلا أنه تم اغتياله سنة 1826م، انظر: "التواصل الحضاري الليبي السوداني عبر العصور: أعمال الندوة العلمية العاشرة التي عقدت بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخي في الفترة من 1 إلى 2 أبريل 2002م"، الناشر: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2006م، (ص288).

[35] راجع "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" حسن الصادقي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، طبعة: 2012م، (ص: 24).

[36] انظر: "أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: بادي بن باي بن باب، شركة المدينة المنورة، الطبعة الأولى: 1419هـ، (ص:24).

3-الدور السياسي للشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد الخليفة:

يلقب بالمختار الحفيد أو الصغير أو النتيمي(ت 1281هـ/1865م)، أخذ عن والده وعن جده وبرع في العلوم الإسلامية التي نبغ فيها والده وجده، ونشر التصوف كباقي أفراد أسرته وورث الزعامة على الطريقة القادرية المختارية، وخلف والده في الزعامة الدينية والسياسية، كما عمل على رأب الصدع بين المتنازعين واشتهر برسالته الشهيرة إلى السلطان العلوي مولاي عبد الرحمان بن هشام[37]، وقد حظي الشيخ بمكانة عالية عند سلاطين المغرب وزعامات القبائل المحلية وملوك السودان الغربي، كما ساهم في نشر الطريقة القادرية في المغرب الأقصى.

4-الدور السياسي للشيخ أحمد البكاي بن سيدي محمد الخليفة الكنتي:

من أبناء سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت 1281هـ/1865م)، درس علي يد والده وجده، شانه في ذلك شأن أخيه سيدي المختار الصغير، وخلف أخاه في مشيخة الزاوية المختارية بعد وفاته، وتقلد الزعامتين الدينية والسياسية ليصبح رابع خلفاء الطريقة القادرية المختارية، وانتقل من أزواد واستقر به الحال في تمبكتو التي تعد عاصمة علمية للسودان الغربي وأسس زاويته هناك، وبصفته رجل سياسة ودين استمال إلى جانبه الأمير أحمد بن أحمد بن لب الماسيني[38] في عاصمته حمد الله الذي يعد زعيما لقبائل الفلان. وقد دخل أحمد البكاي في مواجهة مسلحة مع

---

[37] نشرها محمد المنوني في أعمال ندوة "العلاقات بين المغرب وإفريقيا"، منشورات موظفي كلية الآداب-الرباط، 1992م، كما جعل الباحث الدكتور محمد المهداوي في ملحق بالجزء الأول من تحقيقه لكتاب "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى: 1433هـ-2012م، (ص 192).

[38] أحمد بن أحمد لب الماسيني ويلقب بأحمدو الثالث، من أمراء دولة ماسينا الإسلامية، سار على نهج أسلافه من أمراء ماسينا في مواصلة سياسة الإصلاح، وتعرضت دولته في النصف الثاني من القرن 19م إلى صدام مع التجانيين، وقتل في حربه ضدهم سنة 1862م، انظر: "التداخل والتواصل في إفريقيا"، أوراق المؤتمر العلمي، الكتاب الأول، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم-السودان، (ص81).

التجانيين الذين يتطلعون إلى مد نفوذهم في المنطقة، ومن قبل كانت له صداقة مع زعيمهم الحاج عمر الفوتي التي انقلبت إلى عداوة ومناوشات وحروب طاحنة أضعفت المنطقة.

ولعل من أسباب الحرب سعي عمر الفوتي[39] للزعامة في المنطقة، فزحف على مدينة حمد الله وتم مقتل أحمد بن أحمد لب الماسيني وظهور عمر الفوتي كقوة عسكرية تهدف إلى تكوين دولة كبرى ونشر التجانية على حساب القادرية، لذلك عمل أحمد البكاي على التحالف مع أعداء عمر الفوتي وتمكن من هزيمته حيث قتل على يد القوات الكنتية سنة 1864م، وكان من نتائج هذه الحروب إضعاف المنطقة مما سهل مهمة احتلالها من طرف الأوروبيين.

وترك أحمد البكاي مصنفات كثيرة، ومراسلات مع أهل المغرب وعلمائه، ومع سلاطين المغرب، فقد كان يعتبر المنطقة ضمن الإيالة المغربية، وفي ذلك قوله: "فاعلموا أن صاحب هذه البيعة الشرعية والخلافة النبوية هو إمامنا وإمامكم، مولانا عبد الرحمان بن هشام نصره الله"[40]. وقضى حياته في الذود عن الطريقة القادرية وخلف إنتاجا فكريا مهما في هذا الشأن.

---

[39] عمر بن سعيد بن عثمان تال الفوتي، (ت 1281هـ/1864م)، من أقطاب التجانيين، توفي في مواجهة إمارة ماسينا وحلفائها، انظر: "الإسلام في نيجيريا ودور عثمان بن فودي في ترسيخه" للدكتور محمد لواء الدين أحمد، (ص134).

[40] "رسالة إلى أهل فاس ومكناس ومراكش" لأحمد البكاي الكنتي، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي، رقم: ع 147.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية:

المطلب الأول: نشأة المجتمع الحساني:

قبل الحديث عن الشيخ سيدي المختار الكنتي، لا بد من الحديث عن قبيلته التي ينتمي إليها وعن البنية الاجتماعية والمجال الذي عاش فيه، وعن بداية تشكل المجتمع الحساني منذ القرن 9 هـ/15 م إلى حدود عصره وعصر ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة، حيث كان لجده سيدي محمد الكنتي ولأحفاده قبيلة كنتة دور مهم في نشأة هذا المجتمع. وقد نشأ الشيخ في أرض أزواد، التابعة حاليا وإداريا لجمهورية مالي.

والقبلية في المفهوم الصحراوي تزاوج بين الأرض والإنسان، وبالتالي فإن مفهوم القبلية يتداخل فيه المحدد البشري والجغرافي والسياسي، ذلك أن لكل قبيلة نفوذها الذي لا تستطيع أي قبيلة الاعتداء عليه، إذ تنطوي فكرة أرض القبيلة في أذهان مجموعاتها على الاشتراك في الرموز المادية والمعنوية، النسب والملكية الجماعية للمراعي والماشية والآبار والموقع الجغرافي الذي يرمز لفضاء القبيلة بالنسبة لقبائل أخرى

ودأبت كتابات الرحالة العرب على إطلاق تسميات على المنطقة الممتدة من جنوب سوس إلى نهر السنغال إما على أساس جغرافي مناخي: الصحراء والمجابات الكبرى وسوس الأقصى، أو على أساس إثني قبلي: صحراء الملثمين. وتبقى عموما حدود هذا المجال في الكتابات العربية غير دقيقة المعالم، كما قامت أيضا الكتابات المحلية بوضع أسماء للمنطقة من منطلق إثني، ومن أشهر الأسماء: بلاد التكرور، وهو في الأصل اسم لإمارة زنجية كانت قائمة في الضفة اليسرى لنهر السنغال وتعتبر من أول الإمارات التي اعتنقت الإسلام في السودان الغربي[41].

[41] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين" لرحال بوبريك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 2005 م، (ص11).

ومن التسميات التي سادت تاريخيا واشتهر بها البلد: " **بلاد شنقيط**"، وهي التسمية التي عرف بها سكان المنطقة في المشرق العربي وجل البلدان العربية إلى حدود المنتصف الثاني من القرن العشرين، ويعود أصل التسمية إلى مدينة شنقيط التي عرفت تاريخيا بدورها وإشعاعها الديني والثقافي والتجاري، وبما أنها كانت الحاضرة الأكثر شهرة في المنطقة فإن المسافرين كانوا ينسبون أنفسهم لها، لذا اشتهر سكان المنطقة بالشناقطة، وساهم في انتشار هذا الاسم في المشرق نبوغ علماء البلد الذين احتكوا بعلماء البلدان الإسلامية الأخرى في مناسبات الحج[42].

إلا أن التسمية التي عرف بها البلد تظل هي بلاد البيضان كمقابل لبلاد السودان التي كانت متداولة في الأدبيات التاريخية والجغرافية، ولكن مفهوم البيضان اتخذ بعدا ثقافيا أكثر مما ارتبط بالعرق أو بلون البشرة. فالبيضاني هو ذلك الشخص الذي يتكلم اللهجة الحسانية ويرتدي زيا مميزا له، وله هوية ثقافية تميزه عن الساكنة المجاورة. ويمتد المجال الثقافي البيضاني من واد نون شمالا إلى نهر السنغال جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى مالي شرقا، وقد أطلق البيضان على جيرانهم تسميات كالأعاجم بالنسبة للطوارق في الحدود الشرقية، ولْكْوَرْ (السنغال ومالي)، والشْلُوحَة بالنسبة لجيران الشمال للتميز عنهم ثقافيا[43].

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي لقبيلة كنتة العربية:

تعتبر قبيلة كنتة الكبرى من أشهر القبائل، ليس في بلاد البيضان بمجاله الشاسع فحسب، بل في كل دول الشمال الإفريقي، لها امتداد تاريخي وديني وسياسي واقتصادي، وهي قبيلة عربية قرشية تنتسب لعقبة بن نافع الفهري، انتشرت في الصحراء الإفريقية في دول مالي وموريتانيا والجزائر والمغرب، من تكانت بموريتانيا إلى أدرار إيفوقاس شرق

---

[42] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين" لرحال بوبريك، (ص 11).

[43] المرجع نفسه، (ص 13)

مالي، وتحركت في القرن 12هـ/ 18م بين الحوض في الجنوب إلى الساقية الحمراء بالشمال وتوات في الشرق، وامتد فرع منها إلى ولاتة ووادي درعة وتوات وأزواد وتنبكتو[44]. ونتيجة لذلك فقبيلة كنتة بمختلف عشائرها لها مجال جغرافي شاسع وثقل ديمغرافي كبير.

كما تعتبر قبيلة كنتة من أهم القبائل التي حملت الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى وبلاد إفريقيا الغربية، لاسيما الدور التاريخي للزاوية القادرية الكنتية التي أسسها سيدي المختار الكنتي الكبير وأبناؤه وأحفاده، وغيرهم من أسرة الرقاقدة قديما وحديثا، كما ظل للبطون الكنتية الأخرى دور سياسي وحربي بارز في موريتانيا وخارجها.[45]

وقبيلة كنتة بإجماع المؤرخين نشأوا بالقيروان وبه روضة جدهم الأعلى، وقد أسهمت الأحداث السياسية في الشمال الإفريقي إسهاما كبيرا في حياة العائلة الفهرية، فتنقل أفرادها من مكان إلى آخر حتى ألقت الترحال في واحات توات جنوب الجزائر، وهناك عرفوا باسم كنتة، وكان استقرارهم بتوات وأسسوا بها ثلاث مدراس، كان لها الفضل في جعل سكان المنطقة متفقهين في علوم الدين واللغة العربية. ومنذ ذلك الحين طارت شهرتهم وعرفوا بأهل العلم والولاية والنسب القرشي، وقد اهتموا بتجارة قوافل الصحراء، وسيروها من توات وسلجماسة إلى تنبكتو. ونستطيع القول أن الكنتيين استمدوا مكانتهم الاجتماعية من ثلاث عوامل رئيسية:

أولا : نسبهم القرشي.

---

[44] راجع كتاب: "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص 6).

[45] "رحلة المنى والمنة"، للطالب أحمد المصطفى الحاجي الوداني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2013م، (ص 23).

ثانيا: الثروات الطائلة التي حصلوا عليها من تجارة قوافل الصحراء قديما.

ثالثا: دورهم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى وغرب إفريقيا.

وتنقسم قبيلة كنتة إلى ثلاث فروع رئيسية:

- ذرية سيدي عمر الشيخ: وهم كنتة الشرق، وهم ثلاث عشائر: وتتكون من أولاد سيدي المختار الشيخ، وأولاد الوافي، والرقاقدة أحفاد سيدي أحمد الملقب بالفَيْرَمْ.
- ذرية سيدي محمد الكنتي الملقب بالصغير: وتستقر بالجنوب الشرقي الموريتاني، وتتكون من عدة عشائر وهم: أولاد سيدي بوبكر، وأولاد بوسيف، والمتغمبرين، والركابات، وأهل أحمد كنتة، وأهل أوكال، وأولاد سيدي حبيب الله.
- ذرية الطالب بوبكر الحاج: وهم الهمال، يستقر عدد منهم في موريتانيا وجزء آخر بأزواد، وأشهر عشائرها: أهل بونعامة، وأهل سيدي الأمين الأزرق، وتتواجد أسرة منهم بواد نون جنوب المغرب.

وتدل رواية قبيلة كنتة، وهي أهم تقليد تاريخي قبلي في الصحراء على خارطة بشرية وجغرافية لمسارات حملات ابن غانية[46] في المغرب الكبير، مما يدل على انتقال تلك المجموعة العربية الفهرية في أخريات الثائر المرابطي إلى الصحراء، حيث استقر أسلاف الكنتيين بين إِبْدَوْكَلْ وهو ما تصرح به الرواية الكنتية بجلاء.

[46] أبو زكريا يحيى بن علي بن يوسف المسوفي، أحد ولاة وقادة المرابطين في الأندلس، (ت543هـ/1149م)، انظر: "تاريخ ابن خلدون" المسمى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) لعبد الرحمان بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، طبعة: 1421هـ–2000م، (332/6).

المطلب الثالث: دور الكنتي في حرب شربة الكبرى:

يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: "وخلف بعده ابنه يعقوب بن العاقب بن عقبة المستجاب إلى أن توفي بالزاب، وقبره مشهور ويزار، وإليه يجتمع كنتة وإيديعقوب من إدوالحاج ومن تجكانت، ثم خلفه ابن شاكر مؤلف المدخل، وقبره مشهور يزار بالقيروان، وإليه يجتمع كنتة والمحاجيب، ثم وقع العبيديون بإقليم إفريقية وقعة النباح فخرج ابنه يهس، واسمه عبد الله ببقية ولده إلى شرق الجريد فأقام بهم ببادية الظهر شيخا مربيا عالما ذا أتباع وشيع، متجرهم ومدارهم تلمسان أيام ولاية ابن عنان، فبقي هناك إلى أن توفي بمستغانم وقبره مشهور يزار، ثم خلفه ابنه دومان واسمه عمرو، وكان عالما زاهدا ورعا مربيا، انتقل أيام فتنة ابن الأحمر بحشمه وغاشيته إلى توات فتوفي ببلاد أمزاب من قرى توات، فأقام بها مربيا مرشدا تؤخذ عنه فنون العلم حافظا محدثا إلى أن توفي بعزي وقبره بها مشهور وخبره مأثور، ثم خلفه ابنه سيدي يحيى، وكان علامة حافظا ورعا زاهدا مربيا، تخرج على يده جماعة فرقهم في المدن والقرى للإرشاد والتربية، ووعدهم بالموت عنده والدفن بإزائه، فربوا ما ربوا، وأرشدوا ما أرشدوا، ثم ماتوا عنده ودفنوا إلى جنب روضته وقبورهم مشهورة إلى يومنا هذا تزار، ثم خلفه ابنه سيدي علي، وكان قطبا علامة مربيا قدوة يهتدى بهديه ويرجع إلى إشارته ورأيه، وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجيل حسان يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد، وذلك في دولة السلطان أبي فارس[47]، وكان مقلدا له لا يعمل إلا على وفق إشارته، فخرج إلى الصحراء

[47] أبو فارس عبد العزيز المتوكل، ولقب بالمتوكل على الله، (ت839هـ/1435م)، من ملوك الدولة الحفصية، حكم فيها بين عامي 1394 م و 1434م، بويع بعد وفاة جده عزوز سنة 837هـ وكان في طرابلس الغرب فانتقل إلى تونس، ومن آثاره ابتداؤه ببناء المدرسة المستنصرية بسوق الفلقة بتونس، وقد أكملها بعده أخوه عثمان أبو عمرو، انظر: "الأعلام" لخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة: 15، ماي 2002م، (46/7).

فتزوج بنت محمد بن ألم بن كنتة بن زم رئيس إِبْدَوْكَلْ، واسمها أَهْوَى، فَأَوْلَدَهَا ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف سيدي محمد الكنتي"[48].

ويعتبر سيدي محمد الكنتي بن سيدي علي الفهري الجد الجامع لقبيلة كنتة، وغلب اسمه على بنيه وحفدته، ثم لم يزل سيدي محمد الكنتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة لا يجاريه في مجاريه خلف، وهو أعلى وزنا وأعلى محلا، دام يحيي ما قد أميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا، ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرانه، محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسان مقدما عليهم محكما فيهم إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله إبدوكل، وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان، فارتحل عنهم مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغتهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونة فحرام عليكم الظفر بهم بعدها، فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه، وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه يزيل ملك السلطان من أسه، فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونة، فقال: أعطيتكموها على شرط أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تأمنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وأبقيتم عليهم عيشة لبني وبنيكم، فأعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك، وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة؟، فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم، فإني قد دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم، فانقلبوا إلى أهاليهم وتألب أبناء حسان بمن انضاف إليهم، فصبحوا لمتونة وهم غارون، فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء واشتغل من عداه بأشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم، فهزموا من يليهم لأول حملة وركبوا ظهورهم

[48] "تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربة الكبرى بين أولاد الناصر ودولة أبدوكل اللمتونية" لحماه الله ولد السالم، (ص 148).

مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم، فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن باللحمة، التي ضرب بني حسان على رقابها المغارم، ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه[49].

وقد انتهت هذه الحرب التي سميت بحرب شَرْبَبَّة الكبرى (1446 م–1480م) بهزيمة قبائل لمتونة، وكانوا منذ ذلك الحين مضطرين إلى تسليم أسلحتهم وتقديمها إلى القبائل العربية المحاربة الذين دفعوا لهم ضريبة الحرمة، وبعد الحرب ظلت القبائل الصنهاجية في أدوار إما كمزارعين أو صيادين، وأصبح يطلق عليهم زناكة، ومن لم يمتهن المزارعة والرعي والصيد أصبحوا في درجات أعلى في السلم الاجتماعي كقبائل دينية أو ما يطلق عليهم باسم " لْمْرَابْطِينْ" أو "الزْاوَيَة"، وظل هذا الانقسام موجودا إلى حدود وجود الاحتلال الإسباني والفرنسي، حيث فرضت سلطات الاحتلال نفسها عسكريا على جميع القبائل، وكسرت بذلك شوكة بني حسان، ولكن ليس إلى حد بعيد، فقد ظلت القبائل الحسانية تحافظ على نفس دورها قبل وبعد الاحتلال.

ويعتبر سيدي محمد الكنتي بن سيدي علي الأب المؤسس لمجتمع البيضان، أو ما يطلق عليه بالمجتمع الحساني، وكان له دور كبير في حرب شربة الكبرى بين لمتونة والقبائل العربية المهاجرة من بني حسان، مما أدى إلى سقوط دولة إبدوكل في الصحراء. وقد أسس سيدي محمد الكنتي بنية اجتماعية جديدة حلت محل البنية الاجتماعية الصنهاجية، ويظهر ذلك جليا في الحوار التاريخي الذي دار بينه وبين قبيلة أولاد الناصر والذي نقله حفيده سيدي محمد الخليفة في كتاب: " الرسالة الغلاوية ".

والخلاف بين الكنتي وإبدوكل كان السبب المباشر بعبارة المؤرخين في نشوب الحرب الصنهاجية الحسانية، لكن هناك أسباب أخرى تضافرت في بناء ذلك الحدث الذي غير

[49] "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (المتوفى: 1242 هـ/ 1825م)، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، طبعة: 2013م، (ص 86).

تاريخ الصحراء الحديث، كان هناك عامل الانحطاط التجاري للمسالك التي تراقبها إبدوكل، ثم عامل الخلافات الداخلية بين أطراف الإمارة نفسها، وجاء التوافق الحساني– الرزكاني ليجعل من الحرب خلاصا للجميع من قوة مهيمنة طال أمدها.

وكان رافع راية الحرب هو سيدي محمد الكنتي، وثائر ضائع الأخبار اسمه أدَدْ بن أدَّادْ، لقد حزب هذا الأخير الجموع والأحلاف من القبائل الصنهاجية: إِنِيْزْزِيكْ وغيرها التي كانت تعاني من هيمنة إبدوكل وبطشهم، وعبأ الكنتي أولاد الناصر ومن معها من بني عمومتها من بني حسان[50].

وقد قلب هذا الحلف العام بين العرب الحسانية وبين القبائل البربرية الخاضعة– هذا إن وثقنا بكتاب التاريخ وهو ما يبدو محتملا تماما – قلب في نهاية هذا القرن 9هـ/15م هيمنة لمتونة في هذا الجزء من موريتانيا العليا: أي شمال آدرار، وفي سبخة الجل وزمور. وقد كان الحلف المذكور نذير بداية الفتح العربي للصحراء الذي راح يستمر في آدرار وتكانت في القرن 10هـ/ 16 م، كي ينتهي في القرن 11 هـ/17 م في موريتانيا السفلى بعد حرب شَرْبَبَّة الكبرى. وقد اضطر البربر المغلوبون إلى دفع الأتاوة، واحتفظوا باسمهم السلالي "صنهاجة" والتي تحرفت في لهجتهم البربرية إلى "ازْنَاكَة"[51].

أما إمارة إبدوكل قبل سقوطها على يد الكنتي وتحالفه من القبائل الحسانية تعتبر من أهم الكيانات السياسية التي بقيت بعد المحلة المرابطية، وتشكلت أساسا من بقية أحلاف بني غانية، وهم من مختلف القبائل العربية والصنهاجية، وقد قامت في تاريخ تقريبي هو أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري على يد أسرة لمتونية لا نعرف عنها الكثير، لكن نواة إبدوكل كانت لمتونية قطعا، بدليل أن بعض فروعهم المتبقية مثل إِيدْكُوجِي يوصفون بأنهم من المرابطين مما يسمح من مستوى آخر باعتبار إبدوكل هي

---

[50] "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص 89).

[51] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 26).

وريثة مرابطي الصحراء الأكثر كمالا، رغم وجود رئاسات لمتونية مرابطية متفرقة في الأنباط وإِيدَوْعِيشْ وإِدَيْشَلِّي[52].

وهناك بعض القبائل تصرح بأصلها المرابطي اللمتوني، لكنها تأنف بل ترفض نسبتها للبربر، ربما لاعتقادها الأصل اللمتوني محيلا على الأصل الحميري، حيث كان قادة الدولة المرابطية من لمتونة يفتخرون بأصلهم اللمتوني الحميري[53].

والتواريخ الواردة في النص منسجمة من الوجهة التاريخية، تزامن فترة أبي فارس (796–837 هـ/1393–1434م)، وفترة وجود بني حسان في الساقية الحمراء التي صاروا ينتجعون إلى تخومها إلى أيام ابن خلدون (ت808 هـ/1406 م)، ووجود إمارة إبدوكل قائمة في تلك الفترة، وهي التي أسماها دولة المرابطين، وهي إشارة بالغة الأهمية لاستمرار التقليد المرابطي في تلك الإمارة ولكونها وريثة المرابطين، كما تعني العبارة المذكورة أن بني حسان قبل القرن الثامن كانوا على وفاق مع اللمتونيين أو خاضعين لهم، أو يكون المعنى في الحديث عن الدولة متصلا بلمتونة وحدهم[54].

وتتحدث الرسالة الغلاوية عن تواريخ أجداد كنتة في توات وتلمسان وغيرها، ثم تصل إلى الجد الأعلى الذي انتقل إلى الصحراء، وهو سيدي علي بن يحيى التواتي الفهري، وكان مقدما معظما في دولة السلطان أبي فارس لا يعمل إلا وفق إشارته، فقدم إلى الصحراء فتزوج من أهوا بنت محمد بن ألم بن كنتة أمير إِبْدَوْكَل، فأنجب منها ابنه وخليفته سيدي محمد، ولقب بالكنتي نسبة إلى جده لأمه، والكنتي في اللغة تعني الرجل القوي الشديد، وتقول الروايات المنقولة شفاهيا أن سبب موجدة الكنتي على أخواله هو

---

[52] "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص 81–82).

[53] المصدر نفسه، (ص41).

[54] "الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية" لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2015م، (ص 42).

رفضهم شفاعته في رد المنهوبات التي يحصلون عليها من إغاراتهم على قوافل تلامذته أو أصهاره من تجكانت، بل بلغ الأمر ببعض البدوكليين أنهم أساءوا معاملة الشيخ سيدي محمد الكنتي شخصيا ورموا رحله، وكان من نوع "تَاغْشْمِيتْ"، والرحل المذكور هو الذي كان مستعملا لدى صنهاجة لأنه رحل تارقي، مما يؤكد تاريخية الرواية فضلا عن الطابع المنطقي لسبب الخلاف بين الرجل وأخواله[55].

لكن هناك سببا دينيا آخر، هو أن الشيخ الكنتي شدد النكير على أخواله بشأن معاملات تخالف الشرع الصحيح مثل استرقاق الأحرار، ولعل الرجل كان صاحب نزعة تأصيلية في تجمع يلتزم فقهاؤه فروع المذهب المالكي، ينضاف إلى ذلك درجة القوة والصولة التي بلغها محاربوا إبدوكل حتى ضربت بهم الذاكرة المحلية المثل في التيه والشراسة والصلف، فقيل: فلان امْدَوْكَلْ[56].

وعبأ الكنتي عشائر أولاد الناصر ومن معها من بني عمومتها من بني حسان، وشكلت فتوى يعقوب الجَّكَنِي وهو قاضي مدينة تينيكي بشرعية قتال إبدوكل الفتيل الذي أشعل الحرب، وقد دعم هذه الفتوى الشيخ الكنتي بوثيقة ضمنها نص الفتوى وتسليمه لها[57].

واستمرت هذه الحرب أزيد من عشرين سنة بين كر وفر دون تغلب طرف على آخر، لكنها انتهت بهزيمة إِبْدَوْكَل وسقوط إمارتهم في المنطقة.

وكان من نتائج هزيمة إِبْدَوْكَلْ:

---

[55] " تاريخ قبائل البيضان عبر الصحراء الكبرى" لموسى كمرا، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية (بيروت–لبنان)، طبعة:2018م، (ص 58).

[56] "الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية" لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي، (ص43).

[57] "تاريخ موريتانيا قبل الإحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2017م، (ص 185).

1. فرض المغارم على المهزومين، وحظر حمل السلاح، مع ترك الوظائف الدينية للزوايا، وسيحدث الأمر نفسه في القرن 11 هـ- 17م بعد هزيمة الزوايا في حرب شربة الصغرى التي جرت في جنوب غرب موريتانيا.
2. من نتائج الحرب سيطرة بني حسان على أتباع القبائل اللمتونية.
3. ومن نتائج الحرب التعرب اللغوي والنسبي، والظاهر أن سيدي محمد الكنتي كان يتحدث العربية مع عشائر أولاد الناصر ومع غيرهم من الحسانيين.

وكانت من نتائج هذا الصراع أن جَذَّرَ بنو حسان التراتبية الاجتماعية من خلال بنائهم لهرم اجتماعي كانوا هم أنفسهم في قمته واحتكروا اسم العرب، وبعدهم في المرتبة الثانية تأتي في وسط السلم الاجتماعي فئة الزوايا القائمة على الخطط الدينية والتجارية، ثم يأتي في أسفل السلم القبائل التي تدفع المغارم[58].

ويعتبر سيدي محمد الكنتي الجد الذي منح اسمه للقبيلة، فسميت كنتة نسبة للكنتي، وقد اختار سيدي محمد الكنتي امرأة من بين جيرانه، فتزوج فتاة جكنية بنت آلَّه محمد بن الحسن بن أَيْشَفْ، وقد رزق منها بولد كان هو سيدي أحمد البكاي[59]، واستشهد سيدي محمد الكنتي وناصر بعد اغتيالهما على يد مجموعة من الوثنيين، وقيل المرتدين أثناء الجهاد (توفي 820 -830 هـ تقريبا)، ودفن في فصك من شمال غربي موريتانيا [60].

ويعد سيدي محمد الكنتي أقدم مؤسس لمدرسة علمية وروحية في بلاد البيضان والغرب الإفريقي، ألا وهي المدرسة الكنتية، وكان له دور في نشر اللغة العربية، فهو أول من نشر مع قبائل بني حسان اللهجة الحسانية العربية التي تعد أقرب اللهجات للعربية الفصحى، كما فرض التدريس باللغة العربية، خصوصا أن قبائل لمتونة كانت من قبل

---

[58] "تاريخ موريتانيا قبل الإحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم ، (ص193).

[59] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص26).

[60] "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص200).

تترجم كل الكتب والعلوم للغتها، وحمل أحفاده مشعله من بعده وأبرزهم خليفته سيدي أحمد البكاي الذي عاش طرفا من القرنين 9هـ/15م و10هـ/16م، وهو الذي جعل من كنتة دعاة للإسلام والمشرفين الروحيين على القبائل الصحراوية، وهي حركة انساحت في بلاد الزنج وعملت على تحقيق أول إسلام للزنوج، وقد كان دوره عظيما، وانصرفت جماعات كنتة من بعده نحو هذه الرسالة، وهي الدعوة والإدارة الدينية[61]. وبداية تشكل المجتمع الكنتي كانت على يد الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي تفرع أبناؤه إلى عدة بطون وأفخاذ انتشرت في الصحراء الكبرى شمالا ووسطا وجنوبا، وبدت قبيلة كنتة تسيطر على مجال واسع من بلاد البيضان، كما أدى تحكم كنتة في هذا المجال إلى ضبط الحدود بين القبائل والمجتمعات من طوارق وبرابيش وعرب الصحراء، فقامت بدور الوسيط بين المتنازعين وضمان الأمن، كما استغلت التجارة وراقبت الطرق، وكانت سببا في إثراء ساكني المنطقة، وبفضلهم حصل استقرار في المجتمع الحساني، وهذه القبيلة استطاعت أن تزاوج بين البعدين: الديني الروحي، والدنيوي التجاري، لتصبح فئة مسيطرة يمتد مجال نفوذها من مفازات الصحراء الإفريقية شمالا إلى حدود الغابة الاستوائية جنوبا.

وتظل الكتابات العربية المحلية شبه منعدمة وهو ما يجعلنا أمام فراغ يمتد من المرحلة المرابطية القرن 11 م حتى بداية القرن 17 م، إنها مرحلة نكاد لا نعرف عنها شيئا من ناحية تشكل الخريطة الاجتماعية والسياسية، وتعود أقدم الكتابات التاريخية المحلية التي بين أيدينا إلى بداية القرن 18 م، ونستنتج من خلالها أن دخول القبائل المعقلية لم يتم بطريقة سلمية، فالتنافس على الموارد الاقتصادية النادرة كالمراعي ومراقبة طرق التجارة نتجت عنه حروب بين المجموعات القبلية الوافدة والقبائل الصنهاجية المستوطنة في المنطقة منذ قرون[62].

---

[61] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 28).

[62] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين"، لرحال بوبريك، (ص57).

ورواية الشيخ سيدي محمد بن سيدي المختار الكنتي عن الصراع بين أولاد الناصر وإبْدَوْكَل الواردة سابقا لها عدة معاني رمزية، ويمكن من خلال تحليلها الخروج ببعض التمثلات التي تعطينا بعدا آخر يتجاوز التاريخ المتداول عبر الكتابات التاريخية الكلاسيكية رغم ندرتها، وتعبر "الرسالة الغلاوية" عن رؤية من داخل المجتمع حول دخول القبائل المعقلية إلى المنطقة وتعاملها مع القبائل الصنهاجية، والرسالة الغلاوية كتبت قرونا بعد الحدث فهي تمثل في الوقت نفسه رؤيا وتمثلا لتاريخ هذه المرحلة من قبل المعنيين بالأمر أنفسهم، أي المجتمع البيضاني[63].

المطلب الرابع: تشكل البنية الاجتماعية الجديدة وعادات وتقاليد المجتمع الحساني:

1-تشكل البنية الاجتماعية الجديدة:

لا يمكن فهم مسألة السلطة في المجتمع البيضاني إلا داخل نسق اجتماعي عام موسوم بهرمية اجتماعية حيث نجد أن المجتمع البيضاني تسود فيه تراتبية مكونة من الفئات التالية نتيجة لحرب شربة الكبرى:

- المحاربين (حسان/ عرب).
- وزوايا (طلبة).
- وازْنَاكة (لحمة).
- وحَرَاطِينْ ومْعَلْمِينْ وعبيد وإكَّاوْنْ.

[63] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين"، لرحال بوبريك، (ص57).

وتوجد ضمن الفئتين الأوليتين اللتين تحتلان قمة الهرم الاجتماعي مستويات تراتبية أخرى: فداخل الفئة المحاربة: مغفري/حسان/عربي، وأما بالنسبة للزوايا: زاوي/مْرَابْطْ/مْرَيْبَطْ [64].

وهذه الفئات لكل منها وظيفته الخاصة كالآتي:

- **حسان**: (العرب)، وهي الطبقة العليا في السلم الاجتماعي وأعضاؤها هم أهل الشوكة، حياتهم تقوم على الغزو والحرب، ويعيشون من الغزو والمغارم التي يفرضونها على الأتباع والأغفار التي يأخذونها من قبائل الزوايا التي تقوم بتجارة القوافل.
- **الزوايا**: (الطْلْبَة)، هي الطبقة الثانية في السلم الاجتماعي، وهي قبائل مسالمة في الغالب ذات نزعة علمية ودينية تتولى وظائف الإمامة والقضاء، والفتيا والتدريس وقافلة الحاج، وتقوم كذلك بنشاطات التجارة وتنمية الأنعام وحفر الآبار.
- **اللحمة** (ازْنَاكَة): وهي الطبقة الثالثة، وأصل كلمة اللحمة من اللفظ: "الإستلحام"، الوارد في النص الخلدوني ويعني الدمج والإلحاق، وهو مصطلح هلالي مستخدم في شرقي البلاد الشنقيطية، وهي طبقة المجموعات المغلوبة وجلها من صنهاجة، وبعضها من عرب حسان الذين أخضعهم بنو عمومتهم في المعارك، وعملها محصور في تنمية المواشي المملوكة للزوايا وحسان، ومصطلح ازناكة مستخدم بمعناه القدحي في غرب البلاد.
- **الصناع**: (المعلمون)، فئة تمتهن الحدادة ولا ترجع إلى أصل واحد، فمنها العربي والصنهاجي والسوداني، ومن الصناع الأسر العريقة التي انتقلت من بيوتات عربية أو زاوية بفعل الحروب أو الخلافات أو الهجرات، وهذه الفئة أكثر ارتباطا بالزوايا نظرا لدورهم التجاري والاقتصادي.

---

[64] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين"، لرحال بوبريك، (ص151).

- **الزفانون:** (المغنون– الشعراء)، ويسمون في لهجة البربر: إيغَاوْنْ– مفردها: إيغْوِي– تحريف: الغاوون، أي صفة الشعراء المذكورة في القرآن الكريم، حرفتهم الموسيقى والغناء، وأصول بعضهم أندلسية أو عربية، وأغلبهم من الطوارق والسودان، ويرتبطون عضويا بطبقة أهل الشوكة (حسان).
- **الحراطين:** فئة تميل لونها إلى السمرة الداكنة أو السواد، ومنها من كان من الموالي أو العتقاء.
- **الأرقاء:** وهم مجموعات الرقيق الأسود التي انتقلت إلى الصحراء عبر تجارة القوافل[65].

ويعتبر التقسيم الاجتماعي السالف الذكر سائدا في المجتمع الذي نشأ فيه الشيخ سيدي المختار الكنتي وكان من نتاج حرب شَرْبَبَّة الكبرى.

وماتزال تلك الحرب الغامضة عقدة في نفوس المتطفلين على تاريخ البلاد وكبرائهم المصابين بحساسية إزاء العروبة والجهلة بخصائص الاجتماع في بلاد الإسلام، وبهزيمة إبْدَوْكَل تفكك شمل مختلف القبائل التي عاشت في ظلهم حيث جرى إخضاع حملة السلاح وتحويلهم إلى أتباع لقبائل أولاد الناصر وبني عمومتهم ولقبيلة كنتة من ذرية سيدي محمد الكنتي الكبير، أما القبائل والعشائر ذات النزعة الدينية والعلمية مثل (البوصاديين) فقد لاذت بالعزلة أو بالتجارة أو بهما معا[66].

وقد عاش الشيخ سيدي المختار الكنتي في مجتمع قبلي لا يخلو من كثرة الصراعات والنزاعات التي لا تكاد تنتهي.

---

[65] "تاريخ بلاد شنكيطي(موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربة القديمة" لحماه الله ولد السالم، (ص 15–16).

[66] " تحريم نهب أموال المعاهدين للنصارى" لمحمد عبد الله بن زيدان بن غالب البوصادي، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2012 من (ص13).

ومن الجدير بالإشارة أن هذا النموذج التراتبي لم يكن محصورا على المجتمع البيضاني، إذ أن المجتمعات المجاورة تتميز هي كذلك بسلم اجتماعي تراتبي مشابه كالطوراق والفِلَّان والسُّونُوكِي، بل إننا نجد هذا النظام التراتبي الثلاثي في مجتمعات أروبا وغيرها منذ القرون الوسطى، إجمالا تتسم هذه التراتبية الاجتماعية بالمرونة والحركية، فالمرور من مرتبة اجتماعية إلى أخرى عملية دائمة وخصوصا فيما يتعلق بالمجموعات التراتبية الثلاثة: حسان والزوايا وازْنَاكَة، أحيانا تنبذ بعض القبائل المحاربة حمل السلاح لتصبح في عداد الزوايا، وقد يحدث كذلك أن قبيلة تابعة تفلح في تجاوز وضعيتها الدونية بعد انتصار عسكري، ونخلص إلى أن هذا الصراع من أجل احتلال قمة الهرم الاجتماعي كان عملية دائمة ونشطة في المجتمع البيضاني[67].

2-عادات وتقاليد المجتمع الحساني:

بالنسبة لعادات وتقاليد المجتمع البيضاني تتميز بطابع البداوة والتحضر في آن واحد، فهو مجتمع بدوي مترحل بحثا عن مواطن الرعي والمياه، فمساكنهم قديما بسيطة متمثلة في الخيام لسهولة نصبها وتحويلها، والتي تصنع غالبا من وبر الإبل، وأثاث الخيمة عبارة عن سجاد وأواني صنعت من النحاس أو الخشب، وحاليا لم يعد يمارس الترحال إلا قلة قليلة من المجتمع الحساني من رعاة الإبل أو الغنم.

أما بالنسبة لسكان المدن فهم رحل في الأصل واستوطنوا المدن، وقد اختلفت مساكنهم حسب ظروف العيش لكل أسرة من الأسر، فقد بنوا ما يسمى (الكصور) و(الكصبة) لمواجهة هجمات القبائل المعادية. أما في العصر الحالي تطورت الهندسة المعمارية للمدن والبوادي، فلم يعد لها الطابع القديم، بل أصبحت مدنا حديثة تنافس كبريات المدن الأخرى كحاضرة كليميم وادنون والعيون والداخلة بجنوب المغرب، ومدن انواذيبو وانواكشوط بموريتانيا.

---

[67] "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين" لرحال بوبريك، (ص153).

ويتميز أفراد المجتمع الحساني بزيهم التقليدي المسمى (الدراعة) التي يلبسها الرجال، كما يتلثمون بلثام كبير بلون أسود أو أبيض ناصع، و(الملاحف) التي ترتديها النساء.

أما مشروباتهم من أهمها الشاي على الطريقة الصحراوية بماء المطر الذي يطلقون عليه (ماء الغدير) أو بمياه الآبار العذبة، ويغلى الشاي على الفحم، وقد يضاف إليه حليب الإبل مع بعض الأعشاب الصحراوية ويطلقون عليه اسم (الكَنْدْرَة)، كما أن لشرب الشاي طقوس وجلسة خاصة يعقدها كبار القوم من أعيان القبائل من كبار السن وغيرهم يتبادلون الأحاديث والآراء، وقد تكون جلسة شعرية وأدبية يظهر فيها كل منهم مهارته اللغوية والشعرية.

وللمجتمع عادة في إكرام الضيوف والتنافس في الاحتفاء بهم وتخصيص أماكن لراحتهم، وأول ما يقدم للضيوف الشاي ولبن البقر أو النوق والتمر وسمن الغنم المصنوع محليا والمحفوظ في جلد ماعز مدبوغ لحفظه من أشعة الشمس، وتقدم لهم أنواع من اللحوم لاسيما لحم الإبل أو الغنم و الضأن. كما أن للمجتمع الحساني عادات متميزة في الزواج، حيث يستمر الاحتفال بها ثلاثة أيام متوالية أو أكثر.

ويحتفل المجتمع الحساني كباقي المجتمعات الإسلامية بعيد الفطر والأضحى، وكذلك بذكرى المولد النبوي الشريف بإحياء ليلته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ مختلفة وبالمديح النبوي.

المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية:

أما بالنسبة للحالة الاقتصادية للبلد والمجتمع الذي عاش فيه الشيخ سيدي المختار الكنتي، فيفهم من كتاب "الطرائف والتلائد" الحياة العامة للزاوية ونظامها الأساسي.

كانت الزاوية المختارية في أزواد مستقرة في بئر أبو المرحان، سيسمى" أبو الأنوار" بعد دفن الشيخ سيدي المختار بالقرب منه، وقد تنتقل للبحث عن موارد رعوية لبهائم الزاوية أو بفعل ظروف خاصة كالحروب والصراعات القبلية والتي قد تطال الأنعام ولا سيما الإبل في مسارحها البعيدة، وتعتمد الزاوية على مصادر اقتصادية شبه ثابتة: المواشي، حيث كان الشيخ سيدي المختار يمتلك أعدادا كبيرة من الإبل لها رعاة محددون يرأسهم قيم بمثابة الوكيل، وكذلك التجارة نحو السودان وبها يتم تموين الزاوية بما تحتاجه من الحبوب، ثم إن قبيلة كنتة التي ينتمي إليها شيوخ الزاوية كانت تحتكر منذ القديم بعض أصناف التجارة وتسيطر على الممالح الكبرى مثل: تفازة، ومملحة إجَلْ"[68].

وكانت القوافل التجارية تصل غرب إفريقيا بشمالها، كما أن لشيوخ الطريقة القادرية الكنتية أملاكا عظيمة من أراضي وآبار، وبسبب ذلك كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر في الغرب الإفريقي من أجل الإشراف على تجارتهم أو مراقبة أملاكهم.

وعن سياسة الشيخ في التدبير الاقتصادي يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: " وأما سياسته رضي الله عنه للأموال في القيام بأسباب تثميرها وتنميتها مع القيام بما يجب فيها وينبغي بوجه تحار فيه قطا الأفكار وتتيه دونه مدارك النظر، فكان رضي الله عنه كثيرا ما يعمل في ذلك بنفسه الشريفة أزمان الشبيبة، فيسافر في ذلك إلى تَاوْدَنِّي غير ما مرة، وإلى الصحراء وانتهى إلى موضع ترى منه نخيل درعة، وله رضي الله عنه خبرة بتدبير وجوه التثمير، والرفق بالحيوانات الرفق الزائد بحيث يقوم على رعاة مواشيه بالتعقب

[68] " تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم، (ص 250).

والارشاد إلى غوامض ما لا يدركه إلا البصراء من خاص مصالح الماشية، فيقلدونه فيه فيكون غاية في الصلاح والتنمية"[69].

وبفهم من كلام سيدي محمد الخليفة الكنتي أن والده كان يهتم بتربية المواشي والعناية بها، كما عمل على تشجيع الأنشطة الاقتصادية لتنمية المناطق الخاضعة لنفوذه، وضمان موارد معيشة الساكنة، وله كذلك أساليب خاصة في مواجهة موجة الجفاف والقحط خصوصا أن تلك المناطق ذات مناخ صحراوي حار وجاف.

كما أعطى الشيخ رحمه الله عناية خاصة لإحياء الأرض من خلال غرس واحات النخيل وحفر الآبار في الفلوات وتأسيس المدن، وتأسى بذلك عدد من تلامذته وتلامذة ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي الذين تخرجوا من مدرسته الصوفية، مثل الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة[70] الذي بنى مدينة بُوتْلِمِيتْ بالغرب الموريتاني، ومحمد المختار ولد بْلَّعْمَشْ[71] الذي بنى مدينة تندوف، والشيخ ماء العينين بن محمد فاضل[72] الذي بنى مدينة السِّمَارَة.

---

[69] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة " للشيخ سيدي محمد الخليفة، (54/2).

[70] الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الشنقيطي، (ت1284هـ/1868م)، من كبار العلماء ومن أقطاب الطريقة القادرية الكنتية، تتلمذ على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي وابن الشيخ سيدي محمد الخليفة في أزواد، ثم عاد إلى موطنه فأسس زاويته هناك وألف العديد من الكتب كما نسخ عددا من كتب الشيخ سيدي المختار الكنتي وكتب ابنه، انظر: "أضواء على الشيخ عبد القادر الكنتي وانتشار طريقته" لعبد الباقي مفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، طبعة: 2014م، (ص395).

[71] محمد المختار بن بلعمش ، (ت 1287هـ/1870م)، فقيه وقاض من قبيلة تجكانت، ولد بزمور وتربى في منطقة الكبلة وبها أخذ العلم عن والده، ثم رحل إلى الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي وأخذ عنه العلم والطريقة القادرية، ونسخ بعض كتبه لما قدم عليه، وهو الذي بنى مدينة تندوف وأسكنها قومه سنة (1270هـ/1853م)، كما كانت له مكتبة ضخمة هناك، انظر: "الزوايا في المغرب"، منشورات وزارة الثقافة المغربية، طبعة: 2009م، (127/2).

[72] المصطفى بن محمد فاضل بن مامين الشنقيطي القلقمي، (ت 1328هـ/1910م)، من قبيلة القلاقمة من عرب شنقيط، ومن كبار العلماء والصوفية، ومن أقطاب الطريقة القادرية، بنى مدينة

وفي نفس الوقت كان هناك حضور تجاري قوي للأوربيين على السواحل الأطلسية لغرب الصحراء الإفريقية بغرض التجارة والمبادلات الاقتصادية لتسويق المنتجات الأوربية في المنطقة والحصول على المواد الأولية من الأسواق المحلية، وفي الجوهر إجراء دراسات استكشافية بغرض استعمار المنطقة والسيطرة على شعوبها، حيث باشرت الدول الاستعمارية غزو تلك المناطق للسيطرة على الموانئ والمناجم، وتصدى لذلك العديد من العلماء وأبرزهم الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي حذر السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله من ذلك، ونصحه ببناء الثغور مجاورة للسواحل، وكانت تحذيرات الشيخ سابقة لأوانها، فقد تم احتلال الجزائر بعد وفاته بسنوات ودخل الاحتلالين الإسباني والفرنسي للمنطقة من أجل السيطرة على الموارد الطبيعية والتحكم في الطرق التجارية، وواجه أبناءه وأحفاده الاحتلال الأجنبي فكريا وعلميا، وبقوة السلاح كذلك كما فعل المجاهد الشيخ عابدين بن سيدي محمد الكنتي[73] وأبناؤه كشَيَّاخْ وسيدي أبو بكر، وأبناء عمومته كالرَّايْسْ (بترقيق الراء) بن سيدي بابا الكنتي وغيره، واستشهد كثير منهم في مواجهة الاحتلال الفرنسي والإسباني.

السمارة سنة 1898م وأسس بها زاويته ومكتبته الضخمة التي تضم آلاف الكتب، له مؤلفات عديدة، منها: "نظم الحكم العطائية"، و "نعت البدايات وتوصيف النهايات"، وصار أبناؤه على نهجه في نشر العلم ومقاومة الاحتلال وأبرزهم ابنه الشيخ أحمد الهيبة ومربيه ربه وغيرهم، انظر: "الأعلام" للزركلي، (243/7).

[73] الشيخ عابدين بن سيدي أحمد الكنتي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، (ت1345هـ/1927م)، من العلماء ومن وجهاء قبيلة كنتة ومن أقطاب التصوف، حارب الاحتلال الفرنسي بجنوب المغرب والجزائر وأزواد وموريتانيا، وكبدهم خسائر فادحة، كما جاهد معه أبناؤه وأبناء عمومته واستشهد عدد منهم في أحد المعارك يقدر عددهم بحوالي 80 فردا ومنهم ابنه سيدي بادي وابن عمه الرايس بن سيدي بابا المختاري، وشارك ابنه شياخ في معركة أم التونس 1932م ولقبه الفرنسيون الشيخ عابدين بالمتمرد الثائر، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص113).

المبحث الرابع: الحركة العلمية:

شهدت بلاد البيضان ومنطقة السودان الغربي حركة علمية وثقافية رائدة بفضل ملوك وسلاطين دولة السنغاي التي حكمت من 1492م إلى 1591م[74]، وبعد الحملة العسكرية على امبراطورية السنغاي من طرف الدولة السعدية، وأراد المنصور الذهبي من تلك الحملة إخضاع السودان الغربي وإلحاقه بالإمبراطورية المغربية، وهو الأمر الذي تحقق سنة 1591م، فانهارت دولة السنغاي واستمرت الحركة العلمية في تلك المناطق بشكل نسبي بسبب أسر بعض علمائها ومنهم أحمد بابا التنبكتي(ت 1036هـ/1627م) الذي ولد في تنبكتو التي تمثل رمزا للحضارة الإسلامية ومجدها ومهدا للعلوم الإسلامية، ويعد من فقهاء المالكية ومن مؤرخي التراجم في السودان الغربي ومن أعلام تنبكتو، الذي أثر بمؤلفاته العديدة وعلمه الواسع في منطقته، كما كان تأثيره في المغرب الأقصى كبيرا، فقد تتلمذ عليه عدد من المغاربة وغيرهم، وألف مصنفات بلغت أكثر من ستين مصنفا حيث ألف بعضها أثناء فترة نفيه بمراكش، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية ، وفي نفس الفترة انهالت عليه الكتب النادرة فعكف عليها هضما وقضما، وبعد مدة بدأ يؤلف ما جادت به قريحته من المفاهيم والأفكار، فأنتج عدة مؤلفات في ميادين مختلفة تدل على نبوغه العلمي وسعة ثقافته، ومن أشهر مؤلفاته: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة حجرية عام 1898م، ثم وضع لها تكملة سماها "تكملة الديباج"، وقد حقق "نيل الابتهاج" الدكتور حماه الله ولد السالم، ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت لبنان سنة 2013م. وبعد الإفراج عن أحمد بابا التنبكتي هرع إليه الطلبة، فاشتهر بمراكش

---

[74] "مملكة السنغاي في عهد السيقيين" لعبد القادر زبايدية، مجلة الذاكرة: العدد 5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع–الجزائر، (ص94).

وذاع صيته بها إلى أن عاد إلى السودان الغربي فمكث بها إلى أن توفي بها رحمه الله[75].

وإذا سلمنا أن القرن 5هـ/11م كان يمثل بدية لظهور الإسلام وانتشاره في الغرب الإفريقي، فقد صاحبه كذلك ظهور حركة علمية شاملة لعموم السودان الغربي وبلاد الأزواد وشنقيط، وكانت تنبكتو وشنقيط وولاتة وغيرها من الحواضر شواهد حية في التألق والتفوق العلمي والثقافي، ويشهد على ذلك عشرات المكتبات والخزانات التي تحوي آلاف المخطوطات ونفائس الكتب.

وقد انتشرت مدارس علمية في قبائل الطوارق وخصوصا قبيلة تدعى "كل السوق" قرب مدينة تنبكتو، غير أن دورها محدود جدا، ودرج الناس على تسمية تلك المدارس بالمحاظر والزوايا، والزوايا اسم مشتق من الانزواء، غير أن الكنتيين كسروا هذا الاصطلاح بفضل المد العلمي الهائل الذي امتد في عموم صحراء الغرب الإفريقي إذ كانت محاضرهم بحق منارة فكرية وحضارية اهتدى بنورها خلق كثير.

ويجمع المؤرخون على الدور المميز الذي لعبته قبائل كنتة في صحراء مالي والنيجر وما جاورها بإرساء الثقافة العربية الاسلامية وتأسيسها لسلطان الحرف العربي في بيئة لم تعرف سوى لهجات إفريقية متباينة.

وتعتبر زاوية كنتة في إقليم توات بصحراء الجزائر التي أسسها سيدي أحمد بن الرقاد الكنتي[76] لها دور علمي كبير في المنطقة، وقد كرس أعلامها الفكر الصوفي المستنير

---

[75] انظر: "جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي، أحمد بابا التنبكتي أنموذجا"، د.عبد الرحمان محمد ميكا، الجامعة الإسلامية–النيجر، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، مجلة العلماء الأفارقة، السنة الأولى: شهر صفر 1441هـ الموافق لشهر أكتوبر 2019م، العدد الأول: (ص204).

[76] سيدي أحمد بن سيدي محمد الملقب بالرقاد بن سيدي أحمد الفيرم، (ت بعد 1022 هـ / 1613م)، إمام عالم في المنقول والمعقول، ومحدث وأديب وفقيه ونحوي، ولد بواد نون (جنوب المغرب) ونشأ

الذي مد جذور التنوير والعلم في آفاق الغرب الإفريقي، وبذلك سطعت شمس الكنتيين الذين حولوا تلك الربوع القاحلة إلى مناطق جذب علمي متميز، وذلك بفضل الشيخ سيدي المختار الكنتي وذريته وبفضل أخواله وأبناء عمومته من عشيرة أولاد سيدي المختار الشيخ خصوصا أسرة جده لأمه عبد القادر الملقب سيدي بادي[77]، وبفضل علماء الرقاقدة الكنتيين.

وقد عرفت المحاظر الكنتية بالتنافس في طلب العلم وبشغفهم في اقتناء المخطوطات، ولعل أبرز الأسباب التي امتاز بها الكنتيون ومريدوهم بامتلاك هذا الكم العائل من المخطوطات حركة التأليف التي عرفوا بها، فقد ألفوا وصنفوا في التاريخ والفقه والحديث والتفسير والتصوف وغيرها من العلوم.

وأصبح مصطلح المحظرة يطلق على المدارس المنتشرة في تلك الربوع، والمحظرة ظاهرة تقليدية للتعليم في المجتمع الحساني، وتكوين الطلبة في المحاظر عادة ما يبدأ بالشعر والنحو والمتون بعد القرآن الكريم، وما يلزم معرفته بعد بلوغ الطالب من فرض العين من عقيدة أو فقه أو غيرها من العلوم الأولية التي يتلقاها الطالب من علوم البيان والمنطق وعلم الحساب. ولابد للطالب أن يلتزم بدراسة كتاب واحد حتى يكمله، ويمنع الخلط بين عدة كتب في نفس الفترة، كما يعتمد الطلبة على وسيلة اللوح، ويقوم بحفظه

بوادان (مدينة بموريتانيا)، ودرس بها الفقه والعلوم الشرعية، ثم انتقل إلى توات (جنوب الجزائر) واستقر بها، أخذ عن والده، وعم أبيه سيدي المختار الشيخ بن سيدي عمر الشيخ، وابن عمه سيدي الأمين الأزرق، وخلف والده على رأس الطريقة القادرية الكنتية، وهو الذي بنى زاوية كنتة بتوات، ، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 143).

[77] سيدي عبد القادر (الملقب بسيدي بادي) بن سيدي محمد بن سيدي علي بن سيدي محمد بن سيدي المختار الشيخ بن سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي الكنتي، جد الشيخ سيدي المختار الكنتي لأمه والذي قام بتربيته بعد وفاة والديه، وهو من أهل العلم والصلاح، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 51).

ومراجعته على الشيخ استعدادا لحفظه بعد فهمه وإتقانه على أن يقوم بوظيفة التكرار، والمقصود به المراجعة على أن تستمر دون انقطاع.

أما بالنسبة للكتب المعتمدة في المنهاج المحظري يفتتح الطالب تكوينه بالعقيدة خصوصا الكتب المعتمدة في تلك الربوع، ومنها: "إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة" للعلامة أحمد المقري[78]، إضافة إلى كتب العقيدة الأخرى مثل: "أم البراهين" و"الكبرى" للسنوسي[79]، وكل هذه الكتب في العقيدة الأشعرية. ثم يليها كتب الفقه المالكي، ويبدأ الطالب بالمختصرات والمتون ثم ينتقل إلى أمهات الكتب. أما في الأصول فيدرس في المنهاج المحظري "ورقات إمام الحرمين" التي نظمها الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي رحمه الله. وفي النحو والصرف تشكل "ألفية ابن مالك" أساس الدرس.

وقد امتازت المحاظر في المجتمع الحساني بتلقين النحو واللغة العربية بشكل لا نظير له في العالم الإسلامي بتعزيز قواعد النحوية، وذلك باختبار الطلاب كل يوم بواسطة قصائد الشعر الجاهلي، حيث يعمل الشيخ على شرح كل بيت منتقى من قصيدة معينة شرحا وافيا، كما يفرض على الطلبة إعراب البيت الشعري أو آية من القرآن الكريم شفويا،

---

[78] شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني القرشي، (ت1041هـ/1631م)، من أعلام الجزائر أثناء عهدها العثماني، نشأ بتلمسان وطلب العلم فيها، ومن أهم شيوخه عمه سعيد المقري، وانتقل إلى فاس في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور، وبعد وفاة أحمد المنصور عينه السلطان زيدان الناصر بن أحمد مفتيا وإماما لمسجد القرويين 1618م، ومن مؤلفاته: "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"، و"الثنا في العفو عمن جنى"، انظر: "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي" لناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، طبعة: 1999م، (ص327).

[79] أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الشريف الحسني، فقيه أشعري من متكلمي تلمسان (ت895هـ/1490م)، تلقى علمه في مسقط رأسه بتلمسان، وعلى يد سيدي عبد الرحمان الثعالبي، ودرس الفقه المالكي في جامع القرويين بفاس، وله مؤلفات في علم العقيدة، من أشهرها: "العقيدة الكبرى"، و"أم البراهين"، انظر: "ذيل وفيات الأعيان" المسمى (درة الحجال في أسماء الرجال) لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق: د.محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث (القاهرة– مصر)، المكتبة العتيقة– تونس، الطبعة الأولى: 1391هـ– 1997م، (141/2).

كما يتبارى الطلبة ويجتمعون حسب مستواهم اللغوي والنحوي، ضعيفا كان أو متوسطا أو جيدا، فتكون فرصة للتدارس والمناقشة والإفادة من معاجم اللغة العربية والحكايات والنوادر والمقامات الأدبية، ولاشك أن لهذا المنهج دور كبير في حفظ اللغة العربية سليمة من اللحن في النطق والتعود على الإعراب. كما اشتهرت بعض المحاظر المحلية بالتخصص في علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان، منها محضرة المختار بن بونا الجكني[80]، كما تداول العلماء "القاموس المحيط" للفيروز أبادي واعتمدوا عليه في لغتهم، بل كان يحفظ جل المشايخ وطلبة العلم العديد من مادته العلمية.

وأساليب الحفظ في المحظرة المعتمدة في المحظرة فإن الطالب يتلقى الدرس عن شيخه إملاء ومشافهة، ويكتبه بالوسيلة التعليمية المسماة باللوح ثم يقوم بقراءته من الصباح الباكر إلى زوال النهار، ثم يعاود قراءته بعد الظهر، فإن حفظه وأتقنه انتقل إلى مراجعة الدرس الذي قبله من أجل ترسيخه وعدم نسيانه، ويظل الطالب يراجع هذه الدروس كلها مادامت لم تغسل من اللوح، ويستمر الطالب على هذا النحو من ظهر يوم الجمعة إلى زوال يوم الأربعاء، على أن يكون يوم عطلة واستراحة للطالب.

وقد قام الشيخ سيدي المختار الكنتي ببناء العديد من المحاظر في المدن والبوادي، وكان ينفق عليها من ماله ويسهر على استمرار دورها العلمي بتوفير جميع الظروف الملائمة للطلبة تشجيعا لهم في طلب العلم.

---

[80] المختار بن بونا الجكني، من كبار علماء شنقيط (ت 1220هـ/1805م)، وتوفي بعد مائتي عام من حياته، وله باع في النحو والمنطق والبلاغة وأصول الفقه، وإليه المرجع في أغلب أسانيدها، وقد جمع رحمه الله بين التدريس والتأليف فكانت صفاته العلمية تمثل نموذجا مثاليا لشيخ المحظرة، وكان له خلاف شديد مع الشيخ سيدي المختار الكنتي، فتغير ذلك إلى مودة وملاطفات، وقال في حق الشيخ سيدي المختار الكنتي: "جئته وقد انتهيت من تحصيل العلم فردني مبتدئا"، وله مؤلفات، منها: "سلم الطالبين إلى قواعد النحويين"، و"نظم الجمل"، انظر: "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، والكلام على تلك البلاد تحديدا وتخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم ومل يتعلق بذلك لأحمد بن الأمين الشنقيطي، الشركة الدولية للطباعة– مصر، الطبعة الخامسة: 1422هـ– 2002م.

وينضاف إلى ذلك دور الشيخ رحمه الله في نشر الطريقة القادرية الكنتية المختارية نسبة إليه، لأنه أعاد بعثها وإحياءها من جديد، لما لهذه الطريقة الصوفية من دور في ازدهار العلوم بشتى أنواعها، وقبل الحديث عن دوره لا بد من الحديث عن الطريقة القادرية الكنتية ونشأتها ومبادئها وإشعاعها العلمي والروحي في شمال إفريقيا، ودخولها إلى المغرب، وأهم وأعلامها، كالآتي:

المطلب الأول: الطريقة القادرية: نشأتها وامتدادها الإفريقي:

1- نشأة الطريقة القادرية:

كما هو معروف وشائع للجميع فإن اسم القادرية مشتق من اسم الإمام عبد القادر الكيلاني مؤسس هذه الطريقة، وواضع أصولها وقواعدها، فالقادرية نسبة مشتقة من الاسم الأول للإمام عبد القادر[81].

وتنسب هذه الطريقة للشيخ أبو صالح سيدي عبد القادر الجيلاني، وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو حسني النسب، وقد ولد 470 هـ/ 1072 م في قصبة من بلاد جيلان أيام المستنصر بالله العباسي بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله العباس، وإقليم جيلان يحده من الشمال بحر قزوين، وجنوبا قزوين وأذربيجان، وشرقا باذندران وتقع وراء طبرستان، وهناك من يقول أنه ولد ببلدة الجيل[82].

---

[81] "الطريقة القادرية أصولها وقواعدها، ويليه: نزهة الخاطر الفاتر في ترجمة الشيخ عبد القادر"، لميعاد شرف الدين الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2014م، (ص11).

[82] "الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإفريقية، من إعداد الباحث: علي بدوي علي سالمان، سنة: 2013 م، معهد البحوث والدراسات الإفريقية بالقاهرة (مصر)، (ص17).

وقد وفد على بغداد علم 1095 هـ، وله ثماني عشرة سنة، وعاش من العمر إحدى وتسعين عاما وتوفي ببغداد 1165 هـ، وقد أقبل على شتى العلوم والمعارف يقتات منها ويسبر أغوارها بذكائه الخارق ودأبه المتواصل، وسرعان ما اكتملت له موسوعية المعرفة والتبحر في كل العلوم وعلوم الشريعة خاصة بصورة أذهلت عقول أقرانه، فطارت شهرته في مختلف الأرجاء وشدت إليه الرحال في بغداد تستقي من فيوضاته العلمية النادرة، وكان يتكلم في ثلاثة عشر علما، وكان يقرأ القرآن بالقراءات العشر، وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، وكانت فتواه تعرض على العلماء في العراق فتعجبهم أشد العجب فيقولون: سبحان من أنعم عليه، وهكذا أخذ الإمام عبد القادر طريقه في العلوم نحو القمة حتى تربع فصار شيخ وحده، وقد تلقى الطريقة من حماد الدياسي، وله عدة مصنفات في التصوف، منها: " الغنية لطالبي طريق الحق"، و"الفتح الرباني"، و"فتوح الغيب"[83].

فالشيخ عبد القادر هو أحد أئمة التصوف البارزين، وطريقته من أول الطرق، فقد أسس منهاجا يتدرج به السالك من مجاهدات وأذكار مصحوبة بالفقه بالدين وهو الأساس عند كل أهل التصوف[84].

2- مبادئ الطريقة القادرية:

أما عن مبادئ الطريقة القادرية، يقول رحمه الله في كتابه "الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل": " فالذي يجب على المريد المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين،

---

[83] "الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإفريقية، من إعداد الباحث: علي بدوي علي سالمان ، (ص17).

[84] "إتحاف الأكابر في سيرة ومناقب الإمام محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني" لعبد المجيد بن طه الدهيبي الزعبي الجيلاني، دار الكتب العلمية (بيروت- لبنان)، طبعة: 2009م، (ص11).

الصحابة والتابعين، والأولياء والصديقين، على ما تقدم ذكره وشرحه في أثناء الكتاب، فعليه التمسك بالكتاب والسنة والعمل بها أمرا ونهيا، أصلا وفرعا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله عز وجل، ثم الاجتهاد حتى يجد الهداية، والإرشاد إليه والدليل، وقائدا يقوده، ثم مؤنسا يؤنسه، ومستراحا يستريح إليه في حالة إعيائه ونصبه وظلمته عند ثوران شهوته ولذته وهنات نفسه وهواه المضل، وطبعه المجبول على التثبط والتوقف عن السير في الطريق، قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[85]، وقال الحكيم: من طلب وجَدَّ وجد، فبالاعتقاد يحصل له علم الحقيقة، وبالاجتهاد يتفق له سلوك الطريقة[86].

وتعتبر الطريقة القادرية من الطرق الصوفية الأولى التي أسست وقتها نظاما للتربية الروحية القائم على نهج سلوك السلف الصالح المبني على التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما، والإخلاص ومخالفة النفس، وإصلاح القلب، والتوكل على الله عز وجل، والتوحيد له، مع رعاية القلب عن الالتفات إلى شيء سوى الله، وغيرها من المبادئ التي تسمو بالنفس وترقى بها إلى أعلى المقامات[87].

---

[85] العنكبوت: 69.

[86] "الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل" لعبد القادر بن موسى بن عبد الله، محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، تحقيق: أبو عبد الرحمان صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان)، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م، (277/2).

[87] "جنة المريد دون المريد للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي"، تحقيق: محمد المهداوي، الناشر: الرابطة المحمدية للعلماء، طبعة: 1433 هـ - 2012 م، (121/1).

3- دخول الطريقة القادرية إلى القارة الإفريقية وارتباطها بالكنتيين:

تعد الطريقة القادرية من أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب السنة والجماعة، وقد انتشرت انتشارا واسعا في كل البلدان الإسلامية خاصة في غرب القارة الإفريقية حيث أدخلت في جميع المناطق، وكان لها أكبر عدد من الأتباع وهي أوسع الطرق الصوفية، وقد دخلت إفريقيا الغربية في القرن 15م بواسطة جماعة من المهاجرين كانوا يتخذون واحة توات بجنوبي غربي المغرب مركزا لهم، ثم انتقل هؤلاء إلى ولاتة بجنوب شرقي موريتانيا فجعلوا منها أول مركز لطريقتهم[88].

ويرجع الفضل في انتشار الطريقة القادرية في غرب إفريقيا والصحراء الكبرى إلى قبيلة كنتة العربية التي كانت ولا زالت من أهم قبائل الزوايا في تلك البلاد[89].

ولقد تقمص كنتة القادرية مثلما تقمصتهم وأصبح اسمهم مرادفا لها، فقد عملوا على نشرها في الأماكن التي تواجدوا فيها، وكان مركزها القيادي في أزواد بصحراء مالي، فقد عرف الكنتيون طريقان للقادرية: إحداهما البكائية نسبة إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي بودمعة، والأخرى المختارية نسبة إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي والتي تلقاها سيدي عمر الشيخ[90] عن محمد بن عبد الكريم المغيلي[91]، وكلا الطريقتين عن سيدي عمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي بودمعة[92].

---

[88] "انتشار الإسلام في إفريقيا" لمحمد علي الهمشري، والسيد أبو الفتوح وآخرون، دار أركان (الرياض)، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م، (ص62).

[89] "الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الاسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا"، لعزيز بطران، مجلة البحوث التاريخية: العدد الثاني، يوليوز 1981م، مركز جهاد الليبيين، (ص313).

[90] الابن الأصغر للشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي، وهو جد كنتة الشرق، خلف والده على رأس الطريقة القادرية الكنتية البكائية، وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ولازمه وتبعه في كل جولاته الداعية لنشر الدين والإصلاح، (ت960 هـ / 1553 م)، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص32).

أما الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ذكرت مراجع أنه كان قادري الطريقة رغم أنه لم يترك فيها تأليفا، وذهب دارسون إلى أنه هو من تفضل بتصديرها إلى بلاد السودان الغربي مثل: كَانُو، وكَاوْ، وكَاتَسِينَا، وبلاد النيجر ومالي، ولذلك تعد أقدم طريقة تتسرب على هذه البقاع، لا بل هناك من يرى أن كثيرا من علماء تنبكتو من معاصريه درسوا أيضا هم أيضا التصوف، ولعل انتشار هذا العلم له صلة بالأدب الأندلسي والمغربي الذي كانت ثقافة تنبكتو تضرب بجذورها فيه، فقد ذكر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله أن الطريقة القادرية دخلت إلى إفريقيا الغربية في القرن 9هـ / 15م على أيدي مهاجرين ولم يسم المغيلي منهم[93].

والملاحظ أن مناطق شنقيط ظلت مركزا للتصوف منذ بث فيها المغيلي هذه الطريقة بواسطة تلميذيه الشيخين أحمد الكنتي والشيخ عمر ابنه، ولعل القبائل الكنتية عملت في سبيل نشر الإسلام عبرها، فإذا هي تسري في القبائل الصحراوية سريان النار في الهشيم، فعمت تنبكتو وغينيا والسنغاي والسنغال، اتخذت الأسرة الكنتية من ولاتة مقرا لها، ويظن أن أحد شيخي الطريقة سرها عن الإمام حيث كان في توات، ويرى جون هنويك أن لقاءً تم بين المغيلي والإمام السيوطي[94] (ت911هـ/1505 م) في القاهرة والشيخ عمر معه

---

[91] محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: مفسر وفقيه وعلامة من أهل تلمسان، اشتهر بمناوأته لليهود، ورحل إلى السودان وبلاد التكرور لنشر أحكام الشرع وقواعده، وتوفي في توات، له كتب منها: (البدر المنير في علوم التفسير)، (ت 909 هـ / 1503 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: محمد السمان، (216/6).

[92] "الفكر الصوفي عند الشيخ سيدي المختار الكنتي: (1442- 1226 هـ)، القصيدة الفيضية نموذجا"، رسالة لنيل شهادة الماستر، من إعداد الباحثة: زينب لمصادفة، قسم اللغة العربية، سنة: 2011م، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، (ص45).

[93] "شرح التبيان في علم البيان" لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق: أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان)، طبعة: 2010 م، (ص62).

[94] عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو 600 مصنف، نشأ في القاهرة يتيما، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه

وهما يقصدان الحج، فكان أول ما فعله السيوطي أن لقن المغيلي أوراد الطريقة، ثم سرعان ما مرر المغيلي الأوراد إلى الشيخ عمر الكنتي، وقد تولدت منها الطريقة التيجانية، لأن سيدي أحمد التيجاني[95] كان ينسب إلى القادرية عندما دخل إلى فاس، ولعل الطريقتين كانتا حافزا لمحاربة الكافر والمغير[96].

ولعل المغيلي كان يتشرب من الطرائق الصوفية ويترجم أهم سلوكها إلى الواقع العملي، ولذلك صرح جميع الذين كان لهم اهتمام بحياته بأنه لم يترك مؤلفا في المجال، ولكننا نرى أن سلوكه ومواقفه وبعض مواضيع مؤلفاته لها مساس بمعارف صوفي لم يفصح عن طريقته، أما كتيبه "عمل اليوم والليلة" فهو يحوي إشارات إلى الشاذلي وابن عطاء الله يمكن أن تدفع إلى الاعتقاد بميله إلى الطريقة الشاذلية[97].

وقال الدكتور حماه الله ولد السالم: " وتقص الرواية الكنتية الشائعة أن سيدي عمر الشيخ كان أول من جاء بالورد القادري إلى كنتة. إن هذه الرواية الواردة في الإرشاد (المنة في اعتقاد أهل السنة)، والتي نقلها أيضا الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي في

في روضة المقياس على النيل، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي، من كتبه: (الإتقان في علوم القرآن – ط)، (ت 911هـ-1505م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الجلال السيوطي، (301/3).

[95] أبو العباس أحمد التيجاني، متصوف ومؤسس الطريقة التيجانية من أصل جزائري من قرية عين ماضي، (ت1230هـ/1815م)، رحل إلى فاس واستقر بها إلى أن توفي بهان انظر ترجمته في: "روضة المحب الفاني فيما تلقيناه من سيدي أبي العباس التيجاني" لمحمد بن المشري السباعي السائحي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2018م، (ص9).

[96] "شرح التبيان في علم البيان" لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق: أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان)، طبعة: 2010 م، (ص 63).

[97] المصدر نفسه، (ص63).

"الطرائف" تقدم أن المغيلي كما لو كان أول شيخ للقادرية في البلاد الموريتانية، فهل كان المغيلي قادريا بالفعل؟"[98].

وعند الرجوع إلى فهرس شيوخ المغيلي ضمن كناش يحوي أحزابه وأوراده يتضح بجلاء أنه لم يكن منتميا إلى القادرية، بل كان شاذلي الطريقة بشكل لا مراء فيه[99].

أما الصلة الطرقية والفكرية عموما بين المغيلي والسيوطي فممكنة بحكم المنزع الصوفي الواحد وهو الطريقة الشاذلية، ثم بحكم المعاصرة والتي أفضت إلى مراسلات ومشاعرات بين الرجلين لا سيما بعد أن صنف السيوطي في تحريم المنطق ورد عليه المغيلي بأبيات شعرية يشنع فيها مع السيوطي تحريمه للمنطق، بعد أن ألف فيه المغيلي رجزه المشهور والذي كان رائجا في المدارس الصحراوية السودانية[100].

والمهم في الأمر أن سند سيدي عمر الشيخ كان شاذليا فقط، أو أن سند حفيده الشيخ المختار الكبير وهو السند القادري قد اختلط لدى الناسخين بالأسانيد الشاذلية لسيدي عمر الشيخ ثم لمشايخ كنتيين آخرين[101].

والراجح أن القادرية والشاذلية كانتا قائمتين في المدرسة الكنتية، لكن اختلط سند القادرية الأصلي بالسند الشاذلي التبركي، ومع ذلك ظلت الزاوية الكنتية بأزواد تنشر الورد القادري فقط، مع التوجهات وللأحزاب القادرية الأصلية أو تلك التي ألفها الشيخ سيدي المختار وابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة، وانتقلت عنهما إلى تلاميذهما في الإقليم، تعود إلى عهود تكامل كنتة في أزواد قادمين من الشمال إلى فترات الجدب والقحوط في النطاق

---

[98] "تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم، (ص248).

[99] المرجع نفسه.

[100] المرجع نفسه ،(ص249).

[101] المرجع نفسه، (ص249).

الشمالي للصحراء أوائل القرن 18م، وتقول الرواية الواردة في "الغلاوية عن ذلك كان أعوام مجاعة تسمى كفكافة أي سنة 1130 هـ/1718م[102].

أما سيدي عمر الشيخ وقع له مع الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي امتحان وتفاوض في العلم، وذلك حين لقي الشيخ المغيلي متوجها إلى المغرب الأقصى برسم الدعوة إلى الله، فاعترف الشيخ محمد بن عبد الكريم له بالمعرفة والدين، فقال له: من أين أقبلت يا فتى؟، قال: من المغرب الأقصى، وهو مسقط رأسي ومقر إقامتي، فغير ابن عبد الكريم وجهته، وقال له: إن أرضا يأتي منها مثلك في حداثة سنك لا تحتاج إلى مثلي، ثم أهدى له مترجمنا كل ما يملك، وطلب منه الصحبة لما رأى من جلالته ومهابته، فأجابه الشيخ بالقبول قائلا، بشرط أن لا تفارقني إلى أن أموت أو تموت، فأجابه عمر الشيخ: بنعم، وقال: وأنا لك عبد خادم ما بقيت متمسكا بعقلي. فخرج معه بالتجول مرة ثانية برسم الدعوة إلى الله وله معه المشاهد المشهورة والأخبار، وقد بلغ أرض الشام وأرض بكر ووائل، حج برفقة الشيخ محمد بن عبد الكريم ثم عاد إلى أرض توات، ومكث معه قيل 25 عاما، وقيل 30 عاما، وبعد وفاة ابن عبد الكريم سنة 909 هـ / 1503م عاد مترجمنا إلى مسقط رأسه، ثم رحل منها إلى وادي نون وبها حط عصا الترحال، وقد ظهرت وسطعت أنواره. ولما حضرت الوفاة شيخ مترجمنا محمد بن عبد الكريم المغيلي، جمع تلامذته وولده عبد الله، ودعا لهم بالخير والبركة، وأخبرهم أن أجله قد دنا، وقال لهم: من أراد مني خيرا أو سرا أو علما ظاهرا أو باطنا فليطلبه من التلميذ الناصح والطود الراسخ والصدر الفسيح، الشيخ الشامخ، الإمام العلامة عمر الشيخ، فقد احتوى على ما عندنا، وتمكن في مقامنا فاعرفوا له ذلك، ولا تنقصوه حقه فإن منزلته عند ربه عالية،

[102] "تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي" لحماه الله ولد السالم ، (ص249).

وأعطاه عكازته وقلنسوته وسبحته وسجادته على يد الحاضرين، ووصى ابنه عبد الله بخدمة جناب عمر الشيخ والأخذ عنه، وولاه تجهيزه من غسل وكفن وصلاة ودفن[103].

ويقول بول مارتي: " إن كنتة هم المؤمنون بالطريقة وناشروها، أي ناشروا السلسلة كما يقال في منطقة النيجر، وفي هذا المعنى فقدت السلسلة معناها العام الذي يعني السلسلة الصوفية التي تنطلق على الخلافة أو تعاقب الدعاة لكل الطوائف التي تختص بالطريقة القادرية[104].

وسيكون من نافلة القول أن نبحث هنا عن أصول القادرية البعيدة، لأنها لا تتجاوز الإطار الكنتي، وفضلا عن ذلك سبق الكلام عنها في العديد من المؤلفات الفرنسية والأجنبية، إذ سنتناول القادرية من حيث ظهورها في إفريقيا الغربية، والغالب على الظن عن طريق محمد بن عبد الكريم المغيلي[105].

ويبدوا أن الشيخ سيدي أحمد البكاي هو أول من حمل هذا الورد، ولكن لا يبدوا أنه عمل على نشره، ولكن ابنه سيدي عمر الشيخ الذي كان التلميذ الوفي للمغيلي ورفيقه في السفر، هو الذي سيصبح الناشر المتحمس للطريقة القادرية، وبعد عودة المغيلي إلى الشمال، تقلد المذكور منصب الرئيس الأعلى للطريقة، ونعثر على اسمه في سلسلة القادرية الصوفية مباشرة بعد المغيلي الذي كان نفسه تلميذ السيوطي، وعن طريق هذه الأسماء ينتسب فرع البكائية للسلسلة الكبيرة والمشتركة لقادرية المشرق والمغرب، ويعود المجد التاريخي إلى الشيخ سيدي عمر الشيخ، وقد خلف الشيخ سيدي عمر الشيخ على

---

[103] "الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر" لمحفوظ بن ساعد بوكراع السطيفي، دار الكتب العلمية (بيروت– لبنان)، طبعة: 2016 م، (ص331).

[104] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص141).

[105] المصدر نفسه، (ص142).

رأس الأخوية القادرية البكائية الجديدة ابنه البكر سيدي أحمد الفيرم "الأثرم" الذي عاش في النصف الأول من القرن 16م[106].

وقد خلف سيدي أحمد الفيرم ابنه البكر الشيخ سيدي محمد الرقاد[107]، وقد خلف الشيخ الرقاد ولده الشيخ سيدي أحمد الذي نشأ لدى قبيلة تجكانت، أي قبيلة أمه، وقد ارتاد معظم المناطق التي تقطنها كنتة محاولة منه إنعاش الروابط التي تشدها إلى بعضها بعضا، وهو الذي بنى زاوية توات[108].

وقد خلف الشيخ سيدي أحمد ابنه سيدي علي، وقد كان سيدي علي قطب الوقت خلال رئاسته الدينية (1652-1689م)[109].

وقد خلف سيدي علي ابنا أخيه الاثنان وهما: ابنا سيدي عمر بن سيدي أحمد، فكان الأول الشيخ سيدي أحمد الخليفة (ت1693م). ثم جاء من بعده الشيخ سيدي الأمين، الملقب بذي النقاب، أي صاحب اللثام (المتوفى 1717م)[110].

وقد خرجت السيادة القادرية من بعده من القبيلة وانتقلت إلى أجنبي، وهو شريف من التكرور، وهو سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب، وسيدي علي هو جد الفخذ الزاوي الصغير لقبيلة أهل سيدي علي عاش في ضواحي تنبكتو على هامش كنتة، وتحت تبعيتهم الكلية المعنوية والدينية[111].

---

[106] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص142).

[107] المصدر نفسه، (ص 142).

[108] المصدر نفسه، (ص143).

[109] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص146).

[110] المصدر نفسه، (ص147).

[111] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص149).

وقد اشتهر سيدي علي في عصره بأنه قام بالعديد من الكرامات، وقد مات في 1757م، وآلت سيادة القادرية بعد سيدي علي إلى قبيلة كنتة، ولكن ليس في فخذ الرقاقدة، بل في فخذ أولاد الوافي على يد الشيخ سيدي المختار الكبير[112].

وبعد الشيخ سيدي المختار الكبير المتوفى عام 1811م، خلفه ابنه الشيخ سيدي محمد (ت 1826م)، وقد خلف الشيخ سيدي محمد ابناه الكبيران، أولا: الشيخ سيدي المختار الصغير (ت 1847م)، ثم الشيخ سيدي البكاي (ت 1865م)[113].

وابتداء من الشيخ سيدي البكاي تناثرت السلطة، فقد كان ابن أخيه النتيني، ثم ابنه المختار (ت 1878م)، ثم ابنه الثاني عابدين (ت 1889م)، عبارة عن الشخصيات السياسية والدينية الأكثر شهرة[114].

4- الدور التربوي للقادرية الكنتية:

تعتمد هذه الطريقة في برنامجها التربوي وردا خاصا يستمد عناصره التكوينية مما خلفه مؤسسها الشيخ عبد القادر من أذكار مأثورات وصلوات على النبي المختار ﷺ، وقد ساهمت هذه الأوراد والأذكار بنصيب وافر في تهذيب النفوس والتمسك بالدين، فبمحافظة المريد على قراءة الورد القادري يحافظ على الصلوات المفروضة وهي مزية عظيمة وأي مزية، كما يساهم في جمع المريدين على كلمة الله واتباع السنة النبوية، والتحبيب في الله بين المؤمنين والتعاون على البر والتقوى[115].

ويورد كتاب "الطرائف" المحظورات المفروضة على أتباع الطريقة الكنتية البكائية: " من المحظور علينا خلافا لما يجري في بعض الأخويات أن نترك أنفسنا لألعاب الشعوذة

---

[112] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 150).

[113] المصدر نفسه، (ص150).

[114] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص150).

[115] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (122/1).

والممارسات التظاهرية في الزهد والغيبوبات والرقص، والصراخ في الثناء على الله بإفراط وإلى التأوهات السخيفة، والنوبات المعيبة"[116].

وساهم الدور الذي أناطه الدعاة الكنتيون بأنفسهم في تثبيت دعائم الطريقة القادرية البكائية أثناء تنقلهم بين بلدان إفريقيا لنشر الإسلام، وذلك بتلقينهم للقرآن والعلوم الإسلامية وإعطاء الورد، مما ولد لديهم أتباعا وتلاميذ كثر، إذ عرفت هذه الأسرة تنقلات عديدة من توات إلى الحوض والساقية الحمراء، ومنها إلى ولاتة ثم إلى أزواد شمال مدينة تنبكتو، ثم قرية بُولَنْوَار[117].

إن من أعظم الطرق التي استظلت بها منطقة شاسعة من الصحراء والسودان الطريقة البكائية الكنتية، فكانت شجرة وارفة الظلال تفيأ بظلالها خلق كثير، منتسبة في سندها الصوفي إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، وفي عرقها إلى عقبة بن نافع الفهري الفاتح الإسلامي الشهير، ويهدف الكنتيون من وراء انتسابهم هذا إلى دعم وتزكية استمرارهم لما كان قد بدأه هذا الفاتح من دعوته للإسلام، وكان بالفعل هذا هو عمل الدعاة الكنتيين الذين نشروا العلم والتصوف بين القبائل الصحراوية والزنجية على حد سواء تحت رداء القادرية[118].

المطلب الثاني: تجديدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي وسنده الصوفي

1- تجديدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي:

بلغت الطريقة القادرية الكنتية أوجها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي جدد الطريقة وجمع شتاتها، وأعاد اسم "كنتة" إلى الازدهار بصفته زعيما دينيا بفضل الورد

---

[116] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص152).

[117] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص126).

[118] المصدر نفسه، (ص124).

القادري ونشر الدين الإسلامي في المنطقة، وزعيما سياسيا بقيادته "كنتة" بأزواد (شمال مالي) وجعلها مستقرا لهم، فقد استطاع هذا الشيخ أن يسترد للزاوية مجدها التاريخي بعدما أصابها الجمود والتحجر، وظلت تعاني العفوية والارتجال، وذلك بما حرره من كتب علمية، وصدره من تلاميذ، ورسخه من آداب وتقاليد صوفية[119]. ثم يأتي بعده ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة الذي اختاره والده ليكون خليفة من بعده.

ولا جدال في أن الشيخ سيدي المختار الكنتي كان المؤسس الأول للتصوف الطرقي المحتضن من قبل تشكيلات اجتماعية مكينة في غرب الصحراء والسودان، بعد أن كان التصوف السائد من قبل تصوفا نظريا مداره النصوص الزهدية من قبيل "حكم ابن عطاء"، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي وغيرها من التصانيف، كما كان الكنتي المؤسس الفعلي للقادرية والمدشن الرئيس لعهد تدوينها الثاني منذ نشأتها على يد طبقة الجيلاني ومن تلوه، ولذلك اشتهرت القادرية في تلك الجهات بالكنتية، لأن جل مشايخها من هذه القبيلة، وبالمختارية نسبة للمختار الكنتي نفسه[120].

وساهم الشيخ المختار الكنتي في استمرارية وتقوية الطريقة القادرية وذلك بتأسيس فرع لها في بولنوار شمال تنبكتو، عرفت بالزاوية المختارية القادرية، وقد انتسب إليها العديد من علماء المنطقة وساستها، وانتشرت الطريقة في جل بلاد السودان أو ما يعرف بإفريقيا الغربية من أزواد إلى غينيا ومن تنبكتو إلى نيجيريا، ونافست وزاحمت مد ونفوذ الطريقة التيجانية في إفريقيا[121].

---

[119] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي ، (ص127).

[120] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى (دراسات ومرجعات)" لحماه الله ولد السالم، (ص52).

[121] "أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص14).

وقد أقام الشيخ سيدي المختار وأبناؤه وتلامذته عدة محاضر في عدد من البوادي والمدن الصحراوية في أزواد وقراها، وفي موريتانيا وغيرها، بل امتد مجال نفوذ القادرية الكنتية المختارية إلى المدن المغربية مثل: مراكش ومكناس وفاس والرباط وغيرها.

وكان الشيخ المختار الكنتي ينفق على هذه المدارس من ماله الخاص دون أي مقابل، ولم يكن الطلبة يشعرون بما يؤثر على دراستهم من عسر أو ضيق، ولم يكن التعليم فيها مقصورا على الرجال وحدهم أو الصغار فقط، بل شمل الصغار والكبار، والرجال والنساء[122].

2- السند الصوفي للشيخ سيدي المختار الكنتي:

أما سند الطريقة القادرية الكنتية المختارية، فقد تحرى شيوخ الطائفة الكنتية في أورادهم وأذكارهم السند الصحيح المتصل إلى رسول الله ﷺ عن طريق شيوخهم الذين أخذوا عنهم الورد، وسند الشيخ سيدي المختار الكنتي عن شيوخه، هم:

الشيخ سيدي المختار بن أحمد، عن سيدي علي بن النجيب، عن شيخه سيدي الأمين ذي النقاب، عن شيخه سيدي أحمد الخليفة بن سيدي عمر الرقاد، عن شيخه سيدي علي بن سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد، عن شيخه سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد، عن شيخه سيدي أحمد الفيرم، عن شيخه سيدي عمر الشيخ، عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، عن شيخه عبد الرحمان السيوطي، عن شيخه عبد الرحمان الثعالبي، عن شيخه أبي بكر بن العربي، عن شيخه محمد بن أبي بكر التجيبي، عن شيخه أبي موسى ناصر الدين المشدالي، عن شيخه أبي حامد الغزالي، عن شيخه أبي الحسن الشاذلي، عن شيخه عبد السلام بن مشيش، عن شيخه محيي الدين بن عربي الحاتمي، عن شيخه صفاء الدين بن النجيب السهروردي، عن شيخه علي بن هيتا، عن شيخه عبد

[122] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (ص128).

القادر الجيلي، عن شيخه تاج العارفين أبي الوفاء، عن شيخه أبي محمد الشنبكي، عن شيخه أبي بكر الشبلي، عن شيخه أبي القاسم الجنيد، عن شيخه أبي الحسن السري السقطي، عن شيخه أبي محفوظ معروف الكرخي، عن شيخه الحسن البصري، عن شيخه علي بن أبي طالب، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام[123].

وكل هذه المؤهلات مكنت الشيخ من نشر طريقته في الصحراء وبلاد السودان، بل وصل تأثيرها ومدها إلى المغرب والجزائر وموريتانيا وغيرها من البلدان الإفريقية، وقد تحرى في نشر طريقته على إحياء السنة وإماتة البدعة ونشر ثقافة الحوار، وفض النزاعات، ونشر السلم والأمان في المجتمعات، وإقامة المدارس والزوايا، ومحاربة أفكار التطرف والتشدد والغلو، والخرافات والدجل والوثنية، وساهم مع أبناءه وأحفاده، والعلماء المتخرجين من مدرسته في نشر الإسلام والتصوف السني.

وقد سادت الطريقة القادرية البكائية المختارية في جل إفريقيا بدون منازع حتى النصف الثاني من القرن 19م وارتبط بها الكثير من أهالي المنطقة مثل أهل الشيخ سِيدِيًّا من بُوتْلِمِيتْ بموريتانيا، وجماعة بُوكُونْتَة من تِيوَانْ (في أَنْجَاسَانْ) بالسنغال، وجماعة دَيَاكَانْكِي ومَالِينْكِي بغينيا، وسُونِينْكِي من بَامْبَارَا، والفِلَّانْ بماسينا، والطوارق والرماة والسُّنْغَايْ، والفلان بأزواد، وفي المنعطف من النيجر إلى مالي[124].

---

[123] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص 132).

[124] "أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص8).

المطلب الثالث: الطريقة القادرية الكنتية في السودان الغربي:

شكلت علاقة المغرب بالسودان الغربي من أهم العوامل الأساسية في انتشار التصوف وانتقال الطريقة القادرية الكنتية من المغرب إلى السودان الغربي وارتباط كل أفارقة السودان الغربي بها حيث لعبت دورا بارزا في نشر الإسلام وتصحيح مفاهيمه بعدما انتشرت العادات الشركية والعبادات الوثنية، وبفضل هذه الطريقة انتشر فكر الإصلاح، فكان مريدو وأتباع الطريقة الكنتية يتبنون منهج الوسطية والاعتدال والطرق السلمية في الدعوة والارشاد.

ويقطن السودان الغربي غالبية من أصول فلانية، وقد ربط معهم الكنتيون علاقات جد متميزة، ويعتبر الشيخ سيدي المختار الكنتي من بين العلماء الذين أسهموا بشكل كبير في إدخال القادرية إلى غرب إفريقيا، فقد قام ببناء زوايا ومحاضر بغرب إفريقيا وأصبحت من المراكز المهمة للدعوة ولها الريادة في الشؤون الدينية[125].

ويعد عثمان بن فودي (ت 1232 هـ/1817م) من أقطاب القادرية الكنتية، فقد تأثر بالشيخ سيدي المختار الكنتي وذلك واضح من المراسلات بينهما وتبادلهما للكتب والمؤلفات، كما أسس حركة إصلاحية أدت إلى تأسيس دولة سوكوتو، وله رؤى إصلاحية ومنهج علمي فريد، فالشيخ عثمان بن فودي يرى أن علوم الشريعة تأتي بعد الكتاب والسنة، وهي مقدمة ضرورية لشتى أنواع العلوم، فما وافق منها الشرع أخذ به وإلا طرح، وكذلك من مظاهر انفتاحه الفكري تأكيده أن العلم لا زمان له ولا مكان محدد له، أي أنه لا يختص بزمان دون زمان ولا بموضوع دون آخر، ولا بقوم دون غيرهم، فبوسع اللاحقين بلوغ ما لم يبلغه السابقون من العلم، كما أن الاجتهاد في نظره لا تشترط فيه الذكورة ولا الحرية، فالكل سواسية في فرص الوصول إلى مرتبة الاجتهاد.

---

[125] راجع: "الشيخ عثمان بن فودي"، بحوث الندوة العالمية التي عقدتها "جامعة افريقيا الغربية" بالخرطوم- السودان، أيام من 19 إلى 21 نونبر 1995م، طبعة: 1996م.

ويعد الشيخ أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة من أهم الشخصيات الصوفية في تاريخ السودان الغربي خلال القرن 19م، باعتباره خليفة لوالده وجده على رأس الطريقة القادرية الكنتية، كما استقر بتنبكتو وبنى بها زاويته، وله دور أساسي في المجالين البيضاني، والسوداني الذي يكتسي ثقافة ذات طابع إفريقي عريق، وكان يعمل على الرد على خصومه ممن ينتقدون طريقته الصوفية، كما جهز جيشا بتحالف مع أمير ماسينا لمواجهة كافة التهديدات المحتملة، وخاض معارك عديدة في دفاعه عن القادرية الكنتية وعن إمارة ماسينا التي تحالف معها[126].

وكان تصوف سكان السودان الغربي ذو طابع مغربي يتميز بوحدة العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي في الأحكام الفقهية، إضافة إلى تأثرهم بتصوف أهل المغرب المتمثل في القادرية الكنتية، كما ساهمت هذه الطريقة الصوفية في ملء الفراغ السلبي الذي نتج عن انتشار الخرافات والدجل والطقوس الوثنية التي سيطرت على عقول الناس، بل آمن بعضهم بالقوى السحرية الخارقة وبتناسخ الأرواح، وانتشر السحر كذلك في المجتمع الإفريقي، فكانت هذه الحركة الصوفية بمثابة حركة تصحيحية، كما أصبحت زواياها مراكز علمية في شتى الدول الإفريقي ساهمت بمد جذور الروابط بين المغرب وبين البلدان الإفريقية الأخرى.

المطلب الرابع: الطريقة القادرية الكنتية المختارية في المغرب وأعلامها:

وسأتجاوز التأريخ للكنتيين ومدرستهم الصوفية بتفصيل وأكتفي بالإشارة أن الطريقة المختارية القادرية دخلت إلى المغرب خلال القرن 13 هـ/ 19م، ووجدت فيه مريدين كانوا من الشهرة ما يدفع للجزم أن صيتها لم يقتصر على بلاد البيضان والسودان الغربي

[126] "الكنتيون وعلاقتهم بالسلطة السياسية بالسودان الغربي خلال القرن 19م، من خلال رسالتين للشيخ أحمد البكاي ت 1865م لسلطان ماسينا أحمدو بن أحمدو ت 1863م"، تقديم وإخراج للباحث عبد الله موما، (ص 13).

فحسب، كما أن للسلاطين المغاربة علاقات جد قوية مع الطريقة الكنتية، وانتسب إليها بعض العلماء المغاربة وأفراد من المخزن العلوي، أمثال يحيى بن عبد الله الجراري، ومحمد بن دح الأزموري الذي رحل إلى أزواد وأخذ عن المختار الحفيد وأحمد البكاي، وعاد إلى مسقط رأسه لنشر الطريقة الكنتية[127].

ويقول ابن ياسين عن ابن دح الذي رحل إلى مقر الزاوية الكنتية: " ولد في نيف وعشرين من القرن الثالث عشر بأزمور، وحفظ القرآن بها، وانتقل إلى فاس واشتغل بالتدريس بالجامع الكبير، ثم توجه إلى تنبكتو، فقطع تلك المفازة الكثيرة الخطر، فلما حل بتلك الديار واجتمع بسيدي أحمد البكاي وأخيه الأستاذ سيدي المختار، وقضى ما قصده من الأوطار رجع إلى بلده، فصار يلقن الطريقة المختارية القادرية لكل من توجه إليه بصفاء ونية، فأخذ عنه خلق كثير وانتفع به جم غفير، ويكفيك أن سلطان المغرب في زمانه وبعض أمرائه أخذوا عنه الطريقة المختارية القادرية"[128].

واللافت للنظر هو أن بعض شيوخها راسلوا المغرب وسلاطينه، فهذا أحمد البكاي الحفيد كاتب علماء المغرب عموما، وأكنسوس خصوصا، وأما المختار الحفيد فبعث برسالة مطولة إلى السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام تحت عنوان الرسالة العجالة[129].

ومع مر الزمن صارت من أشهر الطرق بالمغرب، وأدى إليه إشعاعها من عدة قنوات تتصاعد إلى الشيخ المختار الكنتي، وعنه أخذها من سوس:

---

[127] "أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص7).

[128] المرجع نفسه، (ص7).

[129] المرجع نفسه، (ص8).

- العالم الجراري: يحيى بن عبد الله بن مسعود البكري، توفي حوالي 1260هـ/1844م.
- ثم الفقيه ابن دح: محمد بن أحمد الأزموري، نزيل المدينة المنورة ودفين بقيعها عام 1284هـ/1868م.
- وعن الشيخ المختار الحفيد تلقاها البربوشي: البشير بن عبد الحي الصحراوي الرحماني، دفين مراكش حدود عام 1290 هـ/ 1878م.
- وبين هؤلاء من انخرط في هذه الطائفة تلقيا لها من أربعة من الشيوخ، والمعني بالأمر هو الدغوغي: بوشعيب بن الجيلاني البيضاوي، فيأخذها عن سيدي بن المختار سابق الذكر، وأحمد المعروف بسيدي، وابن الأعمش، ومحمد بن المختار الجكني، والأربعة من تلاميذ الشيخ المختار الكبير، وكانت وفاة أبي شعيب 1330 هـ/1912م.
- وممن أخذ عن الشيخ أحمد البكاي: باشا فاس عبد الله بن أحماد البخاري السوسي، توفي 1304 هـ/1886م، توجه إلى الصحراء، وتلقى منه الطريقة لنفسه، وللسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، ولأخيه الوزير موسى بن احْمَادْ.
- وإلى هؤلاء نشير إلى بعض الوافدين الذين ساهموا في نشر هذه المدرسة، بدءا من محمد السوداني تلميذ الشيخ المختار الكبير، وتلقاها منه محمد بن عبد الحفيظ بن عبد الرحمان الدباغ الحسني الفاسي، دعي بوطربوش.
- ومن الوافدين: محمد بن حبيب الله الصغير الشنقيطي، ومنه تلقاها العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني ثم الفاسي.
- ثم محمد السوداني دفين مراكش، من تلاميذ الشيخ أحمد البكاي[130].

ومن تلاميذ محمد بن أحمد بن دح:

[130] "المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين" لمحمد المنوني، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، سنة: 1992م، (ص65-66).

- السبتي: عبد الرحمان بن محمد الفاسي، كان بقيد الحياة ربيع النبوي 1284هـ/1867م، وإجازة ابن دح له بالكنتية كتبها أول "نفح الطيب" للشيخ المختار الكبير، وهو مخطوط بالخزانة العامة برقم: ك237.
- الدباغ: محمد بن عبد الهادي الحسني الفاسي، توفي 1284هـ/1867م، فيقول عنه الكتاني: "من فقراء الطريقة الكنتية، مقدما على العاملين بها من فاس، أخذها عن الشيخ سيدي محمد بن دح، ودفن في الزاوية التي شرع في بنائها بالعيون"، وممن أخذها عن الدباغ، الغياثي: محمد بن أحمد المخلوفي الودغيري الإدريسي، توفي 1318هـ/1900م.
- السرغيني: محمد بن المعطي المراكشي، توفي 1296 هـ/1879م.
- الرحالي: الجيلاني بن عزوز المكناسي، توفي 1309هـ/1891م، وكان مقدمها بمكناس، وقبل ابن دح كان أخذها عن محمد بن عبد الهادي الدباغ سابق الذكر.
- الكدالي: أبو الشتاء بن عبد الله الشاوي البورزقي السطاتي قاضيها، توفي 1309هـ/ 1892م.
- الحاج العربي العبدوني الشاوي: توفي 1309هـ/1892م، يذكر عنه الكانوني أنه جال بأرجاء الشاوية وما إليها لنشر الكنتية، ودخل آسفي في جملة من أتباعه، وأسس زاوية قرب سطات.
- ابن أهبالو: أحمد بن عبد الرحمان العبدي الركيني، توفي 1317هـ/1900م.
- المنوني: السعيد المعروف بالسعيدي بن محمد المهدي الحسني المكناسي، توفي 1334هـ/1916م، أخذ الكنتية عن ابن عبد الهادي الدباغ سابق الذكر، وعن ابن دح: رحل إليه لبلده أزمور راجلا مرتين، وصار هو مقدم الزاوية الكنتية بمكناس بعد وفاة شيخه الرحالي سابق الذكر.

- السوسي: المختار بن باشا فاس عبد الله بن احماد البخاري المكناسي الوزير الصدر، توفي 1335هـ/1917م، وكان يتعاون مع السعيد المنوني–آنف الذكر– في القيام بشؤون الزاوية الكنتية بمكناس[131].

[131]"المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين" لمحمد المنوني، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، سنة: 1992م، (ص69–70).

الفصل الثاني: التعريف بالمؤلف:

المبحث الأول: حياته:

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده:

أ- اسمه ونسبه:

هو الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي بن سيدي علي بن سيدي يحيى بن عثمان بن يَهَّسْ بن دومان بن ورد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع الفهري[132].

وينتسب الشيخ سيدي المختار إلى قبيلة كنتة، إحدى القبائل العربية المنتشرة في غرب إفريقيا: موريتانيا ومالي والنيجر وجنوب المغرب والجزائر وحتى السنغال، ويرجع نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا[133].

ب-مولده:

ولد في عام 1730م/ 1142هـ في مكان يدعى كثيب أوغال من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط جنوب الصحراء الكبرى، وفي القسم المعروف بأزواد ويتبع إداريا جمهورية

---

[132] "دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين: 18-19م" لأج ولد محمد ولد أمينوه، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد الأول، يونيو: 2013م، رئيس التحرير محمد الأمين ولد أن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنواكشوط (موريتانيا)، (ص5)، و"تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى" لموسى كمرا، (ص107)، و"الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد" للشيخ سيدي المختار الكنتي، تقديم وتحقيق: محمد الدمناتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الطبعة الأولى: 2019م، (ص33).

[133] "فتح الودود شرح الممدود والمقصور" للشيخ سيدي المختار الكنتي، (ص9).

مالي، وهي منطقة صحراوية قاحلة لا يوجد فيه عمران بسبب الجفاف السائد في غرب إفريقيا، إلا أنها كانت في عهد المؤلف مليئة بالحياة والنشاط الإنساني[134].

وقال بول مارتي: "وقد كان ترتيب الشيخ بين أبناء أحمد بن أبي بكر ما قبل الأخير، وسنتعرض فيما بعد لأخويه لأبيه، وهما محمد وسيدي بوبكر اللذين كانا وصيين عليه، وقد كان لأحمد أيضا من أمهم اللالية بنت سيدي بوبكر الوافي ابنتان: خديجة والمْسَمْيَة، متزوجتان من اثنين من وجهاء كنتة، وله من زوجته الثانية ابنة تزوجت من أحمد التيس وهو وجيه كنتي، والذي تكاثر نسله في المخيمات الحالية، وسيدي محمد الذي مات طفلا، والشيخ ذاته، وأخيرا سيدي علي المولود 1731م والمتوفى عام 1783م"[135].

ولقد تميز مولده بالكثير من الكرامات وتوافد الناس حسب العادة لتهنئة الأم السعيدة والتي كشفت المهد لتريهم وليدها، وكان الشيخ يروي وهو الذي يسرد القصة بنفسه أنه يتذكر بالتأكيد أنه رأى في ذلك اليوم أناسا ذوي بشرة بيضاء طوال القامة، وبلغ به الأمر أنه يذكر أسماءهم، وفي سن الرابعة أو الخامسة من عمره فقد أمه امْبَيْرِيكَة (بَاكَّة) بنت بادي، وفي سن العاشرة فقد والده، وكان أخوه البكر محمد أبو حامية هو الذي أوكلت إليه مهمة الوصاية[136].

---

[134] "فتح الودود شرح الممدود والمقصور" للشيخ سيدي المختار الكنتي ، (ص9).

[135] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص40).

[136] المصدر نفسه.

المطلب الثاني: نشأته ووفاته:

أ- نشأته:

وقد تربى الشيخ يتيما في كفالة أخيه لأبيه سيدي محمد، وذلك أنه لما بلغ من العمر أربع سنين أو خمسة توفيت والدته، وتوفي والده بعد ذلك وللشيخ من العمر نحو العشر سنين فكفله أخوه. وكان يؤتى به إلى جده لأمه سيدي عبد القادر الملقب (سيدي بادي) بن سيدي محمد بن سيدي علي بن سيدي محمد بن سيدي المختار الشيخ، وهو صغير، فقد كان يتمتع من جانب هذا الرجل التقي بحب فريد جدا بحيث لا يستطيع أن يمر يوم دون أن يراه ودون أن يحتضنه بين ذراعيه، فكان الولد يلعب مع جده أدوارا تناسب عمره، فقد كان الشيخ كفيفا، ولكن يروى أنه كان قادرا على الرؤية رغم ذلك، ولما أراد الولد أن يعرف ذلك دخل إلى خيمة جده متسللا على رؤوس أصابع قدميه وانتزع جهاز التدخين الذي كان معلقا بأحد أعمدة الخيمة ثم قذف به من خلف ظهر الكهل، بالصوانة من جانب وبالقداحة من جانب آخر غير أن العجوز بادره بالقول متضاحكا: يا وليدي أردت أن تجرب ما إذا فقد البصر لدى جدك صحيحا، لقد رميت القداحة من يميني والصوانة عن يساري، ولما ظل الولد صامتا مذهولا قال الجد: ماذا تنتظر لكي تعيد آلة التدخين إلى مكانها[137].

وقد تحققت على يد بادي كرامات عديدة كانت أكثرها سطوعا إنقاذ رجل كان يحفر بئرا ودفن تحت الأتربة المنهارة، وهو ينادي بادي لنجدته، واعتقد الناس أنه قد هلك بالفعل وعادوا إلى المخيم، ولكن بادي أعادهم وأمرهم بمتابعة عمليات الحفر والبحث عنه، وفعلا

[137] راجع "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص51).

عثروا على حفار الآبار جالسا بهدوء وبراحة في قعر البئر وهو ينتظر قدومهم كي ينقذوه[138].

وفضلا عن ذلك لم يكن يظهر أن بادي هذا كان متزمتا، فعلى الرغم من تحذيرات الشيخ الشاذلي، فإن أحمد بن ناصر الدراوي ظل يمارس تعاطي التبغ والسماح لمن حوله، وقد أعطى الشيخ أحمد هذا لأحد مريديه الذي لامه على هذه العادة الذميمة درسا معجزا وساخرا عندما وضع في يده مضغة التبغ وجعله يلاحظ أنها تحولت إلى قطعة من العسل المصفى.

ونشأ الشيخ سيدي المختار الكنتي في قرية المبروك وفي الأحياء البدوية حولها نشأة أطفال الصحراء، يقرأ القرآن في الكتاب أو يرعى غنم أهله أو يلعب مع الأطفال من جيله، ثم لم يلبث أن سئم هذه الحياة الرتيبة وتاقت نفسه إلى التجوال طلبا للعلم وتطلعا إلى حياة أكثر طموحا[139].

ويبدو أنه كانت لهذا الولد طفولة تائهة غير مستقرة، وكان يقول هو نفسه أن أول كلمتين لفظهما كانتا "وادي" و"كدية"، ويروى أنه بعد رحيل المخيم من زمور كان يتجول وحيدا في صبيحة أحد الأيام في البادية سالكا في الشعاب ومتسلقا الصخور العالية مرتديا برنسا صغيرا رديئا، وما كاد يتسلق أحد التلال حتى رأى عند قدم الصخرة حيوانا مفترسا فانزلق بصورة متهافتة بحيث ظل برنسه متشبثا بنتوء صخري، وقد أنقذته هذه الصخرة بالفعل ولكنه لم يتخلص من هذا الوضع التعيس إلا في المساء على أيدي رجال جاءوا باحثين عنه[140].

---

[138] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص51).

[139] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى (دراسات ومرجعات)" لحماه الله ولد السالم، (ص50).

[140] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص40).

ولما كان قد نشأ على أيدي أولياء مثقفين من أمثال بادي وأبي بكر، ولما كان من جهة أخرى متميزا بأفضل الاستعدادات الطبيعية لم يكن من المستغرب أن يتقدم الشيخ سيدي المختار منذ سنيه الأولى وبسرعة في مسالك الورع والعلم الإسلامي.

غير أن الأمر اقتضى مع ذلك حادثا عاديا جدا كي يضعه على طريقه، فقد كان يواظب على المدرسة القرآنية ويرعى قطعان الماشية أو يلعب مع الأطفال من جيله دون الاهتمام بمستقبله. عندما جاءت عمته قادمة للتو إلى المبروك، فكان أن حدثت حادثة غريبة اعتبرها نذيرا ربانيا، فقد كان عدة خدم زنوج يفتلون حبالا من الحلفاء أمام أعين الأولاد، فأخذ كل من هؤلاء بقصد التسلية يتناول حبلا ويتابع الضفر، وأخذ المختار حبل خادم نوبي غارق في جهله وأميته، غير أن الخادم راح على الفور يتكلم ببلاغة قائلا: أنت لم تخلق لمثل هذه الوظيفة، وهنا سأله المختار: لماذا خلقت إذن؟ ، فأجابه الخادم: لمعرفة ربك وعبادته ونشر العلم، وابتداء من هذا التاريخ عانى الولد الاضطراب من هذه الفكرة، ولم يتوقف عن البحث عن الوسائل للتخلص من حياة الرعي التي هو عليها لينصرف إلى الدراسة[141].

ب–وفاته:

توفي رحمه الله يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى عام 1226 هـ/1811م، عن عمر يناهز 84 عاما قضاها في التعلم والتعليم والتأليف والتربية، ودفن في مكان يدعى بولنوار شمال مالي حاليا، وشرق موريتانيا، رحمه الله رحمة واسعة إنه سميع مجيب[142].

---

[141] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص43).

[142] "فتح الودود شرح الممدود والمقصور" للشيخ سيدي المختار الكنتي، (ص16).

المبحث الثاني: شيوخه ورحلته في طلب العلم وتلامذته وأساليب تربيتهم:

1-شيوخه ورحلته في طلب العلم:

أ- شيوخه:

تلقى الشيخ سيدي المختار الكنتي العلم عن عدد من العلماء، إلا أننا لا نتوفر عن معلومات عنهم، ولا توجد مصادر تتحدث عن حياتهم وآثارهم العلمية سوى الإشارة إليهم بأسمائهم أو معلومات محدودة جدا، ومن مشايخه:

- سيدي محمد بن أحمد[143].
- عبد القادر بن سيدي محمد (سيدي بادي)[144]: ساهم في تلقينه المعارف الدينية منذ صغره، كما عمل على تربيته تربية ذات طابع صوفي، بصفته من أقطاب القادرية الكنتية.
- عمام أك الكلحرمي[145].
- أحمد بن عبد الله بن المختار[146].
- سيدي علي بن النجيب التكروري[147].

---

[143] الأخ الأكبر للشيخ سيدي المختار، وحفظ على يديه القرآن الكريم، وساهم في نشأته العلمية، راجع "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص51).

[144] سيدي عبد القادر (الملقب بسيدي بادي) بن سيدي محمد بن سيدي علي بن سيدي محمد بن سيدي المختار الشيخ بن سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي الكنتي، جد الشيخ سيدي المختار الكنتي لأمه، اشتهر بمكاشفاته وكراماته ساهم في تلقينه المعارف الدينية منذ صغره، كما عمل على تربيته تربية ذات طابع صوفي، بصفته من أقطاب القادرية الكنتية، انظر:"كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 51)،

[145] وهو الذي أخذ عنه الفقه المالكي، وهو شيخ طارقي من قبيلة علمية تدعى "كل سوق".

[146] وهو صاحب زاوية بقرية المأمون بأزواد.

[147] سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب، وسيدي علي هو جد الفخذ الزاوي الصغير لقبيلة أهل سيدي علي عاش في ضواحي تنبكتو، وهو شريف النسب، وتلقى الشيخ سيدي المختار عنه جميع

- الكوينهيني[148].

ب-رحلته في طلب العلم:

وفي بداية مشواره العلمي يقول بول مارتي: " ولكن الفرصة لم تسنح أبدا غير أن المختار هجر القطيع الذي أوكل إليه أمر رعايته في يوم من الأيام وامتطى جمله، وبعد رحلات مختلفة إلى قرية المأمون وإلى المناطق المجاورة، بلغ فخذا من "كل السوق" الذين هم كما هو معروف طلبة ووعاظ في الطوارق ويدعى هذا الفخذ "كل انلبوش"، فانخرط في لعب أطفالهم ثم في دراساتهم، ولكي يؤكد قراره بتحطيم الجسور من خلفه، أرسل إلى المبروك جمله الذي كان يصرفه عن الله، وتابع دراساته الشرعية ولا سيما المختصر لخليل في فخذ طارقي آخر، أي لدى أحَّة من قبيلة كل حرمة في داخل عقفة النيجر، غير أن زملاؤه الذين اعترتهم الغيرة من مواهبه طردوه عدة مرات من حلقات الدرس وسببوا له الكثير من القهر مما جعله يقصد تنبكتو بناء على نصيحة أستاذه العاجز عن توفير الحماية له، ولما كان المناخ السوداني وخيما على هذا الصحراوي الشاب أصيب بمرض خطير، ومع ذلك فإن موهبته على الاستيعاب كانت كبيرة بحيث كان لا يختم الكتب، بل كلما وصل إلى ثلث الكتاب أو نصفه عرف باقيه فانتقل إلى آخر، ولم يكن يعرف أحدا في تنبكتو وظل يهيم على وجهه مدة طويلة بحثا عن شخص ذي نفسية مضيافة، ولم يكن عناد الشباب الذي برهن عليه في يوم من الأيام أمام الجامع، ودفعه إلى تأنيب كبار السن من ذوي اللحى، الذين كانوا ينشرحون لسرد اللغو والحكايات الماجنة، وهذا الواقع لم يتغير بعد قرنين، لم يكن هذا العناد من الأمور التي تجذب نحوه، ومع ذلك انتهى به الأمر إلى العثور على سند ومضيف في شخص سارف الناصية

المرويات من التفسير والحديث والفقه والتصوف، كما أخذ عنه الطريقة القادرية الكنتية التي تلقاها هو بدوره عن سيدي الأمين أبو النقاب الكنتي، انظر:"كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص149).

[148] من علماء تنبكتو وصاحب أحد مكتباتها التي استفاد منها الشيخ سيدي المختار الكنتي أثناء رحلته في طلب العلم، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص44-45).

الكوينهيني، فقد منحه هذا الرجل العطوف غرفة وسمح له باستعمال مكتبته الخاصة، وبعد مضي بعض الوقت التقى صدفة في شوارع المدينة بأحد أقاربه هو سيدي المختار بن سيدي أحمد بن الحاج بُوبَكَّر الذي عاب عليه حياته البائسة كتلميذ بلا مورد للعيش، وأخرجه عنوة من المدينة غير أن الشاب تملص من حاميه المؤقت بصورة خارقة، فعند وصوله إلى أحد الآبار ارتمى على الأرض في وسط موقع مهجور تماما من الناس ومكث دون حراك، في حين كان مرافقوه يبحثون عنه كما أنهم لم يرهم، هذا في الوقت الذي كان يسمع فيه أصواتهم، وأخيرا كفوا عن البحث عنه فتابع طريقه وحده وبلغ مخيما للبرابيش وما أن وصل أول خيمة حتى بادر طالبا استضافتهم فردوه بغلظة، ولكن الله عاقبهم إذ هلكوا جميعا في العام ذاته، أما الخيمة الثانية التي ينتسب أهلها إلى الغميرات من فخذ أولاد بُوخْصِيبْ فقد احتضنوه بكرم الوفادة، وقد كوفئوا على ذلك فيما بعد إذ ازدادوا عددا وثروة، وقد تأكد هذا الأمر إذ يشكل أولاد بُوخْصِيبْ عشيرة فرعية كبيرة من أولاد غيلان (البرابيش)[149].

ويرسم لنا ابنه الشيخ سيدي محمد في كتاب: "الطرائف والتلائد" مراحل دراسته، فقد أقام في قبيلة "كَلْ السُّوقْ" الطارقية، ثم في عشائرها الأخرى "كل انْلْبُوشْ"، ثم أيضا في "كل حرمة"، ولازم أَكْ الكَلْحَرْمِي حيث تلقى عنه "مختصر خليل" وبعض متون النحو والبلاغة، كما أقام بعد ذلك في مدينة تنبكتو لكنه سرعان ما هجرها بعد أن أدرك أن المدينة تعيش في درك انحطاطها الفكري الحضاري[150].

وفي هذه الفترة بالذات عثر الشيخ على الأستاذ المثالي الذي راح يعمل على تنمية مواهبه ويضعه على الطريق القويم ونقصد الشيخ سيدي علي بن النجيب، وهو أستاذ

---

[149] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص44-45).

[150] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى (دراسات ومراجعات)" لحماه الله ولد السالم، (ص51).

قدير وشيخ تقي، ورئيس القادرية في المنطقة، وتبحر في مدرسته بعلم تفسير القرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف، اللذان هما أسمى مصادر التاريخ والتشريع والحضارة الإسلامية[151].

كما اطلع على كل كتب الحديث المعهودة وأكملها بالعلوم المساعدة، حتى علوم الآداب العادية من بلاغة ونحو، وكبح شهواته الجسدية بممارسات شديدة القسوة من صوم ومن حرمان نفسي وبذلك أعد نفسه للطريقة الصوفية، ويقول أنه تعرض لنزغات الشيطان في السنة الأولى داخل ذاته، وفي السنة الثانية عن يساره، وفي السنة الثالثة عن يمينه، وفي الرابعة من أمامه، وتذوق السكينة من بعد ذلك[152].

ودرس الشيخ "مختصر خليل" و"التحفة" لابن عاصم والتي تلقاها عن الشيخ محمد بن أحمد التَّيْمَاتِيهِي، و"مقدمة ابن أجروم" و"الخلاصة" و"الكافية" لابن مالك، و"فريدة السيوطي" عن الأستاذ سيدي علي بن النجيب الذي يلتحق عن طريق شيوخه بمؤلفي الكتب أنفسهم، كذلك قرأ على يد الشيخ سيدي علي بن النجيب "ألفية السيوطي" و"عقود الجمان"، كما أخذ "الورقات" لأبي المعالي الجويني، و" جمع الجوامع" لابن السبكي و"كافية ابن الحاجب" و"تنقيح الأصول" و" قواعد المبخور" عن الشيخ عبد الله الولاتي، و"جامع الأصول" لابن الأثير و"جامع السيوطي" و"الشفاء" للقاضي عياض و"كشف الغمة" للشوكاني و"الترغيب والترهيب" للمنذري عن شيخه سيدي علي بن النجيب، و"تفسير الجلالين" و" تفسير البغوي" و"لباب التأويل" للخازن و"تفسير ابن عطية" و"شرح النسفي" و"شرح البيضاوي" عن شيخه سيدي علي بن النجيب[153].

---

[151] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص45).

[152] المصدر نفسه.

[153] راجع "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 47-48).

ينضاف إلى ذلك ما اكتسبه الكنتي من معارف عمقه عبر مطالعته الواسعة، وهو ما أفاده تبحرا في العلوم العربية والإسلامية، جعل أهل عصره ومترجميه ودارسي حياته يصفونه بأنه مجدد 12هـ/18م[154]

2-تلامذته وأساليب تربيتهم:

أ- تلامذته ومريدوه:

أخذ العلوم عن الشيخ سيدي المختار الكنتي عدد لا يحصى من التلامذة والمريدين، بعضهم لهم ترجمة في المصادر وبعضهم مغمور، ومنهم:

- الشيخ سيدي محمد الخليفة[155] (الابن الخامس للمؤلف، وخليفته من بعده).
- الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة[156].
- الشيخ المصطفى بن العربي[157].
- محمد المامي[158].

---

[154] "الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى (دراسات ومراجعات)" لحماه الله ولد السالم، (ص51).

[155] انظر ترجمته في الهامش 30 من ص 86.

[156] انظر ترجمته في الهامش 70 من ص 61.

[157] الشيخ المصطفى بن العربي بن المختار بن محنض، (ت 1237هـ/1821م)، تعلم القرآن على يد والده وعلى ابن عمه ألفغ نل بن عبد الله بن أحمد الفال بن امرابط، ثم انتقل إلى زاوية ابن عمه بلعمش بن محمد ولازمه حتى تعلم القراءات السبع، وبعد أن أجازه انتقل إلى محاضر إد بلحسن وأولاد الديمان فدرس النحو واللغة والصرف، وزار الشيخ سيدي المختار الكنتي فمكث عنده أكثر من عشرين سنة، وأذن له في تلقين أوراد القادرية الكنتية، وأعطاه خزانة من كتب الفقه والتصوف وغيرها من العلوم، انظر:"موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين"،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألسكو)، دار الجيل، الطبعة الأولى: 2004م، (ص253).

[158] محمد بن البخاري الملقب (بارك الله)، (ت1206هـ/1865م)، أخذ عن الشيخ سيدي المختار الكنتي العديد من العلوم حتى صار ضليعا فيها، من مؤلفاته: "البادية" و"جمان البادية" و"الدلفينية"، انظر: "المختار الكنتي الكبير: التصوف والعلم بأزواد" لأحمد الحمدي، جمعية البيت للثقافة والفنون- الجزائر، الطبعة الأولى: 2009م، (ص107).

- الشيخ أبات بن الطالب[159].
- الشيخ المختار السباعي الدميسي.
- سيدي أحمد بن العويسي التاكاطي.
- الشيخ القاضي بن الحاج الفغة.
- الشيخ المصطفى بن الحاج الفغة.
- الشيخ سيدي عبد الله العلوي.

ب- أساليب تربيتهم:

وفيما يتعلق بأساليب الشيخ رحمه الله في تربية تلامذته ومريديه وتعليمهم، يقول كاتب سيرته الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي في كتابه: " الطرائف والتلائد": " اعلم أن التربية عبارة عن تدريج السالك بمدارج السلوك مدرجة بحسب الحال والوقت، وتغذية المريدين من الأسرار والحكم والأنوار بالملائم، إذ غذاء الصبي بعد الأربعين لا يصلح له في الحين، وغذاؤه فطيما لا يصلح له رضيعا، ثم كذلك إلى أن تستفحل قواه وتشد أعضاه، قال تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[160] . قال ابن عباس: ربانيين تربون الناس بصغار العلم قبل كباره، ثم التربية قسمان: تربية بالمقال، وتربية بالحال، فالأولى إرشاد وتهذيب، والثانية إمداد وتقريب[161].

---

[159] أبات بن الطالب أحمد جدو القلقمي، تربى في حضن والده العلامة الطالب أحمد جدو، وسافر بعد وفاة والده في طلب العلم فنزل في محظرة العلامة الطالب أحمد بن محمد التنواجيوي ومكث فيها سنوات درس فيها مختلف العلوم المحظرية وبرع فيها، ثم أمره شيخه بإقراء الطلاب، وبعد ذلك قرر أن يسافر إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي في أزواد فسأله عن بعض المسائل فأجابه ودونها في كتاب يعرف بالأجوبة الأباتية، وقد حققه مأمون محمد أحمد أمينوه الكنتي، ونشرته مؤسسة قطر الندى للثقافة والإعلام بالدار البيضاء سنة 2018م، راجع: "حياة موريتانيا: الحياة الثقافية "الجزء الثاني، للمختار ولد حامد، الدار العربية للكتاب، بدون تاريخ الطبع (363/2).

[160] آل عمران: 79.

[161] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (263/2).

وقال كذلك: " فكان رضي الله عنه كثير الاجتهاد في تربية المريدين بما أدب الله تعالى به عباده المقربين من الأنبياء والصالحين في القرآن وكتب الأنبياء السالفين، ليعلم المريد أن تقوى الله تعالى لم يزل مأمورا بها في كل شريعة، وقد أكدت ذلك شريعتنا الحنيفية السمحاء، فمن أوجز ذلك وأجمعه وأمتعه للمريدين وأنفعه وصيته للمريدين الموسومة بكيفية السلوك إلى ملك الملوك، وهي الإقبال على الله تعالى في السر والعلانية، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله في السراء والضراء، والاعتماد عليه في العسر واليسر، واللجاء إليه في المنشط والمقصد، والعمل له بالليل والنهار، وإخلاص النية في الأعمال والأقوال، والنصيحة للخلق في الرضى والغضب، والتجافي عن الدنيا في اليسار والإقتار، والرغبة في الآخرة ببذل الذات والأموال، وتولي السلف في الأخذ والترك، والانخراط في سلك المشايخ في الأنفاس واللحظات، واتهام النفس في الحركات والسكنات، والتضييق عليها في ارتكاب الشهوات والمألوفات، ومحاسبتها على الماضي والآتي، ورعايتها في جميع الساعات، وتصفيتها وتزكيتها من الدسائس والكدورات، ومراعاة الأوقات بالآداب والمعاملات، ورعاية الأعمال من الرياء والمبطلات، وصيانة الأحوال من الآفات والمفسدات، واحترام الإخوان بدون المداهنات والتصنعات، وتحمل الكلف في إنقاد الأمة من المهاوي والمهلكات، وتحمل الأذى من الخاص والعام، والإغضاء عن العورات في الإقدام والإحجام، وإدمان الشكر على الإنعام والإتمام، وتجرع الصبر على ممر الليالي والأيام، والإطراح بين يدي الشيخ في الظعن والمقام، بحيث لا تملك معه نفس ولا مال في البدء والاختتام، وحسن التعلق به في الهم والاهتمام، والاستغناء به عن جميع الأنام، والتكشف له حتى عن الخواطر ورؤيا المنام، والامتثال بأمره من غير مراجعة كلام، وإطراق البصر بين يديه على وجه التبجيل والاحترام، وخفض الصوت بين يديه في حالتي المنع والإقدام، والتدرج مع الأذكار بحسب الطبع والحال والمقام، فأول ذكر يطابق المريد الجلالة بصيغة السلب ناويا به سلب الكثائف والظلمات، متنظفا دائما، متطهرا صائما، قاطعا المواد الرديئة، بحيث لا تنام إلا

عن غلبة، ولا تأكل إلا عن مسغبة، قاطعا الهواجس والوساوس، لأنها رياح تطفئ مصابيح الهدى، متجنبا للأغمار، تاركا للأغيار، خاليا قلبا وقالبا، معتبرا العهد الموسوي، حتى إذا رأيت أشعة الأنوار، ومنعت من القرار، ولازمك الاقشعرار، وزايلك الغبار، وخامرك الأوار، انتقلت إلى اللفظ بالتجريد على النحو السابق اثنا عشر ألفا، حتى إذا وقع الأنس، وانقطع الحس، بزوال الحجاب، وانفتاح الباب، بقرب رب الأرباب، انتقلت إلى اسمه اللطيف كذلك[162].

ويقول الشيخ سيدي محمد الخليفة عن تدرج أساليب تربية الشيخ للمريدين تربية صوفية: " فإذا تربى وارتضع من ثُدِيِّ الرجال ألبان الحكمة، وأخذ الآداب على كنهها ولم يبقى لنفسه تسلط، بل صارت مطمئنة ساكنة ليس بها نزغة ولا يطوف بها طائف شيطاني، ووجد الإذن من شيخه المربي ومن سره الغيبي، تصدر للانتفاع على قدر الاتساع ووسع الباع، والله تعالى المستعان لا رب غيره ولا خير إلا خيره، فانظر إلى هذا الأسلوب الغريب والمنزع العجيب الجامع بين طلاوة المباني وحلاوة المعاني، ثم لا يتقاعد عنه ما كتب به رضي الله عنه في الوصية لبعض مريديه بقوله:

" إذا أردت أيها المريد أن تنخرط في سلك أهل التوحيد وخاصة أولي التجريد، فعليك باستعمال هذه الأمور وهي: أن تعامل الله تعالى بالحقيقة، والخلق بالشريعة، من غير تنفير ولا تضييق، قال ﷺ: « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »، وعامل أهل الدنيا بحسن الأخلاق والإغضاء عن مساوئهم، وأهل الظلم بترك مخالطتهم والمداراة لهم على حسب الحال، فالنبي المؤيد بجبريل، ذهب من الطائف إلى مكة في خفارة ابن عبد ياليل، بعد إذاية قومه له بما لم يتقدم مثله، ثم جاءته في الطريق، غيرة الرب الرفيق، إذ أرسل إليه ملك الجبال بينهما غمامتين، ليطبق عليهم الأخشبين، فأبى النبي الأمي وقال: « إني لأرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده ويعبده »، وكذلك فكن، فالخير كله في

[162]"الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/264-265).

اتباعه، والاكتيال في ذلك بصاعه، حتى يكون الله تعالى هو المدافع عنك فإن نصرته لك خير من نصرتك لنفسك، وقد وعد المؤمنين بالدفع عنهم بوجه يليق بهم، إذ هو أعلم بمصالحهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[163]، ولا تكن من قوم إذا وقع عليهم أدنى شيء من الأذى استعظموا ذلك وزعموا أن الله ينتصر لهم لا محالة، فيكون ذلك أعظم الأسباب في جلب الكبر والإعجاب اللذين هما أساس كل داء ديني، وربما نسبوا التأثير لأنفسهم، فيكون ذلك عين الكفر، لأن الكفرة أسوأ حالا من الظلمة، وقد قتلوا خيرة خلق الله الأنبياء، فعمرت بهم الديار بعد ذلك"[164].

كما أورد الشيخ سيدي محمد الخليفة في هذا المنوال رسالة بعثها إليه والده الشيخ سيدي المختار الكنتي أجابه فيها، وتتضمن شرح بعض الأحوال، ونصها:

" الحمد لله ذي الملك والملكوت، والصلاة والسلام على المتحقق بحقائق اللاهوت والناسوت، وربما كان أفصح من النطق السكوت، أما ما ذكرت من الأنوار الشعشعانية فإنها تجليات قدسية، تنشأ عن أحوال روحانية لا تفارق السالك مدة سيره في سلوكه طالبا للترقي، فيلجأ إلى الله تعالى ويعتمد عليه عند هيجانها، فإنه ربما صاحبه فيض، فالواجب عليه في تلك الحالة الصبر والرضى والتسليم واللهج بالدعاء، وليكن من دعائه: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[165]، وكثرة التسبيح قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[166]، وربما صاحبها تبسط، فالواجب عليه في تلك الحالة الإكثار من الحمد والشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهله، وعدم الاغترار بما يرد عليك من جميع الفتوحات، لتعطي كل مقام حقه، دون تلمح إلى حول

---

[163] الحج: 38.

[164] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (267/2).

[165] الأنبياء: 87.

[166] الصافات : 143-144.

ولا قوة، ودون التفات إلى تلك المنح، بل ليكن مطلبك القرب منه والوصلة به، قال الشاعر:

فلا تلتفت في السير غيرا فكل مـا سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا

ومهما ترى كـل المراتـب تجـتلـى عليك فحل عنـها فعن مثلها حلنا

وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا نظرة تجنى

واعلم أن الذي تطلب أمامك، ولا يزال أمامك، ولو بلغت تجلي الكمال، فإن كل حال أحوال، وفي كل مقام مقامات، وفي كل تجل تجليات، فإن كل من لا غاية دونه لا نهاية تلحقه، وكل ما لا نهاية له فلا حد يحصره، وذلك الله لا غيره، انتهت دونه النهايات، وانحصرت دون كمالاته الغايات ونهاية النهايات، قال تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾[167] فافهم. قال الرسول ﷺ في حديث قدسي يرويه عن ربه: « لا يتقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته »، فإن قلت ما وجه الحكمة في كون الفرائض أفضل، وإنما تحصل المحبة التي هي أشرف المقامات بالنوافل دون الفرائض؟، فالحكمة والله أعلم أنه لما كانت النوافل لا يحمل على ملازمتها والمداومة عليها إلا محض محبة الله تعالى، لا جرم جازاه الله بالمحبة منه التي تقتضي أن يكون تعالى سمعه وبصره جزاء وفاقا، وأما الفرائض فربما حمل على استعمالها خوف العقوبة مع بقاء فضلها على النوافل، فاستوجب الملازم لها المداوم عليها أن يكون جزاؤه من السميع العليم أن يدخله جنات النعيم وأن يجيره من عذاب الجحيم، لأن المفضول ربما حصلت له مزية لم تحصل للفاضل، ولأن المشتغل بالنوافل الخيرية لم يواظب عليها إلا بعد مجاوزته عقبة الفرائض إذ من علامات

[167] النجم: 42.

الجهل التهاتر بالنوافل مع التفريط في الفرائض، إذ لا يمكن حصول الربح مع فقد رأس المال، والسلام"[168].

وكتب أيضا في جواب بعض من غلب عليه حال القبض واستولت عليه رؤية التقصير من تلامذته ما نصه:

" الحمد لله الملك الخلاق، الذي بيده تصاريف الأعمال والأحوال والأرزاق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وكل ذائق ومشتاق، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فقد تصفحت كتابك، وفهمت منه ما ذكرت فيه من خوف الطرد والخذلان، فالله تعالى يعصمك من ذلك، لأن حقيقة الحرمان أن يحب العبد ترك العمل اختيارا واستحسانا، مع الإخلاد إلى الراحة، أو يزهد في العمل مع عدم الثقة بثوابه. وأما كون العبد لا يقدر على الإتيان بما يريد ويحب من أعمال البر مع التشوق والتشوف إليها والرغبة فيها مع انكسار قلبه وخوفه، فذلك باب من أبواب البر، قال تعالى: « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ». وقال ابن عطاء: من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل وإذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك. وقال ﷺ: « إن الله يمنع عبده كثرة الأعمال الصالحة مخافة أن يقع في ما هو أعظم، قلنا: ما هو يا رسول الله؟، قال: العُجْب العجب العجب »، أخرجه البيهقي وابن ماجة. واعلم أن الله تعالى لا يسوق محروما ولا مطرودا إلى هذه الحضرة المباركة، فاثبت تنبت، وإياك والاستعجال فإنه حيض الرجال، وإياك والقنوط فإنه سبب السقوط، وإياك وسوء الظن فإنه من نزغات الجن، وعليك بحسن النية واليقين فإنهما أساس التوفيق وقواعد الدين، واعلم أن لا شيء سوى خلق وخالق، فأخرج الخلق من قلبك تجد الخالق أقرب

[168] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/269-270-271).

إليك منك. قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾[169]. وقال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾[170]. وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[171]. واعلم أن الله تعالى ليست دونه مسافة يقربها السير، ولا معارج ترقى بالأعمال، ولكن بالهمم العالية وصل إليه الواصلون، وبالهموم والشواغل انقطع عنه المنقطعون. واعلم أن الأدلاء ثلاثة لا رابع لهم: من دلَّك على الخلق فقد قطعك، ومن دلَّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلَّك على الله فقد نصحك، ولتكن جامعا بين كتاب الله وسنة رسوله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[172]، وقوله ﷺ: « لن يدخل الجنة أحد بعمله »، وقال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ أَصْحَابَ اليَمِينِ ﴾[173]، وهم المعتمدون على الله لا الأعمال والأحوال ولا على الأولاد والأموال، بل على العظيم ذي الجلال، الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، هم سبعون ألفا مع كل واحد من السبعين ألفا سبعون ألفا، ليس المراد أنهم لا يسترقون، ولكن إذا استرقوا لا يعتمدون، بل على ربهم يتوكلون وإليه يستندون، والسلام"[174].

وقال الشيخ سيدي محمد الخليفة: " ومن بدائع تربيته رضي الله عنه ما كان يجامل به من به بقية رياسة أو حب جاه أو دنيا من مريديه، ويتألفه به من الجري له على ما يوافق طبعه، حيث لم يصادمه شرع عملا بما كان ﷺ يتألف به أصحابه فإذا قيل له رضي الله

---

[169] ق: 16.

[170] الواقعة : 85.

[171] البقرة: 186.

[172] الزخرف: 72.

[173] المدثر: 38-39.

[174] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/274-275-276).

عنه في ذلك، قال: أما بلغكم قوله ﷺ: « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله على وجهه في النار »، وقوله ﷺ: « بعثت رحمة ولم أبعث عذابا »[175].

المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه:

أثنى على الشيخ سيدي المختار الكنتي العديد من العلماء والمشايخ والدارسين وممن تتلمذوا على يديه أو قدموا إلى زاويته أو راسلوه أو تلقوا رسائله أو ممن وصلهم خبره، أو ممن درسوا كتبه ودرسوا تاريخه، فقد ترك موروثا علميا غنيا تزخر المكتبات المغربية والأجنبية برصيد هام منه، كما ترك سمعة طيبة، ووصل به تصوفه وأحواله إلى مقامات ربانية عالية، وذاع صيته وطارت شهرته في آفاق البلدان الإسلامية، وأثنى عليه العلماء من جوانب عديدة في شخصيته، تناولها ابنه وخليفته في كتابه "الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالد والوالدة" الذي خصصه لترجمة الشيخ سيدي المختار الكنتي ووالدته، كما تناولها آخرون في مباحث ترجمة أو مباحث قليلة، من تلكم الجوانب:

المطلب الأول: شخصيته الذاتية:

يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة عن وقاره: " أما وقاره رضي الله عنه، الزائد من غير أبهة ولا تطاول، ولا غم على الجلساء، مع سكوته المنبني على العبرة والفكرة في جلال الله تعالى وبدائع صنعه وحقائق معارفه دون عِيٍّ، ولا إمساك عن أمر بمعروف تعين أو نهي عن منكر تبين، في مروءة وحسن هدي مما لا ينعته الناعت بحد جامع لوجوهه الظاهرة، فضلا عن معانيه الباطنة الباهرة، إذ كان رضي الله عنه أعظم الناس وقارا، إذ برز للناس وخرج إليهم لا يكاد يخرج شيء من أطرافه، فإذا خلا بخاصته من أهله ومريديه وأولاده وحشمه انبسط معهم ولاطفهم، كان ذلك له دأبا وعادة على النحو الآتي بحول الله ومشيئته مشروحا بمحله، فإذا جلس تربع وربما توركّ ووضع مرفقيه على

[175] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (276/2).

ركبتيه، قليل الالتفات لا يلتفت إلا لحاجة، فإذا التفت، التفت بسائر بدنه، وما رئي مادًّا رجليه بين يدي جليس إلا أن يكون من خاصته، كثير السكوت لا يتكلم لغير حاجة تدعوا للكلام ولا يسرد الحديث لعجلة، بل يتمهل فيه ليفهم عنه، كثير الإعراض عمن يتكلم بغير جميل لا يرضاه، فيعلم المتكلم بذلك بإعراضه أنه غير مرض عنده رضي الله عنه، وكان مع وقاره رضي الله عنه وسكينته حلو الفكاهة طيب الأخلاق لين العريكة، يود مجالسه لو لم يفترق المجلس به، مهيبا في مجلسه لا يرد عليه إعظاما له وإجلالا، تتردد حاجة ذي الحاجة في صدره مدة كلما جلس بين يديه للكلام ألجمته الهيبة، مع المباسطة والإقبال التام منه رضي الله عنه على الخاص والعام، يعرف ذلك بديهة كل من جالسه، ساكن الأطراف في مجلسه قليل النظر إلى وجوه الجلساء لا يحد منظره إلى منظور إليه، فإذا صادف بصره بصر جليس أغضى كالمستحي. وكان في آخر عمره قليل الخروج من البيت لشغله بالتأليف، ورغبته عن كثرة لقا الناس زهدا فيهم، ولمرض حدث بركبته رضي الله عنه من البرد واستعمال الماء زمنه فثقل عليه القيام والمشي من أجله، فكنا نجتمع خارج ستر البيت وكسره، فكان يجري بيننا من الحديث والمزاح ما ترتفع به الأصوات حتى يطرق سمع الشيخ رضي الله عنه، فكثيرا ما يتصامم عنه ويتعامى وربما زجر عنه، وقال: مثل هذا مما يتحامى[176].

وقال مثنيا عليه كذلك: " وأما مروءته رضي الله عنه فكانت إلى الحد الفائت للحد، نزاهة نفس، وكرم طبيعة، وجود يد، ووفاء عهد، وإنجاز وعد، وكتب إليه بعض تلامذته ممن له بسطة مال بما حاصله الاستشارة في قضاء حوائج من يقصده من أولي الحاجات، وأن أزواد دار نكد عيش وتعسر أسباب، فمن فتح على نفسه فيه باب مواساة الناس أفقروه، ومن حرمهم عابوه واحتقروه، فهل الأولى حفظ المروءة معهم ولو أدى إلى فقره؟ أو دفعهم وحرمانهم إبقاء على نفسه ولو أخل بمروءته؟، فكتب رضي الله عنه في

[176] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (10/2).

جوابه: "بعد الحمد والثناء على رسوله، أما بعد، أيها الابن الأريب والمريد الصادق، فإن المروءة من الأديان بمنزلة الرأس من الأبدان، فقد قال ﷺ: « الدين المروءة، ومن لا مروءة له لا دين له »، وقال: « كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه »، وذلك أن المتكرم بلا عقل يجهد القصد، والذي يطلب الحسب بدون خلق في نفسه يضيع الحسب[177].

ومن مروءته رضي الله عنه إكرامه للضيف الإكرام الزائد الدائم المستمر المستغرق لأنواع الكرامة من تلق وبشر، وجائزة دائمة وخدمة وتأنيس، طالت إقامته أو لم تطل بل كلما أزمع الوفد أو الضيف الرحلة أقامه، لا تزيده كثرة الأضياف والوفود من أولي الحاجات وغيرهم إلا سعة صدر وطلاقة وجه وكثرة إنفاق، سواء في ذلك عنده زمن العسرة والميسرة، بل يستأنس بتراكم الوفود ويستوحش لخفتهم، ووفد علينا ذات عام كَاوَى بن أَمَّ بن أَكْ الشيخ في مائة وثلاثين راكبا، أيام فتنة الطاغية علي بن محمد بن رحال، ووفد بوفوده: كل انتصر وأهل أبي جبيهة والبرابيش وسائر كناتة، فمكث في من معه أربعين ليلة لم تتغير الجائزة يومه الأول إلا أفضل منها، فلما ارتحلت الوفود وليتهم لم يرتحلوا، ويكفي في ذلك أنه رضي الله عنه أقام زاوية في البادية حيث لا حرث يحصد ولا نخيل يجذ[178].

ويقول كذلك في مناقبه: " وكان يهتم للضيف اهتماما زائدا، فإذا قدم إليه طعام قبل أن يقدم للأضياف ما يقدم إليهم قال: ليس من المروءة أكل الرجل قبل ضيفه، ألم يبلغكم قول الحساني يهجو رجلا:

يَشْرَبْ كَـبْلْ أَوْلاَدُ اسْغَـارْ يَوْكَلْ كَـبْلْ أَظْـيَافِـيـنْ

---

[177] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة " للشيخ سيدي محمد الخليفة، (13/2).

[178] المصدر نفسه، (18/2-19).

بل كان رضي الله عنه ينفق إنفاقا لا يشك من رآه أنه ينفق من خزائن الغيب، ومن عجيب أمره أن زيادة الضيف والوفود زائدة في النفقة على الجيران والسؤَّال، بخلاف المعتاد عند الناس من الضيق على العيال، فضلا عن غيرهم من الجيران عند تكاثر الضيف وضيق ذرع المضيف، فإذا سافر الشيخ رضي الله عنه قامت الشيخة رضي الله عنها في ذلك مقامه أتم القيام، بل كان يقيم في السفرة العام وشيعه فلا يتغير ذلك ولا ينقص. ومع ذلك وغيره يحفر الآبار في الأرض الموات ليحييها للناس، فينفق عليها النفقة الزائدة، يحفر البئر وعمقه في الأرض أربعون قامة، يتكلف القيام عليه والقعود حوله حتى يخرج ماؤه فلا يرد عنه وارد، بل كان الناس فيه سواء، ويقول: بلغني أن النبي ﷺ قال: « لا عمل أعظم أجرا عند الله تعالى ولا أوفر أجرا من إزالة الحائل بين السماء والماء »، فإذا عنّت وليمة عرس أو عقيقة مولود أو حذيقة صبي أو مأدبة ختم كتاب أوسعوا الإيساع البالغ، فتنحر الإبل وتذبح البقر والغنم وتصنع أنواع الأطعمة، فيطعم الجيران والوارد والقاطن، ويبعث إلى من بالقرب من الأحياء، وكان رضي الله عنه يقول عند نزول الضيف: أكرم الضيف فإن النبي ﷺ قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »، جائزة يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام[179].

ويقول: " كان الشيخ سيدي علي إذا قدم عليه ضيف من كناتة يقوم بنفسه ويتناول الفراش بيده المباركة ويحمله إليهم، فإذا جاء إليه من يلتمس حمله عنه، يقول: هؤلاء أشياخنا وأضيافنا فخدمتنا بأشفار الجفون قليل من كثير ما يجب لهم علينا من حيث الشيخوخة، ويخدمهم بنفسه الشريفة، وينشد في ذلك متمثلا:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا ولا شيمة لي غيرها تشبه العبدا

[179] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/18-19-20).

وكان الشيخ رضي الله عنه يقول في الحض على خدمة الضيف: "بلغني أن زيد العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهما كان يقول: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم عليه السلام بنفسه وأهله، أما سمعت قول الله سبحانه: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾[180]. وإذا كان زمن العسرة والمجاعة ونزل الضيف وكثر قال رضي الله عنه: "رزق الضيف على الله وأجره للمضيف، فعلى الرجل أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يغمه هجومهم عليه في ضيق من ذات يده، بل يتلقاهم بالبشر ويقدم إليهم ما وجد، فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة: أنهم كانوا يقدمون للضيف الكسرة اليابسة وحشف التمر، ويقولون: ما ندري أعظم وزر الذي يحتقر ما يقدم إليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه؟"[181].

وذكر الشيخ سيدي محمد الخليفة من فضائل أخلاق الشيخ سيدي المختار الكنتي وعفوه، قال: " وأما عفوه رضي الله عنه فقد قدمنا من حلمه وصبره الذين هما قاعدة العفو وداعية التجاوز والصفح ما فيه كفاية، وأنه كان لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها مع احتمال الأذى من الأصحاب وغيرهم، ويقول: ذلك شأن هذه الطائفة فإنهم يقولون: لا يثبت لمريد قدم حتى يكون فيه ثلاث: حمل الأذى، وترك الأذى، ووجود الراحة عند الأذى، وكان يسمع رضي الله عنه الأذى بأذنه ويبلغه ولا يتأثر له، ولهذا قيل: لو توجه العارف للانتقام ممن ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به تمنعانه من الانتصار، وكيف ينتصر من الخلق أو يقابلهم من يرى أن الله هو الفاعل المختار؟. ولا يعكر على هذا المعنى ما ينال من كان يؤذيه من النقمة الشديدة والهلاك والنقص في دينه ودنياه، إذ ليس من قبل الشيخ من حيث الانتصار لنفسه حيث كان عن دعاء وتوسل إليه تعالى، وإنما يكون عن انتصار الله تعالى له وغيرة لحرمه، وربما كان ذلك بأمر من الله تعالى

---

[180] هود: 71.

[181] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/21-22).

دون علم ولا دعوة، فإن لحوم الأولياء مسمومة، وذلك أن الولي إذا صدق في التوكل ورد الأمر إلى الله تعالى انتصر الحق له، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[182]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[183]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[184]. ثم إن الأولياء على أربعة أقسام:

قسم يدعون على من ظلمه، ودعاؤهم جدير بالإجابة لقوله عليه الصلاة والسلام: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ».

وقسم لا يصرحون بالدعاء، لكن يلجأون إلى الله تعالى بالنصرة، وانتصار الله لهذا القسم شديد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[185].

وقسم لا يدعون ولا يلجأون، ولكن يفوضون الأمر إلى الله تعالى.

وقسم وهم الأعلون بالنسبة إلى من تقدمهم إذا ظلموا رحموا من ظلمهم ودعوا له، والكامل الجامع من تكون له تلك النسب بحسب ما يقتضيه المقام، فيدعوا مرة ويلتجئ إليه تعالى في غالب الأحوال[186].

أما عن شجاعته، فيقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: "وهو رضي الله عنه من الشجاعة والنجدة بالمقام الأكمل، والمحل الذي لا يجهل، إقداما على العدو وثباتا في الأمور الهائلة، سمعته رضي الله عنه يقول: كنت في بداية أمري، كلما سلكت سبيلا مخوفا تعرض به شخص فصوت صوتا هائلا فأعدل عن تلك الطريق، فركبت ذات يوم ومعي صاحب لي وسلكنا طريقا إلى بعض الأحياء وبتلك الطريق ماء، فلما توسطنا

---

[182] الروم: 47.

[183] محمد: 7.

[184] الطلاق: 3.

[185] الطلاق: 3.

[186] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/29-30).

الطريق إذا بالشخص المذكور صوت، فقلت لصاحبي اعدل بنا عن هذه الطريق، وكنا قد قربنا من الماء، فقال: لا عدول لنا عن هذا الماء حتى نرده فنشرب منه، ولا خوف بهذه الطريق إن صاح الصائح، قال: فقلت امض إذا إلى سبيلك فسترى غب ذلك، قال: فلم نمض إلا يسيرا وجمل الرجل أذل من جملي فهو يتقدمني في الطريق إذ انفتل مسرعا، وقال: وراءك وراءك، فقلت: إلى أين؟، قال: العدو أمامك بالطريق، قلت: أما الفرار فلا فرار، فرفعت بصري، فإذا برجْل العدو مهطعين في الطريق يبادروننا، يقول بعضهم لبعض: جمل الراكب المتعمم لي، وينازعه البعض الثاني: وأنا مستقبل وجوههم ذاهب إليهم، فلما وافونا، قلت لهم: هذه الغنيمة التي إليها تسابقتم قد أدركتموها، فماذا عسى أن تصنعوا؟، فأدركتهم هيبة أمسكوا من أجلها، وتقاوموا فيما بينهم: من ترون هذا الرجل الذي لم يكن نبيا فلا أحط من أن يكون وليا؟، فقال بعضهم: لعله الفتى الذي بلغنا أنه جاء من جهة التكرور ولا يكون إلا هو، فتسابقوا إلى الشيخ وأكبوا على يديه ورجليه وقالوا: ويلكم، تجريد الكعبة من كسوتها أخف من تجريد هذا من لباسه، فسألوا منه رضي الله عنه الدعاء ومضوا لسبيلهم[187].

ويقول كذلك عن شجاعته: " وسمعته رضي الله عنه يقول: " قدمت في البداية على اليتامى أبناء اليتيم بن ملوك بن بركن بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر، وهم إذ ذاك أولوا دولة وصولة، فتلقونا بالإكرام والعطية الجسام، وكان فيهم طاغية يدعى أبا رقبة وكان شريرا فاتكا متكبرا، فبلغنا عنه أنه حلف جهد يمينه لئن رأى الشيخ ليخالفن فيه بين مسامير مدفعه كناية عن رميه عنه، حسدا للشيخ وبغيا لما رأى من كثرة الهدايا الواصلة إليه من قومه بعدما سعى في تثبيط قومه وصرف وجوههم عن الإقبال عليه والإهداء إليه، وكان من ثم من الزوايا من يحذر الشيخ من مكره ويقصون عليه ما فرط من فتكات الفاتك وغدره، فعزم الشيخ على القدوم على الفاتك بنفسه حتى يعلم أن العزة لله ولرسوله

[187] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/45-46).

وللمؤمنين، فمن تعزز به كان له العز الذي لا يصل أحد إلى إذلاله، فركب إليه في نفر من الزوايا ثم لم يزالوا يتخلفون عنه واحدا بعد واحد حتى لم يبق مع الشيخ أحد منهم، فقدم على الفاتك منفردا وإذا الفاتك أبو رقبة تحت شجرة إلى كسر خيمته يصلح مدافعه، فلم يفاجئه إلا الشيخ قائما على رأسه، فقال: من الراكب؟، قال الشيخ: ضالتك التي تستضل لأن تخالف فيه مسامير مدفعك، ها هو قد حضر، إن كان لك قوة أو عزة، فلم يتمالك الرجل أن أكب على خف الجمل يقبله ثم على حرانه ثم تناول قدم الشيخ يقبله ويتمسح به، ويحلف بجميع أيمانه للشيخ أن ما بلغه عنه زور وكذب، وأن مبلغه إليه واش نمام، ولئن أعطاك أعيانهم ثلاث بقرات لأضاعفنها لك ولا تأخذها إلا خيارا تختارها من سائر بقري، ففي هذه الواقعة مع التمكن من صفتي الشجاعة والنجدة حجة لقوة يقينه ومعرفته بربه وتمكينه، فقد قالوا: حرام على من فيه سكون لغير الله أو شهود ضار أو نافع مع الله أن يشم رائحة اليقين الذي هو أعلى مقامات المتقين"[188].

وقد أثنى المترجم له على حسن أخلاقه، وفي ذلك يقول: " لا أعدمنا الله وإياكم حسن الأخلاق، ولا جعلنا وإياكم ممن اتسم بسمة الشقاق والنفاق، فمن أخلاقه رضي الله عنه حسن الخلق المسوي فيه بين الرفيع والوضيع والعاصي والمطيع، تخلقا بخلق ربه وتحققا بالتسير بسيرة نبيه وحِبه، إذ كان رضي الله عنه حسن الخلق كثير القبض في بداية أمره، دائم البشر متواصل الأحزان في نهايته، يحض كثيرا على حسن الخلق ومعاملة الناس بلين الجانب وخفض الجناح، ويقول: قال رسول الله ﷺ: « حسن الخلق لا يفارق صاحبه حتى يدخله الجنة، والبخل لا يفارق صاحبه حتى يدخله النار»، وعنه أيضا: «أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن »، وقيل لرسول الله ﷺ: ما الدين؟،

[188] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/46-47).

قال: «الخلق الحسن »، وقيل له: من أحسن المؤمنين إيمانا؟، قال: « أحسنهم أخلاقا»[189].

وقال: "وفي بعض وصاياه: اعلم أن بسعة الأخلاق يطيب العيش ويدوم السرور، وبالتأني تسهل المطالب والعسور، وبلين الكلمة تدوم المودة في الصدور، وبخفض الجناح تتم الأمور، وبالإنصاف تجب الوصلة وبالتواضع تكثر المحبة، وقال لقمان رضي الله عنه: حسن النية من العبادة، وحسن الجلسة من الرياسة، وحسن الاستماع من العلم، وحسن الجوار من الحلم، وحسن الخلق من الكرم، وسوء الخلق من اللؤم، والخلق الحسن أفضل مناقب العبودية، والأسفار تظهر جواهر الرجال، فالإنسان مستور بخَلْقِه مشهور بخلقه. وسمعته يقول:" إن الله سبحانه وتعالى خص نبيه ﷺ بما خصه به، ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله مثلما أثنى عليه بخلقه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[190]، وصفه بالخلق العظيم لأنه جاد بالكونين واكتفى بالله تعالى فلم تكن له همة غيره تعالى، وقالوا: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف". وكان رضي الله عنه يستصغر جميع ما صدر عنه من صنيع إلى غيره مع كثرته، ويستعظم ما وصل إليه من غيره تحققا بشهود المنة من ربه وأداء لشكر الواسطة وعملا بمقتضى قوله ﷺ: « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الخلق لم يشكر الخالق »، وما أهدي إليه شيء إلا كافأه وأحسن الثناء على مهديه، وما سمع ذاكرا صنيعا اصطنعه إلى أحد ولا مستكثرا لصنيع، وكثيرا ما ينشده:

زاد معروفك عندي عظما إنه عندك مستور قبيح

وكان إذا بالغ في الوصية والحض على الأخلاق وعدَّدها ونعت محمودها، فقيل له: إنما ذلك من الله غريزة في من غرزها فيه، فما الوجه الوصول إلى ذلك؟، قال: ما تخلق

---

[189] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (85/2).

[190] القلم: 4.

عبد بخلق أربعين صباحا إلا جعل الله له سبحانه ذلك طبيعة فيه، قال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[191] أي خلقك فحسن. ويقول: من تصفح أخلاق السلف الصالح وأعيان الصوفية وسيرهم وكيفية اكتسابهم للأخلاق وأخذهم إياها حتى من البهائم العجماوية، علم أن الأخلاق لم تكن كسبية الأصول فهي لا محالة كسبية التتمات"[192].

المطلب الثاني: شخصيته السياسية:

ويذكر الشيخ سيدي محمد الخليفة سياسته مع القبائل المتحاربة بقوله: " وكان رضي الله عنه يوم إذ التقى جمع أولاد الناصر وأولاد بلَّ على حين اجتماع من أكابر أهل تيشيت وعلمائها مع الشيخ رضي الله عنه لإيقاع الصلح بين الجمعين، فبينما هم آخذون في الصلح إذ فرط فارط من أولاد بلَّ فأغار على شول أعمر بن موسى بن الشعر بن اشبيشب، فورد على الجمع منذر بالإغارة على شول أعمر بن موسى، فتثاور الجمعان من حينهم وخرج من هناك من الزوايا فرارا، إذ قد تناشب القوم ولم يثبت هناك غير الشيخ رضي الله عنه فإنه لم يغير جلسته التي كان عليها، ولم يبرح من مكانه ذلك حتى انهزم أولاد بلَّ، ورجع الطلب من آثارهم بعد ما قتل من قتل منهم ونهبت جميع أموالهم وأمتعتهم وبقي عيالهم سبيا محدقين بالشيخ رضي الله عنه. وكذلك دأبه رضي الله عنه مع الجموع الكثيرة التي يحضر مزاحفتها ومناشبتها، وما يهجم عليه من العدو ممن يعرفه ولا يعرفه لا يتأثر بهجومه ومفاجأته أدنى تأثر[193].

كما أثنى من ترجم له على سياسته لعامة الناس، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: " وأما سياسته رضي الله عنه للعامة والخاصة وضبطه لأمورهما وتصرفه فيها بالعدل والاستقامة فما لا يجحده جاحد، ولا يرده مساعد ولا معاند، ولا يحده منصف ولا

---

[191] المدثر: 4.

[192] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة " للشيخ سيدي محمد الخليفة، (86/2).

[193] المصدر نفسه، (50/2).

ناقد، فسياسته للخاصة بالدلالة على الخير والإرشاد عليه، والنصيحة والرياضة والتربية والترقية. وسيأتي بحول الله ومشيئته شرح ذلك في محاله من هذا المجموع، وسياسته للعامة بالمداراة والملاينة، والوعظ تارة، وبالزجر والقهر والضرب والنهر والقتل أخرى، بحسب الداعية الشرعية والمقام والحال، على ما سيأتي بسطه في مواضعه بمشيئة الله وحوله، مع الاستقامة وحسن السيرة في ذلك كله من المسامحة وتهذيب الأخلاق وتوطئة الأكناف، وقلما تتفق السياسة العظمى إلا مع التجبر والتعظم والتحجب كما تراه من الملوك ومن في معناهم، وهو رضي الله عنه جمع ذلك إلى التواضع وحسن الخلق والملاينة والمداراة في غير مداهنة [194].

وقال كذلك: " وكان رضي الله عنه مستعملا للحزم في جميع الأمور سيما أخذ الحذر من العدو ولم يأت عنه نبأ، فإذا قيل له في ذلك قال: أنا لا آمن مكر الله، والعدو إنما يلتمس الغرة والفرصة والطرف تلف والنار الحذرة النار التي ما وراءها إلى العدو نار"[195].

المطلب الثالث: شخصيته الاجتماعية:

أما عن شخصيته الاجتماعية فيقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: " وكان الشيخ رضي الله عنه لا تكاد تميز في مجلسه بين أولي عداوته وذوي مودته، بل يخص العدو والشانئ بمزيد الإكرام والكرامة، ولا يعتب على مسيء بعد تنصله، ولا يجفو عدوا ولا يعاقبه بعد الظفر به، بل كان يحسن إليه ويلاطفه ويبر به غاية البرور ويحدب عليه، إن كان ثم عدو يحاول التشفي منه تقربا بذلك لرب العزة جل وعز، رغبة عن مقابلة الشر بمثله، ويقول: " ليس ذلك من شيم الكرام، وإنما شيمتهم الحلم والأناة والصفح والعفو"، ويحكي في ذلك من حكايات من عفا من أولي الأقدار بعد الظفر والاقتدار ما يضيق عنه نطاق المجموع، من ذلك ما روي عن محمد بن سحنون رحمه الله وكان قاضيا بإفريقية، قال:

---

[194] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة ، (2/53-54).

[195] المصدر نفسه، (2/75).

فكنا إذا قعد للتدريس أتاه إنسان يتخطى رقاب الناس حتى يصل إليه فيحدثه في أذنه ساعة ثم ينصرف، فبقي كذلك مدة، وكان إذا أقبل يقول القاضي للجماعة: أفسحوا له، ويأتي فيفعل العادة، ثم انقطع بعد مدة فسأل من حضر، فقالوا: لا علم لنا بأمره، فقال: التمسوه فإذا وقعتم عليه فأتوني به، فوجدوه فأتوه به، فأخذه وخلا به وقال له: ما منعك من عادتك؟، فقال له: يا سيدي لي بنات قد كبرن واحتجن إلى التزويج وأنا فقير، فقال لي بعض الأعيان: إن أغضبت القاضي أزلنا فقرك وجهزنا بناتك، فبقيت تلك المدة أجيء إليك فأقذفك وأشتمك وآتي ما رأيت، لعل ذلك يحرك من غضبك يوما لأصيب ما جعل القوم لي، فلما يئست من إثارة غضبك أمسكت عنه إذ لا فائدة فيه، فقال: لو أخبرتني ابتداء كنت أقوم بضرورتك، أتسافر؟، قال: يا سيدي أنا عند ما أشرت به علي، فأمر الكاتب أن يكتب له كتابا بالوصية عليه إلى نوابه في البلاد وبما يدفعون إليه، فسافر إلى تلك البلاد، ثم رجع ومعه من الأموال ما أزال فقره وجهز بناته[196].

وكثيرا ما يقول رضي الله عنه: " الذي يؤذيك في الحقيقة هو المحسن إليك، لأنه الذي أحسن إليك بما يبقى من حسناته إن كانت له، فإن لم تكن له حسنات حمل من سيئاتك، فمن حقك محبته بدل بغضته، والإحسان إليه عوض الإساءة إليك، وشأن أهل التوفيق اغتنام الباقي"[197].

ويقول كذلك الشيخ سيدي محمد الخليفة في عفو الشيخ رحمهما الله: " وكان رضي الله عنه كلما كبرت الجناية وعظمت القدرة على الجاني، عظمت رغبته في العفو عنه وانبعثت نفسه الشريفة إلى التنفيس عنه والإحسان إليه، فإذا قيل له: إن العفو عن مثل هذا لا يزيده إلا جرأة وجسارة على الجناية على جنابكم، وكان داعية لمثله على ارتكاب مثل جريمته، ولو أنكم عاقبتموه ولو بأخف مما يستحق لكان مقمعة له وحسما لمادة

---

[196] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/34-35).

[197] المصدر نفسه، (2/35).

جناية الجناة من أشكاله، فلا يزيد على أن يقول: بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول:« ما ازداد عبد بعفو إلا عزا، فاعفوا يعزكم الله »[198].

المطلب الرابع: شخصيته العلمية التخصصية:

أما عن شخصيته العلمية فقد اشتهر سيدي المختار الكنتي بالعلم والمعرفة والتضلع من مختلف مناحي الثقافة الإسلامية، فقد نهل من الثقافة الإسلامية المنتشرة في الصحراء الإفريقية وترك تراثا فكريا غنيا شمل علوم القرآن والفقه والتوحيد والتصوف والنحو، ورسائل دنيوية متنوعة إلى قبائل الصحراء لرأب الصدع بين القبائل المتناحرة، خاصة بين الطوارق والرماة والفِلَّان وكنتة[199].

أما عن ورعه فيقول الشيخ سيدي محمد الخليفة: " وكان رضي الله عنه كثير التوقف عند كل فعل وقول حتى يعرضه على ميزان السنة والكتاب، والعرف لأنه عنده من جملة الشريعة، فإن كان الفعل أو القول مما له أثر قائم لم يقدم عليه مع ذلك إلا باستخارة رب العزة سبحانه واستشارة من يثق به من خاصته، ويقول: كل قول وعمل لا يشهد له كتاب أو سنة أو عرف مستقيم بدعة، وينشد:

وخير أمور الناس ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

وما لم يجد له دليلا من كتاب أو سنة أو فرع صحيح توجه فيه بقلبه إلى ربه، فيرد به على الوجه الموثوق به من اجتماع برسول الله ﷺ، وإذن منه فيه أو إشارة يعمل بمقتضاها أو ورود وارد رباني، ثم لا يمكث أن يطلعه ربه على شاهد ذلك من الكتاب أو السنة أو عمل سلف الأمة، فإن قلت: هل لصاحب هذا أن يأمر الناس بما أمره رسول

---

[198] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (40/2).

[199]"أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصاقي، (ص16).

الله ﷺ بفعله أو قوله أو ما ورد به عليه وارد رباني؟، فالجواب أن مثل هذا لا يخلوا إما أن يعثر له على مأخذ قريب أو بعيد من كتاب أو سنة أو عمل أم لا، الأول يجوز أمره به والعمل بمقتضاه، والثاني لا ينبغي له الأمر بالعمل به لأنه أمر زائد على السنة الصحيحة الثابتة من طريق النقل، ومن أمر الناس بشيء زائد على ما ثبت بالنقل فقد كلف الناس شططا، اللهم إلا أن يشاء أحد ذلك فلا حرج عليه، سيما إن كان في فضائل الأعمال أو وجوه معاملات الصوفية كما هو شأن مقلدي المذاهب المستنبطة من الكتاب والسنة والله أعلم"[200].

ويقول كذلك: " وكان حريصا على العمل بما بلغه عن رسول الله ﷺ وأصحابه العمل به على النحو ما عملوا به فيه، وكان رضي الله عنه تساوي سريرته علانيته في الخير فلا يرى له عمل يرده عليه ذو طبع سليم أو شرع مستقيم، وكان يقول: من وصية الخضر عليه السلام لعمر بن عبد العزيز لما اجتمع به في المدينة المشرفة، وسأله أن يوصيه بوصية: إياك يا عمر أن تكون وليا لله في العلانية وعدوا له في السر، فإن من لم تتساو سريرته وعلانيته منافق، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، ويقول: كان الشيخ سيدي علي بن النجيب يقول: ما وصف لي رجل قط إلا وجدته دون ما وصف به إلا سيدي الحاج أبا بكر فإني وجدته فوق ما وصف به، وسمعته يقول: إذا وافقت سريرة العبد علانيته قال الله تعالى لملائكته: هذا عبدي حقا، وكان يقول: من كانت سريرته أفضل من علانيته وعلانيته صالحة فذلك الفضل، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور، وكان رضي الله عنه كثير الخوف من ربه كثير العبرة عند ذكره، وكان يقول: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام وهو للعوام من أهل الخصوص[201].

---

[200] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/87-88).

[201] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (2/88-89).

وقد بلغت شهرته بلاد المشرق إذ ذكره الطهطاوي في رحلته قائلا: "وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة وأنها سائرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوي بأرض أزواد بقرب بلاد تنبكتو، وله مؤلف مختصر في فقه مالك ضاهى به "متن خليل" وضاهى أيضا "ألفية ابن مالك" في النحو وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرية والباطنية "كأوراد وأحزاب الشاذلي"، وقد ألف كتابا وسماه "النزهة" جمع فيه جملة علوم فذكر علم الهيئة فتكلم على كروية الأرض، وعلى سيرها ووضح ذلك فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ولا يغر اعتقاد تحركها أو سكونها، مات هذا الشيخ 1226 من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام[202].

وفي كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط": "كان من أفراد عصره علما وصلاحا"، بينما صنفه أبو إسحاق التادلي في عداد الذين جددوا العلوم والدين بالمغرب، وذلك في مقيدة له ذكر فيها معلومات عن حياته ورحلته المشرقية، كما عده الدكتور أحمد أبا الصافي جعفري من أعلام الدراسات اللغوية في توات خلال القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، وذكر له وحده سبعة مؤلفات في اللغة، في قائمة من أصل تسعة عشر مؤلفا لغويا لعلماء توات خلال نفس الفترة الزمنية[203].

أما الإمام محمد بلّو بن عثمان بن فودي، فقد أشفع ترجمته للشيخ الكبير بأبيات رائعة من إنشاده، يقول فيها:

يا قاصدا نحو الهدى يعتام بي ويـقودني فـي ليـلتي ونهاري

بـلـغ تحـياتي لكـنتـة بأسرها لا سـيـمـا للسـيـد المـختـار

---

[202] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصاقي، (ص16-17).

[203] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (14/4).

أبلغ تـحـيـة مـشـتـك زلاّتـه للـغـوث مـع أقـطابـه الأخيار

واطلب لنا منه الدعـاء فـإنـه بـدعائه نـرجو قضــا الأوطار

وقال عنه في كتاب "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور": " الشيخ العالم سيدنا الوافي الكنتي العلامة الفقيه، المحدث الصوفي، الولي الصالح، القطب الغوث، العارف بالله، الرحالة، المشهور شرقا وغربا، وبالجملة فقدره فوق ما يذكر، فهو آخر أئمة الصوفية المحققين، الجامعين للحقيقة والشريعة، له كرامات وتواليف مفيدة"[204].

وقال عنه الشيخ عثمان بن فودي:

بلغ تحياتـي إلى المـختـار سراجنا فـي هـذه الأمـصـار

وقل لـه ليـدع بالخـيـرات في هذه الدنيا وفي الممـات

يا رب زد لشيخنا المختــار كرامة التوفيق فـي الأخـيار

وانصره يا رب على الأعداء وأعـطـه بأجــزل الـجـزاء

وقـدر لـقاءنـا فـي الجـنـة يوم النشور يا عظيم المـنـة

بـجـاه سـيـد الـورى محـمد وصحبه ومـن والاه يقـتــد

صلى عليه ربـنا وســيمـا علـيـهـم بالسـلام عـمـمــا[205]

ويقول عنه الوريكي الغيغائي في "رحلته الحجازية" عند حديثه عن الدخان والقهوة وحكمها وخاصة طابة: " تكلم عليها المتأخرون كثيرا سيما أهل الصحراء منهم العارف

---

[204] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (14/4).

[205] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصاقي، (ص20).

القطب السيد المختار الكنتي رحمه الله، إلا أن كلامه عليها دل على كراهتها وإباحتها وجعل فيها تفصيلا لأجل أهلها، وقال من استعملها من أجل الدواء أو هو في بلد كان الناس يستعملونها وإن تركها ينقص عندهم من مروءته ورتبته فله استعمالها، وكذلك من تربى بها وإن تركها يتضرر فله استعمالها، وهذا كله من أجل الضرورة، وجعلها أيضا من سفاسف الأمور فلا يتعاطاها إلا ضعاف العقول"[206].

وفي "البشرى شرح المرقاة الكبرى" للشيخ التسليمي، عن الشيخ سيدي المختار الكبير: "وقد أجمع جميع المشائخ في عصره ومن بعده على جلالته وسيادته بين الأقطاب وكونه مظهر فيوضات رب الأرباب، علم الجاهل وبين المناهل، وعرّف ورسم، وبيّن وقسم، وأورد وأصدر، ورقّى وصدّر، وألّف وصنّف، و نوّر وشنّف، له المناقب المأثورة والكرامات المشهورة"[207].

كما عرف عنه الإكثار من الشعر والتأليف، وشعره كثير جدا في سائر ضروب الشعر يجئ منه مجلدا، وكذلك أحزابه وأدعيته ورسائل كثيرة لأصحابه، وقد راسله العالم مرتضى الزبيدي من مصر ومنحه[208].

---

[206] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصاقي، (ص 17–18).

[207] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (17/4).

[208] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص18).

المطلب الخامس: شخصيته الصوفية الإشماعية:

أما عن شخصيته الصوفية فيورد الشيخ يوسف النبهاني في كتابه "جامع كرامات الأولياء" عن الشيخ الكبير، قوله: " من أشهر أولياء المغرب وأعظمهم قدرا وأجلهم معرفة"[209].

وفيه يقول الشيخ العلامة الشريف محمد عبد الحي الكتاني الفاسي: "والطريقة الكنتية القادرية من أشهر ما في المغرب، كما أن صاحبها-يعني الشيخ الكبير- هو من أشهر أولياء المغرب والسودان وأكبرهم رضي الله عنه"[210].

أما البرتلي صاحب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" فيقول في مستهل ترجمته له: " الشيخ سيدي المختار القطب الرباني والغوث الصمداني، الولي ذو البركات الشهيرات، وشيخ الأشياخ السادات، من ظهرت بركاته شرقا وغربا، ومناقبه في الناس عجما وعربا، ساقي المريد، وعمدة أهل التوحيد، شيخ المحققين، ومربي السالكين، أبو المواهب السنية، صاحب الأخلاق المرضية، ذو الكرامات الظاهرة، السيد الأسنى، والذخيرة الحسنى، كان رحمه الله تعالى وليا عابدا زاهدا"[211].

ويقول المستشرق الفرنسي بول مارتي في شأن الشيخ سيدي المختار الكنتي: " لقد كان الشيخ سيدي المختار الكنتي شيخا شديد الورع، ومثقفا من الطراز الأول ورجل سياسة، وقد لعب في الحياة الصحراوية بين 1760-1811م دورا من أكثر الأدوار أهمية، وتجمع النصوص التاريخية المكتوبة والأحاديث الشفهية المروية على هذا المعنى، كما كان قبل كل شيء مصلحا وفاتحا إسلاميا حقيقيا اجتذبت زاويته خلقا جمّا من الأتباع والمريدين،

---

[209] "أضواء على الثقافة العربية في افريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية" لحسن الصادقي، (ص18)

[210] المرجع نفسه.

[211] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (19/4).

فانتشروا في كل أقطار إفريقيا الغربية، وبالتالي تدين لهم الصحراء الكبرى وبلاد السودان في الوقت الحالي باعتناقها الإسلام "[212].

وحق لهذا المستشرق أن يعتني بالتأليف والكتابة عن هذا الشيخ وبنيه وأحفاده، فلقد أقلقوا المستعمر وقضّوا مضجعه على امتداد الصحراء الكبرى، وكبدوه الخسائر الجسيمة حتى اضطر إلى إلغاء مشاريعه الاحتوائية[213].

ومن هنا حق للمستعمر أيضا أن يبدي قلقه، ليس بسبب المقاومة الحربية وحسب، ولكن تحت وطأة المقاومة الفكرية والحصانة التي تعمل القادرية الكنتية على بنائها ضد أي فكر دخيل[214].

وعن ظهور أمر الشيخ الكبير، يورد الدكتور عبد الرزاق إبراهيم في كتابه " أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية" ما يلي: " وظهر سيدي المختار الكنتي الذي نجح بسبب تمتعه بصفات حميدة وثقافة عالية في أن يصبح قطبا للطريقة القادرية، وصارت له مكانة روحية كبيرة بين قبائل الصحراء، وأيدت قبائل الطوارق هذه الحركة الدينية التي يقودها علماء كنتة مما ساعد على انتشار الطريقة بشكل أوسع وأعمق"[215].

ويقول المرحوم الأستاذ محمد يحظيه بن أعمر ولد عبدي، في كتابه: "الجانب التاريخي للرسالة الغلاوية" في شأن الشيخ سيدي المختار الكبير: "كاد أن يقول الناس إنه هو الفاتح الثاني بعد عقبة بن نافع، فقد كان مشعلا وضاء أنار بسراجه آفاق السودان والصحراء الكبرى، وكان مجددا أحيا رسوم الطريقة القادرية بعد العفاء وبعث رمم حقائقها بعد طول الإماتة والثواء"، ويقول أيضا: " كان الشيخ بحق رجل دين

---

212 "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة "للشيخ سيدي محمد الخليفة، (18/4).

213 المصدر نفسه، (22/4).

214 المصدر نفسه، (22/4).

215 المصدر نفسه ، (20/4).

ودولة، دانت له بلاد السودان والصحراء الكبرى وبلاد شنقيط، بحيث كانت تعاليمه وتوجيهاته قد وصلت إلى هذه البلاد، وتخرج على يده فطاحلة عظماء كان لهم الشأن الكبير في بث الطريقة القادرية في المنطقة"[216].

وقد ذكر المستشرق الفرنسي بول مارتي جملا من كراماته رحمه الله، ووضع لها مبحثا خاصا في كتابه: "كنتة الشرقيون من عرب مالي والنيجر"، وقال في ذلك: " ففي أحد الأيام طلبت منه أسرته وتلامذته أن يدعو الله لكي يزيد من ثرواتهم ليتمكنوا من القيام بضيافة سخية للمسافرين ولدعم شرف أسرته، وهنا رفض الشيخ قائلا: إنه في الوقت الذي قسم الله نعمه لم يغفل عن إنسان وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يحصل على أكثر من نصيبه[217].

وأحيانا تقصد الشيخ جماعات تطلب استشارات فقهية منه، فينظر في كفه الأيمن ويجيبهم في الحال، ويقول ابنه الشيخ سيدي محمد الذي يروي هذه الخاصية قائلا: "لم أكن أعرف فحوى هذا في ذلك الوقت لأنني كنت طفلا، ولكنني أدركت ذلك تماما فيما بعد"[218].

وقد تحدى الشيخ رجل ذات مرة قائلا: أني أستطيع أن أطير، فهل هناك من يستطيع أن يطير مثلي؟، فأجابه الشيخ: أنا، والآن ندخل في سباق وسنرى قدرة كل منا، وسارا في الطريق، فطار الأول بينما كان الشيخ يسير بخطى عادية، وبعد برهة كان الرجل الطائر في المؤخرة كثيرا، في حين كان الشيخ يمشي بخطى وئيدة[219].

---

[216] "الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة" للشيخ سيدي محمد الخليفة، (14/4).

[217] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص51).

[218] المصدر نفسه، (ص51).

[219] المصدر نفسه، (ص51).

وقد اتسع مجال قدرة الشيخ حتى أصاب روسيا ذاتها، فبعد أن عاد من المرعى إلى مخيمه مع ولده الذي كان لا يزال في سن المراهقة، اختفى في صبيحة أحد الأيام وظل غائبا طيلة النهار، وعاد في المساء والتعب باد عليه ظمآن ملطخا بدمائه، ولم يتجرأ أحد على الاستفسار منه في تلك الساعة، ولكن بعد عدة أيام وعندما سأله ابنه عن السبب صرح له بأن معارك شديدة حدثت في المشرق بين الترك والروس، وفي خلال المعركة كان الأتراك في حالة ضعف شديد، ولما لهج لسان قائدهم بالدعاء مستنجدا بكل أولياء الله ممن هم على قيد الحياة، اعتقد عندها الشيخ أن من واجبه أن يطير نحو الجهاد، فأعاد الله للمسلمين شجاعتهم بعد أن كانوا متقهقرين، وبعد أن فني معظمهم ودحرت قوات الكفار من المسكوف، ولكن رصاصة أصابت قدمه، ولهذا عاد وهو يتخبط في دمائه. واستنادا إلى عمر الشيخ سيدي محمد الذي كان يدرس في هذه الفترة حسب قوله الرسالة، فإننا نجد أن المقصود بذلك تلك الحرب القاسية التي شنتها القيصرة كاترين الثانية على الأتراك العثمانيين في عام 1773-1774م، والتي انتهت بمعاهدة كينارجي[220].

المبحث الرابع: مؤلفاته:

إن المكانة العلمية الرفيعة التي كانت للشيخ المختار الكنتي أهلته لأن يخلف تصانيف شتى تدل على موسوعيته وغزارة علمه، مما أدى إلى تنوع موضوعاتها من فقه ونحو وحديث وتفسير وتصوف وغيرها، وتنوع أشكالها نظما ونثرا، واستقلالا وشرحا، تقريرا وجدلا[221].

---

[220] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص52-53).

[221] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (33/1).

وللشيخ سيدي المختار الكنتي عدد كبير من المؤلفات، ويقول البعض أنه ألف من الكتب عددا يساوي عدد سني حياته (84)، في حين ينسب له آخرون 314 مؤلفا[222].

ويتصدر الشيخ المختار الكنتي شيوخ هذه المرحلة في غزارة الإنتاج وكثرة المؤلفات، فقد اشتغل غاية الشغل بالتصنيف في أواخر عمره بنحو سبعة وعشرين سنة، صنف فيها معظم مصنفاته بوجه خارق للعادة، فإن من مصنفاته ما يمكث المصنف الماهر بالتصنيف في مثله ما ينيف على العشرين سنة تسويدا، وهو لم يستوف عاما في تسويد مصنف من مصنفاته، وفيها ما هو في أربعة أسفار ضخام[223].

وهي على سبيل المثال لا الحصر كالتالي:

- **التفسير:**

- لطائف القدسي في فضل آية الكرسي[224].
- فقه الأعيان في حقائق القرآن[225].
- بذل الوسع في شرح الآيات التسع[226].
- كشف النقاب عن أسرار فاتحة الكتاب[227].

- **التصوف والسلوك والأدعية:**

- الكوكب الوقاد في ذكر فضائل المشايخ وأصول الأوراد[228].

---

[222] "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص53).

[223] "جنة المريد دون المريد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (32/1).

[224] مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 5493.

[225] مخطوط بخزانة علال الفاسي، رقم: 818 ع.

[226] تحقيق الأستاذ محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.

[227] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د343، ومؤسسة علال الفاسي: ع 332.

[228] تحقيق الأستاذ محمد الدمناتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، طبعة: 1440 هـ- 2019 م.

- شرح القصيدة الفيضية[229].
- كتاب في الأدعية[230].
- الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينه همة[231].
- التذييل الجليل العادم للمثيل[232].
- الجرعة الصافية والنفحة الكافية[233].
- أدعية وأذكار كنتية[234].
- حزب الفتح[235].
- حزب لا إله إلا الله[236].
- حزب سورة الإخلاص[237].
- حزب النور[238].
- حزب البسملة[239].
- زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس[240].

---

[229] مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 7357، تحقيق الباحث نور الدين الشرقاني على شكل أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (المغرب)، سنة: 2018 م، بإشراف الدكتور الطيب الوزاني الشاهدي.

[230] مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 253د.

[231] مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 1429د، 2541ك.

[232] مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 1736.

[233] مخطوط بالخزانة العامة (الرباط)، رقم: د 3911، د360.

[234] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د127.

[235] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د3236.

[236] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د3236.

[237] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د.3236

[238] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د127.

[239] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د127.

[240] الخزانة العامة بالرباط، رقم : د508.

- دعاء.[241]
- قصيدة في الدعاء من الوباء[242].
- قصيدة في الدعاء[243].
- قصيدة أخرى في الدعاء[244].
- قصيدة في الدعاء[245].
- العلم النافع[246].
- نضار الذهب في كل فن منتخب[247].
- رسالة من الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى علي بن الشيخ بن صالح وإخوانه[248].
- رسالة من الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى أبناء أعمر بن ملوك[249].
- رسالة من الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى أبناء غنوم[250].
- رسالة من الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى رئيس أولاد علوش[251].
- رسالة الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى جماعة إدوعيش[252].
- وصية الشيخ سيدي المختار الكنتي[253].

---

[241] الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، رقم: 494.

[242] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د 3236، ك237.

[243] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د3236.

[244] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د3236.

[245] الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، رقم: 494.

[246] الخزانة العامة بالرباط، رقم: ك1080.

[247] الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 8427، 8493، 2169.

[248] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع332.

[249] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع332.

[250] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع332.

[251] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع332.

[252] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع332.

[253] مؤسسة علال الفاسي بالرباط، رقم: ع131.

- **اللغة والأدب:**

- فتح الودود شرح المقصور والممدود[254].

- **السيرة النبوية الشريفة:**

- نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب[255].

- **الفقه:**

- هداية الطلاب[256].

- فتح الوهاب في شرح هداية الطلاب[257]

- نوازل الشيخ سيدي المختار الكنتي[258]

- **مؤلفات موسوعية:**

- نزهة الراوي وبغية الحاوي[259].

- أسئلة وأجوبة لها[260]

---

[254] تحقيق مأمون محمد أحمد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، الطبعة: الأولى، 2002م.

[255] مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 8427، 439، وبالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، برقم:730د، وقد قام بشرحه ابنه سيدي محمد الخليفة (ت1826 م)، وسماه: "الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب"، وهو مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم 11796.

[256] الخزانة العامة بالرباط، رقم: د372.

[257] مخطوط بمكتبة جامعة فرايبورغ بألمانيا، رقم: MFMAU353/352.

[258] مخطوط بمكتبة جامعة فرايبورغ بألمانيا، رقم: MFMAU792.

[259] مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم :1327ك، 1517ك، ويوجد منه عدة نسخ بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم:92،412 ، 1429،2513، تحقيق أستاذنا الدكتور سعيد المغناوي في رسالة جامعية لنيل شهادة دبلوم السلك الثالث بجامعة السوربون، باريس الرابعة، سنة 1991 م، بإشراف الدكتور دومينيك سورديل.

[260] مخطوط بمكتبة جامعة فرايبورغ بألمانيا، رقم: MFMAU502.

- **العقيدة:**

- رسالة في الرد المبتدعة[261].
- المنة في اعتقاد أهل السنة، وهو المسمى كذلك: الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد[262].

[261] مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتبكتو، 516/5.

[262] الكتاب الذي حققت القسم الأول منه، وهو مخطوط بمكتبة جامعة فرايبورغ بألمانيا: MFMAU1146، وكذلك بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم: 935 ك.

الفصل الثالث: التعريف بكتاب المنة في اعتقاد أهل السنة:

المبحث الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه وعنوانه وتواقيم تأليفه:

المطلب الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه:

أجمع جمهور من ترجم للشيخ سيدي المختار الكنتي سواء كانوا من تلامذته وأبرزهم ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة أو مريديه، أو من العلماء المحققين أو المستشرقين أن كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" من مؤلفات الشيخ سيدي المختار الكنتي، وله عنوان آخر موجود في فهارس المكتبات وخزائن المخطوطات وهو "الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد"، وكان يسمي الكتاب بهذا الاسم ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة الذي كان يستشهد به في جل مؤلفاته خصوصا كتابه " الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالد والوالدة" الذي يعد من أهم الكتب التي ترجمت للشيخ سيدي المختار الكنتي، وكذلك كتابه: "مبردة الغليل وشافية الغل" المسمى بالرسالة الغلاوية، الذي قال عنه محققه الدكتور حماه الله ولد السالم بخصوص المصادر التي اعتمدها الشيخ سيدي محمد الخليفة في كتابه: " ولا نعرف من المصادر التي نقل عنها كاتب الغلاوية سوى مؤلفات والده الشيخ الكبير مثل كتاب "الإرشاد" وهو المسمى أيضا " المنة في اعتقاد أهل السنة"[263]. ومما يدل على صحة نسبة الكتاب لمؤلفه إثبات المؤلف نفسه نسبة الكتاب له، كما أثبت العنوان في نهاية الكتاب قائلا: " وهذا الكتاب أيدك الله بالأنوار والإنصاف وحقائق البر والاعتراف، لم يسمح الزمان بمثله، ولم ينسج السلف في هذا الفن على شكله، أجريت فيه من آي الكتاب العزيز شموسا وأقمارا، وفيه من الأحاديث النبوية عيونا وأنهارا، ورصعته بالحكم الربانية والأمثال الصمدانية، والآداب الفردانية، فصيرت بتطريزه رياضا وأزهارا، وسميته كتاب: "المنة في اعتقاد أهل السنة"، مائلا عن سبيل غلاة أهل

[263] "الرسالة الغلاوية" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (ص34).

الكلام، مجانبا لطرق المعتزلة وجميع أصناف أهل الأهواء الغاوين، إذ ليس فيه إلا نص صريح أو سند صحيح"[264].

وبناء على ذلك أجزم بصحة نسبة الكتاب لمؤلفه.

المطلب الثاني: عنوان الكتاب ودوافع تأليفه:

أما العنوان فألفاظه واضحة الدلالة لا تحتاج إلى شرح وبيان. أما دوافع تأليف الكتاب فتظهر جليا للقارئ في ديباجة الكتاب، فالمؤلف بين في مقدمة كتابه أن سبب تأليفه لكتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" تلبية لرغبة أحد سائليه الذي طلب منه أن يؤلف كتابا في عقيدة أهل السنة، حيث يقول: " هذا وأنه عَنَّ لِي أن أحببت أيها الأخ الكريم إلى ما طلبته مني بفضل الفتاح العليم الهادي بمنه إلى الصراط المستقيم فيما نصه قولك قد ظهر احتياجنا إلى مختصر جامع للقدر الذي تدعوا الحاجة إليه مما يشترك في الانتفاع به الحر والعبد والمرأة والصبي لسهولته وبيانه مع الإيجاز والاختصار من توحيد الله تعالى المبلغ إلى معرفته والتشبث بأذيال أنبيائه وأوليائه عار عن الغلو في الدين كالنقص منه، وقد قلت أنه قد كثر خوض جهلة الناس في هذا الفن الذي هو التوحيد، وشاع تكفيرهم لعوام المسلمين من أمة محمد ﷺ"[265].

وبصرف النظر عن هذا الدافع هناك دافع آخر وهو رغبة المؤلف في تأليف كتاب في علم التوحيد وأصوله، بل جعل فيه فصولا كثيرة في التصوف وما يجب في حق الأولياء من التبجيل، مع التحذير من معاداتهم وذكر أهم مناقبهم وكراماتهم، وبين ذلك في خاتمة

---

[264] الورقة الأخيرة من النسخة (أ) و (ج) من القسم الثاني الغير محقق.

[265] الصفحة 11 من قسم التحقيق.

كتابه بقوله: " أو ما يثبت به الفؤاد أو يتنور به اليقين فيزداد من ذكر معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء التي هي من نتائج معجزات الأنبياء"[266].

فالكتاب ليس موضوعه التوحيد فقط بل التوحيد والتصوف، فقد جمع المؤلف بينهما، فكان دافعه بيان أصول الاعتقاد الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة، وكان يدافع عن التصوف الصحيح من خلال أقوال أساطين التصوف من العلماء والصلحاء وأهل الفضل.

المبحث الثاني: مضامين كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة:

المطلب الأول: مضامين القسم الأول المحقق من الكتاب:

أما عن مضامين كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة للشيخ سيدي المختار الكنتي، فقد افتتح المؤلف كتابه بديباجة مسجوعة على عادة المؤلفين القدامى من حمد الله عز وجل والثناء عليه والصلاة على النبي ﷺ. كما أثنى على العلماء ووصفهم بمفاتيح أقفال المشكلات، ثم بين دوافع تأليف الكتاب وذلك أن سأله أحد الإخوان، ولم يذكر اسمه ولا نسبته، وبيَّن استجابته لطلبه، ليتحدث مباشرة في الموضوع دون أن يضع بابا أو فصلا، فكانت مقدمته طويلة جدا، وأهم ما جاء فيها أنه لا يعذر أحد بالجهل في موجبات الكفر، وموجبات الكفر هو إنكار ما يعلم من الدين بالضرورة أو نص الكتاب العزيز أو إنكار صفات من صفات الكمال أو تكذيب الرسل، وأنه لا يكفر مؤمن بمطلق الجهل، لأن الجهل أصل من أصول البشرية، كما استشهد بأدلة في عدم التكفير بسبب الجهل، وعرف التوحيد بأنه علم ذوق وموهبة لا علم بحث ودراسة، وتطرق إلى قصة أهل الكهف بشكل مفصل، وقصص بعض الصالحين قبل بعثة النبي ﷺ كقس بن ساعدة وزيد بن عمر بن نفيل القرشي عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أصل التوحيد كلمة

[266] الورقة الأخيرة من النسخة (أ) و(ج) من القسم الثاني الغير محقق.

الإخلاص وسورة الإخلاص، واستشهد بآيات في ذلك، وأن معنى لا إله إلا الله المطلق العام أن تقول لا أحد يجب له الوجود والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والقدرة والعلم والحياة، ثم تحدث عن أقسام الكلام، وجعله على ثلاثة أقسام: كلامه القائم بذاته وهو الحقيقي، وخلقي وهو الذي فتق عنه ألسنة الخلق، وخارق وهو القرآن جلاه في طي أصوات وحروف ليظهر به عجز خلقه عن الإتيان بمثله، وتطرق إلى الحديث عن بعض الفرق الكلامية مثل القدرية والجبرية، وكذلك عن صفات الله عز وجل ودليل قيامه بنفسه، ودليل وحدانيته، ودليل قدرته ومخالفته للحوادث، ودليل الإرادة، ودليل العلم، ودليل الكلام.

كما ذكر رحمه الله سبب نزول سورة الإخلاص وأنها كافية في وصفه، وتحدث عن اسم الجلالة وأنه اسم الله الأعظم، وكذلك فضائل سورة الإخلاص، كما بين أن علم الكلام مرغوب عنه، لكن تعلمه واستعماله كأداة للتصدي للفرق والمذاهب الفاسدة في حكم الواجب، للتصدي للفرق والمذاهب الفاسدة، وخير ما ألف في ذلك : "عقد الأشعري"، و"كتاب إمام الحرمين". وذكر أقسام الحكم العقلي عند أهل السنة: واجب ومستحيل وجائز، وأن أهل الكلام اختلفوا في إيمان المقلد وعدمه، فقائل بإيمانه مطلقا وقائل بعدم إيمانه مطلقا، وهذا التقليد لا ينسحب على من قلد رسول الله ﷺ ولا أحدا من أصحابه. ثم بين منزلة التفكر والنظر والتأمل لحصول اليقين والطمأنينة بالقلب، وذكر تأمل إبراهيم عليه السلام. ثم ذكر قصة إبراهيم مع النمرود بشكل مفصل، منذ ولادته عليه السلام ومحاجته قومه إلى حين هلاك النمرود وإسلام ابنه دمشق وهجرته إلى الشام بعدما هاجر إبراهيم إليه، فبنى مدينة دمشق فسميت بإسمه، وذلك أول دخول الكنعانيين إلى الشام.

كما أكد المؤلف أنه لا يتم الإيمان حتى يقطع المؤمن بصحة الواجب في حق الرسل، وهي ثلاثة أشياء: الصدق والأمانة والتبليغ كما أمروا أن يبلغوه، وما لا قدرة للخلق على حمله ومعرفته فإنه يجب على الرسل كتمانه، حيث أمروا بعدم تبليغه، واستشهد بحديث

النبي ﷺ الذي رواه أبو الشيخ في كتابه: "العظمة"، الذي يقسم العلوم التي أنزلت على النبيﷺ إلى ثلاثة: علم أخذ عليه العهد بتبليغه للخاص والعام، وعلم أخذ عليه العهد ألا يبلغه إلا للخاص، وعلم أخذ عليه العهد ألا يبلغه لأحد لأنه لا طاقة لهم بحمله. ثم من الواجب اعتقاده رؤية الله تعالى يوم القيامة وأنه يرى ولا يدرك واستدل بآيات وأحاديث صحيحة في ذلك وبين الفرق بين الرؤية والإحاطة، وأن صحة الإيمان لا تحصل إلا باعتقاد رؤية الله تعالى يوم القيامة لأن من أنكرها أو جحدها فقد كذب بالقرآن، ومن كذب بالقرآن فقد كفر، مع ما أضيف إليه من الأحاديث الصحيحة الصريحة وإجماع الأمة، وخرق الإجماع أيضا وتكذيب الحديث الصحيح من موجبات الكفر.

وتحدث كذلك عن أصل الخلائق وأنهم من عناصر خمسة: خلق من الماء كل شيء حي، وخلق من النور الملائكة والعرش والكرسي واللوح والقلم وأرواح المؤمنين، وخلق من النار الجن والشياطين، وخلق من الريح الطير، وخلق من الظلمة الوحش وأرواح الكفرة. كما أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أيدهم الله بالمعجزات الدالة على صدقهم بشرط أن تكون المعجزة موافقة لدعوى الرسل، كما أن خوارق العادات قد تظهر على يد الساحر والمنجم، وبين المؤلف الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء، فالمعجزة تظهر بلا تقدم سبب عليها ولا جالب، بخلاف الخارق في حق الساحر والمنجم لا يظهر إلا باستعمال أعمال سحرية وكفرية ولا تحدي يصحبها، وأن كرامة الأولياء دلائل على معجزات الأنبياء، فكل كرامة ظهرت على يدي ولي فإنها دلالة على صدق نبيه المتشبث بأذياله ، وعلامة أيضا على صدق اقتدائه وتعلقه بنبيه المبعوث إليه.

كما بين أن من الواجب اعتقاده كونه ﷺ رسولا لجميع الناس لا إلى العرب فقط، وفضله على جميع الرسل، بل وعلى الملائكة لاختصاصه بهذه الدرجات، واختصاصه بالرسالة العامة لسائر الخلق الإنس والجن، كما يجب اعتقاد كونه شفيعا لجميع الناس في الموقف ولأمته خاصة بعد دخول الأشقياء منهم النار. وأن الشفاعة شفاعتان: شفاعة

كبرى، وشفاعة صغرى، فالكبرى مختصة بنبينا لا يشاركه فيها غيره من الأنبياء ولا الملائكة، والصغرى فإنه يشاركه فيها جميع الخواص، فيشفع أولا عليه الصلاة والسلام، ثم أولي العزم من الرسل، ثم سائر الرسل، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم خواص المؤمنين، كما أن الكفار لا تطالهم الشفاعة.

وذكر من الواجب كذلك اعتقاد كون النبي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء والرسل، بل ومن جميع الملإ الأعلى بسبب ما فضله به عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات مثل انشقاق القمر، وتسليم الحجر والشجر عليه وغير ذلك من المعجزات الدالة على نبوته.

وبين مسألة جواز تفضيل القرآن بعضه على بعض، ووجوب اعتقاد فضله على جميع الكتب المنزلة قبله، وذكر من منع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض ومنهم أبو الحسن الأشعري وأبو بكر الباقلاني الذين قالوا بأن تفضيل بعضه على بعض نقص للمفضول والسور، وليس في كلام الله عز وجل نقص، ومن أجاز تفضيل بعض القرآن من العلماء والمتكلمين فإنهم يقولون هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارئ وجزيل ثوابه، وقوله إن هذه الآية وهذه السورة أعظم وأفضل بمعنى الثواب المتعلق بها، واستشهد بأحاديث في فضل بعض الآيات كآية الكرسي، كما شرحها وفسرها تفسيرا مفصلا.

وذكر أن ما يكون معجزة للأنبياء فإنه يصح أن يكون كرامة للأولياء، كما لا يجوز الطعن في عدالة الصحابة، واستشهد بآيات وأحاديث تبين ضلالة الخوارج وأهل الأهواء وأنهم شر الخلق، وضرورة ملازمة الجماعة ونبذ التفرق. وكذلك تحدث عن نشأة علم الجدل والكلام من طرف أهل السنة وسبب إحداثه مواجهة الخوارج والفرق الكلامية والتصدي لهم رغم أن علم الجدل مرغوب عنه. وفسر قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّه حَقَّ

تُقَاتِهِ﴾[267] وبين معناها من خلال أقوال المفسرين، وكذلك منازل التقوى والتمسك بحبل الله وهو الجماعة، والتمسك بأمره والعمل بطاعته، ثم استحالة وجود آلهة غير الله في الكون لأن الله نص في كتابه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[268]، ووصف سبحانه نفسه بما يليق بجلاله وعظمته، وبين أن السماوات والأرض كانتا ملتزقتين وأن الماء أصل كل شيء حي على الأرض وغير ذلك من آيات خلقه عز وجل.

هذا عن مقدمة المؤلف، وأما أبواب وفصول الكتاب فجاءت مضامينها على النحو الآتي:

- **باب في أقسام الإيمان والمؤمنين وأركانه:**

قسم المؤلف الموحدين إلى ثلاثة أقسام: ذائق ومبرهن ومقلد، وقسم الإيمان على درجات: إيمان الملائكة فهو لا يزيد ولا ينقص، وإيمان عامة المؤمنين فإنه يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، وإيمان المنافقين فإنه ينقص ولا يزيد حتى يضمحل.

ثم بين أن الإيمان على مراتب تنتهي إلى السبعين ومنها: إيمان مجرد، وإيمان مصحوب بإدراك، وإيمان مصحوب بيقين، وإيمان مصحوب بتفويض، وإيمان مصحوب بتوكل، وغيرها من درجات الإيمان.

وأما أركان الإيمان فإنها تسعة: الذلة والتواضع، واستقلال العمل وقصر الأمل، والزهد في الفاني والرغبة في الباقي، واللجاء إلى الله في جميع الحالات والرحمة بجميع المخلوقات...

أما الإيمان بالملائكة فهو التصديق بأنهم موجودون، وأنهم أجسام لطيفة نورانية، خالية من ظلمة الهيولى والطبع والشهوة، لها قدرة على التشكل، وأنهم أجسام لا خيالات كما

---

[267] آل عمران: 102.

[268] الأنبياء: 22.

تزعم المعتزلة، وأنهم ليسوا بذكور ولا إناث، بل يجب تسميتهم بالذكور لشرفها، وأنهم معصومون من الذنوب والصغائر والشهوة في أصل فطرتهم، وأن منهم مقربين هم الذين وكلهم الله تعالى بالأمور العظام، فإن جبريل عليه السلام موكل بتسيير الجنود والوحي، وأن ميكائيل عليه السلام موكل بالأرزاق، وأن إسرافيل عليه السلام موكل باللوح المحفوظ وبالصور الذي ينفخ منه في الأرواح وبالرياح، وأن عزرائيل عليه السلام موكل بقبض أرواح المخلوقات وأنه آخر من يموت، وأن حملة العرش يحملونه على كواهلهم يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون ويستغفرون للمؤمنين، وأن الملائكة أرحم المخلوقات وألطفهم ببني آدم وأشدهم لهم صداقة، وأعدى المخلوقات ببني آدم الجن جبلة جبلوا عليها من اليوم الذي طرد فيه إبليس عن الجنة إلى يوم القيامة. ومن الملائكة المقربين الملكان الموكلان بالليل والنهار، فالموكل بالنهار اسمه فرهائيل، والموكل بالليل شرهائيل. كما ذكر المؤلف من آيات الله جريان الشمس في بروجها إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة، فهي تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها، واستشهد المؤلف بآيات وأقوال المفسرين وبأحاديث صحيحة في ذلك. وكذلك فالقمر قدر الله له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلة، كل ليلة بمنزلة منها لا يتعداها، يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثمانية والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة أو أنقص، فإذا كان في آخر منازله رق وتقوس، وكذلك فإن النهار لا يدخل على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، فهما يتعاقبان بحساب معلوم، فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة.

وبين المؤلف أن من الواجب اعتقاده أن الله تعالى فوق عرشه قهرا وغلبة وخلقا، وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، وليس كما يذهب إليه أوهام العامة، وأهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على المؤمن الإيمان به ويوكل العلم به لله عز وجل، وذكر المؤلف حديث مالك بن أنس رحمه الله مع الرجل الذي سأله عن الاستواء، وكذلك لا يمكن حمل الاستواء على

الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز لكونه عز وجل متعاليا عن المكان والجهات. وذكر المؤلف عددا من آيات الله في خلقه، ولما أثبت سبحانه لنفسه هذه الكمالات والفضل الواسع نبه أنه لا ينبغي لعبد أن يدعو غيره في حوائجه الدنيوية والأخروية قلت أو جلت، والدعاء نوع من أنواع العبادات، وحقيقته أن يدعوه المؤمن خاضعا متعبدا بالدعاء له تعالى، والأدب في الدعاء أن يكون خفيا، ولقد كان السلف يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت ولا يجهرون بالدعاء كما يفعل البعض، والمؤمن لا يدعو الله بشيء إلا أجابه الله إما بحاجته التي سأل، وإما أن يدخر له بها ثوابا في العقبى، وإما أن يدفع بها بلاء نازلا، وإما أن يختار له ما هو خير له من جنسها في الوقت الذي يريد، لا الوقت الذي يريده العبد، لأنه أعلم بمصالحه منه، ويجب أن يكون الدعاء مقرونا بالتضرع، واستشهد بآيات في ذلك.

وكذلك من الواجب اعتقاده الذي لا يتم الإيمان إلا به كونه تعالى هو الذي يصور نوع الإنسان في أرحام الأمهات فيبطل بذلك ملتين من ملل الكفر، وهما الطبائعية والدهرية، وملة الركوسية من النصارى، بل جميع ملل النصارى لأنهم تفرقوا في عيسى على ثلاث فرق، واستشهد المؤلف بآيات من القرآن الكريم في بيان كفرهم وضلالتهم. ثم بين مراحل خلق الإنسان بناء على الآيات، وكذلك دلائل تمام قدرته عز وجل، ودلائل البعث بعد الموت، وأن الخلق له معان منها: الإيجاد والإعدام، فعلى ذلك لا موجد ولا مبدع إلا الله تعالى، وأنه سبحانه خلق سبع سماوات طرائق لأن بعضها فوق بعض، ولما كان البعث من قواعد الإيمان العظمى التي لا يصح الإيمان إلا بها وانقسم فيه الناس إلى ثلاث فرق: فرقة أيقنت ببعث الجسم بعد الفناء ورد روحه، وفرقة أخرى أقرت ببعث الأرواح دون الأجسام بعد فنائها فهي كافرة، وأخرى آمنت ببعض الكتاب وكفرت ببعض وتريد أن تتخذ من ذلك سبيلا وهي فرقة من الروافض، فالله سبحانه وتعالى إنما نص في محكم تنزيله على بعث الأجسام الفانية البالية، وأما الأرواح فإنها لم تمت حتى تبعث، وإنما

حقيقة بعثها إرسالها إلى الأجساد بعد بعثها بواسطة نفخة إسرافيل عليه السلام، واستدل الشيخ رحمه الله بآيات في ذلك، وقال أن المعتبر من القبور الأجساد لا الأرواح، كما فسر سورة الزلزلة بناء على الأحاديث النبوية وأقوال المفسرين وغيرها من دلائل بعث الأجسام، وذكر محاجة النبي ﷺ الكفار في إثبات البعث من خلال الآيات والأحاديث الصحيحة.

ومن الجائز الواجب اعتقاده الذي لا يصح الإيمان إلا به اعتقاد كون الرزق بيد الله، لا يزيد في وجوده سبب ولا اجتهاد، ولا ينقص منه ثواب، فمن رأى الرزق من الله وألقى الأسباب وعلم أنها لا تؤثر في الرزق مع تسببه أدبا مع الله وإجراء للحكمة على وجهها الذي أراد الله إظهارها فهو مؤمن، ومن رأى الرزق من الله ومن السبب فهو مشرك، ومن رأى الرزق لا من الله بل من الأسباب فهو كافر حقا كالقدرية القائلين بأن الله خلقهم ولا تأثير له في رزقهم.

ثم ذكر الشيخ فضل الصلاة والمحافظة عليها، وبغض النظر إلى ما عند الناس من الغنى والمال، وفضل مصاحبة الفقراء وبلين الجانب للمؤمنين، والتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين، وأن الله عز وجل لم يخلق عباده إلا لعبادته وتوحيده ومعرفته لا للاهتمام بالرزق، لأنه تعالى تكفل برزقهم. ومعظم أسباب الرزق وأقربها شبها بالاكتساب ثلاثة أشياء: الزراعة والماء والنار، نفى سبحانه تأثير بني آدم في إيجادها ولو جدوا في ذلك، واستشهد الشيخ بآيات من الواقعة مع تفسيرها بشكل مفصل، وبين أن الغيث كذلك من أصول الرزق، كما امتن الله به لعباده، وبيان كفر من اعتقد الاستسقاء بالأنواء. وبين سبحانه الأسباب التي يستجلب العبد بها الرزق من الله فتكون مردا وسببا لنمائه، ومنها التقوى والتوكل على الله عز وجل والمداومة على الاستغفار المصحوب بإضمار التوبة والإقلاع عن الذنوب، ومن جوالب الرزق العفاف والعمل بالطاعة.

ومن الواجب اعتقاده من الجائزات التي لا يتم الإيمان إلا به براءة الرسل من تعمد الكبائر والإصرار على الصغائر، وأول من قال بعصمة الأنبياء المعتزلة وأتبعهم على ذلك أهل الكلام والأصوليون، وينبغي أن يترك ذلك أدبا مع أنبياء الله وتشريفا لجانبهم، ولو أن المعتزلة لم يقصدوا بذلك إجلال الأنبياء عليهم السلام، وإنما قصدوا بذلك الطعن فيما حمل إلينا أصحاب رسول الله ﷺ من نصوص الكتاب والسنة. وكذلك فإن الأولياء محفوظون وحفظهم بمعنى العصمة. ونصوص الملائكة طافحة بعصمة الملائكة دون عصمة الأنبياء، لأن عصمة الملائكة في أصل خلقهم، وعصمة الأنبياء إنما بفضل الله عليهم بها بعد نشأتهم في أصل فطرتهم.

- **فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك:**

وأهم ما جاء في هذا الفصل تعدد أقوال العلماء واختلاف الناس في عصمة الأنبياء. وكذلك من الواجب اعتقاده أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وقد انعقد إجماع السنة خلافا للمعتزلة القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر، فمرتكب الكبيرة فإنه كثيرا ما يرتكبها ولا يكون بذلك كافرا إلا إن ارتكبها وهو مستحل لها، فالإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب، وهو من الأفعال المبطئة عن الثواب، والإثم أيضا جنس يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام، والكبيرة كل ذنب عظمت عقوبته وجمعه كبائر، والفواحش جمع فاحشة وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، واللمم ما قل وصغر من الذنوب.

- **فصل في الكبائر وحدِّها وتمييزها عن الصغائر:**

أهم ما جاء في هذا الفصل قول العلماء أكبر الكبائر الشرك بالله وهذا ظاهر لا خلاف فيه، ويليه القتل بغير حق، وأما ما سواهما من الزنا واللواط، وشرب الخمر، وشهادة الزور، وأكل أموال اليتيم بغير حق، والسحر، وقذف المحصنات، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وغير ذلك من الكبائر التي ورد بها النص فلها تفاصيل وأحكام

تعرف بها مراتبها ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المترتبة عليها. وقد اختلف علماء السلف في حد الكبيرة وتميزها من الصغيرة، فجاء عن ابن عباس أن كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة، وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى كبائر وصغائر، وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأئمة، وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقد اختلف في ضبطها، وفصل في ذلك علماء السلف، فقالوا أما الصغائر فإنها تغفر باجتناب الكبائر مالم يصر الفاعل أو يستصغر فتكون كبائر، وأما الكبائر فلا بد لها من التوبة، وللتوبة شروط: وهي الإقلاع عن الذنب والندم، ونية ألا يعود إليه فيما بقي من عمره مع الندم والبث والبكاء وإظهار الضراعة، وأورد المؤلف رواية الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد وخبر توبتهم من الأحاديث الصحيحة.

ثم روى المؤلف رحمه الله قصة إبراهيم مع النبي إسماعيل عليهما السلام، لما رأى في المنام أن الله يأمره بذبح ابنه، واستشهد بالعديد من الآيات والأحاديث النبوية وأقوال كبار المفسرين، وكذلك اختلاف العلماء في الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق عليهما السلام، وبين المؤلف عظم أمر التوبة، فقد وعد الله عليها وأوعد.

وكذلك فمن الجائز الذي لا يصح الإيمان إلا به والجزم به اعتقاد الميزان والوزن فيه، وعليه جميع أهل السنة خلافا للمعتزلة القائلين بأنه لا ميزان ولا وزن، واختلف في الموزون وماهيته، والذي عليه جمهور العلماء أنه إنما توزن فيها جواهر الحسنات والسيئات وصحائف الأعمال له توزن، لأن الأعمال تتجسد جواهر، والحكمة في الوزن إظهار العدل. وكذلك من الواجب اعتقاده وجود الصراط والمرور عليه وأنه على متن جهنم ألف سنة صعودا، وألف سنة استواء، وألف سنة هبوطا، فيجاوزه المؤمنون على قدر أعمالهم، ثم الإيمان بحوضه عليه الصلاة والسلام ترده أمته يوم القيامة، لأن الناس يبعثون من قبورهم عطاشا، ولنبينا عليه الصلاة والسلام حوضان: حوض في المحشر

قبل المرور على الصراط، وحوض على المرور، الحوض الأول لا يشرب منه إلا أمته، والثاني بعد المرور على الصراط فيشرب منه جميع الأمم كرامة له عليه الصلاة والسلام، وروى المؤلف أحاديث كثيرة في الحوض وكلها صحيحة رغم تعارضها في قدره، والاختلاف في هذه الروايات ليس بموجب للاضطراب فيها، وكذلك القول في آنية الحوض والشاربين منه وكثرتهم، وأن جميع الأمم تشرب منه إلا من ارتد وصار كافرا.

- **فصل في ذكر الورود على النار ووجوب اعتقاده:**

أهم ما جاء في هذا الفصل أن اعتقاد الورود على النار من شرائط صحة الإيمان حتى قال ابن عباس رضي الله عنه بكفر منكره لتكذيبه لكتاب الله، وأن ورود المؤمنين على النار لا يضرهم، وأن دخولها مع السلامة منها يزيدهم سرورا لاعتناء الله بشأنهم، ولما فيه من مزيد الغم على أهل النار الباقين حين يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها، وذهب المعتزلة وطوائف من أهل الكلام أنه ليس المراد بالورود الدخول وهو قول نافع بن الأزرق، وفسر الورود بالحضور والرؤية لا الدخول، وروي عن ابن مسعود الورود إلى يوم القيامة وليس النار والكناية راجعة إليها، والقول الأصح وعليه أهل السنة أن الجميع يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان. كما أن الله جل جلاله منزه عن المجيء وعن الدخول في الصور، ومعنى الحديث الوارد في ذلك أن الله تعالى يزيل عنهم الحجاب حتى يشاهدوه، وأن الله عز وجل بلا كم ولا كيفية ولا إلى جهة ولا تحيز. ومن الواجب اعتقاده كذلك الجزم بوقوع الحساب، وهو على قسمين: مناقشة وعرض، فمن نوقش عذب، ومن حوسب حسابا يسيرا غفر له ودخل الجنة، وذكر المؤلف الآيات والأحاديث الواردة في الحساب، والسؤال على قسمين: سؤال عن أعمال العبد خاصة في ذات نفسه وهو السؤال الخاص الذي لا ينجوا منه أحد، ثم سؤال عام وهو سؤال الأمم هل علموا بما جاءت به رسلهم، وسؤال الرسل عما أرسلوا به هل بلغوه كما أمرهم أم لا،

وفائدة هذا السؤال التوبيخ والتقريع للكفار، ومن الأمور التي لا يتم الإيمان إلا بها اعتقاد صحة قدر الله والتسليم له في إمضاء قدره حلوه ومره.

- **فصل فيما ورد في القدر ما قيل في ذلك:**

ذكر المؤلف أحاديث في ذم القدرية وأن مذهب أهل السنة إثبات القدر ولا يؤمن أحد إلا باعتقاده، ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله عليه، وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها، وسميت هذه الفرقة القدرية لإنكارهم القدر، وقد يحسب الكثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمون، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلقه لها خيرها وشرها، وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وقد قدر ذلك أئمة المتكلمين أحسن تقدير بدلائله القطعية السمعية والعقلية.

وقد وصف الله تعالى كيفية تكوينه للكائنات والمخلوقات وكل شيء أراده، فإن أراد شيئا قال له كن، فهناك شيئان: وهي الإرادة والقول، فالإرادة قدر والقول قضاء.

كذلك لا يكون العبد مؤمنا حتى لا يفرق بين الرسل فيكونوا عنده على حد السواء في التبليغ والصدق والأمانة مع اعتقاد ما بينهم من التفاضل، فأولوا العزم من الرسل أفضل من غيرهم من الرسل، والرسل أفضل من النبيئين، والأنبياء أفضل من الصديقين، والصديقين أفضل من الشهداء، والشهداء أفضل من الصالحين، والصالحون أفضل من عامة المؤمنين، والنبي ﷺ أفضل من جميع أولي العزم، بل أفضل من جميع المخلوقات

ملائكتها وبشرها، فمن كذب على نبي من الأنبياء المشهورين فهو كافر بإجماع الأئمة، لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم.

- **فصل في بيان كفر جميع الملل غير الملة الإسلامية:**

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن اليهود كفروا بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم فلم يقبلوا إلا نبوءة موسى، فقد كفروا بعيسى وداود وسليمان، ويزعمون أن سليمان كان ساحرا، وقتلوا يحيى وزكريا مع علمهم بنبوءتهما حتى قتلوا في قرن واحد سبعون نبيا، وقالوا عزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ونسبوا إلى الله التجسيم والبذاء، وكانوا لا يقرون ببعث الأجسام وإنما يقرون ببعث الأرواح وأنها غير فانية، أما النصارى فقد ضلوا في تعظيم عيسى حتى أطروه فنسبوه إلى الله تعالى بالولادة وهم النسطورية منهم، وذهب طائفة أخرى منهم وزعموا بأن عيسى هو الله وإنما حل في جسمه، وطائفة أخرى جعلوا الله ثالث ثلاثة، وأما المجوس فإنهم زعموا أن للكون إلهين، أحدهم النور والآخر الظلمة، فالنور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، ولهذا المعنى عبدوا الشمس والقمر والنار، أما الدهرية فقد نسبوا التأثير للدهر وأنه الذي يميتهم ويحييهم، وأما الطبائعيون فإنهم نسبوا التأثير للطبائع الأربع: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، وأما الوثنيون فإنهم يزعمون أن أوثانهم شفعاؤهم عند الله، وأنهم أعوان الله على خلقه وأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

كذلك بين المؤلف في هذا الفصل أن من بين الأسباب التي كفرت بها النصارى إنكار نبوة محمد مع تكذيبهم إياه بقولهم إنما بعث إلى العرب خاصة، وإن كان اليهود والنصارى يزعمون أنهم يومنون بالله واليوم الآخر فإيمانهم بالله ليس كإيمان المسلمين، ذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، وإيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المسلمين، وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة

لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، كما أنهم لا يحرمون ما حرم الله من أكل لحوم الخنزير وشرب الخمر وغيرها، كما أنهم لا يعتقدون صحة الإسلام الذي هو دين الحق.

كما ذكر المؤلف أن المدعو بولص من اليهود كان يقاتل ضد النصارى وقتل كثيرا منهم، وأظهر الندامة والتوبة ليضلهم وقد صدقوه وعمل على تحريف دينهم، كما بين الشيخ رحمه الله أن الله تعالى أظهر الإسلام على الدين كله.

- **فصل في فساد دين المجوسية وحقيقة عبادة النيرات كالشمس والقمر والنار:**

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن أول من قضى على دين المجوسية أصحاب رسول الله ﷺ، حين فتح الله عليهم العراق وبلاد فارس وبلاد العجم، فأسلم أهل فارس وحسن إسلامهم فكان منهم العلماء الأعلام مثل: البخاري وأبو حنيفة والكرماني وأحمد بن حنبل.

كما قسم الكفر على أربعة أقسام: كفر عناد ككفر إبليس، وكفر جبرية ككفر نمرود وفرعون حتى أفضى بهم تجبرهم إلى دعوى الإلهية، وكفر ضلال ككفر فارس والروم، وكفر تقليد وتكبر ككفر العرب، وجعل أصول الكفر ثمانية: العجب والكبر، والرياء والسمعة، والاعتماد على العوائد وتقليد البلاء، والشك في المقدور وطلب النفع من غير الله. كما ذكر المؤلف أحاديثا في أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم وأقروا له عز وجل بالوحدانية، ومذهب المعتزلة وغلاة المتكلمين حملوا ذلك على أن إخراج الله تعالى الذرية وإنشائهم بعد أن كانوا طفلا في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم، فأخرج الذرية في الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم.

وقد شرح المؤلف حديث: « لا تزال جهنم يلقى وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش»، وفي رواية: « رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة». ولعلماء السلف فيها مذهبان: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين في تأويلها بأنها

حق على ما أرادها الله ورسوله، وتفسر على ظاهرها، والمذهب الثاني وهو مذهب جمهور المتكلمين أنها تأول حسب ما يليق بها، وأقرب التأويلات إلى الصواب أنه يتجلى على النار فتتصاغر عند ذلك وينضم بعضها إلى بعض هيبة لجلاله.

كما ذكر المؤلف رحمه الله قصة النبي سليمان عليه السلام مع النمل بشكل مفصل، وكذلك قصته مع ملكة سبأ بلقيس، بناء على الآيات والأحاديث وأقوال كبار المفسرين، كما بين ضرورة الإيمان بتسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام بإذن الله تعالى. وكذلك يجب الإيمان بعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وشفقتهم من حملها، فامتنعوا من قبولها مخافة من ضياعها الموجب لعذاب الله، فاختاروا السلامة والعافية، وإنما عرضها عليهم على وجه التخيير على وجه الإلزام وتحملها الإنسان إن أحسن جوزي، وإن أساء عوقب، وذكر آيات وأحاديث في ذلك وفسرها.

كذلك من الواجب اعتقاده مما لا يصح الإيمان إلا به اعتقاد صحة ما ورد من أشراط الساعة منصوصا عليه في كتاب الله كخروج الدابة التي تكلم الناس، والأشراط على قسمين: كبرى وصغرى، فالصغرى ما كان كرفع الأمانة والحب في الله والبركة، وكثرة النساء وقلة الرجال وكثرة الهرج إلى غير ذلك، وأما الكبرى فأولها خروج الدجال وعيسى بن مريم عليه السلام، وفتح ياجوج وماجوج وخروج الدابة التي تكلم الناس، وطلوع الشمس من مغربها وهدم ذي السويقتين البيت الحرام وعبادة الأصنام وغير ذلك، مع استشهاد الشيخ بأحاديث كثيرة في أشراط الساعة مع الشرح والبيان.

- **فصل في قيام الساعة ووجوب الإيمان بها:**

من أهم مضامين هذا الفصل أنه لا إيمان للمكذب بالساعة، وبتكذيبه إياها يكذب جميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة، فيكون بذلك كافرا محضا، وإنما سمي يوم القيامة يوم القيامة لأنه يوم لا ليل بعده، فأول الأمر نفخة الصعق فلا يبقى أحد على أديم الأرض

إلا مات، فيموت الجن والإنس والملائكة والدواب والطير، والنفخة الثانية نفخة البعث، ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنس شيء إلا بلي إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة، ومن قدرته تعالى وحكمته بأن أوجب على الجن والإنس الإيمان بالساعة من غير تعيين لوقتها، فلم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا مكاشفا. ثم أنه تعالى بحكمته سماها بأسماء عديدة ليستدل بذلك على عظيم قدرها، فهي الساعة لسرعة مجيئها، والطامة الكبرى لعظيم شأنها، والصاخة والقارعة لأنها تقرع القلوب بالفزع، والحاقة لكونها أحق الحق، والأزفة لقربها لأن ما هو آت قريب، والراجفة، وقيل المراد بالراجفة الصيحة، والرادفة الصيحة الثانية.

وذكر الشيخ الأدلة التي احتج بها الله عز وجل على جميع الملل فأفحمهم، منها العجز عن الإتيان بمثل سورة من سور القرآن الكريم، فأنزل الله الأحرف التي جعلها في أوائل السور، ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الأحرف أنتم قادرون عليها، فكان يجب أن تأتوا بمثله، فكان مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور أربعة عشر حرفا مع تسع وعشرون سورة، وهي نصف حروف المعجم.

كما بين المؤلف أن حقيقة التقوى ألا يراك مولاك حيث نهاك، والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وأنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة، وقد جاء بزيادة الإيمان ونقصانه أحاديث نبوية، وكل إيمان هو إسلام وليس كل إسلام إيمان إذا لم يكن معه تصديق، وأن الغيب كل ما أمرنا بالإيمان به مما غاب عن أبصارنا من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان، ولما بعث النبي ﷺ على فترة من الرسل بعث وقد ملئت الأرض كفرا وعدوانا، والخلق أحوج إلى ما كانوا إلى بعثته، فأيده الله بأن جمع فيه الأخلاق الحميدة ما كان متفرقا في جميع الرسل، وأيده بجوامع الكلم وخصه بكتاب محفوظ. واستدل بآيات تبن محاجته للكفار والنصارى واليهود

ومشركي العرب، وكذلك بالأدلة والأمثلة على قدرة الله وعظيم خلقه في أنفسهم وفي الكون.

واستدل المؤلف على آيات ضرب الله بها الأمثال الدالة على وحدانيته، فذكر ما لا يقدر غيره عليه ولا نسبة للخلق فيه: مثل خلق السماوات والأرض وبسطه الأرض، كذلك إجابته تعالى لجميع من اضطر إليه من كل مكروب، ولا يغفر ذنوب المستغفر سواه، ونشر الرياح وإنزال المطر وخلق الإنسان في الرحم وبعثه بعد الموت وعلمه بالغيب.

كما جاء في هذا الفصل أن من شرف الإيمان ما مدح به الله تعالى حملة عرشه، ومع عظيم أجسادهم وقوتهم يرجفون من مخافة الله عز وجل، وحملة العرش ثمانية كما جاء في القرآن الكريم، وهم أبدا يستغفرون للمؤمنين. ومن الجائز كذلك تكليف الله تعالى عباده بما لا يطيقون، لكن ذلك الجائز قد تفضل الله على هذه الأمة برفعه عنها بحرمة نبيها وتسليم سلفها، وذكر المؤلف آيات وأحاديث في رفع الحرج عن الأمة، والأمور التي تستوجب رفع الحرج: النسيان، والخطأ من غير قصد على سبيل الجهل والظن، وحديث النفس وما وسوس به صدر الإنسان دون أن يعمل به.

- **باب ذكر محاجة النبي ﷺ وفد نجران في وحدانية الله ونفي الشريك والولد عنه:**

أهم ما جاء في هذا الباب إجماع كل الصحابة أن وفد أهل نجران قدم على النبي ﷺ لما دوخ العرب وكانوا ستين راكبا، وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وهم نصارى نجران، وحاججهم بالأدلة والبراهين في عيسى عليه السلام وأن مثله مثل آدم في الخلق حتى دعاهم إلى المباهلة، وحين أيقنوا أنه نبي مرسل صالحوه على البقاء في دينهم مع أداء الجزية، وعم النبيﷺ جميع النصارى بالدعوة فبعث إلى ملكهم قيصر رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام.

- **فصل في ذكر الأولياء وما يجب من تبجيلهم وتعظيمهم والتصديق لهم:**

أهم ما جاء في هذا الفصل أنه لا يتم الإيمان إلا بتصديق الأولياء وتعظيمهم، وقد اختلف العلماء في من يستحق هذا الاسم، وقال بعض المفسرين هم الذين يذكر الله لرؤيتهم، وقال قوم هم المتحابون في الله الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وهم قوم تحابوا في الله من غير أموال، وجوههم نور وعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، وهم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه، فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه ويكون مشتغلا بالله، مستغرق القلب في معرفة جلال الدين، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات، وإن نطق نطق بالثناء على الله، فهذه من صفات أولياء الله، والولي كذلك من كان آتيا بالأعمال الصالحات على وفق ما وردت به الشريعة وهو الإيمان والتقوى. ثم تحدث المؤلف عن ما أكرمهم الله به من كرامات في الدنيا من المبشرات وهي الرؤيا الصالحة واستشهد بالأحاديث الواردة في ذلك، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه.

كما ذهب كثير من علماء السلف على أن الكرامات التي تظهر على يدي الأولياء في الدنيا هي عين البشرى لهم، لأنها دلائل على حسن أحوالهم مع الله وحسن اقتدائهم وهذا مذهب أهل السنة لاتفاقهم على إثبات كرامات الأولياء خلافا للمعتزلة. كما بين المؤلف الفرق بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي لأن الكرامة إنما تظهر على يد من هو مصدق برسالة الرسول، محبا متشبثا بأذياله تابعا لسننه، لأن الكرامات نتائج المعجزات، وأما الكاهن فليس بمتبع للرسول، وقد انسد باب الكهانة بمبعث الرسول ﷺ، فمن ادعى اطلاعا على الغيب بواسطة جني واعتمد عليه فقد كفر بما جاء به القرآن، كما أورد المؤلف مناقب الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم.

كما بين أن من الواجب اعتقاده براءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل النفاق، فمن سبها بشيء مما برأها الله منه أو تنقصها أو اعتقد في قلبه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، بل من الواجب حسن الظن والحب والإجلال لجميع أزواج النبي ﷺ، وجميع زوجات الأنبياء إلا ما استثنى الله منهن كزوجة نوح وزوجة لوط.

واختلف علماء السلف في عائشة وخديجة أيهما أفضل، فمذهب الجمهور أن خديجة أفضل، واختلفوا كذلك في فاطمة الزهراء وخديجة رضي الله عنهما أيهما أفضل، واتفق جمهور السلف على أن فاطمة أفضل من أمها، كما ذكر المؤلف مناقبها، وعائشة أفضل من بقية أزواجه بعد خديجة. ومما أكرم الله به زوجاته ﷺ تخييره لهن بأمر الله وخيرهن ليظهر فضلهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فصرن بذلك أمهات لجميع المؤمنين وأوجب توقيرهن واحترامهن والثناء عليهن، كما فسر المؤلف الآيات التي نزلت في شأنهن.

كما اختلف علماء السلف في فضل أزواج النبي ﷺ على آسية ومريم، فذهب طائفة منهم ابن عباس والسدي والضحاك وابن وهب إلى فضلية أزواج النبي ﷺ عليهما فيما عدا خديجة فإنها أفضل من الجميع بالإجماع.

كما ذكر المؤلف كذلك شكر النعم الثلاثة التي أكرم الله بها رسوله ﷺ بعدما ابتلاه بأضدادها، وهي أن لا يقهر يتيما لأنه كان يتيما من قبل، وأوصاه الله تعالى بالقيام بأمر السائل فلا يزجره، وإما أن يرده برفق ولين، وأمره أن يشكره على إنعامه عليه وتحدثه بنعمة الله تعالى شكرا عليها. وفسر المؤلف أواخر سورة الضحى وعزز ذلك بأحاديث صحيحة. وذكر المؤلف أن الله عز وجل إن كان فضل أزواج النبي ﷺ على النساء فقد فضل مريم على نساء العالمين وخصها بالاصطفاء، فإذا قلنا بفضل أزواج النبي ﷺ على نساء الأمة ففضلهن على غيرهن من نساء الأمم الماضية من باب أحرى، ولا خلاف أن النبي ﷺ هو أفضل من العالمين، فوجب بذلك أن يكون جميع ما أضيف إليه

أفضل مما أضيف إلى غيره من الأنبياء فضلا عن غيرهم. كما ذكر المؤلف في هذا الفصل قصة حمل مريم بعيسى عليه السلام وولادته بناء على سورة مريم، كما فسرها تفسيرا مفصلا كباقي القصص القرآنية. وذكر نهاية الموت على هيئة كبش أملح يوم القيامة فيؤتى ويذبح، وقد عارض ذلك وأنكره طائفة من أهل الكلام فقالوا أن الموت عرض ليس بجسم، والجواب على ذلك أن الله قادر على أن يجعل العرض جسما والجسم عرضا، وإنما جعل الله ذلك ليزداد لأهل الجنة فرحا إلى فرحهم، وأهل النار حزنا إلى حزنهم، ومن أعظم كرامات الأولياء تسخير دجلة لجيش حتى ساروا بخيلهم ورجلهم وركابهم فاقتحم المسلمون البحر، ومن ذلك تسبيح الحصى في كف أبي بكر وعمر وعثمان، بعدما سبحت في كف النبي ﷺ وغيرها من الكرامات التي لا تحصى.

وإن كان الله تعالى قد ألقى في رحم مريم عيسى بنفخة جبريل، فقد أكرم الله تعالى زينب بنت جحش بأن زوجها من رسول الله ﷺ من غير واسطة ملك ولا بشر. وذكر المؤلف قصة طلاق زيد من زينب، فأمر الله النبي ﷺ بأن يتزوجها. كما روى المؤلف جملا من كرامات الأولياء الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ، ومنهم عامر بن فهيرة وعاصم الأنصاري وعامر بن الطفيل وغيرهم، ومن ذلك استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما.

- **فصل في فضائل أهل بيت النبوة وكراماتهم:**

ذكر المؤلف في هذا الفصل آيات وأحاديث في فضائل أهل بيت النبي ﷺ ومناقبهم، وذكر مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته في كربلاء، وأنها فاجعة عظيمة زلزلت قلوب المؤمنين وتركت وقعا شديدا في نفوس الصحابة والتابعين وعموم الأمة. كما ذكر الكرامات المأثورة عن علي زين العابدين الملقب بالسجاد، وقصته مع هشام بن عبد الملك في الحج، والقصيدة التي مدح بها الفرزدق زين العابدين أمام هشام بن عبد الملك، وكذلك مقتل زيد بن علي زين العابدين على يد يزيد بن عبد الملك وصلبه عريانا فنسجت

العنكبوت على عورته، فكان مقتله سببا في إسقاط دولة بني أمية، كما ذكر المؤلف كرامات محمد الباقر، وروايات أخرى عن الصالحين منهم الحسن البصري والأسود بن يزيد وعطاء السليمي وسعدون.

- **فصل فيما جاء عن الحسن بن جعفر الصاغاني:**

روى عن ثابت البناني حسن عبادته وبكاؤه من خشية الله وزهده ونشره للعلم، كما روى كرامات إبراهيم بن أدهم وأبو حبيب البدوي وداود الطائي، وذكر بعض المواعظ في الزهد والعرفان.

- **فصل في الكشف عن مثالب الدنيا وغوائلها:**

ذكر المؤلف أقوالا عن بعض الزهاد في فضل الزهد، وذكر قصة هارون الرشيد مع مخلد، وقصة إبراهيم عليه السلام مع أحد العباد، وهذا الفصل لا يخلوا من روايات في الحث على الزهد.

- **فصل أذكر فيه جملا من مناقب أهل الفضل:**

ذكر فيه الشيخ رحمه الله كرامات بعض الأولياء، إذ بحكاية أحوالهم تستنير القلوب ويرجى لها الفوز من لدن علام الغيوب. كما انتقد المؤلف كتاب: "تلبيس إبليس" لابن الجوزي وعابه، لأنه يتعرض ويخوض في كبار العلماء كالغزالي والقشيري والمحاسبي والجويني، وخلص المؤلف أنه ليس من مصنفات ابن الجوزي بل هو منسوب له، لأنه يعارض كتابا آخر من كتبه وهو: "المورد العذب". كما ذكر الشيخ رحمه الله كرامات لأولياء منهم أبي الحسن بن الحاج المعروف بالبغدادي، والشيخ أبو حامد الغزالي، وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم.

- **فصل فيما ورد عن مشايخ السلف في كرامات أبي مدين الغوث:**

حكى المؤلف مناقبه وفضله، فهو يعتبر أحد مؤسسي مدارس التصوف في المغرب والأندلس، فقد كان زاهدا فاضلا عارفا بالله سبحانه وتعالى، وخاض من الأحوال بحارا، ونال من المعارف أسرارا وخصوصا مقام التوكل، وذكر المؤلف دراسته بفاس وشيوخه ومنهم ابن غالب وأبو عبد الله الدقاق وأبو الحسن السلاوي.

وأشار المؤلف في هذا الفصل أن من أجل كرامات الأولياء دوام التوفيق للطاعة، والعصمة من المعاصي والمخالفات، كما بين أن الكلام في كرامات الأولياء رحب المجال واسع المنوال لأنها سبب الفتح لأبواب الخيرات والتقريب إلى حضرة رب البريات، فأول الأمر مجاهدة وآخره مشاهدة، وأول الأمر شوق وآخره ذوق، وأول الأمر عناد وآخره فناء، وأن أصل كل فتح ونجاح تصديق أصفياء الله من أنبيائه وأوليائه وتعظيمهم وحبهم وتبجيلهم.

- **فصل فيما ورد عن الخضر رضي الله عنه ونفعنا ببركته:**

ذكر المؤلف في هذا الفصل رواية عن الخضر، والأولياء ودرجاتهم وعددهم، ومنهم النجباء والأبدال والأوتاد والأخيار إلى غير ذلك.

- **باب فيما ورد عن سكان الجبال والكهوف من أولياء الله تعالى:**

حكى المؤلف عن إبراهيم بن نصر الكرماني الذي كان يسكن في أحد كهوف جبال لبنان وبعض كراماته ومناقبه، وكذلك أبو زكريا بن موسى المليجي وبعض مناقبه.

- **باب ما جاء في فضل العارفين بالله تعالى يوم القيامة:**

استشهد المؤلف في هذا الباب بآيات وأحاديث في فضل العارفين بالله، كما سرد كرامات لأولياء، منهم أبو عثمان سعيد بن ميمون الرجراجي الذي تواتر عنه أن له

أصحاب يأخذون عنه العلوم من مؤمني الجن ومن ذرية النفر الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ، وأولياء آخرين ذكر كراماتهم منهم سيدي أبو يعزى ذو القبرين، وأبو عبد الله الدقاق، وأبو يحيى الورياغلي، ومنهم أبو بكر التوجي تلميذ سيدي عمر الشيخ الذي كان ملازما له حتى توفي.

وكذلك من الأولياء المشهورين الذين ترجم لهم الشيخ في هذا الباب جده سيدي عمر الشيخ، وحكى عن رحلته في طلب العلم وصحبته لشيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، وكذلك اجتماعهما بعبد الرحمان السيوطي، وحكى رجوع المغيلي من المشرق إلى توات ومقتل ابنه، وما دار بينه وبين أسكيا الذي رفض أخذ القصاص من قتلة ابنه فأذهب الله دولته، وكذلك مناوئته لليهود ومحاربته إياهم والقضاء على نفوذهم في الغرب الإفريقي، كما حكى استخلافه لتلميذه سيدي عمر الشيخ من بعده. وبعد وفاة المغيلي قام تلميذه سيدي عمر الشيخ بنشر دعوته الذي استشهد هو الآخر على يدي قطاع الطرق، وهربهم نحو قرية مجاورة لما رأوا من كراماته وخروج نور منه، فحمله أهل القرية وجهزوه، ورأوا كرامات أثناء جنازته. وورثه ابنه سيدي المختار الشيخ وأخويه السيد الوافي وسيدي أحمد الفيرم وحكى المؤلف قصتهم مع السلطان السعدي في مراكش، وما من أحد منهم إلا ذكر المؤلف مناقبه.

كما انفرد المؤلف بترجمة لمجموعة من العلماء والأولياء من الأسرة الكنتية دون غيره، منهم: أبو بكر بن علي بن محمد بن المختار الشيخ، وسيدي أحمد الفيرم، وسيدي محمد الرقاد وابنه سيدي أحمد، وباقي ذرياتهم، ومنهم سلسلة الذهب كما كانت من بيت علي بن أبي طالب وزين العابدين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وغيرهم من علماء البيت الشريف.

كما تطرق إلى كرامات سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي الملقب أبي دمعة، وذلك أنه لبث مائة عام لم ترق دمعته من صلاة فاتته في الجماعة، وقصة نقل جثمانه

من الوادي إلى أعلى الجبل بعدما رأى العلماء من حاضرة ولاتة منامات، وذلك أن الشيخ أمرهم بنقله من الوادي إلى أعلى الجبل إن أردوا نزول المطر وسيل الوادي، لأن أجساد الأولياء محفوظة لا ينبغي أن يمر السيل عليها، وغيرها من كراماته رحمه الله.

وذكر المؤلف قصيدة لمحمد بن محمد العلوي في مدح الأولياء من ذرية سيدي محمد الكنتي. كما روى المؤلف كرامات حصلت له عند قدومه لولاتة. وإيراده كذلك في هذا الباب وصية سيدي أحمد البكاي الكنتي لأبنائه وذريته.

وبين في ختام هذا الباب أن طول الأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتقاعس ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، كما بين حال الدنيا في الناس، فمنهم مغرور مفرط مثبور، ومنهم مشمر مبشر مسرور، وروى أحاديث نبوية وأقوال للعلماء في ذلك.

المطلب الثاني: مضامين القسم الثاني الغير محقق من الكتاب:

- **فصل في استحضار الموت وقصر الأمل وعلامة التوفيق:**

من أهم ما جاء في هذا الفصل من علامات التوفيق أن يكون الموت نصب عين المؤمن فيستعد للموت، واستشهد بقول الغزالي في ذلك، كما روى المؤلف رؤيا عن جده أبي بكر الكنتي في شأن التقوى، وكذلك رؤى أبي بكر بن أبي مريم ومجموعة من العلماء، واستشهد بأبيات شعرية أبرزها هذه القصيدة التي مطلعها:

أرى الناس في الدنيا معافى ومبتلى وما زال حكم الله فيها مرسلا

وفي نفس الفصل أشار المؤلف إلى رجوعه إلى ما كان يتحدث عنه سابقا من بيان التوحيد والشرك، وأن الشرك ينقسم إلى ثلاثة أنواع: أكبر ومتوسط وأصغر، فالشرك الأكبر اعتقاد الشريك لله أو الولد أو الصاحبة أو نسبة ما لا يليق بجلاله أو تكذيب كتابه

أو رسله أو ملائكته أو الطعن في مناصبهم أو التكذيب بالقدر والمعاد بأنواعه، ومتوسط وهو الرياء والسمعة، وأصغر وهو الالتفات إلى العوائد والأسباب والطمأنينة إليها مع نسبة التأثير إليها، فمن أشركها مع الله فهو مشرك، أو نسب التأثير إليها فهو كافر محض، كما قيل الاعتماد على الأسباب شرك، وتركها على وجه التجربة سوء أدب مع الله، والطريقة بينهما بأن يفعل الأسباب من غير اعتماد عليها ويتناول هذا الأخير رؤية الأعمال لك وأنت صانعها مع الاعتماد عليها، واستشهد المؤلف بأقوال ابن عطاء الله ومن أبرزها قوله: " أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى كل شيء لأنه الظاهر، ومن أسمائه تعالى الظاهر والباطن، فاسمه الظاهر بطلان كل شيء حتى لا يبقى ظاهر معه فينطوي حينئذ لظهوره، واسمه الباطن يقتضي ظهور كل شيء حتى لا باطن معه فيظهر إذ ذاك كل شيء، فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار، وكذلك قوله: " ما حجبك عن الله وجود موجود معه"، وقوله في لطائف المنن: " وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال، فالظل لا وجود له باعتبار جميع مراتب الوجود، وليس بمعدوم باعتبار جميع مراتب العدم " إلى آخر كلام ابن عطاء رحمه الله، ومعنى ذلك كما شرحه المؤلف أن ما سوى الله مضمحل فلا وجود له في حالة وجوده المجازي، لأن من كانت بدايته من العدم ونهايته إلى العدم فهو في الحال محض عدم، وفي ذلك استشهد المؤلف بقول الجنيد وهي جملة أبيات:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عني محال

فاعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

واستشهد بأبيات في تربية النفس، ومنها:

يا خادم الجسم كم تسعى لتخدمه وتطلب الربح بما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

كما أشار رحمه الله إلى أن عطية الخلق للمرء حرمان على التحقيق لما فيها من رؤية لغير الله ووقوفه مع حظوظه وشهواته، ومنع الله له إحسانه، لأنه ألزمه الوقوف ببابه، وبمعنى آخر فالعطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتهم على ذلك، وتقلد منتهم في أخذ أعطيتهم، والمنع من الله إحسان لأنه حبيبه، وكل ما يفعل الحبيب محبوب، وفي ذلك يقول الشاعر:

فلا ألبس النعمى وغيرك ملبس ولا أقبل الدنيا وغيرك واهب

ويقول علي كرم الله وجهه:" لا تجعل بينك وبين الله منعما، وعد نعمته عليك معروفا. كما استشهد المؤلف بقصص مجموعة من العباد كأبو سليمان الداراني وغيره، واستشهد كذلك بأحاديث عن النبي ﷺ أبرزها ما رواه أنس أن معاذ بن جبل رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال: « كيف أصبحت يا معاذ؟ »، قال: بالله مؤمنا، فقال النبي ﷺ: « إن لكل قول مصداقا، ولكل قول حقيقة، فما مصداق ما تقول؟»، فقال: يا نبي الله ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، قالﷺ:« عرفت فالزم ». وقال المؤلف شارحا الحديث: "فالرجلان الفاضلان حارثة ومعاذ بن جبل لما أشرقت عليهما أنوار اليقين وتمكنت في قلوبهما أي تمكين صدر منهما ما صدر مما ذكرناه من فنون العبرة وشاهدا أمر الدين مشاهدة رأي العين فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات، وحفظا من الهنات والسيئات، وظهر منهما أسرار الغيوب وسارعا في كل أمر محبوب، وطارت أرواحهما

اشتياقا للقاء الواحد الفرد، وطابت أنفسهما بالموت حتى صار عندهما أحلى من الشهد". كما ذكر المؤلف قوله ﷺ في شأن الأمراء الثلاثة، لما أخذ زيد الراية أصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمارة ففتح الله عليه، وقال المؤلف في شأنهم: "فلله درهم لقد حازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة، وتبا لأمثالنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم حتى حجبنا عن شموس المعارف ووقعنا في أودية المهالك والمتالف، واغتررنا بهذه الدار الغرارة الفانية السحارة، فتشبثت مخالبنا بشاكها وارتكينا في مصائبها وأشراكها من غير شعور منا بحالها وتزويد محالها، فكنا في قصدنا إليها وتعويلنا عليها بمنزلة ظمآن لاح له سراب فحسبه ماء فلما جاءه لم يجده ماء ولا غناء، ثم مع ذلك كله تنسب إلى الدين وتدعي كمال المعرفة واليقين والدخول في غمار أولياء الله المتقين، مع أن أحدنا لو خير بين حقول المعرفة واليقين والدخول في غمار أولياء الله المتقين مع أن أحدنا لو خير بين حلول الحق والبقاء في الدنيا معلقا بأشفار العين لاختار البقاء في الدنيا على هذه الحال، مع كونه لا يحدث نفسه في طاعة بازدياد ولا عن معصية بانتقال، وهذه كلها أخلاق يهودية لا تليق بمن ينتسب إلى الملة المحمدية". كما ذكر المؤلف في هذا الفصل اختلاف الناس في المشاهدة، وقال في ذلك" "ثم اختلف الناس هاهنا فمنهم لم يشاهد إلا الأكوان وحجبهم بذلك عن رؤية المكون وهذا تائه في الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات، ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكون ثم هم في مشاهدتهم إياه فوق، فمنهم من شاهد المكون قبل الأكوان فهم يستدلون بالآثار على المؤثر، ومنهم من شاهده مع الأكوان، والمعية هاهنا إما معية اتصال وهو شهوده في الأكوان، وإما معية انفصال وهو شهوده عند الأكوان، وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان، والاتصال والانفصال المذكوران ليس على ما يفهم معناهما فإنهما من جملة الأكوان، ومعرفة تفصيل هذه الأمور والتفرقة بين هذه الحقائق موكول إلى أربابه، فلنقتصر على ما ذكرنا فهاهنا زلت أقدام كثير من الناس فتكلموا بكلمات موهمة وعبروا

بعبارات منكرة في الشرع فكفروا بذلك وتبدعوا، فَاعْتَقِدْ كمال التنزيه وبطلان التشبيه". وقال أيضا: " واعلم أن هذه الرؤية ليست بمجرد الإبصار وإنما هي من انعكاس البصر في البصيرة حتى ذات الرائي كلها بصيرة، إذ البصر بمجرده لا يرى إلا متحيزا محصورا وهو مستحيل في حقه تعالى، فلما وقع الخارق الذي هو انعكاس البصر في البصيرة وصيرورة الذات كلها بصيرة لتعلق القدرة بذاته وإرادته تعالى لما هنالك حصلت الرؤية التي لا عن كم ولا إلى جهة ولا مكان، فزال عند ذلك الزوال وظهر من لا يزال إذ لا يمكن بقاء الأكوان مع تجليات المكون". كما ذكر المؤلف أن كلامه سبحانه وتعالى لموسى هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه ردا على المعتزلة القائلين إنما خلق خلقا فكلم موسى، أو خلق كلاما فسمعه موسى، وشرح المؤلف ذلك شرحا وافيا. كما ذكر كرامة من كرامات رجل صالح من جرارة اسمه سيدي موسى وَالمَسْعُودْ وبلاده تَصْفَاوْتْ بجرارة، أنه أقبل إلى قرية وأخبرهم أنه رأى الله فاتهموه وأمروا بإحراقه فبلغ ذلك رجلا صالحا من أهل القرية فأقبل إليه واجتمع الناس عنده، وبعد أن كلمه وتبين صدقه أخبر الناس أنه صادق، وبلغ ذلك رجلا يقال له العصنوني ، وقال له سيدي موسى: بيني وبينك الخاتمة فإن مِتَّ على الإسلام فأنا كاذب، وإن مِتَّ على غير الإسلام علم الناس أني صادق والله يعلم أني لصادق، فلما حضرت العصنوني الوفاة توفي على دين النصرانية، كما استشهد المؤلف بأقوال أهل المعرفة وأبرزهم سيدي أبو الحسن الشاذلي وأبو يوسف سعيد الأعرابي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم. كما قسم المؤلف الناس في هذا الميدان على قسمين: مستدل به على الكائنات، ومستدل بالكائنات عليه، وبين معنى ذلك أن أول بني آدم في أول نشأتهم وبداية خلقهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم، وأن الله تعالى لما اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختار منهم من أهل ولايته وما ذلك إلا بحصول العلم، وجعلهم الله على قسمين: مرادين ومريدين، وإن شئت قلت مجذوبين وسالكين وكلاهما مراد ومجذوب على التحقق، فالمريدون السالكون إلى الله تعالى هم في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار، فالآثار والأكوان ظاهرة

لهم وموجودة لربهم، فالحق تعالى غيب فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم، والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى وجهه الأكرم وتعرف بهم فعرفوه به، فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها فهم يستدلون به عليها في حال تدليهم فهذا حال الفريقين، وقد شرح المؤلف ذلك شرحا مفصلا.

كما قسم أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين إلى نوعين: أحدهما ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهي الأعمال، والثاني ما يتعلق بباطن قلبه وهي العقود، وقال رحمه الله في ذلك: فأما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فإنه ينقسم إلى قسمين: ما وافق الأمر ويسمى طاعة، والثاني ما خالفه ويسمى معصية، وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فإنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما ما يوافق الحقيقة ويسمى إيمانا وعلما، والثاني ما يخالفها ويسمى نفاقا وجهلا، والنظر في ما يتعلق بظاهر العبد يسمى في الاصطلاح تفقها، والنظر في ما يتعلق بباطنه في يسمى في الاصطلاح تصوفا. كما ذكر المؤلف أن حسن الظن بالله آخر مقامات اليقين وأن الناس فيه على قسمين: خاصة وعامة، فالخاصة حسنوا الظن بالله تعالى لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية، والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم، والتفوت بين المقامين ظاهر جلي، واستشهد المؤلف في ذلك بأحاديث نبوية وأقوال العلماء. كما أوصى لمن أراد مزيدا من الأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن بالله مما يزيد المؤمن في هذا المقام أن يقوم بمطالعة كتاب "الرجاء من قوت القلوب" وكتاب "الإحياء". كما بين أن من الشرك الخفي العمل على طلب الجزاء أو لنيل الدرجات أو نيل الرتب العالية، وذلك كله نقصان في الحال، وشوب في الإخلاص، واستشهد بآيات وأحاديث وأقوال للعلماء في ذلك. وبين كذلك أنه مما لا ينبغي التغافل عنه نعمة إيجاد الإيمان ومحبة الطاعة في القلب وكراهية الكفر والفسوق والعصيان، فإن ذلك من نعم الله العظيمة التي لا مدخل للعبد فيها ولا وسيلة إليها، كما أن الإيمان ينسحب اسمه والاتصاف به على جميع أجناس الأصفياء

لأنه الجنس العام الذي تدخل تحته جميع الأجناس، فينسحب على الملائكة كما وصفهم تعالى في محكم تنزيله وعلى الرسل لأنه تعالى وصفهم بالإيمان، كما أن الإيمان شرط في قبول جميع القربات والطاعات، وشرطا في قبول الأعمال وصحتها، وعدم الخلود في النار وعدم الدخول فيها، وعدم مباشرة العذاب لقلوب عصاة المؤمنين فهو من فضله عز وجل. وشرف الإيمان لا يتم إلا بوصفين: الإحسان والحب، فالإحسان أعلى درجات الإيمان وحقيقته مراقبة الله تعالى في الأقوال والأفعال والخطرات، والوصف الثاني الحب، وهو أعلى درجات الإحسان، وهو على قسمين: مطلق الحب الشامل لجميع المؤمنين، والقسم الثاني التهالك في الحب فإنه خاص بخواص أولياء الله تعالى المقربين، واستشهد بأقوال في ذلك، وبأبيات شعرية أبرزها ما قاله ابن الفارض:

مالي سوى روحي وبادل روحـه في حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت فقد ساعفتني يا خيبة المسعى إذا لم يسعف

كما ذكر المؤلف أن من علامات المحبة دوام الذكر، لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره، إلا أن ذكر المحبين مغاير لذكر غيرهم، لأن ذكر المحبين يكون باللسان والقلب والجوارح وقد اختلط نور الذكر بدمائهم وذواتهم، كما أن الله عز وجل جعل الرخصة في كل شيء إلا الذكر فهو في جميع الحالات، كما وصف الله عز وجل المؤمنين بالذكر ومدحهم بكثرته، ووصف المنافقين بقلة الذكر وبالكسل. كما أورد الشيخ رحمه الله أن من منن الله تعالى أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته، فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية ويستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية، وفي أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز عنه العبارة، وكل ذلك في زمن يسير وعمر قصير كما قال بعض العلماء: "كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر".

- **فصل في ثمرة العلم وحقيقته:**

أهم ما جاء في هذا الفصل أنه لا يتم لذي سلوك سلوكه ولا لذي جذب جذبه إلا بنور العلم المنبجسة من شعاع البصيرة، لأن العلم النافع هو الذي يبسط في الصدر شعاعه ويكشف عن القلب قناعه، وحقيقة العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه وبكيفية التعبد له والتأدب بين يديه، هذا هو العلم الذي يبسط في الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام فتزول عنه الشكوك والأوهام، وقد ذكر المؤلف حكمة من حكم داود عليه السلام وهي قوله: " العلم في الصدر كالمصباح في البيت"، ومجموعة من أقوال العلماء في فضل العلم وشرفه ومنفعته منها ما قاله الجنيد: " العلم أن تعرف ربك ولا تعدوا قدرك". وهذه عبارة وجيزة جمع فيها رحمه الله مقاصد الحقائق التي تؤول إلى معرفة الله تعالى وحسن الأدب بين يديه، ومثل هذا من العلم هو الذي ينبغي للإنسان أن يستغرق فيه عمره الطويل ولا يقنع منه بقليل ولا قليل. كما بين المؤلف أن العلم الذي تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الأمل ونسيان العمل فما أبعد أن يكون المتصف به والجامع له من ورثة الأنبياء. وقد أشار المؤلف أنه بين في غير هذا الكتاب أن العلم النافع هو الذي يستعان به على طاعة الله ويلزمك المخافة من الله والوقوف على حدود الله وهو علم المعرفة بالله، ويشمل العلم النافع العلم بالله، والعلم بما به أمر الله، إذا كان تعلمه لله، واستشهد بأقوال مجموعة من العلماء منهم قول الفضيل بن عياض: " العالم طبيب الدين، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء على نفسه فكيف يبرئ غيره، كما أكد أن العلم لا يخلوا من وجهين، إما أن يكون للمرء أو عليه، فالعلم الذي تلازمه الخشية له، لأنه ينتفع به في الدنيا والآخرة، والعلم الذي لا خشية فيه عليه لا له، لأنه يتضرر به في الدارين، وهذا وجه الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا، من حيث أن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرة. كما أشار المؤلف أن من أراد

استيفاء الكلام عليه وما إلى ذلك من الأخبار والآثار فعليه النظر في كتاب العلم من " إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي. كما قال المؤلف: "واعلم أنه ورد في الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحت نيته في ذلك، أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله تعالى واستعماله فيما ينفع عنه، وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، فهذه هي النية الصحيحة التي تحمد عاقبتها آجلا وتجتنى ثمرتها في طاعة الله عاجلا". كما استطرد المؤلف كثيرا في الشرح، وبين بعد ذلك أنه لما كان الأولياء المحققون لعلم الحقيقة بعد علم الشريعة ورثة الأنبياء استوجب ذلك كونهم على قسمين: مأذون له في التعبير وهو وارث رسول الله ﷺ، وغير مأذون له في التعبير وهو وارث نبي، فالمأذون له في التعبير هو الذي يأتي بالألفاظ الرائقة الفائقة التي تأخذ بمجامع القلوب قبل الأسماع لموافقته للإذن، ولذلك قيل كل كلام يبرز وعليه من حلة القلب الذي برز منه، فإذا برز من القلب أفضى إلى القلب بعد خرقه الحجب والكثائف، وإذا لم يبرز من القلب ولم يوافق الإذن لم يفض إلى القلوب، بل يبقى متعلقا بالحجاب والكثائف لفقد الإذن وكسوف أنواره لأن الظلمات إنما تزول بالأنوار، وكذلك فعباد الله تعالى المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلى قسمين: سالكين ومجذوبين، فالسالكون عاملون على تحقيق الفناء، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو، ولما كان شأن الفريقين النزول في تلك المنازل المذكورة لزم منه التقاؤهما في طريق سفرهما، فالسالك مترق، والمجذوب متدل، وشتان ما بينهما، فالمجذوب ينظر بنور الله إلى الله، والسالك يستدل بالآثار على المؤثر حتى ينتهي إلى الغاية بعد حين، ولما كان النبي ﷺ مجذوبا مرادا كثر الجذب والإرادة في خواص أمته، كما استدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[269] ، وقد شرح المؤلف هذه الآية

[269] النور: 35.

ليختم الفصل بقصيدة في شرح الآية لسيدي محمد الأمين بن سيدي المختار بن سيدي عمر بن سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد ووصفه بالنظم الرائق والمعنى الفائق.

- **فصل في بيان التمثيل المذكور في الآية:**

أهم ما جاء في هذا الفصل اختلاف أهل العلم في معنى التمثيل المذكور في الآية التي ذكرها المؤلف في نهاية الفصل السابق مع شرحها، فقيل المراد به الهدى، ومعناه أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات، وصار ذلك بمنزلة المشكاة التي فيها زجاجة صافية، وفي تلك الزجاجة مصباح يوقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء والرقة والبياض، وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ، وقد بين العديد من المفسرين هذه الآية فقال كعب بعدما سأله ابن عباس: " هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه، والمصباح النبوءة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوءة، يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به، كما يكاد ذلك الزيت يضئ ولو لم تمسسه النار"، وغيرهما من أقوال المفسرين التي ذكرها المؤلف، كما فسر الآيات التي تليها اعتمادا على أقوال المفسرين.

- **فصل في بيان ضربه تعالى المثل لدين الكافرين والمنافقين:**

وأهم مضامين هذا الفصل أنه لما ضرب الله مثلا لأحوال المؤمنين وأنهم في الآخرة في نور وأنهم فائزون بالنعيم، أتبعه بضرب مثل لأعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو ما يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري، والمراد بالقيعة القاع، وهو المنبسط من الأرض وفيه يرى السراب يتوهمه ماء، ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافرين من أعمال البر يعتقد أن لها ثوابا عند الله وليس كذلك، بل وجد العقاب الأليم كما قال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ الآية [270]. ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين أعقبه

[270] النور: 39.

بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان قال تعالى: ﴿ مَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[271]، وفسرها المؤلف بأنها نزلت في المنافقين، فإن مثلهم كمثل الذي استوقد نارا أضاءت ما حوله في ليلة مظلمة بينما هو كذلك إذ انطفأت ناره وبقي في ظلمة حائرا متخوفا، فكذلك حال المنافقين. ثم فسر المؤلف ما يليها من الآيات واستدل في ذلك بأقوال المفسرين، وكذلك أورد المؤلف من الأمثال الموهنة لجميع الملل المخالفة لملة الإسلام المبطلة لكل شيء يعتمد عليه من دون الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾[272]، فبيتها في غاية الضعف والهوان، لا يرفع عنها حرا ولا بردا، فكذلك الأوثان لا تملك لعابدها نفعا، وإن مثله في الوهن دين المشركين وما هم عليه، لأنهم لا يعتمدون على شيء ولأن دينهم أوهن الأديان.

كما بين المؤلف تنوع أجناس الاعتقادات، فاعتقاد الملائكة لا يزيد ولا ينقص، واعتقاد الأنبياء والأولياء يزيد ولا ينقص لترقيهم أبدا في مراتب المعارف ودرجاتها، فكما أن معارف الله تعالى لا تتناهى فكذلك أمداد الأنبياء والأولياء لا تتناهى. أما اعتقادات المؤمنين لا تنحل ولكن أنوار الإيمان تزيد بزيادة الأعمال وتنقص بنقصانها وتتقوى بقوة أنوار الأحوال وتضعف بضعفها. أما المنافقون ومن في قلبه مرض ضعفاء اليقين، فإن إيمانهم ينقص ولا يزيد، لأن المنافقين لا إيمان لهم أصلا. وأما ضعيف اليقين ومن في قلبه مرض فإنهم موكولون إلى التجليات، فإن تجلى عليهم الله باسمه الهادي انتعشوا. وأما أهل الأهواء فقد أخرجهم النبي عليه السلام من الدين ونترك أمرهم لله، كما عاب المؤلف على أهل الكلام تعمقهم وخوضهم في الدلائل والبراهين حتى ضلوا، بل أكد أن من علم أن الله تعالى ربه وخالقه ورازقه، وأنه الذي يميت ويحيي، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبيه، وأنه جاء

---

[271] البقرة: 17.

[272] العنكبوت: 41.

بالحق عن الله بالهدى ودين الحق، وشهد له بالصدق والأمانة، وآمن بالقدر خيره وشره، وأن الله تعالى يجب كل كمال ويستحيل عليه كل نقص، ويؤمن بالبعث والرزق والحساب والصراط والجنة والنار، وأن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم ليسوا بذكور ولا إناث، كما ذكر المؤلف مناقب الإمام السنوسي رحمه الله، وشرح بعد ذلك سبب نزول هذه الآية: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾[273]، وهو أن رجلا من طواغيت العرب أصابته صاعقة بعد أن بعث إليه النبي ﷺ نفرا من أصحابه فجادلهم في الله عز وجل، فرجعوا إليه ثانيا وثالثا، فرمي بصاعقة وهم جلوس عنده.

- **باب في ذكر إمداد الإيمان:**

ذكر المؤلف في هذا الباب أن أمداد الإيمان وهي خمسة: الذكر والحياء، والمروءة، والوفاء، والعفاف، فالذكر روح الإيمان ومصباح البصيرة وحياة القلب، واستشهد بآيات وأحاديث نبوية. كما أورد أن أفضل الذكر ذكر القلب، ثم مطابقة القلب واللسان على الذكر، ثم ذكر الله عند أمره ونهيه، ثم ذكر الله في مواطن القبلة كالأسواق ومجالس اللغو، ثم الخفي الذي لا يطلع عليه إلا الله. كما أنه ما من شيء في الكون والوجود إلا يسبح بحمده، وذكر أقوالا لمفسرين وعلماء منها ما قاله أبو الشيخ في كتابه: " العظمة" مما نسبه للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: " ما من ناطق ولا صامت إلا وهو يسبح بحمد الله سواء الوحوش أو الأشجار أو ملائكة السماوات وكل شيء في الكون". وعزز المؤلف شرحه بالآيات والأحاديث وأقوال العلماء. ثم عين أنواعا من الذكر وفضله كسبحان الله والحمد لله، وصنفهما بالنوع الأول والثاني، كما أورد بعد ذلك النوع الثالث من أنواع الذكر من الباقيات الصالحات وهي كلمة الإخلاص الخارقة للحجب والكثائف ولطباق السماوات، وللحجب بين العرش والكرسي، لا قرار لها حتى تسجد بين يدي الله تعالى، وأورد فضلها من السنة

[273] الرعد: 13.

النبوية. وذكر كذلك فضل الحسبلة وهي حسبي الله أو حسبنا الله وبين شرفها وفضلها، وقال في ذلك: " ولهذا المعنى الشريف والفضل المنيف والمنقبة الجليلة جعلتها القادرية رضي الله عنهم من أساس أورادهم". وذلك دليل أن الحسبلة من الأوراد المخصوصة لمشايخ ومريدي الطريقة القادرية الكنتية، وللشيخ المجدد الشيخ سيدي المختار الكنتي نفسه. وكذلك بين فضل التكبير ومعناه الله أكبر من أن يشرك به، ومعنى آخر وهو أنه أكبر من كل كبير وأجل من كل معبود، وأما لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنه ثبت وصح عن النبي ﷺ أنها كنز من كنوز الجنة. كما ذكر فضل الاستغفار والمداومة عليه، وأن الله تعالى خص نبيه بالصلاة عليه والسلام، ومن ذلك شفاعته ﷺ لأمته يوم القيامة.

- **فصل جميع الأذكار والدعوات متنوعات بتنوع الأحوال:**

أهم مضامين هذا الفصل أن جميع الأذكار والدعوات متنوعات بتنوع الأحوال والأزمان من مولد الإنسان إلى نقلته إلى حضرة ربه، فيؤذن في أذن المولود اليمنى ويقام في اليسرى عندما يولد فتسبق إلى سمعه عظمة الله تعالى وجلاله بسبب هذه الكلمات المشتملة على عظمة الله تعالى وكبريائه، فتنطبع فيه ويكون ذلك غيظا للشيطان وتبكيتا له مكان طعنه في جنب المولود عندما يستهل صارخا، فيكون من باب محو السيء بالحسن، وغير ذلك من الأذكار التي أوردها المؤلف في الأكل أو الجماع أو السفر أو دعاء الركوب أو أذكار النوم وغيرها من الأذكار الواردة في السنة النبوية، كما شرح المؤلف حديث نزوله عز وجل في السماء الدنيا، ومعناه توجه رحمته وفضله. فالله تعالى منزه عن سمات الحدوث من النزول والصعود والبعد والدنو، فسبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأورد بعد ذلك كثيرا من الأذكار كدعاء الخروج من البيت نحو المسجد، ودعاء دخول البيت، وارتداء الثوب، وصب المطر، وسماع الرعد، والخروج للخلاء، وطلوع الشمس، وركوب السفينة، ونزول المنزل، ودخول البلدة، وغيرها من الدعوات.

كما ذكر المؤلف في هذا الفصل المدد الثاني من الإيمان وهو الحياء، وحقيقته تنزه النفوس الشريفة مما لا يحل ذكره شرعا وعادة، واستشهد بأحاديث نبوية، وأقوال منها ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه: " الحياء سبب لكل جميل"، ومنها قوله ﷺ: « لكل شيء خلق، وخلق الإيمان الحياء ». والمدد الثالث من مدد الإيمان المروءة، وحقيقة المروءة اجتناب ارتكاب ما لا يحل شرعا ولا عادة مع التطبع بالمحاسن والأخلاق ومكارم الشيم، مع نزاهة النفس وعلو الهمة والتزام الألفة والتكرم.

- **باب قوله ﷺ صنائع المعروف تقيء من صرائع السوء:**

أهم ما جاء في هذا الباب أن كل معروف صدقة ولا يحتقر قليله ولا يستكثر كثيره، وفي الحديث: « من امتن بمعروفه واستطال فقد هدمه»، واستدل بأقوال في فضل صنائع المعروف منها قول الإمام علي كرم الله وجهه: " توق من الرجال من إن أنعمت عليه كفرك، وإن أنعم عليك من بنعمته، وإن حدثته كذبك، وإن ائتمنه اتهمك"، كما استدل بأحاديث نبوية.

- **باب قوله ﷺ المعروف كاسمه:**

أهم ما جاء في هذا الباب قصة العتابي مع يحيى بن أكتم حين طلب منه أن يستأذن له عند المأمون. واستدل بأقوال منها قول الإمام علي كرم الله وجهه: " المعروف حصن من الحصون وكنز من الكنوز، فلا يزهدنك في المعروف كفر من كفر فقد يشكر الشاكر لإضاعة جحود الكافر"، وقال العباس: " المعروف أفضل الأمور وأوثق الحصون، ولن يتم المعروف إلا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجلته فقد هنيته، وإذا صغرته فقد عظمته، وإذا سترته فقد تهمته"، وغير ذلك من الأقوال، ولا فرق في ذلك بين المعروف والمروءة.

- **باب قوله ﷺ أحسنوا جوار نعم الله:**

أهم ما جاء في هذا الباب استدلال المؤلف بهذا الحديث الذي بوب به هذا الباب وغيرها من الأحاديث، منها قوله ﷺ: « أحسنوا جوار نعم الله لا تنفروها، فقلما زالت عن قوم فعادت لهم، وذكر أبيات شعرية في فضل الكرم والمروءة وصفة الأجواد، منها قول الشاعر:

عشق المكارم وهو مشتغل بها والمكرمات قليلة العشاق.

- **باب في بيان حكمة العوائد والخوارق:**

وأهم ما جاء في هذا الباب أن رجلا سأل عليا كرم الله وجهه عن السر في ترتيب الله تعالى العوائد في محلها من غير حاجة إليها، وأجرى الخوارق فجعلها تهدم أسرار العوائد فقال عليه السلام: " السر في ذلك أن الله سبحانه رتب الأسباب والعوائد فجعلها دلائل على باهر حكمته، وآيات على اتساع كلماته و علمه فقال: ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً﴾[274]".

وجعل المؤلف الناس في ذلك على ثلاثة أقسام: سالك ومالك وهالك، فالسالكون هم الذين يستدلون عليه في آثار حكمته حتى يصلون إلى اتساع علمه ونفوذ قدرته فيرونه ولكن من وراء حجاب، والقسم الثاني ذوو البصائر النافذة والهمم العالية والقدم السابقة لم يعرجوا عن المكونات بل غابوا عنها لجذب مكونهم إليه من ظلمات الكون إلى أنوار المكون، فلم يروا غيره في الوجود مكونا موجودا، بل رأوها عدما مفقودا، فإذا ردوا إليها استدلوا على كوان بالمكون فيروا آثار قدرته ظاهرة باهرة فيجلبون كل محجوب بالأكوان إلى مطالعة أسرار الغيوب فهم ملوك الأكوان، والقسم الثالث هالك، وهم أقوام حجبوا بالكون عن رؤية المكون، فهم في غيهم يترددون، فمنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد القمر، ومنهم من عبد

[274] البقرة: 269.

الكواكب، والأشجار والحجارة والأوثان، ومنهم من عبد عيسى وعزير ومنهم من عبد النار. كما بين المؤلف أن جهاد النفس والهوى والشيطان هو الجهاد الأكبر.

- **فصل في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾:**

أهم ما جاء في هذا الفصل أن قلوب الأنبياء والأولياء وجهتها أبدا إلى العلو لإقبالها بالكلية على العلي الأعلى، وقلوب المؤمنين المخلصين وجهتها أبدا إلى اليمين، وقلوب المؤمنين العاصين إلى الشمال غالبا، ووجهة قلوب الكفرة إلى السفل أبدا، وقلوب المنافقين لا وجهة لها لأنهم مذبذبين، كما أن الواجب اعتقاده أن الله تعالى فرغ من إيجاد الموجودات قبل خلق السماوات والأرض بألف ألف عام، فأول ما أبدى للوجود اللوح والقلم، ففصل المؤلف في ذلك كثيرا.

- **باب في وجوب اعتقاد إسرائه ﷺ بجسمه إلى المستوى الأعلى واعتقاد صحة انشقاق القمر له ﷺ:**

أورد المؤلف في هذا الباب نصوص من السنة وإجماع الأمة عليهما، فلا يصح إيمان مؤمن بدون اعتقاد حقيقتهما مع تكذيب قول الملحدين لإنكارهما، وهاتان المعجزتان من أعظم المعجزات المختصة به ﷺ دون سائر الأنبياء والرسل لفضله عليهم وعلى سائر العالمين.

- **فصل في فضل الاستغفار:**

في هذا الفصل ذكر المؤلف أحاديث في فضل الاستغفار منها قوله ﷺ: « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب».

- **باب في فضل أذكار مخصوصة:**

في هذا الباب ذكر المؤلف أذكارا متنوعة وردت في أحاديث صحيحة منها حديث النبي ﷺ في فضل الباقيات الصالحات، كما أورد أذكار النوم.

- **باب في أذكار تقال عند الصباح والمساء:**

ذكر المؤلف في هذا الباب كذلك أذكار الصباح والمساء الواردة في السنة النبوية.

- **باب في فضل العلم النافع وتوابعه:**

أكد المؤلف في هذا الباب أن سلوك العلم النافع هو الدليل على الخيرات والقائد إلى أعلى الدرجات. وأشار أن هذا الكتاب قد احتوى على نفائس وجواهر من العلم النافع، وحث على العمل به للفوز بخير الدنيا وخير الآخرة، كما أورد قصيدة في فضل وشرف العلم.

- **فصل في بيان حقيقة الإيمان:**

أهم مضامين هذا الفصل أن الإيمان فصلين وفرعين ونتيجتين وحياة ومصلحة وحصنا ولبا، أما أصلاه فالصدق والصبر، أما فرعاه فالحياء والسكينة، أما نتيجتاه فالخشوع والأمانة، وأما حياته فالشكر والعفة، وأما مصلحته فالخوف والرجاء، وأما حصنه فالاكتفاء بالله والتوكل عليه، وأما لبه فالحب لله والشوق إليه، وشرح المؤلف كل ذلك مستدلا بالآيات والأحاديث النبوية وأقوال العلماء في ذلك، كما بين الاختلاف في اشتقاق الإيمان هل هو من الأمن أو من الامتنان، لأنه لا أثر للمخلوق في وجوده، بل هو منة من الله تعالى على عبده، حتى أمن بسببه من عذابه وعقابه. وأما الأعمال فليست جزاء من مفهوم مسمى الإيمان، بل شرط كمال فيه عند الأشاعرة والقاضي أبي بكر ووافقهم الصالحون وابن الراوندي من المعتزلة، فمن أخل بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخل بالإقرار مع القدرة عليه فكافر، ومن أخل بالعمل ففاسق اتفاقا لأنه خارج عن الإيمان غير داخل فيه، وهو غير

داخل في الكفر عند أهل السنة، أما المعتزلة فقد قالوا لا كافر ولا مسلم، بل هو في رتبة بين الرتبتين. كما ذكر في هذا الباب اختلاف العلماء في أولي الأمر الذين أوجب الله طاعتهم، فقال ابن عباس وجابر: "هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم"، وقال بعضهم الأمراء والولاة، كما ذكر أن حياة الإيمان في القلب إنما تكون بملازمة الشكر والعفة، كما أن من علامات محبته ﷺ محبة سننه وقراءة حديثه، والاكتفاء بالله تعالى والتوكل عليه فهو من الإيمان الذي لا يحوم حوله شيء. كما بين أن المتعلق بقصة موسى عليه السلام مع الخضر في التجويز للاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر مخرج عن الإسلام. كما بين كذلك أن الحمد والشكر من باب واحد لجمعيتهما بين أصل الثناء وفرعه، فالحمد أصل والشكر فرع،

- **فصل في طعم الإيمان وذوقه وهل هما على الحقيقة والمجاز:**

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن الصوفية وأهل المقامات من العارفين قالوا أنهما على الحقيقة وأنهما حسيان وهو الأولى بالصواب، وذهبت الظاهرية وأهل الكلام أنهما على المجاز، وما ذلك إلا لبعدهم من شم روائح التحقيق.

كما بين أن ما قدمه في كتابه "المنة في اعتقاد أهل السنة" من أوله إلى آخره من تتبع درجات الإيمان المتفاوتة من النبوة إلى إيمان العامة، إنما هو لقصد التفنن وبلوغ الغاية في العلوم الربانية، وأن وجوب الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا يشترط فيه أن يكون على نظر واستدلال، بل يكفي في ذلك الاعتقاد الجازم بذلك.

وختم المؤلف بهذا الفصل كتابه وبين أهميته وقيمته وما فيه من الآيات والأحاديث النبوية وأقوال العلماء، وقصص الأنبياء ومعجزاتهم والأولياء وكراماتهم، كما تضرع إلى الله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب من قرأه أو سعى في شيء منه، وختم بالدعاء لكافة المسلمين وختمه بالصلاة على محمد ﷺ وآله وأصحابه رضي الله عنهم.

المبحث الثالث: المنهج والمصادر المعتمدة:

المطلب الأول: منهج المؤلف في التأليف:

1-جانب الشكل:

أ- أسلوبه في كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة":

ألف الشيخ سيدي المختار الكنتي تآليفه الكثيرة في فترة متأخرة جعلته يستفيد من أساليب من سبقه من العلماء، ومن أساليب معاصريه، كما استأثر بأسلوب خاص به وذلك يتذوقه من يطالع تآليفه سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة، وكل هذه الظروف جعلت منه مرجعا وموسوعة للعلوم والفنون، وقد اعتمد على أسلوب سهل وبسيط لا يكتنفه الغموض والتعقيد، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه، حيث قال: " هذا وأنه عَنَّ لِي أن أحببت أيها الأخ الكريم إلى ما طلبته مني بفضل الفتاح العليم الهادي بمنه إلى الصراط المستقيم فيما نصه قولك قد ظهر احتياجنا إلى مختصر جامع للقدر الذي تدعوا الحاجة إليه مما يشترك في الانتفاع به الحر والعبد والمرأة والصبي لسهولته وبيانه مع الإيجاز والاختصار من توحيد الله تعالى المبلغ إلى معرفته والتشبث بأذيال أنبيائه وأوليائه عار عن الغلو في الدين كالنقص منه، وقد قلت أنه قد كثر خوض جهلة الناس في هذا الفن الذي هو التوحيد، وشاع تكفيرهم لعوام المسلمين من أمة محمد ﷺ"[275]. وجميع ألفاظ الناس واضحة الدلالة من حيث الأسلوب والمعنى، وقد اعتمد على الاختصار الجيد واستعان بنسق متسلسل مبتعدا عن الإطناب الذي يجعل القارئ يصرف نظره عن مطالعة الكتاب والعودة إليه، كما ينتقل من موضوع إلى آخر بشكل سلس، ومن خلال تتبعنا لنوعية أسلوبه أجده ينأى عن اللغة الوصفية ذات اللغة التزيينية، فاهتم بتفسير كل مصطلح أو إشكال أو آية أو حديث أو أصل من أصول الاعتقاد وكشف أبعاده بلغة في غاية

[275] الصفحة 11 من قسم التحقيق.

البساطة والألفة في نظامها المعجمي، كما أن الأفكار والمفاهيم التي يسعى المؤلف إلى إيصالها للقارئ لا يتلقاها إلا بتوظيف لغة مباشرة تعبر بدقة عن الغرض، وينساق مع جمالية الأسلوب وبساطته قرب المعنى، ويضيف إلى هذه الجمالية كثرة إيراده للأبيات الشعرية، رغم أن بعض الأشعار التي وظفها في النص أجدها مكسورة الوزن وقلقة في صياغتها وتركيبها العروضي.

وهذا الأسلوب الذي اتبعه المؤلف في كتابه يستهدف الجميع سواء من كان منهم من أهل العلم أو من عوام الناس، واستطاع كذلك أن يعبر بلغته عن الخواطر العلمية وأن يطوع الخصائص الأسلوبية لتدل على سمو لغته وذلك ما يجذب القارئ نحوه ويشجعه ليطالع باقي مؤلفاته.

كما تجنب المؤلف تكرار القضايا التي سبق أن بسطها في متن الكتاب، مع إحالة القارئ عليها داخل الكتاب، ومثال ذلك: " وقد تقدم الكلام على معنى الإيمان والإسلام في صدر الكتاب وبيان أقسامه وبقيت أشياء تتعلق بمعنى هذا الحديث.."[276]، أو يشير إلى كتب أخرى بسط فيها الكلام في المسألة المشار إليها، وذلك حفاظا على الكتاب من الاستطراد والإطناب، ومثال ذلك: " ولقد بينت تأويل هذه الآيات الأربع في كتابنا المسمى " نزهة الراوي" وأزلت عنه الإشكال ولم يسعني ذلك في مثل هذه العجالة لطلب الإيجاز والاختصار على هذا المبلغ"[277].

وقد ورد السجع في حيز محدود في بضع كلمات وجمل خصوصا في ديباجة الكتاب وخاتمته المسجوعتين كما هو شأن أسلوب المؤلفين القدامى، وأغلب النص جاء بشكل مسترسل يقطعه بعض القصائد والأبيات في مواضع مختلفة.

---

[276] الصفحة 321 من قسم التحقيق.

[277] الصفحة 59 من قسم التحقيق.

وبشكل عام فإن النص جاء بأسلوب علمي واضح ورائع، ومعانيه دقيقة ومفهومة لجميع القارئين والدراسين باختلاف درجاتهم العلمية دون لبس أو غموض، ومن يطالع كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" من بدايته إلى منتهاه يشهد للشيخ بسعة علمه وحسن أسلوبه، وبتواضعه وحسن خلقه، وبلغته الصافية وأدبه البديع، وتعمقه في الشرح بأسلوب رائع مزج فيه بين ما هو صوفي وعقدي.

ب-أسلوبه في بعض مؤلفاته الأخرى:

✓ **أسلوبه في مؤلفات اللغة العربية:**

حظيت اللغة العربية باهتمام كبير في المدارس والزوايا والمحاظر الكنتية لما لها من علاقة وثيقة بعلمي القرآن والحديث وغيرها من العلوم.

وألف الشيخ سيدي المختار الكنتي العديد من المؤلفات في شتى أنواع العلوم والمعرفة منها مؤلفاته في علوم اللغة العربية، ومنها كتابه الفريد الذي شرح فيه منظومة ابن مالك التي تعتبر أهم المنظومات المدرسة في اللغة العربية وآدابها، مع العلم أن بعض العلماء أفاض في الحديث عنه وشرح منظومته، ولعل أهمها وأبهاها حلة كتاب "فتح الودود شرح المقصور والممدود" الذي ألفه الشيخ سيدي المختار الكنتي، ومن طالع شرحه يشهد له بروعة أسلوبه وفصاحة لغته ودقة إشاراته، ويظهر ذلك في مقدمته التي يبرز فيها هذا الكتاب بقوله: "فجاء بحمد الله وعونه على المنية والمقصود، بل زاد بهاء وبهجة على كل شارح جيء به على المقصور والممدود، إذ جاريت مصنفه أبا عبد الله محمد بن مالك[278]، وطاولته في جميع المسالك حتى غطى بحري نهره، واجتاح ثمري زهره، إلا أن دهري لا يوازي دهره، إذ له رتبة السابق، كما أن لي

[278] محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجيّاني، أبو عبد الله، (ت 672هـ/1274م)، أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه "الألفية " في النحو، انظر: "الأعلام" للزركلي، (233/6).

مزية اللاحق، فأبرزت مخدرات عرائسه، والتقطت من قاموس بحره يواقيت نفائسه، وهذبت ما فيه من دسائسه، وأجهزت على كل ما أثخنه من فرائسه"[279]. وقد اعتمد المؤلف في هذا الكتاب أسلوبا ممتعا يبين تمكنه من علوم اللغة العربية ومختلف فروعها من شعر ونحو وبيان وغيره، كما حشاه بأنواع العلوم من قرآن وحديث وغيره بعبارات متقنة وإشارات دقيقة، وقال في ذلك منبها القارئ قبل الخوض في قراءة فصول كتابه: "فلو أني تتبعت إشاراته على ما فتح الله به علي لأتيت بدفاتر تقصر دون تناول النزر منها همم أهل العصر لقصور الهمم على تتبع لما طال، فانكمشت لذلك على قدر ذلك ليقع الإمتاع بما هو هنا دون ما هنالك"[280].

- ✓ **أسلوبه في مؤلفات التصوف:**

ألف الشيخ سيدي المختار الكنتي العديد من المؤلفات في التصوف، وأشهرها كتاب: "الكوكب الوقاد في ذكر فضائل المشايخ واصول الأوراد"، وقد اتسمت تصانيفه في التصوف بمصطلحات صوفية لا يمكن أن يدرك معناها إلا من له تخصص في العلم المذكور، أما بالنسبة للقارئ العادي لا يستطيع أن يدرك مدلولات كل مصطلح إلا بالرجوع لمعاجم التصوف، لأن لغة التصوف وأساليبه تختلف عن لغة وأساليب الخطابات الأخرى، كما زين الشيخ سيدي المختار الكنتي هذه المصنفات بشعر صوفي ليتجاوز الواقع لما هو أعمق من أساليب اللغة الوجدانية والذوقية تعبيرا عن الحب الإلهي، ومثال ذلك قوله في قصيدة صوفية:

إذا لم تذق طعم الوصال وتدره فسلم لمن ذاق الوصال وحققا

فما هو إلا نفحة قدسية تصير رتق الران مفتقا

---

[279] انظر "فتح الودود شرح المقصور والممدود" للشيخ سيدي المختار الكنتي، (ص17).

[280] المصدر نفسه، (ص19-20).

وتسقي حميا الراح صرفا لمن غـدا عـن الكون محجوبا وللحضرة ارتقى[281]

ويعبر أسلوب التصوف عند الشيخ سيدي المختار الكنتي عن اتصاله بالمعبود، وعن فناءه في حب الذات الإلهية.

- ✓ **أسلوبه في الشعر:**

للشيخ سيدي المختار الكنتي شعر كثير لم يؤلف فيه ديوانا جامعا، إنما هو مبثوث في مؤلفاته، واستطاع ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي أن يجمع عددا معتبرا من قصائده في كتاب ترجمة والده المسمى "الطرائف والتلائد"، ثم جمع أغلبه ابن عمنا الباحث يحيى ولد سيدي أحمد الكنتي في كتابه: "ديوان الصحراء الكبرى"، لكن أغلب أشعاره لا زال متناثرا في عدة مؤلفات تحتاج للجمع والتوثيق، وتشتمل أغراض شعره على أغراض الشعر العربي المتعارف عليه من مدح ورثاء وفخر وغير ذلك، وهذا يدل على أن سليقته العربية تشهد بأنه وقبيلته كنتة أهل شعر وقصيد وتضلع في اللغة العربية.

وتتميز قصائده بتعدد الأغراض الشعرية، ومن تلك الأغراض غرض التصوف الذي سبق أن ذكرت والذي تربع على رأس قصائده، ويتميز بزجالته ويتغنى بتزكية النفس وتهذيبها والحض على التقوى والورع.

وغرض المدح الذي أساسه الافتخار منها قوله ردا على خصومه مفتخرا بنسبه الشريف:

وقد نمتـنا الكرام مـن أرومـتـها من جذم عبد مناف من درى الغرر
الخيم يمنعهم مـن كـل ناقـمـة والمجد يحرزهم من كـل ذي حـذر
هم الأئمة قدما غـير ذي كـذب المنقذون الورى من ربـقـة الكـدر
القائـمون بـأمر الله لا شـطـط يلفى لديهم ولا طـيـش عـلى خـطر

[281] هذه الأبيات وردت في كتاب "الطرائف والتلائد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (151/2).

الحلم شيمتهم والعدل سيرتهم والرفق حرفتهم فجد واختبر[282]

ومن تأمل في أسلوب هذه القصيدة يجد أنها بأسلوب رقيق ومفردات بسيطة واضحة من غير تعقيد، وله قصيدة أخرى يفتخر فيها بقومه الذين لا يجوعون بقلة يد ولكن ساحاتهم ودورهم وخيامهم ملآى بالضيوف والوافدين لما تعودوا عليه من كرم النفس وسخائها وعزتها، ومن أبياتها:

ألا أبلغ بني الطعان عنا مغلغلة يصدها الخبير

بأنا لا نبيع الزرع حتى يبيع الدرع لابسها الأمير

وإن الجار ليس يبيت خلوا ونحن قدورنا ملآى تفور

وإن فناءنا للضيف رحب تبادره الكرامة والسرور

وإن الضيف لا ينفك يهوي إلى الساحات يجلبه الخبير

وإن المتعفين إذا أتونا نسوا الأوطان إذ لهم العشير

وإنا لا نرى الأرزاق إلا بأمر مليكها الصمد القدير

وإن يفخر بملء البطن قوم فمن نوك العقول ولا خبير

يخبرهم بأن الجوع فينا وراثة الأنبياء ولا نكير

فما عن قلة جعنا ولكن أتى عن سنة لا تستدير[283]

كما أن شعره اتسم بطابع الحماسة وغرضه أن يستقر قومه للذود عن حماهم وأهلهم، وصن النفس والعرض والدين من أهل الحرابة وقطاع الطرق، ومن ذلك قوله:

---

[282] انظر: "ديوان الصحراء الكبرى: المدرسة الكنتية والقصائد النيرات" ليحيى ولد سيدي أحمد، وزارة الثقافة–الجزائر، الطبعة الأولى:2009م، (151/1).

[283] هذه الأبيات وردت في كتاب" الطرائف والتلائد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (360/1).

ألا بني الكنتي أقيموا مطيكم إلى الحرب إن الحرب للعز جالب

ولا تهنوا وابغوا انتصارا لربكم فمن ينصر المولى لا شك غالب

ومن لم يمت بالسيف يمت بغيره وإن اجتماع الناس للظفر طالب[284]

ولشعره غرض آخر وهو الدعاء، والدعاء مطلوب ومرغوب شرعي، والدعاء إما أن يكون طلبا لخير أو دفع لضر، أو دعاء على ظلمة استهانوا وطغوا، ومن ذلك قوله في أحد قصائده:

ما لنا عصمة سوى من تحامى بجناب حميه لن يضاما

ذو الجلال وذو القوى وتعالى لأن يرى من لجأ إليه مقاما[285]

وتظل أغراض شعر الشيخ سيدي المختار الكنتي كثيرة وإلى جمع شامل ودراسة وافية من الباحثين.

✓ **أسلوبه في الرسائل:**

إن المطلع على رسائل الشيخ سيدي المختار الكنتي يجد العديد منها يتسم بأسلوب الوضوح مع استحضاره للدلائل المعتبرة من الكتاب والسنة والفقه وأخبار الأمم السالفة، ومن ذلك رسائله السياسية إلى الملوك والأمراء، ولعل أبرزها رسالته إلى السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله، وهذه الرسالة مشحونة بأساليب رائعة وألفاظ واضحة مبينة للمقصود من وعظ وإرشاد ونصح لولاة الأمور.

وله رسائل أخرى ذات طابع اجتماعي، حيث راسل أغلب أبناء عمومته كرسالته لأخواله أولاد سيدي المختار الشيخ الكنتي، وهم من أبرز عشائر كنتة.

---

[284] انظر: "ديوان الصحراء الكبرى: المدرسة الكنتية والقصائد النيرات" ليحيى ولد سيدي أحمد، وزارة الثقافة–الجزائر، الطبعة الأولى:2009م، (69/2).

[285] هذه الأبيات وردت في كتاب "الطرائف والتلائد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (253/3).

كما راسل بعض أبناء عمومته جوابا على رسالة له يشكو له من عسر وضعف حال، فراسله برسالة مطلعها:

"الحمد لله فارج الكروب علام الغيوب الفاتح للمرغوب المعجل للمطلوب.."[286]. ومن يطالع رسائله في هذا الشأن يرى أن مقاله مناسب للمقام، كما استأنس بالاستشهاد، وجميع رسائله ملآى بالوصايا والحكم وبالعاطفة الاجتماعية الجياشة.

كما تعددت أساليب الشيخ في العديد من مؤلفاته، ومن خلال اطلاعي على العديد منها تبين لي أن أسلوبه يتميز بعدة خصائص منها تأثره بالقرآن وعلومه، والحديث وشروحه، وبالشعر الجاهلي، وبالتصوف وغيره، وتحتاج إلى دراسة متخصصة ومعمقة.

2-جانب المضمون:

أ- أهم القضايا التي تناولها المؤلف في كتابه:

إن أهم القضايا التي تناولها المؤلف في كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة ضمن مباحث العقيدة الأشعرية بنزعة صوفية باعتباره صوفيا قادريا ومن الأشاعرة المتأخرين، وقد اعتمد الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من الفرق الكلامية الأخرى وغيرهم لإثبات أصول العقيدة الإسلامية على منهج أهل السنة والجماعة، وأهم القضايا التي تناولها المؤلف كالآتي:

- **نشأة علم الكلام عند أهل السنة:**

يعرف علم الكلام بأصول الدين أو علم التوحيد أو علم الأسماء والصفات، وهو علم يهتم بمباحث العقيدة الإسلامية، وإثبات صحتها والدفاع عنها بالأدلة العقلية

[286] هذه الأبيات وردت في كتاب "الطرائف والتلائد" للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، (293/2).

والنقلية باستخدام البراهين والحجج العلمية، وقد ذكر المؤلف أن من بين أسباب نشأة علم الكلام والجدل انتشار الخوارج في البلدان الإسلامية وكثرة عددهم، ولذلك عمل أهل السنة على التصدي لهم والرد عليهم، ومن وجهة نظره فعلم الجدل مرغوب عنه بقوله: "فعلم الجدل مرغوب عنه، إلا أن الخوارج قد اضطروا أهل السنة إلى تأليفه ليجعلوه سهاما في نحورهم"[287]، وقال كذلك: "وأول من نطق الكلام وعلم الجدل المعتزلة والروافض طلبا للاستغناء بالعقل عما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد والعقد الصحيح الذي حمله عنه أصحابه الذي حمله عنه أصحابه حذو النعل بالنعل فبلغوه تابعيهم حتى كادت المعتزلة أن تميل عوام الأمة عن صميم الحق، فتصدى للرد عليهم إمام الحرمين[288] والإمام الأشعري [289]،[290]، وبذلك يظهر للقارئ أن المؤلف أشعري العقيدة، فعلم الكلام في نظره مطلوب للرد على المخالفين من المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم. والاستدلال عند الأشاعرة يكون بالأدلة النقلية والعقلية على وجه التعاضد، فهم لا يتعارضان. وقال الغزالي[291]: " أهل النظر في هذا العلم

---

[287] الصفحة 97 من قسم التحقيق.

[288] عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعيّ، ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، جامعا طرق المذاهب، (ت478 هـ / 1085 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (160/4).

[289] علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، (ت324 هـ/ 936 م)، مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها " إمامة الصدّيق" و" الرد على المجسمة "، انظر: "الأعلام" للزركلي، (263/4).

[290] الصفحة 36 من قسم التحقيق.

[291] محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، (ت 505 هـ / 1111 م)، فيلسوف ومتصوف، له نحو مئتى مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل (عند

يتمسكون أولا بآيات الله من القرآن، ثم بأخبار الرسول ﷺ، ثم بالدلائل العقلية والبراهين"[292]. وبعض العلماء يجعل من علم الكلام أداة لنصرة العقيدة الإسلامية دون تخصيصها بمذهب معين، فابن خلدون[293] حصر التعريف في نصرة العقيدة على مذهب السلف من أهل السنة بقوله: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية"[294]، ونجد أن أغلب العلماء اشتغلوا بعلم الكلام وعلى رأسهم الفرق الكلامية التي تنسب لمذهب أهل السنة ومنهم الأشاعرة، والفرق الأخرى من المذاهب الأخرى ومنهم المعتزلة الذين يقدمون النظر والاستدلال العقلي على النقل والسمع، كما نجد من العلماء من منع الاشتغال بعلم الكلام وذمه ومنهم الشافعي، وذمهم لعلم الكلام لا يقصدون به العلم ذاته، إنما قصدوا مقالات المعتزلة وغيرهم من الفرق الأخرى في مباحث العقيدة.

وعلم الكلام نوعان: ما كان من أجل إثبات الحق والدفاع عن عقيدة أهل السنة وهذا مرغوب، وما كان من أجل الدفاع عن الباطل وطلب المغالبة فيه وهذا مرفوض.

من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، من كتبه: "إحياء علوم الدين"، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الغزالي، (22/7).

[292] انظر: "الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالي"، جمع ونشر مطبعة السعادة، طبعة: 1934م، (ص28).

[293] عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر، (ت 808هـ/1406م)، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا واعترضته دسائس ووشايات وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيّ بزيّ القضاة محتفظا بزيّ بلاده، وعزل وأعيد، وتوفي فجأة في القاهرة، انظر: "الأعلام" للزركلي، (330/3).

[294] انظر: مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية: صيدا– بيروت، طبعة: 1423هـ–2002م، (ص429).

وموضوعات علم الكلام تتعلق بالأصول الدينية كالبحث في ذات الله جل جلاله وصفاته وأفعاله.

وعلم الكلام شأنه شأن باقي العلوم الشرعية، يجب على المسلم تعلمه لمن له أهلية تعليمه، حتى يتمكن من دفع شبهات المغالين والمشككين والملاحدة، وتلك هي غاية مؤسسي هذا العلم أنفسهم، وقد صنف فيه العلماء أشهر الكتب والمصنفات، وخصوصا علماء المذهب الأشعري.

- **خلاف العلماء في إيمان المقلد وعدمه:**

ذكر المؤلف أن أهل الكلام اختلفوا في إيمان المقلد وعدمه على قسمين: قسم قائل بإيمانه، وقسم آخر يرى عدم إيمانه، كما أشار إلى أن المحققين جعلوا في هذه القضية الخلافية تفصيلا، فالذي يرجع برجوع مقلده فغير مؤمن، والذي لا يرجع برجوع مقلده فمؤمن ، وهذا التقليد لا ينسحب على من قلد رسول الله ﷺ وأصحابه، واستدل بقوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي »، لأن الصحابة في رأي المؤلف هم الذين بلغوا إلينا الكتاب والسنة، لذا فالواجب الاقتداء بهم والتمسك بهديهم. والاقتداء هو العمل بقول الغير من غير حجة[295]، وهو غير مقبول، وهذا بالنسبة لعوام الناس، أما التقليد للعالم وهو القادر على الاجتهاد فلا يجوز أقوال العلماء في الأصول، لأن العالم قادر على الاستنباط وتحصيل الحكم المطلوب، وقد جوز أحمد بن حنبل وسفيان الثوري[296] التقليد للعالم مطلقا[297].

---

[295] راجع: "البرهان في أصول الفقه" لإمام الحرمين الجويني، تحقيق: عبد العظيم الذيب، الطبعة الأولى: 1399هـ، (ص1357).

[296] سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله، (ت 161هـ/ 778م)، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة عام 144 هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى

وذهب المعتزلة إلى القول بتحريم التقليد، وإيمان المقلد غير صحيح في نظرهم، لأن ابتداء الاعتقاد على الدليل في نظرهم ليتمكن المستدل من مجادلة الخصوم، بل حكم بعضهم بكفره واعتبروا أن ترك النظر يخرج من الإيمان، والذين قالوا عدم صحة إيمان المقلد من المعتزلة جعلوا إيمانه في منزلة بين المنزلتين، فلا يحكم بإيمانه ولا بكفره.

ورأي المؤلف باعتباره من الأشاعرة المتأخرين القول بصحة إيمان المقلد لوجود التصديق الذي يتحقق به الإيمان، لكنه عاص بترك الاستدلال في نظره، وقد ادعى البعض أن الإمام الأشعري حكم بكفر العوام، وهذا من التلبيسات التي وقعت لهم، أو أنهم لم يفهموا المقصود من كلامه لأنه اعتبر أنه لابد من ابتداء الاعتقاد في كل مسألة من الأصول على دليل عقلي، لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه وعلى مجادلة الخصوم ودفع الشبهة، وهذا هو المشهور عند الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله[298].

والتقليد لا يجوز عند الأشاعرة لذمه في التنزيل لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[299]، واحتجوا كذلك بأن التصديق لا يوجد بدون العلم لأن العلم شرط للتصديق، ولا علم للمقلد حتى يحصل التصديق، ولو لم يحصل لا يحصل الإيمان.

وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا، له من الكتب (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) كلاهما في الحديث، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: سفيان الثوري، (104/3)، و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: سفيان الثوري، (174/15).

[297] راجع : "المحصول" لفخر الدين الرازي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مطبعة نزار الباز، الطبعة الأولى: 1417 هـ-1997م، (115/2).

[298] انظر : "مسائل الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية" لطه خالد السيد عاي السامرائي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2006م، (ص141).

[299] الزخرف: 141.

ومن تأمل رأي الأشعري يظن أنه وافق قول المعتزلة بجعل إيمان المقلد في منزلة بين المنزلتين، أو وافق القائلين منهم بكفره، لأن الأشعري لم يحكم بكفر المقلد ولم يكفر أحدا من أهل القبلة، وهذا يدل على أن الإمام الأشعري وأساطين علماء مذهبه لم يسموا المقلد على الإطلاق مؤمنا، ومرادهم أن المقلد لا يكون مؤمنا على الكمال، لأن الإيمان بالاستدلال أتم وأكمل، وفي رأيي أن هذا هو الصواب، والله أعلم[300].

- **الخلاف في قضية رؤية الله تعالى يوم القيامة:**

أورد المؤلف في كتابه "المنة" أن من الواجب اعتقاده رؤية الله تعالى يوم القيامة، وأنه يرى ولا يدرك، ومع اعتقاد الرؤية يجب اعتقاد عدم الإدراك، ومذهب أهل السنة يقطعون برؤية الله تعالى يوم القيامة في الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة، واحتجوا لصحة مذهبهم بظواهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم على إثبات الرؤية في الآخرة، وكذلك الدلائل العقلية، ومن دلائلهم النقلية قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[301]، وقوله ﷺ في صحيح البخاري: « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر»[302]، وأما الدلائل العقلية فقد احتج أهل السنة بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾[303]، فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح، لأن المعدوم لا تصح رؤيته، وإذا ثبت ذلك دل على رؤيته تعالى يوم القيامة.

ومن الدلائل التي ذكرها المؤلف أن موسى عليه السلام سأل الرؤية كما في قوله تعالى: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾[304]، لأنه لا يصح أن نبي ما لا يصح، فلو أراد الله

---

[300] راجع الصفحة 39-40 من قسم التحقيق.

[301] المطففين: 15.

[302] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: باب قوله وسبح بحمد ربك، رقم:4851، 139/6)

[303] الأنعام: 103.

[304] الأعراف: 143.

تعالى استبعاد الرؤية لقرن كلامه بما يستحيل وقوعه، ولكن قرن كلامه بما يجوز وقوعه وهو استقرار الجبل.

كما ذكر المؤلف خلاف أهل السنة مع المعتزلة، فالمعتزلة أنكروا الرؤية وتمسكوا بظواهر الآيات وخصوصا قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[305]، وأن هذه الآية تتحدث عن الإدراك فقط من منظورهم. وفي مقابل ذلك بين المؤلف أن الرؤية غير الإدراك، لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والرؤية هي المعاينة للشيء من غير إحاطة ولا إدراك، واستدل بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون ﴾[306]، وكان قوم فرعون قد رأوا موسى وقومه ولم يدركوهم، ولكن قاربوا إدراكهم، فنفى موسى الإدراك بقوله ﴿قَالَ كَلَّا﴾[307].

وعلى هذا يجوز أن يرى الله في نظر المؤلف من غير إدراك ولا إحاطة، لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي حيث كان محدودا وله جهات، والله منزه عن الحدود والجهة.

ويظهر من الأدلة التي سردها المؤلف تمسكه بموافقته للأشاعرة في إثبات الرؤية لله تعالى يوم القيامة، واستدل بما استدل به الأشاعرة من الأدلة النقلية والعقلية في ذلك. إلا أن المؤلف ذكر رواية من كرامات أحد الأولياء أخبر الناس أنه رأى الله عز وجل في الدنيا، واسمه سيدي موسى من بلاد جرارة وهو مجهول الترجمة، وأثناء إخباره الناس بالخبر اتهموه بل أمروا بإحراقه لولا تدخل رجل صالح من قريته، وشرح المؤلف ذلك بأن هذه الرؤية ليست بمجرد الإبصار، وإنما هي من انعكاس البصر في البصيرة حتى تصير ذات الرائي كلها بصيرة، إذ البصر بمجرده لا يرى إلا

---

[305] الأنعام: 103.

[306] الشعراء: 61.

[307] الشعراء: 62.

متحيزا محصورا، وذلك مستحيل في حقه تعالى، وبين أن ذلك من الخارق وهو انعكاس البصر في البصيرة فحصلت الرؤية التي لا عن كم ولا جهة ولا مكان، وهذه النزعة الصوفية للشيخ سيدي المختار الكنتي باعتباره من الصوفية الأشاعرة الذين يجيزون رؤية الله تعالى ببصيرة القلب لا ببصر العين، إذ الرؤية القلبية هي تمام معرفة الله تعالى معرفة ذوقية يقصر عنها العقل البشري، وهو بذلك يوافق الأشعري في أن الرؤية بالعين مستحيلة في حقه تعالى في الدنيا وثابتة في حقه في الآخرة من غير جهة ولا حيز.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن رؤية الله تعالى ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، وهو أمر معلوم ثابت من الدين لا يماري أو يشك فيه أحد، والله أعلم ببواطن الأمور.

- **مسألة خلاف العلماء في تفضيل القرآن بعضه على بعض:**

ذكر المؤلف خلاف أهل العلم في جواز ذلك، فذهب طائفة من المتكلمين منهم أبو الحسن الأشعري، وأبو بكر الباقلاني[308] إلى منع جواز تفضيل القرآن بعضه على بعض، لأن تفضيل بعضه على بعض في نظرهم نقص للمفضول والسور، وليس في كلام الله عز وجل نقص، وتأولوا كذلك بأن ما ورد من إطلاق لفظ أعظم وأفضل في بعض الأحاديث بأن هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارئ وجزيل ثوابه وليس نقصا في باقي الآيات أو السور، وقول أن هذه الآية أفضل أو

[308] محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، (ت 403 هـ / 1013 م)، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت اليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجّهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه "إعجاز القرآن" ، انظر:"الأعلام" للزركلي، (176/6).

أن هذه السورة أفضل وأعظم إنما يتعلق ذلك بثوابها، ورأى المؤلف أن هذا الرأي هو رأي وسط يتحرى اعتقاد عظم جميع آيات القرآن وسوره من غير تفاضل بينها إلا ما يتعلق فقط بزيادة ثواب بعض الآيات أو السور، ولأن القرآن كله منزل من عند الله عز وجل، ولا يتفاضل بعضه على بعض لأن أصله واحد، فكل القرآن فاضل، وزيادة فضل بعضه على بعض إنما هو من زيادة الثواب، وهذا في رأيي رأي وسط ويتحرى عظمة جميع آيات القرآن وسوره، والله الموفق للصواب[309].

- **قضية الخلاف في الاستواء على العرش:**

تعتبر قضية الاستواء على العرش من أهم القضايا الخلافية التي وقع فيها تضارب في الآراء، منها ما هو موافق للعقيدة الصحيحة، ومنها ما هو مخالف إلى درجة اعتقاد ما لا يليق بالله عز وجل من الصفات والأوصاف، فقد أورد المؤلف رحمه الله تعريفا مفصلا للعرش منها تعريف الراغب[310]:" وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم لا على الحقيقة، وليس كما يذهب إليه أوهام العامة"[311]، وذكر قول البغوي[312] رحمه الله بأن أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، يجب على المؤمن الإيمان به ويوكل العلم به لله عز وجل، كما ذكر قصة

---

[309] راجع الصفحة 83 من قسم التحقيق.

[310] أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب، (ت 502 هـ / 1108 م)، أديب وعالم، أصله من أصفهان وعاش ببغداد و ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة، من كتبه "محاضرات الأدباء" ، انظر: "الأعلام" للزركلي، (255/2).

[311] انظر: "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، بيروت–دمشق، الطبعة الأولى: 1412هـ، (558/1).

[312] الحسين بن مسعود بن محمد، الفرّاء، أو ابن الفَرَّاء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنّة، البغوي، (ت510 هـ/ 1117 م) فقيه، محدث، مفسر، تفقه على شيخ الشافعية القاضي حسين بن محمد المروروذي صاحب (التعليقة)، وسمع منه، ومن: أبي عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي، وأبي الحسن محمد بن محمد الشيرزي، من مصنفاته: "معالم التنزيل"، و"المصابيح"، و"الأعلام" للزركلي، (259/2).

الإمام مالك مع الرجل الذي سأله عن الاستواء، فأجابه بأن الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه من البدع[313]، كما أورد رأي الإمام فخر الدين الرازي وهو من الأشاعرة بأنه لا يمكن حمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾[314] على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز، وللعلماء في ذلك مذهبان: أولهما: القطع بكونه منزها عن المكان والجهات، وعم الخوض في تأويلها على التفصيل، مع تفويض علمها لله عز وجل، وهذا مذهب الأشاعرة، وهذا الذي استقر عليه رأي المؤلف رحمه الله معقبا بقوله: "وهذا الحديث الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه"[315]، أما المذهب الثاني فيه قولان: الأول: بجعل العرش كناية عن عظم الملك، وأن الله تعالى كان مالكا قبل خلق السماوات والأرض، ولا يصح أن يقال استوى على ملكه بعد خلق السماوات والأرض، والقول الثاني: بمعنى استولى وهو رأي المعتزلة وجماعة من المتكلمين.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله آراء الكثير من العلماء يختلف بعضها عن بعض مع تبنيه رأي الأشاعرة الذين يفوضون مسألة الكيف في الاستواء إلى الله عز وجل مع إثباتهم للاستواء كما ذكره الله عز وجل، والإيمان بذلك من الواجبات وهذا مذهب أهل السنة وهو الأصح.[316]

---

[313] "العرش" لشمس الدين الذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1424هـ-2003م (233/2).

[314] الأعراف: 54.

[315] انظر الصفحة 126 من قسم التحقيق.

[316] راجع قسم التحقيق من الصفحة 122 إلى الصفحة 129.

➢ **مسألة الكبائر والصغائر والخلاف في ذلك:**

افتتح المؤلف في ذكر المسألة أن من الواجب اعتقاده أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب بإجماع أهل السنة ومنهم الأشاعرة، وقد خالفهم المعتزلة في ذلك بقولهم بأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا، محتجين بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، وبين المؤلف أن المقصود من الحديث أنه لا يزني الزاني حالة الزنا وهو مؤمن تام الإيمان لأن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، أي ينقص حالة مباشرته الكبيرة ثم يعود إليه بعد ذلك إما بتوبة أو غير توبة، واحتج المعتزلة كذلك بقول النبي ﷺ:« الكبيرة رابدة الكفر »، وفي رأي المؤلف أن مرتكب الكبيرة لا يكون كافرا بارتكابها إلا إذا ارتكبها وهو مستحل لها، وهذا رأي أهل السنة من الأشاعرة وغيرهم، وعليه استقر رأي المؤلف رحمه الله.

والإثم هو الذنب الذي يستحق معه مرتكبه العقوبة، والإثم يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام، والكبيرة كل ذنب تعظم عقوبته وجمعه كبائر، والفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال أو ما فحش من الكبائر، واللمم ما قل وصغر من الذنوب، ويطلق كذلك على مقاربة المعصية.

واختلف العلماء في معنى اللمم، فمنهم من عده من الكبائر والفواحش، ومعنى ذلك أن يلم بالفاحشة مدة ثم يتوب، أو يقع الواقعة ثم ينتهي، وقيل كذلك ما يعمله الإنسان من حين لآخر ولا تكون له إعادة ولا إقامة عليه، ولم يجعلوه من الكبائر والفواحش. وقيل اللمم هي الصغيرة من الذنوب، وقيل كذلك اللمم على قسمين: أحدهما كل ذنب لم يذكر الله تعالى له حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة، وذلك الذي تكفره الصلوات وصوم رمضان ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والقسم الثاني هو الذنب العظيم الذي يلم به المسلم مرة ثم يتوب منه، وقيل ما لم على القلب وخطر، وقيل كذلك النظرة من غير عمد، وغير ذلك من الشروحات والأقوال التي أوردها المؤلف.

وقد قسم جمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين المعاصي إلى قسمين: كبائر وصغائر، وتظاهرت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع السلف، لكنهم اختلفوا ضبطها وحدها، منهم من جعل الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، ومنهم من جعل لها أمارات، منها الحد ومنها ألا يعاد عليها بالعذاب ونحوها في الكتاب والسنة، وذهب ابن عباس أن كل شيء نهى عنه فهو كبيرة، وقد ضبطها علي كرم الله وجهه بالعدد، كما أن الكبيرة كفارتها التوبة النصوح، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها، وللتوبة شروط لقبولها منها: الاقلاع عن الذنب والندم، ونية عدم العودة فيما بقي من عمره مع الندم والبث والبكاء. وكذلك الصغائر فإنها تغفر باجتناب الكبائر ما لم يصر الفاعل أو يستصغر فتكون كبائر[317].

وشرح المؤلف موضوع الصغائر والكبائر وحدها، وأوردها آراء العلماء ومنهم أهل السنة في معنى الإثم واللمم والكبائر والصغائر وشرحها شرحا وافيا رغم الخلاف بين أهل السنة فهو خلاف لفظي فقط، لكن يصب في معنى واحد.

كما اختلف العلماء في مرتكب الكبيرة وعم الخلاف في هذه المسألة العقدية وتعددت المفاهيم العقدية لها وأخذ الجدل ينمو ويزيد حتى اختلفوا اختلافا طويلا، فتمزقت الأمة الإسلامية فرقا ومذاهب واستحل كل منهم دم الآخر، وعمت الفوضى وانتشرت الفتن واستمر الخلاف إلى يومنا هذا، بل لا زالت تبعاته تلاحق الأمة العربية والإسلامية من انتشار فكر التطرف والتشدد والإرهاب والفتاوي الغريبة، واتسعت الهوة في الخلاف بين العلماء، كما أن هذا الخلاف ليس خلافا عاديا، بل

---

[317] انظر: "لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية"، أبو العون محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها–دمشق، الطبعة الثانية: 1402هـ–1982م، (366/1).

يتسم بطابع الجمود والتحجر، فكانت المناظرات بين بعض العلماء أشبه بالجدال وليست مناظرات علمية.

ويرى البعض أن الخلاف حول مرتكب الكبيرة قد ظهر في عهد الإمام علي كرم الله وجهه، وقد أثاره الخوارج في البداية الذين رفضوا التحكيم بين علي ومعاوية بن أبي سفيان[318]، وأطلقوا لفظ الكفر على من رضي بالتحكيم فكانت أولى الشرارات لإثارة الفتن في المجتمع الإسلامي، وأخذت تزداد وتتسع حتى اختلف في شأنها، كما عد بعض العلماء من بين أسباب ظهور المعتزلة مسألة مرتكب الكبيرة، لأن مؤسسهم واصل بن عطاء[319] كان من تلامذة الحسن البصري[320] فترك مجلسه واعتزله بسبب هذه المسألة.

وقد اختلفت الفرق الإسلامية في الحكم على مرتكب الكبيرة إلا أنهم اتفقوا على تسميته بالفاسق، وسبب اختلافهم وجوهره خلافهم في مسمى "الإيمان"، فمنهم من قال أنه قول وعمل، ومنهم من قال بأنه إقرار باللسان وتصديق بالقلب، وآخرون قالوا تصديق بالقلب فقط.

---

[318] معاوية بن أبي سفيان صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي، (ت 60 هـ /680 م) مؤسس الدولة الأموية في الشام، انظر: "الأعلام" للزركلي، (261/7).

[319] واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة،(ت 131 هـ / 748 م)، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم: رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى "الواصلية " وهو الّذي نشر مذهب " الاعتزال " في الآفاق، انظر: "الأعلام" للزركلي، (108/8).

[320] الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، (ت 110 هـ / 728 م)، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: الحسن البصري، (226/2).

ومذهب المعتزلة أن مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمنا بارتكابه المعاصي ولا يسمى كذلك كافرا لما يقوم به من الطاعات فهو في منزلة بين المنزلتين، أي بمنزلة بين الكفر والإيمان[321]، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك أنه إذا مات دون أن يتوب من ذنبه يكون مخلدا في النار إلى الأبد، فلا تنفعه شفاعة ولا يستحق رحمة بإيمانه، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾[322]، ودليلهم العقلي أن العاصي لا يخلو مآله من أمرين، إما أن يعفى عنه أو لا يعفى عنه، فإن لم يعف عنه فقد بقي في النار مخلدا، وإن عفي عنه إما أن يدخل الجنة أو لا، فإن لم يدخل لم يصح لأنه لا دار بين الجنة والنار، وإذا دخل الجنة وجب أن يدخلها مثابا، فلا يجوز أن يدخلها متفضلا عليه.

وقول المعتزلة بأن مرتكب الكبيرة يخرج من دائرة الإيمان ليس صحيحا وقولا باطلا، فالقرآن أثبت الإيمان مع الكبائر كما في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[323]، واستدلالهم العقلي بوجوب الوعيد الذي أوعد الله تعالى من عذاب العصاة، وذلك لا يصح لأنه يخالف السنة بأن الله يعفو عن العصاة يوم القيامة بشفاعة الشفعاء من الرسل وغيرهم. والمراد بالمعصية في آية: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ الشرك، والأحاديث الصحيحة كثيرة في أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن دائرة الإسلام كما في قوله ﷺ:« من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة».

أما مذهب الخوارج فقد قالوا بكفر مرتكب الكبيرة على الإطلاق ووافقوا المعتزلة بخلوده في النار إن مات بغير توبة، وأنه يعذب فيها عذاب الكفار، واتفق الخوارج

---

[321] راجع: "أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة" لسعود بن عبد العزيز الخلف، طبعة: 1420هـ، (79/2).

[322] الجن: 23.

[323] الأنعام: 82.

مع المعتزلة في رفع اسم الايمان عن مرتكب الكبيرة بالكلية، كما أوجبوا له الخلود في النار، وقد ذكر أبو الحسن الأشعري أن الخوارج أجمعوا أن كل كبيرة كفر إلا بعضهم، وأجمعوا كذلك أن الله يعذب أصحاب الكبائر عذابا دائما، والمعلوم أن الخوارج فرق متعددة نشأت بعد خلافهم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وخروجهم عنه بعد قبوله مسألة التحكيم، ومن ثم استقلوا بأنفسهم وأسسوا طائفة لها آراؤها واعتقاداتها. وحكم مرتكب الكبيرة في الدنيا عند الخوارج فهم في ذلك فريقان: طائفة تجري عليه أحكام الكفار فتبيح دمه وماله، وطائفة تجري عليه أحكام المسلمين فلا تستبيح منه شيئا[324].

ورأي الخوارج ممن كفر صاحب الكبيرة خالف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فلو كان مرتكب الكبيرة كافرا لكان مرتدا، ولوجب عليه حد المرتد، ولو كان كذلك لما أقيمت عليه حدود مثل حد السرق وحد الزنا وغيره.

كما اختلفت آراء الشيعة في مرتكب الكبيرة، فالرافضة منهم يرون أن من ترك شيئا من الفرائض غير جاحد لها فليس بمؤمن، ولكنه يسمى فاسقا وهو من أهل الملة، وأما الزيدية منهم فقد استقر حكمهم على أنه معذب في النار خالدا فيها ولا يخرج منها.

وبذلك فالروافض نفوا عن مرتكب الكبائر اسم المؤمن، ولكن لم يخرجوه من دائرة الإسلام، وأما الزيدية من الشيعة فقد وافقوا المعتزلة في رأيهم وذلك سببه أن أغلب الزيدية تتلمذوا على شيوخ المعتزلة.

---

[324] راجع: "وسطية أهل السنة بين الفرق" لمحمد با كريم محمد با عبد الله، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1415هـ-1994م، (344/1).

ومذهب المرجئة في مرتكب الكبيرة أمره مرجو إلى الله تعالى يوم القيامة، فلا يقضى في حقه بحكم معين، ويقولون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا ينفع مع الكفر طاعة، وهم بذلك يعدون مرتكب الكبيرة مؤمنا تام الإيمان، وبذلك خالفوا أهل السنة لأن المرجئة عرفوا الإيمان بأنه التصديق أو القول، أو القول مع التصديق أو المعرفة، وبناء على ذلك حصروا الكفر في الجهل والتكذيب والجحود ومحل ذلك في القلب[325].

وقد تفرد الحسن البصري برأي مخالف حيث اعتبر مرتكب الكبيرة منافق، لأن الفاسق يستحق الذم كالمنافق، ولأن الفاسق بارتكابه الكبيرة يكون في اعتقاده خلل، ولعل الحسن البصري يقصد بالنفاق نفاق العمل وليس نفاق الاعتقاد، لأنه لو كان نفاق اعتقاد لحكم بكفره.

أما مذهب أهل السنة من الأشاعرة وغيرهم من سلف هذه الأمة ومن خلفهم المتبعين فإنهم على قولهم بأن الأعمال جزء من مسمى الإيمان، لا يرون في ارتكاب الكبائر ما يخرج المرء من الإيمان سوى الشرك بالله أو الإلحاد أو الكفر البواح، فمرتكب الكبيرة مؤمن عاص أو مؤمن فاسق، وإذا مات ولم يتب فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وأدخله الجنة دون عذاب، وإن شاء أدخله النار وعذبه بقدر ذنوبه، ولا يخلد في النار كالكفار، بل لا بد أن يخرج منها ويدخل الجنة.

يقول إمام الحرمين الجويني: "من مات من عصاة أهل الإيمان من غير توبة فأمره مغيب، إن شاء غفر له أو شفع فيه شفيع، وإن شاء عرضه على النار يقدر ذنبه، ثم عاقبته الفوز الأكبر والنجاة"[326].

---

[325] راجع: "أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة" لسعود بن عبد العزيز الخلف، طبعة: 1420هـ، (83/2).

[326] "وسطية أهل السنة بين الفرق" لمحمد با كريم محمد با عبد الله، (346/1).

فأهل السنة لا يسلبون الفاسق الإسلام، فلم يكفروه ولم يخرجوه عن الإسلام، ولا يخلدونه في النار كما تفعل المعتزلة والخوارج الذين اتفقوا في شيء واختلفوا في شيء آخر، فاتفقوا أن يخلدوه في النار، واختلفوا في حاله في الدنيا، وأهل السنة في المقابل لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالسرقة والزنا مثلا وما أشبه ذلك، وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون، وذلك مذهب الأشاعرة من المتقدمين والمتأخرين من أهل السنة، وهذا واضح من رأي المؤلف الذي وافقهم في ذلك بقوله: " ومن الجائز الواجب اعتقاده أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وقد انعقد إجماع السنة على ذلك"[327].

ومذهب أهل السنة في مرتكب الكبيرة هو الذي عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، والكبائر عندهم لا تنقص الإيمان ولا تنافيه، وهو المنهج الوسط بين الغلو في هذه القضية وهو مذهب الخوارج قديما وحديثا الذين كفروا مرتكب الكبائر واستحلوا دمه وأخرجوه من الملة، واعتقدوا أنه خالد مخلد في النار، وبين أهل التفريط والتقصير الذين يرون أن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وهو عندهم مؤمن تام الإيمان، ولا فرق بينه وبين المؤمن التقي الذي أدى الواجبات وتجنب المحظورات، وهؤلاء هم المرجئة. فالله عز وجل يغفر لما دون الشرك من الكبائر لمن شاء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ لِمَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء﴾[328]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[329].

---

[327] انظر الصفحة 192 من قسم التحقيق.

[328] النساء: 48.

[329] الزمر: 53.

وقد تركت قضية ارتكاب الكبيرة أثرا عميقا في المجتمع الإسلامي، فنلاحظ أن الفرق القديمة كانت تتبنى فكرة خلود مرتكب الكبيرة في النار كالخوارج والمعتزلة والزيدية، كما حكم الحسن البصري على مرتكب الكبيرة بالنفاق الذي مآله الدرك الأسفل من النار، وهذا يعارض رؤية فرق أخرى ترى عدم تخليده في النار منها مذهب أهل السنة والرافضة من الشيعة، وقد نتج عن ظاهرة التكفير هذه نتائج سلبية منها انتشار ظاهرة التكفير التي أصبحت مألوفة في المجتمع الإسلامي كالحكم على المخالف بالكفر والضلال، وانقسم المجتمع الإسلامي إلى فرق متناحرة، هذا من جهة، بالمقابل نجد فئة أخرى استهانت بالأحكام الشرعية استهانة كبيرة، واعتقدوا أن الإيمان لا تضر معه كثرة المعاصي، بل تجرأ بعضهم على ارتكابها، ولم يهتموا بإقامة الصلاة وغيرها من الواجبات الشرعية الأخرى متجاوزين الحدود الشرعية.

والذي يعيش في المجتمع الإسلامي الذي ينتشر فيه فكر تكفير مرتكب الكبيرة تصل نفسه إلى اليأس من رحمة الله والقنوط منها، ويدفعه ذلك على ارتكاب معصيته والتطبع بها وعدم الاقلاع عنها والتوبة منها ظنا منه أنه لا طائل من التوبة لأنه من أهل النار، أما الذين يعيشون في مجتمع يتساهل في ارتكاب المعاصي والمحرمات بسبب الرجاء الذي يجدونه في أنفسهم واعتقادهم أنهم مشمولون بالشفاعة، وعدم خوفهم ورهبتهم من سخط الله وعقابه، فهذا ينشأ عنه ويترتب عنه عدم الاهتمام بدينهم وبخطورة المعاصي وأثرها على قلب المؤمن، وخطورة الوعيد والعذاب الشديد يوم القيامة.

لذا أرى أن المجتمع الإسلامي نتيجة لذلك انقسم إلى قسمين: فئة تكفر من خالفها في الرأي أو ارتكب كبيرة من الكبائر، وفئة أخرى لا تهتم بالتطبيق العملي للإسلام وتتجاوز حدود الله عز وجل.

ومذهب أهل السنة هو المذهب الحق والوسط، وأساس خلاف الفرق الأخرى معهم هو نظرتهم المختلفة لمفهوم الإيمان، فالإيمان عند المعتزلة والخوارج يثبت بالطاعات وينتفي بارتكاب الكبائر، وعند المرجئة لا ينتفي أبدا بارتكاب المعاصي، بل يثبت بإقرار القلب والتصديق، أما عند أهل السنة فيزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، كما أن اسم الإيمان لا ينتفي بارتكاب الكبائر، وهذا هو الصواب، ودليله ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما عليه سلف الأمة ومن سلك مسلكهم، والله أعلم.

- **قضية خوارق العادات:**

ذكر المؤلف رحمه الله أن العبد لا يؤمن حتى يؤمن بجميع نصوص القرآن وما جاء فيها من خوارق العادات، ويقول في ذلك: " ولا يؤمن عبد حتى يؤمن بجميع نصوص القرآن وما ورد فيه من خوارق العادات، ككلام الذر حين أخذ الذرية من ظهر آدم، وكلام النمل والهدهد، وكلام النار، وتسبيح الجبال والطير مع داوود عليه السلام"[330].

وخوارق العادات هي كل أمر غير مألوف، ويظهره الله على يد أنبياءه ورسله وتسمى معجزة، وقد تظهر على يد بعض عباد الله الصالحين من الملتزمين بأحكام الشريعة، ومن وصلوا إلى درجة عالية من الإيمان وهو مقام الإحسان فتسمى كرامة، كما حصل لأهل الكهف وفي صدر هذه الأمة من الصحابة أو التابعين، وفي كتب السنة الشيء الكثير من الكرامات، أو ما رواه العلماء وغيرهم من الثقات وشاهدوه.

ووقوع الكرامة للولي في الحقيقة معجزة للنبي، لأن الكرامة للولي لا تحصل إلا ببركة متابعته وسيره على نهج وهدي دينه وشريعته، وفي ذلك يقول المؤلف رحمه الله: "وكرامة الأولياء دلائل على معجزات الأنبياء، فكل كرامة ظهرت على يدي ولي

[330] انظر: الصفحة 272 من قسم التحقيق.

فإنها دلالة على صدق نبيه المتشبث بأذياله، وعلامة أيضا على صدق اقتدائه وتعلقه بنبيه المبعوث إليه"[331].

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات[332].

وقد خالف المعتزلة أهل السنة وأنكروا كرامات الأولياء، وحجتهم في ذلك أن خرق العادة لو صح من غير الأنبياء لالتبس النبي بالولي، ولم تكن المعجزة دليلا على صدق الأنبياء، وبذلك أنكروا ما حدث به القرآن وصح من الأحاديث من الكرامات، وما تواترت به الأخبار.

وكثير من أهل الكلام لا يثبتون خوارق العادات إلا للأنبياء، ولا يثبتونها لأحد غيرهم.

كما أن هناك فرق بين خوارق العادات والأحوال الشيطانية، وفي ذلك يقول المؤلف: " فإن قيل: أن خوارق العادات قد تظهر على يد الساحر والمنجم، فما وجه الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء؟، فالجواب: أن المعجزة تظهر بلا تقدم سبب عليها ولا جالب بخلاف الخارق في حق الساحر والمنجم، فإنه في حقهما لا يظهر إلا بعد استعمال أعداد وأوفاق مع اعتبار الطوالع والأوقات ولا تحدي يصحبها، بل يكون في الزمان الواحد عدد من السحرة كل منهم يأتي من الخوارق بمثل ما يأتي به صاحبه"[333]، لذلك فالخوارق ليست دليلا على أن صاحبها ولي من أولياء الله تعالى، فالكرامة هي نتاج الإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله تعالى، أما إن كانت

---

[331] انظر: الصفحة 70 من قسم التحقيق.

[332] انظر: "الرسالة والرسالات" لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الرابعة: 1410هـ-1989م، (154/1).

[333] انظر: الصفحة 69 من قسم التحقيق.

الخارقة بسبب الكفر أو الشرك أو الفسق فهي من السحر والتلبيس والأحوال الشيطانية.

وقد يعتقد كثير من الناس أن كل من يجري على يديه أمر خارق للعادة فهو ولي، فبعض الناس مثلا يطيرون في الهواء يمشون على الماء، بل يدعون النبوة وهم على الكفر والضلال، وليس كل إنسان يحدث له شيء من خوارق العادات ولي لله حتى ينظر في حاله وفي مدى موافقته للشريعة، إذ قد يكون من أولياء الشيطان الذي يعينه على الخوارق حتى يضل بها الخلق ويصدهم عن طريق الحق إلى طريق الشرك والكفر.

ومعجزات الأنبياء لم ينكرها أحد من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، إنما أنكر المعتزلة كرامات الأولياء وما كان خارقا للعادة لأنها من جنس المعجزات في نظرهم ولا تصح إلا للأنبياء دون غيرهم كما سبق وبينت، وخالفوا أهل السنة من الأشاعرة والصوفية الذين يثبتون الكرامات للأولياء وما يجري على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم وأنواع القدرة والتأثيرات والأحوال المباركة والعلوم اللدنية، وفي ذلك يقول المؤلف رحمه الله: " وذهب كثير من علماء السلف على أن الكرامات التي تظهر على يدي الأولياء في الدنيا هي عين البشرى لهم، لأنها دلائل على حسن أحوالهم مع الله وحسن اقتدائهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام، وهذا مذهب أهل السنة لاتفاقهم على إثبات كرامات الأولياء خلافا للمعتزلة، وأنه يجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع الوقائع في المستقبل، فيخبر به فيأتي كما أخبر وهي من اطلاع الله إياه على ذلك"[334].

[334] انظر: الصفحة 367 من قسم التحقيق.

كما أورد المؤلف الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي بقوله: "فإن قيل: لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي، فالجواب عن ذلك: أن الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي ظاهر ولو اجتمعا في الخارق، لأن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة، مقرون بالتحدي، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي، إذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته، فبان الفرق بين المعجزة والكرامة، وقد يظهر على يد الولي أمر خارق للعادة من غير دعواه وهذا أيضا يدل على ثبوت نبوءة النبي، لأن الكرامة إنما تظهر على يد من هو مصدق برسالة الرسول، محبا متشبثا بأذياله تابعا لسنته، فلو لم تكن نبوءته حقا لما ظهر الخارق على يد تابعه، لأن الكرامات نتائج المعجزات، فكل كرامة لولي فإنها معجزة لنبيه ودليل على صحة نبوءته"[335]، ويفهم من كلام المؤلف أن معجزات الأنبياء مقرونة بالتحدي، أما كرامات الأولياء فليست مقرونة بالتحدي، ولا يطلبها الولي وليست غايته طلب الكرامات، إنما غايته التفاني في الاستقامة والتقوى، كما أنه لا يستأنس بتلك الكرامة خوفا من الله عز وجل لئلا تكون من باب استدراجه، وكرامات الأولياء باقية مستمرة إلى أن تقوم الساعة، ولا ينكرها إلا جاهل أو مخالف للكتاب والسنة، ولله علم الأمور.

ب- منهجه في الاستدلال على المسائل:

اعتمد الشيخ سيدي المختار الكنتي في استدلاله على المسائل والقضايا التي أوردها في كتابه "المنة في اعتقاد أهل السنة" على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال السلف مراعيا في ذلك الترتيب بتقديم آيات القرآن ثم الحديث ثم أقوال العلماء، وأشار إلى أسلوبه في ترتيب الأدلة العلمية في خاتمة كتابه بقوله:" " أجريت فيه من آي الكتاب العزيز شموسا وأقمارا، وفيه من الأحاديث النبوية عيونا وأنهارا، ورصعته بالحكم الربانية والأمثال الصمدانية، والآداب الفردانية،

[335] انظر: الصفحة 367-368 من قسم التحقيق.

فصيرت بتطريزه رياضا وأزهارا"[336]، لذلك فالمؤلف يعتمد على الترتيب في الاستدلال العلمي مقدما القرآن ثم السنة ثم أقوال العلماء، وغالبا ما يستشهد بالأدلة العقلية لتأييد آرائه، ونادرا ما يخرج من هذا الترتيب المذكور، كما كان يبدي رأيه في الكثير من القضايا، ويثير تساؤلات وإشكالات ثم يجيب عنها، ومثال ذلك: "فإن قيل: كيف يدفع عن المؤمنين حر النار بعد دخولهم فيها؟، فالجواب عن ذلك: أن الله تعالى يخمد النار للمؤمنين، ويجعل أجزاءها المباشرة لأجساد المؤمنين بردا وسلاما عليهم كما جعلها على إبراهيم عليه السلام بردا وسلاما في دار الدنيا التي هي محل مجرى العوائد"[337]، كما كان يكثر من آيات القرآن الكريم ويميل إلى تفسيرها، ويستشهد بالأحاديث النبوية ويشرحها أحيانا، وقد استشهد في هذا الكتاب بأكثر من 700 آية، وأكثر من 600 حديث، كما يورد في استدلاله أبياتا شعرية، وأقوال بعض كبار المفسرين والمتكلمين والصوفية.

المطلب الثاني: تكامل المنحى العقدي والصوفي في كتاب المنة:

قبل الحديث عن التكامل العقدي والصوفي في كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" للشيخ سيدي المختار الكنتي، لا بد أن نستهل الحديث عن العلاقة بين التصوف وعلم الكلام. فعلم الكلام هو العلم الذي يتناول الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته ووحدانيته، وهو من أشرف العلوم وأجلها في إثبات العقيدة الصحيحة ومواجهة المشككين ودحض افتراءاتهم وأباطيلهم وشبهاتهم، ولأجل ذلك أسس أبو الحسن الأشعري مذهبه بعد أن كان معتزليا من قبل فتأثر بمذهبهم الذي يجعل من الاستدلال العقلي أهم من نصوص الكتاب والسنة، فرجع عن مذهب الاعتزال وتصدى لهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون: " وقام بذلك أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين

[336] الورقة الأخيرة من النسختين (أ) و(ج)، من القسم الثاني الغير محقق.

[337] انظر: الصفحة 235 من قسم التحقيق.

الطرق ونفى التشبيه، وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل، ورد على المبتدعة في ذلك كله"[338].

ويفهم من كلام ابن خلدون أن الأشعري تصدى للانحرافات العقدية للمذاهب الأخرى ولكن بأسلوب خاص، فالأشعري ومنتسبي مذهبه يجعلون من القرآن والسنة مصدرا رئيسيا للعقيدة الإسلامية الصحيحة، إضافة إلى الأدلة والبراهين العقلية لنصرة عقيدة أهل السنة والجماعة، وإثبات صفات الله تعالى كما أثبتها لنفسه، وتنزيهه عز وجل بما لا يليق به من صفات النقص.

ومن الناحية التاريخية ارتبطت العقيدة الأشعرية بمذاهب أهل السنة والجماعة، وخاصة المذهبين المالكي والشافعي.

كما يعتبر الأشاعرة من أهل السنة، لا يخالفون أئمة الفقه الأربعة، ولا يكفرون أحدا من أهل القبلة، ويعتبر منهجهم منهجا فريدا ووسطا بين دعاة المنطق والعقل المطلق، وبين النقليين الجامدين عند حدود النصوص وظواهرها، فالأشاعرة قدموا النص الشرعي على العقل، لكنهم جعلوا الاستدلال العقلي مدخلا في فهم النصوص.

وقد يعتقد البعض أن الأشعري أسس مذهبا خاصا به يخالف مذهب السلف، وذلك من ترهات المشككين الذين يحاولون التشكيك به، بل ادعوا أن الأشعري تاب من ذلك ورجع، وذلك عملا منهم لتشويه سمعة مدرسة الأشاعرة وجعلها ليست ضمن مدارس أهل السنة في علم الكلام، فقد كان الأشعري سببا في إبطال شبهات المذاهب الأخرى، وعقيدته عقيدة أهل السنة.

---

[338] انظر: "مقدمة ابن خلدون" لعبد الرحمان بن محمد بن خلدون، (ص435).

كما أن أبا الحسن الأشعري استخدم أساليب علم الكلام كالمنطق والقياس إلى جانب نصوص الوحي في عدد من قضايا ومباحث العقيدة، وكان يرى أن كل عصر له لغته ومصطلحاته العلمية وله معارضين ومشككين في أصول الدين الإسلامي، إذ لا بد من مناظرتهم بأسلوبهم العقلي، فكانت أولى مواجهته مع المعتزلة بعد أن انسحب من مذهبهم وتبرأ من أفكارهم.

ومنهج الأشعري في علم الكلام لم يعد جامدا بسبب المرونة التي اتبعها في مقدماته العقلية، مع نفس القاعدة الأساسية التي وضعها بجعله العقل خادما ووسيلة لفهم النصوص، كما كثر أتباعه واقتفى أثره عدد كثير من العلماء، منهم من تبنى رأيه في المقدمات التي وضعاها وفي نتائجه، ومنهم الباقلاني الذي هذب ووضع المقدمات التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، ثم خلفه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني فألف كتاب "الإرشاد" وغيره، وكذلك الإمام الغزالي وأبو إسحاق الإسفراييني[339] وغيرهم من العلماء الأشاعرة.

وكان لظهور الأشاعرة تحول كبير في تاريخ أهل السنة التي تكاملت بنيتهم العقدية بقسمين رئيسيين، هما: علم الكلام وأساليبه إلى جانب نصوص الكتاب والسنة، كما

[339] إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق (ت 418 هـ / 1027 م)، عالم بالفقه والأصول، كان يلقب بركن الدين، قال ابن تغري بردي: وهو أول من لقب من الفقهاء، نشأ في أسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرّس فيها، ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق، فاشتهر، له كتاب (الجامع) في أصول الدين، خمس مجلدات، و(رسالة) في أصول الفقه، وكان ثقة في رواية الحديث، وله مناظرات مع المعتزلة، مات في نيسابور ودفن في أسفرايين، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، (61/1)

ماثلته في ذلك مدرسة أخرى من مدارس أهل السنة في علم الكلام وهي المدرسة الماتريدية[340] التي لم تختلف مع الأشاعرة إلا في مسائل قليلة.

وانتشر المذهب الأشعري في شتى البلدان الإسلامية وله دور كبير في حفظ عقائد المسلمين.

أما التصوف فقد عرفه ابن خلدون تعريفا شاملا بقوله: " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف"[341]، وقال أبو القاسم النصراباذي: " أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك البدع والأهواء، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات"[342].

وبهذا فإن التصوف يعتمد على المنهج القلبي والوجداني في معرفة الله تعالى وكمالاته، والتصوف في نظر الشيخ سيدي المختار الكنتي أحد ثلاثة علوم تعرف جميعا بعلوم الدين الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، والإحسان هو لب التصوف،

---

[340] نسبة إلى إمامها ومؤسسها أبو منصور الماتريدي (ت 333هـ/944م)، ينتهي نسبه إلى الصحابي أبو أيوب الأنصاري، وظهرت هذه الفرقة أوائل القرن 4 هـ، ودعت إلى مذهب أهل الحديث بمنهج يجمع بين الحديث والبراهين، وقامت على استخدام الدلائل العقلية الكلامية في محاجة خصومها، انظر: "المنهج العقدي للإمام أبي منصور الماتريدي بين النقل والعقل"، لمروة حمود خرمة، المجلد التاسع، العدد: 3، طبعة: 1414هـ-2013م، عمان-الأردن، (ص11).

[341] انظر: "مقدمة ابن خلدون" لعبد الرحمان بن خلدون، (ص 449).

[342] انظر :"الاعتصام" لإبراهيم بن موسى الغرناطي المشهور بالشاطبي (المتوفى 790هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان-السعودية، الطبعة الأولى: 1412هـ- 1992م.

والعلمان الآخران يعرفان بعلم الشريعة الظاهرة، ومعرفة علم التصوف لا تتم إلا بإلمام كامل بعلم الشريعة، إذ يعد الشيخ التصوف ثمرة علوم الشريعة.

وقد أكد الصوفية أن هناك علاقة وطيدة بين الشريعة والتصوف، وقالوا بأن التصوف هو باطن الشريعة الخفي بل لبها، وليس المستطاع الوصول إلى اللب إلا بعد إزالة القشر أي التمكن التام من الشريعة[343].

ويعتبر التصوف روح كل العبادات وهو القلب الذي يؤديها والبصيرة التي تدرك حقائقها، وبذلك تكون العلاقة بين العقيدة والتصوف علاقة تكامل، فعلماء الكلام لا يعتمدون العقل وحده في فهم العقيدة، بل يعتمدون الاستدلال العقلي في فهم النصوص الشرعية، وهم بذلك يمزجون العقل بالنص، والشريعة بالحقيقة.

وقد ارتبط علماء الأشاعرة بالتصوف ارتباطا كبيرا رغم اختلاف المنهج العقلي في الأشعرية، والذوقي في التصوف، وتدور مباحث العقيدة على الدفاع عن العقيدة الصحيحة، ومفهوم الإيمان نفسه الذي من شروطه التصديق بالقلب أولا والإقرار، والعمل بالأحكام، والتصوف يهتم بالجانبين الظاهر والباطن من أعمال العبادات التي من شروطها خشوع القلب، والعلم الذي ينقصه الخشوع كجسد لا روح له.

وقد سلك المؤلف باعتباره صوفيا أشعريا مالكيا مسلك العلماء الذين سبقوا في التوفيق بين المنحى العقدي والصوفي، كما فعل الإمام الغزالي في تأليفه لكتاب "إحياء علوم الدين"، بل سلك الشيخ سيدي المختار الكنتي مسلكا مغايرا في عده علم التوحيد من العلوم الذوقية، شأنه شأن علم التصوف بقوله: " والتوحيد: "علم ذوق وموهبة، لا

---

[343] "الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد" للشيخ سيدي المختار الكنتي من بداية الكتاب إلى الورقة 14، المجلد الأول، دراسة وتحقيق: سحنون الرازي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، المعهد العالي للبحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التراثية، القاهرة– مصر، سنة: 2013م، (10/1).

علم بحث ودراسة، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [344]، وقال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [345] ، وقال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[346] إلى غير ذلك، فعلم من هذا أن الإيمان موهبة ربانية لا يتوصل إليه ببحث ولا جدال، وإنما يتوصل إليه بفضل الله ورحمته وتوفيقه وكونه ممن سبقت له العناية من الله، فرب مبرهن صارت براهينه وبالا عليه، ومتعمق أمست تعمقاته تبابا لما لديه كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾[347]، فالمؤمن هو الذي عند الله مؤمن في سابق علمه وهو الذي يؤمن بواسطة الرسل والآيات وبواسطة تجلي اسمه الهادي"[348].

ويتضح من كلام المؤلف في هذا الكتاب أن التوحيد الذي أساسه الإيمان بالله عز وجل من العلوم المرتبطة بالقلوب، فمن وفقه الله عز وجل يتوصل إلى الإيمان عن طريق هداية الله وتوفيقه، ولا يفهم من كلام الشيخ تغييبه للعلوم العقلية والقياس بل تحدث عن أهميتها في التوصل إلى الحقائق الإيمانية بقوله:" أما ما ألفت أئمة أهل السنة والجماعة من علم الكلام مما فيه مشاكلة لمذاهبهم الفاسدة، فإنه ينبغي تعليمه ليكون سهاما في نحورهم كعقد الأشعري وكتاب إمام الحرمين ونحو ذلك"[349]، وتحدث كذلك عن أهمية التفكر والاعتبار في ذات الانسان نفسه وفي عظمة الخالق عز وجل للتوصل للحقائق اليقينية ومعرفة الله عز وجل بقوله:" أي فضول زائد على العلم النافع

---

[344] الأنعام: 125.

[345] الحجرات: 7.

[346] التغابن: 11.

[347] يونس: 101.

[348] انظر: الصفحة 13 و14 من قسم التحقيق.

[349] انظر: الصفحة 38 من قسم التحقيق.

وهذا غير مناف للتفكر والنظر والاستدلال بمصنوعات الله الدالة على كبريائه وعظمته وعظيم قدرته"[350].

ويأتي التكامل بين التصوف وعلم الكلام في كتاب المنة بتضمينه مباحث في العقيدة الأشعرية من جمل الاعتقادات التي لا يتم الإيمان إلا باعتقادها والتصديق لها، ومباحث أخرى في التصوف من قبيل كرامات الأولياء ومناقبهم وغير ذلك، ولا يلاحظ أي تناقض فيما أورده المؤلف بين العلمين، ويأتي ذلك التكامل من جهة أن العقل البشري له قدرات محدودة جدا إذ يتعلق الأمر بالعلوم الباطنة والغيبيات، فيقف العقل والذهن عاجزا لا يستطيع تجاوز حده، وهنا يأتي دور علم التصوف ودور القلب في تلقي العلوم الذوقية وما يودعه الله عز وجل في البصائر من أنواع العلوم والمواهب.

ومهما يكن فإن وظيفة علم الكلام الوصول إلى الحقيقة، ويبقى أداة مهمة للوصول إلى التصوف، فالمرء لا يمكن أن يرقى بإيمانه بعلوم الظاهر، فلا بد أن يتذوق حلاوة الإيمان ليصل قلبه لمرحلة الاطمئنان والسكينة، والقرآن إلى جانب السنة خاطب العقول والقلوب معا، ليتخلص الإنسان من الأفكار التي لا يقبلها عقلا ولا منطقا، وليخلص القلوب من الاعتقادات الفاسدة، وتزكيتها وتخليصها من أمراضها وتصفيتها، والرقي بها إلى أعلى درجة في الإيمان ألا وهي الإحسان.

وخلاصة القول فإن التصوف جزء من العلوم الإسلامية لا ينفك عنها وجزء منها، وتشكل كل العلوم الإسلامية جسدا واحدا يكمل بعضه بعضا، ولا ينفصل جزء منه عن الآخر.

[350] انظر: الصفحة 41 من قسم التحقيق.

المطلب الثالث: المصادر التي اعتمدها المؤلف ومنهجه في استعمالها:

استفاد الشيخ سيدي المختار الكنتي من عدد كبير من المصنفات والكتب أثناء فترة تكوينه العلمي وبعد ذلك أيضا، وذلك باعتباره من العلماء الصوفية الأشاعرة المتأخرين، وقد تراكمت في خزانته العديد من الكتب منها كتب الحديث والتصوف والعقيدة الأشعرية إضافة إلى مؤلفاته شخصيا التي يحيل إليها ويشير إليها، كما اعتمد عليها ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة الذي تلقى العلم عن والده وأخذ عنه نفس مروياته في العلوم، واستفاد كذلك من مكتبته ومؤلفاته.

وفي دراستي للكتاب لاحظت أن المؤلف يقتبس نصوصا مطولة تشغل صفحات دون إشارة إلى مصدرها، ورغم ذلك يمكن التعرف عليها واكتشافها بعد البحث والتدقيق، وفي بعض الأحيان يشير إلى المصدر وصاحبه، وأهم المصادر التي اعتمدها المؤلف وكيفية أخذه منها، مرتبة حسب أهميتها كالآتي:

1-**القرآن الكريم:** فقد شكل مرجعا أساسيا، لا تكاد تخلو ورقة أو صفحة من الكتاب من آية أو تفسيرها، وكان يستشهد بالقرآن الكريم في أغلب الموضوعات، كما يميل إلى أسلوب التفسير، ومن أشهر كتب التفسير التي اعتمدها:

- ✓ "لباب التأويل في معاني التنزيل"(تفسير الخازن) لعلاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن.
- ✓ و"معالم التنزيل في تفسير القرآن" (تفسير البغوي) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي.
- ✓ و"جامع البيان عن تأويل آي القرآن" (تفسر الطبري) لمحمد بن جرير الطبري.
- ✓ ومفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي.
- ✓ و"الكشف والبيان عن تفسير القرآن" (تفسير الثعلبي) لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي.

2-**الحديث النبوي:** إن أغلب الأحاديث التي رواها المؤلف تدخل في صنف الصحيح، والتي رواها كبار المحدثين كالبخاري ومسلم وابن ماجة والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد بن حنبل والحاكم والطبراني وغيرهم، كما يوجد عدد من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والتي لا أصل لها في مصادر الحديث ويستدل بها أغلب مشايخ الصوفية.

والمؤلف في استعماله لمصادر الحديث إما أن يورد النص كاملا أو يذكر طرفا منه حسب سياق النص، ويكتفي بذكر الصحابي مع الإشارة إلى مخرج الحديث في نهايته، وقد يجرد الحديث عن السند ومخرجه ويرويه مباشرة، ويميل إلى شرح بعض الأحاديث وألفاظها باعتماد مصادر في ذلك، من أهمها:

- ✓ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري.
- ✓ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي.

3-**العقيدة:** اعتمد المؤلف على عدد من المصادر في العقيدة الأشعرية باعتباره من الأشاعرة المتأخرين، ومن أهم المصادر التي نقل عنها في العقيدة نقلا مباشر:

- ✓ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، عبد الملك بن عبد الله أبو يعلى الجويني.

بالإضافة إلى نقله من حافظته باعتباره من الأشاعرة المتأخرين، إضافة إلى دراسته العقيدة الأشعرية في المحاظر التي انتشرت في منطقته، فكانت العقيدة الأشعرية من العلوم الواجبة على الطلبة التمكن فيها، قبل الانتقال إلى باقي العلوم.

4- **التصوف:** يعد طابع التصوف السمة الغالبة على مصادر الكتاب، ومنها أمهات كتب التصوف المتداولة عند مشايخ الصوفية، ومن أهمها: "

- ✓ الرسالة القشيرية" لأبي القاسم القشيري.

- ✓ "الصواعق المحرقة" لابن حجر الهيثمي.
- ✓ "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي.
- ✓ و"الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري".
- ✓ لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي، عبد الوهاب الشعراني.
- ✓ التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بالزيات.

واكتشفت أن المؤلف رحمه الله تقتبس بعض المعلومات من مؤلفات أخرى منها:

- ✓ "الخصائص الكبرى" لجلال الدين السيوطي.

وهناك مصادر أخرى لم يفصح عنها المؤلف، وأغلبها في حكم المخطوط وكانت في حوزته آنذاك، كما ترجم لكثير من العلماء الذين ينتمون لبلاده، كما روى أغلب الروايات التاريخية من حافظته، فقد كان الشيخ سيدي المختار الكنتي من مؤرخي بلاد البيضان كما هو الشأن لابنه الشيخ سيدي محمد، كما كان العلماء في عصره يتداولون كثيرا من المصنفات في التصوف، بعضها بقي متناثرا بين خزائن الأسر أو المكتبات المحلية، والبعض الآخر ضاع بفعل عوامل الزمن أو الحروب أو غيرها من الأسباب.

خـــاتمة:

وفي الأخير لقد توخيت من خلال دراستي لكتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة " تسليط الضوء على مختلف الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية المتعلقة بالكتاب وبمؤلفه الشيخ سيدي المختار الكنتي رحمه الله، وإن كان لابد من الأخطاء والهفوات والغفلة في كل بحث علمي والتي يقع فيها الباحثون عادة، فإني لم أدخر الجهد في سبيل الإحاطة بهذه الجوانب. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها طيلة سنوات تحقيقنا لهذا لكتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" كالآتي:

- يعتبر التصوف المبني على الكتاب والسنة السد المنيع أمام انتشار الخطاب الديني المتطرف والمتشدد، ورادع لهذه الأفكار والتوجهات الدخيلة على الإسلام والمسلمين والتي نتج عنها انتشار أعمال العنف والخطاب المعادي الذي لا يقبل الحوار.
- يعتبر كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة" الذي قمت بتحقيق القسم الأول منه بمثابة مرجع للعقيدة الأشعرية الصحيحة الوسطية، ومرجعا للتصوف السني الخالي من البدع والاختلالات التي شابت التصوف، ويعتبر كذلك هذا الكتاب وغيره من مصنفات الشيخ سيدي المختار الكنتي دالة على شخصيته العلمية.
- سعة اطلاع الشيخ سيدي المختار الكنتي وثقافته الرفيعة، ومنهجه الصوفي الفريد، وغزارة إنتاجه العلمي، وكثرة مؤلفاته ورسائله العلمية والتاريخية والسياسية.
- للشيخ سيدي المختار الكنتي دور كبير وفعال في نشر الإسلام والعروبة والمبادئ والقيم السمحة، وكذلك له دور في الحفاظ على الهوية الدينية

للمنطقة القائمة على العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني، ونشر فضائل الأخلاق والقضاء على رذائلها.

- قام الشيخ رحمه الله بنشر طريقته القادرية على نهج الأئمة الأعلام كعبد القادر الجيلاني وأبي القاسم الجنيد رحمهما الله.
- يجب التنويه والإشادة بجهود الشيخ الإصلاحية وغزارة علمه، وسمات قيادته الرشيدة، وعلامات تقواه وورعه وحسن أخلاقه.
- كثرة إيراد المؤلف لحكايات الصالحين والعباد والزهاد ومناقبهم وأحوالهم، سواء تعلق الأمر بالمشارقة أو المغاربة أو أسلافه من الأسرة الكنتية العريقة.
- لعب الشيخ سيدي المختار الكنتي دورا هاما في الصلح بين القبائل، وفي نشر الأمن والاستقرار في المنطقة.
- غلب على أسلوب الشيخ سيدي المختار الكنتي طابع التصوف في تناوله للمسائل العقدية، وذلك يظهر جليا في مضمون الكتاب.
- انتقد الشيخ سيدي المختار الكنتي كتاب "تلبيس إبليس" لابن الجوزي ولما ورد فيه من الطعن في علماء المسلمين، وخصوصا أبو الحسن الأشعري، وأكد أن الكتاب ليس من تأليف ابن الجوزي، بل هو منسوب له، لأنه مخالف لما ورد في كتاب آخر من كتبه وهو كتاب "المورد العذب".
- غياب العناوين الفرعية لمختلف المواضيع في كتاب "المنة" وخلوه من الترتيب الداخلي، وسبب ذلك أن المؤلف يتناول عدة مواضيع أخرى في نفس الباب أو الفصل ثم يعود إلى الموضوع مرة أخرى.
- سعى الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى حل عدة إشكاليات عقدية، منها: مسألة تكفير عوام الناس، واستدل بأحاديث في مقدمة كتابه للتحذير من تكفير المسلمين.

- وسطية واعتدال الشيخ سيدي المختار الكنتي في تناوله لمختلف القضايا العقدية، منها مسألة مرتكب الكبيرة وغيرها من القضايا الخلافية.
- الفكر الإصلاحي للشيخ سيدي المختار الكنتي قام على المزج بين الخبرة الدينية والتاريخية والإمامة على رأس الطريقة القادرية.
- إن المجتمع المغربي ارتبط بالتصوف والعقيدة الأشعرية والمذهب المالكي وجعل ذلك من صميم التدين، الشيء الذي أهله لنشر نموذجه في الدول الإفريقية.
- كثرة ذكر الشيخ سيدي المختار الكنتي في مؤلفات العلماء من حيث الاستشهاد به، كابنه سيدي محمد الخليفة وغيره، لكونه يحظى بسلطة مرجعية تؤخذ بعين الاعتبار.
- كان للشيخ سيدي عمر الشيخ الكنتي دورا بارزا في نشر رسالة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بنشر الطريقة القادرية في المغرب والدول الإفريقية.
- شكلت علاقة المغرب بالسودان الغربي أهم عامل أساسي في انتشار التصوف وانتقال الطريقة القادرية من بوابة المغرب.
- لسلاطين المغرب من الملوك العلويين الأشراف علاقات جد وثيقة بالقادرية الكنتية.
- تعد الطريقة القادرية الكنتية من أهم الطرق الصوفية في الصحراء المغربية والجزائر وموريتانيا وأزواد بجمهورية مالي والسنغال والنيجر ونيجيريا، وغيرها من البلدان الإفريقية.
- تعتبر قبيلة كنتة، قبيلة عربية لها نفوذ ديني وسياسي كبير في منطقة الساحل والصحراء.

- ساهمت عشائر كنتة في نشر الطريقة القادرية بغرب إفريقيا، وفض النزاعات بين القبائل المتحاربة.
- لقبيلة كنتة دور كبير في الربط بين المغرب وإفريقيا الغربية، مما ساهم في نمو واستقرار العلاقات الثقافية والروحية والاقتصادية طيلة القرون الماضية.
- مواجهة الكنتيين للاحتلال الأوروبي بالقوة المتمثلة في حركات المقاومة المسلحة، وفكريا المتمثل في نشر الثقافة العربية الإسلامية، وإفشال مخططات دول الاحتلال في استغلال ثروات المنطقة.
- لعلماء كنتة نشاط علمي قوي يظهر من خلال الكم الهائل من المخطوطات.
- ترك شيوخ الطريقة القادرية الكنتية موروثا علميا وثقافيا كبيرا وإرثا مكتوبا يحتاج إلى نفض الغبار عنه.
- حظيت قبيلة كنتة باهتمام بعض الباحثين سواء على المستوى التاريخي أو السياسي أو الديني ودورها الاجتماعي، لكن بقي أعلام هذه القبيلة رغم إنتاجهم العلمي الغزير ووفرة مؤلفاتهم مغمورين، ولم يحظوا باهتمام في الدراسات والأبحاث بالشكل المطلوب.

✓ **آفاق البحث:**

- إن عملية الانتهاء من تحقيق هذا الكتاب لم تنتهي بعد، وحاليا أعمل على تحقيق القسم الثاني منه لتكتمل الصورة، وليتضح الكثير مما هو مكنون في ثنايا هذا الكتاب من مسائل علمية.
- توجد الكثير من المخطوطات الكنتية ومؤلفات سيدي المختار الكنتي في العديد من المكتبات الوطنية، وخزائن الأسرة الكنتية بالدول المجاورة تحتاج إلى دراسة وتحقيق.

- إن عملية رقمنة المخطوطات يعد الحل الأمثل والأنجع لحفظها من الضياع، وليس تكديسها في الخزائن، التي تجعل من عمل الباحث يتسم بالصعوبة، فعملية رقمنتها تجعلها متاحة للجميع للاطلاع عليها ودراستها.
- ضرورة الاهتمام بالتراث الافريقي من طرف الباحثين، لاسيما علماء الطريقة القادرية الكنتية من أمثال عثمان بن فودي وأبناءه، حيث أن هذه الأسرة العلمية تملك رصيدا علميا وكما هائلا من المخطوطات تحتاج إلى دراسة.
- لاحظت أن الدراسات التي حظي بها الشيخ سيدي المختار الكنتي هي دراسات تاريخية ودينية في مجملها، ولم تتعرض للجانب الأدبي له، لذا وجب على الباحثين عدم إغفال هذا الجانب المذكور.

كما أدعو الباحثين ومن لهم اهتمام بالتراث العربي والإسلامي المغربي والمغاربي والإفريقي أن يهتموا بخزائن التراث قبل أن تندثر مع مرور الزمن فتفقد قيمتها المادية والعلمية، وخصوصا كتب الشيخ سيدي المختار الكنتي وأبنائه وأحفاده وأسلافه وعموم علماء المنطقة.

ولقد كان المحفز والدافع والباعث لتخريج هذا العمل، باعثا روحيا ووطنيا وقوميا وثقافيا، خدمة لتراث بلادنا الصحراوي، وحفاظا على ثقافتنا المغربية.

وأسأل الله عز وجل أن يجعل ثواب هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به جميع المسلمين، وصل اللهم وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع المتعلقة بقسم الدراسة

- **القرآن الكريم** برواية حفص عن عاصم.
- **إتحاف الأكابر في سيرة ومناقب الإمام محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسيني**، عبد المجيد طه الدهيبي الزعبي الجيلاني، دار الكتب العلمية، طبعة" 2009م.
- **إسعاف المسائل بالكلام على بعض المسائل**، محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، طبعة: 2014م.
- **الإسلام في نيجيريا ودور الشيخ عثمان بن فودي في ترسيخه**، محمد لواء الدين أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2013م.
- **الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى** (دراسات ومراجعات)، حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2010م.
- **الإصلاح والثقافة العربية في إفريقيا**، حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية: 1986م.
- **أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة**، سعود بن عبد العزيز الخلف، طبعة: 1420هـ.
- **أضواء على الثقافة العربية في إفريقيا في العصر الحديث، مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية**، الأستاذ حسن الصادقي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، طبعة: 2012م.
- **الاعتصام**، لإبراهيم بن موسى الغرناطي المشهور بالشاطبي (المتوفى 790هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان–السعودية، الطبعة الأولى: 1412هـ– 1992م.
- **أعلام المغرب العربي**، عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الملكية– فاس، طبعة: 1399هـ–1979م.
- **الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين 18و19، إمارة الترارزة نموذجا**، منشورات حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، نواكشوط–موريتانيا، العدد: 2، طبعة: 1990م.
- **إمارة الترارزة**، محمد المختار ولد السعد، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، طبعة: 2002م.
- **إنتشار الإسلام في افريقيا**، محمد علي الهمشري، والسيد أبو الفتوح وآخرون، دار أركان (الرياض)، الطبعة الأولى: 1418 هـ– 1997م.
- **أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام**، للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: بادي بن باي بن باب، شركة المدينة المنورة، الطبعة الأولى: 1419هـ.

- **البرهان في أصول الفقه**، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، تحقيق عبد العظيم الذيب، الطبعة الأولى: 1399هـ.
- **تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس**، القاضي محمود كعت (المتوفى: 1002 هـ- 1593م)، تحرير وتقديم: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2012م.
- **تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شربية الكبرى**، حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2010م.
- **تاريخ قبائل البيضان عبر الصحراء الكبرى**، موسى كمرا، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2018م.
- **تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي**، حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2017م.
- **تحريم نهب أموال المعاهدين النصارى**، محمد عبد الله بن زيدان بن غالي البوصادي، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، طبعة: 2012م.
- **التداخل والتواصل في إفريقيا**، أوراق المؤتمر العلمي، الكتاب الأول، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم-السودان.
- **التواصل الحضاري الليبي السوداني (السوداني عبر العصور)**، أعمال الندوة العلمية العاشرة التي عقدت بالمركز، أيام 1و2 أبريل 2002م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2006م.
- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
- **جنة المريد دون المريد**، الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: محمد المهداوي، الرابطة المحمدية للعلماء، طبعة: 1433 هـ -2012م.
- **جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي، أحمد بابا التنبكتي نموذجا**، عبد الرحمان ميكا، الجامعة الإسلامية- النيجر، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، مجلة العلماء الأفارقة، العدد الأول، السنة الأولى: شهر صفر 1441هـ الموافق لشهر أكتوبر 2019م.

- **الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالي**، مطبعة السعادة، طبعة: 1934م.
- **الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية**، محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2015م.
- **دراسات صحراوية**، المجتمع والسلطة والدين، رحال بوبريك، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 2005 م.
- **دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 18 و 19م**، أج ولد محمد ولد أمينوه، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 01، يونيو: 2013م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنواكشوط (موريتانيا).
- **ديوان الصحراء الكبرى:** المدرسة الكنتية والقصائد النيرات، يحيى ولد سيدي أحمد، وزارة الثقافة– الجزائر، الطبعة الأولى: 2009م.
- **ذيل وفيات الأعيان**، المسمى (درة الحجال في أسماء الرجال)، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي (ت 960هـ/1025م)، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة– مصر، والمكتبة العتيقة–تونس، الطبعة الأولى: 1391هـ–1997م.
- **رحلة المنى والمنة**، الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة (المتوفى 1265 – 1849م)، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2013م.
- **الرسالة الغلاوية** (مبردة الغليل وشافية الغل)، الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي (المتوفى: 1242 هـ– 1825م)، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، طبعة: 2013م.
- **رسالة إلى أهل فاس ومكناس ومراكش**، أحمد البكاي الكنتي، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي، رقم: ع 147.
- **رسالة من الشيخ سيدي المختار إلى السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله، رسالة خاصة بمكتبة الأسرة.**
- **الرسل والرسالات**، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع– الكويت، الطبعة الرابعة: 1410–1989م.
- **السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن 19**، محمد الأمين ولد سيدي أحمد، نواكشوط، طبعة: 2003م.

- **شرح التبيان في علم البيان**، أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق: أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 2010م.
- **الشيخ سيدي المختار الكنتي ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا**، عزيز بطران، مجلة البحوث التاريخية، العدد:2، يوليوز: 1981م، مركز جهاد الليبيين.
- **الشيخ عثمان بن فودي**، بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم– السودان، أيام: 19 إلى 21 نونبر 1995م، طبعة: 1996م.
- **ضبط النص والتعليق عليه**، بشار عواد معروف، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1431 هـ– 2010م.
- **الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة**، الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تحقيق: يحيى ولد سيدي أحمد، دار المعرفة: تلمسان، طبعة: 2011م.
- **الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19م، أحمد الأزمي، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه بفاس–المغرب، 1999م.**
- **الطريقة القادرية أصولها وقواعدها**، ويليه: نزهة الخاطر الفاتر في ترجمة الشيخ عبد القادر، ميعاد شرف الدين الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2014م.
- **الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا (1903–1960م)**، رسالة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإفريقية بقسم التاريخ، من إعداد الباحث: علي بدوي علي سالمان، معهد البحوث والدراسات الإفريقية بالقاهرة (مصر)، سنة: 2013م.
- **العرش**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1424هـ–2003م.
- **الغنية لطالبي طريق الحق**، عبد القادر بن موسى بن عبد الله، محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، تحقيق: أبو عبد الرحمان صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 14717 هـ– 1997م.
- **فتح الودود شرح المقصور والممدود**، الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي تحقيق: مأمون محمد أحمد، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة– مصر)، طبعة: 1423 هـ– 2002م.

- **الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر**، محمود بن ساعد بوكراع السطيفي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، طبعة: 2016م
- **الفكر الصوفي عند الشيخ سيدي المختار الكنتي: (1442– 1226 هـ)**، القصيدة الفيضية نموذجا، رسالة لنيل شهادة الماستر، من إعداد الباحثة: زينب لمصادفة، قسم اللغة العربية، سنة: 2011م، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر).
- **كنتة الشرقيون من عرب مالي والنيجر**، بول مارتي، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق – سوريا، 1985م.
- **الكنتيون وعلاقتهم بالسلطة السياسية بالسودان الغربي خلال القرن 19م، من خلال رسالتين للشيخ أحمد البكاي الكنتي (ت1865م) لسلطان ماسينا أحمدو بن أحمدو (ت1863م)**، تقديم وإخراج الباحث موما عبد الله، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، سنة: 2007م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز– فاس.
- **الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد**، للشيخ سيدي المختار الكنتي من بداية الكتاب إلى الورقة 14، المجلد الأول، دراسة وتحقيق: سحنون الرازي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، المعهد العالي للبحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التراثية، القاهرة– مصر، سنة: 2013م،
- **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، الطبعة: الثانية، 1402 هـ – 1982 م.
- **المحصول**، فخر الدين الرازي، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مطبعة: نزار الباز، الطبعة الأولى: 1417هـ–1997م.
- **المختار الكنتي: التصوف والعلم بأزواد**، أحمد الحمدي، جمعية البيت للثقافة والفنون–الجزائر، الطبعة الأولى: 2009م.
- **المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث**، محمد المنوني، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، سنة: 1992م.
- **مسائل الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية**، طه خالد السيد علي السامرائي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، طبعة: 2006م.

- **معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر**، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة: 1409هـ–1988م.
- **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم–بيروت، الدار الشامية–دمشق، الطبعة الأولى: 1412هـ.
- **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمان محمد بن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية: صيدا–لبنان، طبعة: 1423هـ–2002م.
- **مملكة السنغاي في عهد السيقيين**، عبد القادر زبايدية، مجلة الذاكرة، العدد: 5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع– الجزائر.
- **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، لناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، طبعة: 1999م.
- **المنهج العقدي للإمام أبي منصور الماتريدي بين النقل والعقل، مروة حمود خرمة**، المجلد التاسع، عمان–الأردن، العدد: 3، طبعة: 1414هـ–2013م.
- **موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألسكو)، دار الجيل، الطبعة الأولى: 2004م.
- **وسطية أهل السنة بين الفرق**، محمد با كريم محمد با عبد الله، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1415هـ–1994م.

لائحة موضوعات قسم الدراسة

مقدمة:.....1

1-الإطار العام للموضوع.....3

2-أهمية الموضوع وأسباب اختياره.....3

3-الدراسات السابقة في موضوع البحث.....5

4-أهداف البحث.....7

5-مناهج البحث.....8

6-مصادر ومراجع البحث.....14

7-وصف النسخ المعتمدة في التحقيق.....16

8-خطة البحث.....19

9-صعوبات البحث.....22

الفصل الأول: عصر المؤلف.....24

المبحث الأول: الحالة السياسية.....24

المطلب الأول: الخارطة السياسية في عصر المؤلف.....24

المطلب الثاني: الإمارات في المجالين البيضاني والسوداني.....26

1-الإمارات العربية والصنهاجية في المجال البيضاني.....26

2-الإمارات الإسلامية في السودان الغربي.....29

المطلب الثالث: دور المؤلف في الصلح بين القبائل.....30

المطلب الرابع: صلات المؤلف السياسية مع الملوك والأمراء.....32

المطلب الخامس: الدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي وذريته.....36

1-الدور السياسي للشيخ سيدي المختار الكنتي.....37

2-الدور السياسي للشيخ سيدي محمد الخليفة.....39

3-الدور السياسي للشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد الخليفة.....41

4-الدور السياسي للشيخ أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة.....41

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية.....43

المطلب الأول: نشأة المجتمع الحساني.....43

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي لقبيلة كنتة العربية.....44

المطلب الثالث: دور الكنتي في حرب شربية الكبرى.....47

المطلب الرابع: تشكل البنية الاجتماعية الجديدة وعادات وتقاليد المجتمع الحساني...55

1-تشكل البنية الاجتماعية الجديدة.....55

2-عادات وتقاليد المجتمع الحساني.....58

المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية.....60

المبحث الرابع: الحركة العلمية.....63

المطلب الأول: الطريقة القادرية: نشأتها وامتدادها الإفريقي.....68

1-نشأة الطريقة القادرية.....68

2-مبادئ الطريقة القادرية.....69

3-دخول القادرية إلى القارة الإفريقية وارتباطها بالكنتيين.....71

4-الدور التربوي للقادرية الكنتية.....78

المطلب الثاني: تجديدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي وسنده الصوفي.....79

1-تجديدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي.....79

2-السند الصوفي للشيخ سيدي المختار الكنتي.....81

المطلب الثالث: الطريقة القادرية الكنتية في السودان الغربي.....83

المطلب الرابع: الطريقة القادرية الكنتية المختارية في المغرب وأعلامها.....84

الفصل الثاني: التعريف بالمؤلف.....89

المبحث الأول: حياته.....89

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده.....89

المطلب الثاني: نشأته ووفاته.....91

المبحث الثاني: شيوخه ورحلته في طلب العلم وتلامذته وأساليب تربيتهم.....94

1-شيوخه ورحلته في طلب العلم.....94

2-تلامذته وأساليب تربيتهم.....98

المبحث الثالث: ثناء العلماء عليه.....106

المطلب الأول: شخصيته الذاتية.....106

المطلب الثاني: شخصيته السياسة.....115

المطلب الثالث: شخصيته الاجتماعية.....116

المطلب الرابع: شخصيته العلمية التخصصية.....118

المطلب الخامس: شخصيته الصوفية الاشعاعية.....123

المبحث الرابع: مؤلفاته.....126

الفصل الثالث: التعريف بكتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة".....132

المبحث الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه وعنوانه ودوافع تأليفه.....132

المطلب الأول: نسبة الكتاب لمؤلفه.....132

المطلب الثاني: عنوان الكتاب ودوافع تأليفه.....133

المبحث الثاني: مضامين كتاب "المنة في اعتقاد أهل السنة".....134

المطلب الأول: مضامين القسم الأول المحقق من الكتاب.....134

المطلب الثاني: مضامين القسم الثاني الغير محقق من الكتاب.....157

المبحث الثالث: المنهج والمصادر المعتمدة.....175

المطلب الأول: منهج المؤلف في التأليف.....175

1-جانب الشكل.....175

2-جانب المضمون.....182

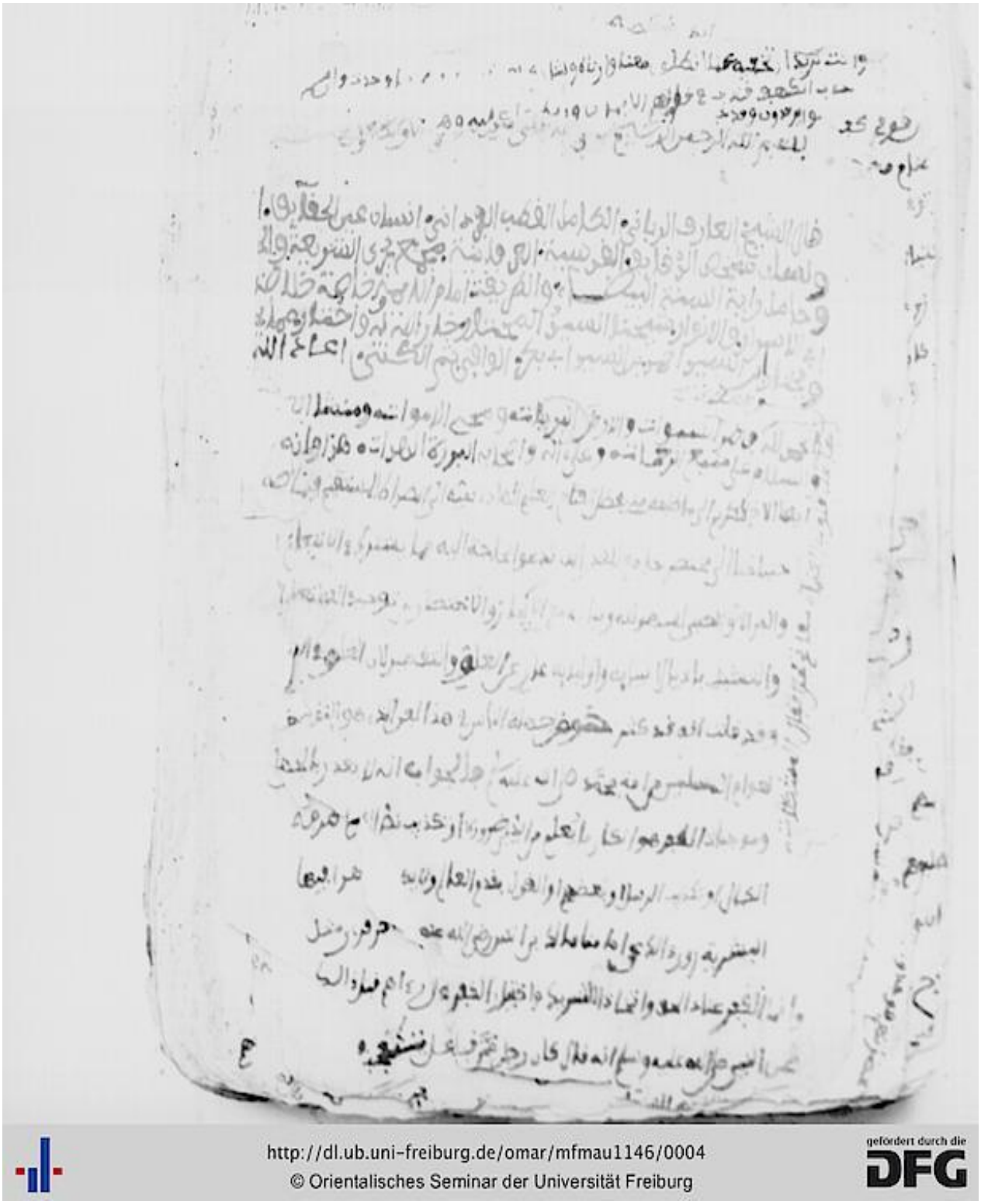
المطلب الثاني: تكامل المنحى العقدي والصوفي في كتاب المنة.....204

المطلب الثالث: المصادر التي اعتمدها المؤلف ومنهجه في استعمالها.....211

خاتمة.....214

لائحة المصادر والمراجع المتعلقة بقسم الدراسة.....219

- صور النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق

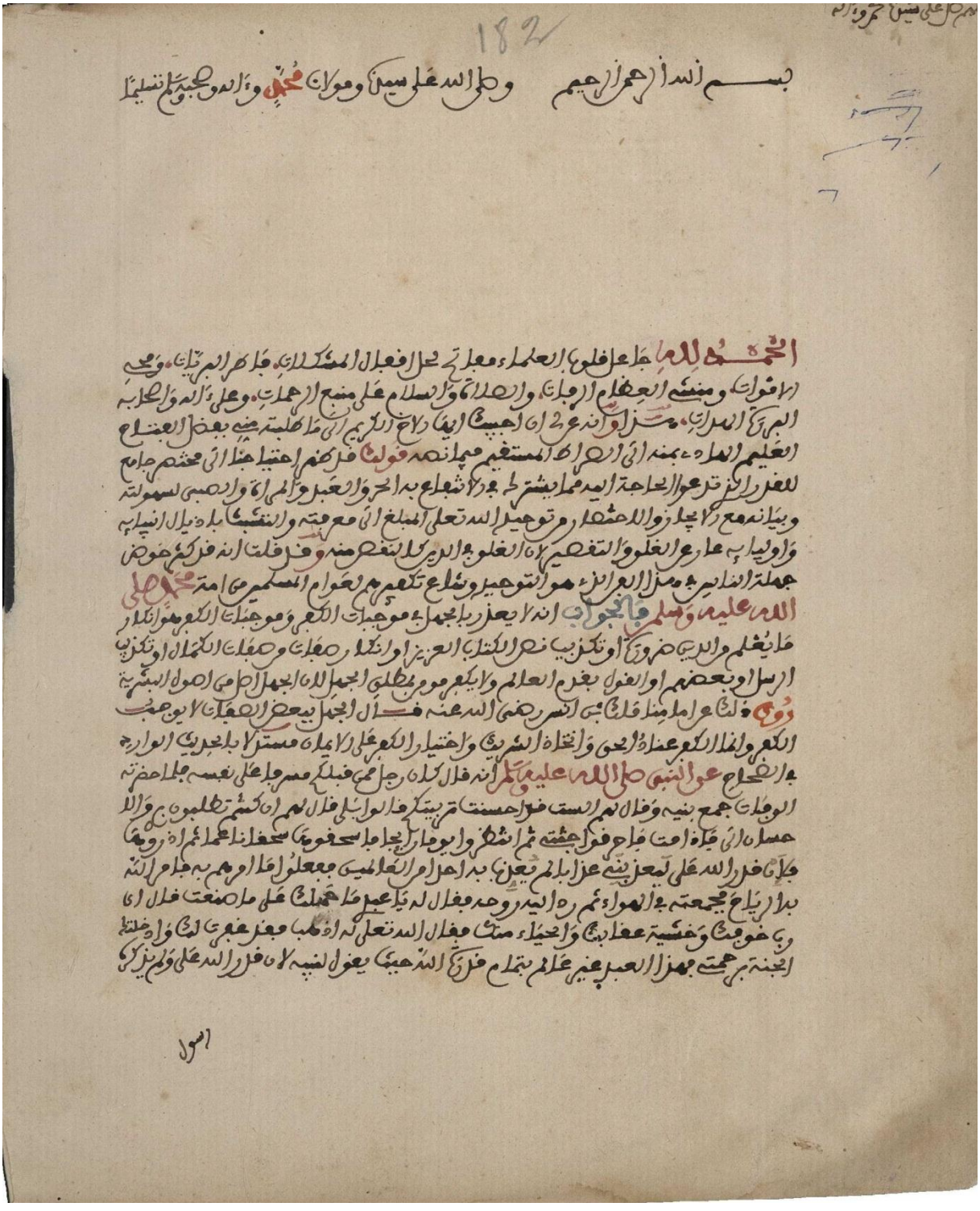

http://dl.ub.uni-freiburg.de/omar/mfmau1146/0004
© Orientalisches Seminar der Universität Freiburg
gefördert durch die DFG

الورقة الأولى من النسخة: (أ)

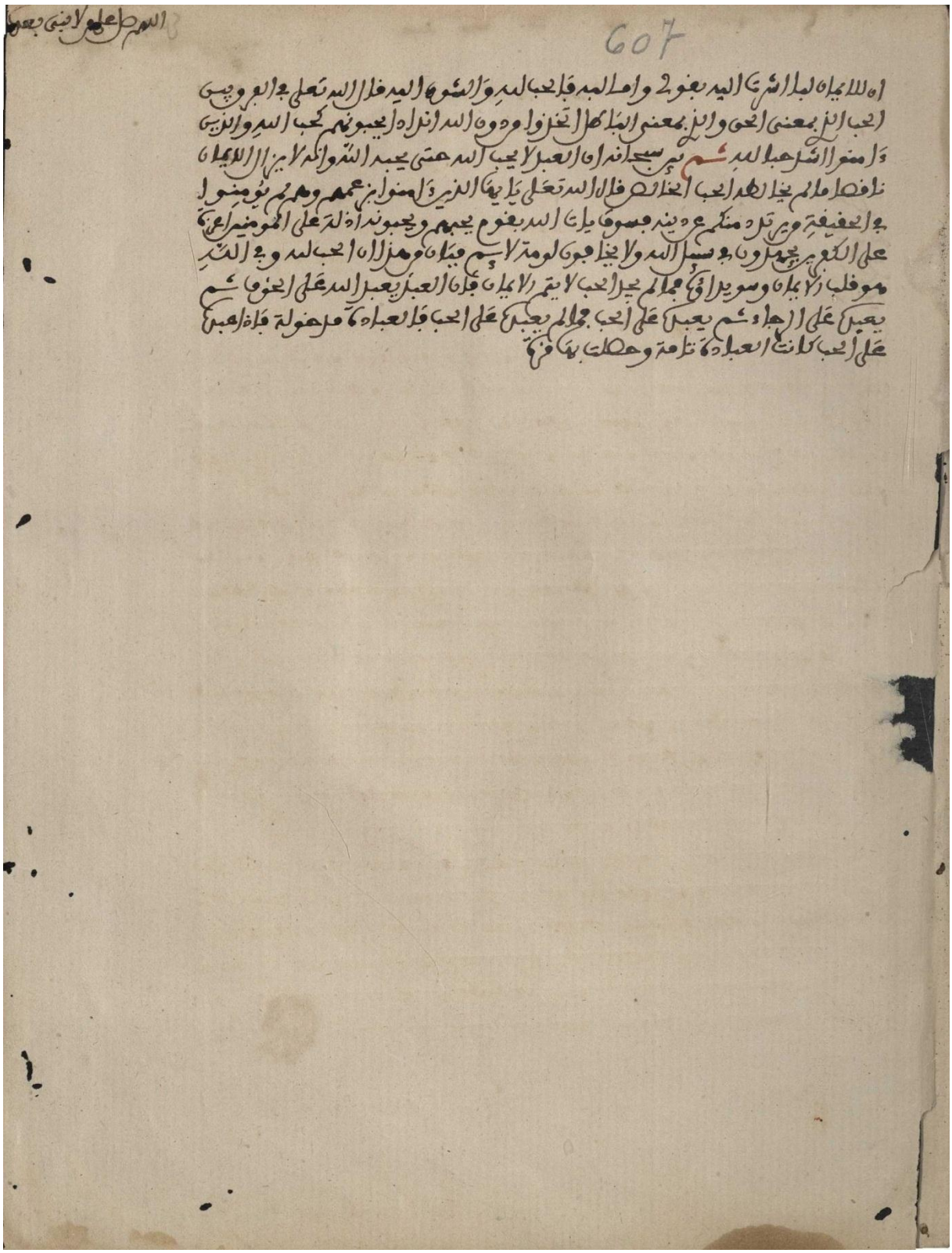


http://dl.ub.uni-freiburg.de/omar/mfmau1146/0298
© Orientalisches Seminar der Universität Freiburg
gefördert durch die DFG

الورقة الأخيرة من النسخة: (أ).



الورقة الأولى من النسخة: (ب)



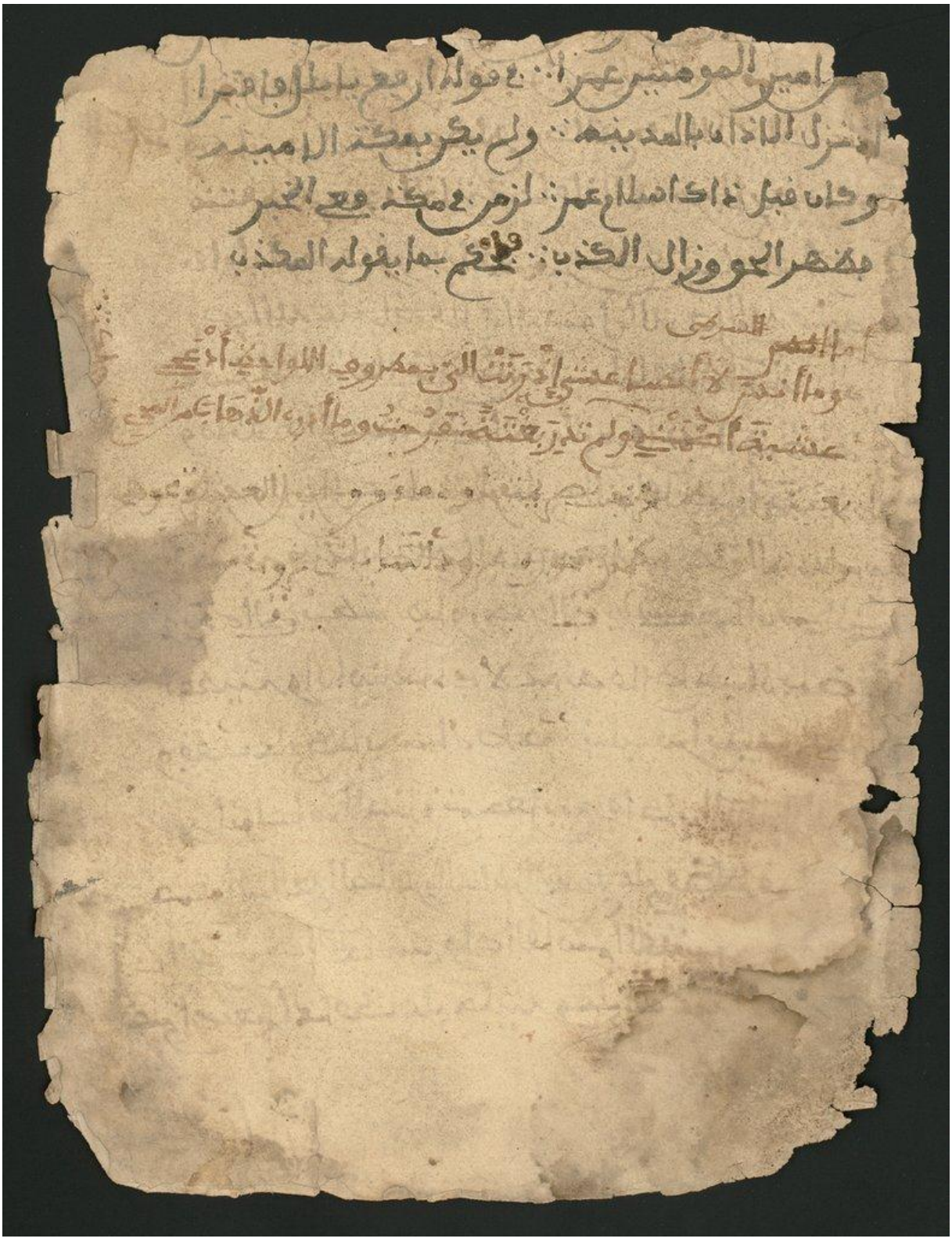
الورقة الأخيرة من النسخة: (ب)



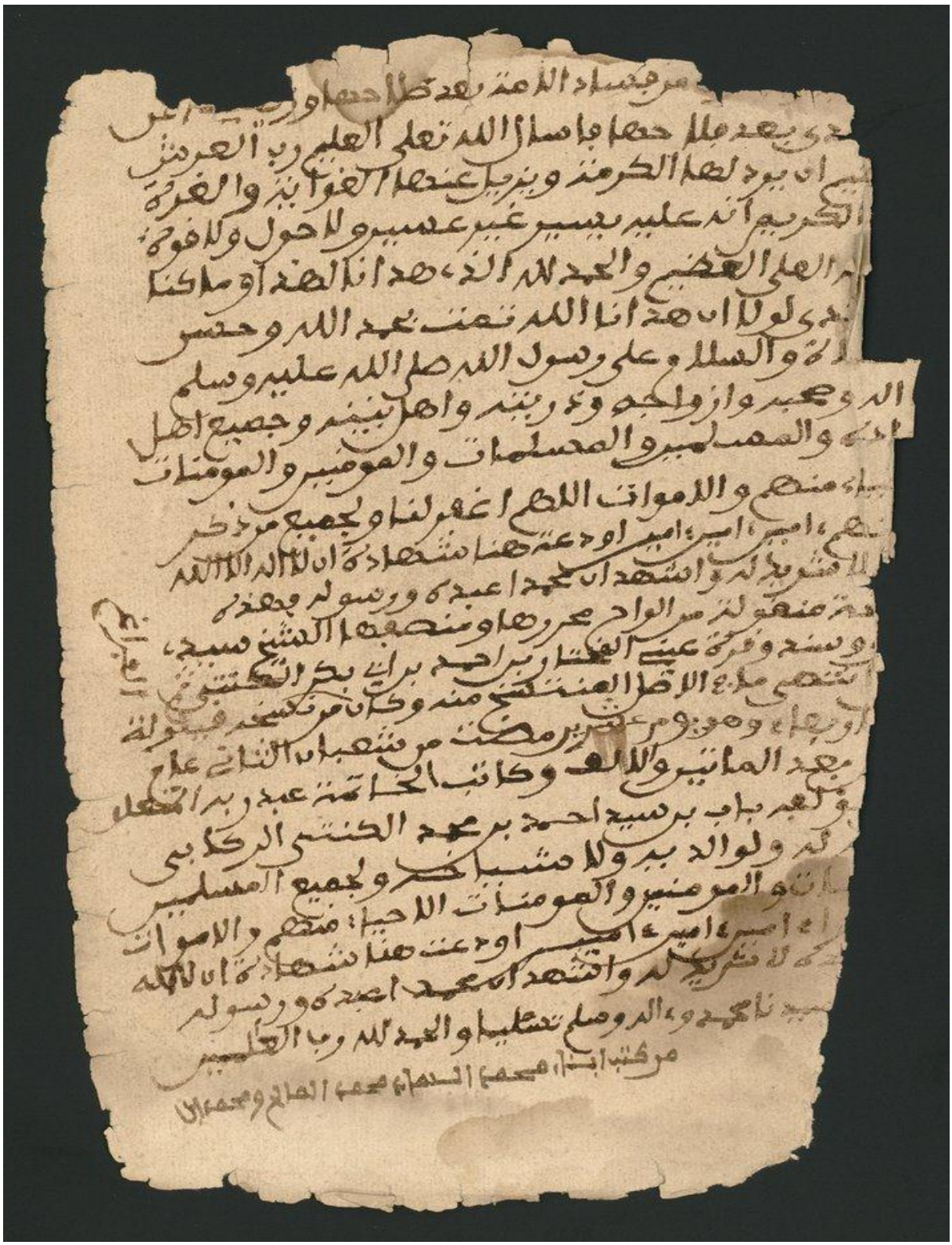
الورقة الأولى من النسخة: (ج)



الورقة الأخيرة من النسخة: (ج)



الورقة الأولى من النسخة: (د)



الورقة الأخيرة من النسخة: (د)

➢ النص المحقق

بـــسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

الحمد لله جاعل قلوب العلماء مفاتح لحل أقفال المشكلات فاطر البريات، ومحيي الأموات ومنشي العظام الرفات، والصلاة والسلام على منبع الرحمات، وعلى آله وأصحابه البررة الهداة.

هذا وأنه عَنَّ لِي أن أحببت أيها الأخ الكريم إلى ما طلبته مني بفضل الفتاح العليم الهادي بمنه إلى الصراط المستقيم فيما نصه قولك قد ظهر احتياجنا إلى مختصر جامع للقدر الذي تدعوا الحاجة إليه مما يشترك في الانتفاع به الحر والعبد والمرأة والصبي لسهولته وبيانه مع الإيجاز والاختصار من توحيد الله تعالى المبلغ إلى معرفته والتشبث بأذيال أنبيائه وأوليائه عار عن الغلو في الدين كالنقص منه، وقد قلت أنه قد كثر خوض جهلة الناس في هذا الفن الذي هو التوحيد، وشاع تكفيرهم لعوام المسلمين من أمة محمد ﷺ.

فالجواب أنه لا يعذر بالجهل في موجبات الكفر وموجبات الكفر هو إنكار ما يعلم من الدين ضرورة أو نص الكتاب العزيز أو إنكار صفات من صفات الكمال أو تكذيب الرسل أو بعضهم، أو القول بقدم العالم، ولا يكفر مؤمن بمطلق الجهل لأن الجهل أصل من أصول البشرية روي ذلك عن إمامنا مالك بن أنس: الجهل ببعض الصفات لا يوجب الكفر، وإنما الكفر عناد الحق واتخاذ الشريك واختيار الكفر على الإيمان "[1]، مستدلا بالحديث الوارد في الصحاح عن النبي ﷺأنه قال:"كان رجل ممن قبلكم مسرفا على نفسه فلما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال لهم:ألست قد أحسنت تربيتكم؟ قالوا: بلى، قال لهم: إن كنتم تطلبون بري والإحسان إلي فإذا مت فأحرقوا جثتي ثم انتظروا يوما رائحا فاسحقوني سحقا ناعما ثم اذروني فإن قدر الله علي ليعذبني عذابا لم يعذب به أحدا من العالمين، ففعلوا ما أمرهم به فأمر الله

[1] لم أقف عليه.

به الرياح فجمعته في الهواء فردت إليه روحه، فقال له: يا عبد ما حملك على ما صنعت ؟، قال: أي رب خوفك وخشية عقابك والحياء منك، فقال الله تعالى له: إذهب فقد غفرت لك وأدخلتك الجنة برحمتي "[1].

فهذا العبد غير عالم بتمام قدرة الله حيث يقول لبنيه لأن قدر الله علي ولم يذكره رسول الله ﷺ بكفر ولا سماه به لأن الكافر لا يغفر له ولايدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

وقال عليه الصلاة والسلام: « إذا استقبل الرجل قبلتنا وصلى صلاتنا وذكى ذكاتنا فاضربوا له في فيء المسلمين بسهم ».[2]

ولما لزم بعض الأنصار ظهار أتى النبي ﷺ بأمة يقودها فقال له: يارسول الله قد لزمني ظهار وإن الله تعالى يقول فتحرير رقبة مؤمنة، وإني أريد أن أعتق هذه الأمة عن ظهار ولا أدري أمؤمنة هي أم كافرة، فقال لها رسول الله ﷺ: « من أنا ؟» ، فقالت: أنت رسول الله ﷺ وأشارت إلى السماء بأصبعها فعتقوها لإشارتها إلى السماء، فقال له رسول الله ﷺ: « أعتقها فإنها مؤمنة» [3]، وإنما نسبته تعالى إلى أشرف الجهات وذلك مبلغها من العلم.

ولما قتل زيد بن حارثة [4] الأعرابي بعد ما نطق بكلمة الإخلاص قال له رسول الله ﷺ: « ما تفعل يا زيد بكلمة الإخلاص إذا جاءت تجادلك بين يدي الله يوم القيامة »، فقال: إنما

---

[1] ح ص، بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: الخوف من الله، رقم: 6481، (101/8).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة، رقم: 393 ، (87/1).

[3] "مسند أحمد بن حنبل"، باب حديث الشريد بن سويد الثقفي ، رقم 17945 (464/29) .

[4] زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شرحبيل) الكلبي: صحابي، أختطف في الجاهلية صغيرا، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه النبيّ وأعتقه وزوجه بنت عمته، واستمر الناس يسمونه (زيد بن محمد) حتى نزلت آية (ادعوهم لآبائهم) وهو من أقدم الصحابة إسلاما، وكان النبي ﷺلا يبعثه في سرية إلا أمّره عليها، وكان يحبه ويقدمه وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها، (ت 8 هـ / 629 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القضاعي، (57/3).

قالها تقية، فقال له رسول الله ﷺ: « فهلا شققت عن قلبه فتعلم هل قالها تقية»، قال زيد: فلم يزل رسول الله ﷺ يؤنبني حتى وددت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، ثم أنزل الله تعالى تصديق المقتول وتخطئتي فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [1] "[2].

قال ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[3].

ولقد كان السلف الصالح يأخذون الأعرابي الجلف فيدعونه إلى الإسلام فإذا أقر بالشهادتين وتفوه بهما تركوه ولم يباحثوه في دقائق التوحيد لاشتمال الكلمتين على ما ينبغي من ذلك.

والتوحيد:"علم ذوق وموهبة، لا علم بحث ودراسة"، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [4]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [5] وقال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ﴾ [6] إلى غير ذلك، فعلم من هذا أن الإيمان موهبة ربانية لا يتوصل

---

[1] النساء: 94.

[2] خطأ في النقل من قبل المؤلف، فالذي قتل الأعرابي بعد قوله لاإله إلا الله ليس زيد بن حارثة إنما هو أسامة بن زيد، هذا الحديث أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" ، كتاب: السير، باب: قول المشرك لاإله إلا الله رقم: 8540، (13/8): عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقات من جهينة، فصبحناهم وقد نذروا بنا فخرجنا في آثارهم فأدركت منهم رجلا فجعل إذا لحقته قال: «لا إله إلا الله فظننت أنه يقولها فرقا من السلاح فحملت عليه فقتلته فعرض في نفسي من قتله شيء، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم» قال لي: أقال: «لا إله إلا الله ثم قتلته؟» قلت: إنه لم يقلها من قبل نفسه، إنما قالها فرقا من السلاح قال لي: أقال: «لا إله إلا الله ثم قتلته فهلا شققت عن قلبه حتى تعلم أنه إنما قالها فرقا من السلاح؟» إلى آخر الحديث، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[3] "السنن الكبرى" للنسائي، كتاب : المحاربة، باب: تحريم الدم ، رقم 3419، (411/3)، وقال الألباني: ح ص.

[4] الأنعام: 125.

[5] الحجرات: 7.

[6] التغابن: 11.

إليه ببحث ولا جدال، وإنما يتوصل إليه بفضل الله ورحمته وتوفيقه وكونه ممن سبقت له العناية من الله، فرب مبرهن صارت براهينه وبالا عليه، ومتعمق أمست تعمقاته تبابا لما لديه كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فالمؤمن هو الذي عند الله مؤمن في سابق علمه وهو الذي يومن بواسطة الرسل والآيات وبواسطة تجلي اسمه الهادي كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [2] ، وقال سبحانه لما صرف عن آياته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[3].

وكل موت في القرآن فالمراد به موت الكفر في ثلاثة مواضع، أولها قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ﴾ [5] ، وقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [6] .

ولما أراد الله سبحانه هداية أصحاب الكهف قذف في قلوبهم الإيمان وربطها عليه وهم في زمن الفترة بين قوم كافرين قد أصفقوا على الكفر وهم من أشرافهم، ومن كان يتولى عبادة الأصنام منهم فلم يكن عن دراسة برهان ولا دراسة ديوان، بل بفضل الله ورحمته وتوفيقه.

---

[1] يونس: 101.

[2] الأعلى: 9- 10-11.

[3] النمل: 80.

[4] البقرة: 28.

[5] الدخان: 56.

[6] عبس: 21.

روي عن عبد الله بن عمير[1] فيما يرويه عن ابن عباس ﵄ أن أصحاب الكهف كانوا فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم، وكان أحدهم وزير الملك فقذف في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانه، وقال في نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبني عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره فجلس إليه من غير أن يظهره على أمره، ثم خرج آخر حتى خرجوا جميعا، فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم ، وكل واحد يكتم إيمانه عن صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويشفى كل واحد أمره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا على الإيمان، وإذا الكهف في جبل قريب منهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[2] ، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ففقدهم قومهم فطلبوهم فأعماهم الله عن آثارهم وكهفهم فكتبوا أسمائهم وأنسابهم في لوح فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا وسنة كذا في مملكة دقيانوس[3] الملك، ووضعوا اللوح في خزانة الملك، وقالوا ليكونن لهذا شأن، فمات الملك الجبار وهلكت قرون بعده، ثم ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له بندروس[4] وبقي في ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس في زمن ملكه فكانوا أحزابا، منهم من يومن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذب بها، ومنهم من يدعي بعث الأرواح دون الأجسام، فكبر ذلك على الملك الصالح فجعل يتضرع إلى الله تعالى أن يبعث إليهم آية تدلهم على البعث وتجمع الناس عليه بعد تفرقهم أحزابا.

---

[1] عبد الله بن عمير بن قتادة الليثي، كنيته أبو هاشم عداده في أهل مكة، يروي عن ابن عمر وأبيه، وهو والد محمد بن عبد الله بن عمير، وكان مستجاب الدعوة، (ت 113هـ/732م)، انظر: "الثقات" لابن حبان (11/5).

[2] الكهف: 16.

[3] اسم الملك في تلك الفترة من الزمن التي فر فيها أهل الكهف، انظر: "البداية والنهاية" لابن كثير،(563/2).

[4] الملك الصالح الذي استيقظ أهل الكهف في فترة حكمه، انظر: "تفسير ابن عطية"، (499/3)، وفي بعض المصادر الأخرى بلفظ " بيدروس"، انظر: "تفسير البغوي"، (177/3).

ثم إن الله الرحمان الرحيم الذي يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أهل الكهف فضله ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ويجيب دعوة عبده الصالح بندروس ويتم نعمته عليه ويجمع إليه من المؤمنين ما كان قد تبدد.

فألقى الله تعالى في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف وكان اسمه أولياس[1]، أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ويبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف، وفتحا بابه بإذن الله ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف فجلسوا فرحين مصفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنهم قد استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم، ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يصلون لم يروا في وجوههم ولا ألوانهم شيئا يكرهونه، ولكنهم على هيئتهم حين رقدوا وهم يظنون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا [2] صاحب نفقتهم أنبئنا بما قاله الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار، وهم يظنون أنهم ما رقدوا إلا البعض مما كانوا يرقدون، وقد خيل إليهم لما رأوا هدم البنيان وتغير الأحوال أنهم ناموا أطول من ذلك حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما ؟، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ثم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير.

فقال لهم تمليخا: لقد التمستم في المدينة عشية أمس والجبار يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت، أو يقتلكم بما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم مكسلمينا [3]: يا إخوتاه اعلموا أنكم

---

[1] لم أجد له ترجمة في المصادر، وقد ذكر في التفاسير منها: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للطبري، (199/15).

[2] أحد فتية أهل الكهف، راجع كتاب: "الكامل في التاريخ" لإبن الاثير، (1/ 326).

[3] من أسماء أهل الكهف، وهو كباقي الأسماء المتداولة في أغلب التفاسير وليس له ترجمة واضحة، انظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" ، (165/15).

ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قال لتمليخا: انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال في شأننا وما نذكر به عند دقيانوس وتلطف ولا يشعرن بك أحد، وابتغ طعاما فآتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به أمس فقد أصبحنا جياعا. ففعل تمليخا ما كان يفعل ووضع ثيابه التي كان يتنكر فيها فلبسها وأخذا ورقا من نفقتهم التي كانت معهم، وكانت قد ضربت بطابع دقيانوس، فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف وجد الحجارة التي كانت بباب الكهف منزوعة فعجب منها، ثم انطلق ولم يبال بها، حتى إذا أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق متخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر بأن دقيانوس وقومه قد أهلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة.

فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع طرفه فرأى على ظهر الباب علامة كانت لأهل الإيمان إذ كان أمر الإيمان ظاهرا فيها، فلما رآها تعجب وجعل يتأملها مستخفيا، ثم جاوز ذلك الباب إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالذي كان يعرف، ورأى أناسا لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب فيخيل إليه أنه حيران، ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب فيما بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري ما هذا؟، أما عشية أمس فإن المسلمين كانوا يخفون هذه العلامة في المدينة فأراها اليوم ظاهرة، لعلي نائم ويرى أنه ليس بنائم، فأخذ كسائه ثم جعله على رأسه ثم دخل إلى المدينة وجعل يمشي في أسواقها فسمع أناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده ذلك تعجيبا، ورأى أنه حيران فاستند إلى جدار من جدران المدينة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا ؟، أما عشية أمس فليس على وجه الأرض من يذكر عيسى بن مريم إلا قتل وأما اليوم فإني أسمع كل الناس يذكرون عيسى بن مريم، ثم قال في نفسه فلعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف مع أني لا أعلم مدينة بقرب مدينتنا، ثم لقي فتى فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ قال: أسوس[1]، فقال في نفسه لعل

[1] لم أجد هذا الاسم في معاجم البلدان، ووجدته في بعض التفاسير بهذا الاسم " أقسوس"، انظر: "تفسير البغوي"، (173/3)، وهي المدينة التي هرب منها أهل الكهف خوفا من الملك دقيانوس حسب المصادر التاريخية.

في مسا أو أمرا أذهب عقلي، لقد حق لي أن أسرع في الخروج قبل أن يصيبني فيها شر، فأقبل على الذين يبيعون الطعام فأخرج له الورق التي كانت معه فأعطاها لرجل معهم، وقال له بع لي بهذا الورق طعاما، فلما أخذها ونظر إلى ضرب الورق ونقشها عجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر إليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى آخر ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزا في الأرض منذ زمن طويل.

فلما رآهم تمليخا يقولون ما يقولون فزع منهم وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد عرفوه وأنهم يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس، وجعل أناس يأتونه ويتعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم تفضلوا علي فقد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامي فلا حاجة لي به، فقالوا له: من أنت يا فتى وما شأنك ؟ فو الله إنك وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه عنا، انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه لنخفي عنك ما وجدت، وإن لم تفعل حملناك إلى السلطان فأسلمناك إليه، فلما سمع قولهم قال والله لقد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه، فقالوا له: يا فتى والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت، وجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وربطوه في عنقه وجعلوا يسحبونه في سكك المدينة حتى سمع به جميع سكانها، فقيل قد أخذ رجل ومعه كنز فاجتمعوا حوله وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه، وكان مستيقنا أن أباه وإخوته بالمدينة وأنهم من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إن سمعوا به، فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصونه من أيديهم إذ اختطفوه، وانطلقوا به إلى رؤساء المدينة الذين يدبرون أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما:" أريوس" والآخر "أسطيوس" [1]، فلما انطلقوا به ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس الجبار، فجعل يلتفت يمينا وشمالا ويبكي والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علي اليوم صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني بها عند هذا الجبار،

[1] هما رؤساء المدينة في فترة استيقاظ أهل الكهف، انظر: "تفسير البغوي"، (179/3).

وجعل يقول في نفسه فرقوا بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فإنا كنا قد توافقنا على الإيمان بالله وأن لا نشرك به شيئا ولا نفترق في حياة ولا ممات.

فلما انتهى به إلى الرجلين الصالحين أريوس وأسطيوس ورأى أنه لم يذهب به إلى دقيانوس أفاق وأقلع عن البكاء، وأخذ أريوس وأسطيوس الورق فنظرا إليها وعجبا منها وقالا أين الكنز الذي وجدت يا فتى ؟، فقال تمليخا: ما وجدت كنزا، ولكن هذا ورق آبائنا ونقش هذه المدينة وضربها والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم، فقال أحدهما من أنت؟ فقال لهم تمليخا: أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه، فقيل له من أبوك ومن يعرفك بها؟ فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل كاذب لا تنبئنا بالحق، فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس ببصره إلى الأرض، فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكن رجل أحمق يحمق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم، فقال له أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا: أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها وله أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب، أتظن أنك تافكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها، وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، وإنني لأظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته، فقال لهم تمليخا أخبروني عما أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عما عندي، فقالوا له: سل فإنا لا نكتمك شيئا، فقال لهم ما فعل الله بالملك دقيانوس فقالوا لا نعرف على وجه الأرض من إسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك أهلك في الزمن الأول وله زمان طويل وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال تمليخا: إني إذا حيران وما أرى أحدا من الناس يصدقني فيما أقول، ولقد كنا فتية وأن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح

للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فأتينا الكهف الذي في جبل بنجلوس[1] فبتنا فيه فلما انتبهنا خرجت لأشتري طعاما لأصحابي وأتجسس الأخبار فأنا معكم كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي.

قال فلما سمع أريوس قول تمليخا، قال: يا قوم لعل هذه آية من آيات الله تعالى جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى فانطلقوا بنا حتى يرينا أصحابه، فانطلق أريوس وأسطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أهل الكهف لينظروا إليهم، فلما رأى الفتية أصحاب الكهف أن تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس، فبينما هم ينتظرون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبت الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم، فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا، وقالوا: انطلقوا بنا نأتي أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك إذا هم بأريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف وقد سبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو باك، فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن الخبر فقص عليهم الخبر، فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث، ويعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا وأرطنوس وكسطنوس ويبرونس وديبونس وميطونس[2].

وقال أنس: " كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا في شأنهم

---

[1] الجبل الذي فيه الكهف الذي هرب إليه الفتية، انظر: "لباب التاويل في معاني التنزيل" المسمى (تفسير الخازن) لعلاء الدين علي بن محمد الشيحي ، (157/3).

[2] أسماء أهل الكهف حسب بعض المصادر وهم ثمانية، انظر: "تفسير البغوي" ، (180/3).

وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم، فلما قرأوا عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية تدل على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجدا شكرا لله تعالى على هذه الآية الجليلة التي أظهرها لهم ثم كلم بعض الفتية بعضا وأخبروا القوم بما لقوا من ملكهم دقيانوس، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح بندروس أي عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها في مدة ملكك وأيامك وهي للناس آية ونور وبرهان وتصديق بالبعث، وذلك أن فتية بعثهم الله وكان قد توفاهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر، فلما أتى البريد الملك بالخبر ثاب عليه عقله وذهب بثه وحزنه وقال أحمدك اللهم رب السماوات والأرض وأعبدك وأسبح لك، إذ تفضلت علي ورحمتني ولم تذهب النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح قسطنطنيوس [1] الملك " [2].

ثم أخبر بذلك أهل المدينة فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أقسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف، فلما صعد الجبل ورأى الفتية بندروس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام إليهم فعانق كل واحد منهم وقبل أيديهم وأرجلهم وجعل يبكي وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله تعالى ويحمدونه، ثم قال الفتية لبندروس: نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن، فبينما الملك قائم بين أيديهم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم، فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب، فلما أمسى ونام أتوه في منامه وقالوا: إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من التراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منها، فأمر الملك عند ذلك بتوابيت من

[1] من الأسماء المتداولة للملك الذي استيقظ فتية الكهف في عهده، وله أسماء أخرى في عدة مصادر منها: بندروس وبيدروس وتندوسيس وبيدوسيس، انظر: "تفسير الطبري" (199/15)، و "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" المسمى (تفسير الثعلبي)، (156/6).

[2] تفسير الخازن ، (158/3).

ساج فجعلوا فيها، وحجبهم الله بعد ذلك بالرعب فلا يقدر أحد أن يدخل عليهم، وأمر الملك أن يتخذ على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة.

ولما قذف الله تعالى الإيمان في قلوبهم رفضوا آلهتهم التي كانوا يعبدون من دون الله، وهجروا عشائرهم وتركوا الملك الذي كانوا فيه ورغد العيش الذي تربوا به حبا في الله ورغبة فيما عنده، واختاروا سكنى الكهف عن سكنى القصور زهدا في الدنيا ورغبة في الآخرة.

ولما خرقوا من أنفسهم العوائد خرق الله لهم العوائد فقبض أرواحهم في النوم وأخدمهم الملائكة الكرام يقلبونهم ذات اليمين وذات الشمال ومنعهم من أن تتعدى عليهم الأرض ولا على كلبهم وثيابهم. فلما تركوا لله مدينة أقسوس التي هي مسقط رؤوسهم ومنية أنفسهم ردها إليهم بعد حين فهدى أهلها على أيديهم وأنقذهم من الكفر بسبب رؤيتهم، ثم أثنى الله تعالى عليهم في كتابه العزيز فقال: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[1]، آمنوا بربهم أولا ثم تزايد النور والإلهامات في صدورهم، فاتسعت جداول الإيمان والإيقان في قلوبهم، ونالت بركتهم كلبهم، حتى أنه كلما ذكروا ذكر معهم، وكذلك يفعل بمن صاحب الأخيار وانقطع إليهم ولازمهم كما في قول الشاعر :

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلاَكَ وَتُحْقَرَّا

فَرَفَعَ أَبُومَنْ ثُمَّ خَفَّضَ مُزَمَّلٍ يُبَيِّنُ قَوْلِي مُغْرِيًّا وَمُحَذِّرَا [2]

[1] الكهف: 13 .

[2] هذه الأبيات من البحر الطويل للأمين المحلي، انظر: "شرح التصريح على التوضيح" لزين الدين المصري المعروف بالوقاد، (99/2).

وقد حكى الله في كتابه العزيز خلاف السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران في عددهم، فقال السيد وكان يعقوبيا [1] كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطوريا [2] كانوا خمسة وسادسهم كلبهم رجما بالغيب، وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله تعالى قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بإخبار الرسول ﷺعن جبريل عليه السلام وبيان ذلك أنه جل وعز اتبع حكاية قول النصارى بقوله: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾[3] ، أي ظنا وحديثا من غير يقين ولم يقل ذلك في السبعة، وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه فتعين كون المخصوص بالظن قولي النصارى بخلاف قول المسلمين، ثم أتبعه بقوله: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4] ، قال ابن عباس : " أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم: مكسلمينا وتمليخا ويبنونس وساريونس ودريونس وكشطونش وهو الراعي واسم كلبهم قطمير "[5].

وممن ألقى الله الإيمان في قلبه ووفقه حتى صار ينطق بالحكمة وتجرد للعبادة قس بن ساعدة [6]، وكان يتجرد للعبادة حتى إذا دخل ذو الحجة حج، وكان يصاحبه في عبادته رجلان من قومه حتى ماتا، فجعل يعبد الله بين قبريهما فإذا أمسى التفت عليهما، وقال:

خَلِيلَيَّ هُبَّا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدْكُمَا لاَ تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا

---

[1] أصحاب يعقوب: قالوا بالأقانيم الثلاثة، وقالوا انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، انظر: "الملل والنحل" لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (30/2).

[2] النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه، قال إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، انظر: الملل والنحل للشهرستاني، (29/2).

[3] الكهف: 22.

[4] الكهف: 22.

[5] انظر: "تفسير الخازن"، (161/3).

[6] قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم ، كان أسقف نجران، ويقال أنه أول عربي خطب متوكئا على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: "أما بعد"، انظر: "الأعلام" للزركلي، (196/5).

أَمِنْ طُولِ نَوْمٍ لَا تُجِيبَانِ دَاعِيَا كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي العقار سَقَاكُمَا

مُقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا طِوَالَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبُ صَدَاكُمَا [1]

وكان كلما حج قام [بعكازه][2] خطيبا، وكان مما يقول لهم السماء ذات أبراج والأرض ذات تراج ما خلقها الله باطلا، إن هذه الفترة التي من عز فيها بر يوشك أن يقطعها الله بنبي كريم يأتيه الوحي من خبير عليم يكسر هذه الأصنام التي أنتم عليها عاكفون، ويزيل هذه الضلالة التي أنتم فيها آفكون تنفتح عليه البلاد بالطول والعرض ويستفتح خزائن الأرض، يملك أهل الوبر والمدر، ويسير دينه في الأرض سير الشمس والقمر، لا يبقى على وجه الأرض موكب كفر إلا فلّه ولا جبار إلا أذله. ثم يقول يابني إسماعيل لقد غيرتم دين أبيكم إبراهيم عليه السلام ما هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر وإنما هي جماد ، فلو كانت لي بكم قوة لصرفتكم عما أنتم فيه وإني لأرجوا أن يدركني النبي المبعوث فأبلوا الله في نصرته عذرا وإنه لمبعوث وشيكا، إن لم أدركه فكان قد، ثم ينصرف راجعا إلى متعبده.

فهو ممن هدى الله من غير رسول ولا كتاب، فقد روي عن النبي ﷺ أنه ذكر له فقال: « يبعثه الله يوم القيامة أمة وحده »[3].

وممن هدى الله أيضا زيد بن عمر بن نفيل القرشي [4] عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قد ترك الأوثان واعتزل الطواغيت ولا يأكل ما ذبح للنصب.

---

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "دلائل النبوة" لأبي بكر البيهقي، (105/2).

[2] بياض في (أ).

[3] انظر: "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" لجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمان بن علي الجوزي، (300/2).

[4] زيد بن عمر بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، عم عمر بن الخطاب وابن عمه، وهو أحد الذين خلعوا عبادة الأوثان في الجاهلية وطلبوا دين إبراهيم، انظر: "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، (24/15).

روى البخاري عن محمد بن أبي بكر قال: حدثنا فضل بن سليمان، قال حدثنا موسى قال حدثني سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمر بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على رسول الله ﷺالوحي، فقدمت إلى النبي ﷺسفرة فقدمها إليه النبي ﷺ فأبى أن يأكل منها، فقال زيد: إني لست آكل ما تذبحون على أصنامكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وكان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله عز وجل وأنزل لها من السماء الماء وأخرج لها من الأرض الكلأ، ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارا لذلك وإعظاما له "[1].

ومن حديث ابن عمر أن زيد بن عمر بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسألهم عن دينهم فقال: إني على دينكم فأخبرني عنه، فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، فقال زيد: ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وإني لا أستطيعه فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟، قال: دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فلما سمع زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام كر راجعا، فلما خرج رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه السلام "[2].

وعن أسماء بنت أبي بكر [3] رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمر بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يامعشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري: وكان

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: مناقب الأنصار، باب حديث عمرو بن زيد بن نفيل ، رقم :3826 ، (40/5).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: مناقب الأنصار، باب حديث عمرو بن زيد بن نفيل ، رقم :3827، (40/5).

[3] ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، من قريش صحابية من الفضليات، آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة لأبيها وأم عبد الله بن الزبير، تزوجها الزبير بن العوام ثم طلقها، فعاشت في مكة مع ابنها عبدالله إلى أن قتل، (ت 73هـ / 692 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي (1/ 305).

يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها وأنا أكفيك مؤنتها فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال: لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها[1]، انتهى حديث الشيخين.

وكان ينشد ويقول :

عَزَلْتُ اللاَّتَ وَالعُزَى جَمِيعًا وَلَا غَـنَمًا أَدِينُ وَلاَ الجنُونُ [2]

إلخ الأبيات المذكورة في كتاب "الإكتفاء".

وأصل التوحيد كلمة الإخلاص وسورة الإخلاص، فأما كلمة الإخلاص فإنها مشتملة على ست وستين عقيدة ومعناها الأخص لا مستغنى عن كل ما سواه، إليه كل ما عداه ومعناها الأعم لا معبود على الحقيقة إلا الله، ولا معبود بالحق إلا الله، أو لا معطي ولا مانع ولا مضر ولا نافع إلا الله، لأن نفي الآلهة المعبودة بالباطل عموما يؤدي إلى تكذيب القرآن المؤدي تكذيبه إلى الكفر. قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[4] ، وقال حكاية لقول المشركين : ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[5] ، وقال: ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب : مناقب الأنصار، باب حديث عمرو بن زيد بن نفيل، رقم ،3828 (41/1).

[2] هذا البيت من البحر الوافر، مطلع القصيدة : أَرَبٌّ وَاحِدٌ أَمْ أَلْفُ رَبٍ*// أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُور، إلى: بَيْنَا الْمَرْءُ ثَابَ يَوْمًا *// كَمَا يَتَرَوَّحُ الْغُصْنُ النَّضِيرُ، انظر: "مختصرتاريخ دمشق" لمحمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين بن منظور، (167/9)، وكذلك: "الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة خلفاء"، لأبي الربيع الكلاعي (158/1).

[3] يس: 74-75.

[4] البقرة: 165.

[5] نوح: 23-24.

خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]، وقال حكاية عن المشركين : ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾[2] احتجاجا بالقدر، والاحتجاج بالقدر باطل، فإن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء ويقضي ما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3] ، فهو سبحانه أراد كفر الكافر وخلقه فيه وقضاه عليه، مع أنه لا يرضى به ولا يأمر به وينهى عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[4].

ومعنى لا إله إلا الله المطلق العام أن تقول لا أحد يجب له الوجود والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة، والغنى المطلق والسمع والبصر والكلام، وكونه قادرا ومريدا وعالما وحيا وسميعا وبصيرا ومتكلما قبل وجود الكائنات إلا الله .

واعلم أن الله تعالى جعل لنا وجودا مجازيا عامل فيه وجوده الحقيقي وهذا الوجود المجازي هو المعبر عنه بالحدوث، وبقاءً مجازيا عامل فيه بقاؤه الحقيقي وهو المعبر عنه بالعمر، وأمدنا بالمماثلة لغيرنا لنعلم بذلك ضعف قوتنا وجعلنا مفتقرين إلى قيامه بمصالحنا لنعلم أنه خالقنا ومنشئنا، وركب أشخاصنا من جسد ونفس وروح لنعلم بذلك وحدانيته وجعل لنا قدرة مجازية لنستدل بها على قدرته الحقيقية لنعلم أن لا إرادة لنا مع إرادته، قال تعالى: "تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد "[5]. وجعل لنا علما مجازيا لنستدل به على علمه الحقيقي القديم فالكل منه وإليه، وجعل لنا حياة مجازية لنستدل بها على حياته الحقيقية، وأمدنا بالعقل السليم لتكون

---

[1] فصلت: 37.

[2] الزخرف: 20

[3] الأنبياء: 23.

[4] الزمر: 7.

[5] هذا الحديث لا يوجد في مصادر السنة النبوية ولا في الفهارس الحديثية، وجدته في كتاب: "روح البيان لأسماعيل حقي بن إسماعيل الخلوتي الحنفي"، (232/4)، و "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح" المسمى: بالكاشف عن حقائق السنن، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، (1779/6).

له الحجة علينا، ورتب عليه التكليف ليظهر عدله علينا وأنه ليس بظلام للعبيد، وألزم العقول التوفيق والخذلان، فموفق مودود، ومخذول مطرود، ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1]. وجعل لنا سمعا مجازيا مغاير لسمعه الحقيقي، لا يكون إلا بجارحة وهو مختص بالأصوات منسوب إلى الجهات، بخلاف سمعه تعالى فإنه سميع بغير جارحة سواء في سمعه السر والعلانية والقرب والبعد لا يقرب إليه فكان دون مكان، ولا زمان دون زمان، لا يجري عليه زمان ولا يحل بمكان، فهو خالق الأزمنة والأمكنة، يسمع دبيب النمل على الصفا، ويعلم السر وأخفى. وجعل لنا أبصارا مجازية نستدل بها على بصره الحقيقي القديم بقدم ذاته، لا بجارحة ولا مواجهة ولا شعاع كشعع أبصار الموجودات. وجعل لنا كلاما مجازيا لا يكون إلا بجارحة موصوف بالجهر والسر مفتقر إلى الحروف والأصوات مغاير لكلامه الحقيقي القائم بذاته الذي ليس بحرف ولا صوت ولا بجارحة.

روي أن آدم عليه السلام كان يسبح فيقول في تسبيحه: "سبحان من أسمع العظام وأبصر الشحم وأنطق اللحم بالكلام ".[2]

ثم الكلام على ثلاثة أقسام: كلامه القائم بذاته وهو الحقيقي، وخلقي وهو الذي فتق عنه ألسنة خلقه، وخارق وهو القرآن جلاه في طي أصوات وحروف ليظهر به عجز خلقه عن الإتيان بمثله.

فصار الناس على هذا المهيع ثلاث فرق :

أهل السنة ميزوا بين الحقيقة والمجاز فهداهم الله بنوره إلى نوره، فنسبوا الأسباب والمجاز لأنفسهم، وأقروا بالعجز وقاموا مع الحكمة واستعملوا الأمرين تأديبا مع الله تعالى.

---

[1] الإسراء: 84.

[2] لم أقف عليه.

وقدرية[1] ضلوا عن المجاز وعموا عن الحقيقة فنسبوا التأثير لأنفسهم فزعموا أن الله تعالى خلقهم وهم خلقوا أعمالهم، فأشركوا وضلوا ضلالا بعيدا، كما أخبر عنهم بذلك الصادق المصدوق، فقال: «القدرية مجوس هذه الأمة »[2]، ومعنى ذلك أن المجوس يزعمون أن للخلق إلهين، إله يأمر بالخير ويفعله، وإله يأمر بالشر ويفعله، فالذي يأمر بالخير ويفعله هو النور، والذي يأمر بالشر ويفعله هو الظلمة فلأجل ذلك عبدوا النار.

كما أن القدرية جعلوا للكون إلهين فجعلوا أنفسهم إلها يخلق أفعالهم والله تعالى هو خالقهم تعالى عما يقولون علوا كبيرا، وقد عموا وصموا عن فهم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3].

وجبرية [4] لم يجعلوا للأعمال منفعة، بل هم كالقلم بيد الكاتب يسعد الله من شاء منهم، ويشقيه وإن عذبهم الله تعالى فقد ظلمهم إذ لا عمل لهم أصلا فضلوا ضلالا، تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وهذه الصفات التي تقدم ذكرها كلها موجودة في كتاب الله تعالى نقلا، ولذلك اكتفى بها السلف الصالح عما أحدثه أهل الكلام والجدل.

---

[1] القدرية هي فرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام، وتعتبر من أول الفرق الإسلامية المخالفة وقد ظهرت في بداية عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وأول من أسسها غيلان القدري وقد قتله الخليفة هشام بن عبد الملك بصلبه على أبواب الشام، هو مفهوم يرى أن الله لا يعلم شيء إلا بعد وقوعه وأن الأحداث بمشيئة البشر وليست بمشيئة الله، وتقول: لا قدر والأمر أنف أي مستأنف، وهو نفي لعلم الله السابق، انظر: "معجم البدع" لرائد بن صبري بن أبي علفة ، (466/1).

[2] "سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب: في القدر رقم :4691، (222/4).

[3] الصافات: 96.

[4] الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف، انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني، (85/1).

أما الوجود فبدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1].

وأما القدم فبدليل قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [2] الذي لا بداية لأوليته.

والبقاء فبدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أي الدائم الوجود الذي لا نهاية لبقائه. ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وهو الذي لا يخفى على كل شيء موجود ظهوره لأنه الظاهر قبل كل شيء وبعد كل شيء وفي كل شيء، ليس معه شيء ولا يشابهه شيء ولا يماثله شيء وهو الدليل على كل شيء.

قال الجنيد[3] برد الله ضريحه: "متى خفي حتى يستدل عليه بشيء، وهو أظهر من كل شيء، والظاهر في كل شيء، والظاهر بعد فناء كل شيء، فالعارفون يستدلون به على المكونات، والجاهلون يستدلون عليه بالمكونات وهو المكون لجميع المكونات يا عجبا، كيف يستدل عليه بشيء وهو خالقه، وكيف يخفى على شيء وهو الظاهر قبل كل شيء والمتصرف في كل[شيء] [4]، والقيوم القائم على كل نفس ما كسبت، وهو ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾[5] ، فلا يدركه شيء ولا يحيط بكنهه شيء، ولا يصف كنهه أحد "[6].

وأما مخالفته للحوادث فدليلها من كتاب الله قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [7] ، وقوله :﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾[8].

---

[1] الزخرف: 84.

[2] الحديد: 3.

[3] الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم ، صوفي من العلماء بالدين مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، أصل أبيه من نهاوند، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، (ت 910هـ / 910 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (141/2).

[4] ساقط من (ب).

[5] الحديد: 3.

[6] لم أقف عليه.

[7] الشورى: 11.

[8] النحل: 74.

وأما دليل قيامه بنفسه من الكتاب بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[1]، أي القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء وهو معنى الألوهية ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[2].

وأما دليل وحدانيته فقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾[4]، ليس بمركب ولا شبيه، له ند يعانده في الوجود، ودليله أيضا قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[5]، فلما لم يوجد الفساد اتضح نفي الشريك ويفسر هذه الآية ويزيد البرهان اتضاحا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾[6].

وأما دليل قدرته من كتاب الله تعالى فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[7]، ثم بالغ في قدرته بقوله: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[8]، فالمقتدر هو الذي لا يعجزه شيء ولا يتعاظم عليه شيء، خلق السموات والأرض بالنسبة إلى قدرته كخلق بعوضة، ولما أنكر المشركون البعث رد عليهم سبحانه بفحمهم فقال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ

---

[1] البقرة: 255.

[2] فاطر: 15.

[3] الإخلاص: 1.

[4] البقرة: 163.

[5] الأنبياء: 22.

[6] الإسراء: 43.

[7] البقرة: 109.

[8] القمر: 55.

أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2]، وقال: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[3].

ودليل الإرادة من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4] ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[5]. ثم بين قهر إرادته لإرادتنا فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[6]، وهذه الآية مبطلة لمذاهب المعتزلة.

يروى أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة ثم تاب فتاب الله، قال: أي رب أهذا الذي فعلته أهو شيء قضيته علي وأردته مني أم شيء فعلته من تلقاء نفسي، فقال له: بل شيء قضيته عليك وأردته منك، فقال: أي رب إن كان شيء قضيته علي وأردته مني فلم فعلت في ما فعلت من نزع الثياب والإخراج من الجنة، قال: يا آدم أفهم ما تقول، أتريد أن تكون إلها مثلي، قال: لا وعزتك وخر ساجدا، فقال له: يا آدم أريد وتريد ولا يكون إلا ما أريد، فسلم لي فيما أريد وسلني ما تريد أفعل بك ما تريد فإني فعال لما أريد[7].

وأما دليل العلم من كتاب الله تعالى فقوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[8]،

---

[1] غافر: 57.

[2] الأنبياء: 104 .

[3] يس: 81.

[4] يس: 82.

[5] الحج: 14.

[6] التكوير: 29.

[7] هذا الحديث لا يوجد في مصادر السنة النبوية ولا في الفهارس الحديثية، وجدته في: "روح البيان" لإسماعيل حقي بن إسماعيل الخلوتي الحنفي، (232/4)، و "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح" المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، (1779/6).

[8] الأنعام: 59.

وقوله لملائكته: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾[2]، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[3]، فيعلم سبحانه جلي الأمور وخفيها وظاهرها وباطنها ومتقدمها ومتأخرها، ويعلم ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة علما ليس فيه بداء لم يتقدمه جهل ولا يتخلله جهل ولا يكون بعد جهل ولا تصاحبه غفلة ولا ذهول ولا نوم ولا سنة، فقال تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[4]، فحياته تعالى مغايرة لجميع الحيوانات ليست بحركة ولا سكون ولا بظهور ولا كمون، بل هي صفة يجب لمن قامت به أن يتصف بجميع صفات الكمال.

وأما دليل الكلام من كتابه عز وجل فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[5]، وقوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[6]، والمراد بكلام الله في هذه الآية الأخيرة القرآن وهي مبطلة لمذهب المعتزلة القائلين بأن القرآن ليس بكلام الله ، المحتجين في مذهبهم الفاسد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[7]، فإنهم لا حجة لهم في ذلك لأن الآية إنما وردت ردا لقول المشركين أن القرآن قول كاهن أو قول بشر، فرد عليهم بهذه الآية نفيا لما تقولوه، والمراد بالرسول جبريل عليه السلام عن إسرافيل عن اللوح عن القلم عن رب العالمين كما في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[8]، وقال: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[9]. وهذه الصفات كلها

---

[1] البقرة: 30.

[2] البقرة:255.

[3] الجن: 26- 27.

[4] البقرة: 255.

[5] النساء: 164.

[6] التوبة: 6.

[7] التكوير: 19.

[8] الشعراء: 193 – 194.

[9] الحاقة: 43.

سلبيها ومعنويها كان متصفا بها سبحانه قبل وجود الكائنات فهو قدير قبل وجود المقدورات ومريد قبل وجود المرادات عالم قبل وجود المعلومات، حي قبل وجود الحيوانات، وسميع قبل وجود المسموعات، بصير قبل وجود المبصرات، متكلم قبل وجود المكونات.

وأما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [1]، فهو أصل لكل الأصول بعد كلمة الإخلاص، لأن سبب نزولها لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه حبر من الأحبار وعالم من أهل الكتاب الذي انتهى إليه علمهم فقال له: يا محمد صف لي ربك، فنزل عليه الروح الأمين في الحين من رب العالمين بهذه السورة الجامعة لجوامع الكلم فارتضاها لنفسه وجعلها كافية في وصفه، فقال له: قل يا محمد هو الله، فهو إشارة إلى الوجود الأقدم الذي لا يشابهه وجود وليس معه وجود، الله هو الإسم الأعظم الذي تضاف إليه جميع الأسماء وليس بمضاف إلى شيء منها لأنه الذات الشريفة، فلكل حرف منه معنى، فالألف آلاء الله، واللام الأول لطف الله، واللام الثاني لقاء الله، والهاء هدى الله يهدي إليه من يشاء من خلقه.

قال الحلاج [2] في معنى الإسم :

أَلِفٌ قَدْ تَأَلَّفَ الكَـوْنُ مِـنْـهُ ثُمَّ لَامٌ إِلَى الحَـقِيقَةِ تَـسْرِي

ثُمَّ لَامٌ مَخْصُوصَةٌ بِالْمَعَانِي ثُمَّ هَاءٌ بِهَا مُدَامِي وَسُكْرِي [3]

والدليل على أنه اسم الله الأعظم أن كل إسم من أسماء الله تعالى حذفت منه حرف تغير معناه إلا هو فإنه لايزال اسماه إلا على الذات ما بقي منه حرف، فإذا حذفت منه الألف قلت

---

[1] الإخلاص: 1.

[2] الحسين بن منصور الحلاج، فيلسوف، يعده البعض تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمرة الملحدين، أصله من فارس ونشأ بالعراق، (ت 306هـ/922 م)، انظر: "الأعلام للزركلي: (260/2).

[3] هذه الأبيات من البحر الخفيف، انظر: " لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن الشاذلي" لتاج الدين ابن عطاء السكندري، (ص 157).

لله وإذا حذفت منه اللام قلت له، وإذا حذفتها قلت هو إذ لا هو فقل هو الله أحد تنفي الكثرة والعدد لله، الصمد تنفي التشبيه والتمثيل والعلة والمعلول والنقص وخلاف الأولى ،لم يلد تنفي الصاحبة والولد والمعين والوزير والمشارك في الأمر والمشير، ولم يولد تنفي الحدوث والحلول وجميع صفات المكونات، ولم يكن له كفؤا أحد تنفي الضد والند.

وقد اتفق علماء السلف أن هذه السورة الشريفة تبطل أربعين ملة من ملل الضلالة، ولو بسطنا القول فيها لاحتجنا إلى مجلدات، ورحم الله القائل:

وَإِنْ تَسْأَل عَنِ الصِّفَاتِ فَادْرِهَا فَـقُلْ هُـوَ الله إِلَـى آخِـرِهَـا

وَإِنْ تَـسْأَل عَـنْ ذَاتِـهِ تَـعَالَـى وُجُـودُ شَـيْءٍ مِثْـلَـهُ اسْتَحَالاَ

وُجُـودُ ذَاتٍ لاَ شَبِيـهَ بِالـذَّوَاتِ وَلاَ تَعَطَّلَت عَنْ أَكْمَلِ الصِّفَاتِ[1]

فلما قرأها على عبد الله بن سلام [2] قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وأنك الذي بشر به موسى بن عمران، وأنك المنعوت في التوراة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[3]، وفي التوراة: " محمد عبدي ورسولي المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويصفح، ولن أميته حتى أقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا لا إله إلا الله "[4].

---

[1] هذه الأبيات من بحر الرجز، قائلها مجهول.

[2] عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف: صحابي، قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب. أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، ، وفيه الآية: " وشهد شاهد من بني إسرائيل " والآية: "ومن عنده علم الكتاب"، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، (ت43 هـ/663 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي: (90/4).

[3] الفتح: 29.

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: البيوع، باب: كراهية السخب في الأسواق، رقم: 2125، (66/3).

فهذا توحيد السلف رضوان الله عليهم الذي ارتضاه الله تعالى لنبيه وبينه رسول الله ﷺ لأمته وبشرهم الله تعالى بكماله فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، لا يعرضون عرضا ولا جوهرا ولا سلبيا ولا معانيا ولا معنوية.

فلما مضى ذلك القرن الصالح ظهر التشيع والرفض والاعتزال، فألبس الناس شيعا وأول من نطق الكلام وعلم الجدل المعتزلة و الروافض طلبا للإستغناء بالعقل عما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد والعقد الصحيح الذي حمله عنه أصحابه حذو النعل بالنعل فبلغوه تابعيهم حتى كادت المعتزلة أن تميل عوام الأمة عن صميم الحق، فتصدى للرد عليهم إمام الحرمين[2] والإمام الأشعري [3]، حتى أفحموهم بدلائل الكتاب والسنة وتأييد الله لهم بحسن النظر والتوفيق للصواب والنهج القويم فتبرأ الأئمة منهم حتى قال الشافعي: " إذا سمعت الرجل يسأل عن الفرق بين الإسم والمسمى فاستدل بذلك على خراب باطنه وتبريه من الحنيفية السمحاء، فقد أغنانا الله تعالى بالمنقول عن المعقول"[4].

---

[1] المائدة: 3.

[2] عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعيّ، ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، جامعا طرق المذاهب، (ت478 هـ / 1085 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (160/4).

[3] علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها " إمامة الصدّيق " و" الرد على المجسمة "، (ت324 هـ / 936 م) انظر: "الأعلام" للزركلي، (263/4).

[4] لم أقف عليه.

وقال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ لما بلغته مباحث المعتزلة وأهل الأهواء وجدلهم، وما أحدثوا: "أشهد بضلالة هؤلاء ولأن ألقى الله بكل ذنب أحب إلي من أن ألقاه بمذهب من مذاهب الجدل والكلام"[1].

ولما أتاه حفص الفرد[2] وهو عند المعتزلة من أئمة المعقول ومن أرباب الجدل والكلام، [قال له مالك: ما حاجتك يا حفص، قال: إني أريد أن أناظرك في علم الكلام] [3]، قال له: ما تريد من ذلك؟، قال له حفص: إن غلبتك اتبعتني وإن غلبتني اتبعتك، قال له مالك: وإن جاءنا ثالث فغلبنا، قال: اتبعناه، قال: وإن جاء رابع، قال: اتبعناه، قال له مالك: إنك تريد أن تكون كل يوم على دين جديد حتى تلق الله ولا دين لك، أما أنا فعلى يقين من ديني وبصيرة من ربي أخذت هذا الدين غضا جديدا عن التابعين بإحسان وأخذوه كما أخذته عن أصحاب النبي ﷺ فاتبعتهم فيما أخذته عنهم حذو النعل بالنعل، وهم اقتفوا أصحاب رسول الله ﷺ حذو النعل بالنعل ما زاغوا ولا بدلوا ولا غيروا وهم أخذوا دينهم عن رسول الله ﷺغضا جديدا، اتبعوه فيما قال وما فعل حذو النعل بالنعل لم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه حتى ألقوه إلينا، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى أكمل الله دينه وأتم عليه وعلى أمته نعمته ، فلم يزل الناس على يقين من دينهم وبصيرة من ربهم، حتى ثرت أنت وأصحابك لا بارك الله فيكم، تريدون نقص الدين بعد تمامه وتشككون الأمة بعد اليقين والتمكين، فاخرج صاغرا فلست من خيلك ولا رجلك ولست ممن تناظر، وإنما أنت سفيه ولا يغتر بقولك إلا سفيه مثلك، ولو كنتم على حق وحقيقة لما أبغضتم أصحاب رسول الله ﷺ تهتموهم بقول الزور وهم براء، وبالظلم وهم أتقياء،

---

[1] وجدت القول بلفظ آخر :" قال مالك بن أنس ليس الجدال في الدين بشئ"، وقال مالك: أهل الأهواء بئس القوم لا يسلم عليهم واعتزالهم أحب إلي"، انظر: "الإنتقاء" لابن عبد البر، (34/1).

[2] أبو يحيى حفص الفرد، تاريخ مولده ووفاته مجهول، عاش في القرن 2هـ، من أهل مصر، قدم البصرة فسمع بأبي هذيل واجتمع معه وناظره وناظر الإمام الشافعي، لايوجد له تعريف مفصل في كتب التراجم أو طبقات العلماء، لمعرفة أخباره ومناظراته، انظر: "مناقب الشافعي" للآبري، باب : مخطوطة مكتبة ألماي بتركيا، (97/1)، و"الإبانة الكبرى" لابن بطة، باب: بيان كفرهم وضلالهم وخروجهم عن الملة، (51/6).

[3] ساقط من (ب).

وبالخيانة وهم أمناء، وهم القدوة الأسوة، وقد نص الله تعالى في كتابه العزيز أنه يغيظ بهم الكفار، ولا أراكم إلا من الذين يغيظونهم، قال الله تعالى في نعتهم والثناء عليهم: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾[1] ، وما أراكم تحاولون إلا هدم هذا الدين من قواعده، أليس لكم في كتاب الله وسنة رسوله مقنع عن الخوض في الأباطيل وتحكيم العقول سفها من أحلامكم وطيشا من عقولكم، حتى شوشتم على عوام الأمة عقائدها أو كدتم. فانصرف حفص الفرد أذل من النقاد والذياب بين يدي الليوث العضاب، وكان ينهى عن الرد عليهم، فقال له بعض أصحابه: لم وقد أفحموا [وألجموا][2]، قال لهم : إن الذي يرد عليهم يحكي بطالاتهم أولا ثم يردها وإني أحب أن ينزهوا ألسنتهم عن ذكر أباطيلهم السخيفة "[3].

وقال الماوردي [4]: " أما ما ألفت أئمة أهل السنة والجماعة من علم الكلام مما فيه مشاكلة لمذاهبهم الفاسدة، فإنه ينبغي تعليمه ليكون سهاما في نحورهم كعقد الأشعري وكتاب إمام الحرمين ونحو ذلك"[5].

فإن أهل الكلام من أهل السنة قسموا الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام : واجب ومستحيل وجائز.

---

[1] الفتح: 29.

[2] زيادة في (ب).

[3] انظر: "الشريعة" للآجري، باب: ذم الجدال والخصومات في الدين، (437/1)، وكذلك "الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء" لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، (33/1).

[4] علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي: أقضى قضاة عصره، من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جُعل " أقضى القضاة " في أيام القائم بأمر الله العباسي، نسبته إلى بيع ماء الورد، ووفاته ببغداد، من كتبه " أدب الدنيا والدين – ط "، و" الأحكام السلطانية – ط ، (ت450 هـ / 1058 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (327/4).

[5] لم أقف عليه.

فالواجب ما لا يصح في العقل عدمه كوحدانية الله تعالى واتصافه بصفات الكمال، والمستحيل ما لا يتصور في العقل السليم وجوده كالشريك لله.

والجائز ما يصح في العقل وجوده وعدمه وهو جميع المكونات، لكن من الجائز ما لا يصح الإيمان إلا به كالإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار والصراط والميزان والحوض والوقوف بالمحشر، وضع الصحف بالأيمان والشمائل، وخفة الموازين ورجحانها وخلود الكافرين في النار بعد الدخول فيها.

وأما الجائز المطلق فوجود كل ممكن وعدمه إلا ما ذكر، فإنه لو كان داخلا في حد الجائزات فإنه خارج عنها بنص الكتاب والسنة لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[1].

وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2] ، فالساعة تطلق على جميع ما ذكر.

وقد اختلف أهل الكلام في إيمان المقلد وعدمه، فقائل بإيمانه مطلقا وقائل بعدم إيمانه مطلقا، والمحققون جعلوا في ذلك تفصيلا فقالوا الذي يرجع برجوع مقلده فغير مؤمن ويخاف عليه عند سؤال الملكين، إذ يقول سمعت الناس يقولون شيئا نقلته، وأما الجازم الذي لا يرجع برجوع مقلده فمؤمن بغير خلاف، وهذا التقليد لا ينسحب على من قلد رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا»[3]. ولما ذكر عليه الصلاة والسلام تفرق أمته من بعده إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة قالوا: يا رسول الله أخبرنا بالواحدة، قال: « ما أنا عليه وأصحابي »[4].

---

[1] الفرقان: 11.

[2] الليل: 4 -15 -16.

[3] بلفظ آخر، "سنن أبي داود"، كتاب: السنة باب: لزوم السنة، رقم: 618، (246/18)، قال الألباني: ح ص.

[4] "سنن الترمذي"، أبواب الإيمان، باب:في افتراق هذه الأمة، رقم:2641،(26/5)، وقال الترمذي: ح غ، والألباني: ح س.

وهي الطائفة الناجية كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله»[1].

واتفق السلف على أن تلك الطائفة هم أهل السنة من أمته عليه الصلاة والسلام المتمسكون بالكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[2]، وحبل الله هو القرآن بغير خلاف كما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض من تمسك به نجا ومن حاد عنه هلك»[3].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[4]، فيؤخذ من هذه الآية الشريفة أن كل من قلد رسول الله ﷺ في قول من أقواله وفعل من أفعاله وحال من أحواله أو سيرة من سيره فهو على هدى من ربه.

وكذلك من قلد أصحابه رضوان الله عليهم لأنهم الذين بلغوا إلينا الكتاب والسنة، قال عليه الصلاة والسلام: « اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»[5].

وقال: « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» [6].

---

[1] ح ص، بلفظ آخر، "صحيح مسلم"، كتاب: الإمارة، باب قوله ﷺ: « لا تزال طائفة»، رقم: 174، (1524/3).

[2] آل عمران: 103.

[3] ورد بلفظ آخر، انظر: "مسند أحمد بن حنبل"، باب مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رقم:11104، (169/17): قال رسول الله ﷺ: "إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض "، وقال شعيب الأرنؤوط: ح ص بشواهده.

[4] الحشر: 7 .

[5] "سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم:3805، (149/6)، قال الترمذي: ح غ، وقال الألباني: ح ص.

[6] "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة" لمحمد ناصر الدين الألباني، باب: حديث أصحابي كالنجوم، رقم: 58، (44/1)، وقال الألباني: ح ض.

[6] "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة" لمحمد ناصر الدين الألباني، باب: حديث أصحابي كالنجوم، رقم: 58، (44/1)، وقال الألباني: ح ض.

يروى أن بعض أهل الكلام سأل عمر بن عبد العزيز [1] رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيء في علم الكلام، فقال: "إذا أردت سبيل الهدى فاتبع ما وجدت عليه الصحابة والتابعين فمن ترك سبيلهم فقد ضل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[2]، وقال ﷺ: « العلوم ثلاثة: آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة وما سوى ذلك فضل »"[3]، أي فضول زائد على العلم النافع وهذا غير مناف للتفكر والنظر والاستدلال بمصنوعات الله الدالة على كبريائه وعظمته وعظيم قدرته كما يشهد لذلك قوله تعالى في مدح المتفكرين: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4]، ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[5].

وقال عليه الصلاة والسلام: « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »[6].

---

[1] عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم، وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام، ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة 99 هـ فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيامه، فمنع سب علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم تطل مدته، قيل: دس له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة فتوفي به، ومدة خلافته سنتان ونصف، (ت101 هـ / 720 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (50/5).

[2] النساء: 115.

[3] ورد بلفظ آخر قريب منه، "سنن أبو داود": كتاب: الفرائض، باب في تعليم الفرائض، رقم: 2885 ، (511/4).

[4] آل عمران: 191، قال الألباني ح ض، وفي سنده عبد الرحمان بن زياد الإفريقي، وفيه ضعف.

[5] "صحيح ابن حبان"، كتاب: الرقائق، باب: ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب إلخ، رقم: 620، (386/2)، وقال الألباني: ح س، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[6] حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ليس بحديث إنما هو من كلام السري السقطي رحمه الله تعالى، انظر: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع المسمى(الموضوعات الصغرى) لعلي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، باب حديث: تفكر ساعة خير من عبادة سنة"، (82/1)، و"الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى"، لنفس المؤلف، باب حرف التاء المثناة من فوق، (162/1).

وقال علي كرم الله وجهه: " لا خير في صلاة لا تفكر فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها"[1].

وقال: " من لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو ومن لم يكن كلامه حكمة فهو لغو "[2]، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[3]، فالمعنى أن من لم يتدبر القرآن فقد ضرب على قلبه بقفل الحرمان، والمراد بالقلب محل الإدراك، فقد ضرب على قلبه بقفل الحرمان، والمراد بالقلب محل الإدراك، وإنما شرع ترتيل القرآن ليبقى بين الاسترسال في القراءة محل التدبير، وفي رواية: " من قرأ ولم يتدبر كان كالحمار يحمل أسفارا"[4].

وقال سبحانه في ذم اليهود والتحذير من حالهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[5]، والمعنى أنهم كلفوا حمل التوراة ثم لم يحملوها أي لم يعملوا بما فيها فصار مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا انثقل ظهره ولا ينتفع بما فيها ولا يعلمه علما نافعا، كما في الخبر: « أسعد الناس بهذا القرآن من عمل بما فيه ولو لم يحفظ منه سورة، وأشقى الناس بهذا القرآن من أقام حروفه وضيع حدوده»[6]، حتى قيل أن أول من نظر إبراهيم عليه السلام كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7]، ما معناه أن كما وهبنا لإبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلالة

---

[1] انظر: "حلية الاولياء وطبقات الأصفياء" ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني ، (77/1).

[2] ليس من أقوال الإمام علي كرم الله وجهه، بل قول الحسن البصري، ذكره الغزالي في: "إحياء علوم الدين"، باب: المقام الأول من المرابطة، (424/4).

[3] محمد: 24.

[4] لم أقف عليه.

[5] الجمعة: 5.

[6] لم أقف عليه.

[7] الأنعام: 75.

وعبادة الأصنام، نريه ملكوت السماوات والأرض. فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ لأنه تعالى كان أراه ملكوت السماوات والأرض والملكوت، والملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة.

قال ابن عباس وغيره أنه عليه الصلاة والسلام أقيم على صخرة وكشف له عن السماوات والأرض حتى رأى العرش والكرسي وما في السماوات من العجائب حتى رأى مكانه في الجنة، فلذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[1]، يعني أريناه مكانه من الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب[2].

روى البغوي[3] من حديث سلمان ورفعه بعضهم إلى علي بإسناد صحيح قال: « لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعوا عليه فقال له الله تبارك وتعالى: يا إبراهيم إنك رجل مجاب الدعوة فلا تدع على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خصال، إما أن يتوب إلي فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبت ».[4]

---

[1] العنكبوت: 27.

[2] "تفسير البغوي"، (136/2).

[3] الحسين بن مسعود بن محمد، الفرّاء، أو ابن الفَرَّاء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنّة، البغوي: فقيه، محدث، مفسر، تفقه على شيخ الشافعية القاضي حسين بن محمد المروروذي صاحب (التعليقة)، وسمع منه، ومن أبي عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي، وأبي الحسن الشيرزي، من مصنفاته: (معالم التنزيل)، و(المصابيح)، (ت510 هـ/ 1117 م)، انظر: سير أعلام النبلاء، باب: البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود، (439/19)، و "الأعلام" للزركلي، باب البغوي، (259/2).

[4] نسبه السيوطي لابن مردويه عن علي بن أبي طالب مرفوعا، انظر: "الدر المنثور للسيوطي"، (302/3).

وفي رواية: " فإن تولى فإن جهنم من ورائه"، وقال قتادة:" ملكوت السماوات الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار"[1].

والصحيح أن هذه الرواية إنما كانت بعين البصيرة لأن مثل ذلك لا يعرف ولا يدرك إلا بالعقل، ثم أتبع ذلك بحكمة ما كشف له فقال: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[2]، بالاستدلال بها على عظمة الله تعالى وكبريائه، واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة، لأن الإنسان في أول أمره لا ينفك عن شبهة وشك، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب فزالت الشبهة عند ذلك.

قال ابن عباس في قوله: وليكون من الموقنين جلى له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق "[3].

فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى: إنك لن تستطيع هذا، فجعل بينه وبين أسرار الخلائق حجابا فرده كما كان قبل ذلك، وإلى هذا يشير ابن عطاء[4] في حكمه بقوله: "من كشف له عن أسرار الخلائق ولم يتخلق فيهم بالرحمة الإلهية كان اطلاعه حسرة عليه وسببا يجر الوبال إليه "[5].

---

[1] "تفسير البغوي" ، (136/2).

[2] الأنعام: 75.

[3] "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، (430/11).

[4] أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عَطَاء الله الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء كان من أشد خصوم ابن تيمية، له تصانيف منها (الحكم العطائية – ط) في التصوف، و(تاج العروس – ط) في الوصايا والعظات، و (لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن – ط) توفي بالقاهرة، (ت 709 هـ / 1309 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (221/1).

[5] "الحكم العطائية" لابن عطاء السكندري، شرح ابن عباد النفزي الرندي، (ص 71).

ثم أتبع ذلك بالإخبار عنه فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾[1].

قال ابن عباس وغيره من علماء التفسير ولد إبراهيم عليه عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الجبار، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه، ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كهان ومنجمون فقالوا إنما يولد في بلدك في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، ويقال أنهم وجدوا ذلك في كتاب الأنبياء الأقدمين.[2]

وقال السدي[3]: " رأى النمرود في منامه كان كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك، فقالوا هذا مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة بناحيته وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم، فإذا حاضت المرأة خلا بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهما "، قال: " فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت فواقعها فحملت بإبراهيم عليه السلام، وبعث إلى كل امرأة حبلى بمدينته فجمعها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم، فإنه لم يعلم بحملها لأنها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحمل في بطنها "[4].

وقال السدي: "خرج نمرود بالرجال للعسكر وعزلهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه إلا آزر، فبعث إليه فأحضره وقال له: لي إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها إلا لثقتي

---

[1] الأنعام: 76.

[2] "تفسير البغوي"، (136/2).

[3] إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، قال فيه ابن تغري بردي: (صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس، (ت128 هـ / 745 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (317/1).

[4] "تفسير البغوي"، (137/2).

بك، فأقسمت عليك أن لا تدنوا من أهلك، فقال له آزر: أنا أشح على ديني منك، فأمره بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم، فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يملك شيئا من نفسه حتى واقعها فحملت من حينها بإبراهيم "[1].

قال ابن عباس: " فلما حملت أم إبراهيم، قال الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان، فلما دنت ولادة أم إبراهيم عليه السلام وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها، قالوا: فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء، ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا، فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه وكانت كلما رجعت إليه تجده حيا يمص إبهامه"[2].

وقال أبو روق[3] : " قالت أم إبراهيم لأنظرن إلى أصابعه، فوجدته يعض من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع سمنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا"[4].

وقيل أن آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل، فقالت: ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها، وكان إبراهيم يشب في اليوم ما يشبه غيره في الشهر، وفي الشهر ما يشبه غيره في السنة، فلم يمكث في المغارة إلا خمسة عشر شهرا، ثم قال لأمه: أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني

---

[1] "تفسير البغوي"، (137/2).

[2] "تفسير البغوي"، (137/2).

[3] عطية بن الحارث، أبو روق، الهمذاني الكوفي: محدث، مفسر، روى عن الضحاك بن مزاحم وعكرمة البربري وغيرهما، ذكره ابن سعد في الطبقة الخامسة وقال: هو صاحب "التفسير"، وقال الداودي: روى له أبو داود والنسائي وابن ماجة، انظر: "معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاض"ر لعادل نويهض، (347/1).

[4] "تفسير البغوي"، (138/2).

وسقاني لرب الذي ما لي إله غيره، ثم نظر في السماء فرأى كوكبا قال هذا ربي، ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي وأتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، ثم طلعت الشمس فجعل ينظر إليها حتى غابت تبرأ منها وعلم أنها من خلق الله تعالى وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[1].

ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم يبادهم بذلك، فلما رجعت به أمه أخبرت آزر أنه ابنه، وأخبرته بما صنعت به فسرّ بذلك وفرح فرحا شديدا.

وقيل أنه مكث في السرب سبع سنين، وقيل ثلاث عشرة سنة، وقيل سبعة عشر سنة، فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه: من ربي؟، قالت أنا، ثم قال: من ربك أنت؟، قالت: أبوك، قال فمن رب أبي؟، قالت اسكت. ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك، قال: من رب أمي؟ قال: أنا، قال: من ربك ؟ قال: نمرود، قال: من رب نمرود؟، فلطمه لطمة شديدة وقال: اسكت. فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبا قال: هذا ربي، ويقال أنه قال لأبويه: أخرجوني، فأخرجاه من السرب حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذا ؟، فقال: إبل وخيل وغنم، فقال إبراهيم: ما لهذه لا بد أن يكون لها إله هو ربها وخالقها، ثم نظر فإذا المشتري وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾[2].

---

[1] الأنعام: 78.

[2] الأنعام: 76.

ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين:

أحدهما: أنه كان قبل البلوغ في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ.

وقيل إن إبراهيم خرج من السرب في حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب، ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خص الله تعالى بالعقل الكامل والفطرة السليمة فتفكر في نفسه، وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر له وهو إله الخلق، ثم نظر في حال تفكره فرأى كوكبا قد أزهر فقال هذا ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته وقبل بلوغه قبل استحكام النظر في معرفة ربه، واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[1]، قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لايكون إلا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة.

وقال البيضاوي[2] في " الروضة ": "هذا القول ليس بسديد [ولا مُرْضٍ] [3] لأن الأنبياء معصومون في كل حال من الأحوال، وأنه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل [منقصة منزه] [4] ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره وأتاه رشده من قبل،

---

[1] الأنعام: 77.

[2] عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، ناصر الدين البيضاوي: قاض، مفسر، علامة، ولد في المدينة البيضاء (بفارس– قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها، من تصانيفه " أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ط " يعرف بتفسير البيضاوي، و" طوالع الأنوار – ط"، (ت685 هـ/ 1286 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي : (110/4).

[3] زيادة في (ب).

[4] بياض في (أ).

وأراه ملكوت السماوات والأرض، فلما رأى الكوكب قال معتقدا هذا ربي حاشا إبراهيم من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك"[1].

القول الثاني: وهو الذي عليه جمهور المحققين أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم، أو حين شرفه الله بالنبوءة وأكرمه بالرسالة، ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوها:

الوجه الأول: أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول حتى يعرفهم جهلهم وخطاهم في تعظيم عبادتها، لأنهم يرون أن كل الأمور بتدبير النجوم، فأراهم إبراهيم أنه معظم لما عظموه منها، فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطاهم فيما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية، ومثل هذا المثل الحواري الذي ورد على قوم كانوا يعبدون صنما فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم حتى دهمهم عدو ولا قبل لهم به فشاوروه في أمر هذا العدو، فقال: الأمر عندي أن تدعوا هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا، فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم يغن شيئا، فلما تبين لهم أنه لاينفع ولا يضر ولا يدفع، دعاهم الحواري أن يدعوا الله عز وجل ويسألوه أن يكشف عنهم فأنزل بهم فدعوا الله مخلصين فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعا.

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه، أهذا ربي الذي تزعمون، وإسقاط حروف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[2]، والمعنى أهذا يكون رب ودلائل النقص فيه ظاهرة.

---

[1] انظر: "تفسير الخازن"، (128/2).

[2] الأنبياء: 34.

الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه بقوله هذا ربي بزعمكم، فلما غاب قال لو كان إلها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[1]، أي عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾[2]، يريد إلهك بزعمك.

الوجه الرابع: أن في هذه الآية إضمار تقديره يقولون هذا ربي وإضمار القول كثير في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3]، أي يقولان ربنا تقبل منا.

الوجه الخامس: أن الله تعالى قال في حقه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[4]، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾[5]، والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا على أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله تعالى ملكوت السماوات والأرض، وبعد الإيقان، ومن كان بهذه المنزلة الشريفة لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب أو يتخذ أربابا، وأما الجواب عن قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[6]، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يزالوا يسألوا الله التثبيت ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[7].

---

[1] الدخان: 49.

[2] طه: 97.

[3] البقرة: 127.

[4] الأنعام: 75.

[5] الأنعام: 76.

[6] الأنعام: 77.

[7] إبراهيم: 35.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾[1]، أي غاب والأفول غيبوبة النيرات، قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[2]، أي لا أحب ربا يغيب ويطلع لأن أمارات الحدوث فيه ظاهرة ودلائله عليه لائحة ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، معناه ما تقدم من الكلام في الكوكب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[3]، يريد لئن لم يثبتني ربي على الهدى وليس المراد أنه لم يكن مهتديا لأن الأنبياء لم يزالوا على الهدى من أول الفطرة، وفي هذه الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لا من غيره كما في قوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[4].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾[5]، أي طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، هذا الطلع وأشار إلى الضياء والنور لأنه رأى الشمس أضوء من الكوكب والقمر، وقيل إنما قال هذا ولم يقل هذه لأن تأنيث الشمس غير حقيقي فلهذا أتى [لفظ][6] التذكير ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ يعني من الكوكب والقمر، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾أي غابت الشمس ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[7].

فلما أثبت إبراهيم عليه السلام بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه برئ مما يشركون، فلما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين القويم والصراط المستقيم فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أي صرفت عبادتي وقصدت بتوحيدي، ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي الذي خلقهما وابتدعهما من

---

[1] الأنعام: 76.

[2] الأنعام: 76.

[3] الأنعام: 77.

[4] القصص: 56.

[5] الأنعام: 78.

[6] في (ب): بفصل.

[7] الأنعام: 78.

غير مثال سابق، ﴿حَنِيفًا﴾[1] أي مائلا عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى، وأصل الحنيف الميل وهو ميله عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة، وقيل الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة في صلاته ويقيم المناسك ويذكي ويختتن ويغتسل من الجنابة ويتوضأ من الحدث ويضحي ويؤتي الزكاة، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2] تبرأ من الشرك فلما فعل ذلك وحاجه قومه عندما أظهر عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، قال مجيبا لهم على وجه التوبيخ والرد ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ وبين لي طريق الهداية إلى توحيده ومعرفته، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾[3] وذلك أنهم قالوا احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسك بسوء من خبل وجنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع، وإنما يكون ذلك الخوف ممن يقدر على النفع والضر وإلى ذلك الإشارة بقوله ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾، لكن إن شاء ربي شيئا كان ما يشاء لأنه القادر على النفع والضر، وإنما قال ذلك إبراهيم لاحتمال أن الإنس قد يصيبه في بعض حالته وعمره ما يكرهه، فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام ففند هذه الشبهة بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ وهذا استثناء منقطع لأنه ليس من الأول في شيء، والمعنى ولكن إن شاء ربي شيئا كان، ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء فلا يخرج علمه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[4]، أي أفلا تعتبرون وتعلمون أن هذه الأصنام جماد لا تضر ولا تنفع وإنما النافع الضار هو الله الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما.

---

[1] الأنعام: 79.

[2] الأنعام: 79.

[3] الأنعام: 80.

[4] الأنعام: 80.

ثم رد عليهم مبينا سخافة عقولهم فقال: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ ويريد الأصنام، التي أشركتم بها لأنها جماد لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾ فأنتم أولى بالخوف لأنكم أشركتم بالله وسعيتم في أعظم الذنوب التي قد أهلك الله بها أمما من قبلكم، ثم بين لهم بطلان حجتهم وفساد ما هم عليه من الشرك بقوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ أي ما ليس لكم عليه حجة ولا برهان ثم زادهم بيانا وأتى به على وجه الاستفهام المبهم فقال لهم: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّۖ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1]، يقول من أولى بالأمن يوم القيامة أهو الموحد أو المشرك، ثم قضى الله تعالى بينهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، فهو في قوة، إن الذي يستحق الأمن يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[2]، وقيل هو من تمام كلام إبراهيم في المحاجة لقومه والمعنى أن الذين يحصل لهم الأمن يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ولم يشركوا به شيئا ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أي ولم يخلطوا إيمانهم بشرك.

ومن حديث ابن مسعود أنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[3] شق ذلك على المسلمين فقالوا أينا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ: « ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لإبنه: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[4] »[5].

---

[1] الأنعام: 81.

[2] الأنعام: 82.

[3] الأنعام: 82.

[4] لقمان: 13.

[5] ح ص، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: "ولقد آتينا لقمان."، رقم:3429، (163/4).

وفي رواية : « ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لإبنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾»[1].

وقيل في معنى قوله: ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم، وذلك بأن يفعل بعض ما نهى الله عنه ويترك ما أمره به، فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لأن الله تعالى يخص به معنى من معاني الظلم دون غيره، والصحيح أن الظلم المذكور في هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ فسر الظلم هنا بالشرك، وفي هذه الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئا كان عاقبته الأمن من النار لقوله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾[2]، أي الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ يوم القيامة ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[3] إلى سبيل الرشاد.

كما أثنى سبحانه على إبراهيم بقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾[4] إشارة إلى ما أجري بين إبراهيم وبين قومه لما استدل به على حدوث الكوكب والقمر والشمس وهو الأفول، لأن تغير الأحوال والانتقالات من سمات الحدوث، لأن كل متغير حادث، وقيل أنه خاصم قومه فقال: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّۚ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾[5] من يعبد إلها واحدا مخلصا له الدين والعبادة أم من يعبد أربابا كثيرة، فقالوا من يعبد إلها واحدا ففضول على أنفسهم فكانت هذه حجة إبراهيم على قومه.

زاد سبحانه في الثناء عليه بسمو الدرجات فقال: ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالعلم والفهم والعقل والفضيلة كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى إلى محاجة قومه، وقيل نرفع درجات

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، رقم: 197، (114/1).

[2] الأنعام: 82 .

[3] الأنعام: 82 .

[4] الأنعام: 83 .

[5] الأنعام: 81 .

من نشاء في الدنيا بالنبوءة والعلم والحكمة، وفي الآخرة بالثواب الجزيل والجنة والسلسبيل ورؤية الخالق الجليل مع الحور وحسن المقيل.

ثم أثنى سبحانه على نفسه وهو للثناء أهل فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]، أي حكيم في جميع أحواله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيئا إلا بحكمة وعلم فلما أفحمهم عليه السلام بالحجة فلم يرعوا عما هم عليه من الشرك، أمهلهم حتى خرجوا إلى عيد لهم خرج معهم فلما استتموا الخروج استدرجهم فنظر إلى النجوم وقال: إني سقيم، لأنهم كانوا يفعلون ذلك فينظر أحدهم إلى نجمه فإذا رآه متغيرا زعم أنه سيسقم وهو سقيم فتركوه لأجل ذلك ولم يحملوه على الذهاب معهم لعيدهم، فرجع إلى المدينة فأخذ فأسا فكسر جميع أصنامهم فتركها جذاذا إلا كبيرا لهم فجعل الفأس في عنقه، فلما رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم ليسجدوا لها فإذا هي منكسرة، فقالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لظالم مبين، فقالوا: سمعنا فتى يذكرهم ويسبهم ويشتمهم ويتبرأ من عبادتهم يقال له إبراهيم، قال نمرود: فأتوا به على أعين الناس وعذبوه لعلهم يشهدون عذابه فينزجرون عن مثل هذه الفعلة العظيمة، فأتى به فقال له نمرود: آنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا غضبا أن عبدتم معه غيره فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فقالوا: لقد علمت يا إبراهيم أنهم لا ينطقون ولا يسمعون ولا يبصرون، فقال لهم عند ذلك: تبا لكم ولعقولكم وأحلامكم حيث تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر وتتركون عبادة الله الذي خلقكم وصوركم في أرحام أمهاتكم وغذاكم بنعمته منذ أنتم أطفال حتى بلغتم مبالغ الرجال، وأمدكم بالمال والبنين وخلق لكم سماء تظلكم وأرضا تقلكم، فقالوا: والله لقد صدقكم إبراهيم ونصحكم حتى كادوا يسلمون، ثم نكسوا على رؤوسهم، وقال لهم نمرود لعنه الله: حرقوه وانصروا آلهتكم لعلكم تغلبون إبراهيم فلا يصدكم عن دينكم

[1] الأنعام: 83 .

بكثرة حججه وفصاحة لسانه وكيده فابنوا بيتا [بكوثى][1] وأحكموا بنيانه بالكلس والجص، وجعلوا يجمعون الحطب فيه جدا من غير تعطيل حتى جمعوا من الحطب ما لم يجتمع قبله مثله، ثم أوقدوا فيه النار فلا يطير طائر بينها وبين السماء إلا سقط فيها من شدة [حرها][2]، ولا يدنوا أحد من ذلك البيت إلا أصابه لفحها فيرجع منهزما، فلما عجزوا عن إلقائه فيها من شدة حرها وتلهبها أتاهم إبليس على صورة إنسان فصنع لهم المنجنيق وذلك أول ما صنع، فقال لهم: ارموه بهذا في النار، فعمدوا إلى إبراهيم فنزعوا ثيابه وكتفوه وجعلوه في المنجنيق فلما فعلوا ذلك ضجت ملائكة السماوات السبع بالبكاء فقال لهم سبحانه وهو أعلم بهم: ما بالكم قد ارتفعت أصواتكم بالبكاء، قالوا: رحمة لهذا العبد الصالح الذي يعبدك ويوحدك وقد اجتمع عليه أعداؤك ليهلكوه ويعذبوه، فقال لهم: قد آذنت لكم في إغاثته فإن استغاث بكم فأغيثوه، فأتاه ميكائيل الموكل بالمياه فقال له: إن شئت يا إبراهيم فجرت على نارهم عيون الماء من الأرض حتى أطفيها، فقال: لا أريد ذلك إنما عذبت في الله ولا أستغيث إلا به، ثم أتاه الملك الموكل بالظلال فقال له: نبردها بإذن الله، فقال: لا أريد ذلك، ثم زج به في المنجنيق فتعرض له جبريل عليه السلام فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟، قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: اسأله، فقال إبراهيم: علمه بحالي أغناني عن سؤالي، فلما رأى الله تعالى إقباله عليه بالكلية وإدباره عن الخلق وتوكله عليه، أقبل سبحانه على النار فقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[3]، فلو لم يقل سلاما لأهلكته ببردها فأحرقت الكتاف ولم تتعدى على إبراهيم وهي على حالها تتلهب فيما يرى الناس، وكان نمرود على علية له لينظر ما يفعل بإبراهيم فرأى الملقى كسي ثوبا من الجنة وكشف له عن جبريل فرآه معه فقال له يا إبراهيم هل تجد ألم النار، قال: لا، جعلها الله علي بردا وسلاما، فقال له إن كنت صادقا

[1] بياض في (أ)، وكوثى قرية من قرى الأنباط في العراق، انظر: "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" لأحمد بن محمد بن المهدي الملقب بابن عجيبة، (475/3).

[2] بياض في (أ).

[3] الأنبياء: 69.

[فاسع فيها][1]، فسعى إبراهيم عليه السلام وهو ينظر إليه فقال له: من الرجل الذي أراه معك؟، قال: ذلك الروح الأمين جبريل عليه السلام، فقال له عند ذلك: إن ربك الذي تعبد لرب عظيم وإني لمتقرب إليه بألف ثور أذبحها قربانا له، فقال إذا لا يقبلها منك، أنت مشرك، فقال له: لولا أنه يقبح لمثلي أن يترك دينه لدين سوقة من أتباعه لاتبعتك ولكن ارجع إلى ربك وقل له ليخرج عسكرا من عساكره وأخرج عسكرا من عساكري لأنظر هل يغلب عسكره عسكري أو عسكري عسكره، فسجد إبراهيم فقال: إلهي إن عبدك نمرود قد طغى وتجبر، فقال الله لإبراهيم: اختر أضعف عسكر من عساكري أقتل به نمرود وجنوده، فقال له: البعوض، فقال: يا إبراهيم لو لم تسألني البعوض لأهلكته بجند لو اجتمعت عشرون منه جئت بعوضة واحدة فأهلكته وجنوده به، فرجع إبراهيم إلى نمرود فأمره بإخراج عساكره ففعل، فأخرج ستمائة ألف، ألف كلها قد ألبست الصفائح والبيض وتجمعت في عراء الأرض، فأمر الله سبحانه البعوض بالتجمع في الجو فاجتمعت حتى صارت وكأنها مزن أسود، فأوحى الله إلى البعوض وقد جعلت لك جند نمرود غذاء، فتوجهت البعوض إلى الجند ولها دوي كدوي الرعد فخرقت الصفائح والبيض وأفضت إلى أجسامهم فخرقت جلودهم فامتصت دمائهم وأكلت لحومهم، ثم خرقت عظامهم حتى تركتهم [ ][2]، ثم أقبلت على دوابهم ففعلت بهم مثل ذلك.

ثم أرسل الله بعوضة شلاء إلى نمرود في داره فجعلت تطوف بأنفه ثلاثة أيام، فلما لم يعتبر بما بجنوده من عذاب الله، دخلت في أنفه ثم ارتفعت إلى دماغه فعضته فجعل يصيح ويأمرهم بضرب رأسه بالمرازب حتى انتفخ رأسه وسال منخراه قيحا وصديدا أنتن من الميتة، فتباعد الناس عنه لنتن ما يخرج من منخريه، فأتاه إبليس على صورة إنسان فقال: إنك تزعم أنك إله العالم وقد ضجروك وتجنبوك لتشوه وجهك ونتن ما يخرج منخريك فهلم أجعل لك رأسا من ذهب مكان رأسك هذا فإني طبيب ماهر مصور، فقال له: اصنعه حتى أنظر إليه،

---

[1] ساقط من (ب).

[2] بياض في (أ)، وفي (ب): الذاهب.

فصور إبليس صورة وجهه ورأسه لا ينكر منه شيئا من ذهب، فلما رآه مصورا قال هذه صورة وجهي ورأسي، فعند ذلك دعا السياف وأمر بقطع رأسه ففعل، فلما قطع رأسه مات وانصرف إبليس.

ونمرود هو أول من ادعى الربوبية من بني آدم، وأول من اتخذ الصفائح والبيض وأول من حلى السيوف بالذهب، وأول من اتخذ الأرقاء وأول من اتخذ المكوس من بني كنعان.

فلما رأى ابنه دمشق[1] ما نزل به وبجنوده من نقمة الله تعالى ورأى سلامة إبراهيم من النار أسلم وارتحل من العراق إلى الشام بعدما هاجر إبراهيم عليه السلام إليه، فبنى مدينة دمشق فسميت بإسمه وذلك أول ما دخل الكنعانيون الشام.

وقد قدمت أن أول من نظر إبراهيم عليه السلام وهو كذلك، لأن النظر يجلب الفكرة، والفكرة تجلب العبرة، والعبرة تجلب الاستبصار، والاستبصار يجلب اليقين، واليقين يجلب استيقاد نور البصيرة، ونور البصيرة يستجلب معرفة الله تعالى فتتلمع عند ذلك ميادين العرفان حتى يوجد في الساقة محل الأنوار والإحسان فتكتسب الروح أنوارا فتقبل بها على دسائس النفس فتطهرها حتى تزكوا، فإذا تزكت النفس بعد رياضة الروح لها وتغذيها إياها بأنوار المعرفة نوديت من محل القرب ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[2]، فتدخل جنة الود فتفضي بها إلى جنة الخلد بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3]، فيا لها من سلعة ما أشرفها، دلالها

[1] دمشاق بن نمرود بن كنعان، بنى دمشق فسميت باسمه، وقد آمن بإبراهيم عليه السلام وسار معه، انظر: "عون المعبود شرح سنن أبي داود"، (ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته)، لمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدرالعظيم آبادي، (273/11).

[2] الفجر: 27 إلى 30.

[3] التوبة: 111.

محمد ﷺ النبي الكريم، ومشتريها الرحمان الرحيم، وشاهدها جبريل، وكاتب العقد التنزيل، وثمنها الجنة والسلسبيل.

ولا يتم الإيمان حتى يقطع المؤمن بصحة الواجب في حق الرسل وهي ثلاثة أشياء: الصدق والأمانة والتبليغ لما أمروا أن يبلغوا به.

ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " لو كتم رسول الله ﷺ شيئا أمر بتبليغه لكتم أربع آيات في كتاب الله تعالى أحدهما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا ﴾[1] ، الثانية قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[2]، الثالثة قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[3] ، الرابعة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [4] "[5] .

ولقد بينت تأويل هذه الآيات الأربع في كتابنا المسمى " نزهة الراوي "[6] وأزلت عنه الإشكال ولم يسعني ذلك في مثل هذه العجالة لطلب الإيجاز والاختصار على هذا المبلغ.

---

[1] الإسراء: 74 – 75.

[2] الأحزاب: 37.

[3] عبس: 1-2.

[4] الحاقة: 44 إلى 46.

[5] وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني : باب: ذكر تزويج النبي ﷺ زينب، رقم: 111، (41/24).

[6] "نزهة الراوي وبغية الحاوي" للشيخ سيدي المختار الكنتي: مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم :1327ك، 1517ك، ويوجد منه عدة نسخ بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم:2513،1429،412،92، حققه أستاذنا الدكتور سعيد المغناوي في رسالة جامعية لنيل شهادة دبلوم السلك الثالث، في الدراسات والحضارة الإسلامية، بجامعة السوربون، باريس الرابعة، سنة 1991 م، بإشراف الدكتور دومينيك سورديل.

وأما مالا قدرة للخلق على حمله ومعرفته فإنه يجب على الرسل كتمانه حيث أمروا بعدم تبليغه، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [1] فلم يعلم الذي أوحي إلا الذي أوحى، فأفهمه تعالى لعظمه كما يفسره ما رواه ابن حيان[2] في كتابه المسمى بكتاب "العظمة"[3] أن النبي ﷺ قال: « إن الله تعالى أنزل علي ثلاثة علوم علم أخذ علي العهد بتبليغه للخاص والعام، وعلم أخذ علي العهد ألا أبلغه إلا للخاص من علماء أمتي، وعلم أخذ علي العهد أن لا أبلغه لأحد لعلمه لأنه لا يقدر على حمله غيره»[4].

قال ابن عباس : "منه المتشابه وآيات الصفات "[5].

وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

يَا رَبِّ جَوْهَرُ عِلْمُ لَوْ أَبُوحُ بِهِ لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّن يَعْبُدُ الوَثَنَا

وَلَا اسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنًا [6]

---

[1] النجم: 10.

[2] الإمام، الحافظ، محدث أصبهان، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، المعروف بأبو الشيخ، صاحب التصانيف: لأبي الشيخ كتاب (السنة) مجلد، كتاب (العظمة) مجلد، كتاب (السنن) في عدة مجلدات، (ت 369هـ/ 979 م)، انظر: "سير اعلام النبلاء" شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (276/16).

[3] "العظمة" لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، نشر: دار العصمة–الرياض، الطبعة: الأولى (1408هـ).

[4] لم أقف عليه في كتاب: العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، ولا في المصادر الحديثية، ولم أقف على درجة صحته، انظر: "كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري" لمحمد الخضر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني، (40/4).

[5] لم أقف عليه.

[6] أبيات مكسورة الوزن، منسوبة للإمام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، انظر: "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح " المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، (715/2).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: " تقولون أكثر أبو هريرة والله ما أكثرت، ولكني أخذت عن رسول الله ﷺ جرابي علم، أما أحدهما فقد بثثته، وأما الآخر فو الله لو قلت منه كلمة واحدة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتممها "[1].

وكان يقول :" أما إخواننا من الأنصار فقد كان يشغلهم صلاح أموالهم، وأما المهاجرون فإنهم كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وأما أنا فقد كنت ألازم رسول الله ﷺعلى ملء بطني فكنت أسمع ما لا يسمعون وأبصر ما لا يبصرون"[2].

ومن الواجب اعتقاده رؤية الله تعالى في الجنة وفي عرصات يوم القيامة، وأنه يرى ولا يدرك، قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، وقال في حق الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[4]، ولا حجاب إلا بعد الرؤية، ومع اعتقاد الرؤية فإنه يجب اعتقاد عدم الإدراك، قال الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[5].

فمذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة عقلا، واحتجوا لصحة مذهبهم بظواهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من الأمة على إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الآية [6]، ففي ذلك دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وقال تعالى في حق الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[7] الآية المتقدمة.

---

[1] ح ص، وجدته بلفظ مغاير، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: العلم، باب حفظ العلم، رقم : 120، (35/1).

[2] ح ص، وجدته بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: العلم، باب حفظ العلم، رقم : 118، (35/1).

[3] القيامة: 22 – 23.

[4] المطففين: 15.

[5] الأنعام: 103.

[6] القيامة: 22–23.

[7] المطففين: 15.

قال الشافعي رحمه الله: " حجب قوما بالكفر عن رؤيته، فثبت أن قوما يرونه بالإيمان"[1].

وقال مالك: " لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لما عير الكفار بالحجاب "[2].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3] ، قال ابن عباس: "المراد بالزيادة النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة "[4].

وأما دلائل السنة فمنها ما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾[5] »[6]، أخرجه الشيخان في صحيحهما.

ومن حديث أبي رزين العقيلي[7] قال: " قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة ؟ قال: « نعم »، قلت : وما آية ذلك من خلقه ؟، قال : « يا ابن رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر فخليا به ؟ » قلت: بلى، قال: « فالله أعظم، إنما هو خلق من خلق الله (يريد القمر) فالله أجل وأعظم»[8] أخرجه أبو داود.

---

[1] "تفسير الخازن"، (142/2).

[2] "تفسير البغوي"، (148/2).

[3] يونس: 26.

[4] "تفسير الخازن"، (142/2).

[5] ق: 39.

[6] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: باب قوله وسبح بحمد ربك، رقم:4851، (139/6).

[7] لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة أبو رزين العقيلي له صحبة ووفادة على رسول الله ﷺ ويقال: لقيط بن صبرة، انظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لعز الدين ابن الأثير، (491/4).

[8] "سنن أبي داود"، كتاب: السنة ، باب: في الرؤية، رقم:4731، (234/4)، قال الألباني: ح س، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

وأما الدلائل العقلية فقد احتج أهل السنة أيضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وتقريره أنه تعالى تمدح بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لأن المعدوم لا تصح رؤيته، فثبت أن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] بعيد المدح وهذا يدل على كونه تعالى جائز الرؤية، وتحقيق هذا أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم، أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم إنه قدر على احتجاب الأبصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية، وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة، لأن موسى عليه السلام سأل الرؤية كما في قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[2]، وهذا يدل على جواز الرؤية إذ لا يصح أن يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز أو يمتنع، وقد علق الله الرؤية باستقرار الجبل كما في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾[3]، واستقرار الجبل جائز والمعلق بالجائز جائز.

وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية على نفي الرؤية فاعلم أن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك هو: " الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته "، والرؤية: " المعاينة للشيء من غير إحاطة ولا إدراك " كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ﴾[4]، وكان قوم فرعون قد رأوا موسى وقومه ولم يدركوهم ولكن قاربوا إدراكهم إياهم، فنفى موسى الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، فعلى هذا يجوز أن يرى في الآخرة من غير إدراك ولا إحاطة، لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي حيث كان محدودا وله

---

[1] الأنعام: 103.

[2] الأعراف: 143.

[3] الأعراف: 143.

[4] الشعراء: 61 -62.

جهات، والله تعالى منزه عن الحد والجهة، لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا يجيب أنه تعالى يرى ولا يدرك، وقال قوم أن هذه الآية مخصوصة بالدنيا.

قال ابن عباس في معنى الآية:" ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] في الدنيا مع أنه يرى في الآخرة "[2]، وعلى هذا القول فلا فرق بين الإدراك والرؤية والدليل على تخصيص الرؤية بالآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3] مقيد بيوم القيامة فعلى هذا التأويل يمكن الجمع بين الآيتين.

وقال السدي: "البصر بصران بصر معينة وبصر علم "[4]، فمعنى قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا يدركه علم العلماء ونظيره ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[5] وهذا وجه حسن.

قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يعني أنه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها، يعلم حقيقتها وهو مطلع على ماهيتها، فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرون وهو يدركها ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[6].

قال ابن عباس: " اللطيف بأوليائه الخبير بهم"[7].

---

[1] الأنعام: 103.

[2] "تفسير البغوي"، (149/2).

[3] القيامة: 22- 23.

[4] "تفسير الخازن"، (143/2).

[5] طه: 110.

[6] الأنعام: 103.

[7] "تفسير البغوي"، (149/2).

وقال الزهري[1]: " معنى اللطيف الرفيق بعباده"[2].

وقيل هو الموصل الشيء إليك برفق ولين، وهو الذي ينسي عباده ذنوبهم يوم القيامة لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء.

وقال أبو سليمان[3]:" هو الميسر على عباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون"[4].

وقيل اللطيف هو الذي لا يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم.

وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند طاعته ولا يقطع عنهم بره وإحسانه عند مباشرتهم معصيته.

ثم امتن سبحانه على عباده ونبههم على وجوب شكره بقوله: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾[5]، البصائر جمع بصيرة وهي الدلالة التي توجب الإبصار بالشيء والعلم به، والمعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى فتميزون بينه وبين الضلالة وتميزون به أيضا بين الحق والباطل، وقيل إن الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر إلا أنها لقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها، فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين

---

[1] محمد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر: أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومائتي حديث نصفها مسند وعن أبي الزناد: كنا نطوف مع الزهري ومعه الألواح والصحف ويكتب كل ما يسمع، نزل الشام واستقرّ بها، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه، قال ابن الجزري: مات بشَغْب، آخر حدّ الحجاز وأول حد فلسطين، (ت124 هـ / 742 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (97/7).

[2] "تفسير البغوي"، (149/2).

[3] عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان: زاهد مشهور، من أهل داريّا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده، كان من كبار المتصوفين، له أخبار في الزهد، (ت 215 هـ / 830 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو سليمان الداراني، (294/3).

[4] تفسير الخازن"، (143/2).

[5] الأنعام: 104.

أسبابا لحصول [البراهين] [1] البصائر سميت الآيات بصائر، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق ﴿ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر، ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه، ﴿ وَمَنْ عَمِىَ﴾، أي ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها على طريق الرشد والفلاح ﴿ فَعَلَيْهَا﴾، أي فعلى نفسه عماها وضررها، وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه، ثم أمر النبي ﷺ بالتبرء منهم بعد الإنذار والأعذار والنصح والبيان، فقال وقل لهم يا محمد عند ذلك ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[2]، أي برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم إنما أنا رسول من ربكم أبلغكم ما أرسلت به إليكم والله هو الحفيظ عليكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم ولا قدرة لي أن أدفع عنكم ما يريد الله بكم ولست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل، فهذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل أنها ليست منسوخة وإنما محكمة.

يروى أن طائفة من أولياء الله المحسنين رأوا الجنة يوم القيامة وما أعد الله فيها من النعيم المقيم، فروا منها قائلين إنما كان جدنا واجتهادنا في دار الدنيا للتمتع برؤية ربنا، وقد فررنا من الدنيا وزهرتها شوقا إلى الله تعالى وطلبا للتمتع برؤيته ورضاه عنا وإقباله علينا، ولا نرى في الجنة إلا حظوظ النفوس وشهواتها فنخاف أن تشغلنا بالخلوة عن ربنا، فيرى الله فرارهم فيأمر ملائكته بأخذ سلاسل من نور فيجعلها في أعناقهم ويقودونهم بها إلى الجنة حتى يدخلوهم إياها فإذا أدخلهم الجنة تجلى لهم الباري جل وعلا فيقول لهم ما فراركم من جنتي ودار جواري، فيقولون أي ربنا إنها ليست لنا إرادة غيرك ولا شهوة لنا غير النظر إلى وجهك الكريم، وقد فارقنا الناس في دار الدنيا أحوج ما كنا إلى محبتهم فيك، وقد سقتنا إليهم في حين ظننا فيه الاستغناء عنهم بالخلوة بك والنظر إليك، فيقول لهم انظروا إلي أنتم عبادي وأهل ودادي، فقد ألجتكم جواري ومنحتكم النظر إلى وجهي الكريم أبد الآبدين لا أحجبكم عن رؤيتي

[1] ساقط من (أ).

[2] الأنعام: 104.

طرفة عين، فيخرون سجدا فرحا بما بشرهم به من دوام تمتعهم وبالنظر إليه، فيقول لهم ارفعوا، فهذا أوان راحتكم وتمتعكم بالنظر إلي، فإن الدار دار تلذذ وتشريف لا دار تعبد وتكليف، فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وقد بهتوا فلا يلتفتون إلى شيء من نعيم الجنة لحصول قرة أعينهم بمشاهدة معبودهم ومحبوبهم، وذلك معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[1].

وإنما كانت صحة الإيمان لا تحصل إلا باعتقاد رؤية الله تعالى يوم القيامة، لأن من أنكرها أو جحدها فقد كذب القرآن، ومن كذب بالقرآن فقد كفر، وهو كافر مع ما أضيف إليه من الأحاديث الصحيحة الصريحة وإجماع الأمة وخرق الإجماع أيضا، وتكذيب الحديث الصحيح من موجبات الكفر.

قال ابن سيد الناس[2]:" من أنكر رؤية الله تعالى يوم القيامة كفر، ومن أنكر رؤية ربه ﷺليلة الإسراء لم يكفر"[3].

فحيث قلنا بوجوب اعتقاد رؤية الباري جل وعز في القيامة فإنه منزه عن أن يرى بجارحة مخصوصة، بل تنعكس أبصار الخلائق في بصائرهم فيصير كلهم بصيرة فيرون الكل بالكل من غير حصر ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل، فلا يرون حال الرؤية غيره لاستحالة ثبوت الحادث مع تجلي القديم، فيزيل عنهم الحجاب حالة المشاهدة ثم يضربه عليهم حالة الغيبة، لأن الله تعالى منزه عن أن يحجبه بشيء لأنه المحيط بكل شيء.

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري": كتاب: الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، رقم:3010، (60/4).

2 محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سَيِّد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح،: مؤرخ، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، له شعر رقيق، أصله من إشبيلية، مولده ووفاته في القاهرة، من تصانيفه (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير – ط) جزآن ومختصره (نور العيون – ط) و (بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب – ط)، (ت734 هـ/ 1334م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (34/7).

3 لم أقف عليه.

يروى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه قال: من أنت ؟، فإني أسمع الكلام لا من جهة ولا من جهة ولا من جارحة ولا بحرف ولا صوت، فقال: أنا أمامك وخلفك وعن يمينك وعن شمالك وفوقك وأقرب منك إليك، فعلم موسى أنه ربه تعالى، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾[1]، فلما ذهب عن موسى الروع قال له: يا موسى ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[2].

قال ابن عباس: " لولا أن الله تعالى أيد موسى بروح من عنده وقوة ربانية لما استطاع سماع كلام الله، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام لولا أن الله تعالى أيده بروح منه لما استطاع سماع الكلام ولا الرؤية، وإنما قاما بهذين الأمرين العظيمين لأنه سبحانه تجلى عليهما بتجلي الرحمة، ولو أنه تعالى تجلى عليهما بتجلي العظمة لذابا، فصار عدما محضا، أما ترى أنه تعالى لما تجلى على الجبل بعظمته جعله دكا فهو يسبح في الأرض إلى يوم القيامة "[3].

ولما تجلى سبحانه بعظمته على الصخرة التي هي من أصل الأكوان انماعت فصار بعضها ماءً وبعضها نارا وبعضها نورا وبعضها ريحا وبعضها ظلمة، فمن هذه العناصر الخمسة خلق الله تعالى جميع خلقه، فخلق من الماء كل شيء حي، وخلق من النور الملائكة والعرش والكرسي واللوح والقلم وأرواح المؤمنين، وخلق من النار الجن والشياطين، وخلق من الريح الطير، وخلق من الظلمة الوحش وأرواح الكفرة.

---

[1] طه: 17-18.

[2] طه: 14-15.

[3] لم أقف عليه.

ثم إن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الدالة على صدقهم التي هي في قوة صدق عبدي في كل ما يبلغه عني لكن بشرط أن تكون المعجزة موافقة لدعوى الرسل، فلو ادعى إنسان أنه رسول الله فقال إن هذه الشجرة تشهد لي فتكلمت الشجرة فقالت إنه كاذب متقول على الله، فإن هذا الخارق يكون عليه لا له. فإن قيل: أن خوارق العادات قد تظهر على يد الساحر والمنجم، فما وجه الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء؟، فالجواب: أن المعجزة تظهر بلا تقدم سبب عليها ولا جالب بخلاف الخارق في حق الساحر والمنجم، فإنه في حقهما لا يظهر إلا بعد استعمال أعداد وأوفاق مع اعتبار الطوالع والأوقات ولا تحدي يصحبها، بل يكون في الزمان الواحد عدد من السحرة كل منهم يأتي من الخوارق بمثل ما يأتي به صاحبه.

وأما ما روي عن الدجال المدعي الربوبية من إحياء الموتى وغير ذلك من الخوارق فإنه لا يجدي لأن سمات الحدوث تكذبه لأنه يذهب ويجئ ويأكل ويشرب، ومكتوب بين عينيه كافر بالله يقرأها كل مؤمن، ومع ذلك ظهور العيب الكائن به، لأن عينه اليمنى عوراء طافية مثل الزبيبة الطافية.

وقال عليه الصلاة والسلام: « ما من نبي إلا وقد أنذر قومه من الدجال وحذرهم من فتنته، وإني أخبركم من أمره بشيء لم يحدث به نبي قومه أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: « من أنجاه الله من ثلاث: موتي وقتل خليفة محتسب ومن فتنة الدجال فقد نجا»[2].

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري، كتاب : الفتن، باب ذكر الدجال، رقم: 7127، (60/9).

[2] لم أقف عليه.

وكرامة الأولياء دلائل على معجزات الأنبياء، فكل كرامة ظهرت على يدي ولي فإنها دلالة على صدق نبيه المتشبث بأذياله، وعلامة أيضا على صدق اقتدائه وتعلقه بنبيه المبعوث إليه.

قال عليه الصلاة والسلام: « ما من رسول إلا وقد أوتي ما آمن الخلق على مثله، وإنما أوتيت وحيا يوحى ولا يبيد ولا ينقطع ما بقيت الدنيا وهو كتاب الله تعالى لا يخلوا على كثرة الرد، ولا تزيغ به الأهواء ولا يشتبه مع قول البشر وكثرة تردده وقراءته لا تزيد قارئه إلا انكبابا عليه، لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ غرائبه ولا يحاط بعلومه، له بطونا ولكل بطن بطون، لا تزالون بخير ما تمسكتم به، إقرأوا إن شئتم قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[1]، وهو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض من تمسك به عصم، ومن عمل به سلم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [2]، فحبل الله هو القرآن العظيم [لا تزالون] [3] بخير ما أخذتم به وتمسكتم بغرزه»[4]، أخرجه الطبراني في الكبير بسند رجاله رجال الصحيح.

ومن الواجب اعتقاده كونه ﷺ رسولا لجميع الناس لا إلى العرب فقط، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[5].

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما

---

[1] الأعراف: 170.

[2] آل عمران: 103.

[3] في (ب): لا تزالوا .

[4] لم أقف عليه.

[5] سبأ: 28.

رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وهذا الحديث صريح بفضل النبي ﷺعلى جميع الرسل بل وعلى الملائكة لاختصاصه بهذه الدرجات التي لا تواری دون سائر الأنبياء، وأن هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء، وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لسائر الخلق الإنس والجن، وهذه الآية يفسرها قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [2]، ولا خفاء أن العالم يطلق على ما سوى الله تعالى من الجن والإنس والملائكة. وإسراؤه ليلة الإسراء في معنى رسالته إلى الملائكة ليعلمهم آداب العبادات وليصل بالملأ الأعلى في المحل الأجل بإذن العلي الأعلى فهذه أيضا مما خص به دون سائر الأنبياء، وصلاته بأرواح الأنبياء أو مع أجسادها دليل على أنه الخليفة منهم والمقيم [أود أممهم][3] والساد لألمة فقدهم وعوز أديانهم لتبديل أممهم لها وتغييرهم للكتب التي أنزلت عليهم وتبديلهم لأحكامها حتى جعلوا لله ولدا زيفا وإلحادا، فأرسله الله تعالى إلى عامة خلقه أحوج ما كانوا إلى رسالته فقام بأمرهم أحسن قيام فلم يترك ملكا من ملوك الأرض ولا جبارا من جبابرتها إلا دعاه إلى الله إما بكتاب يرسله أو كتيبة يبعثها، حتى رد الله الخلق إلى العلم بالله بعد الجهالة والهداية بعد الضلالة والمعرفة بعد النكرة، فهو أحمد الخلق لربه والمحمد عند جميع خلقه، فمحى الكفر بعد تفحله، وأثبت الإسلام بعد تمحله، فمن أنكر بعثته إلى جميع الخلق فقد كفر وضل ضلالا بعيدا لتكذيبه نصوص القرآن المتظاهرة والأحاديث الصحيحة المتواترة.

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري": كتاب التيمم، باب: إذا لم يجد ماء ولا ترابا، رقم:335، (74/1).

[2] الفرقان: 1.

[3] في (ب) : لأورادهم بعد.

وكما يجب اعتقاد كونه شفيعا لجميع الناس في الموقف ولأمته خاصة بعد دخول الأشقياء منهم النار، وهي معنى إسمه "محمد" لأنه يحمد في الدنيا بعموم الرسالة وفشو الهداية وفي عرصات القيامة بعموم الشفاعة لجميع الخليقة إنسها وجنها بعدما عرضت على جميع الأنبياء بمشهد الملأ الأعلى، فكلهم يأباها لعلمهم أنها ليست لهم وكلهم يعتل بعلة حتى أفضت إليه عليه الصلاة والسلام فقال: « أنا لها، فذهب من حينه حتى سجد تحت ساق العرش فحمد الله تعالى بمحامد فتحها عليه لم يفتحها على أحد قبله، ولا على أحد بعده، فقال الباري جل وعز: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع»[1]، فرجع عليه الصلاة والسلام إلى الجمع وقد استقبلهم بعموم النفع ودرجات الرفع.

واعلم أن الشفاعة شفاعتان : شفاعة كبرى وشفاعة صغرى.

فالكبرى مختصة بنبينا ﷺ لا يشاركه فيها غيره من الأنبياء ولا الملائكة.

وأما الصغرى فإنه يشاركه فيها جميع الخواص، فيشفع هو عليه الصلاة والسلام أولا، ثم أولي العزم من الرسل، ثم سائر الرسل، ثم النبيئون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم خواص المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾[2].

قال عليه الصلاة والسلام: « إن أهل البيت ليتتابعون في الجنة حتى لا يبقى منهم حر ولا عبد ولا أمة إلا دخل الجنة، وإن أهل البيت ليتتابعون في النار حتى ما يبقى منهم حر ولا عبد ولا أمة إلا دخل النار»[3].

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "إنا أرسلنا نوحا إلى قومه"، رقم: 3340، (134/4).

[2] الطور: 21.

[3] ا"المعجم الكبير" للطبراني، باب: أبي جحيفة، رقم:339، (130/22)، قال الهيثمي: لم أعرف كبيرا وبقية رجاله ثقات.

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن الله يبعث الشفعاء إلى النار فيشفعون حتى تنتهي الشفاعة، فيرجعون إلى الله تعالى بمن شفعوا فيهم ويقولون: ما تركنا إلا من حبسه القرآن، فيقول ارجعوا فاشفعوا فيمن في قلبه مثقال حبة من شعير من خير، وفي رواية "من إيمان"، فيرجعون فيشفعون ثم يأتون بمن شفعوا فيهم، فيقول لهم: أشفعتم؟ فيقولون نعم، فيقول لهم ارجعوا فاشفعوا فيمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من بر من إيمان فيشفعون، ثم يرجعون إلى الله تعالى فيقول لهم: شفعتم؟ فيقولون: نعم ما تركنا في النار من فيه، فيقول لهم وهو أعلم: فاشفعوا فيمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير، فيرجعون فيشفعون فيأتون بمن شفعوا فيهم إلى الله تعالى، فيقول لهم تعالى: أشفعتم ؟، فيقولون: شفعنا وما تركنا فيها من فيه خير، فيقول سبحانه للملائكة: اذهبوا فاشفعوا فيمن وجدتم فيمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيذهبون فيشفعون حتى إذا لم يتركوا فيها من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيرجعون بهم إلى الله، فيقول: أشفعتم يا ملائكتي؟، فيقولون: قد شفعنا وما تركنا فيها من فيه خير، فيقول لهم تبارك وتعالى عند ذلك شفع الأنبياء وشفع الصديقون وشفع الشهداء وشفع الصالحون وشفع المؤمنون، وشفع الملائكة المقربون، فلم تبق إلا شفاعة أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار هي أكثر من جميع ما شفع فيه الشافعون، فمن لم يعمل خيرا قط وهم ضعف ما شفع فيه الشافعون، فيلقيهم في نهر الحياة فيجري عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، حتى إذا نبتت أجسادهم، وتم خلقهم ونضرت ألوانهم جعل سبحانه في رقابهم قلائد من نور فيقال هؤلاء عتقاء من الرحمان قوم لم يعملوا خيرا قط فيأمر بهم فيدخلون الجنة فيخيل إليهم أن الجنة قد مليت، فيقولون أي ربنا إن الجنة قد مليت بأهلها، فيقول لهم تمنوا علي فلكم ما تمنيتم فيتمنون حتى إذا انتهت بهم الأماني فيقول لهم لكم ذلك ومثله معه»[1].

[1] ح ص، ورد بألفاظ مختلفة، انظر: "صحيح البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى:"وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، رقم:7439، (129/9)، و "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، رقم: 183، (167/1).

وفي رواية أبي هريرة: « وعشرة أمثاله »[1]، فيدخلون عند ذلك الجنة خالدين مخلدين فهؤلاء كلهم مؤمنون.

فهو دليل على كثرة هذه الأمة وأن المؤمنين أكثر مما يحده المتكلمون وفضل الله تعالى أوسع من تضييقاتهم كما هو مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم ومنهاجهم الفسيح الواسع.

وأما الكفار فإن الشفاعة لا تنالهم كما في قوله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[2].

يروى أن المؤمن يشفع في الموقف بإذن الله حتى يمر بالرجل من أهل الذنوب فيقول له: أو ما تعرفني يا فلان؟، فيقول: لا، من أنت ؟، فيقول له: أنا الرجل الذي يؤتيك الماء لتتوضأ به لصلاتك على شاطئ النهر، فيقول له: أنت ذلك، فيشفع له.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺأنه قال: « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، قالوا: من هم يا رسول الله؟، قال: هم الذين لايرقون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»[3].

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى:" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، رقم:7438، (129/9).

[2] المدثر: 42 إلى 48 .

[3] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه، رقم: 6472، (100/8).

وليس المراد أنهم لا يرقون ولا يسترقون، بل المراد أنهم لا يعتمدون على الرقى، بل اعتمادهم في جميع الأسباب على الله تعالى فكان الصحابة استقلوا السبعين ألفا، فقال: «استزدت الله فزادني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا»[1].

ثم بين الله تعالى هذه الأمة بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾[2]، يعني من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾[3]، يعني من مؤمني هذه الأمة، كما يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رؤيم أنه قال: " لما أنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾[4]، فدعا رسول الله ﷺ من آدم إلينا ثلة ومني إلى يوم القيامة ثلة، ولا يستتمها الأسودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله"[5].

ومن حديث ابن عباس رض الله عنهما أنه قال: قال رسول اللهﷺ: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب »، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب، فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «مالذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال لهم: « الذين لا يرقون ولا يسترقون وعلى ربهم

---

[1] وجدته بألفاظ أخرى، انظر: "مسند أحمد بن حنبل" ، باب مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم: 22، (203/1)، و "سلسلة الأحاديث الصحيحة" للألباني، رقم 1484، (473/3)، وقال الألباني: ح ص.

[2] الواقعة: 39.

[3] الواقعة: 40.

[4] الواقعة: 39- 40.

[5] بلفظ آخر، انظر: "تاريخ دمشق"، باب: عروة بن رويم، رقم: 8102، (229/40)، وقال ابن كثير: في إسناده نظر، انظر: "تفسير بن كثير"، (518/7).

يتوكلون»، فقام عكاشة بن محص فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، وقال: ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: « سبقك بها عكاشة الرهيط »[1]، تصغير رهط وهم دون العشرة، وقيل إلى الأربعين.

ومن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحوا من أربعين، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟»، قلنا: نعم، قال: « أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ » قلنا: نعم، قال: « والذي نفسي محمد هذه إني لأرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وكالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»[2].

ومن حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صنف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»[3]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم: 220، (199/1).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، رقم: 221، (200/1).

[3] ح س، "سنن الترمذي"، أبواب صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة أهل الجنة، رقم:2546، (264/4).

وذهبت جماعة إلى أن الثلثين جميعا من هذه الأمة وهو قول أبي العالية [1] ومجاهد[2] وعطاء بن أبي رباح[3] والضحاك[4] وقالوا ثلة من الأولين من سابقي هذه الأمة وثلة من الآخرين من آخر هذه الأمة أيضا في آخر الزمان كما يدل على ذلك ما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾[5]، قال رسول الله ﷺ: «هما جميعا من أمتي»[6].

---

[1] أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري: الإمام والحافظ والمفسر، أبو العالية الرياحي، البصري، أحد الأعلام، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع، ثم من بني تميم، أدرك زمان النبي ﷺوهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه، وسمع من: عمر، وعلي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وأبي موسى، وأبي أيوب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعدة، وحفظ القرآن، وقرأه على أبي بن كعب، وتصدر لإفادة العلم، وبعد صيته، (ت 90 هـ /709م)، انظر: "سير أعلام النبلاء"، باب: أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، (207/4).

[2] مجاهد بن جبر: أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ وتنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها: ذهب إلى " بئر برهوت " بحضرموت، وذهب إلى " بابل " يبحث عن هاروت وماروت، أما كتابه في " التفسير " فيتقيه المفسرون، وسئل الأعمش عن ذلك، فقال: كانوا يرون أنه يَسأل أهل الكتاب، يعني النصارى واليهود، ويقال: أنه مات وهو ساجد، (ت104 هـ / 722 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: مجاهد، (278/5)، و"سير أعلام النبلاء"، باب: مجاهد بن جبر، (449/4).

[3] عطاء بن أبي رباح أسلم القرشي مولاهم: الإمام، شيخ الإسلام، مفتي الحرم، حدث عن: عائشة، وأم سلمة، وأم هانئ، وأبي هريرة، وابن عباس، وحكيم بن حزام، ورافع بن خديج، وزيد بن أرقم، وزيد بن خالد الجهني، وصفوان بن أمية، وابن الزبير، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، وجابر، ومعاوية، وأبي سعيد، وعدة من الصحابة، (ت114هـ/732 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء"، باب: عطاء بن أبي رباح، (78/5).

[4] الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني: الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسر، كان يؤدب الأطفال، ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، قال الذهبي: كان يطوف عليهم، على حمار! وذكره ابن حبيب تحت عنوان (أشراف المعلمين وفقهاؤهم) ، له كتاب في (التفسير) توفي بخراسان، (ت105 هـ / 723 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ضرار بن الخطاب، (215/3)، و"سير أعلام النبلاء"، باب: الضحاك بن مزاحم الهلالي، (598/4).

[5] الواقعة: 39.

[6] انظر: "تفسير البغوي"، (16/5)، و"فتح القدير" للشوكاني، (187/5)، وقال السيوطي: إسناده ضعيف، انظر: "الدر المنثور" للسيوطي، (19/8).

وهذا القول هو الذي اختاره الزجاج [1] قال: "معنا جماعة ممن تبع رسول الله ﷺ وآمن به وعاينه، وجماعة ممن آمن به وكان بعد ولم يعاينه "[2].

فإن قيل كيف قال في الآية الأولى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[3]، وقال في هذه الآية: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، فالجواب أن الآية الأولى في السابقين الأولين وقليل ممن يلحق بهم من الآخرين، وهذه الآية في أصحاب اليمين وهم كثيرون من الأولين والآخرين.

وحكي عن بعضهم أن الآية الأخيرة ناسخة للأولى واستدل بحديث عروة بن رويم، وقال المحققون القول بالنسخ لايصح.

ومن حديث أبي ذر أن النبي ﷺقال: « من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة» ، قلت: وإن زنى وسرق ؟، قال: « وإن زنى وسرق»، قلت: وإن زنى وسرق؟، قال: «وإن زنى وإن سرق رغما على أنف أبي ذر»[4] أخرجه الطبراني وغيره.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه»[5] أخرجه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه.

---

[1] إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة، ولد ومات في بغداد، من كتبه (معاني القرآن – خ) و(الاشتقاق) و(خلق الإنسان – ط) و(الأمالي) في الأدب واللغة، و(فعلت وأفعلت – ط) ، (ت311 هـ / 923 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الزجاج، (40/1).

[2] انظر: "تفسير البغوي" ، (6/5).

[3] الواقعة: 14.

[4] ح ص، ورد في الصحيحين بألفاظ قريبة من رواية المؤلف، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض، رقم:5827، (149/7)، و"صحيح مسلم": كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئا، رقم: 94، (94/1).

[5] ح ص، ورد بألفاظ مختلفة، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث، رقم:99، (31/1)، و"السنن الكبرى" للنسائي، كتاب: العلم، باب: الحرص على العلم، رقم: 5811، (359/5).

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: « إن الله تعالى جعل لكل نبي دعوة مستجابة وكلهم قد قدم دعوته، وأنا ادخرت دعوتي ليوم القيامة فجعلتها شفاعة للمساكين من أمتي، فأرجوا أن تكون أمتي بذلك أكثر الأمم وأكون أكثر الأنبياء تبعا »[1]، أخرجه النسائي وفي مسند أحمد مثله.

ومن الواجب اعتقاده كون النبي ﷺأفضل جميع الأنبياء والرسل، بل ومن جميع الملأ الأعلى، أما تفضيله على الأنبياء فبدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[2]، وهو محمد ﷺ كما في رواية ابن عباس والسدي والضحاك وغيرهم رفع الله منصبه ومرتبته على كافة الأنبياء بسبب ما فضله به عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فما أوتي نبي من الأنبياء آية أومعجزة إلا أوتي نبينا محمد ﷺ على غيره من الأنبياء بآيات و معجزات أخرى مثل انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع إليه عند مفارقته، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم له شاهدة له بالرسالة، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من الآيات التي لاتحصى كثرة وأعظمها وأظهرها القرآن العظيم الذي أعجز أهل الأرض عن معارضته والإتيان بمثله، فهو معجزة باقية إلى يوم القيامة [3].

ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « فضلت الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق، وختمت بي النبوة»[4].

---

[1] ح ص، ورد بألفاظ قريبة منه، انظر: "صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة، رقم: 6304، (67/8)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أبو هريرة، رقم: 7714، (141/13).

[2] البقرة: 253.

[3] انظر: "تفسير الخازن"، (187/1).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، باب: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم: 523، (371/1).

فإن قيل لم ذكر هذه الأشياء على سبيل الرمز والإشارة ولم يصرح بإسمهﷺ، فالجواب أن في الإبهام والرمز من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من المشاهدة بأنها العلم الذي لا يشتبه بغيره ولا يتلبس بما سواه، وهو كما يقول الرجل وقد فعل شيئا فعله بعضكم أو أحدكم ويريد نفسه فيكون أفخم والتصريح به كما ذكر عن الحيطة أنه سئل عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال لو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه.

ومن دلائل تفضيله على جميع الأنبياء أيضا أنه عدهم نسقا، ثم قال بعد ذلك: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[1]، إشارة إلى النبي ﷺ فأراد أن يقتدى بهم في أمر الدين الذي أجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الأسماء والصفات والأفعال، وأن يقتدى بهم في جميع الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم، وأن يقتدى بشرائعهم إلا ما خصه دليل آخر. وفي هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينزل الله تعالى ناسخا للشرع المتقدم، واحتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم [الصلاة و] [2] السلام وبيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم، فكان نوح عليه السلام صاحب احتمال لأذى قومه، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله عز وجل، وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلايا والمحن، وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة قال الله تعالى فيهما: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾[3]، وكان أيوب صاحب صبر على البلايا قال الله تعالى في شأنه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾[4]، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد، وكان

---

[1] الأنعام: 90.

[2] ساقط من (أ).

[3] سبأ: 13.

[4] ص: 44.

إسماعيل صاحب صدق ووفاء، وكان يونس صاحب تضرع وإخبات. ثم إن الله تعالى أمر نبيه محمد ﷺ أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المجموعة والمفترقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه ﷺ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت مفترقة في جميعهم.

ولما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هديهم ترك طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم فقال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، يعني أن القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والإنس، وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثا [إلى جميع الخلائق والدعوة وأن دعوته عامة لجميع الخلائق.

ولما فرغت من بيان وجوب اعتقاد أفضليته على جميع الخلائق وجواز تقديم الأنبياء بعضهم على بعض، شرعت أبين بيان جواز تفضيل القرآن بعضه على بعض، ووجوب اعتقاد فضله على جميع الكتب المنزلة قبله، ولو كان لا يصح إيمان مؤمن دون اعتقاد صحة جميعها مالم تبدل أو تغير فيجب حينئذ علينا أن لا نصدق أهل الكتابين فيما نقلوا علينا من كتابيهما مخافة أن يكون مما نزل على أنبيائهم مما لم يبدلوه ولم يغيروه، فنكون قد كذبنا بالحق المنزل من عند الله على أنبيائه فيجب إعراضنا عنهم من غير تكذيب ولا تصديق، لأن الله تعالى أغنانا عن كتبهم بكتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد اشتمل على علوم الأولين والآخرين و[كما] [2] قال عليه الصلاة والسلام : « تمسكوا بكتاب الله فإن فيه علم من قبلكم وعلم من يأتي بعدكم وحكم ما بينكم»[3].

---

[1] الأنعام: 90.

[2] ساقط من (ب).

[3] بلفظ آخر، "سنن الترمذي"، أبواب: فضائل القرآن، باب: في فضل القرآن،رقم: 2906،(22/5)، قال الترمذي ح غ.

وعن أبي هريرة رضي أن رسول الله ﷺ قال: « لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي»[1].

قوله لكل شيء سنام، كل شيء أعلاه تشبيها بسنام البعير والمراد منه تعظيم هذه السورة، والسيد الفاضل الشريف والكريم وأصله من ساد يسود ومنه قوله: هي سيدة أي القرآن.

وفي صحيح مسلم عن أبي بن كعب أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا أبا المنذر أنذرني أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟»، قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[2]، فضرب في صدري وقال: « ليهنك العلم أبا المنذر»[3].

وعن وائلة بن الأسقع أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ "[4] أخرجه أبو داود.

وقال العلماء إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم آية في القرآن لما جمعت [من] [5] أصول الأسماء والصفات من الألوهية والوحدانية والحياة والعلم والقيومية والملك والقدرة والإرادة فهذه أصول الأسماء والصفات، وذلك لأن الله تعالى أعظم مذكور، فما كان من ذكر إله من توحيد وتعظيم كان أعظم الأذكار، وهذا الحديث حجة لمن يقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيله على سائر كتب الله المنزلة.

---

[1] "المعجم الكبير" للطبراني، باب: مناقب ابن مسعود، رقم:8644، (129/9)، وسنن الترمذي، أبواب: فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة، رقم:2878، (7/5)، هذا الحديث ضعفه الألباني، وقال الترمذي ح غ.

[2] البقرة: 255.

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم: 810، (556/1).

[4] "سنن أبي داود"، كتاب: الحروف والقراءات، رقم 4003، (37/4)، قال أبو داود: سكت عنه، وقال الألباني: ح ص.

[5] ساقط من (ب).

ومنع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض أبو الحسن الأشعري[1] وأبو بكر الباقلاني[2] قائلان بأن تفضيل بعضه على بعض نقص للمفضول والسور، وليس في كلام الله عزوجل نقص، وتأول هؤلاء ما ورد من إطلاق لفظ أعظم وأفضل في بعض الآيات بمعنى عظيم وفاضل، ومن أجاز تفضيل بعض القرآن من العلماء والمتكلمين فإنهم يقولون هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارئ وجزيل ثوابه، وقوله إن هذه الآية وهذه السورة أعظم وأفضل بمعنى الثواب المتعلق بها أكثر وهذا هو المختار وهو معنى الحديث والله أعلم[3].

وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[4] حفظ يومه ذلك حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ ليلته تلك حتى يصبح»[5]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

فقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[6]، نفي إلهية كل إله سواه وأثبت الإلهية له سبحانه وتعالى فهو كقولك "لا كريم إلا زيد" فإنه أبلغ من قولك "زيد كريم"، يعني الباقي على الأبد الدائم بلا زوال. و﴿ٱلۡحَيُّ﴾ في صفة الله هو الذي لم يزل موجودا، والحياة موصوفا لم تحدث

---

[1] علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، وتوفي ببغداد، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمئة كتاب، منها " إمامة الصدّيق " و" الرد على المجسمة"، (ت324 هـ / 936 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي: باب ابن سيده، (263/4).

[2] محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر: قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت اليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجّهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه (إعجاز القرآن – ط)، (ت 403 هـ / 1013 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القاضي الباقلاني، (176/6).

[3] انظر: "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" للنووي، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (93/6).

[4] الأحقاف: 1-2.

[5] ورد بلفظ قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، رقم: 2879، (7/5)، قال الترمذي: ح س غريب.

[6] البقرة: 255.

له الحياة بعد موت ولا يعترضه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواه يعتريهم الموت والعدم فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى. و﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ القائم على كل شيء الغني عن سواه الذي استغنى بشيء على شيء، القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه فهو القائم الدائم بلا زوال، الموجود الذي يمتنع عليه التغير القائم على كل نفس بما كسبت. ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ فالسِّنة ما يتقدم من النوم، والفتور فيسمى نعاسا وهو النوم الخفيف، والوسنان بين النائم واليقظان، والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة، وقيل السنة في الرأس والنعاس في العينين والنوم في القلب، فالسِّنة أول النوم، والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب فتمنع المعرفة بالأشياء، والمعنى لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه النوم، لأن النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم وذلك نقص وآفة، والله تعالى منزه عن النقص والآفات ولأن ذلك تغيير والله تعالى منزه عن التغيير.

ففي حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور وفي رواية «النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]، أخرجه مسلم في صحيحه.

شرح ما يتعلق بلفظ الحديث فنقول من"شرح مسلم" للشيخ محيي الدين النووي[2] فقوله ﷺ: "[إن الله][3] لا ينام ولا ينبغي أن ينام، بمعناه الإخبار أنه سبحانه وتعالى لا ينام وأنه مستحيل في

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، رقم:179، (161/1).

[2] يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعيّ، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) واليها نسبته، تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا، من كتبه " تهذيب الأسماء واللغات – ط " و " منهاج الطالبين – ط " و " الدقائق – ط "، (ت 676 هـ / 1277 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: النووي، (149/8).

[3] ساقط من (ب).

حقه، لأن النوم انغمار وغلبة على القلب يسقط به الإحساس والله [سبحانه] [1] منزه عن ذلك، وقوله: يخفض القسط ويرفعه أراد بالقسط الميزان الذي يقع به العدل، معناه أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن فيه من أعمال العباد المرتفعة، وقيل أراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق، ومعنى يخفض يقبض ويضيق على من يشاء، ويرفعه أي يوسعه على من يشاء، وقوله: يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار يعني الحفظة من الملائكة يصعدون بأعمال العباد في الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل، قوله: حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، سبحات بضم السين المهملة والباء الموحدة وبضم التاء في آخره جمع سبحة، ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه، والحجاب أصله في اللغة المنع وحقيقته الحجاب، إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالى منزه عن الجسم والحد، فالمراد به هنا الشيء المانع نورا أو نارا لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة، والمراد بالوجه الذات، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات، ولفظة من "خلقه " لبيان الجنس لا للتبعيض، ومعنى الحديث لو زال المانع وهو الحجاب المسمى نورا أو نارا وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته[2].

وروى الطبراني بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[3] أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله تعالى، فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يراقبوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما بيديه ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما، فجعل

---

[1] ساقط من (أ).

[2] انظر: "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" للنووي، (13/3).

[3] البقرة: 255.

ينعس وهما بيده فجعل ينعس وينتبه حتى نعس نعسة ثقيلة فضرب إحداهما بالأخرى فانكسرتا"[1].

قال مَعْمَرْ [2]: " إنما هو مثل ضربة الله تعالى له يقول فكذلك السماوات والأرض فلو نمت لوقع بعضها على بعض"[3].

ورواه عن أبي هريرة مرفوعا قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر قال: « وقع في نفس موسى هل ينام الله»[4].

وذكر نحو حديث ابن عباس قال: قال بعض العلماء إن صح هذا الحديث فيحمل أن هذا السؤال كان من جهلة قوم موسى كطلب الرؤية من موسى، لأن الأنبياء عليهم السلام هم أعلم بالله من غيرهم، فلا يجوز أن ينسب إلى موسى مثل هذا السؤال والله أعلم.

﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والمعنى أن الله تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده في ملكه، فإن قيل: لم قال له ما في السموات ولم يقل من في السماوات؟، فالجواب: أنه لما كان المراد إضافة كل ما سواه إليه بالخلق والملك وكان الغالب فيهم من لا يعقل أجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ "ما ".

ثم قال: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وهذا استفهام إنكار والمعنى أنه لايشفع عنده أحد إلا بأمره وإرادته وذلك لأن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فأخبر أنه لا شفاعة

---

[1] "تفسير ابن كثير"، (678/1).

[2] معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي الحداني بالولاء، أبو عروة: فقيه، حافظ للحديث، متقن، ثقة، من أهل البصرة، ولد واشتهر فيها، وسكن اليمن وأراد العودة إلى بلده فكره أهل صنعاء أن يفارقهم، فقال لهم رجل: قيدوه، فزوجوه فأقام، وهو عند مؤرخي رجال الحديث: أول من صنف باليمن، (ت 153 هـ /770 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: معمر بن راشد، (272/7)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: معمر بن راشد، (5/7).

[3] "تفسير الطبري"، (533/4).

[4] انظر: "سلسلة الأحاديث الضعيفة" للألباني، رقم: 1034، (121/3)، وقال الألباني: ح ن.

لأحد عنده إلا ما استثناه بقوله إلا بإذنه يريد بذلك شفاعة النبي ﷺ وشفاعة بعض الأنبياء وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يريد ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة، وقيل على العكس لأنهم يقدمون على الآخرة ويخلفون الدنيا وراء ظهورهم وهو يعلم ما كان قبلهم وماكان بعدهم، ويعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر وما خلفهم من ما هم فاعلوه فيما بقي من أعمارهم، والمقصود من هذا أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات، لايخفى عليه شيء من جميع أحوال خلقه.

ثم بين سبحانه اختصاص العلم به فقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾[1]، يقال أحاط بالشيء إذا علمه، وهو أن يعلم وجوده وجنسه وقدره وحقيقته، فإذا علمه وقف عليه وجمعه في قلبه فيقال قد أحاط به، والمراد بالعلم المعلوم والمعنى أن أحدا لا يحيط بمعلومات الله تعالى إلا بما شاء أن يطلعهم عليه وهم الأنبياء والرسل ليكون ما يطلعهم عليه من علم غيبه دليلا على نبوتهم كما في قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[2].

وكلما صح أن يكون معجزة للأنبياء فإنه يصح أن يكون كرامة للأولياء إلا إحداث دين جديد مخالف لدين الرسول المبعوث إليه، قال الشاعر:

وَكُلَّمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ مُعْجِزَةً لِلْأَنْبِيَاءِ فَلِلْوَلِيِّ مَـنَاحِرُهُ[3]

وقد تواتر ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام، فهو بعده إلى يومنا هذا حتى صار العلم به ضروريا لا ينكره إلا معتزلي أو رافضي، لأنهم أبعدهم الله ينكرون أشياء كثيرة مما هو معلوم

---

[1] البقرة: 255.

[2] الجن: 26 – 27.

[3] مكسور الوزن، وقائله مجهول.

من الدين ضرورة كالشفاعة والولاية وعدالة أصحاب رسول الله ﷺورؤية البارئ جل وعلا، وخلق الجنة والنار، الآن ولهذا المعنى حكم مالك بن أنس رحمه الله بكفرهم وخروجهم عن الملة الإسلامية ومغالاتهم في عصمة الأنبياء إنما هي طلب لغرض من لأغراضهم الفاسدة وهو أن يتوصلوا بذلك إلى الطعن في عدالة الصحابة وأنه لا يجوز الاقتداء إلا بمعصوم فيتحيلوا بذلك لهدم الدين من قواعده، لأن أصحاب رسول الله ﷺرضوان الله عليهم هم الذين حملوا إلينا كتاب الله وسنة رسوله فإذا لم يكونوا أمناء عدولا ولا إسوة أئمة فقد انهدمت أركان الإسلام واضمحل وجوده، فيأبى الله إلا أن يظهر دينه ويخذل المبطلين على رغم أنوفهم، وقد بشر بذلك الصادق المصدوق فقال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله»[1].

ثم تَعَالَوْا بعد ذلك حتى نسبوهم إلى الظلم وإلى الكفر وجعلوا لعنهم دينا، وهم الخيار البررة الكرام السفرة، فهم الذين شيدوا أركان الدين وحصنوه من جميع جوانبه، ودوخوا أمم الكفر وأبادوهم حتى محى الله بسيوفهم ورماحهم الكفر من جميع الأقاليم، فيقاومون بالعدد اليسير الجنود الكثيرة المتظاهرة حتى سار الإسلام في جميع الآفاق سير الشمس والقمر.

وقد نص الله سبحانه على ضلالة الخوارج، فقال سبحانه: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]، وما أتباعه إلا أصحابه ومن تشبث بأذيالهم إلى يوم القيامة من التابعين وتابعي التابعين.

---

[1] ح ص، ورد بألفاظ مختلفة، انظر: "صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي، رقم:1920، (1523/3)، و "المعجم الكبير" للطبراني، رقم:906، باب: يونس بن ميسرة بن حلبس عن معاوية، (386/19).

[2] النساء: 115.

[3] يوسف: 108.

يروى أن ابن سيد الناس قال: " إن اليهود والنصارى خير عنده من الخوارج وأهل الأهواء، فإني سألت النصارى من خير أهل ملتكم ؟، فقالوا حواريو عيسى، وسألت اليهود فقلت لهم من خير أهل ملتكم فقالوا نقباء موسى؟، وسألت الخوارج وأهل الأهواء فقلت من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، فقلت: قبحكم الله أنتم شر مكانا وأضل عن سواء السبيل، فعلمت من يومئذ أنهم شر الخلق"[1].

﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾[2] يقال فلان يسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به، وأصل الكرسي في اللغة من تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض، والكرسي في العرف إسم لما يقصد إليه سمي به لتركب خشباته بعضها على بعض واختلفوا في المراد بالكرسي هنا إلى أربعة أقوال: أحدها أن الكرسي غير العرش وهو أمامه فوق السماوات السبع ودون العرش. قال السدي:" إن السماوات والأرض في جوف الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس، وقيل إن كل قائمة كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة"[3].

وعن ابن عباس أن السماوات السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس [4].

وقيل إن كل قائمة من قوائم الكرسي طولها مثل السماوات والأرض وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه، أقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى، أحدهم على صورة آدم عليه السلام وهو يسأل الرزق والمطر لبني آدم من السنة، الثاني على صورة ثور وهو يسأل الله الرزق للأنعام من السنة إلى السنة، الثالث على صورة سبع وهو يسأل الرزق للوحش من السنة إلى السنة، الرابع على صورة نسر وهو يسأل

---

[1] لم أقف عليه.

[2] البقرة: 255.

[3] "تفسير البغوي"، (348/1).

[4] "تفسير البغوي"، (348/1).

الرزق للطير من السنة إلى السنة، وفي بعض الآثار أن بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور، غلظ كل حجاب مسيرة جمس مائة عام، فلولا ذلك لاحترقت حملة الكرسي من أنوار حملة العرش[1].

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾، أي لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه.

﴿ حِفۡظُهُمَا﴾[2]، أي حفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب له أن يوصف به من معاني الجلال والكمال فهو العلي بالإطلاق، والمتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد، العلي بالملك والسلطان والقهر، الغالب الذي لا يُغلب، القاهر الذي لا يُقهر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قال علي بن أبي طالب: " معنى العلو في صفة الله تعالى إقداره وقهره، واستحقاق صفات المدح جميعها من كل وجه وهو العلي أن يحيط به وصف الواصفين"[3].

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء يدانيه في العظمة والكبرياء وعظمته منصرفة إلى عظمة الشان وجلال القدر دون العظم الذي هو من نعوت الأسماء.

---

[1] "تفسير البغوي"، (348/1).

[2] البقرة: 255.

[3] "تفسير الخازن"، (190/1).

وقد تقدم رسول الله ﷺ لأمته في أصحابه وحضهم على الاقتداء بهم والتمسك بهديهم، فقال: « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي، فلو أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا لم تبلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[1]، أخرجه الطبراني وغيره.

وفي رواية أخرى: « لا تسبوا أصحابي فإن من سب أصحابي فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله، ومن سب الله يوشك أن يأخذه »[2].

يروى أن رجلا أتى عائشة رضي الله عنها عند أول هيجان الفتن والابتداع فقال لها: يا أماه إن أناسا يتناولون من أصحاب رسول الله ﷺ حتى جعلوا يسبون الشيخين أبا بكر وعمر، فقالت لهم: أتعجبون من ذلك؟ أولئك أقوام طويت صحائفهم فأراد الله أن يجعل فيها من صحائف غيرهم، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لن تقوم الساعة حتى يسب آخر هذه الأمة أولها أولئك كلاب النار »[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: « أبى الله أن يقبل عملا صالحا من صاحب بدعة»[4].

وهذا دليل على أنهم ليسوا من المسلمين لأن أعمال المسلمين تقبل ولو فعلوا ما فعلوا ويؤيد ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾[5] ، يعني ولا تكونوا يا معشر المؤمنين، كالذين تفرقوا يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد.

---

[1] بألفاظ أخرى، سنن ابن ماجة، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل أهل بدر، رقم:161، (57/1)، و"مسند ابن حنبل"، باب: مسند أبي سعيد الخدري، رقم: 11516، (80/18)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[2] ورد بلفظ مختلف، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: المناقب، باب: فيمن سب أصحاب النبي ﷺ، رقم:3862، (179/6)، قال الترمذي: ح غ، وقال الألباني: ح ض.

[3] ورد بلفظ آخر، انظر: "الإبانة الكبرى" لابن بطة، (180/1).

[4] وجدته بلفظ آخر، انظر: "سنن ابن ماجة"، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: اجتناب البدع والجدل، رقم:50، (19/1)، وقال الألباني: ح ض.

[5] آل عمران: 105.

قال الربيع [1]: " نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب "[2].

قال ابن عباس: " أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في الدين"[3].

قال السدي: " المراد بهؤلاء المبتدعة من هذه الأمة"[4].

وقال أبو أمامة [5]:"هم الحرورية"[6].

قال عبد الله بن شداد [7]: " وقف أبو أمامة وأنا معه على رؤوس الحرورية على درج جامع دمشق، فذرفت عيناه ثم قال: كلاب أهل النار كانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم هم شر قتيل تحت أديم السماء وخير قتيل تحت أديم السماء من قتلوه قلت: فما شأنك ذرفت عيناك؟، قال

---

[1] الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثوري، ولد زمن النبي ﷺ أحد الأعلام أدرك زمن النبي ﷺ وأرسل عنه، وروى عن عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم، (ت65 هـ / 685 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء"، باب: الربيع بن خثيم، (258/4).

[2] "تفسير الخازن"، (282/1).

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

[5] صدي بن عجلان بن عمرو أبو أمامة الباهلي: له صحبة ورواية، وروى أيضا عن عمر وأبي عبيدة وأبي الدرداء ومعاذ وأرسله رسول الله ﷺ إلى قومه فأسلموا وسكن حمص وروى عنه خالد بن معدان وأبو إدريس الخولاني ورجاء بن حيوة وغيرهم، (ت86 هـ / 705 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: أبو أمامة الباهلي، (359/3)، و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: الألقاب، (177/16).

[6] "تفسير الخازن"، (282/1).

[7] أبو الوليد عبد اللّه بن شداد بن أُسامة وقيل عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي المدني الكوفي: ولد زمن النبي ﷺ، وأمه هي سلمى أخت أسماء بنت عميس، وكانت سلمى تحت حمزة بن عبد المطلب فلما استشهد تزوجها شداد فولدت له عبد الله في زمن النبيﷺ، حدث عن: أبيه، ومعاذ بن جبل، وعلي، وابن مسعود، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة، وأم سلمة وجماعة، (ت 82هـ / 702 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء"، باب: عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، (488/3).

رحمة لهم كانوا من أهل الإسلام فكفروا بعد إيمانهم، ثم أخذ بيدي وقال: إن بأرضي منهم كثيرا"[1].

وفي رواية ثم قرأ بعد قوله: " فكفروا بعد إيمانهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ إلى قوله ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[2] "[3].

ورواه الترمذي عن أبي غالب[4] أنه قال: "رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتيل تحت أديم السماء وخير قتيل من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[5] إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: آنت سمعت من رسول الله ﷺ ؟، قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، حتى عد سبعا ما حدثتكموه".[6]

ثم أخبر سبحانه بحالهم السابق وبرجوعهم إلى الكفر بعد الإسلام، فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[7]، يريد الحجج الواضحات فعَلِموها ثم خالفوها.

ثم بين حالهم في العقبى فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف.

---

[1] "تفسير الخازن"، (282/1).

[2] آل عمران: 105 – 106.

[3] "تفسير الخازن، (282/1).

[4] أبو غالب أحمد بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء البغدادي، الحنبلي: مسند بغداد، سمع: أبا محمد الجوهري، وتفرد عنه بأجزاء عالية، وأبا الحسين بن حسنون النرسي، والقاضي أبا يعلى بن الفراء، وأبا الغنائم بن المأمون، وأبا الحسين بن الغريق، ووالده أبا علي، وعدة، وله (مشيخة) بانتقاء الحافظ ابن عساكر، (ت 527 هـ/1132م)، انظر: "سير أعلام النبلاء"، باب: أبو غالب بن البناء، (603/19).

[5] آل عمران: 106.

[6] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، رقم: 3000، (76/5)، وقال الترمذي: ح س.

[7] آل عمران: 105.

ومن حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»،[1] أخرجه أبو داود.

أراد بربقة الإسلام عقد الإسلام وأصوله، لأن الربق حبل فيه عدة عرى تشد به الغنم الواحدة من العرى ربقة.

وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: « من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الإثنين أبعد»[2]، وبحبوحة الجنة وسطها.

ثم بين سبحانه صفة أهل البدع يوم القيامة فقال:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[3]، أن اذكروا يوما تبيض فيه وجوه المؤمنين وتسود فيه وجوه الكافرين. قال ابن عباس:"تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين"[4].

وفي بياض الوجوه وسوادها قولان:

أحدهما: أن البياض كناية عن الفرح والسرور، والسواد [عبارة] [5]عن الغم والحزن، فهذا الغم والحزن فهذا مجاز مستعمل، يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه: ابيض وجهه، يريدون من السرور والفرح، ولمن نال مكروه: اسودّ وجهه واربدّ لونه من الحزن والغم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾[1] يريد من الحزن، فعلى هذا يكون بياض الوجوه

---

[1] "سنن أبو داود"،كتاب: السنة، باب:في قتل الخوارج،رقم:4758،(241/4)،قال أبو داود:سكت عنه،وقال الألباني:ح ص.

[2] "تفسير البغوي"، (489/1)، وبلفظ آخر: "سنن الترمذي"، أبواب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، رقم: 2165، (35/4)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

[3] آل عمران: 106.

[4] "تفسير الخازن"، (282/1).

[5] في (ب): كناية.

[1] النحل: 58.

إشراقها وسرورها واستبشارها بعملها، وذلك أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة على ما قدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فإذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون وإشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله، وأما الكافر والظالم فإنهما إذا وردا يوم القيامة على ما قدما من قبيح عمل وسيئات حزنا واغتمّا لعلمهما بعذاب الله فإذا كان كذلك وسم وجه كل واحد منهما بسواد اللون وكُمودته واسودّت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب، نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة.

والقول الثاني: بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه، فيَبْيَضّ وجه المؤمن ويكسى نورا، ويسود وجه الكافر، عرفوا أنه من أهل الشقاء. ثم بين سبحانه السبب الذي اسودت منه وجوههم فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[1]، أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتقريع. فإن قيل: كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين، فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟، فالجواب: أن علماء السلف قد اختلفوا في ذلك.

وروي عن أبي بن كعب أنه قال لما أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال :﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾[1]، فآمن الكل، فكل من كفر في الدنيا فقد كفر بعد الإيمان والصحيح أنهم الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب فقتلهم وهم الحرورية [2].

---

[1] آل عمران: 106.

[1] الأعراف: 172 .

[2] الحرورية فرقة ظهرت واشتد أمرها في عهد علي بن أبي طالب، سموا الحرورية نسبة إلى بلدة حروراء في الكوفة وكانت مركز خروجهم، ومن مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك ومذهب عامة الخوارج أنه كافر وليس بمشرك، قال بعضهم هو منافق في الدرك الأسفل من النار والحكم فيه أنه يخلد في النار، انظر: "الإبانة الكبرى" لابن بطة، باب: ذكر افتراق الأمم على دينهم، (379/1).

ومن حديث زيد بن وهب أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي حين سار إلى الخوارج فقال: " أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليست قراءتهم إلى قراءتكم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[1]، أخرجه مسلم في صحيحه.

ومن حديث بشر بن عمرو قال: قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول اللهﷺ يقول في الخوارج شيئا، قال: سمعته يقول وأهوى بيده إلى العراق فقال: « يخرج منه قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية»[2]، فهم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية ونحوهم.

ومن قال بهذا يقول أكفرتم بعد إيمانكم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم للمسلمين في الاعتقادات، أخرجه جميع أرباب الصحاح.

ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1].

ومن حديث الحارث الأعور أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول على المنبر أن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به الجنة، وأن الرجل ليخرج

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج، رقم:1066، (748/2)، و"سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب: في قتال الخوارج، رقم: 4768، (244/4).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: من ترك قتال الخوارج للتألف، رقم:6934، (17/9).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: الحث على المبادرة بالأعمال، رقم: 118، (110/1).

من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به النار، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [1] الآية، ثم نادى هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة "[2].

ولما انتشر الخوارج في البلاد وكثر عددهم واشتدت فتنتهم، انتصب للرد عليهم جهابذة أهل السنة فأحدثوا علم الجدل والكلام، فجعلوه سهاما في نحورهم لأنه من جنس ما هم صدده من المعقول، فأفحموهم بدلائل الكتاب والسنة لأنهم شياطين الأرض، فجعلت الملائكة ترمي شياطين الجن بالشهب السماوية، وجهابذة العلماء يرمون شياطين الإنس بالدلائل القرآنية والأحاديث النبوية والأدلة العقلية حتى أفحموهم فردوهم على أعقابهم خاسئين.

فعلم الجدل مرغوب عنه إلا أن الخوارج قد اضطروا أهل السنة إلى تأليفه ليجعلوه سهاما في نحورهم، ودليل الرغبة عند قوله عليه الصلاة والسلام: « ما ضل قوم بعد هدى أتاهم إلا أتوا الجدل»[1] أخرجه الطبراني في الكبير، وابن مندة في مصنفه والبيهقي، وابن ماجة، والحاكم وصححه.

روي عن مقاتل بن حيان[2] أن سبب نزول هذه الآية الشريفة أنه كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال، فلما هاجر رسول الله ﷺإلى المدينة، أصلح بينهم فاطمأنوا وتحابوا بروح الله، فافتخر منهم بعد ذلك رجلان وهم ثعلبة بن غنم من الأوس، و[أسعد] بن زرارة من

---

[1] آل عمران: 106.

[2] "تفسير البغوي"، (490/1).

[1] بلفظ آخر قريب، "المعجم الكبير" للطبراني: باب: أبو غالب صاحب المحجن، رقم:8067، (277/8)، و"سنن ابن ماجة"، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: اجتناب البدع والجدل، رقم 48، (19/1)، و"المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الزخرف، رقم:3674، (486/2)، و"شعب الإيمان" لأبي بكر البيهقي، باب: في الحلم والتؤدة، (19/11)، وقال ابن حجر العسقلاني والترمذي وشعيب الأرنؤوط والألباني: ح س.

[2] مُقَاتِلُ بن حَيَّانَ النَّبْطِيّ، أَبُو بسطام البلخي الخراز مولى بكر بْن وائل، وهو ابن دوال روز ومعناه بالفارسية الحراز: روى عن الحسن البصري و الربيع بن أنس وسعيد بن المسيب وغيرهم، (ت150 هـ / 768 م)، انظر: "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" للحافظ المزي، باب: مقاتل بن حيان النبطي، رقم:6160، (430/28).

الخزرج[1]، فقال الأوسي: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن أفلج حصي الدبر، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمان له ورضي الله لحكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو يزيد، ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وتناشدا الأشعار وتفاخرا فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح، فأتاهم النبي ﷺ فأصلح بينهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2] " [3] قال ابن عباس: "هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى"[1]، وقال مجاهد: "هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم"[2].

وعن أنس قال: "لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه"[3]، وقيل: حق تقاته واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم[4].

واختلف العلماء في هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا على قولين:

---

[1] الأوس والخزرج هم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد القحطاني، وهم من ساكني المدينة، قيل لهم الأنصار لنصرتهم رسول اللهﷺ، انظر: "الأنساب" للسمعاني، باب: الأنصاري، رقم:259، (368/1).

[2] انظر: "كشف والبيان عن تفسير القرآن" لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، باب: في إيجاب الحج، (160/3).

[3] آل عمران: 102.

[1] "تفسير الخازن"، (276/1).

[2] "تفسير الخازن"، (276/1).

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

أحدهما: أنه منسوخ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله ومن يقوى على هذا، فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[1]، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير[2] وقتادة [3] وأبو زيد[4] والسدي.

والقول الثاني: أنها محكمة غير منسوخة وهو قول ابن عباس أيضا وبه قال طاووس[1]. وموجب هذا الخلاف يرجع إلى معنى الآية، فمن قال أنها منسوخة قال: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾هو أن يأتي العبد بكل ما يجب لله ويستحقه، فهذا يعجز العبد عن الوفاء فتحصيله ممتنع، ومن قال بأنها محكمة قال أن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله :﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مفسرا لحق تقاته لا ناسخا ولا مخصصا، فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته[2].

وقيل معنى حق تقاته الإتيان بكل ما ينبغي أن يتقى به وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه، وقيل في معنى قول ابن عباس: "هو أن يطاع فلا يعصى" أنه صحيح، والذي يصدر من

---

[1] التغابن: 16.

[2] سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعيّ، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر، ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيدا، ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن، فذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج، فقتله بواسط، (ت95 هـ / 714 م)، انظر: "الأعلام " للزركلي، باب: سعيد بن جبير، (93/3).

[3] قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ ضرير أكمه، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، (ت 118هـ / 737 م)، انظر:"الأعلام" للزركلي، باب: قتبان، (189/5).

[4] لم أقف على ترجمته.

[1] أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان اليماني: ولد في خلافة عمر، فقيه وراوي حديث وتابعي من كبار فقهاء التابعين و كان من خواص أصحاب ابن عباس، وعُرف بتقشفه في العيش، وجرأته في وعظ الخلفاء والولاة، (ت 106 هـ / 725 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: طاووس بن كيسان الفارسي، (38/5).

[2] "تفسير الخازن"، (276/1).

العبد على سبيل السهو والنسيان فغير قادح في تقواه، لأن التكليف في تلك الحالة مرفوع عنه، وكذلك قوله: " أن يذكر فلا ينسى" فإن هذا أيضا إنما يجب حالة الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان[1].

والتقوى منازل ودرجات تنسحب على اتقاء الشرك برفض الشريك والتبرء من المشركين وبغضهم لقول النبي ﷺ: « المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما »[2]، كما يؤيده قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية[1]، وينسحب أيضا على توحيد القلب فهو على قسمين تخلي وتجلي :

فالتخلي: تنزيهه تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكبريائه، والتجلي: باعتقاد كل كمال مصحوبا بالتعظيم والإجلال والهيبة حتى يشمل ذلك تعظيم شعائر الله كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2]، فأعظم شعائره تعالى أنبياءه ثم أولياؤه، قال عليه الصلاة والسلام: « بجلوا المشايخ فإن تبجيلهم من تعظيم جلال الله»[3]، ثم تعظيم أسمائه الحسنى وصفاته العلى وكتابه العزيز وشرائعه وأحكامه وجميع مايدان به، كما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «على قدر التعظيم تكون البركة»[4]، فإذا حصّل العبد ما ذكر وجبت له درجة المعية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[5]، أي بالنصر

---

[1] "تفسير الخازن"، (277/1).

[2] وجدته بألفاظ أخرى، انظر: "سنن أبي داود"، كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، رقم: 2645، (45/3)، وقال أبو داود: رواه جماعة لم يذكروا جريرا، وقال الألباني: صحيح دون جملة العقل.

[1] المجادلة: 22.

[2] الحج: 32.

[3] انظر: "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" لعلاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الشهير بالمتقي الهندي، باب: التعظيم والقيام، رقم: 25503، (156/9)، و"سلسلة الأحاديث الضعيفة" لناصر الدين الألباني، رقم:824، (226/2).

[4] لم أقف على تخريجه.

[5] النحل: 128.

والمعونة والنظر بعين الكلاءة، ثم بعد المعية العندية قال الله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]، فإذا ارتقى في التقى إلى ما فوق ما ذكرته كانت له المعية العظمى بسبب حصول المحبة.

يروى أن رجلا أتى النبي ﷺ فسأله عن الآخرة فقال له: « ما أعددت لها؟»، قال له: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له ﷺ: «أنت مع من أحببت»، فما فرح أصحاب رسول الله ﷺ بشيء ما فرحوا بهذه الكلمة [1]، أخرجه الطبراني.

وفي رواية أخرى: « من أحب قوما حشر معهم»[2]، ومصداقه قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[3].

ولا تقبل الأعمال ولا تزكوا الأحوال إلا بعد تحصيل التقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[4] ، ولا تحصل بركة العلم ولا إمداده إلا بالتقى كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ﴾[5]، ولا تكون النجاة من الأهوال والعذاب ومصارع السوء إلا بالتقى كما في

---

[1] القمر: 55.

[1] ح ص، ورد بألفاظ أخرى، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي، رقم: 3688، (12/5)، و"المعجم الأوسط" للطبراني، باب: من اسمه أحمد، رقم :1527، (146/2).

[2] "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، ، كتاب: الهجرة وقد صح أكثر أخبارها، رقم:4294، (18/3)، وقد رواه الحاكم في مستدركه جازما به بلا سند، وضعفه الألباني.

[3] النساء: 69.

[4] المائدة: 27.

[5] البقرة: 282.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1] ، ثم دعا سبحانه عباده بقوله: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[2]، فلو كان قول أجمع منه لما يخاف وما يرجى لدعائه.

يروى أن رجلا أتى النبي ﷺ وسأله عن حقيقة التقى، فقال له: « ما تفعل إن كنت ماشيا في أرض ذات شوك كثير»، قال: أكون متحفظا مترقبا، فقال له: « كذلك التقى »[3].

ثم أتبع سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]، ومعناه وطنوا أنفسكم على الدوام على الإسلام حتى يفاجئكم الموت وأنتم كذلك. فإن: قيل إن الإسلام موهبة من مواهب الله لا قدرة للعبد على توطين نفسه عليه إلا بتوفيق الله وتأييده فما وجه الأمر به والحض عليه ممن هو القادر على ذلك والمسهل لما هنالك؟، فالجواب: أن الله تبارك وتعالى حض عباده على الاهتمام بأمر الإسلام ليمدهم بمدده لأن مقصوده من عباده إظهار الفاقة بين يديه، فإذا أظهر الفاقة بين يديه وتبرأ من الحول والقوة إليه تولاهم في جميع ذلك فحفظ عليهم الإسلام حتى يميتهم عليه، كما يدل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺكثيرا ما أسمعه يقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[2].

فهذه الآية توافق قول إبراهيم عليه السلام لبنيه: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[3]، فأمرهم أن يجعلوا همهم وجهدهم واجتهادهم في تحصيل الإسلام الذي هو

---

[1] مريم: 72.

[2] الزمر: 16.

[3] سئل أبو هريرة وليس النبي ﷺ، انظر: "جامع العلوم والحكم" لابن رجب الحنبلي، باب: الحديث الثامن عشر اتق الله حيثما كنت، (402/1).

[1] آل عمران: 102.

[2] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ، رقم :26576، (200/44)، قال شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح بشواهده، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

[3] البقرة: 132.

أعظم منصب من مناصب السعادة الدنيوية والأخروية حتى يموتوا على ذلك لأن الأمور بخواتمها.

لفظ النهي واقع على الموت، والمعنى واقع على الأمر بالإقامة على الإسلام ومعنى ذلك كونوا على الإسلام، فإذا ورد عليكم الموت صادفكم وأنتم عليه، لأنه لما كان يمكنكم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت وهم على الإسلام[صار][1] الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم، وقيل معناه ولا تموتن إلا وأنتم مخلصون ومفوضون إلى الله أموركم، تحسنون به الظن عز وجل كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1]، تحسنون الظن بالله[2]، وعن ابن عباس أيضا أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف من يكون طعامه»[3] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾[4]، أي تمسكوا بحبل الله والحبل هو السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وسمي الإيمان حبلا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف، وقيل حبل الله هو السبب الذي يتوصل إليه، قال ابن عباس: "معناه تمسكوا بدين الله لأنه السبب الذي يتوصل به إليه"[5]، وقيل حبل الله هو القرآن لانه أيضا سبب يوصل إليه.

---

[1] في (ب): صارت.

[1] آل عمران: 103.

[2] "تفسير الخازن"، (277/1).

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم:2585، (288/4)، وقال الترمذي: ح س.

[4] آل عمران: 103.

[5] "تفسير الخازن"، باب : سورة آل عمران: الآية 103، (277/1).

وفي إفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: « ألا وإني تارك فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على [ضلالة] [1] الحديث »[2].

ومن حديث ابن مسعود أيضا أن حبل الله تعالى هو الجماعة، قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة»[3].

ومن حبل الله تعالى التمسك بأمره والعمل بطاعته، ثم نهى سبحانه عن الفرقة والخلاف وحذر منهما وأنهما السبب الذي يجر إلى الهلاك، كما أن التمسك بحبل الله هو الذي يجر إلى النجاة فقال: ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضا، فلا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها [1]، ففيه النهي عن التفرق والاختلاف والأمر بالإتفاق والاجتماع، لأن الحق لا يكون إلا واحدا وما عداه جهلا وضلالا، فإذا كان الأمر كذلك وجب النهي عن الإختلاف في الدين وعن الفرقة لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا وأن تناصحوا من ولاه أمركم، ويسخط لكم قيلا وقالا وإضاعة المال وكثرة السؤال »[2].

---

[1] في (ب): الضلال.

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم:2408، (1874/4).

[3] "سلسلة الأحاديث الضعيفة" للألباني، رقم:5838، (742/12)، قال الألباني: ح ق، وفيه مجالد بن سعيد وليس بالقوي.

[1] "تفسير الخازن"، (277/1).

[2] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم:8799، (399/14)، قال شعيب الأرناؤط: إسناده صحيح.

بهذا القدر الذي تقدم يكون المسلم عالما بتوحيد الله تعالى وما ينبغي في حق رسله وكتابه، بل وكتبه وما ينبغي في حق الأمة والمعاد.

وما يجب اعتقاده من الأمور الدينية وما زاد على هذا القدر فإنما هو من علم الجدل والكلام المنهي عنه إذ لا طائل تحته، إلا أن الله تعالى نص في كتابه العزيز على وجه التمانع بقوله: ﴿لَوۡكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[1]، ومعنى فسادهما خرابهما وهلاكهما ومن فيهما لوجود التمانع من الآلهة، لأن كل أمر صدر عن الإثنين فأكثر لم يجر على النظام.

قال الإمام فخر الدين الرازي[1] :" قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، لأن لو فرضنا وجود إلهين فلابد أن يكون كل واحد منهما قادر على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادر على تحريك زيد وتسكينه، ولو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد الآخر تسكينه فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين، ولا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك، وبالعكس فلو امتنعا معا ووجدا معا فذلك محال، أو يقع مراد أحدهما دون الثاني، فذلك أيضا محال لوجهين:

أحدهما: أنه لما كان كل واحد منهما قادرا على مالا نهاية له، امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر، بل لابد أن يستويا في القدرة وإذا استويا في القدرة لزم ترجيح الممكن من غير مرجح.

---

[1] الأنبياء: 22.

[1] محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، وهو قرشي النسب، أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الريّ) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة، أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها، من تصانيفه (مفاتيح الغيب – ط) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، (ت 606 هـ / 1210 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الفخر الرازي، (313/6).

وثانيهما: إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر، فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا، والعجز نقص وهو على الإله محال، ولو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي إلى وقوع قادرين على مقدورين مستقلين من وجه واحد، وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستحقا لا بالإيجاد وبالفعل لكونه مع هذا واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكنه حاصلا منهما جميعا، فيلزم استغناءه عنهما واحتياجه إليهما معا وذلك محال، وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد.

فنقول القول بوجود إلهين يفضي إلى امتناع المقدور بواحد منهما وإذا كان ذلك وجب أن لا يقع البتة، وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا، ونقول لو قدّرنا إلهين فإما أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال، أو اختلفا فإما أن يقع المراد ولا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثاني فالكل محال، فثبت أن الفساد لازم على التقديرات، واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى، وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة في القرآن وقد قدمت في صدر الكتاب جزءا من ذلك.

واعلم أن كل من طعن في دلالة التمانع ففسر الآية فإن المراد لوكان في السماء والأرض آلهة يقول بألوهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم، لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم قالوا وهذا أولى، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾[1]، ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به[2].

---

[1] الأنبياء: 21.

[2] "التفسير الكبير" لفخر الدين الرازي المسمى (مفاتيح الغيب) ، (130/22).

ثم نزه سبحانه نفسه التنزيه اللازم الواجب اعتقاده، فقال سبحانه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، فهو كما وصف نفسه بالعظمة والكبرياء لا كما يصفه المشركون به من الشرك والولد، ثم بين سبحانه وجه الدلالة على ما تقدم بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[2]، أي عما يفعله ويقضيه في خلقه ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، أي والناس يُسألون عن أعمالهم، والمعنى أنه لايُسأل عما يحكم في عباده من إعزاز وإذلال وهدى وإضلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب مالك الأعيان والخلق، يُسألون سؤال توبيخ يُقال لهم يوم القيامة أوفعلتم كذا؟، لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له إذا فعل شيئا أو [أنفذ][1] حكما لأي شيء فعلته. ثم إنه لما أبطل سبحانه أن يكون في الوجود آلهة سواه بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]، أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [3]، وهو استفهام إنكار وتوبيخ ثم أفحمهم وألجمهم فقال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي حجتكم على ذلك. ثم قال تعالى صارخا عليهم بقول رسوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾، أي فيه خبر من معي على دينه ومن ينبغي إلى يوم القيامة وما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾، أي وخبر الأمم الماضية السالفة ومافعل بهم في الدنيا وإنما يفعل في الآخرة، قال ابن عباس:" ذكر من معي القرآن وذكر من قبلي التوراة والإنجيل، والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة، هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولدا أو كان معه آلهة أخرى"[4].

---

[1] الأنبياء: 22.

[2] الأنبياء: 23.

[1] في (ب): نفذ.

[2] الأنبياء: 22.

[3] الأنبياء: 24.

[4] "تفسير الخازن"، (223/3).

ثم عابهم بالجهل والغفلة وسخافة العقول فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ثم قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1]، أي فوحدون. ولما توجهت الحجة عليهم ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2]، عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الإيمان بأنه لاإله إلا هو.

ثم وبخ سبحانه خزاعة [1] فقال حاكيا لقولهم ومقبحا لمذهبهم ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾[2]، حيث قالوا الملائكة بنات الله سبحانه نزه نفسه عما يقولون، ثم نفى دعواهم وأثبت الحق بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾، أي هم عباد يعني الملائكة، ﴿مُّكْرَمُونَ ﴾، أي أكرمهم الله واصطفاهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ﴾، أي لا يتقدمونه بالقول أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به وهم بأمره يعملون أي لا يخالفونه قولا ولا عملا، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[3]، أي ما عملوا وما هم عاملون ويعلم ما كان قبل خلقهم، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، قال ابن عباس: إلا لمن قال لاإله إلا الله وعمل صالحا حتى رضي عنه"[4]، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، أي خائفون وجلون لا يأمنون مكره.

---

[1] الأنبياء: 25.

[2] الأنبياء: 24.

[1] قبيلة من الأزد، من القحطانية، وهم: بنو عمرو بن ربيعة، وهو لحيّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء، كانوا في أنحاء مكة على مر الظهران، انظر: "معجم قبائل العرب القديمة والحديثة" لعمر كحالة، (338/1).

[2] الأنبياء: 26.

[3] الأنبياء: 28.

[4] "تفسير الخازن"، (223/3).

ثم أتبع ذلك بذكر إبليس فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾[1]، وما هو كائن بعد خلقهم يريد به إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه، فإن أحد من الملائكة لم يقل إني إله من دون الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها.

ثم نبه تعالى خلقه على عظيم قدرته وأنه لم يشاركه أحد في ذلك من الملائكة ولا غيرهم فخص بالخطاب المشركين لشدة افتقارهم إلى ذلك فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [2]، أي ألم يعلم الذين كفروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾، قال ابن عباس: "كانتا شيئا واحدا ملتزقتين".[1] ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ أي فصلنا بينهما بالهوى ، قال كعب[2]:" خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحا في وسطها ففتحهما بها"[3]، وقيل كانت السماوات مرتتقة طبقة واحدة ففتحها بقدرته فجعلها سبع سماوات وكذلك الأرض، وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر، والأرض رتقا لا تثبت ففتق سبحانه السماء بالمطر والأرض بالنبات.

ثم بين سبحانه نوعا آخر من دلائل قدرته مما يتكرر ويشاهد بالأبصار فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ﴾[4]، أي وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء من

---

[1] الأنبياء: 29.

[2] الأنبياء: 30.

[1] "تفسير الخازن"، (223/3).

[2] كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن مئة وأربع سنين، (ت32 هـ / 652 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: كعب بن مالك، (228/5)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: كعب الأحبار كعب بن ماتع، (489/3).

[3] "تفسير الخازن"، (223/3).

[4] الأنبياء: 30.

الحيوانات ويتناول ذلك النبات والشجر، وذلك لأنه سبب لحياة كل شيء، وقال بعض المفسرين معناه أن كل شيء حي فهو مخلوق من الماء باعتبار العناصر، وقيل قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان، فالجواب أن هذا اللفظ مخرج الغالب، لأن أكثر ما على وجه الأرض مخلوق من الماء وإبقاءه بالماء.

ثم قال على وجه التعجب والازدراء بهم: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي أفلا يصدقون بعد أخذ الحجة عليهم.

ثم امتن سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾[1] أي جبالا ثوابت، ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ الأرض، لأن الأرض بسطت على الماء فكانت تتكفا كما تتكفا السفينة على الماء حتى قالت الملائكة لا تكاد تستقر هذه، فخلق الله تعالى الجبال ليلا فأرسى بها الأرض، فلا يعلم أحد مما خلقت الجبال إلا الله تعالى.

ثم امتن عليهم بنعمة أخرى وهي أعظم من نعمة الجبال فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾[1]، أي طرقا ومسالك، والفج الطريق الواسع بين الجبلين، ﴿سُبُلًا﴾ هو تفسير للفجاج، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، إلى مقاصدهم فيدركون منافعهم.

ثم بين عظيم قدرته مع الامتنان عليهم فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[2]، من أن تسقط وتقع بغير عمد، بل إنما عمّدها بقدرته سبحانه محفوظا من الشياطين بالشهب، ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، أي عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وكيفية

---

[1] الأنبياء: 31.

[1] الأنبياء: 31.

[2] الأنبياء: 32.

حركاتها في أفلاكها ومطالعها ومقاربها مع الترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة، فلا يتفكرون ولا يعتبرون بها.

ثم بين سبحانه براهين أخرى لا تكاد تخفى على من طرده الله عن حضرته فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾[1] ، أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وإنما قال: ﴿يَسۡبَحُونَ ﴾، ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل، لأنه ذكر عنها فعل العقلاء وهو السباحة والجري، والفلك مدار النجوم الذي يصفها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك، وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل يريد أن الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى، وقيل الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه، وقيل الفلك استدارة السماء، والصحيح الموافق للأخبار أن الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، وقال أصحاب الهيئة الأفلاك أفلاك صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول.

والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفة السماوات إلا بإخبار الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، فسبحان الخالق المدبر لخلقه بحكمته وقدرته الباهرة غير المتناهية.

ثم أتبع هذه البراهين براهين أخرى تشاكلها وتبين معناها، فقال سبحانه قل يامحمد لأهل مكة [ولجميع الكفرة ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ﴾[1] من الخلق ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ خالقها ومالكها، فأخبره سبحانه [وتعالى] [2]، أنهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[3]، لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أمها مخلوقة لله، فقل لهم إذا أقروا بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، فتعلمون أن من قدر على خلق

---

[1] الأنبياء: 33.

[1] المؤمنون: 84.

[2] زيادة في (ب).

[3] المؤمنون: 85.

الأرض ومن فيها ابتداءً يقدر على إحيائهم بعد الموت، ثم ثنى بالحجة عليهم فقال لنبيه ﷺ قل يا محمد لأهل مكة أو لجميع الكفرة ﴿ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [1]، ثم أخبره بما في ضمائرهم وما يقولون فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [2] عبادة غيره وتحذرون عقابه. ثم أقام الحجة أيضا بما يعلمون طبعا وفطرة، فقال لنبيه قل لهم: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ ﴾ [3] ، أي يأمن من يشاء ولا يأمن من أخافه الله، فيمنع من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فأجيبوا، ثم أعلمه بما سيقولون قبل أن يقولوا فقال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾[4]، أي فإلى متى تخدعون وتصرفون عن توحيد الله تعالى وطاعته، وكيف يخيل لكم الحق باطلا. فلما قامت عليهم الحجة قال سبحانه: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾[1] ، فيما يدعون له من الشريك والولد، فقال سبحانه زيادة للبيان وإقامة للحجة عليهم ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ ﴾ [2]، أي من شريك ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه ولم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع كل إله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو، ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي ولطلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، وإن كان كذلك فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء ويقدر على كل شيء.

---

[1] المؤمنون: 86.

[2] المؤمنون: 87.

[3] المؤمنون: 88.

[4] المؤمنون: 89.

[1] المؤمنون: 90.

[2] المؤمنون: 91.

ثم نزه نفسه تعالى وهو المنزه أزلا وما لا يزال فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك، ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]، أي تعاظم وتعالى من أن يوصف بما لا يليق به.

ثم لما فرغ من بيان الآيات المقضيات للتمانع وما يشاكله، أتبعه بما يناسبه من نصوص الكتاب العزيز وهي معنى قوله تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾[2] أي مع الله ﴿ءَالِهَةٌ﴾ في الوجود ﴿كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾ أي طلبوا هؤلاء الآلهة ﴿إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾[3] بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، وقيل معناه لعرفوا الله فضله فابتغوا ما يقربهم إليه، والتأويل الأول أصح فقال عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾[1]، وأراد في ذلك المبالغة في البراء والبعد مما يصفونه به، نبههم على ما يجهلون من عظمته وكبريائه بقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2]، من الملائكة والإنس والجن ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾. قال ابن عباس: " وإن من شيء حي إلا يسبح بحمده بل يسبحه تعالى جميع الحيوانات والناميات فتسبح الشجرة والأسطوانة لا تسبح، والتراب يسبح مالم تبتل، فإذا ابتلت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جاريا فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الثوب يسبح ما دام جديدا فإذا توسخ ترك التسبيح، وإن الوحوش والطير تسبح إذا صاحت فإذا سكتت تركت التسبيح "[3]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما من شيء جامد أو غيره إلا يسبح بحمد الله حتى صرير الباب ونقيض

---

[1] المؤمنون: 92.

[2] الإسراء: 42.

[3] الإسراء: 42.

[1] الإسراء: 43.

[2] الإسراء: 44.

[3] "تفسير الخازن"، (131/3).

السقف، فكل شيء يسبح الله حيوانا كان أو جمادا "[1]، وتسبيحه: " سبحان الله وبحمده" كما يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: كنا مع رسول اللهﷺ في سفر فقلّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء»، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده ﷺ في الإناء ثم قال: « حي على الطهور المبارك والبركة من الله».[2]

[باب في أقسام الإيمان والمؤمنين وأركانه]

فالموحدون ثلاثة لا أربع لهم: ذائق ومبرهن ومقلد، مثالهم ثلاثة رجال أشرفوا على ماء من بعيد، فالذائق رأى وسقى ووصل وشرب، والمبرهن رأى وسعى ووصل ولم يشرب، والمقلد رأى ولم يسع ولم يصل ولم يشرب.

فاسم الإيمان ينسحب على الجميع ويتفاوتون في الدرجات، فالذائق يشرب ويسقي، والمبرهن لا يشرب ولا يسقي، والمقلد يحكي ويروي ولا يبلغ، فهذا حيث حصل على يقين من غير رجوع برجوع مقلده وإلا فهو خارج عن القسمة.

ثم إن الإيمان على أربع درجات : إيمان الملائكة فهو لا يزيد ولا ينقص. قال علي رضي الله عنه:" لو كشف الغطاء لم أزدد يقينا "[1]، لأنه رضي الله عنه وقع على عين اليقين فجاوز علم اليقين وحق اليقين، فإن موسى عليه السلام أخبر الله تعالى بأن قومه عبدوا العجل بعده وكفروا بعد إيمانهم فلم يعظم ذلك عنده، فلما عاين الأمر ألقى الألواح وغاب عن وهلة حتى أخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه فيقول له: ﴿ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ

[1] "تفسير الخازن"، (131/3).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم:3579، (194/4).

[1] انظر: "لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية" لمحيي الدين ابن عربي لعبد الوهاب الشعراني، (489/2).

بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1]، فلما سمع موسى عذر أخيه فاق من غشيته فيعلم من هذا أن عين اليقين أعلى من علم اليقين وأجدر بالتمكين.

يروى أن جابرا قال للنبي ﷺ يوما قد أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «إن لكل حق حقيقة وما حقيقة إيمانك؟»، فقال أصبحت يا رسول الله وكأني أنظر إلى عرش الرحمان وإلى الملائكة صفوفا حوله، وإني أنظر إلى الصراط وهو منصوب على متن جهنم والناس يمرون عليه، فمنهم مخفف ناج ومنهم مثقل هالك، وكأني أنظر إلى الجنة وإلى أهلها يتضاغون، فقال له النبي ﷺ: «قد أدركت فالزم»[2].

وإيمان عامة المؤمنين فإنه يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، وإيمان المنافقين فإنه ينقص ولا يزيد حتى يضمحل ولذلك ضرب الله تعالى لإيمانهم مثلا فقال: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1]. ﴿صُمٌّۢ﴾ عن الإمتاع بمواعظ القرآن بآذان قلوبهم، ﴿ بُكْمٌ﴾ فلا يدعون إلى خير ولا ينهون عن شر. ﴿عُمْىٌ﴾[2] عن الفكر في دلائل وحدانية الله وعظمته وكبريائه لطمس بصائرهم والطبع عليها وخلوها من أنوار الاستبصار، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[3]، والمعنى أن العمى المضر إنما هو عمى القلوب يطمس بصائرها، وليس من العمى المضر عمى الأبصار التي في الرؤوس لقوله ﷺعن الله تعالى قال: « من أخذت حبيبتيه فاحتسب وصبر،

---

[1] طه: 92 إلى94.

[2] ليس جابر، بل الحارث بن مالك الأنصاري، ووجدت الحديث بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، باب: الحارث بن مالك الأنصاري، رقم: 3367، (266/3)، وقال ابن حجر العسقلاني: ح ض، انظر:" الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر، (689/1).

[1] البقرة: 17.

[2] البقرة: 18.

[3] الحج: 46.

لم أرض له بعوض منها إلا الجنة»[1]، وفي حديث آخر: « الأعمى ميت لم يقبر، والفقر الموت الأحمر، ومن لم يترك ولدا ذكرا لم يذكر»[2]، وهذا الحديث الآخر باعتبار مضرة الدنيا لا باعتبار مضرة العقبى.

وروي أنه لما عمي عبد الله بن عباس رضي الله عنه في آخر عمره، قال بعض المروانيين: ما لنا نراكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، قال له: مالي أيا بني أمية أراكم تصابون في بصائركم وقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[3].

ويروى أن النبي ﷺ أخبر عبد الله بن عباس وقد أتى النبي ﷺ يوما جبريل بناحيته على صورة دحية الكلبي فوقف حتى ذهب جبريل، فأتى النبيﷺفقال له: إنما تخلفت عن الإقبال عليك لمكان دحية منك، فإني رأيتك فعلت معه ما لم تفعله مع أحد قبله قط، فقال له: « أرأيت ذلك»، قال: نعم، فقال له: « أما إنه جبريل وستفقد بصرك في آخر عمرك ثم يرد إليك عند موتك»[1]، فكان الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام فإنه ثبت وصح أنه لما قضى وكفى رأى جميع الحاضرين طائرا عظيما أبيض أقبل من السماء حتى دخل في أكفانه فلم يروه بعد ذلك خارجا وسمعوا عند ذلك قائلا يقول: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[2]، وكانوا يرون أن ذلك الطائر أتاه ببصره كما أخبره بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

ثم الإيمان بعد هذا درجات تنتهي إلى السبعين فأكثر وهي:

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المرضى، باب: فضل من ذهب بصره، رقم:5653، (116/7).

[2] لم أقف على هذا الحديث.

[3] الحج: 46.

[1] رواه الطبراني في "المعجم الكبير" بألفاظ أخرى، باب: مناقب ابن عباس وأخباره، رقم: 10586، (237/10)، وانظر كذلك: "تحفة اللطائف في فضائل الحبر عبد الله بن عباس ووج الطائف" لجار الله محمد بن عبد العزيز ابن فهد المكي، (ص220)، وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، (276/9)، وقال: فيه من لم أعرفه.

[2] الفجر: 27 إلى 29.

إيمان مجرد، وإيمان مصحوب بإدراك، وإيمان مصحوب بيقين، وإيمان مصحوب بمراقبة، وإيمان مصحوب بتفويض، وإيمان مصحوب بتوكل، وإيمان مصحوب بإخبات، وإيمان مصحوب بتسليم، وإيمان مصحوب بالرضى، وإيمان مصحوب بالشوق، وإيمان مصحوب بالذوق، وإيمان مصحوب بتوق، وإيمان مصحوب بحب، وإيمان مصحوب بلطف، وإيمان مصحوب بدنق، وإيمان مصحوب بهيبة، وإيمان مصحوب بغيبة، وإيمان بكشف، وإيمان مصحوب بمكاشفة، وإيمان مصحوب بمعرفة، وإيمان مصحوب بعرفان، وإيمان مصحوب بشهادة، وإيمان مصحوب بمشاهدة، وإيمان مصحوب بتولّ، وإيمان مصحوب بولاية، ثم إيمان مصحوب بتدل، ثم إيمان مصحوب بتجل، ثم إيمان مصحوب بقرب، ثم إيمان مصحوب بكشف حجاب، ثم إيمان مصحوب بتلهب، ثم إيمان مصحوب بتقطب، ثم إيمان مصحوب بتغوث، ثم إيمان مصحوب بغوثية، ثم إيمان مصحوب بنبوة، ثم هنا ينتهي الترقي حيث لا نهاية له، لأنه تعالى الذي انتهت دونه النهايات ووقفت دونه الغايات فهو غاية الغايات ونهاية النهايات.

روي أن الله تعالى قال لداود في بعض خلواته: يا داود مجدتني؟، فقال له: أي ربّ ما يبلغ لمجدي من مجدك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك إذ لا يعرفك غيرك، فقال له :يا داود مجدت فأبلغت وأوجزت فأطنبت.

وأما أركان الإيمان فإنها تسعة: الذلة والتواضع، واستقلال العمل وقصر الأمل، والزهد في الفاني والرغبة في الباقي، والرقة واللجاء إلى الله تعالى في جميع الحالات، والرحمة لجميع المخلوقات.

والإيمان بالملائكة هو التصديق بأنهم موجودون وأنهم أجسام لطيفة نورانية عارية عن ظلمة الهيولى والطبع والشهوة، لها قدرة على التشكل وأنهم أجسام لا خيالات كما تزعمه المعتزلة أعطوا الخفية عن الأبصار لخبر: « لما خلق الله تعالى آدم بيده ونفخ فيه من روحه سأل الله

العصمة فقال له سبق بها الملائكة، ثم سأله الخفية فقال سبقتك بها الجن، ولكن أعطيك ما هو أفضل الحرفة، فأقدرك على كل حرفة إلا حرفة تنجيك من الموت »[1]، أخرجه النسائي والحاكم وصححه.

ولما خلق الله تعالى بني آدم وكرمهم ورزقهم من الطيبات، قالت الملائكة: أي ربنا حيث جعلت لبني آدم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، فقال بل أجمع لهم فيها الدنيا والآخرة، فلا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان، وأنهم ليسوا بذكور ولا إناث، بل يجب تسميتهم بالذكور لشرفها، ولأن الله تبارك وتعالى عاب على المشركين جعلهم للملائكة إناثا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾[2]، لقولهم الملائكة بنات الله، وقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[3]. وأنهم معصومون من الذنوب والصغائر والشهوة في أصل فطرتهم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، وأن منهم مقربين وهم الذين وكلهم الله تعالى بالأمور العظام، فإن جبريل عليه السلام موكل بتسيير الجنود والوحي، وأن ميكائيل عليه السلام موكل بالأرزاق، وأن إسرافيل عليه السلام موكل باللوح المحفوظ وبالصور الذي ينفخ منه في الأرواح وبالرياح، وأن عزرائيل عليه السلام موكل بقبض أرواح المخلوقات وأنه آخر من يموت، وأن حملة العرش يحملونه على كواهلهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ويستغفرون للمؤمنين فيتجاوبون [بصوت حنين] [2] يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

[1] لم أجده في المصادر التي ذكرها المؤلف.

[2] النجم: 27 – 28.

[3] الزخرف: 19.

[1] التحريم: 6.

[2] في (ب): بأصوات حسان.

ٱلۡحَكِيمُ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1]، وفي هذه الآية دليل على أن الملائكة أرحم المخلوقات وألطفهم ببني آدم وأشدهم لهم صداقة، وأعدى المخلوقات لبني آدم الجن جبلة جبلوا عليها من اليوم الذي طرد فيه إبليس عن الجنة إلى يوم القيامة.

ولما قال المشركون الملائكة بنات الله، قال لهم أصحاب رسول الله ﷺ استهزاء بهم وتنبيها لهم على سخافة عقولهم فأين أمهات هؤلاء البنات؟، فقالوا سروات الجن، فرد عليهم قولهم فقال: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[2]، فالمراد بالجنة في هذه الآية مجموع الملائكة والجن، لأن الاجتنان شامل لهما لأنه بمعنى الخفية، ولذلك يقال للجنين في بطن أمه جنين لاجتنانه عن الأبصار حالة كونه في بطن أمه، ومنه سمي الجنان جنانا لاجتنانه من يدخله وقال تعالى ردا عليهم وتقبيحا لعقولهم: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾[1].

ومن المقربين أيضا الملكان الموكلان بالليل والنهار، فالموكل بالنهار اسمه فرهائيل، والموكل بالليل شرهائيل، فالنهار خرقة بيضاء من نور وكل الله بها ذلك الملك وأقدره سبحانه على طيها متى شاء ونشرها متى شاء، وكذلك شرهائيل وكله سبحانه بالليل وهي خرقة سوداء من ظلمة العناصر وأقدره على نشرها متى شاء وطيها متى شاء على وفق إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، ولا يزال ناشرا خرقته على العالم، حتى إذا رأى فرهائيل قد نشر خرقته طوى خرقته السوداء وأدبر مسرعا إلى المغرب حتى يسجد الليل تحت العرش لله رب العالمين ويسجد الملك الموكل به معه حتى يأذن الله له في الرجوع إلى المشرق، فإذا كان وقت الليل في التقدير

---

[1] غافر: 7-8 – 9.

[2] الصافات: 158.

[1] النحل: 62.

السابق نشر خرقته السوداء فإذا رآها فرهائيل طوى خرقة النهار البيضاء وأدبر إلى المغرب حتى يسجد تحت العرش ويسجد النهار معه، فهما يتطالبان كذلك حثيثا على يوم القيامة، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾[1]، تدلهم على قدرتنا ﴿نَسۡلَخُ﴾ أي ننزع منه ونكشط ﴿مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾[2]، منجئ بالظلمة وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس انسلخ النهار من الليل فتعم الظلمة أهل الأرض.

ومن آياته جريان الشمس في بروجها فقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾[3]، إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة، فهي أبدا تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه ثم ترجع إلى أول منازل لها وذلك أنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها، ويحتمل أن يكون مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء.

قال ابن عباس: " والشمس تجري لمستقر لها أي قرار لها ولا وقوف لها فهي جارية أبدا إلى يوم القيامة"[1].

وقد صح عن النبي ﷺ فيما رواه أبو ذر قال: سألت النبي ﷺعن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، قال: «مستقرها تحت العرش»[2].

وفي رواية قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: « أتدري أين ذهبت الشمس؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن

---

[1] يس: 37.

[2] يس: 37.

[3] يس: 38.

[1] انظر: "مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد" لمحمد بن عمر نووي الجاوي، (289/2).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: والشمس تجري لمستقر لها، رقم:4803، (123/6).

تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[1] »[2]، أخرجه الشيخان في صحيحهما.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: "اختلف المفسرون فيه، فقال جماعة بظاهر الحديث"[3].

وقال الواحدي[4]: " فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع"[1].

وقيل تجري على وقت لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا القول يكون مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا.

وأما سجود الشمس فتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها ذلك، أي الذي ذكر من جري الشمس على ذلك التقدير والحساب الذي تكل الفكر عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه.

﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾[2]، أي الغالب بقدرته على كل مقدور، العليم المحيط بكل شيء.

ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾[3]، أي قدرنا له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلا، كل ليلة بمنزلة منها لا يتعداها، يسير فيها من ليلته المستهل إلى الثمانية

---

[1] يس: 38.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم:3199، (107/4).

[3] "تفسير الخازن"، (8/4).

[4] الإمام، العلامة، الأستاذ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، صاحب (التفسير)، وإمام علماء التأويل، أشهر آثاره: (أسباب النزول- ط)، وله تفاسير الثلاثة: (البسيط)، (الوسيط)،(الوجيز)، (ت468هـ/1076م)، انظر:" سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: الواحدي أبو الحسن علي، (339/18).

[1] "تفسير الخازن"، (8/4).

[2] يس: 38.

[3] يس: 39.

والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة أو أنقص، فإذا كان في آخر منازله رقّ وتقوس فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة، والقديم الذي أتى عليه الحول، فإذا قدم عتق ويبس وتقوس واصفرّ، شُبِّهَ القمر به عند انتهائه إلى آخر منازله.

ثم قال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ﴾[1] أي فلا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فهما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجئ أحدهما قبل وقته، ولا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء، فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة، وقيل معناه أن الشمس لا تجتمع مع القمر في فلك واحد، ولا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار فاصل.

ثم قال سبحانه زيادة للبيان: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي الشمس والقمر في فلك يسبحون.

ومن الواجب اعتقاده أن الله تعالى فوق عرشه قهرا وغلبة وخلقا، وإنما خص العرش بالذكر ولو كان كذلك جميع خلقه لأنه أعظم المخلوقات، فإذا كان تحت قهره وفي قبضة ملكه فغيره من المخلوقات من باب أحرى.

فالعرش في اللغة: السرير، وقيل ما علا فأطل، وسمي مجلس السلطان عرشا، ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على وجه الاستعارة والمجاز، فيقال: فلان نفل عرشه، بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه.

[1] يس: 40.

قال الراغب [1] في كتابه "مفردات القرآن": "وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم لا على الحقيقة، وليس كما يذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى عن ذلك، وليس كما قال قوم أنه الفلك الأعلى ، والكرسي فلك الكواكب"[2].

وأما استوى بمعنى استقر، فقد رواه البيهقي [3] في كتاب "الأسماء والصفات" بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعها كلها وقال:" أما الإستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يدركونه ولا يتكلمون فيه وذلك مذهبهم في جميع آيات الصفات"[1].

وروي بسند عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[2]، كيف استوائه؟، فأطرق مالك برأسه وأخذته الرُحضاء، ثم رفع رأسه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، فلا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، فأَخْرَجُوه[3].

وفي رواية يحيى قال ابن يحيى: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوائه؟، فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال:

---

[1] أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب: أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد، ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة، من كتبه (محاضرات الأدباء – ط) مجلدان، و(الذريعة إلى مكارم الشريعة – ط) و(الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و(جامع التفاسير) ، (ت 502 هـ / 1108 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: الراغب الحسين بن محمد، (120/18)، و"الأعلام " للزركلي، باب: الزينبي، (255/2).

[2] انظر: "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني، باب: عرش، (558/1).

[3] أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث، ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور) ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات، صنف زهاء ألف جزء، منها (السنن الكبرى – ط) عشر مجلدات، و(السنن الصغرى) و(المعارف) و(الأسماء والصفات – ط) و (ودلائل النبوة)، (ت458 هـ / 1066 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: البيهقي، (116/1).

[1] انظر: "الأسماء والصفات" للبيهقي، باب: ما جاء في قوله عز وجل: الرحمان على العرش استوى، رقم:864، (303/2).

[2] طه: 5.

[3] انظر: "العرش" لشمس الدين الذهبي، باب: أقوال التابعين، (229/2).

الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا، فأمر به أن يخرج [1].

وروى البيهقي بسنده عن ابن عيينة أنه قال:" كلما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه"[2].

قال البيهقي: "والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة، وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي وإليه ذهب أحمد بن حنبل[3] والحسين بن البجلي [1]، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي[2].

قال البغوي:" أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على المؤمن الإيمان به ويوكل العلم به الله عز وجل"[3].

وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم ذكره.

---

[1] انظر أيضا: "العرش" لشمس الدين الذهبي، باب: أقوال التابعين، (233/2).

[2] انظر: "الأسماء والصفات" للبيهقي، باب: ما جاء في قوله عز وجل: الرحمان على العرش استوى، (307/2).

[3] أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيبانيّ الوائلي: إمام المذهب الحنبليّ، وأحد الأئمة الأربعة، (ت241 هـ / 855 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام"، باب: الإمام ابن حنبل، (203/1).

[1] الحسين بن الفضل بن عمير البجلي: مفسر معمر، كان رأسا في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور، وأنزله واليها عبد الله بن طاهر، في دار اشتراها له (سنة 217) فأقام فيها يعلم الناس 65 سنة، (ت282 هـ / 895 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: البجلي، (251/2).

[2] أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستيّ، أبو سليمان: فقيه محدّث، من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) له (معالم السنن) مجلدان، في شرح سنن أبي داود، (ت 388 هـ / 998 م)، انظر: الأعلام للزركلي، باب: أحمد الخطابي، (273/2)، و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: الإمام الخطابي، (207/7).

[3] انظر: "تفسير البغوي"، (197/2).

وروي عن سفيان الثوري [1] والأوزاعي[2] والليث بن سعد [1] وسفيان بن عيينة[2] وعبد الله بن المبارك[3]، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة أنهم كانوا يرونها كما جاءت بلا كيف[4].

---

[1] سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة ، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة عام 144 هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا، له من الكتب (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) كلاهما في الحديث، (ت 161 هـ / 778 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: سفيان الثوري، (104/3)، و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: سفيان الثوري، (174/15).

[2] عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، ولد في بعلبكّ، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها، له كتاب (السنن) في الفقه، و(المسائل) ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها، (ت157 هـ / 774 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الأوزاعي، (320/3).

[1] الليث بن سعد عبد الرحمن الفهميّ: بالولاء، أبو الحارث: إمام أهل مصر في عصره حديثا وفقها، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته "، أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة، ووفاته في القاهرة، وقال الإمام الشافعيّ: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به، أخباره كثيرة، وله تصانيف، (ت175 هـ /791 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الليث بن سعد، (248/5)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: الليث بن سعد بن عبد الرحمان الفهمي، (136/8).

[2] سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد: محدّث الحرم المكيّ من الموالي، ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها، كان حافظا ثقة، واسع العلم كبير القدر، (ت 198 هـ / 814 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: سفيان بن عيينة، (105/3).

[3] عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن: الحَافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار، حاجا ومجاهدا وتاجرا، وجمع الجديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء، كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفا من غزو الروم، له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، (ت181 هـ / 797 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الصادق، (115/4).

[4] "تفسير الخازن"، (208/2).

وقال الإمام فخر الدين الرازي بعد ذكر الدلالة العقلية والسمعية :" أنه لا يمكن حمل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾[1]، على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز، وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان:

الأول: أن تقطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهات، ولا تخوض في تأويل النيات على التفصيل، بل تفوض علمها إلى الله عز وجل وهو الذي تقرر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾[2]، وهذا الحديث هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه.

والمذهب الثاني: الخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان:

الأول: ما ذكره القفال[1] فقال:" العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك، ثم جعل العرش كناية عن عظم الملك، وضده يقال تل عرشه إذا انتفض ملكه، وإذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا استوى على عرشه، واستوى على سرير ملكه" [2] هذا ما قاله القفال، والذي قاله القفال عن بعضهم حق وصواب. ثم قال:" والله تعالى دال على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه بقاء القدرة وجريان المشيئة، قال: " ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾[3]، جرى التفسير لقوله:

---

[1] الأعراف: 54.

[2] آل عمران: 7.

[1] محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، القفال، أبو بكر: من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، من أهل ما وراء النهر، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، وعنه انتشر مذهب (الشافعيّ) في بلاده، مولده ووفاته في الشاش، (ت365 هـ / 976 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن بابويه القمي، (274/6).

[2] انظر: "تفسير الخازن"، (208/2).

[3] يونس: 3.

﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[1]، وأوردُ على هذا القول بأن الله تعالى لم يكن مستويا على الملك قبل خلق السماوات والأرض والله منزه عن ذلك، وأجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السماوات والأرض مالكا، لكن لا يصح أن يقال شبع زيد إلا بعد أكله الطعام، فإذا فسر العرش بالملك صح أن يقال أنه تعالى استوى على ملكه بعد خلق السماوات والأرض.

والقول الثاني: أن يكون استوى بمعنى استولى وهو مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين، واحتجوا عليه بقول الشاعر:

ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقٍ[2]

وعلى هذا القول إنما خص العرش بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات، ورد هذا القول بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، وإنما يقال استوى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ثم ملَكَه واستولى عليه، والله تعالى لم يزل مالكا للأشياء كلها ومستوليا عليها، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات؟، فالجواب: أنه لما كان العرش أعظم المخلوقات وهي في ضمنه كان الإستعلاء عليها من باب أحرى، ونقل البيهقي عن أبي الحسن الأشعري أن الله تعالى فعل في العرش فعلا سماه استوى كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا ونعمته وغيرهما من أفعاله، ثم لم يكن الاستواء إلا أن جعله من صفات الفعل لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[1]، وثم للتراخي والتراخي إنما يكون في أفعال المخلوقين وأفعال الله تعالى بلا مباشرة منه إياها ولا حركة[2].

---

[1] الأعراف: 54

[2] هذا البيت من بحر الرجز، وهو منسوب للأخطل، والممدوح هو بشر بن مروان الأموي، أخو عبد الملك، انظر: "تفسير الخازن"، (208/2).

[1] الأعراف: 54.

[2] "تفسير الخازن"، (208/2).

وحكى الاستواء أبو بكر ابن فورك [1] عن بعض العلماء أنه قال استوى بمعنى علا من العلو ولا يريد بذلك علو بالمسافة والتحيز والكون في المكان متمكنا فيه، ولكن يرد بمعنى نفي التحيز عنه وإنه ليس مما يحويه طبق ولا يحيط به قطر، ووصف الله تعالى بذلك طريقة الخبر ولا يتعدى ما ورد به الخبر[2].

قال البيهقي: "وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة، ثم متعلقة بالمستوى عليه لا بالإستواء قال: وقد أشار أبو الحسن الأشعري إلى هذه الطريقة حكاية، فقال: " قال بعض أصحابنا إنه صفة ذات قال: وجوابي هو الأول وهو أن الله تعالى مستوٍ على عرشه وأنه فوق الأشياء باين منها، بمعنى أنه لا يحلها ولا تحله ولا يمسها ولا تمسه ولا يشبهها ولا تشبهه، وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا"[1].

وقال بعض العلماء: الاستواء صفة لله تعالى تنفي الاعوجاج عنه[2].

وروي أن [ابن العربي] [3] جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما معنى قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[4] ؟، قال: إنه مستوٍ على عرشه كما أخبره، فقال الرجل: إنما معنى قوله

---

[1] محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام من فقهاء الشافعية، سمع بالبصرة وبغداد وحدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة وتوفي على مقربة منها فنقل إليها، (ت406 هـ / 1015 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن فورك، (83/6)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: ابن فورك أبو بكر محمد بن الحسن، (214/17).

[2] "تفسير الخازن"، 209/2).

[1] "تفسير الخازن"، (209/2).

[2] المصدر نفسه.

[3] في (ب) : ابن العربي ، والصحيح ابن الأعرابي، وهو محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله: راوية، ناسب، علامة باللغة من أهل الكوفة كان أحول أبوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي، له تصانيف كثيرة، منها: (تاريخ القبائل) و(تفسير الأمثال)، (ت231 هـ / 845 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الأعرابي، (131/6)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: ابن الأعرابي أبو عبد الله، (687/10).

[4] طه: 5.

استوى أي استولى، فقال له ابن العربي: وما يدريك أن العرب لا تقول استولى على العرش فلان حتى يكون له فيه مضاد، فأيهما غلب قيل له استولى عليه، والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما يظنه البشر[1].

ثم قال سبحانه: ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾[2]، أي يأتي بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشي النهار الليل، وإنما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه. ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾، أي سريعا وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه مكانه طلبه.

حكى الإمام فخر الدين الرازي عن القفال أنه قال: " إن الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدون منها لينضم العيان إلى الخبر ونزول الشبهة من كل الجهات "[1].

قال الإمام: "واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لأن تعاقب الليل والنهار إنما تحصل بحركة الفلك العظيم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة، فإن الإنسان إذا كان في أشد غدوة فبمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل وهي ألف فرسخ، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ لشدة حركته"[2].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾[3] أي مدللات لأمره، فخلق سبحانه هذه الأشياء جارية في مجاريها بأمره، فتسخيرهن بمعنى تذليلهن لما يراد منهن من

---

[1] "تفسير الخازن"، (209/2).

[2] الأعراف: 54.

[1] تفسير الخازن، (209/2).

[2] المصدر نفسه.

[3] الأعراف: 54.

طلوع وغروب وسير ورجوع، إذ لا قدرة لهن بأنفسهن وإنما يتصرفن في متصرفاتهن على إرادة المدبر لهن الحكيم في تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن.

والمراد في قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ نفاذ إرادته، لأن الغرض من هذه الآية بيان عظيم قدرته، ومنهم من حمل الأمر على الأمر الذي هو الكلام وقال أنه تعالى أمر الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم. فإن قيل: أن الشمس والقمر من جملة النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم؟، فالجواب: أنه إنما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تعرف أوقات الصلوات فهو كقوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[1] فعطف جبريل وميكائيل على الملائكة وإن كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة. ثم أتبع ذلك [بالحكمة] [2] فيما تقدم فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ بفلكهم لأنه خالقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد، وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هو نقيض النهي، واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال: " إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر" [1]، يعني من جعل الأمر الذي هو كلامه من جملة ما خلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم إلا بمخلوق مثله، وقيل معناه أن جميع ما في العالم لله عز وجل فالخلق له لأنه خلقهم وجميع الأمور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشؤها فلا يبقى بعد هذا لأحد شيء، وقيل المراد بالأمر هنا الإرادة، لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة، وفي هذه الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل، ففيه الرد على من يقول أن الشمس والقمر والكواكب لها تأثيرات في هذا العالم فأخبر سبحانه أنه الخالق المدبر لهذا العالم لا

---

[1] البقرة: 98.

[2] في (ب): بحكمة.

[1] "تفسير الخازن"، (209/2).

الشمس والقمر والكواكب وله الأمر المطلق وليس لأحد سواه أمر فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا اعتراض لأحد من خلقه عليه[1].

ثم مجد سبحانه نفسه عقب هذه الدلالة العظيمة الدالة على جلاله وكبريائه وانفراده في ألوهيته فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾[2] أي تمجد وتعظم وارتفع، وقال الزجاج: " تفاعل من البركة، ومعنى البركة الكثرة من كل خير "[3]، وقيل معناه تعالى وتعظم.

﴿ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني أنه هو الذي يستحق التعظيم، وذلك أن الله تعالى افتتح هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وذكر أشياء من عظيم خلقه وأن له الخلق والأمر والنهي والقدرة عليهم.

ثم ختم الآية بالثناء على نفسه لأنه المستحق للمدح المطلق والثناء الفخم والتعظيم المطلق، وقال ابن عباس: "جاء بكل بركة "[4]، وقيل معنى تبارك تقدس، والتقديس الطهارة ومن معناه أيضا تبارك من اسمه يتبرك به في كل شيء، وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال، وأصل البركة الثبوت، فيقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف.

ولما أثبت سبحانه لنفسه هذه الكمالات والفضل الواسع نبه أنه لا ينبغي لعبد أن يدعوا غيره في حوائجه الدنيوية والأخروية قلَّت أو جلت فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾[1]، أي اعبدوه لأن الدعاء

---

[1] "تفسير الخازن"، (210/2).

[2] الأعراف: 54.

[3] "تفسير الخازن"، (210/2).

[4] المصدر نفسه.

[1] الأعراف: 55.

طلب الخير من الله تعالى وهذه صفة العبادة، ولأنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾[1] والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه.

وقيل المراد به حقيقة الدعاء وهو الصحيح، لأن الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادات لأن الداعي لا يقوم إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وعلم أنه عاجز عن تحصيله، وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم ويعرف بحاجته مع قدرته على إيصالها إلى الداعي وهو قادر على إيصالها إلى الداعي، فعند ذلك يرفع العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ تَضَرُّعًا﴾ أي ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو إظهار الذل في النفس والخشوع، يقال ضرع فلان لفلان إذا ذل له وخشع.

وقال الزجاج: " تضرعا يعني تملقا "[2]، وحقيقته أن يدعوه خاشعين خاضعين متعبدين بالدعاء له تعالى.

﴿وَخُفۡيَةً﴾[1] يعني سرا في أنفسكم وهو ضد العلانية، والأدب في الدعاء أن يكون خفيا كما يقتضيه ظاهر الآية.

قال الحسن[2]: " بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا، لقد كان السلف يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول:

---

[1] الأعراف: 56.

[2] "تفسير الخازن"، (210/2).

[1] الأعراف: 55.

[2] الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، (ت 110 هـ / 728 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: الحسن البصري، (226/2).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗۚ﴾ وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي فعله فقال: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾[1]"[2].

ومن حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: « أيها الناس اربعوا على أنفسكم أنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم، والذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »، قال أبو موسى وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة إلا بالله في نفسي، فقال: «يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟»، قلت بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله »[3]، قوله اربعوا على أنفسكم ارفقوا بها، واقصروا عن الصياح في الدعاء.

ثم أتبع سبحانه بيان ذلك ببيان أدب آخر وهو النهي عن العدوان فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[4] يريد في الدعاء.

قال أبو مخلد [1] : "هم الذين يسألون منازل الأنبياء"[2].

---

[1] مريم: 3.

[2] "تفسير الخازن"، (210/2).

[3] ح ص، وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: القدر، باب: لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم:6610، (125/8).

[4] الأعراف: 55.

[1] بقي بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، الأندلسي القرطبي: مفسر محقق، من أهل الأندلس، له (تفسير) قال ابن بشكوال: لم يؤلّف مثله في الإسلام، وكتاب في (الحديث) رتبه على أسماء الصحابة، (ت276 هـ / 889 م)، انظر ترجمته في:"الأعلام" للزركلي، باب: بقي بن مخلد، (60/2)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: بقي بن مخلد، (285/13).

[2] "تفسير الخازن"، (210/2).

عن عبد الله بن مغفل[1] أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، قال: أي بني سل الله الجنة وتعوذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺيقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»[2] ، أخرجه أبو داود.

وقال ابن جريج[3]: "من الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء"[4]، وقيل الاعتداء مجاوزة الحد في كل شيء، فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى، ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[5].

وفرع بعض المحققين على قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ هل الأفضل إظهار العبادة أم لا ؟، فذهب بعضهم إلى أن إخفاء العبادات والطاعات أفضل من إظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد من الرياء، وذهب بعضهم إلى أن إظهارها أفضل ليقتدي به الغير فيعمل مثل عمله، وتوسط الحكيم الترمذي[1] فقال :" إن كان خائفا على نفسه من الرياء فالأولى إخفاء

---

[1] عبد الله بن مغفل المزني: صحابي من أصحاب الشجرة، سكن المدينة ثم كان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة فتحول إليها، وتوفي فيها، له 43 حديثا،(ت57 هـ / 67 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عبد الله بن مغفل، (139/4)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: عبد الله بن مغفل، (483/2).

[2] "سنن أبي داود"، كتاب: الطهارة، باب: الإسراف في الماء، رقم:96، (24/1)، قال أبو داود: سكت عنه، وقال الألباني: ح ص، وقال شعيب الأرنؤوط: ح س.

[3] عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكيّ، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، روميّ الأصل من موالي قريش، مكي المولد والوفاة، (ت 150 هـ / 767 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الماجشون، (160/4)، و"سير أعلام النبلاء" ، باب: ابن جريج الأموي، (325/6).

[4] "تفسير الخازن"، (210/2).

[5] الأعراف: 55.

[1] محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي: باحث، صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين، (ت نحو 320 هـ – نحو 932 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: الحكيم الترمذي، (272/6)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي، (439/13).

العبادة صونا لعمله عن البطلان، وإن كان قد بلغ في الصفا وقوة اليقين إلى التمكين بحيث صار مباينا لشائبة الرياء كان الأوْلى في حقه الإظهار ليحصل فائدة الاقتداء به "[1].

وذهب بعضهم إلى أن إظهار العبادات المفروضة أفضل من إخفائها، فالصلاة المكتوبة في المسجد أفضل من الصلاة في بيته، وصلاة النفل في البيت أفضل من صلاته في المسجد، وكذلك إظهار الزكاة أفضل من إخفائها، وإخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها، ويقاس على هذا سائر العبادات.

وروي أن عمرا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يجهر بكل شيء من أمره في دعائه وذكره وقراءته، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وكان أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسر في كل شيء من أمره، فجمعهما رسول الله ﷺ يوما فقال لعمر: « مالي أراك تجهر في كل شيء من أمرك؟»، فقال له: لأطرد الشيطان وأوقظ الوسنان وأعلم الجاهل وأنبه الغافل، فقال له: « أحسنت ولكن اخفض قليلا»[2]، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[1]، والمراد بالصلاة في هذه الآية القراءة والدعاء.

واختلف علماء السلف هل الأفضل ترك الدعاء على هذا الوجه أفضل، وذهب قوم إلى أم الدعاء أفضل، محتجين بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[2]، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «الدعاء مخ العبادة»[3]، وفي حديث آخر: «إن الله يحب العبد الملحاح»[4]، وفي رواية

---

[1] "تفسير الخازن"، (211/2).

[2] وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "شعب الإيمان للبيهقي"، فصل: في قراءة القرآن بالتفخيم والإعراب، رقم: 2106، (5/4)، وقال البيهقي: ح ر.

[1] الإسراء: 110.

[2] الفرقان: 77.

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، رقم:3371، (316/5)، وقال الترمذي: ح غ من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، وقال الألباني: إسناده ضعيف.

[4] ورد بلفظ آخر، "شعب الإيمان" للبيهقي، باب: الرجاء من الله تعالى، رقم:1073، (364/2)، قال الألباني: ح م.

أخرى: «أحب الأعمال إلى الله العج والثج»[1] أي العج بالدعاء والقراءة والذكر، والثج إراقة الماء في سبيل الله، وقال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[2]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[3].

يروى أن المؤمن لا يدعوا الله بشيء إلا أجابه إما بحاجته التي سأل، وإما أن يدخر له بها ثوابا في العقبى، وإما أن يدفع عنه بها بلاء نازلا، وإما أن يختار له ماهو خير له من جنسها في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي يريده العبد، وبالذي يريد لا بالذي يريده العبد لأنه أعلم بمصالحه منه.

روى صاحب "الترغيب والترهيب"[1] عن البيهقي بسند يرفعه إلى أنس بن مالك أنه سمع النبي ﷺيقول: « إن الله تعالى يوقف عبده المؤمن يوم القيامة بين يديه، فيقول: يا عبدي أتدري يوم كذا وكذا إذ سألتني الحاجة الفلانية فلم أقضها لك، أما أني دفعت عنك بها بلاء نازلا من صفته كذا وكذا، فيقول: نعم أي ربي، ثم يقول له: أتدري يوم كذا وكذا إذ سألتني الحاجة الفلانية فلم أقضها لك، فإني ادخرت لك بها قصورا في الجنة من صفتها كيت وكيت، فيقول: أي رب وددت أنك ادخرت لي جميع ما دعوتك به حتى توفينيه اليوم، فيقول له: أي عبدي خفت عليك اليأس من رحمتي فأطمعتك بالإجابة لتجد في الدعاء وليعظم رجاءك في واسع رحمتي»[2] ، وأخرجه أيضا الطبراني في الكبير، وأحمد في مسنده برواية يزيد بعضها على بعض.

---

[1] ورد بلفظ آخر، انظر: "شعب الإيمان" للبيهقي، باب: حديث الكعبة، والمسجد الحرام، والحرم كله، رقم:3733، (470/5)، وقال البيهقي: ح ر.

[2] غافر: 60.

[3] النمل: 62.

[1] "الترغيب والترهيب" لزكي الدين المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ، عدد الأجزاء: 4.

[2] بلفظ آخر، انظر: "الترغيب والترهيب" للمنذري، كتاب: الذكر والدعاء، رقم: 2523، (314/2)، وقال المنذري: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما، وأخرجه أحمد بن مروان الدينوري المالكي في: "المجالسة وجواهر العلم" ، (72/1).

وعن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: " إن الله تعالى مخالف لخلقه، فإن العبد إذا لحّ عليه في المسالة أحبه وأقبل عليه فأجابه قبل المسألة بما لا يحتسب "[1] وفي ذلك يقول الشاعر:

إِذَا مَا بَسَطَ الكَفَّ الْتَمَسَ الْغِنَا إِلَى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلَّتِي [2]

وقال غيره:

إِنَّ أَخَاكَ مَا اسْتَغْـ ـنَيْتَ عَنْهُ أَخُوهُ

فَإِذَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ مَرَّةً مَجَّكَ فُوهُ[3]

وقال غيره:

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئَامِ كَفَاكَ الْقَنَاعَةَ شَبَعًا وَرَيًّا

بَكَى رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَّتُهُ فَوْقَ هَامِ الثُّرَيَّا[1]

وفي زبور داود: " سَلْنِي فإنك لا تجدني باخلا ولا ملولا فإن خزائني لا تنقص ولا تبيد"[2].

ثم أتبع ذلك بما فيه مصالح جميع العباد فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[3] أي ولا تفسدوا إيمان الناس في الأرض بارتكاب المعاصي والكفر والدعاء إلى غير ذلك بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع، والدعاء إلى طاعة الله عز وجل، ولا تعصوني في

---

[1] لم أقف عليه.

[2] هذا البيت مكسور الوزن، وقائله مجهول.

[3] وجدت في غيره أن أصل الأبيات: أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا*// حِبِكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ

فإذا احتجت إليه*// ساعة مجك فوه

وهي من مجزوء الرمل، وهي منسوبة لأعرابي من بني تميم، انظر: "المجالسة وجواهر العلم" لأبي بكر الدينوري، (361/2)، و "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لجلال الدين السيوطي، (123/1).

[1] من البحر: المتقارب، لقائلها: أحمد بن علي النعيمي، انظر: "طبقات الفقهاء" لأبي إسحاق الشيرازي، (131/1).

[2] لم أقف عليه.

[3] الأعراف: 56 .

الأرض فأمسك عنكم المطر فيهلك الحرث والنسل بسبب معاصيكم، فعلى هذا يريد ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب، وتكون أيضا بمعنى ولا تفسدوا في الأرض شيئا بعد أن أصلحها الله تعالى، فيشمل المنع من إتلاف النفس بالقتل وإفسادها بالقطع لبعض الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والتعدي والسرقة وأخذها من الغير بوجود الحيل، وإفساد الأقوال بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة، وإفساد الإنسان بالإقدام على الزنا، وإفساد العقول بسبب شرب المسكر، وذلك أن المصالح المعتبرة في الدنيا هذه الخمسة فمنع الله من إدخال الفساد في ماهيتها.

ثم أكد الندب إلى الدعاء بقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ أي خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه، ومعناه أيضا الخوف من عدله وطمعا في فضله، وادعوه خوفا من الرد والخيبة وطمعا في الظفر والإجابة.

فإن قيل لم قال في أول الآية: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ [1]، وقال في آخرها: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾[2] وهذا يوهم عطف الشيء على نفسه، فما وجه الحكمة في ذلك؟، فالحكمة فيه: أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ليكون الدعاء مقرونا بالتضرع والإجابة في بيان فائدة الدعاء، ومعناه كونوا جامعين بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها، ولا تطمعوا أنفسكم أنكم وفيتم بحق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما.

ثم بشر الله سبحانه وتعالى بقرب رحمته من عباده الذين يعولون عليه في الدعاء ويعتمدون عليه في جميع أمورهم فقال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3]، فالرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن

---

[1] الأعراف: 55.

[2] الأعراف: 56.

[3] الأعراف: 56 .

الرقة، وإذا وصف بها البارئ جل وعز فليس المراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير إليهم، وهي أيضا عبارة عن إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده، فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفة الأفعال، وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات.

وقال سعيد بن جبير: " الرحمة هاهنا بمعنى الثواب فيرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ"[1].

ولما كان تأنيث الرحمة ليس بحقيقي جاز أن تنعت اللفظ المذكر بجواز التذكير والتأنيث، والحكمة في كون الرحمة قريب من المحسنين أن الإنسان في كل ساعة من ساعات عمره في إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة، إذ ليس بينهم وبين الرحمة التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت فإنه قريب من الإنسان لأن كل ما هو آت قريب.

ومن الجائز الواجب اعتقاده الذي لا يتم الإيمان إلا به كونه تعالى هو الذي يصور نوع الإنسان في أرحام الأمهات فيبطل بذلك ملتين من ملل الكفر وهما الطبائعية و الدهرية.

فإن الطبائعية يزعمون أن الطبائع الأربع هي التي تصور الجنين في الرحم كاليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة، ومذهب الدهرية القائلين إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا مخصص، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾[2]. فالتصوير: "جعل الشيء على صورة، والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف"، والأرحام جمع رحم، ﴿كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ في تلك الصور المختلفة المتفاوتة في

---

[1] انظر: "التفسير المظهري" لمحمد ثناء الله المظهري، (364/3).

[1] النجم: 32.

[2] آل عمران: 6.

الخلقة ذكرا وأنثى، أبيض وأسود، حسن وقبيح، كاملا وناقصا، والمعنى أنه يصوركم في ظلمات الأرحام فيجعلكم مختلفين في الشكل والطبع واللون وذلك كله نطفة.

عن عبد الله بن مسعود أنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم تكون علقة مثل ذلك، ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقيا أو سعيدا، ثم ينفخ فيه الروح، فو الذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» [1]، أخرجه الأئمة في جميع الصحاح.

ومن حديث أنسرضي الله عنهأن رسول الله ﷺ قال: « وكّل الله بالرحم ملكا فيقول: أي رب نطفة، أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكرا أنثى؟ شقي أم سعيد؟، فما الرزق وما الأجل؟، فيكتب ذلك في بطن أمه»[2].

وقيل أن الآية واردة في الرد على النصارى، وذلك أن عيسى عليه السلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول أكلت في دارك كذا، صنعت كذا، وأنه أحيا وأبرأ الأكمه والأبرص وخلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فطار، فادعت النصارى إلهيته فقالوا: ما قدر على مثل ذلك إلا لكونه إلها، فرد الله تعالى عليهم ذلك، فأخبر الإله المستحق لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه المصور الأجنة في الأرحام كيف يشاء، وأن عيسى عليه السلام ممن صوره الله تعالى في الرحم[3]، فنبه بكونه مصورا في الرحم على أنه عبد مخلوق كغيره، وأنه يخفى عليه ما لا يخفى على الله عز وجل، وإنما ظهر على يديه ما أظهر من النفخ في

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا، رقم:7454، (135/9).
[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: القدر، باب: في القدر، رقم:6595، (122/8).
[3] "تفسير الخازن"، (224/1).

هيئة الطير من الطير فيكون طائرا بإذن الله، إنما دفع عنه به ما رمته به اليهود وأمه من الفاحشة ليدفع سبحانه العجب بالعجب، وكان يطير حتى إذا توارى عن الناس سقط [فمات] [1]، فقال عيسى: أي رب هلا جعلت ما أخلق يعيش كما يعيش ما تخلق، فقال له: يا عيسى أفهم ما تقول، أتريد أن تكون شريكا لي؟، فلما قال له ذلك خرّ ساجدا فقال: أعوذ بوجهك أن أسألك ما ليس لي بحق، فقال سبحانه: يا عيسى إنما خلقت ما خلقت على يديك لأظهر فضلي عليك ولِأبرئك وأمك مما رمتكما به اليهود، وإني خلقت خلقي وقرنت معه رزقه وأجله وأنت لا قدرة لك أن تجعل لنفسك رزقا وأجلا فضلا على أن تجعلها لغيرك.

فعلى هذا التقدير تكون الآية مبطلة ملل من ملل الضلال، ملة الطبيعية وملة الدهرية وملة الركوسية من النصارى، بل جميع ملل النصارى لأنهم تفرقوا في عيسى على ثلاث فرق وكلها ضالة، فرقة قالت هو الله وادعت الحلول والإتحاد، وفرقة قالت هو ابن الله لأنه لا يفعل مثل ما فعله الله إلا الله وهي اليعقوبية، وفرقة قالت هو ثالث ثلاثة أم وأب وروح القدس وهي الملكانية، فتظاهرت الفرق الضالة على فرقة الحق وهم الحواريون ومن تبعهم فترهبوا على رؤوس الجبال وفروا إلى الآفاق ينتظرون النبي ﷺ فلما بعث عرفوه فاتبعوه ولم يدرك منهم النبي ﷺ إلا القليل.

ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] وهذا أيضا في الرد على النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله فكانه، قال: كيف يكون ولد وقد صوره الله في الرحم.

ثم أنه سبحانه بعد ما نفى هذه الملل ونزه نفسه عن الشريك نص على البراهين الدالة على البعث، ثم ألزم الحجة منكر البعث، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾[2] في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾

---

[1] في (ب): جمادا.

[1] آل عمران: 18.

[2] الحج: 5.

بعد الموت ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يريد ذريته خلقهم من المني وأصلها الماء القليل، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي دم جامد غليظ، وذلك ان النطفة تصير دما غليظا، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1]، قال ابن عباس: " أي تامة الخلق وغير تامة الخلق "[2]، وقيل مصورة وغير مصورة وهي السقط ، وقيل المخلقة التي تأتي به المرأة لوقته وغير مخلقة السقط، فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة إلى قسمين، أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط، والقسم الثاني: هو الناقص عن هذه الأحوال كلها.

روي عن علقمة عن ابن مسعود موقوفا أنه قال: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها الملك الموكل بالرحم في كفه وقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة قذفها الرحم دما ولم تكن له نسمة، وإن قال: مخلقة، قال الملك: أي رب ذكرا أم أنثى؟، شقي أم سعيد؟، فما الأجل وما العمل، وما الرزق وبأي أرض تموت؟، فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيه كل ذلك، فيذهب فيجد في أم الكتاب فينسخها فلا تزال معه حتى يأتي عن آخر أجله»[1].

والذي أخرجه في الصحيحين عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما»[2] الحديث.

ثم زاد في البيان والإيضاح فقال: لنبين لكم كمال قدرتنا وحكمتنا في تعريف خلقكم، ولتستدلوا بقدرتي في ابتداء الخلق على قدرتي على الإعادة، ولنبين لكم ما تأتون وما تذرون

---

[1] الحج: 5.

[2] "تفسير الخازن"، (248/3).

[1] وجدته بلفظ آخر، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، باب: أبو الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد، رقم:3041، (176/3).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التوحيد ، باب: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا، رقم:7454، (135/9).

وما تحتاجون إليه في العبادة، ولنبين لكم أن تغيير المضغة إلى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزا عن الإعادة ؟.

ثم بين سبحانه نوعا آخر من دلائل تمام قدرته فقال: ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾[1] فلا تسقطه ولا تمجه ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت خروجه من الرحم تام الخلق. ثم بين سبحانه برهانا آخر من براهين تمام قدرته فقال: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ وقت الولادة من بطون أمهاتكم، ﴿طِفْلًا ﴾أي صغارا، وإنما وخر الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس. ثم بين برهانا آخر على قدرته فقال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي كمال قوتكم مع العقل والتمييز، ثم بين برهانا آخر على تمام مشيئته وإرادته فقال: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أي الهرم والخرق. ثم نبه سبحانه على برهان آخر ليدل على أن هذه الأحوال كلها بعوث متعددة فقال: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ يعني أنه يبلغ من السن ما يتغير بسببه عقله فلا يعقل شيئا فيصير كما كان في طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم.

ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على البعث فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ أي يابسة لا نبات فيها، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾ يعني المطر، ﴿ٱهْتَزَّتْ ﴾ أي تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ ﴾ أي وربى نباتها فارتفع، وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات ﴿وَأَنۢبَتَتْ ﴾ هو مجاز لأن الله هو المنبت وإنما أضيف إلى الأرض توسعا، ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[1] أي من كل صنف حسن نضير، والبهج هو الشيء المشرق بالجمال.

---

[1] الحج: 5.

[1] الحج: 5.

ثم إن الله تعالى لما ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [1]، وأن حدوث هذه الأشياء دال على وجود الصانع، ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأنه يستفاد منه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات، ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يريد إن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [2] أي ما ذكر من الدلائل إنما جئت به لتعلموا أن الساعة آتية لا شك فيها وأنها حق، وأن البعث حق. وقال سبحانه في آية أخرى زيادة للإيضاح : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [1]، يعني ولد آدم لأن الإنسان اسم جنس ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾، قال ابن عباس: " السلالة صفرة الماء "[2]، وقيل المني لأن النطفة تسل في الظهر من طين آدم لأن السلالة تولدت من طين خلق منه آدم، وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام، ومعنى قوله: ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ لأنه سل من كل تربة. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [3] معناه الذي هو الإنسان جعلناه نطفة، ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي حريز وهو الرحم، ﴿مَّكِينٍ﴾ وهو عبارة عن استقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [4] أي صيرنا النطفة دما جامدا ، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له فبين كل خلق مدة أربعين يوما، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ﴾ أي مباينا للخلق الأول، قال ابن عباس: " هو نفخ الروح فيه وجعله حيوانا بعد ما كان جمادا، ناطقا بعد ما كان أبكم، سميعا بعد ما

---

[1] الحج: 6.

[2] الحج: 7.

[1] المؤمنون: 12.

[2] "السراج المنير" للخطيب الشربيني، (572/2).

[3] المؤمنون: 13.

[4] المؤمنون: 14.

كان أصم، بصيرا بعد ما كان أكمه "[1]. وأوضع في باطنه وظاهره عجائب قدرته وغرائب فطرته وكذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الرضاع، إلى القعود إلى القيام إلى المشي إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يميز فيكون جفر، إلى أن يبلغ الحلم ويتقلب في البلاد إلى ما بعد ذلك من الأحوال المباينة للنطفة.

ثم أثنى سبحانه على نفسه بيانا لبعض ما يستحقه فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي استحق التعظيم والثناء لأنه لم يزل ولا يزال، ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي المصورين والمقدرين. فإن قيل: ما وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [1] وقوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[2] ؟، فالجواب: أن الخلق له معان منها: الإيجاد والإعدام، فعلى ذلك لا موجد ولا مبدع إلا الله تعالى ومنها التقدير كما في قول الشاعر:

وَأَنْتَ تُبْدِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يُبْدِي [3]

معناه أنت تقدر الأمور وتقطعها وغيرك لا يفعل ذلك، فعلى هذا يكون معنى الآية الله أحسن المقدرين، وجواب آخر: وهو أن عيسى عليه السلام صور طيرا من الطين ونفخ فيه فطار كما مر وسمى نفسه خالقا بقوله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾[4] ، فقال:

---

[1] "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطي، (324/5).

[1] الزمر: 62.

[2] فاطر: 3.

[3] وجت البيت في المصادر بهذا اللفظ: ولَأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْ *//* ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي، وهذه الأبيات من البحر الكامل، لزهير بن أبي سلمى، انظر: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطي، (325/5).

[4] آل عمران: 49.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾[1] أي بعد ما ذكر من تمام الخلق والتصريف، ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ أي عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾[2] أي للحساب والجزاء.

ثم انتقل سبحانه إلى برهان آخر من براهين تمام قدرته وإرادته وبديع حكمته فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾[3] أي سبع سماوات طرائق لأن بعضها فوق بعض، وقيل لأنها طرائق الملائكة في الصعود والهبوط، ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي بل لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم، بل بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والنجوم والكواكب، أفتطمعون مع هذا أن أترككم سدى من غير أمر ولا نهي، وقيل معناه إنما جعلنا السماء فوقكم تنزل عليكم منها الأرزاق والبركات، وما كنا غافلين عن أعمالكم وأقوالكم وضمائركم، لا تخفى علينا من ذلك خافية.

ولما كان البعث بعد الموت من قواعد الإيمان العظمى التي لا يصح الإيمان إلا بها، اعتنيت ببيانها وكشف النقاب عنه، إذ انقسم الناس فيه إلى ثلاث فرق: فرقة أيقنت ببعث الجسم بعد الفناء ورد روحه إليه، وفرقة أخرى أقرت ببعث الأرواح دون بعث الأجسام بعد فنائها فهي كافرة، وأيضا آمنت ببعض الكتاب وكفرت ببعض وتريد أن تتخذ بين ذلك سبيلا وهي فرقة من الروافض، ووافقهم على ذلك طائفة من أهل الكلام زيغا وإلحادا لأن الله سبحانه إنما نص في محكم تنزيله على بعث الأجساد الفانية البالية، وأما الأرواح فإنها لم تمت حتى تبعث، وإنما حقيقة بعثها إرسالها إلى الأجساد بعد بعثها بواسطة نفخة إسرافيل عليه السلام كما في قوله

---

[1] المؤمنون: 14- 15.

[2] المؤمنون: 16.

[3] المؤمنون: 17.

تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1] أي فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون، أي ينتظرون أمر الله فيهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما بين النفختين [أربعون] »[2]، قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهرا، قال أبو هريرة : أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة [3].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[1] والمعتبر من القبور الأجساد لا الأرواح، ويعني بعثرت قلبت ترابها فجعل أسفلها أعلاها وبعث من فيها من الموتى أحياء.

وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[2] أي ما فيها من الجن والإنس أخرجهم الله بواسطتها أحياء بعد ما كانوا في بطنها أمواتا رفاتا، ونسبة الإخراج من الأرض مجازية وإنما المخرج بالحقيقة هو الله تعالى، والثقل الشيء النفيس. وقال بعضهم إن هذه الزلزلة تكون في الدنيا فتكون أثقالها أكوانها، وما في بطنها من الدفائن والأموال فتلقيها على ظهرها، كما يدل عليه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تقئ الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجئ القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجئ القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجئ السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا»[3].

---

[1] الزمر: 68.

[2] ساقط من (ب).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا، رقم: 4935، (165/6).

[1] الانفطار: 4.

[2] الزلزلة: 2.

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة ، رقم:1013، (701/2).

وعلى القول بأن الزلزلة لا تكون إلا يوم القيامة، فمعنى ﴿أَثْقَالَهَا﴾ يومئذ الموتى تخرجهم إلى ظهرها لأن الميت إذا كان في بطن الأرض فهو ثقالها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ومنه سمي الإنس والجن الثقلين لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتا.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾[1] والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر خاصة، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها والكافر جاحد لها، فإذا وقعت سأل عنها بجهله إياها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: « أتدرون ما أخبارها؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا هذه أخبارها »[1]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[2] أي أمرها بالكلام وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها، قال ابن عباس: " إن الله يخلق في الأرض الحياة والعقل والنطق حتى تخبر بما أمر الله به"[3]، وهو مذهب أهل السنة خلافا للمعتزلة المنكرين لذلك قبحهم الله أنى يوفكون.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾[4] عن موقف الحساب بعد العرض، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال ابن عباس: " ليروا جزاء

---

[1] الزلزلة: 3.

[2] الزلزلة: 4.

[1] وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في العرض، رقم:2429، (197/4)، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

[2] الزلزلة: 5.

[3] "تفسير الخازن"، (459/4).

[4] الزلزلة: 6.

لأعمالهم أو ليروا صحائف أعمالهم التي فيها الخير والشر "[1] كما في قوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[2] أي وزن نملة صغيرة، وقيل ما لصق من التراب باليد، ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[3]، قال ابن عباس: " ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا في الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته، فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد له حسناته ويعذب بسيئاته"[4].

قال محمد بن كعب القرظي[1]: " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وولده وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خيرا، ومن يعمل مثقال ذرة شرا من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده من أهله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر"[2].

قيل نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[3] فكان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ويقول هذا ليس بشيء يؤجر عليه، إنما يؤجر على ما يعطى، وكان الآخر يتهاون بالذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ويقول إنما وعد بالنار على الكبائر وليس في هذا إثم، فأنزل الله هذه الآية

---

[1] "تفسير الخازن"، (459/4).

[2] الزلزلة: 7.

[3] الزلزلة: 7-8.

[4] "تفسير البغوي"، (293/5).

[1] محمد بن كعب بن سليم وقال ابن سعد محمد بن كعب بن حيان بن سليم : ومنسوب إلى بني قريظة الطائفة المعروفة من اليهود، عالم بتفسير القرآن، (ت108 هـ/727م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: القرظي محمد بن كعب بن سليم، (65/5).

[2] "تفسير الخازن"، (459/4).

[3] الإنسان: 8.

يرغبهم في القليل من الخير يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم عن اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر، والإثم الصغير في عين صاحبه فإنه يصير مثل الجبل العظيم يوم القيامة.

قال ابن مسعود: " أحكم آية في القرآن: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [1]، ولذلك سمى رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحمير، فقال: « ماأنزل الله علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل منهما بحبة عنب وقالا: فيها مثاقيل كثيرة وإنما فعلا ذلك تعليما للغير، وإلا فهما من كرماء الصحابة رضي الله تعالى عنهما[1].

قال الربيع بن خيثم: " مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة "[2].

ومن دلائل بعث الأجسام قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[3] فأجابه سبحانه بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4] فقال أمية بن خلف [5]:" إنما حييت بحرارة الرحم" [6]، والحرارة عند الطبيعيين تخلق بزعمهم الفاسد فأبطل الله سبحانه حجته بقوله:

---

[1] الزلزلة: 7-8..

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الأحكام التي تعرف بالدلائل، رقم:7356،(109/9).

[1] "تفسير الخازن"، (459/4).

[2] "تفسير الخازن"، (459/4).

[3] يس: 78.

[4] يس: 79.

[5] أمية بن خلف بن وهب، من بني لؤيّ: أحد جبابرة قريش في الجاهلية، ومن ساداتهم، أدرك الإسلام ولم يسلم، وهو الّذي عذب بلالا الحبشي في بداءة ظهور الإسلام، أسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر، فرآه بلال فصاح بالناس يحرضهم على قتله فقتلوه، (ت2 هـ / 624 م) ، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أمية بن خلف، (22/2).

[6] لم أقف عليه.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] أي فالقادر على إخراج النار الحارة من الجذوع الرطبة الممتلئة بالماء وهو قادر على إدخال الروح في الجسد الفاني بعد بلائه وذهاب أجزائه. ثم لننتقل إلى حجة أخرى هي أعظم من الحجتين السابقتين فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ﴾ [2] أي هو قادر لأن بلى بعد النفي إثبات لضده. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أتى به على وزن المبالغة [لأن قدرته على إيجاد ما يستبعدونه في قلوبهم كقدرته على إيجاد مالا يستبعدونه في قلوبهم] [3] فقدرته تعالى على خلق الكبير كقدرته على خلق الصغير لا تفاوت في ذلك، فهي صالحة في كل شيء استبعده العقل الفاسد. قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[1] قدرة خسيسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2] يجادل بالباطل بين الخصومة، فكأنه تعالى يقول العجب من جهل هذا المخاصم مع مهانة أصله حتى جعل يتصدى لمخاصمة الجبار ويبرز لمجادلته في إنكاره البعث، فكيف لا يتفكر فيدع خلقه وأنه من نطفة ويدع الخصومة، نزلت في أبي بن خلف الجمحي[3] خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد رمّ ففتّه بيده وقال: أترى الله محيي هذا بعد ما رمّ؟، فقال النبي ﷺ:« نعم، ويبعثك ويدخلك النار »[4] فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾[5] أي بدو أمره،

---

[1] يس: 80.

[2] يس: 81.

[3] ساقط من (أ).

[1] يس: 77.

[2] يس: 77.

[3] أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب القرشي، الجمحي، المعروف بالغطريف، من شخصيات ورؤساء قريش في الجاهلية، وأحد كفار ومشركي العرب في بدء الدعوة المحمدية، كان من ألدِّ خصوم النبي ﷺ وأكثرهم إيذاء له، وأشدهم استهزاءً به وإحجاجًا عليه، وقد قتل يوم أحد (ت3 هـ/ 625م)، انظر: "الثقات" لإبن حبان، باب: السنة الثالثة للهجرة، (230/1).

[4] "تفسير الخازن"، (13/4).

[5] يس: 78.

﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، أي قد بليت والمعنى وضرب لنا مثلا في إنكار البعث بالعظم البالي حين فتّه بيده وتعجب ممن يقول إن الله يحييه ونسي أول خلقه وأنه مخلوق من نطفة، ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[1] وابتدأ خلقها، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾[2]، قال ابن عباس: " شجرتان يقال لأحدهما المرخ بالراء والخاء المعجمتين، والأخرى العفار بالعين المهملة، فمن أراد النار قطع غصنين مثل السواكية وهما خضراوين يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله، تقول العرب في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار أي استكثر من ذلك"[1].

وقيل: إن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ماءً، وهما من أكثره نارا، وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العناب.

ومن ذلك قوله تعالى إنكارا على الكفار: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾[2] أي صاغرون ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾[3] أي صيحة واحدة وهي نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ﴾[4] أي أحياء بعد ما كانوا رفاتا، ﴿يَنظُرُونَ﴾ بعد ما ذهبت أبصارهم وتمزقت أوصالهم، ثم أخبر تعالى عن قولهم فقال: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[5]يعني يوم الحساب والجزاء، ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ﴾[6] في الدنيا فيقال للزبانية ﴿ٱحۡشُرُواْ﴾[7] أي اجمعوا، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي

---

[1] يس: 79.

[2] يس: 80.

[1] "تفسير الخازن"، (14/4).

[2] الصافات: 16 إلى 18 .

[3] الصافات: 19.

[4] الزمر: 68.

[5] الصافات: 20.

[6] الصافات: 21.

[7] الصافات: 22.

أشركوا، وقيل هو عام في كل ظالم، ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي أشباههم وأمثالهم، فكل طائفة مع مثلها، فأهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا، وقيل أزواجهم قرناؤهم من الشياطين، فيقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [1] لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط للسؤال، قال ابن عباس:" عن جميع أقوالهم و أفعالهم"[2].

وروي عنه أنه قال عن لا إله إلا الله، روى أبو برزة الأسلمي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعلمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[3]، وفي رواية: «عن شبابه فيم أبلاه»[4]، أخرجه الترمذي.

وله عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفا يوم القيامة لازما له لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا »، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [5] " [6]، أي تقول لهم خزنة جهنم توبيخا لهم مالكم لا ينصر بعضكم بعضا وقد كنتم تزعمون ذلك

---

[1] الصافات:22 -23 -24.

[2] "تفسير الخازن"، (17/4).

[3] "سنن الدارمي"، باب: من كره الشهرة والمعرفة، رقم:554، (452/1)، و"سنن الترمذي"، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: في القيامة، رقم: 2417، (612/4)، قال الترمذي: هذا ح س، وقال الألباني: ح ص.

[4] ح ص، "سنن الترمذي"، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب: في القيامة، رقم: 2416، (190/4)، قال الترمذي: هذا ح غ لا نعرفه من حديث ابن مسعود، وقال الألباني: ح س.

[5] الصافات: 24 -25.

[6] "سنن الترمذي"، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصافات، رقم :3228، (217/5)، قال الترمذي: هذا ح غ، وضعفه الألباني.

في الدنيا، وهذا جواب لأبي جهل[1] حيث قال يوم بدر: إنا جميع منتصر، فقال الله لهم موبخا لهم : ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [1]، قال ابن عباس: " خاضعون " [2]، منقادون أذلة لا حيلة لهم.

ومن أدلة بعث الأجساد حكايته تعالى لقول الكفار من إنكارهم البعث وتوبيخه لهم بعد ما ذكر ما أعدّ لهم من أليم العذاب وسببه قولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [3]، فرد الله تعالى عليهم بقوله قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين البعث: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾ [4] يريد الآباء والأبناء، ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [5] عن الهدى المكذبون بالبعث، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [6]، والهيم داء يصيب الإبل فلا تروى معه فلا تزال تشرب حتى تهلك، والهيم أيضا الأرض ذات الرمل التي لا تروى إلا بالماء، لأن أهل النار يلقى عليهم العطش فيشربون من الحميم فيزدادون عطشا إلى عطشهم وتلهبا إلى تلهبهم.

ثم أتبع ذلك بدليل آخر فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [7] ولم تكونوا شيئا وأنتم تعلمون ذلك ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعث بعد الموت. ثم أتبع بحجة أخرى مفسرة للحجة الأولى فقال:

---

[1] عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس عداوة للنّبيّ ﷺفي صدر الإسلام، وأحد سادات قريش، كان يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه، لايفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم، حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين، فكان من قتلاها، (ت2 هـ / 624 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو جهل، (87/5).

[1] الصافات: 26.

[2] "تفسير الخازن"، (17/4).

[3] الواقعة: 47 -48.

[4] الواقعة: 49.

[5] الواقعة: 50 -51.

[6] الواقعة: 52 إلى55.

[7] الواقعة: 57.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [1] أي ما تمنون في الأرحام من النطف، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾[2] أي أنتم تخلقون ما تمنون بشرا قويا، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي بل نحن الخالقون للنطفة والمصورون لها فنحن نحييها بعد التصوير، وإنما أتى بلفظ الجمع على وجه الإعظام لأن العرب تعبر عن العظيم بلفظ الجمع وتخاطبه به، فلم لا تصدقون بأنه واحد قادر على أن يعيدكم كما أنشاكم ، احتج عليهم في البعث بالقدرة على ابتداء الخلق. ثم انتقل إلى حجة أخرى فقال: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾[1] يريد الآجال، فمنكم من يبلغ الكبر والهرم، ومنكم من يموت صبيا وشابا وغير ذلك من الآجال القريبة وما جميع ذلك إلا بقدرتنا ومشيئتنا، فجعل سبحانه أهل السموات وأهل الأرض في ذلك سواء شريفهم ووضيعهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿ قَدَّرْنَا﴾ أي قضينا بينكم الموت فنميت من شئنا كما شئنا وكيف شئنا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي وما أنا بالذي يفوته شيء يريده ولا يمتنع مني أحد، وقيل معناه وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاكهم وإبدالهم بأمثالكم وهو معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[2] أي على أن نأتي بخلق مثلكم بدلا منكم في أسرع حين، ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أي نخلقكم فيما لا تعلمون من الصور، والمعنى تغير أحوالكم إلى ما هو أسبح منها من أي خلق نشأنا، وقيل نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم إن أردنا أن نفعل بكم ذلك ما فاتنا.

وقال سعيد بن المسيب [3]: " ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في حواصل طير سود كأنها الخطاطيف وتكون ببرهوت، وهو واد باليمن هو مقر أرواح الأشقياء، هذه الأمثال كلها دالة على المسخ، وعلى أنه

---

[1] الواقعة: 58.

[2] الواقعة: 59.

[1] الواقعة: 60.

[2] الواقعة: 61.

[3] سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت ولا يأخذ عطاء، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن=

لو شاء أن يبدلهم بأمثالهم من بني آدم قدر ولو شاء أن يمسخهم في غير صورهم قدر، وهذه كلها أدلة على النشأة الثانية، فالله تعالى يكونها في أي وقت شاء بما لا يعلمه العباد ولا كيفيته كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل، ويكون التقدير على هذا المثل: وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمون يعني وقت البعث وقيامه، وفيه فائدة وهي التحريض على العمل الصالح لأن التبديل والإنشاء هما الموت والبعث وإن كان كذلك واقعا في زمن لا يعلمه أحد، فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة "[1].

ثم أخذ سبحانه عليهم الحجة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2] أي الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئا، وفيه تقديره للنشأة الثانية يوم القيامة، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بأني قادر إعادتكم كما كما قدرت على إبدائكم أول مرة.

ولما استبعد المشركون البعث فقالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[3]، استفهام بمعنى الإنكار أجابهم الله بحجة تفحمهم وتلجمهم فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾[4]، أي ما تأكل الأرض منهم لحومهم ودماءهم وعظامهم لا يعزب عن علمنا شيء، ﴿وَعِندَنَا﴾ مع علمنا بذلك، ﴿كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لعددهم وأسمائهم ولما نقص منهم وهو اللوح المحفوظ، وقد أثبت فيه ما يكون وما هو كائن.

روي عن رسول الله ﷺ أنه لما وقف على حمزة وقد قتل ومثّل به، قال: « رحمك الله أبا عمارة، فلقد كنت فعالا للخير، فلولا رقة صفية لتركتك غير مقبور حتى تبعث يوم القيامة من

=الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر، وفاته بالمدينة، (ت94 هـ / 713 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن كمونة، (102/3).

[1] "تفسير البغوي"، (17/5).

[2] الواقعة: 62.

[3] السجدة: 10.

[4] ق: 4.

بطون السباع والخشاش»[1]، فقال بعض الناس: أوَ تبعث الناس من بطون السباع وحواصل الطير؟، قال: « إي وربي إنهم يبعثون من جميع ذلك، فتقذف الأرض ما أكلت من اللحم والجلد طريا، وكذلك ما أكلت السباع تقذفه من بطونها، وذلك في أسرع من طرفة عين حتى يجمع خلقه في قبره، فيمطر فينبت كما تنبت البقلة، فإذا سمع المنادي انشقت عنه الأرض فأقبل إلى الموقف »[1] أخرجه الطبراني وغيره. اقرأوا إن شئتم قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[2] من القبور إلى المحشر، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ﴾[3]. وقال في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾[4]، الفراش جمع فراشة وهو ما يجتمع على النار إذا وقدت بليل، حيارى من الدهش لا يهتدون سبيلا، ثم يدعون فيقبلون إلى الداعي كأنهم جراد منتشر ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[5] أي كأنهم إلى شيء منصوب يسرعون وذلك كله مع البعث، فلا حجة الكافر ولا غيره بعدها إلا من طمس الله بصيرته كما قال في محكم تنزيله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[6] أي عن قوم حكم عليهم بالكفر في سابق علمه، فلو رأوا كل آية لا يومنون حتى يروا العذاب الأليم فيومنون حيث لا ينفعهم الإيمان.

---

[1] وجدته بلفظ آخر، انظر: "مسند البزار"، مسند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، باب: مسند أبي حمزة أنس بن مالك، رقم: 9530، (21/17)، وفي المعجم الكبير للطبراني، باب: مجاهد عن ابن عباس، رقم:11051، (62/11)، قال البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى من حديث أبي هريرة، وذكره ابن كثير في: "تفسير القرآن العظيم"، (527/4)، وقال: مبهم وفيه رجل مبهم لم يسم.

[1] لم أقف عليه.

[2] ق: 41- 42.

[3] القمر: 7-8.

[4] القارعة: 4.

[5] المعارج: 43.

[6] يونس: 101.

ومن الجائز الواجب اعتقاده الذي لا يصح الإيمان إلا به اعتقاد كون الرزق بيد الله، لايزيد في وجوده سبب واجتهاد، ولا ينقص منه ثواب، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، فإذا كان في السماء فطلبه في الأرض عناد.

يروى أن قوما من التابعين سافروا إلى بحر القلزم[1] فإذا هم برجل في جزيرة يعبد الشمس والقمر وعنده شبكة بها الحيتان وله رمح وكنانة فيها سهام، فنزلوا بإزائه يقرؤون القرآن فاستحلاه، فقال لهم: ما هذا الكلام الذي لم نسمع بمثله قط؟، فقالوا له: هو كلام خالق السماوات والأرض والشمس والقمر، فقال: ومن أتاكم به؟، قالوا: رسول الله الذي اختاره من خلقه واصطفاه من بريته، فقال: اعرضوا علي من دينكم، فعرضوا عليه الإسلام فأسلم، فقال: اتلوا علي ما أنزل في أمر الرزق، فقالوا له: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فقال: لقد سفهت إذ جعل الله رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فعمد إلى رمحه فكسره وإلى الشبكة فألقاها في البحر، فلما جنّ عليه الليل قام يصلي ولم يزد القوم أن صلوا العشاء فناموا، فقال لهم: أينام ربكم الذي تعبدونه ودعوتموني إلى عبادته؟، فقالوا: لا ينام ولا ينبغي أن ينام، فقال لهم: بئس العبيد أنتم إذ تنامون ولا ينام ربكم، كنت أعبد خلقا من خلقه فكنت لا أنام الليل كله ولا النهار إلا عليه، وأنتم تنامون الليل كله، فصاحبنا إلى مكة شرفها الله وتجرد للعبادة فلبثنا أعواما ثلاثة أو أربعة فحججنا فوجدناه بالمسجد الحرام دائما على العبادة، قد اصفرّ لونه ونحل جسمه، فقال لهم: أنتم الذين أكرمني الله على أيديهم بالإسلام وأريد منكم الزيادة، فقالوا له: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[2]، فجعل يستعظم ذلك ويقول: من اتهم الله في

---

[1] الذاريات: 22.

[1] هو البحر الأحمر حاليا، ويقع بين افريقيا وآسيا، تطل على ساحله عدة دول منها: مصر والسودان وإثيوبيا واليمن، ويعد من البحار المتوسطة، انظر: المقدمات في الجغرافيا الطبيعية لعبد العزيز طريح شرف، (204/1)، وانظر: "معجم البلدان" لياقوت الحموي، باب: القلزم، (388/4).

[2] الذاريات: 23.

رزقه حتى يلجاه إلى اليمين، يكرر ذلك ويشهق حتى مات رحمة الله عليه من استعظامه تهمة الخلق لله تعالى في مقدوره ورزقه[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فأجملوا في الطلب»[1]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [2].

فمن رأى الرزق من الله وألقى الأسباب وعلم أنها لا تؤثر في الرزق مع تسببه أدبا مع الله وإجراءً للحكمة على وجهها الذي أراد الله إظهارها فهو مؤمن، ومن رأى الرزق من الله ومن السبب فهو مشرك، ومن رأى الرزق لا من الله بل من الأسباب فهو كافر محضا كالقدرية القائلين بأن الله خلقهم ولا تأثير له في رزقهم، بل هم يرزقون أنفسهم ويسعدونها ويشقونها، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا لأن الله تعالى طمس بصائرهم عن فهم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾[4].

يروى أن رجلا من بني إسرائيل كان قليل المال كثير العيال وقد كبر فتفكر يوما فقال في نفسه: إني كثير العيال قليل المال وقد كبر سني ودقّ عظمي ورقّ جلدي، فلئن أذهب عنهم عنهم فيهلكون في غيبتي فخير من أكون معهم حتى يهلكوا جوعا وأنا بين ظهرانيهم، فذهب على وجهته التي يريد فقيض الله ملكا على صورة عصفور فوقف له على شافر بئر، فقال له: يا عبد الله إن سقيتني أعطيتك دينارا، فأخذ دلوا وجعل يدليه في البئر فيملأ الدلو ويفرغه في فم

---

[1] انظر: "التهجد وما ورد في ذلك من الكتب الصحاح وعن العلماء والصلحاء والزهاد رضي الله عنهم" لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي، (ص 252).

[1] "شعب الإيمان" لأبي بكر البيهقي، باب:التوكل بالله عز وجل والتسليم لأمره، رقم:1141، (406/2)،و"شرح السنة" للبغوي، رقم: 1110، (302/14)، قال شعيب الأرنؤوط معلقا على الحديث: رجاله ثقات، لكنه مرسل.

[2] الذاريات: 58.

[3] الصافات: 96.

[4] سبأ: 24.

العصفور حتى عيي، ولم يكتفي العصفور من الشرب فوقف وقال: ما رأيت كاليوم عصفورا يغلبني سقيه وأنا على شافر بئر، فتكلم له العصفور بلسان فصيح فقال له: يا هذا إن الذي يرزق عيالك هو الله تعالى لا أنت، فهو الذي يرزقك ويرزق عيالك فارجع إليهم وتوكل على الله، فرجع وترك الأزواج، فقامت زوجته ذات ليلة فإذا هي ببرجد[1] عملوا عقارب فيما ترى فأخذته فقالت: لأصبن هذه العقارب على شيخ السوء ليموت ونستريح منه، فأخذته فصبته على رأسه، فلما استيقظ إذ الذهب قد ملأ فراشه فجمعه وقال لعياله: خذوا أرزاقكم واتركوني وعبادة ربي فأغناهم الله تعالى من فضله وأرشده بما رأى إلى عبادة ربه وإخلاص النية في أمره.

روى أبو رافع أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف، قال: فبعثني إلى يهودي فقال: « قل له إن رسول الله ﷺ يقول بعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب »، فأتيته فقلت له فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: « والله لئن باعني أو أسلفني لقضيته، وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهب بدرع الحديد إليه »[2]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[3] أي لا تنظر نظرا تكاد ترده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به وتمنيا له، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾أي أصنافا منهم، ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنجعل ذلك فتنة لهم، لنزيد لهم النعمة ويزيدوا كفرا وطغيانا، ﴿فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي في المعاد وفي الجنة، ﴿خَيْرٌ﴾ في ذاته، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لعدم انقطاعه أبدا، لأن خزفا يبقى خير من ذهب يفنى فكيف إذا كان الباقي ذهبا والفاني خزفا.

---

[1] البرجد كساء من صوف أحمر؛ وقيل: البرجد كساء غليظ، وقيل: البرجد كساء مخطط ضخم يصلح للخباء وغيره، انظر: "المعجم العربي لأسماء الملابس" للأستاذ رجب عبد الجواد إبراهيم، (51/1).

[2] بلفظ آخر، انظر: "مسند البزار"، مسند أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، باب: ما أسند أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، رقم:3863، (315/9)، وذكره أبو الفضل زين الدي العراقي في كتابه: "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"، (1547/1)، وقال سنده ضعيف.

[3] طه: 131 .

قال ابن كعب:" من لم يستغني بغنى الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس طال حزنه، ومن ظن أن نعمة الله عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد تل علمه وحضر عذابه"[1].

ثم أتبع ذلك بالأمر بما فيه صلاحه وصلاح أمته في معاشها ومعادها، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[2] أي قومك ومن كان على دينك بالمحافظة على الصلاة، ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ فعلا فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول، ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي لا نطالبك بأن ترزق أحدا من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك، بل إنما نكلفك بالعمل بطاعتنا والمحافظة على الصلاة لنا، فلا تشغلك عن العمل في طاعتنا طلب الرزق لنفسك ولا لغيرك ولا يشغلك ما ضمن لك عمّا وكل إليك، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي بل نحن نرزقك ونرزق أهلك، ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي والعاقبة الجميلة المحمودة لأهل التقوى، قال ابن عباس رضي الله عنهما:" الذين صدقوك واتبعوك واتقوني"[3].

وفي بعض المسانيد أن النبي ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية، وإذا أحزنه أمر فزع على الصلاة [4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[5] الخطاب للنبي ﷺ أي يا محمد، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافا منهم، أي من الكفار وأهل الغفلة المنهمكين في شهوات الدنيا متمنيا لها، فنهى الله

---

[1] قول الحسن وليس من كلام ابن كعب، انظر: "الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد"، لعبد الله بن المبارك، باب: في التواضع، (134/1).

[2] طه: 132.

[3] "تفسير البغوي"، (281/3).

[4] المصدر نفسه.

[5] طه: 131.

عز وجل رسوله عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها، والمعنى أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها.

روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي ﷺ: « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[1]، أي يستغني بالقرآن فتأول هذه الآية فقال: " إنما يكون مادّا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر إليه مستحسنا له فيحصل من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن، فكان رسول الله لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه"[2].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَاتَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[3] أي لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا، ففيه النهي عن الالتفات إلى أموال أهل الأهواء، والالتفات إليهم.

وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تغبطن فاجرا بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته، إن له عند الله قاتلا لا يموت»[4]، قيل لإبن أبي مريم [5] : ما قاتلا لايموت؟، قال: النار[6].

ومن حديث أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ :«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه »[7]، لفظ البخاري ومسلم قال: قال رسول الله ﷺ:

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: وأسروا قولكم، رقم:7527، (154/9).

[2] ليس قول سفيان بن عيينة بل قول الواحدي رحمه الله، انظر: "فتح القدير" للإمام محمد بن علي الشوكاني، (171/3).

[3] النمل: 70.

[4] انظر: "شعب الإيمان" لأبي بكر البيهقي، رقم:4222، باب: تعديد نعم الله عز وجل، (300/6)، قال الألباني: إسناده ضعيف.

[5] نصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسيّ، أبو عبد الله، ابن أبي مريم: خطيب شيراز وعالمها وأديبها في عصره، له " تفسير القرآن " و" شرح الإيضاح للفارسي" قال ياقوت: قرئ عليه سنة 565هـ، (ت بعد 565 هـ /1170 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن أبي مريم، (26/8).

[6] انظر : "تفسير البغوي"، (66/3).

[7] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه، رقم: 6490، (102/8).

« انظروا إلى من هو أسفل منكم في الرزق ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[1].

قال عوف بن عبد الله بن عيينة [2] : " أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر همّا مني، أرى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت"[3].

ثم أمر سبحانه صفيه بخلق هو أكمل من جميع ماتقدم فقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [4]، أي لين جنابك وارفق بهم، فلما نهاه الله تعالى عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار وغيرهم، أمر بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين.

يروى أن الله تعالى يوقف المؤمن الغني يوم القيامة بين يديه فيقول له: " يا عبدي مرضت ولم تعدني "، فيقول: " أي رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ "، فيقول له :" مرض عبدي فلان فلم تعده، أما أنك لو عدته لوجدتني عنده ولوجدت ثواب ذلك عندي اليوم"، ثم يقول له: "يا عبدي استكسوتك فلم تكسني"، فيقول له: " كيف أكسوك وأنت رب العالمين؟، فيقول له: "استكساك عبدي فلان فلم تكسه، أما أنك لو كسوته لوجدت ذلك عندي "، ثم يقول:" يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني"، فيقول له: " كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟، فيقول:" استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي "، ثم يقول له:" يا عبدي استسقيتك فلم تسقني"، فيقول له:" كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ "، فيقول: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي " [1]، والمعنى في جميع ما ذكر من قوله:

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب الزهد والرقائق، رقم:2963، (2275/4).

[2] لم أقف على ترجمته.

[3] "تفسير الخازن"، (63/3).

[4] الشعراء: 215.

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم: 2569، (1990/4).

" لوجدت ذلك عندي" أي لوجدت ثوابه حاضرا عندي، أخرجه الطبراني في الكبير، وابن ماجة في صحيحه.

ثم بين سبحانه بهذه الآية أنه تعالى لم يخلق عباده إلا لعبادته وتوحيده ومعرفته لا للإهتمام بالرزق، فإنه تعالى تكفل لهم برزقهم وكلفهم بالإقبال على طاعته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. قيل إن هذه الآية خاصة بأهل طاعته من الثقلين كما يدل عليه قراءة ابن عباس:" وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون "[2]، وقيل معناه ما خلقت السفراء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم إلا لمعصيتي، وهو ما حملوا عليه من السعادة والشقاوة، وقال [علي] [3] بن أبي طالب : " إلا ليعبدون أي إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم إلى عبادتي "[4]، وقيل معناه إلا ليعرفوني وهذا أحسن، لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، وقيل معناه : إلا ليخضعوا لي ويتذللوا لأن معنى العبادة في اللغة التذلل والإنقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته، لا يملك أحد لنفسه خروج عما خلق له، وقيل معناه: إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده اختيارا في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده اضطرارا في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [5] أي ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، لأني أنا الرزاق المتكفل لعبادي بالرزق القائم لكل نفس بما يقيمها من قوتها، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي أن يطعموا أحدا من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق كلهم عيال الله جل جلاله، ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه.

---

[1] الذاريات: 56.

[2] "تفسير الخازن"، (197/4).

[3] ساقط من (ب).

[4] "تفسير الخازن"، (197/4).

[5] الذاريات: 57.

ثم بين سبحانه أن الرزاق هو لا غيره فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1] لجميع خلقه، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي هو القوي المتين الشديد المقتدر البليغ القوة والقدرة، الذي لا تلحقه في أفعاله مشقة.

يروى أن رجلا من أوائل هذه الأمة كانت له حدائق كلما حصدها وجزها رفع لأهله من ثمارها وزروعها قوتهم سنة، ويفضل له ما يحمل به على مائة ناقة، فيتجر فيه ليس له همة إلا في ذلك، فغادرت ثمارها وزروعها في بعض الأعوام بنصف ما كان يجده منها قبل، فحزن لذلك حزنا شديدا، فحمل على خمسين ناقة وبلغه أن قرية من قرى الشام قد وقعت بها مجاعة، فتوجه إليها ليربح مثل ما كان يجد في الأعوام الماضية، فلما كان بقرب بها تمثل له عزرائيل عليه السلام في صورة إنسان، فقال: أين تريد؟، فقال: أريد القرية الفلانية، فإنه بلغني عنها أنها قد أصابتها مجاعة، وكنت فيما مضى أرفع من حدائقي قوت أهلي سنة وأفضل حمل مائة ناقة أتجر فيها، إلا في هذه السنة فإن الربح قد نقص وجاء على النصف فساءني ذلك فأتيت بهذه الزروع والثمار لأنال في الربح ما كنت أجده في الأعوام الماضية، فقال له: إذا أتيت تلك القرية فتصدق بصاعين من زرعك وتمرك فإنه خير لك، فإن الصدقة تدفع البلاء النازل، فلما أتى القرية أخذ الصاعين وجعل يطوف في المدينة وهو يقول: من يأخذ هذين الصاعين صدقة، فمنهم من يقول: عندي قوت ليلة ولا حاجة لي بصاعيك، ومنهم من يقول: عندي قوت ليلتين ولا حاجة لي بصاعيك، فقال لهم: ما أنتم إلا حمقاء، كنت أرفع لأهلي قوت سنة وأتجر في حمل مائة ناقة إلا في هذا العام نقص الربح، فلم يفضل عن قوت عيالي سنة إلا ما رأيتم، فسمعت مجاعتكم فقصدت إليكم لأنال بالربح ما كنت أجد كل عام وأنتم تجتزءون بهذا التافه، فقالوا له: إنا نرى الرزق من الله لا من أموالنا وحولنا وقوتنا، فباع ثماره وزروعه، ثم انتقل راجعا إلى قريته فلما كان بالموضع الذي لاقى فيه عزرائيل عليه السلام تبدا له فقال له: أتصدقت

[1] الذاريات: 58.

بالصاعين؟، قال: قد فعلت لكني وجدت قوما حمقاء لم يقبلوا ذلك مني، فمنهم من يقول: عندي قوت ليلة ولا حاجة لي بصاعيك، ومنهم من يقول عندي قوت ليلتين، ومنهم من يقول عندي قوت ثلاث ليال فرجعت بصاعيّ فبعتهما، فقال له عزرائيل: ليسوا بحمقاء، وإنما هم مؤمنون متوكلون عقلاء، بل الأحمق أنت الذي أذهبت عمرك في باطل تجمع حطام الدنيا وتؤمل الخلود فيها، فأنا عزرائيل وقد أمرت بقبض روحك وقطع آثارك من الدنيا، والانقلاب إلى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، مع ألم النار وغضب الجبار، فقال له: أمهلني حتى أرجع إلى أهلي، فقال: لا سبيل إلى ذلك فقبضه، وانصرف أصحابه بأمواله إلى أهله ولم يربح إلا الكد والخسارة في الدارين.

ويروى أيضا أن رجلا من السلف ذهب من المغرب حاجا فمرّ ببعض مشايخ التربية وإذا معه من التلامذة نحو السبعين، فقال له : أين؟، قال: أريد الحج، فقال له بعض التلامذة: إن شئت أريتك الكعبة من مكاني هذا، فقال له : أردت ذلك إن كنت تقدر عليه، فقال له: أدخل رأسك في كمي، ففعل فرأى مكة والكعبة والناس يطوفون بها، فقال: أرأيت ؟، قال: نعم، قال: حقق، فقال: قد حققت، فحج ثم جاور أعواما ثم رجع إلى الشيخ فلم يجد عنده أحدا منهم، فقال له: أين التلامذة الذين تركت عندك؟، فقال: قد ماتوا كلهم على غير الملة، قال: وذلك الذي أراني الكعبة؟، قال: وذلك الذي أراك الكعبة وكلهم أعلى منه درجة، قال له: ما بالهم؟، وأي بلاء أصابهم؟، قال له: ما هو إلا الإهتمام بالرزق أو عدم الثقة بالمقدور، ولهذا المعنى كان ﷺ كثيرا ما يتعوذ فيقول: « اللهم إني أعوذ بك من هم الرزق وخوف الخلق والرضى عن النفس»[1]، لأن هؤلاء الثلاثة هي أصول الفساد والأسباب التي تجر إلى الهلكة أعاذنا الله من ذلك، لأن خوف الخلق يؤدي إلى التصنع لهم.

[1] لم أقف على هذا الحديث في مصادر الحديث، ولم أقف على حكم صحته، وجدته بلفظ قريب، انظر: "الأنس في شرح عيوب النفس شرح فيه رجز عيوب النفس" للشيخ أحمد زروق، لمحمد بن علي الخروبي، (ص 49).

وكان الجيلي[1] رحمه الله يقول: " لأن ألقى الله بكل ذنب أحب إلي من أن ألقاه بنوع من التصنع" [2]، فهو جالب النفاق، قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[3].

يروى أن ثلاثة يطلبون الإنسان أشد من طلبه لهم رزقه وأجله ووطنه، قال الشاعر:

مَشَيْنَاهَا خُطًا كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًا مَشَاهَا

وَأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَاوِتَاتٍ فَمَنْ لَمْ تَأْتِهِ مِنَّا أَتَاهَا

وَمَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ بِأَرْضٍ سِوَاهَا [4]

وفي الخبر: ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فكله بعز وافتخار ولا تأكله بذل واحتقار[5].

ولما كان معظم أسباب الرزق وأقربها شبها بالاكتساب ثلاثة أشياء: الزراعة والماء والنار، نفى الله سبحانه تأثير بني آدم في إيجادها ولو جدوا في ذلك، ثم أتى بها مرتبة أحسن ترتيب فقدم الطعام ثم أتبعه بالشراب ثم أتبعها بذكر النار، لأن صلاح أكثر المطعومات بها فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[1] لأنه سبحانه لما ذكر ابتداء الخلق وما فيه من دلائل وحدانيته ذكر بعده

---

[1] عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488 هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528 هـ وتوفي بها، له كتب، منها " الغنية لطالب طريق الحق"، (ت561 هـ / 1166 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عبد القادر الجيلاني، (47/4).

[2] لم أقف عليه.

[3] النساء: 108.

[4] الأبيات من بحر: الوافر تنسب إلى عدة شعراء، وأقدم من نسبت له الشيخ عبد العزيز الدريني، انظر: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"المشهور بالرحلة الورثلانية، للشيخ الحسين بن محمد الورثلاني الجزائري، (ص 272).

[5] قول لبعض الصوفية، وليس حديثا نبويا، انظر: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، لابن عجيبة الحسني، (138/1).

[1] الواقعة: 63.

الرزق لأنه سبب البقاء ورتبه على أمور ثلاثة: مأكول ومشروب وما به إصلاح المأكول والمشروب، فذكر المأكول أولا لأنه هو الغذاء وأتبعه بالمشروب لأن به استمرار الطعام، ثم النار التي بها الإصلاح وذكر من أنواع المأكول: الحب لأنه هو الأصل، ومن المشروبات الماء لأنه أيضا هو أصل المشروبات وذكر من المصطلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾أي تثيرون من الأرض وتلقون فيها البذر، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾[1] أي تنبتونه وتنشئونه حتى يشتد ويقوم على سوقه، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ ومعناه آنتم فعلتم ذلك أم الله تعالى، ولا شك أن إيجاد الحب في السنبل ليس بفعل أحد غير الله تعالى وإن كان إلقاء البذر من فعل الناس، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ [2] أي لجعلونا ما تحرثون وتلقون من البذر، ﴿حُطَٰمًا﴾ أي تبناً لا حب فيه وقيل هشيما لا يشفع به في مطعم ولا غيره، وهذا جواب لمعاند عسى أن يقول نحث نحرث وهو بنفسه يصير زرعا بفعلنا ولا بفعل غيرنا، فرد الله على هذا المعاند بقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ فهل تقدرون أنتم على حفظه أو هو يدفع بنفسه عن نفسه تلك الآفات التي تصيبه، ولا يشك ذو بصيرة في أن دفع الآفات ليست إلا بإذن الله وحفظه.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تتعجبون بسبب ما نزل في حرثكم، وقيل تندمون على نفقاتكم أو على ما سلف منكم من المعاصي التي أوجبت تلك العقوبة فتتلاومون، وقيل تحزنون، وقيل هو التلهف على ما فات، وتقول أيضا: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[1] بحذف القول ومعنى الغرم:" ذهاب المال بغير عوض"، وقال ابن عباس: " لمعذبون "[2]، يعني أنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير فائدة، والمعنى إنا غرمنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض.

---

[1] الواقعة: 64.

[2] الواقعة: 65.

[1] الواقعة: 66.

[2] "تفسير الخازن"، (240/4).

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾[1] أي ممنوعون، والمعنى حرمنا الذي كنا نطلبه من الربح.

ثم ثنى سبحانه ببيان تفضيله على خلقه بالماء الذي ليس فيه سبب لأحد وهو أصل الحياة والعيش فقال: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾[2]، فذكرهم سبحانه بنعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، ثم بين سبحانه لهم قدرته على تصبيره كيف شاء فقال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾[3] أي شديد الملوحة لا يمكن شربه ولا الانتفاع به، ﴿فَلَوۡلَا﴾ أي أفلا، ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ نعمته عليكم. ثم قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي تقدحون من الزند، ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ﴾[4] أي التي يقدح منها النار وهي المرخ والعفار وغيرهما من أشجار النار، والمرخ والعفار شجرتان شجرتان تقدح منهما النار وهما رطبان يقطران بالماء، وغيرهما من أشجار النار، وقيل أراد جميع الشجر التي توقد به النار، ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا ﴾[5]، يريد نار الدنيا، ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ أي للنار الكبرى، فإذا رأى الرائي هذه النار ذكر بها نار جهنم فيخشى الله ويخاف عقابه، فهي موعظة يتعظ بها المؤمن.

روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: « فإنها فضلت عنها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها»[1].

---

[1] الواقعة: 67.

[2] الواقعة: 68 – 69.

[3] الواقعة: 70.

[4] الواقعة: 72.

[5] الواقعة: 72– 73.

[1] بلفظ آخر، ، انظر: "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أبو هريرة رضي الله عنه، رقم: 8126، (479/13)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

﴿ وَمَتَٰعًا﴾ ومع كونها موعظة وتذكرة جعلناها بلغة ومنفعة، ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ يريد المسافرين، والمقوي النازل بالأرض القوي، وهي القفراء الخالية البعيدة من العمران، والمعنى أنه يشفع بها أهل البوادي والقفار لأن منفعتهم بها أكثر من المقيم، فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع، وقيل للمقوين أيضا المستمتعين بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع.

قال الجوهري[1]: " المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لقوته من المال، ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد " [2]، والمعنى أن فيها متاعا ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعا لا غنى عنها.

يروى أن النبي ﷺ قال: « حبيبتي تحرق أعدائي وتصلح غذائي وتخرج دائي»[3]، أخرجه الطبراني في الكبير بسند لا بأس به.

أَلَا فَاسْتَوْقِدْ النِّيرانَ وَهِنْأً ... فَإِنَّ النَّارَ فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ

تُزِيلُ البَرْدَ عَنْ عَارِضَيْكَ ... فَتُدْفِيهِ وَتَأْتِي بِالشِّفَاءِ

وَتُذْهِبُ ظُلْمَةَ الإِسْرَافِ عَنَّا ... عَلَانِيَةً وَتَأْتِي بِالضِّيَاءِ

وَتُحْرِقُ أَعْدَاءَ الرَّحْمَانِ طُرًّا ... وَتُذْهِبُ وَحْشَةَ الغَاوِي المَنَّاءِ

وَتُنْضِجُ كُلَّ مَطْعُومٍ بِرِفْقٍ ... وَتُوجِدُ طَعْمَ لَذَّاتِ الغِذَاءِ

وَجُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ قَدَمًا ... مُسْتَخِيرَةٌ بِأَمْرِهِ المَشَّاءِ

---

[1] إبراهيم بن سعيد الجوهري أبو إسحاق: من أعلام رجال الحديث، من أهل بغداد وأصله من طبرستان، روى عنه أصحاب الكتب الستة عدا البخاري، (ت 247 هـ / 861 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: الجوهري، (40/1).

[2] ليس من قول الجوهري، بل من قول قطرب، انظر: تفسير البغوي، (19/5).

[3] لم أقف عليه.

إِذَا شَهِدَتْ فَرِيقَ الكُفْرِ جَاشَتْ وَكُلٌّ وَارِدُوهَا عَلَى السَّوَاءِ

فَيَلْقَى المُجْرِمُونَ بِهَا نَكَالًا وَيُنْجِي اللهُ حِزبَ الأَوْلِيَاءِ

تَقُولُ اجُزْ أَخا التَّقْوَى سَرِيعًا فَنُورُكَ مُطْفِئِي بِلَا امْتِرَاءِ

وَفِيهَا عِبْرَةٌ لِذَوِي اسْتِبْصَارٍ تُذَكِّرُهُمْ مَنَابَ الْأَشْقِيَاءِ

فَلَيْسُوا يَسْمَعُونَ لَهَا حَسِيسًا وَلاَ وَهَجُا لِنَفْخَةِ الإِصْطِفَاءِ[1]

ولما كان الغيث أصلا من أصول الرزق، اعتنى الرحمان سبحانه بالإمتنان به، وجعل من ينسبه إلى غيره كافر به وقيل بنعمته، فقال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [2]، قال الحسن في هذه الآية: "خسر عبد لا يكون حظه من كتاب إلا التكذيب "[3]، وجعل أكثر المفسرين معنى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شرككم أنكم تكذبون بنعمة الله عليكم، وهذا في الاستسقاء بالأنواء، وذلك أنهم كانوا إذا مطروا يقولون: مطرنا بنوء كذا، ولا يرون أن ذلك المطر من فضل الله عليهم، فقيل لهم أتجعلون رزقكم أي شرككم بما رزقكم الله التكذيب، فمن نسب الإنزال إلى النجم فقد كذب برزق الله ونعمه، وكذب بما جاء به القرآن، والمعنى أتجعلون بدل الرزق التكذيب.

عن زيد بن خالد الجهني[1] قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت بالليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا

---

[1] هذه الأبيات من البحر الوافر.

[2] الواقعة: 82.

[3] "تفسير البغوي"، (21/5).

[1] زيد بن خالد الجهنيّ المدني: صحابي. شهد الحديبيّة، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، له 81 حديثا، توفي في المدينة عن 85 سنة، (ت 78 هـ / 697 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: زيد بن الخطاب، (58/3).

بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1]، أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ وزاد، فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [2].

وأخرج مسلم أيضا في صحيحه بسند يرفعه إلى أبي هريرة عن رسول الله ﷺأنه قال: « ما أنزل الله من السماء بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرا، ينزل الله الغيث فيقولون هو لكوكب كذاوكذا»[3].

عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول اللهﷺ: « ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، قال: «شرككم، يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا »[4]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قوله على أثر سماء أي أثر مطر، والنوء الكوكب، يقال: ناء النجم ينوء إذا سقط وغاب، وقيل: ناء إذا نهض وطلع، وقد اختلف علماء السلف في معنى الحديث، وكفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين:

أحدهما: أنه كفر بالله سبحانه وتعالى، سالب لأصل الإيمان فخرج عن ملة الإسلام، وذلك ممن قال ذلك معتقدا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر كما كان بعض الجاهلية يزعم، فمن اعتقدها فلا شك في كفره، وقد أجمع على هذا جماهير العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، كما يقتضيه ظاهر الحديث، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، وهو معتقد أن إيجاد المطر من الله وبرحمته وأن النوء ميقات له ومراده، إنا مطرنا في وقت طلوع نجم كذا ولم يقصد إلى

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم: 71، (83/1).

[2] الواقعة: من 75 إلى82.

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم:72، (84/1).

[4] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة، رقم:3295 ، (254/5)، قال الترمذي: ح س.

فعل النجم، كما جاء عن عمر أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس كم بقي من نوء؟ فقال: إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد وقوعها، فو الله ما انقضت تلك السبع حتى غيث الناس، وإنما أراد عمر كم بقي من الوقت الذي جرت للعادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر فهذا جائز لا كفر فيه. واختلفوا في كراهية هذا، والأظهر أنها كراهية تنزيه لا إثم فيه ولا تحريم، وسبب هذه الكراهية أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها، ولأنها من شعائر الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني: في تأويل أصل الحديث أن المراد بالكفر كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث للكواكب وهذا جار فيهن لا يعتقد تدبير الكواكب، ويؤيد هذا التأويل حديث أبي هريرة: « ما أنزل الله من السماء بركة إلا أصبح فريق بها كافرين»[1]، فقوله: "بها" يدل على أنه كفر بالنعمة.

ثم حث سبحانه عباده على الإنفاق مما رزقهم الله وجعلهم مستخلفين فيه ووعدهم بالخلف في الدنيا والثواب في العقبى فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]، فيعطي الله خلفه إذا كان في غير إسراف ولا تغير فهو يخلف ويعوضه، لا معوض سواه، إما عاجلا بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفذ، وإما بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه، فكأنه يقول: ما تصدقتم به من صدقة لوجهي أو أنفقتم في وجوه الخير فإني أخلفه على المنفق.

قال مجاهد: " من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليتصدق فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم: 72، (84/1)، و"الإيمان" لابن منده، رقم:508، باب: ذكر على أن رفع الصوت على النبي ﷺ، (593/2).

[2] سبأ: 39.

ولا يتأولون: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فإن هذا في الآخرة، ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه "[1].

ومن حديث أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: « قال الله تبارك وتعالى أنفق أُنْفِقْ عليك »[2].

ولمسلم: « يا ابن آدم أنفق أنفق عليك »[3]، وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط كل منفق خلفا، والآخر اللهم اعط كل ممسك تلفا »[4].

وروى مسلم أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع عبد لله إلا رفعه»[5].

قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [6] أي خير من يعطي ويرزق، لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق مملوكه أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله وأجراه الله على يدي من يشاء، وهو الرزاق الحقيقي الذي لا رزاق سواه.

وبين سبحانه الأسباب التي يستجلب العبد بها الرزق من الله فتكون مردا وسببا لنمائه فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]، روي أن هذه الآية نزلت في عوف بن مالك

---

[1] "تفسير الخازن"، (449/3).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب:تفسير القرآن، باب: قوله: وكان عرشه على الماء، رقم:4684، (73/6).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق، رقم:993، (690/2).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: في المنفق والممسك، رقم:1010، (700/2).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، رقم:2588، (2001/4).

[6] سبأ: 39.

[1] الطلاق: 2 – 3.

الأشجعي[1] أسر المشركون إبنا له يسمى مالكا، فأتى النبي ﷺ فشكى إليه، فقال له: «اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ففعل الرجل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فاستاق إبلا لهم وجاء بها إلى أبيه[2].

وعن ابن عباس قال: "عقل عنهم العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[3] أي في ابنه المأسور، ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [4] وهو ما ساق ابنه من الغنم "[5].

وقيل أصاب غنما ومتاعا ثم رجع إلى أبيه، فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر، وسأله أيجعل له أن يأكل ما أتى به ابنه، فقال له النبي ﷺ : « نعم » ونزلت الآية.[6]

وقال ابن مسعود: " ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه"[7].

وقال الربيع بن خيثم: " ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من كل شيء ضاق على الناس"[8].

وقيل مخرجا من كل شدة أو مخرجا عما نهاه الله عنه.

---

[1] عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني: قال الواقدي، وخليفة، وأبو عبيد: شهد فتح مكة وله جماعة أحاديث في كنيته أقوال أبو عبد الرحمن وقيل أبو عبد الله وأبو محمد وأبو عمرو وأبو حماد، وكان من نبلاء الصحابة، (ت 73 هـ / 693 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: عوف بن مالك الأشجعي، (487/2).

[2] بلفظ آخر قريب منه، انظر: "الدعاء" للطبراني، باب: فضل لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم:1672، (477/1).

[3] الطلاق: 2.

[4] الطلاق: 3.

[5] "تفسير الخازن"، (307/4).

[6] المصدر نفسه.

[7] المصدر نفسه.

[8] "تفسير البغوي"، (110/5).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] ومن يتق بالله فيما نابه كفاه الله ما أهمه.

يروى عن النبي ﷺ أنه قال: « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطير، تغدوا خماصا وتروح بطانا»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[3] أي منفذ أمره ومقض في خلقه ما اقتضاه، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي جعل الله لكل شيء من شدة ورخاء أجلا ينتهي إليه، وقال مسروق[4]: " في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ توكل العبد عليه أم لم يتوكل عليه، غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا "[5].

ومن حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « قال الله تعالى ما من عبد من عبادي يتوكل علي أعلم ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت كيدهم في ضلال وأنجيته، ورزقته من حيث لا يحتسب، ولا يعتمد عبد على غيري أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات والأرض دونه ولا يغني عنه من توكل عليه شيئا من أمر أردته به وقضيته عليه »[1]، أخرجه ابن ماجة وغيره.

---

[1] الطلاق: 3.

[2] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم:205 ، (332/1)، قال شعيب الأرنؤوط معلقا على الحديث: إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن هبيرة.

[3] الطلاق: 3.

[4] مسروق بن الأجدع بن مالك الهَمْداني الوادعي، أبو عائشة: تابعي ثقة، من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام أبي بكر وسكن الكوفة، وشهد حروب عليّ، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء، (ت63 هـ / 683 م)، انظر: "الأعلام للزركلي"، باب: مسطح بن أثاثة، (215/7).

[5] "تفسير البغوي"، (110/5).

[1] لم أقف عليه في المصادر التي ذكرها المؤلف، انظر: "سلسلة الأحاديث الضعيفة" لناصر الدين الألباني، رقم:688، (132/2)، وقال الألباني: ح م.

المدد الثاني من إمداد الرزق المداومة على الاستغفار المصحوب بإضمار التوبة والإقلاع عن الذنوب كما في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[1].

روى الشعبي [2] أن عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما سمعناك استسقيت، فقال: طلبت الغيث بمجاديع السماء التي يستنزل بها القطر، ثم قرأ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾[3]. قوله بمجاديع السماء، وأحدها مجدع وهو نجم من النجوم، وقيل هو الدبران، وقيل ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيها بالمجدع الذي له شعب واحد، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل عمر الإستغفار مشبها بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه وكانوا يزعمون أن من شأنها المطر لأنه يقول بالأنواء.

وعن أبي بكر بن عبد الله: " أن أكثر الناس ذنوبا أقلهم استغفارا، وأكثرهم استغفارا أقلهم ذنوبا"[4].

---

[1] نوح: 10-11-12.

[2] عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو: راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة، اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم وكان ضئيلا نحيفا، ولد لسبعة أشهر، وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز، (ت 103 هـ / 721 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الشعبي، (251/3).

[3] "تفسير الخازن"، (345/4).

[4] المصدر نفسه.

وعن الحسن أن رجلا شكى الله الجدب فقال: استغفروا الله، وشكى إليه آخر الفقر وقلة النسل، وآخر قلة ربيع أرضه، فأمرهم كلهم بالإستغفار، فقال له الربيع بن صبيح [1]: أتاك رجال يشكون أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا هذه الآية[2].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾[3] أي يرسل ماء من السماء، وذلك لأن المطر ينزل من إلى السحاب، ثم ينزل من السحاب إلى الأرض، وقيل أراد بالسماء السحاب كما في قول الشاعر:

إذا نزل السحـاب بأرض قـوم رعيناه لو كانـوا غـضابا [4]

وقوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي كثير الدر كحلب الشاة حالا بعد حال، وقيل مدرارا متتابعا.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[5] أي: يكثر أموالكم وأولادكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ وهذا كله مما يميل إليه طبع البشر.

ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله عليه السلام قال: « ثلاث من أمر الجاهلية لا تتركها أمتي، الاستسقاء بالأنواء والطعن في الأنساب والنياحة»[6]، أخرجه الطبراني في الكبير، وابن ماجة في صحيحه.

ومن جوالب الرزق العفاف والعمل بالطاعة كما في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بقوم نماءً فتح عليهم باب رفق وأمانة واستعملهم فيما يرضيه عنهم وتواصوا فيما بينهم،

---

[1] الربيع بن صبيح السعدي البصري:أول من صنف بالبصرة، كان عابدا ورعا، وفي روايته للحديث ضعف، خرج غازيا إلى السند فمات ودفن في إحدى الجزر، (ت 160 هـ /777 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب:الربيع بن صبيح، (15/3).

[2] "تفسير الخازن"، (345/4).

[3] نوح: 11.

[4] هذه الأبيات من البحر الوافر لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، انظر : تفسير الخازن ، (345/4).

[5] نوح: 12.

[6] بلفظ آخر، "المعجم الكبير"، باب:عمرو بن عوف المزني، رقم:20، (19/17)، ذكره الهيثمي في: "مجمع الزوائد"، (13/3)، وقال: فيه كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف.

وإذا أراد الله بقوم اقتصافا فتح عليهم باب خيانة فتح عليهم باب خيانة واستعملهم في مساخطه فيأتيهم البلاء من حيث لا يحتسبون»[1].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " منذ قتل عثمان ما مضت سنة إلا وأحدث الناس فيها بدعة وما أحدثوا بدعة إلا رفعت بها بركة من بركات الأرض والسماء ولا يزال الناس كذلك حتى تقوم الساعة، وما من سنة تأتي على الناس إلا والتي قبلها خير منها، وما من قوم يخلفون إلا والذين من قبلهم خير منهم، فآباؤكم خير من أبنائكم إلى يوم القيامة، إلا أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله " [2]، قيل هم العلماء العاملون، وقيل هم عامة أهل السنة لقوله عليه الصلاة والسلام: « أمتي كالمطر لا يدرى أخير أوله أم آخره »[3]، وفي حديث آخر: « لن يخزي الله أمة أنا قائدها وعيسى سائقها ومهديها وسطها»[4]، وفي حديث آخر: « خير أمتي أولها وآخرها وبين ذلك نهج أعوج، ما أنا منهم ولا هم مني »[5] انتهى. ولعله ﷺ لم يرد بالنهج الأعوج زمن هيجان الفتن وخروج الخوارج والروافض وفشو الاعتزال والقول بنفي القدر وظهور طوائف المرجئة والزيدية، حتى استمال العباسية إلى مثلهم فجعلوا يقتلون ويعذبون أئمة الحق على القول بخلق القرآن والعمل على مذاهبهم الفاسدة، حتى أبطل الله تعالى الصولة بظهور الأئمة عليهم فانقطعت صولتهم وذهبت دولتهم، كما قيل أن للحق جولة وأن للباطل صولة [فإذا جاءت جولة الحق ذهبت صولة

---

[1] "سلسلة الأحاديث الضعيفة" لناصر الدين الألباني، رقم:2306، (332/5)، وقال الألباني: ح ض.

[2] لم أقف عليه.

[3] وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: الأمثال، رقم: 2869، (449/4)، وقال الترمذي: ح س.

[4] وجدته بلفظ آخر ليس كما ذكره المؤلف: أخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه قال: لما اشتد جزع أصحاب رسول الله ﷺعلى من قتل يوم مؤتة قال رسول الله ﷺ: «ليدركن الدجال من هذه الأمة قوما مثلكم أو خيرا منكم ثلاث مرات ولن يخزي الله أمة أنا أولها وعيسى بن مريم آخرها»، قال الذهبي: مرسل وهو خبر منكر، انظر: "الدر المنثور" لجلال الدين السيوطي، (742/2).

[5] وجدته بهذا اللفظ : عن عروة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير هذه الأمة أولها وآخرها، أولها فيهم رسول الله ﷺ وآخرها فيهم عيسى ابن مريم وبين ذلك ثبج أعوج ليس منك ولست منهم»، انظر: "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني، باب عروة بن رويم، (123/6) ، و"سلسلة الأحاديث الضعيفة" للألباني، رقم: 3582، (77/8)، وقال الألباني: ح ض.

الباطل] [1]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [2]، أي باطل مضمحل، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[3]، وقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي﴾ [4]، فالزبد عبارة عن أهل دعوة الباطل، والماء عبارة عن أهل الحق والحقيقة، فأما الزبد الذي هو الباطل فيذهب جفاء أي باطلا تذهب به الرياح فلا يبقى منه شيء، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض القلوب، لما شبه الله عز وجل الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمة والإيمان بالنور، ضرب لذلك مثلا فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ جمع واد وهو المنفرج بين جبلين يسيل فيه الماء، وقوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ فيه اتساع وحذف تقديره سال في الوادي فهو كما يقول جرى النهر، والمراد جرى الماء في النهر فحذف المضاف لدلالة الكلام بقدرها.

قال مجاهد: "على قدر وسعها "[5]، وقال ابن جريج: " الصغير بقدره والكبير بقدره "[6] أي بقدر ملئه، وإنما ذكر أودية لأن المطر إذا نزل لا يعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية، بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون واد، فلهذا السبب جاء هذا الشكير.

---

[1] ساقط من : (أ).

[2] الأنبياء: 18.

[3] الإسراء: 81.

[4] الرعد: 17.

[5] بهذا اللفظ: بقدر ملئها، انظر: "التفسير البسيط" للواحدي، (332/12).

[6] "تفسير الخازن"، (12/3).

قال ابن عباس: "﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] يعني قرآنا"[2]، وهذا مثل ضربه الله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ يريد بالأودية القلوب، شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لأن المطر إذا نزل عم نفعه وكذلك القرآن، وشبه القلوب بالأودية لأن الأودية يسكن فيها الماء، وكذلك القلوب يسكن فيها الإيمان والعرفان ببركة القرآن وهذا خاص بالمؤمنين، لأنهم انتفعوا بنزول القرآن كما يشهد لذلك حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل ذلك من لم يرفع بذلك رأسا ومن لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[3].

قال الشيخ محيي الدين النووي في معنى هذا الحديث وشرحه: " أما " الكلأ " فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش، وقوله:" وكان منها أجادب" بالجيم والدال المهملة كما في الصحيحين وهي الأرض التي لا تنبت الكلأ، جمع جدبة على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضد الخصب"[4].

وقال الخطابي: " هي التي تمسك الماء ولا يسرع فيها النضوب"[5].

---

[1] الرعد: 17.

[2] "تفسير الخازن"، (13/3).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: بيان ما بعث به النبي ﷺ، رقم:2282، (1787/4).

[4] "تفسير الخازن"، (13/3).

[5] المصدر نفسه.

وفي رواية الهروي [1]:" بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع خذبة وهي الغدير التي تمسك الماء"[2].

قوله: " ورعوا " كما في صحيح مسلم من الرعي ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع ، و" القيعان" بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الأرض، وقوله : "فذلك من فقه في دين الله " يروى بضم القاف وهو المشهور وبكسرها، ومعناه الفهم في الأحكام، وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي ﷺ ضرب مثلا لما جاء به من الهدى والعلم بالأرض التي أصابها المطر[3].

قال العلماء: الأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس فإنهم منها خلقوا:

فالنوع الأول : من أنواع الأرض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت العشب فتنتفع الناس به والدواب بالشرب والرعي وغير ذلك.

وكذلك مثل هذا النوع من الناس ممن يبلغ الهدى والعلم فيحيي به الله قلبه فيحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينتفع به غيره.

قال مسروق: " صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت أوعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم"[4].

النوع الثاني: من أنواع الأرض أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها ولكن فيها فائدة لغيرها وهي إمساك الماء لينتفع به الناس والدواب.

---

[1] عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو إسماعيل: شيخ خراسان في عصره، من كبار الحنابلة، من ذرية أبي أيوب الأنصاري، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، (ت481 هـ / 1089 م)، انظر: "الأعلام"، باب: الهروي، (122/4).

[2] تفسير الخازن، (13/3).

[3] المصدر نفسه، (13/3).

[4] المصدر نفسه، (13/3).

وكذلك النوع الثالث من الناس فإن لهم قلوبا حافظة وليس لهم أفهام ثاقبة، فيبقى ما بعدهم من العلم حتى يجيء المحتاج إليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع هو وغيره.

الثالث: من أنواع الأرض، أرض سبخة لا تنبت مرعا ولا تمسك ماء، وكذلك النوع الثالث من الناس فإنهم ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام ثاقبة، فإذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون به غيرهم.

ثم زاد سبحانه في البيان بقوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا﴾[1] فالزبد ما يعلوا على وجه الماء عند الزيادة وقوة الجري فهو كالخبث، وكذلك ما يعلوا القدر عند غليانها، والمعنى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ الذي حدث من ذلك الماء، ﴿زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾ أي عاليا مرتفعا فرقى الماء فطفا عليه وهاهنا تم المثل الأول. ثم ابتدأ بمثل آخر يشاكله فقال: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾، الإيقاد جعل الحطب النار لنتقد ثم جعل تلك النار تحت الشيء ليذوب، ﴿ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ أي زينة والضمير في عليه يعود على الذهب والفضة وإن لم يذكر إلا ابتغاء الحلية فلا يكون إلا منهما ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ أو لطلب متاع آخر كالحديد والنحاس والرصاص مما يذاب وتتخذ منه الأواني وغيرها مما ينتفع به، والمتاع كلما ينتفع به، ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الأواني متاعا، ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ ومعنى ذلك أن الذي يوقد عليه في النار إذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء، فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق والزبد من الماء، ومن هذه الجواهر الذي لا ينتفع به وهو الباطل ولذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، فالحق هو الجوهر الصافي والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به. ثم زاد بيانا فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ أي ضائعا باطلا، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جفائه، والجفى المفترق يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته، والمعنى أن الباطل وإن علا في وقت فإنه

[1] الرعد: 17.

يضمحل ويذهب، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهو الماء الصافي والجوهر الخالص من هذه الأجرام التي تذاب ، ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيثبت ويبقى ولا يذهب.

وقال علماء الحقيقة هذا مثل ضرب الله للحق والباطل، فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق، وأهله كالزبد الذي يعلوا على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به، وكذلك الصافي من هذه الجواهر ويذهب العالي الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض، كذلك الحق والباطل، فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله، والحق يظهر هو وأهله وهذا أيضا مثل للمؤمن، واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس، ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة وهو مثل أيضا ضربه تعالى للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الأزل لأن الوادي إذا سال كنس كل شيء فيه مكن النجاسات والمستقذرات، كذلك النور إذا سال وأرى قلب العبد بالنور الذي قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] فتذهب الأباطيل وهي الأخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهي الأخلاق الحميدة.

ثم زاد في البيان سبحانه فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [2]، فاللام في الذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله للمؤمنين، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي أجابوا إلى ما وعدهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله، وللكافرين الذين لم يستجيبوا له فعلى هذا يكون قوله يضرب الله الأمثال للفريقين، فلما فرغ من بيان المحسنين أيضا صفة الكافرين

[1] الرعد: 17.

[2] الرعد: 17-18.

الذين هم بمعنى الزبد فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾[1].

ومن الواجب اعتقاده من الجائزات الذي لا يتم الإيمان إلا به براءة الرسل من تعمد الكبائر والإصرار على الصغائر ولو لم يرد ذلك في نص القرآن وإنما جاء في نصوص الأصوليين حتى كاد ينعقد عليه إجماعهم، وأول من قال بعصمة الأنبياء المعتزلة وأتبعهم على ذلك أهل الكلام والأصوليون، وينبغي أن يترك ذلك أدبا مع أنبياء الله وتشريفا لجانبهم، ولو أن المعتزلة لم يقصدوا بذلك إجلال الأنبياء عليهم السلام وإنما قصدوا بذلك الطعن فيما حمل إلينا أصحاب رسول الله ﷺ من نصوص الكتاب والسنة يريدون بذلك اجتثاث الإسلام من قواعده، فإن كلمة الحق لم تكمل سفينتها ولا انسدت ثلمتها إلا بالخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم فيما حملوه إلينا فهو كما حملوه لأنهم أولياء بإجماع الأمة، فكذلك الأولياء محفوظون وحفظهم بمعنى العصمة، ونصوص الملائكة طافحة بعصمة الملائكة دون عصمة الأنبياء، لأن عصمة الملائكة في أصل خلقهم وعصمة الأنبياء إنما بفضل الله عليهم بها بعد نشأتهم في أصل فطرتهم، فصار اعتقادنا لتبرئتهم من ذلك الجائز واجبا فتحصل الطمأنينة للمقتدي بهم، ومن الآيات المصرحة فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد يواقعوا الذنب فلتة من غير تعمد ولا إصرار فيقبلون على الله بعده بالحزن والبث.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[2] أي فعل ما لم يكن له فعله فأخطأ طريق الحق وضل، وضل حيث طلب الخلد في الجنة بأكل ما نهي عنه فخاب قصده ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب.

---

[1] الرعد: 18.

[2] طه: 121.

قال ابن قتيبة [1]: " يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال عاص لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فإنه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعود ذلك مرارا ويعتاده"[2].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « احتج آدم وموسى، فقال موسى يآدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة، فقال آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله تعالى علي قبل أن يخلقني بأربعين عاما، فحج آدم موسى»[3].

وفي رواية لمسلم: « قال آدم: بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟، قال موسى: بأربعين سنة، قال: فهل وجدت فيه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ؟ [4]، قال له: نعم، قال: فهل تلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»[5].

قال أبو سليمان الخطابي: " قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه و قدره ويتوهم أن قوله فحج آدم موسى من هذا الوجه وليس كذلك، وإنما معناه الإجبار بما تقدم عن الله بما يكون من أفعال العباد

---

[1] أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَريّ، أبو جعفر: قاض، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة، كان يحفظ كتب أبيه وهي 21 كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار، ولي القضاء بمصر سنة 321 هـ فجاءها، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب، ويرجح (الكندي) أنه عزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته، ويقول أكثر مؤرخيه أنه مات وهو على القضاء، وكانت وفاته بمصر، (ت 322 هـ / 934 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الكرماني، (156/1).

[2] "تفسير البغوي"، (277/3).

[3] ح ص، ورد بلفظ آخر مختلف، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: 2652، (2042/4).

[4] طه: 121.

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب القدر، باب:حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم:2652، (2043/4).

وإكسابهم ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقديم إرادة واختبار، فالحجة إنما تلزمهم بها والملامة تلحقهم عليها، وجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد هدم البناء ونقضه، وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله تعالى كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك وإنما كان تناوله الشجرة سببا لنزوله إلى الأرض التي خلق لها، وإنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال: أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني "[1].

[فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك]

قال الإمام فخر الدين الرازي: " اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيه إلى أقسام أربعة :

أحدهما: في باب الاعتقاد، وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم.

الثاني: ما يتعلق بالتبليغ، فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين من الكذب وتعمد المعاصي وإلا ارتفع الوثوق بالأداء، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدا ولا سهوا، ومن الناس من يجوز ذلك سهوا لأن الاحتراز من غير ممكن.

الثالث: ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأهم فيه على سبيل العمد وأجاز بعضهم على سبيل السهو.

الرابع: ما يقع في أفعالهم، فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال: أحدهما قول من جوز عليهم الكبائر. الثاني قول من منع الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة، الثالث أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول

[1] "تفسير الخازن"، (215/3).

الجبائي[1]. الرابع أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ، الخامس أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة إلا على سبيل العمد، ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل وهو قول الشيعة "[2].

واختلف الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال:

أحدها: قول من ذهب إلى أنهم معصومون من يوم الولادة حتى يأتيهم اليقين وهو الموت، وهذا قول ثاني للشيعة.

وذهبت طائفة إلى أن عصمتهم من وقت بلوغهم وهم أكثر المعتزلة.

الثالث: قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أهل السنة وعليه أبو الهذيل[3] وأبو علي من المعتزلة.

قال الإمام الشافعي: " والمختار عندنا أنهم لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حيث جاءتهم النبوة كما يستدل عليه بوجوه:

أحدهما: أنه لو صدر منهم الذنب لكانوا أدنى درجة من أحاد الأمة وذلك غير جائز لأن درجة النبوءة هي غاية الدرجات في الرفعة والشرف.

---

[1] محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي: من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره وإليه نسبة الطائفة (الجبائية)، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب، نسبته إلى جبى (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة، ودفن بجبى، له (تفسير) حافل مطول، ردّ عليه الأشعري، (ت 303 هـ / 916 م)، انظر ترجمته في:"الأعلام" للزركلي، باب: ابن المتوج، (256/6).

[2] "تفسير الخازن"، (216/3).

[3] محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبديّ، مولى عبد القيس، أبو الهذيل العلاف: من أئمة المعتزلة، (ت 235 هـ / 850 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو الهذيل العلاف، (131/7).

الثاني: لو صدر منهم لوجب أن لا يكونوا مقبولي الشهادة فيكونوا أقل حالا من عدول الأمة، وذلك غير جائز أيضا لأن معنى النبوءة والرسالة هو أن يشهدوا على الله أنه شرّع هذه الأحكام، وأيضا فإن الأنبياء والرسل يأتون يوم القيامة شهداء على الكل.

الثالث: لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال.

الرابع: ثبت ببديهة العقل أنه لاشيء أقبح ممن رفع الله درجته وأمّنه على وحيه وجعله خليفة في عباده وبلاده، فيسمع ربنا يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحا لغرضه، وقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوا لدخلوا تحت قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[2].

الخامس: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [3] ولفظه للعموم فيتناول الكل، يدل عليه فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل مأمور به تاركين لكل منهي عنه وذلك ينافي صدور الذنب عنهم.

السادس: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾] [4] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]، وقال في حق موسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[6] ، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى

---

[1] البقرة: 44.

[2] هود: 88.

[3] الأنبياء: 90.

[4] الحج: 75.

[5] آل عمران: 33.

[6] الأعراف: 144.

ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة وذلك ينافي صدور الذنب عنهم"[2].

وأما المخالف لما قدمناه فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه، فالجواب عنها أن تقول: أن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان من آدم حال النبوة وذلك ممنوع، والأولى أن يقال أن آدم حال ما صدرت منه هذه الأشياء ما كان نبيا وأن هذه الواقعة كانت قبل النبوة، وأن الله قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة، وقد أخبر الله تعالى بقدره في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[3] أي نسي عداوة إبليس له وما عهد إليه مع أنه لم يقصد المخالفة استحلالا لها، ولكنه اغترّ بحلف إبليس له: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[4] وتوهم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا، وقيل نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾أي قصدا للمخالفة، وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهى عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس، لهذا قيل أنها كانت توبة من ترك التحفظ لا من المخالفة، وقيل تأول أن الله لم ينهه عنها نهي تحريم.

فإن قيل: إذا انتفت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[5] مع ما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وبكائهم على ما سلف منهم، وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه؟، فالجواب عن ذلك: أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى وسنته في عباده وعظيم سلطانه وقوة بطشه ما يحملهم على الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم في تصرفهم

---

[1] ص:45 إلى47.

[2] "تفسير الخازن"، (216/3).

[3] طه: 115.

[4] الأعراف: 21.

[5] طه: 121.

بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا بها وأتوها على وجه التأويل والسهو، وقد يشفقون من تناول أمور الدنيا المباحة مخافة أن يؤاخذوا بها لأنهم عوتبوا بسببها، فحذروا من المؤاخذة بها، فهم خائفون وجلون فهي ذنوب بالإضافة إلى أعلا منصبهم، ومعاصي بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا لأنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم، فكانت هذه أدنى أفعالهم وأسوء ما يجري من أحوالهم، كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين فيرونها بالإضافة كالسيئات، وسيأتي إن شاء الله في كل موضع مما ورد عن الأنبياء مما يوهم ذنبا أو خلاف الأولى ما يليق به، وما قيل فيه إن شاء الله تعالى. ثم أتبع ما تقدم بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾[1] أي اختاره واصطفاه، ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ أي عاد عليه بالعفو والمغفرة ﴿وَهَدَىٰ﴾أي هداه إلى رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار[2]، وهذا سبيل ما روي عن جميع الأنبياء من إشخاص الخطايا لأنها خطايا في ضمنها عطايا وذنوب في ضمنها التقرب إلى علام الغيوب ما زادتهم من الله إلا قربا وما حملتهم إلا على البث والعبادة والحب، كخطيئة نوح بعموم دعوته على قومه وقوله: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾[3]، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾[4]، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ [5]، وقوله في حق سارة هي أختي، فإنه في جميع ذلك تأول ومدافع عن ربه ودينه، فنال الخلة بعد ذلك التي هي من أشرف المقامات، وكقتل موسى للقبطي قبل نبوءته فتاب الله عليه، وكان عليه السلام متأولا في قتله لأنه كافر بالله وجده يقاتل مؤمنا.

---

[1] طه: 122.

[2] "تفسير الخازن"، (217/3).

[3] هود: 45.

[4] الصافات: 89.

[5] الأنبياء: 63.

وأما اتخاذ النصارى عيسى إلها من دون الله فإنه لم يكن عن علم منه ولا قصد، لأن الله تعالى لما عاتبه يوم القيامة فقال له: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] ارتعد حتى سقط على وجهه، فقال له: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[2] فعذره الله سبحانه لعلمه بصدقه فيما اعتذر به فقال: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[3]، فلهذا المعنى تدافعوا الشفاعة للناس يوم القيامة لشفقتهم وخجلهم من إشخاص الذنوب ولو كانت ليست بذنوب في الحقيقة حتى خلصت إلى نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه لم يقع منه ما يوهم ذنبا ولا خطيئة ولا خلاف.

ومن الجائز الواجب اعتقاده أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وقد انعقد إجماع السنة على ذلك خلافا للمعتزلة القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر محتجين بقوله ﷺ: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[4]، ولاحجة لهم في ذلك فإن معناه أنه لا يزني حالة الزنا وهو مؤمن تام الإيمان، لأن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصانها فينقص إيمانه حالة مباشرته الكبيرة ثم يعود إليه بعد ذلك بتوبة أو بغير توبة، وقد ثبت وصح أنه عليه الصلاة والسلام قال: « من قال لاإله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة، فقال: أبو ذر " وإن زنى وسرق؟، قال: « وإن زنى وإن سرق »، وإن زنا وسرق، ثم قال الثالثة أبو ذر: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟، قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبا ذر»[5].

---

[1] المائدة: 116.

[2] المائدة: 116 إلى 118.

[3] المائدة: 119.

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: المظالم والغصب، باب: النهبى بغير إذن صاحبه، رقم: 2475، (136/3).

[5] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئا، رقم:94، (95/1).

واحتجوا أيضا بقول النبي ﷺ: « الكبيرة رابدة الكفر »[1]، قال النووي في تفسيره: " أي علامة الكفر لأنها توجب الكفر"[2]، كما يشهد لذلك قوله ﷺ في حديث آخر: « الحمى رابد الموت»[3] وكثيرا ما يحم الإنسان ولا يموت، وكذلك مرتكب الكبيرة فإنه كثيرا ما يرتكبها ولا يكون بذلك كافرا، اللهم إلا أن يرتكبها وهو مستحل لها لقوله عليه الصلاة والسلام: « من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو كافر بالله»[4]. ويؤيد أهل السنة قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[5] وهو الجنة، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾[6]، فالإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب، وقيل هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، والإثم أيضا جنس يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام، والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته وجمعه كبائر، والفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وهي ما فحش من الكبائر، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ويطلق على مقاربة المعصية من قولك ألممت بكذا، إذا قاربته من غير مواقعة، واختلف علماء السلف في معنى الآية فقيل هذا استثناء صحي، واللمم من الكبائر والفواحش، ومعنى الآية إلا أن يلم بالفاحشة مدة ثم يتوب أو يقع الواقعة ثم ينتهي وهو تأويل أبي هريرة ومجاهد والحسن.

---

[1] لم أقف عليه.

[2] لم أقف عليه.

[3] لم أقف عليه.

[4] ليس حديثا للنبي ﷺ، إنما قول من أقوال الزجاج، ولفظه:" من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك"، انظر: "تفسير الخازن"، (152/2).

[5] النساء: 31.

[6] النجم: 32.

وفي رواية عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن عمرو بن العاص: " اللمم ما دون الشرك"[1]، وقال أبو صالح: " سئلت عن قول الله عز وجل ﴿ٱللَّمَمَ﴾[2] فقلت هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاود فذكرت ذلك لابن عباس فقال: أعانك عليه ملك كريم" [3]، وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[4]، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما»[5]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.

قيل أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا تكون له إعادة ولا إقامة عليه، وقيل هو استثناء منقطع مجازه لكن اللمم، ولم يجعلوا اللمم من الكبائر والفواحش، ثم اختلفوا في معناه، فقيل هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به في الإسلام، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين إنكم كنتم بالأمس تعملون معنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت بن أسلم، وقيل اللمم هي الصغيرة من الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك مما هو دون الزنا وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي.

والرواية الأخرى عن ابن عباس قال :" ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: « أن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك لا محالة، فزنا العين النظر والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذبه»[6].

---

[1] "تفسير البغوي"، (311/4).

[2] النجم: 32 .

[3] "تفسير البغوي"، (311/4).

[4] النجم: 32.

[5] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النجم، رقم: 3284 ، (250/5)، قال الترمذي: ح س.

[6] انظر: "تفسير البغوي"، (312/4)، والحديث أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، باب: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم:7719 ، (152/13)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ولمسلم قال: « كتب الله على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناهما البطش، والرجل زناهما الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذب»[1].

وقيل اللمم على قسمين أحدهما: أنه كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس وصوم رمضان ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

القسم الثاني: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه.

وقيل هو ما لمّ على القلب، أي خطر، وقيل اللمم النظرة من غير عمد فهي مغفورة، فإن عاد النظر فليس بلم بل هو ذنب، قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه لما سأله عن النظرة الأولى بغير قصد: «الأولى لك والثانية عليك»[2].

[فصل في الكبائر وحدّها وتمييزها عن الصغائر]

قال العلماء أكبر الكبائر الشرك بالله وهذا ظاهر لا خلاف فيه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[3]، ويليه القتل بغير حق، وأما ما سواهما من الزنا، واللواط، وشرب الخمر، وشهادة الزور، وأكل أموال اليتيم بغير حق، والسحر، وقذف المحصنات، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل الربا وغير ذلك من الكبائر التي ورد بها النص، فلها تفاصيل وأحكام

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر باب: قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم:2657، (2047/4).

[2] ح س، أخرجه أحمد بن حنبل بلفظ مختلف في مسنده ، باب: مسند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، رقم :1369، (464/2)، ونصه: عن علي، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: " لا تتبع النظر النظر، فإن الأولى لك وليست لك الأخيرة"، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريجه للمسند: حسن لغيره.

[3] لقمان: 13.

تعرف بها مراتبها ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتبة عليها، فعلى هذا يقال في كل واحدة منها هي من أكبر الكبائر بالنسبة إلى ما دونها.

وقد جاء عن ابن عباس أنه سئل عن الكبائر أسبعٌ هي؟، فقال: " هي إلى السبعين أقرب"[1]، وفي رواية : " إلى السبعمائة أقرب "[2].

وقد اختلف علماء السلف في حد الكبيرة وتمييزها من الصغيرة، فجاء عن ابن عباس أنه قال: " كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة "[3]، وبمثله قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني[4] وحكاه القاضي عياض[5] عن المحققين، واحتج القائلون بهذا بأن كل مخالفة فهي بالنسبة إلى جلال الله كبيرة، وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى كبائر وصغائر، وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأئمة[6].

وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقد اختلف في ضبطها، وعن ابن عباس أنه قال: " الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب "[7].

---

[1] "تفسير الخازن"، (211/4).

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق: عالم بالفقه والأصول، كان يلقب بركن الدين، قال ابن تغري بردي: وهو أول من لقب من الفقهاء، نشأ في أسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرّس فيها، ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق، فاشتهر، له كتاب (الجامع) في أصول الدين، خمس مجلدات، و(رسالة) في أصول الفقه، وكان ثقة في رواية الحديث، وله مناظرات مع المعتزلة، مات في نيسابور ودفن في أسفرايين، (ت 418 هـ / 1027 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الأفليلي، (61/1).

[5] عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي، من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى – ط، (ت 544 هـ / 1149 م)، انظر:"الأعلام" للزركلي، باب: القاضي عياض، (99/5).

[6] انظر: "تفسير الخازن"، (211/4).

[7] المصدر نفسه.

وقال الغزالي[1] في البسيط الضابط الشامل في ضبط الكبيرة كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف واستحداث ندم، كالمتهاون بارتكابها والمتجرئ عليها اعتيادا، فما اشعر منها بالاستخفاف والتهاون فهو كبيرة، وما تحمله عليه فلتات النفس وفترة مراقبة التقوى فلا ينفك عن ندم ممتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية فهذا لا يسقط العدالة وليس بكبيرة [2].

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[3] في كتابه "القواعد" :" إذا أردت معرفة الفرق بين الصغيرة والكبيرة، فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر، وإن ساوت أدنى مفاسد وإن زادت عليها فهي من الكبائر، فمن أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها، أو أمسك مسلما لمن يقتله فلا شك أن مفسدة ذلك أعظم ممن أكل درهما من مال يتيم مع كونه من الكبائر، وكذلك لو دل الكفار على عورة من عورات المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته، فإن تسميته إلى هذه المفسدة أعظم من تولية يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر، وكذلك لو كذب على إنسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه، ولو كذب على إنسان كذبا علم أنه يؤخذ منه ثمرة جنانه بسبب كذبته، لم يكن من الكبائر"[4].

---

[1] محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، له نحو مئتى مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، من كتبه: "إحياء علوم الدين"، (ت 505 هـ / 1111 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الغزالي، (22/7).

[2] "تفسير الخازن"، (211/4).

[3] عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقيّ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعيّ بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، (ت 660 هـ / 1262 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن عبد السلام، (21/4).

[4] انظر: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" لعز الدين بن عبد السلام، (23/1)، و"تفسير الخازن"، (212/4).

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح [1] في تأويله :" كل ذنب كبر وعظم عظما يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة، ووصف بكونه عظيما على إطلاق، فهذا حد الكبيرة ولها أمارات منها الحد ومنها ألا يعاد عليها بالعذاب ونحوها في الكتاب والسنة، ومنها ما وصف فاعلها بالفسق، وأن يضاف إليها اللعن كلعن من سب أباه وأمه أو كلعن الله من غير منار الأرض ونحو ذلك"[2].

ثم أتبع سبحانه ما تقدم بما يعظم رجاء المؤمنين ويطعمهم في رحمته فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [3]، قال ابن عباس: " لمن فعل ثم تاب وأناب "[4].

وروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس أنهما قالا: " لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار"[5]، ومعناه أن الكبيرة تمحى بالاستغفار والتوبة، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها، وحد الإصرار هو أن يتكرر منه فعل الصغيرة تكرارا يشعر بقلة مبالاته بذنبه"[6].

يروى أن ثلاثة من المعتزلة لما بلغهم عن مالك أنه كان يقول : لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، فقالوا لأصحابهم: لنتقرب إلى الله بدم مالك، فسلوا سيوفهم وتوجهوا إليه، فلما دخلوا عليه قالوا له: إنا جئنا نستفتيك في امرأة حملت من الزنا وماتت في شهر رمضان بسبب شرب الخمر وهي مفطرة، فقال لهم: أوثنية هي؟، قالوا: لا، قال لهم: أمجوسية هي؟، قالوا: لا، قال:

---

[1] عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) بن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوريّ الكردي الشرخاني، أبو عمرو، تقيّ الدين، المعروف بابن الصلاح : أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، ولد في شرخان (قرب شهرزور) وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان، فبيت المقدس حيث ولي التدريس في الصلاحية وانتقل إلى دمشق، فولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث وتوفي فيها، له كتاب " معرفة أنواع علم الحديث " يعرف بمقدمة ابن الصلاح، (ت 643 هـ / 1245 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الصلاح، (207/4).

[2] "تفسير الخازن"، (212/4).

[3] النجم: 32.

[4] "تفسير الخازن"، (212/4).

[5] المصدر نفسه.

[6] المصدر نفسه.

أيهودية هي؟، قالوا: لا، قال: أنصرانية هي؟، قالوا: لا، قال لهم: أمجوسية هي؟، قالوا: لا، قال: أيهودية هي؟، قالوا: لا، قال: أنصرانية هي؟، قالوا: لا، قال: إذا تكون مسلمة مؤمنة، قالوا: تقول بإيمانها؟، قال: أنتم قلتم ذلك، إنكم أخرجتموها من جميع الملل حتى لم تبق إلا ملة الإسلام، فلا تكون بزعمكم إلا مسلمة مؤمنة، فلما سمعوا ذلك سقط في أيديهم، فلم يجدوا وجها يستحلون به دم مالك، فرجعوا بجنية، فلما رجعوا إلى أصحابهم قالوا لهم: أفرغتم من قتل مالك؟، قالوا: لا، قالوا لهم: فما منعكم من ذلك؟، قالوا: دخلنا على رجل هو أعقل الناس أو أعلمهم، تلطف بنا حتى أخذ الحجة علينا فلم يظهر لنا وجه نستحل به دمه فرجعنا.

ثم نص سبحانه على آية هي أعم في نفي الكفر عن المؤمن المذنب وقبول توبته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1]، ثم أتى بآية أخرى هي أعم منها وأوجب لغفران الذنوب فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]. وفصل في ذلك علماء السلف فقالوا أما الصغائر فإنها تغفر باجتناب الكبائر ما لم يصر الفاعل أو يستصغر فتكون كبائر، وأما الكبائر فلا بد لها من التوبة، وللتوبة شروط: وهي الإقلاع عن الذنب والندم، ونية ألا يعود إليه فيما بقي من عمره مع الندم والبث والبكاء، وإظهار الضراعة وهجران أصحابه عليه مدتها، وهجران البلد الذي كان يعصي الله تعالى فيه، وتجديد التوبة كلما رآها حبا كان يعصي الله معه، أو موضعا كان يعصي الله فيه، كما فعل أبو لبابة بن المنذر[3].

---

[1] النساء: 48.

[2] الزمر: 53.

[3] أبو لبابة بن عبد المنذر صحابي من الأنصار من بني أمية بن زيد من الأوس، استخلفه النبي محمد على المدينة المنورة في غزوتي بدر والسويق، وشهد معه باقي المشاهد، وقيل أنه ممن تخلّفوا عن غزوة تبوك، وندم على ذلك، فربط نفسه في سارية المسجد النبوي أيامًا إلى أن حلّه النبي محمد بيده، وقد توفي أبو لبابة في خلافة علي بن أبي طالب، انظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير، باب: بشير بن عبد المنذر، (399/1).

يروى أنه لما طال الحصار على بني قريظة أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجلس إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم، فقالوا: يا أبا لبابة أترى لأن ننزل على حكم محمد؟، قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه [الذبح][1]، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد ألا يطأ بني قريظة أبدا، ولا أرى في بلد قد خنت الله ورسوله فيه أبدا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرت له ، وأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، قال: وأقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فتربطه بالجذع [2].

وقال أبو عمر: وروى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجة فإذا فرغ أعادته [3].

وعن عبد الله بن قرط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، قالت: فقلت ممن تضحك أضحك الله سنك؟، قال: « تيب على أبي لبابة »، قالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟، قال: « بلى إن شئت»، قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب الله عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة

---

[1] في (ب): الخنق.

[2] ح ض، أخرجه الطبري عن الزهري مرسلا، انظر: "تفسير الخازن"، (305/2).

[3] لم أقف عليه.

أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو يطلقني بيده، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه[1].

ولما تخلف كعب بن مالك [2] وهلال بن أمية [3] ومرارة بن الربيع[4] عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فيمن تخلف من الأعراب والمنافقين يعتذرون له ويسألون منه الاستغفار فعذرهم واستغفر لهم ولم يأت معهم الثلاثة، فأتوا النبي ﷺ بعدما انصرف الأعراب والمنافقون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[5] ، هذا معطوف على ما قبله تقديره ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [6]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[7]، وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم المرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾[8]، وفي معنى خلفوا تأويلان:

---

[1] "تفسيرالبغوي"، (628/3).

[2] كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاري السلمي (بفتح السين واللام) الخزرجي: صحابي، من أكابر الشعراء من أهل المدينة، اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء النبيﷺ وشهد أكثر الوقائع، ثم كان من أصحاب عثمان، وأنجده يوم الثورة، وحرّض الأنصار على نصرته، ولما قتل عثمان قعد عن نصرة علي فلم يشهد حروبه، وعمي في آخر عمره وعاش سبعا وسبعين سنة، قال روح بن زنباع: أشجع بيت وصف به رجل قومه، (ت 50 هـ / 670 م)، انظر: "الأعلام"، باب: كعب بن مالك، (228/5).

[3] هلال بن أمية صحابي من الأنصار من بني واقف من الأوس، أسلم في أوائل الأنصار، وهو من تولى تكسير أصنام بني واقف، وقيل شهد غزوة بدر بينما لم يذكره ابن إسحاق فيمن شهدها من بني واقف بن امرؤ القيس بن مالك، شهد هلال غزوة أحد، وكانت معه راية بني واقف يوم فتح مكة، وهو أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، انظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، باب: هلال بن أمية، (380/5).

[4] مرارة بن الربيع صحابي من الأنصار من بني عمرو بن عوف من الأوس، قال ابن الكلبي أنه شهد غزوة بدر، بينما لم يذكره ابن إسحاق فيمن شهدها من بني عمرو بن عوف، وهو أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، انظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، باب: مرارة بن الربيع، (129/5).

[5] التوبة: 118.

[6] التوبة: 117.

[7] التوبة: 118.

[8] التوبة: 106.

أحدهما: أنهم خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وأخرى من هؤلاء الثلاثة مدة، ثم تاب عليهم بعد ذلك.

التأويل الثاني: أنهم خلفوا عن غزوة تبوك، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ فيها.

وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، فقد روي عن ابن شهاب الزهري أنه قال:" أخبرنا عبد الرحمان بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: وكان أعلم قومه وأوعاهم لحديث رسول الله ﷺ:" سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا غزوة تبوك، غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حتى تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس وكان من خبره حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جعلت قبلها راحلتين حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول يريد غزوة إلا وري بغيرها حتى كانت الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومجاوزا، واستقبل عدوا كثيرا فبين للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يريد بذلك الديوان، قل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك يستخفي ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل، وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وأتى إليها أسرع، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه أعدوا لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا، وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إن أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط

الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن أعذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟»، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو كذلك إذا رأى رجلا مبيضا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: « كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لزمه المنافقون، قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني شيء فطفقت أتذكر الكذب وأقول بما أخرج من سخطة رسول الله غدا، واستعنت على بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي أن رسول الله ﷺ قد أطل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر فبدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما رآني تبسم تبسم المغضب، ثم قال: « تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال: «ما خلفك ألم تكن قد اتبعت ظهرك؟»، قلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا ولكن والله لقد علمت أني لو حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي، ولئن حديث صدق تجد علي فيه أني لأرجوا فيه عقبى الله، وفي رواية: "عفو الله عز وجل"، والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك ما هو قاض»، فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت لرسول الله ﷺبما اعتذر إليه المخلفون، فقد كان كافيك استغفار رسول الله ﷺ،

قال: فوالله ما زالوا يأنبونني حتى إذا أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحد؟، قالوا: نعم، لقيه رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما؟، قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقعي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا، ففيهما إسوة، قال: ومضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس، وقالوا: تغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكنا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشهد القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟، ثم أصلي قريبا منه وأسارق النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟، قال: فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا قبطي من قبط أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟، قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه، أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك، قال: فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء، فيممت بها إلى السور فسجرتها، حتى إذا مضت أربعون يوما من الخمسين، واستلبت الوحي وإذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت أطلقها أم ماذا أفعل بها؟، قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية

إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟، قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: والله ما به من حركة إلى شيء، و والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول لي إذا استأذنت فيها، وأنا رجل شاب، قال: فلبثت عشرة ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حيث نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلم يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر بتوبة، قال: فخرت ساجدا وعلمت أن قد جاء فرج من الله، قال: وأذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلى فرس وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءه الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتيمم رسول الله ﷺ وإذا الناس يلقونني فرحا يهنئونني بالتوبة، ويقولون ليهنئك توبة الله عليك حتى دخلنا المسجد، فإذا رسول الله ﷺ حوله الناس، فقام طلحة بن عبد الله [1] يهرول حتى صافحني وتلقاني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور: « أبشر بخير يوم ما مر عليك منذ ولدتك أمك »، قال: فقلت من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟، قال: « بل من عند الله »، وكان رسول الله ﷺ إذا استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، قال: فقلت إني أمسك سهمي الذي

[1] طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني، أبو محمد: صحابي، شجاع، من الأجواد، وهو أحد العشرة المبشَّرين، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، قال ابن عساكر: كان من دهاة قريش ومن علمائهم، (ت 36 هـ / 656 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: طلحة الجود، (229/3).

بخيبر، قال: وقلت يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: فو الله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله به، فوالله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجوا أن يحفظني الله فيما بقي[1]. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [2]، حتى بلغ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [3]، حتى بلغ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]. قال كعب: والله ما أنعم علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبت فأهلك كما هلك الذين كذبوا الله ورسوله، إن الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي ما لم يقل لأحد، فقال سبحانه في شأنهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [5]. قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجى رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك، وليس الذي ذكر في تخلفنا عن الغزو، وإنما تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف بالله له واعتذر إليه[6]، وفي رواية: ونهى النبي ﷺ عن كلامي و كلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس كلامنا فلبث كذلك حتى طال علي الأمر وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من

---

[1] انظر: "درج الدرر في تفسير الآي والسور" لعبد القاهر الجرجاني، باب: سورة التوبة، (804/1).

[2] التوبة: 117.

[3] التوبة:117 – 118.

[4] التوبة: 119.

[5] التوبة: 95 – 96.

[6] "تفسير الخازن"، (417/2).

الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد ولا يسلم علي ولا يصلي علي، وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت محسنة في شأني معتنية بأمري، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة تيب على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه أبشره، قال: « إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل »، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا " [1]، أخرجه الشيخان.

فانظر إلى عظمة الله تعالى في قلوب السلف، وجدهم في أمر الدين وإقبالهم على الله بالكلية، يظهر لك بديهة فساد الأمة اليوم وعدم اعتنائهم بالدين وتهاونهم بالتوبة، قال عليه الصلاة والسلام: « إن المؤمن يرى ذنوبه فوق رأسه كالجبل يريد أن ينقض عليه فهو مشفق منه أبدا، وإن المنافق أو الفاجر يرى ذنوبه حول أنفه[كالذبابة][2] كلما نزلت قال لها أف حتى تفاجئه فتهلكه»[3]، أخرجه ابن ماجه في صحيحه بسند لا بأس به.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم إذا أمرهم رسول الله ﷺ بأمر لا يستفسرون ولا يتروون فيه، بل يبادرون الإمتثال من غير ترك ولا استفسار، وكذلك التابعون وتابعو التابعين فيما تأمرهم المشايخ به أو تنهاهم عنه.

يروى أن إبراهيم عليه السلام رأى في النوم أن الله يأمره بذبح ابنه فاستيقظ مذعورا، فأتى إسماعيل عليه السلام من حينه فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ

---

[1] ح ص، انظر: "تفسير الخازن"، (418/2)، وأخرجه البخاري في صحيحه، رقم:4418، باب: حديث كعب بن مالك، (3/6)، وفي: "صحيح مسلم"، رقم: 2769، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (2120/4).

[2] في (ب): كالذباب.

[3] ح ص، لم أقف عليه في "سنن ابن ماجة"، ووجدته بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، رقم:6308، باب: التوبة، (67/8)، ونصه: حدثنا عبد الله بن مسعود، حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه».

يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] به من ذبحي، ستجدني إن شاء الله من الصابرين على ألم الذبح في مرضات ربي، فإن إبراهيم عليه السلام لم يستفسر أمر ربه ولا تروى فيه، وكذلك إسماعيل عليه السلام فإنه لم يستفسر أمر أبيه ولا تروى فيه.

قال ابن عباس: " لم ير في منامه أنه ذبحه وإنما أمر بذبحه"[2]، وقيل أنه رأى أنه يعالج ذبحه ولم ير إراقة دمه، ورؤية الأنبياء حق إذا رأوا شيئا فعلوه، واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم في ذبحه على قولين مع اتفاق أقوال الكتابيين أنه إسحاق:

فقال قوم أنه إسحاق وإليه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود والعباس، ومن التابعين بعدهم كعب الأحبار، وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة[3] وعطاء ومقاتل والزهري والسدي.

واختلفت الرواية عن ابن عباس وروي عنه أنه إسماعيل، ومن ذهب إلى أنه إسحاق قال كانت هذه القصة بالشام.

وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: " أري إبراهيم ذبح إسحاق في المنام وهو بالشام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر من منى، فلما أمره الله بذبح الكبش ذبحه فسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال.

---

[1] الصافات: 102.

[2] "تفسير الخازن"، (22/4).

[3] عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس: كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا، (ت 105 هـ / 723 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عكرمة بن أبي جهل، (244/4).

والقول الثاني: أنه إسماعيل وإليه ذهب عبد الله بن سلام والحسن وسعيد بن المسيب والشافعي ومجاهد والربيع بن أنس[1] ومحمد بن كعب القريضي والكلبي[2] ورواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن كامل[3] عن ابن عباس.

قال: " المفدي هو إسماعيل وكلا القولين مروي عن رسول الله ﷺ"[4].

واحتج من ذهب إلى أن الذبيح إسحاق بقوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾[5]، أمر بذبح من بشر به وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ﴾[6] عقب البشارة بعد قصة الذبح فيدل على أنه تعالى إنما بشره بالنبوءة لما تحمل من الشدائد في قصة الذبح فتثبت بما ذكرناه أن أول الآية وآخرها يدل على أنه إسحاق هو الذبيح، وبما ذكر أيضا من كتاب يعقوب أي ولده يوسف لما كان ولده يحصر من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

---

[1] الربيع بن أنس البكري تابعي من أهل البصرة، ومفسّر، ومُحدَّث، أحاديثه في السنن الأربعة، من قبيلة بكر بن وائل، وكان من أهل البصرة، وقد لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، هرب من الحجاج بن يوسف الثقفي فأتى مرو فسكن قرية منها يقال لها "برز"، ثم تحول إلى قرية أخرى منها يقال لها "سذور"، وكان عالم مرو في زمانه، وقد روى الليث عن عبيد الله بن زحر عنه، (ت 139 هـ / 757 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: الربيع بن أنس بن زياد البكري، (169/6).

[2] هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي، أبو المنذر: مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها كأبيه، (ت 204 هـ / 819 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن السائب الكلبي، (87/8).

[3] ابن الخفاف يوسف بن المبارك بن كامل بن أبي غالب الحسين بن محمد الخفاف البغدادي أبو الفتح بن أبي بكر: توفي من أولاد المحدثين كان من جملة فقهاء المدرسة النظامية، (ت601 هـ / 1205م)، انظر ترجمته في: "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: ابن المبارك، (131/29).

[4] "تفسير الخازن"، (22/4).

[5] الصافات: 101 – 102.

[6] الصافات: 112.

واحتج من ذهب إلى أن الذبيح هو إسماعيل بأن الله ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح، فقال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [1] فدل على أن المذبوح غيره، وأيضا فإن الله تعالى في سورة هود قال: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾[2]، فكيف يأمر بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة وهو يعقوب بعده. ووصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾[3]، وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ [4]، لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى له بذلك.

وقال القرطبي[5]: "سأل عمر بن عبد العزيز رجلا من علماء اليهود وكان أسلم وحسن إسلامه، أي ابني إبراهيم أمر الله بذبحه؟، فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكن يحسدونكم يا معشر العرب أن يكون أباكم هو الذي أمره الله بذبحه ويدعون أنه إسحاق أبوهم"[6]. ومن الدليل أيضا أن قرني الكبش كانا معلقين على الكعبة في أيدي بني إسرائيل إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير، قال الشعبي: " لقد رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة"[7]، وقال ابن عباس: " والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام، وأن رأس الكبش لمعلق

---

[1] الصافات: 112.

[2] هود: 71.

[3] الأنبياء: 85.

[4] مريم: 54.

[5] محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها، من كتبه "الجامع لأحكام القرآن "، (ت 671 هـ / 1273 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القرطبي، (322/5).

[6] "تفسير البغوي"، (36/4).

[7] "تفسير البغوي"، (36/4).

بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش"[1] يعني يئس، وقال الأصمعي[2]: " متى كان إسحاق بمكة، إنما كان بمكة إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه"[3].

وفي بعض الأخبار أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4]، وبشر به فقال: إذا هو لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي، قيل له أوف بنذرك فهذا هو السبب، فأمر الله أباه بالذبح فقال لإسماعيل: انطلق فقرب لله قربانا فأخذ سكينا وحبلا، وانطلق معه حتى إذا كانا بين الجبال قال الغلام: يأبت أين قربانك، فقال: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [5]. وكان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل عل البراق فيغدوا من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أري في المنام أنه يذبحه وذلك ليلة التروية كان قائلا يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح رأى في نفسه أي تفكر من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟، فمن ثم سمي ذلك اليوم يوم التروية، فلما أمسى رأى في المنام ثانيا، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي ذلك اليوم يوم عرفة، وقيل رأى ذلك ثلاثة ليال متتابعة فلما عزم على نحره سمي ذلك اليوم يوم النحر، فلما استيقن ذلك أخبر ابنه فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا﴾ [6] من الرأي على وجه المشاورة. فإن قيل: لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله وما الحكمة

---

[1] "تفسير البغوي"، (36/4).

[2] عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جده أصمع، ومولده ووفاته في البصرة، (ت 216 هـ / 831 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: الأصمعي، (162/4).

[3] "تفسير البغوي"، (36/4).

[4] الصافات: 100.

[5] الصافات: 102.

[6] الصافات: 102.

في ذلك؟، فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله وليعلم صبره على أمر الله عز وجل وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره لئلا يجزع، وليراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء بالطمأنينة والصبر، وهو كالمستأنس به، ويكتسب التوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله. وإن قيل: لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما الحكمة في ذلك؟، فالجواب: أن هذا الأمر كان في نهاية الحقيقة على الذابح والمذبوح، فورد في المنام للتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كانى ذلك أقوى في الدلالة، ورؤيا الأنبياء وحي وحق، قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾[1] أي قال الغلام لأبيه: يا أبت افعل ما تؤمر ربه.

وروي أنه لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذه الشعبة نحطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمره الله به من ذبحه فقال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2]، وإنما علق ذلك بمشيئة الله تهالى على سبيل التبرك، وإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾[3] أي انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم عليه السلام أسلم ابنه، وأسلم الإبن نفسه، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه على الأرض، قال ابن عباس:" [أضجعه] [4] على جنبه على الأرض"[5]، فلما فعل ذلك قال له ابنه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينضخ عليها من دمي شيء فينتقص أجره وتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرئ عليها السلام

---

[1] الصافات: 102.

[2] الصافات: 102.

[3] الصافات: 103.

[4] في (ب): أطبقه.

[5] "تفسير البغوي"، (37/4).

مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلا لها عني، فقال له إبراهيم عند ذلك: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه، ثم أقبل عليه بقلبه وهو يبكي وقد ربطه والابن يبكي، فلما وضع السكين على حلقه فلم يجد شيئا ثم إنه استحدها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا تستطيع أن تقطع شيئا، قيل أن الله تعالى ضرب صحيفة من نحاس على حلقه، والأول أبلغ في القدرة وهو منع الحديد من اللمع من غير سبب، فقال الابن عند ذلك: يا أبت اكفني لوجهي فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني فأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله، وأما أنا فإني لا أنظر الشفرة ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وروي عن كعب الأحبار وابن إسحاق[1] عن رجاله قالوا: " لما أري إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان لأن لم أفتتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا، فتمثل الشيطان في صورة رجل وأتى أم الغلام وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإبنك؟، قالت: ذهب به يحتطب من هذا الشعب، قال: لا والله، والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من أن يفعل به ذلك، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟، قال: نحطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: لا والله ما يريد إلا ليذبحك، قال: ولم، قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعا وطاعة، فلما امتنع الغلام منه أقبل على إبراهيم قال له: أين تريد أيها الشيخ؟، قال: أريد الشعب لحاجة لي، قال له: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام فقال: إليك عني يا عدو الله، فو الله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئا مما أراد وامتنعوا منه بعون الله عز وجل"[1].

---

[1] محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة، له" السيرة النبويّة " هذبها ابن هشام، (ت 151 هـ / 768 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن إسحاق، (28/6).

[1] "تفسير البغوي"، (38/4).

وروي عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسبقه إبراهيم ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فمضى إبراهيم لأمر الله عز وجل وهو قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾[1] أي قد حصل المقصود من تلك الرؤيا حيث ظهر كمال الطاعة والانقياد لأمر الله وكذلك الولد [2].

فإن قيل كيف قيل قد صدقت الرؤيا وكان رأى الذبح ولم يذبح، وغنما تصديقا لو حصل منه الذبح؟، فالجواب عن ذلك أن جعله مصدقا لأنه بذل وسعه وجهوده وأتى بما أمكنه وفعل ما يفعله الذابح، فقد حصل المطلوب وهو استسلامها لأمر الله وانقيادهما لذلك، فقال له: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3] في طاعتنا.

ثم أثنى سبحانه على إبراهيم وآله فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾[4]، أي الاختبار الظاهر حيث اختبر بذبح ابنه، ثم ذكر الامتنان عليهما بقوله:﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [5].

يروى أن إسماعيل عليه السلام قال لأبيه لما رأى المدية: لا تصنع شيئا يا أبت أغمض عينيك عند إمرار المدية على حلقي لئلا تمنعك الشفقة علي بامتثال أمر ربك، فأغمض إبراهيم عينيه وأمر السكين على مذبح إسماعيل، فأتى جبريل عليه السلام بالذبح فجعله على مذبح إسماعيل، فأمر إبراهيم المدية يريد مذبح الابن فصادفت مذبح الكبش، فلما سال الدم فتح إبراهيم عينيه فإذا هو بالكبش مذبوح، وجبريل عليه السلام جالس عند رأس إسماعيل، وقيل بل

---

[1] الصافات: 103 إلى 105.

[2] "تفسير البغوي"، (38/4).

[3] الصافات: 105.

[4] الصافات: 106.

[5] الصافات: 107.

أتى جبريل بالكبش فقال لإبراهيم: هذا فداء ابنك فاذبحه دونه، فكبر إبراهيم وكبر ابنه وكبر جبريل وكبر الكبش، فأخذه إبراهيم وأتى به المنحر من منى فذبحه[1].

قال أكثر المفسرين كان هذا الذبح كبشا رعى في الجنة أربعين خريفا، وقال ابن عباس: "الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم فحق به أن يكون ذبحا ولأنه تقبل مرتين"[2]، وقيل إنما سمي عظيما لأنه من عند الله تعالى، وقال الحسن: "ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروي أهبط عليه من ثبير"[3].

ثم امتن الله سبحانه على إبراهيم بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[4] أي تركنا له ثناء حسنا في جميع من يأتي بعده من الأمم وأنبيائها وهو قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وإنما مدح الله إبراهيم عليه السلام بالإيمان ليبين لخلقه شرف الإيمان لأنه الجنس العام المشتمل على جميع أجناس الخير من النبوءة والصديقية والشهداء والولاية والصلاح والبدلية. كما مدح سبحانه حملة العرش بالإيمان قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[6]، فلا يبلغ العبد ملكا كان أو بشرا إلا ودرجة الإيمان التام أعلا منه لأنه السبب الذي يتوصل به إلى الارتفاع إلى جميع الدرجات، ثم لا يزال متلبسا به في الديار الثلاثة الدنيا والبرزخ والمعاد، لأن الإيمان يتفرع إلى ستة وستين درجة أشرفها الشهادة لله بجميع الكمالات، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق كما ورد في الخبر، وقد انعقد إجماع الحكماء على أن لكل شيء دواء، ودواء الذنوب التوبة المصحوبة بالاستغفار، أخرجه

---

[1] "تفسير الخازن"، (22/4).

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] الصافات: 108.

[5] الصافات: 109 إلى111.

[6] غافر: 7.

أحمد في مسنده بسند يرفعه إلى أبي هريرة أنه قال: قال النبي ﷺ: « ما من بر ولا فاجر إلا وهو محتاج إلى التوبة النصوح »[1].

ويروى أن عيسى عليه السلام مر في بعض سياحاته بقبر منبوذ، فأوحى الله إليه أن ادع ذلك القبر فإني أجيبه بقدرتي لك حتى تسأله عن حاله، فقدم عليه فقال: يا صاحب القبر إني أدعوك بإذن الله تعالى لتجيبني، فانشق القبر على إنسان فقام حتى وقف بين يديه، فقال له: ما دينك وما حرفتك في دار الدنيا، فقال له: كنت مؤمنا زاهدا في الدنيا مقلا، وما علمت أني تعمدت معصية في عمري كله، إلا أني حملت يوما حزمة حطب لرجل بدرهم فوفانيه، واحتجت إلى خلال عباءتي فأخذت شطبة من تلك الحزمة فتخللت بها، فلما مت حاسبني ربي عليها، فقال لي: يا فلان هان اطلاعي عليك، من أباح لك تلك الشطبة التي تخللت بها ؟، فلما مت حاسبني ربي عليها فقال لي: يا فلان من حزمة رجل وفى لك بأجرتك، فما زلت في الحساب والعقاب منذ ثلاثمائة سنة وما تخلصت إلى الآن، فلما سمع ذلك عيسى من كلامه فزع حتى غشي عليه فقال له: إذا لم تنج وعوقبت منذ ثلاثمائة سنة، وأنت في حساب وعقاب على شطبة حطب، فمن الناجي من أهل الكبائر والخطايا.

وذكر أن عيسى عليه السلام شابت ناصيته من هول ما رأى من أمر الرجل، فرجع إلى الحواريين فقالوا له: ما بال ناصيتك قد شابت وعهدنا بك جديد وأنت شاب حدث؟، فقال لهم: ما اطلعت عليه من أمر رجل بعثه الله لي، ثم أخبرهم بقضيته وما قاله في أمر الشطبة، فلما سمعوا ذلك خر كل واحد منهم على وجهه باكيا متضرعا إلى الله تعالى في أن يغفر له حوبه وسوء أدبه بين يديه.

[1] لم أقف عليه.

ومن عظم أمر التوبة أنه عليه الصلاة والسلام قال: « لو عذبني الله وابن مريم ما كان ظالما لنا، لكنه تعالى وسع بفضله ورحمته جميع العالمين»[1]، ومعنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما عصى ربه قط، وما هم بمعصية، وكذلك ابن مريم، ولو شاء عذابهما وبسط عليهما عدله لعذبهما غير ظالم لهما، لأنه يعلم منهما ما لا يعلمانه من أنفسهما.

ومن عظم أمر التوبة أن الله تعالى وعد عليها وأوعد فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، فوعد سبحانه بالفلاح الذي هو أشمل الألفاظ لكل خير، وأوعد عليها: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [3]، أي الضارون لأنفسهم لعدم المبادرة إلى التوبة، ثم قال: [ومن لم يتب فأولئك هم الخاسرون] [4]، فجمع لتارك التوبة أو المتهاون بها بين الظلم والفسوق والخسران، ولا صفة أشنع ولا أضر للعبد من هذه الصفات الثلاث، قال الله تعالى في ذم الفسق: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [5]، وأما الخسران والعياذ بالله فمن نعوت الكافرين، والظلم يشمل الظالم بالشرك والظالم بارتكاب الكبائر لقوله ﷺ: «ظلم دون ظلم»[1]، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله:

---

[1] وجدته بلفظ آخر، انظر: "صحيح ابن حبان"، كتاب: الرقائق، باب: الخوف والتقوى، ذكر الإخبار عن ترك الاتكال على الطاعات، رقم:657، (432/2)، وهذا نصه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لو يؤاخذني الله، وابن مريم، بما جنت هاتان – يعني الإبهام والتي تليها –، لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئا»، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[2] النور: 31.

[3] الحجرات: 11.

[4] خطأ أو سهو من المؤلف رحمه الله.

[5] الحجرات: 11.

[1] ليس حديثا نبويا، إنما عنوان لباب من أبواب الحديث في "صحيح البخاري"، كتاب: الإيمان، باب: ظلم دون ظلم، رقم:32، (15/1)، وهذا نصه: عن عبد الله، قال: لما نزلت: {الذين آمنوا ولم يلبسوا} الأنعام: 82 إيمانهم بظلم قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله عز وجل: {إن الشرك}، وهو ح ص.

[2] لقمان: 13.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [1] : "من التقصير الواقع في أمره ونهيه، وراجعوا طاعته في أمركم به من الآداب المذكورة في هذه السورة، لأن أوامر الله ونواهيه في كل باب لا قدرة للعبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد فلا ينفك عن تقصير يقع منه، فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار ووعدهم بالفلاح إذا تابوا واستغفروا فذلك قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [2] " [3]، عن الأغر أَغَرِّ مُزَيْنَة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى مائة مرة في اليوم »[4] رواه مسلم في صحيحه، وعن ابن عمه أنه قال: إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة »[5] أخرجه عبد الرحمان بن حميد الكناني، ومن حديث أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة »[6]، أخرجه أرباب الصحاح، وأخرج مسلم في صحيحه بسند يرفعه إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[1].

ومن الجائز الذي لا يصح الإيمان إلا باعتقاده والجزم به اعتقاد الميزان والوزن فيه وعليه جميع أهل السنة خلافا للمعتزلة القائلين بأنه لا ميزان ولا وزن، إنما هي عبارة عن تمام عدل الله يوم القيامة.

---

[1] النور: 31.

[2] النور: 31.

[3] "تفسير الخازن"، (293/3).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم:2702، (2075/4).

[5] "سنن ابن ماجة"، كتاب: الأدب، باب: الاستغفار، رقم:3814، (1253/2)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[6] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الدعوات، باب: التوبة، رقم:6309، (68/8).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم: 2703، (2076/4).

روى الشيخ ابن حيان في كتاب العظمة: " أن الميزان له كفتان، كفة للحسنات عن يمين العرش، وكفة للسيئات عن شماله، فكفة الحسنات بيضاء مشرقة، وكفة السيئات سوداء مظلمة، لو وضعت في أحديهما الأرضون كلها لوسعتها"[1].

يروى أن داود عليه السلام سأل الله تعالى أن يريه الميزان، فكشف تعالى الحجاب بينه وبينهن فلما رآه غشي عليه من هوله وعظمته[2].

واختلف في الموزون، فقيل توزن أشخاص الرجال، واحتج من قال ذلك بالحديث الوارد عنه عليه الصلاة والسلام أنه: «يؤتى بالرجل العظيم يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة»[3]، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه إنما توزن فيها جواهر الحسنات والسيئات، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾[4]، أي ذوات العدل، وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه، فبين سبحانه أن تلك الموازين تجري على حد العدل، ومعنى وضعها إحضارها ليوم القيامة أي لأهل يوم القيامة.

قالت المعتزلة وبعض المتكلمين ليس ثم ميزان، وإنما المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الأعمال، فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس، والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد، وقال الحسن: "هو ميزان له كفتان ولسان "[1].

---

[1] لم أجد هذه الرواية في كتاب "العظمة" لأبي الشيخ بن حيان، ووجدتها في "لوامع الأنوار البهية" لشمس الدين السفاريني، باب: الصراط، (189/2).

[2] انظر: "لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية" لشمس الدين السفاريني، باب: الميزان، (184/2).

[3] انظر: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (270/3)، وقال أبو نعيم: صحيح ثابت.

[4] الأنبياء: 47.

[1] انظر: "لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة" المرضية لشمس الدين السفاريني، باب: الميزان، (185/2).

وروي أن داود عليه السلام سأل ربه عز وجل لأن يريه الميزان فأراه إياه فإذا كل كفة كما بين المشرق والمغرب، فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟، قال: يا داود إني إذا رضيت عن عبد ملأتها بتمرة [1].

فعلى هذا ففي كيفية وزن الأعمال مع أنها أعراض طريقان:

أحدهما: أنها توزن صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة.

والثاني: أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة.

فإن قيل ما وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [1] مع قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[2]، فالجواب أن هذه الآية الأخيرة إنما وردت في الكفار، وإذ ليست لهم أعمال صالحة توزن مع الكفر.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[3]، [أي] [4] لا تبخس بما لها خير وشر شيئا، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾[5] فلا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء، وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردلة، ومعنى ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرناها لنجازي بها كما ورد مصادق لذلك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: « إن

---

[1] انظر: "لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية" لشمس الدين السفاريني، باب: الميزان، (184/2).

[1] الأنبياء: 47.

[2] الكهف: 105.

[3] الأنبياء: 47.

[4] ساقط من (ب).

[5] الأنبياء: 47.

الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا؟، أظلمك كتبتي الحافظون؟، فيقول: لا يا ربي، فيقول: أفلك عذر؟، فيقول: لا يا رب، فيقول الله تعالى: بلى إن لك عندي حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟، فيقول له: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء »[1]، أخرجه الترمذي.

والسجل الكتاب الكبير، وأصله من أسجل لأنه يجمع أحكاما، والبطاقة ورقة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه، والطيش: الخفة.

فهذا الحديث دليل على أن صحائف الأعمال توزن لأن الأعمال تتجسد جواهر، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [2]، قال ابن عباس: " معناه كفى بنا عالمين حافظين، لأن من حسب شيئا فقد علمه وحفظه، والغرض منه التحذير وإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعقل أن يكون بأشد الخوف منه"[1].

---

[1] "سنن الترمذي"، أبواب : الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم:2639، (321/4)، وقال الترمذي: ح س.

[2] الأنبياء: 47.

[1] "تفسير الخازن"، (227/3).

يروى عن الشبلي[1] أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال: حاسبونا فدققوا، ثم منوا فأعتقوا، وكذا كل مالك بالمماليك يرفق[2].

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾[3]، قال مجاهد: "المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان، وذلك أن الله عز وجل ينصب ميزانا له ميزان وكفتان، كل كفة قدر ما بين المشرق والمغرب"[4].

قال حذيفة[5] : " جبريل هو صاحب الميزان يوم القيامة، فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض، وليس ثَمَّ ذهب ولا فضة، فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة، فإن لم تكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فترد على سيئات الظالم فيرجع وعليه مثل الجبل من الذنوب"[1].

فإن قلت: أليس الله عز وجل يعلم مقادير الأعمال فما الحكمة في وزنها؟، فالجواب عن ذلك: أن الحكمة في الوزن إظهار العدل وأن الله عز وجل لا يظلم عباده، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بتلك في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى، ومنها تعريف العباد بما لهم من خير وما عليهم من شر، ومنها إظهار السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في

---

[1] محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ، أبو عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين: فاضل متفنن، من فقهاء الحنفية، ولد بدمشق، وكان أبوه (قيّم الشبلية) فيها، ورحل إلى القاهرة، وولي قضاء طرابلس الشام سنة 755 واستمر في القضاء إلى أن توفي بها، وفي الدرر: قال ابن حبيب: (كان يتثبت في أحكامه، ويحقق ما يبديه على ألسنة أقلامه، ويرابط في السواحل، ويلبس السلاح ويقاتل، وكان ذا محاضرة مفيدة ومنظوم ومنثور)، من كتبه: "محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل"، (ت 769هـ/ 1367 م)، انظر: "الأعلام"، باب: الشبلي، (234/6).

[2] "تفسير الخازن"، (227/3).

[3] الأعراف: 8.

[4] "تفسير الخازن"، (182/2).

[5] حذيفة بن حِسل بن جابر العبسيّ، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل: صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي ﷺفي المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره، (ت 36 هـ / 656 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: حذيفة بن اليمان، (171/2).

[1] "تفسير الخازن"، (182/2).

اللوح المحفوظ، ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز نسيان عليه سبحانه وتعالى، وقال ابن عباس: "يؤتى بالأعمال الصالحات على صورة حسنة، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان"[1]، فعلى قول ابن عباس أن الأعمال تتصور وتوضع تلك الصور في الميزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلا من خفة.

ونقل بعضهم أن الذي يوزن إنما هو الأشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة»[2]رواه الشيخان، وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الأشخاص بالميزان، لأن المراد بقوله:« لا يزن عند الله جناح بعوضة» مقداره وحرمته لا وزن جسده أو لحمه، والصحيح الذي عليه الإجماع قول من قال أن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن.

ثم أتبع ذلك بما لكل من الفريقين فقال: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[1].

روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حضرته الوفاة بعث إلى عمر رضي الله عنه يوصيه فقال له في وصيته: " يا ابن الخطاب إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق وخفت عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق غدا أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من

---

[1] "تفسير البغوي"، (180/2).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، رقم:4729، (93/6)، "صحيح مسلم"، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، رقم:2785، (2147/4).

[1] الأعراف: 8 – 9.

خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل في الدنيا وخفت عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا يوم القيامة "[1].

وثبت بما قررناه أن منكر الوزن يوم القيامة كافر لتكذيبه القرآن وخرقه لإجماع الأمة.

ومن الجائز الواجب اعتقاده الذي لا يصح إيمان أحد إلا باعتقاده والجزم به وجود الصراط والمرور عليه وأنه على متن جهنم ألف سنة صعودا وألف سنة استواءً، وألف سنة هبوطا، فيجاوزه المؤمنون على قدر أعمالهم، فمن لم يعمل سيئة ولم يهم بها جازه على قدر طرفة العين، ثم على قدر النفس كالبرق الخاطف، ثم كالريح المرسلة، ثم كحضر جياد الخيل، ثم كوضع الركاب، ثم كالرجل المجد، ثم كالساعي، ثم كالماشي، ثم من يحبو على يديه ورجليه، ثم من ينجوا مخدوشا، ومنهم من ينجوا مكدوشا، والرسل على حافتيه وقولهم:" اللهم سلم سلم "، وكذا معنى ورود النار لأنه منصوب على متن جهنم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[2].

ثم الإيمان بحوضه عليه الصلاة ترده أمته يوم القيامة، لأن الناس يبعثون من قبورهم عطاشا، فكل أمة ترد حوض نبيها لأن لكل رسول حوضا، ولنبينا عليه الصلاة والسلام حوضان: حوض في المحشر قبل المرور على الصراط، وحوض بعد المرور.

فأما الذي في عرصات المحشر فإنه لا يشرب منه إلا أمته عليه الصلاة والسلام، ويذاد عنه من بدل بالارتداد وغير بالابتداع، وسعته كما بين الجابية[1] وصنعاء شهران في شهرين،

---

[1] "تفسير الخازن"، (183/2).

[2] مريم: 71.

[1] الجابية موقع تاريخي في سوريا ويعرف اليوم بتل الجابية ويقع إلى الغرب من مدينة نوى الواقعة بسهل حوران، وقد اتخذ الغساسنة الجابية عاصمة لهم في جنوب سوريا، وفي الجابية أيضا عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابيه بعد معركة اليرموك، انظر: "نزهة الأنام في محاسن الشام" لأبي البقاء عبد الله البدري ، (ص 24).

أكوابه على عدد نجوم السماء يصب فيه الكوثر، من شرب منه لا يظمأ أبدا، ومن حرمه لا يروى أبدا.

وأما حوضه الثاني الذي بعد المرور على الصراط فيشرب منه جميع الأمم كرامة له عليه الصلاة والسلام، فتكون الأنبياء وأممها أضيافه في الماء، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[1].

عن أنس [قال: بينما رسول اللهﷺ ذات يوم][2] بين أظهرنا إذا غفا غفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: « أنزلت علي سورة، فقرأ: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ثم قال: « أتدرون ما الكوثر؟ »، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: « إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول يا ربي إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك »[3]، لفظ البخاري ومسلم قال: قال رسول الله ﷺ: « لما عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت من هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه وطيبته مسك أذفر »[1]. وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: سئل النبيﷺ ما الكوثر؟ قال: « ذلك نهر أعطانيه الله في الجنة أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر»، قال عمران: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: « أكلها أنعم منها»[2]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

---

[1] الكوثر: كاملة.

[2] في (ب): أن رسول الله ﷺ بين لأظهرنا إذا غفا غفاءة.

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية، رقم:400، (300/1).

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، رقم:6581، (120/8).

[2] "سنن الترمذي"،أبواب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة طير الجنة، رقم:2542، (261/4)، وقال الترمذي: ح س.

ومن حديث ابن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب ومجراه على الدرر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأبرد من الثلج»[1]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

من حديث عامر ابن عبد الله بن مسعود قال: سألت عائشة عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [2]، فقالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء[3]. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدا»[4]، وفي رواية: « وزواياه سواء»[5] أخرجه الشيخان. ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « أمامكم حوضي ما بين جنبيه كما بين جرباء وأدرج»[6]، قال بعض الرواة: هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وفي رواية: «فيه أباريق كنجوم السماء، من ورده شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا»[1] أخرجه جميع أرباب الصحاح. ومن حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ما بين لابتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة»[2]، وفي رواية: « مثل مابين المدينة وعمَّان»[3]، وفي رواية قال: « قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء »[4]، أخرجه مسلم في

---

[1] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكوثر، رقم:3361، (307/5)، وقال الترمذي: ح س.

[2] الكوثر: 1 .

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، رقم:4965، (178/6).

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، رقم :6579، (119/8).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2292 ،(1793/4).

[6] ح ص، انظر: "الإيمان" لابن منده، باب: ذكر وجوب الإيمان بالحوض، رقم:1073، (974/2).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2299، (1798/4).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2303، (1801/4).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2303، (1801/4).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2303، (1800/4).

صحيحه. ومن حديث أبي ذر أنه قال: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟، قال: « والذي نفسي بيده آنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منه لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة، عرضه مثل طوله ما بين عمان وأيلة، وماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل »[1] أخرجه مسلم أيضا. ومن حديث ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: « إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرْفَضَّ عليهم»، فسئل عن عرضه فقال: « من مقامي إلى عمان»، وسئل عن شرابه فقال: «أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق»[2]. ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «أنا فرطكم على حوضي، وليدفعن إلى رجال منكم حتى إذا هويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول أي رب أصحابي، فيقال أنت ما تدري ما أحدثوا بعدك»[3]. ومن حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني، فأقول أي رب أصحابي، فيقال لي: أنت لا تدري ما أحدثوا بعدك »[4]، وفي رواية: «ليردن علي أناس من أمتي»الحديث، وفي آخره: « فأقول سحقا لمن بدل بعدي»[1]. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: «يرد على حوضي يوم القيامة رهط من أصحابي »، أو قال: «من أمتي، فيجلون عن الحوض، فأقول أي رب أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»[2]. ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: « ترد علي أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله تعرفنا، قال: نعم لكم، سيما ليست لأحد غيركم، تردون علي غرا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة

---

[1] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2300، (1798/4).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتابك الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2301، (1799/4).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قوله تعالى "واتقوا فتنة"، رقم:7049، (46/9).

[4] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2304، (1800/4).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم :2191، (1793/4).

[2] ح ص، ورد بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، رقم:6586، (120/8).

منكم لا يصلون، فأقول: يا رب هؤلاء أصحابي، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟»[1] أخرجه أرباب الصحاح. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ [قال][2]: « والذي نفسي بيده لأذود عنه رجالا كما تذاد الغريبة من [الإبل عن][3] الحوض»[4] أخرجه مسلم في صحيحه. ومن حديث حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن، والذي نفسي بيده لأذود عنه الرهط، كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه»، قالوا: يا رسول الله وتعرفنا؟، قال: « نعم، تردون علي غرا محجلين من آثار الوضوء، ليست لأحد غيركم »[5]، ومن حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلا، فقال: «ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض» ، قيل: كم كنتم يومئذ؟، قال: سبعمائة أو ثمانمائة[6].

قال الشيخ محيي الدين النووي:" أحاديث الحوض كلها صحيحة، والإيمان بها فرض، والتصديق به من الإيمان وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول ولا يختلف فيه، وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة، فذكره مسلم من رواية ابن عمر وأبي سعيد وسهل بن سعد وجندب بن عبدالله، وعبد الله بن عمرو وأبي سعيد وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود وحذيفة وحارثة بن وهب والمستور وداود، وثوبان وأنس وجابر بن سمرة، ورواية غير مسلم من رواية أبي بكر الصديق وزيد بن أرقم وأبي أمامة وعبد الله بن زيد، وسويد بن غفلة وعبد الله الصنابجي والبراء بن عازب وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخولة بنت قيس وغيرهم، ورواية البخاري ومسلم أيضا من رواية أبي هريرة ورواية غيرهما ورواية عمر بن

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، رقم:247، (217/1).

[2] ساقط من (أ).

[3] ساقط من (ب).

[4] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم: 2302، (1800/4).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، رقم:248، (217/1).

[6] "سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب: في الحوض، رقم: 4746، (237/4)، وقال الألباني: ح ص.

الخطاب وعائذ بن عمر وآخرين، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبوبكر البيهقي في كتاب "البعث والنشور" من أسانيده وطرفه المتكاثر"[1].

فإن قلت: قد تعارضت الأحاديث في قدره، ففي رواية : « ما بين جنبيه كما بين جربا وأدرج»[2]، وفي رواية « كما بين أيلة وصنعاء في اليمن»[3]، وفي رواية «عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة»[4]، وفي رواية: «إن حوضي أبعد من أيلة إلى عدن»[5]، فالجواب: أن هذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس بموجب للاضطراب فيها لأنه لم يأت في حديث واحد، بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصحابة سمعوا من النبي ﷺ في مواطن مختلفة ضربها النبي ﷺ مثلا لبعد أقطار الحوض وسعته ليقرب لأفهام السامعين لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لأعلى تقدير الموضع للتحديد، بل إنما ضربه لإعلام السامعين بعظم بعد المسافة وسعة الحوض، وليس في ذلك القليل من هذه المسافات منع من الكثير، فإن الكثير ثابت على ظاهره وصحة الرواية به، والقليل داخل فيه فلا معارضة ولا منافاة بينهما.

وكذلك القول في آنية الحوض فإن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره، وأنها أكثر عددا من نجوم السماء، ولا مانع يمنع من ذلك إذ قد وردت الأحاديث الصحيحة الثابتة بذلك.

وكذلك القول في الواردين إلى الحوض الشاربين منه وكثرتهم، وقوله ﷺ: « ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد الحوض»[1]، لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور، وإنما ضربه مثلا لأكثر المعروف للسامعين، ويدل على هذا قوله ﷺ : « من ورد شرب »[2] فهذا صريح في

---

[1] انظر: "المنهاج شرح مسلم بن الحجاج"، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، (53/15).

[2] انظر: "الإيمان لابن منده"، باب: ذكر وجوب الإيمان بالحوض، رقم:1073، (974/2).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2303، (1800/4).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2300، (1798/4).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل، رقم:248، (217/1).

[1] ح ص، "سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب: في الحوض، رقم:4746، (237/4).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم: 2290، (1793/4).

أن جميع الواردين يشربون، وإنما يمنع منه الذين يذادون ويمنعون الورود لارتدادهم وتبديلهم كما في قوله ﷺ: « فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1] ونحو هذا من الروايات المذكورة في الأحاديث السابقة، وهذا مما اختلف الناس في معناه، والمراد به من هم؟، فقيل المراد بهم المنافقون والمرتدون في زمن النبي ﷺ فيحتمل أنهم إذا حشروا عرفهم النبي ﷺ بالسيم التي عليهم، فيناديهم فيقال: ليس هؤلاء ممن وعدت بهم، إنهم قد بدلوا بعدك، وقيل المراد بهم من أسلم في زمن النبي ﷺ ثم ارتدوا بعده في زمن أبي بكر الصديق وهم الذين قاتلهم على الردة، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، فيناديهم النبي ﷺ لما كان يعرف من إيمانهم في حياته ، فيقال له قد ارتدوا بعدك، وقيل المراد بهم أصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، وأصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد ولم يموتوا على بدعتهم ومعاصيهم من الكبائر، فعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء المطرودين عن الحوض بالتأويل، بل يجوز أن يذادوا عنه عقوبة لهم، ثم يرحمهم الله فيدخلهم الجنة من غير عذاب.

وقال أبو عمر بن عبد البر[1]: " كل من أحدث في الدين ما ليس منه كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء فهو من المطرودين من الحوض "[2]. قال: "وكذلك الظلمة المترفون في الجور وغمض الحق والمعلنون بالكبائر، فكل هؤلاء يخافون أن يكونوا ممن عني بهذا الحديث"[3].

---

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2304، (1800/4).

[1] يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث و مؤرخ وأديب وبحاثة، يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها، وولي قضاء لشبونة وشنترين وتوفي بشاطبة، من كتبه "الدرر في اختصار المغازي والسير – ط "، (ت 463 هـ / 1071 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن عبد البر، (240/8).

[2] "المنهاج شرح مسلم بن الحجاج"، باب: إستحباب إطالة الغرة والتحجيل، (137/3).

[3] المصدر نفسه.

وقوله: « من شرب منه لم يظمأ أبدا »[1] قال ظاهر هذا الحديث أن الشرب مما يكون بعد الحساب والنجاة من النار، ويحتمل أن يكون من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه لا يدخل النار، وإن دخلها لا يعذب فيها بالظمأ، بل يكون عذابه بغير ذلك، لأن ظاهر الحديث يقتضي أن جميع الأمة تشرب منه إلا من ارتدّ وصار كافرا، وقيل إن جميع المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يعذب الله من يشاء من عصاتهم، وقيل إنما يأخذ كتابه بيمينه الناجون منهم خاصة، والشرب من الحوض مثله.

وقوله: « يختلج »[2] أي [ينتزع] [3] ويجذب.

قوله: « ما بين جنبيه كما بين جربا وأذرح »[1]، أما جربا فبجيم ثم راء ثم باء موحدة ثم ألف مقصورة، ووقع عند بعض رواة البخاري فيها المد، والقصر أولى، وهي قرية من قرى الشام، وأما أدرج فبهمزة ثم دال مهملة ثم راء ثم جيم معجمة، وهي مدينة في طريق الشام قريب من الشبكة، وأما عَمَّان بفتح العين وتشديد الميم فبلدة [بالبلقاء][2] من أرض الشام. وأما أيلة بفتح الهمزة وإسكان الياء المثناة تحت وفتح اللام، مدينة معروفة في طريق الشام على ساحل البحر، متوسطة بين دمشق ومصر، والمدينة بينها وبين المدينة نحو خمسة عشر مرحلة، وبينها وبين مصر ثمان مراحل، وإلى دمشق اثنا عشر رحلة، وهي آخر الحجاز وأول الشام، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمان وأكبر مدنه، وإنما قيده باليمن في الحديث لأن دمشق موضعها يعرف بصنعاء دمشق.

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، رقم :6579، (119/8).

[2] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم: 2304، (1800/4).

[3] في (ب): ينزع.

[1] ح ص، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، رقم: 6577، (119/8).

[2] في (ب): ببلقاء.

وقوله: « يشخب فيه ميزابان »[1]، هو بفتح الياء المثنات تحت، وبالشين والخاء معجمتين أي يسيل فيه. وفي الحديث الآخر:« يغت »[2] بفتح الياء وبالغين المعجمة وكسرها وتشديد التاء المثنات فوق، أي يدفق، « فيه ميزابان دفقا شديدا متتابعا »، وقوله: « لبعقر حوضي » بضم العين المهملة وإسكان القاف، هو موقف الإبل من الحوض إذا وردت للشرب، وقيل مؤخر الحوض، « أذود الناس » أي أضرب الناس « لأهل اليمن بعصاي حتى ترفض عليهم»[3]، معناه لطرد الناس عنه غير أهل اليمن، ومعنى "يرفض" يسيل عليهم، وفي هذا الحديث منفعة عظيمة لأهل اليمن، وذلك لأنهم عبية نصح لرسول الله ﷺ، لأنهم آمنوا به وصدقوه من غير غزو ولا قتال، فمنهم من آواه ونصره وهم الأوس والخزرج، ومنهم من أجابه من غير دعوة بما كان عنده من العلم كعسكلان بن عواكن[1]، وابن ذي المشعار[2]، ومنهم من أسلم بمجرد الدعوة ووفد إليه عليه الصلاة والسلام كأهل نجران من مذحج وحضر موت، وهم الذين فتح الله الأقاليم على أيديهم، ولم يرتد أحد منهم عند موت رسول الله ﷺ، وكانوا عضد الخلفاء بعد رسول الله ﷺ لانقيادهم وحسن طاعتهم لهم ونصحهم إياهم، وكان عمر رضي الله عنه :"رحم الله حمير، فلولا نصر الله حمير ما قامت للإسلام قائمة "[3].

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2300، (1798/4).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2301، (1799/4).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2301، (1799/4).

[1] عسكلان بن عواكن الحميري أحد المعمرين، كان ممن بشر برسالة النبي ﷺ، ثم أدرك البعثة، وأرسل إلى النبي ﷺ بشعر يمدحه، ويذكر فيه إسلامه، ولم يبلغ أنه هاجر، انظر: "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر العسقلاني، باب: عسكلان بن عواكن، (97/5).

[2] حُمرة بن أيفع بن ربيب بن شراحيل، من بني مرثد ، الناعطيّ الهمدانيّ: من أقيال اليمن في الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم، وهاجر من اليمن إلى الشام في زمن عمر، ومعه أربعة آلاف عبد، فأعتقهم كلهم فانتسبوا بالولاء في همدان، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو الخطاب، (276/2).

[3] لم أقف عليه.

ولما بلغت موت رسول الله ﷺ تبعا [1] جعل يقول:

إِنَّ فَـقْـدَ النـبِـي جَـزَعَـنَا الْـيَـوْمَ فَــدَتْـهُ الْأَسْــمَـاعُ وَالْأَبْـصَـارُ

وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ [لَيْسَ][2] مِنَ المَوْتِ فِــرَارٌ وَأَيْــنَ أَيْـنَ الْــفِــرَارُ

مَـا أُصِـيبُ بِـه الْـغَـدَاةُ قُـرَيْشٌ لاَ وَلاَ أَفْـرَدَتْ بِــهِ الْأَبْـصَـارُ

دون مـن وَجـه الصـلاة إلـى الله وقــد هــنـئـت بــه الـكـفـار

ورجـال مــنــافـقـون شــمــات حـين واروه كـفـرهــم إســرار

يـا لــها كلمة يضـيـق بـها الـجو أتــانـا بــنــقـلـها الـسـفــار

قيل مات النبي فانصدع القلب وشــابت لـهـولـها الأشـعــار[1]

وقوله: « أنا فرطكم على الحوض »[2]، الفرط بفتح الفاء هو الذي يتقدم على الورود ليصلح لهم الحوض والدلاء ونحوها من أمور الاستسقاء، والمعنى أنا سابقكم إلى الحوض كالمهيئ له.

---

[1] تبع بن حسان بن تبان: من ملوك حمير في اليمن، قيل: اسمه مرثد، وهو تبع الأصغر، آخر التبابعة، ملك بعد عبد كلال وعقد الحلف بين اليمن وربيعة وسار إلى الشام فلقيه قوم من حمير، من بني عمرو بن عامر، فشكوا إليه ما نزل بهم من اليهود في يثرب (المدينة) وذكروا له سوء مجاورتهم لهم ونقضهم العهد الّذي بينهم، فسار إلى يثرب ونزل في سفح (أحد) وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة رجل، وذلّلها لهم وكان ملكه 78 سنة، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: تبع الحميري، (175/2).

[2] ساقط من (ب).

[1] هذه الأبيات من البحر الخفيف منسوبة لعبد الله بن سلمة الهمداني ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه، انظر: "الإكتفاء" لأبي الربيع الكلاعي، (69/2)، وكتاب: "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، (290/12).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قوله تعالى "واتقوا فتنة"، رقم:7049، (46/9).

قوله: « فأقول سحقا»[1]، أي بعدا وفيه دليل أن الذين قيل في حقهم ذلك هم أهل الردة إذ لا يقدر للمؤمنين سحقا بل يشفع. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « من أراد من المؤمنين خرير الكوثر فليسد أذنيه بأصبعيه فإنه يسمع خريره »[2]، والخرير صوت السيل عندما يصب في مستنقعه، وكذلك خرير الكوثر حين يصب في الحوض، ولذا اختلف في الحوض والكوثر هل هما شيء واحد أو هما متغايران؟، وينبغي القول به أن المشروب واحد، فالكوثر هو الواد الذي يتفجر من الجنة، والحوض هو مستنقعه من منتهاه الذي ينتهي إليه كما نص عليه النووي في "الروضة"، وابن الصلاح في "مسنده"، وهو مذهب الأكثرين من علماء السلف والخلف.

[فصل في ذكر الورود على النار ووجوب اعتقاده]

وإن من شرائط صحة الإيمان اعتقاده والجزم به، حتى قال ابن عباس بكفر منكره لتكذيبه لكتاب الله، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [1] القسم فيه إضمار تقديره والله ما منكم من أحد إلا واردها، والورود موافاة المكان. واختلف في معنى الورود فقال ابن عباس والأكثرون الورود هنا الدخول والكناية راجعة إلى النار فيدخلها البر والفاجر[2]، ثم ينجي الله المتقين منها كما ورد أن نافع بن الأزرق[3] نازع ابن عباس في الورود، فقال ابن عباس: هو الدخول، وقال نافع: ليس الورود الدخول، فقرأ ابن عباس: إنكم وما تعبدون حصب جهنم إنهم لها واردون، فقال لإبن الأزرق: أدخلها هؤلاء أم لا، ثم قال: يا نافع والله لنردنها أنا وأنت فأرجوا

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم :2191، (1793/4).

[2] تفسير الثعلبي ، باب: سورة الكوثر، (309/10).

[1] مريم: 71.

[2] "تفسير الخازن"، (194/3).

[3] نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، البكري الوائلي، الحروري، أبو راشد: رأس الأزارقة وإليه نسبتهم، كان أمير قومه وفقيههم، من أهل البصرة، صحب في أول أمره عبد الله بن عباس، (ت 65 هـ / 685 م)، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الأزرق، (351/7).

أن يخرجني الله منها، وما أرى أن يخرجك منها بتكذيبك، فمن قال بدخول المؤمنين النار فإنه يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة، بل مع الغبطة والسرور، لأن الله تعالى لأن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر[1]، فإن قيل: كيف يدفع عن المؤمنين حر النار بعد دخولهم فيها؟، فالجواب عن ذلك: أن الله تعالى يخمد النار للمؤمنين، ويجعل أجزاءها المباشرة لأجساد المؤمنين بردا وسلاما عليهم كما جعلها على إبراهيم عليه السلام بردا وسلاما في دار الدنيا التي هي محل مجرى العوائد، فكيف لا يجعلها بردا وسلاما على أجساد المؤمنين في دار العقبى المبنية على الخوارق، وأما ما يباشر أبدان الكفار من النار فإنه يبقى على حاله فيحرق أبدان الكفار، وكما أن الملائكة الموكلين بإيقاد النيران وتعذيب أهلها لا يجدون ألمها. فإن قلت: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب بوروده النار فما فائدة دخولهم إياها؟، فالجواب عن ذلك: أن دخولها مع السلامة منها مما يزيدهم سرورا لاعتناء الله تعالى بشأنهم، ولما فيه من مزيد الغم على أهل النار الباقين حين يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها، وإذا رأوا العذاب الذي فيه الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعم الجنة.

وذهب المعتزلة وطوائف من أهل الكلام الذين حرموا الذوق أنه ليس المراد بالورود الدخول، وأنه لا يدخل النار مؤمن أبدا مستدلين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾[1]، فعلى مذهبهم الفاسد أن المراد من الورود الحضور والرؤية لا الدخول كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [2] أراد به الحضور وهو قول نافع بن

[1] انظر: "تفسير الخازن"، (194/3).

[1] الأنبياء: 101 –102.

[2] القصص: 23.

الأزرق، وفسر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] بالحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أراد به الحضور.

وقال عكرمة: " الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها "[2]. وروي عن ابن مسعود أنه قال:" وإن منكم إلا واردها يعني القيامة والكناية راجعة إليها "[3]، والقول الأول أصح وعليه أهل السنة لأنهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[4] الشرك، وهم المؤمنون، والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه كما يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم »[5].

وفي رواية : « لا يلج النار إلا تحلة القسم»[1]، أخرجه الشيخان في صحيحهما، أراد بالقسم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[2].

ومن حديث أم بشر الأنصارية [3] أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها»، قالت: بلى، فانتهرها،

---

[1] مريم: 71.

[2] "تفسير الخازن"، (194/3).

[3] المصدر نفسه.

[4] مريم: 72.

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: البر والصلة والآداب، باب:فضل من يموت له ولد فيحتسبه، رقم:2632، (2028/4).

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: صحيح البخاري ، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب، رقم:1251، (73/2).

[2] مريم: 71 .

[3] أم مبشر بنت البراء بن معرور الأنصارية، انظر ترجمتها في: "الإصابة في تمييز الصحابة"، باب: أم مبشر بنت البراء، (470/8).

فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: « فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [1] »[2].

فقال خالد بن معدان[3]: "يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أنا نرد النار، فيقال: بلى، لكنكم مررتم بها وهي خامدة "[4]، وفي الحديث: «تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[5].

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: " من حم من المسلمين فقد وردها "[6]، وفي الخبر: « الحمى كير من جهنم، وهي حظ المؤمن من النار »[1]، ومن حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء »[2]، قوله فيح جهنم وهجها وحرها، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [3] أي كان ورود جهنم لازما قضاه الله تعالى عليكم وأوجبه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [4] أي جميعا جاثين على الركب، وقالت المعتزلة في هذه الآية دليل على صحة مذهبهم في أن صاحب الكبيرة والفاسق يخلدان في النار بدليل أن الله تعالى بيَّن أن الكل يردونها، ثم بيَّن صفة من ينجوا منها وهم المتقون،

---

[1] مريم: 72.

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أصحاب الشجرة، رقم:2496، (1942/4).

[3] خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله: تابعيّ، ثقة، ممن اشتهروا بالعبادة، أصله من اليمن، وإقامته في حمص (بالشام) وكان يتولى شرطة يزيد ابن معاوية، (ت 104 هـ / 722 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: خالد بن معمر، (299/2).

[4] "تفسير الخازن"، (194/3).

[5] وجدته بلفظ قريب منه، انظر: شعب الإيمان للبيهقي، باب: دار المؤمنين ومآبهم الجنة، ودار الكافرين ومآبهم النار، فصل: في قول الله عز وجل: فوربك لنحشرنهم، رقم:369، (577/1)، قال البيهقي: تفرد به سليم بن منصور وهو منكر.

[6] "تفسير الخازن"، (194/3).

[1] وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "شعب الإيمان" للبيهقي، رقم:9383، (270/12)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: حديث أبي أمامة الباهلي، رقم:22165، (495/36) ، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريجه للحديث: حسن لغيره.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، رقم:3263، (121/4).

[3] مريم: 71.

[4] مريم: 72.

والفاسق لا يكون متقيا فيبقى في النار أبدا مخلدا. وأجيب عنه أن المراد بالمتقي في هذه الآية من يتقي الشرك بقول لا إله إلا الله، ويشهد بصحة ذلك من آمن بالله ورسوله صحَّ أن يقال أنه متق للشرك، ومن صدق عليه أنه متق للشرك صحَّ أنه متق لأن المتقي جزء من المتقي عن الشرك، ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد، فثبت أن صاحب الكبيرة متق، وإذا ثبت أن ذلك ثبت أن يخرج من النار بعموم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[1] فصارت الآية التي توهموها دليلا لهم من أقوى الدلائل على فساد قولهم هذا من حيث البحث، وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار كما ورد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »[2].

ومن حديث أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟، قال:« هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: « هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ »، قالوا: لا يا رسول الله ، قال: « فإنكم ترونه كذلك »، فقال: « يحشر الناس يوم القيامة فيقال من كان يعبد شيئا فليتبعه، فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا، فيدعونهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟»، قالوا: نعم، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يصلح عظمها إلا الله، تخطفهم للنار فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد

---

[1] مريم: 72.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الايمان، باب: زيادة الايمان ونقصانه، رقم:44، (17/1).

من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرَّم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا للجنة، يقبل بوجهه قبل النار فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاها، فيقول: هل عسيت إذا فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك، فيقول: لا وعزتك، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى من بهجتها سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت، ثم يقول: يا رب قدمني عند باب الجنة، فيقول: أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت، فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول الله: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره، فيقول: وعزتك لا أسألك غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النظرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله عز وجل منه ثم يؤذن له في دخول الجنة، فيقول: تمن، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال: تمن من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله: لك ذلك ومثله معه»[1]. قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: « لك ذلك ومثله معه »، قال أبو سعيد رضي الله عنه سمعته يقول ذلك وعشرة أمثاله[2]، وفي رواية للبخاري قال: « فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها فيقول: أنا ربكم،

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الأذان، باب: فضل السجود، رقم:806، (160/1).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الأذان، باب: فضل السجود، رقم:806، (160/1).

فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا عرفناه فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون:أنت ربنا فيتبعونه»[1].

قوله: « مثل شوك السعدان»[2]، والسعدان معروف عند جميع العرب وهو نبت ذو شوك معقف من أجود مراعي الإبل، وقولهم: « فمنهم من يوبق بعمله »، يقال أوبقته الذنوب إذا أهلكته، و«المخردل» المرمى المصروع المنقطع، فهو الذي تقطعه كلابيب الصراط يقع في النار. قوله: « وقد امتحشوا» أي احترقوا وهو أن تذهب النار بالجلد وتبدي العظم، قوله: « كما تنبت الحبة من حميل السيل» بكسر الحاء، البذورات جميعا، وحميل السيل حافته، وهو المحل الذي يلقى عليه زبد الماء على شاطئه. وقوله: « قشبني ريحها » أي أذان، والقشب السم فكأنه يقول قد سمني ريحها. قوله: « وأحرقني دكاها » اشتعالها ولهبها. قوله : « رأى زهرتها» الزهرة الحسن والنضرة البهجة.

ومن حديث ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إني لا أعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل له أنها ملأى ، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملآى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، وإن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك »، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجده، فكان يقول: « ذلك أدنى أهل الجنة منزلة »[1]، قوله: "حتى بدت نواجده" أي أضراسه وأنيابه، وقيل آخر الأسنان.

ومن حديث جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يعذب ناس من أهل التوحيد حتى يكونوا حمما، ثم تدركهم الرحمة»، قال: « فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة »، قال: « فيرش

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم، رقم:6573، (117/8).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الأذان، باب: فضل السجود، رقم:806، (160/1).

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم:6571، (117/8).

عليهم أهل الجنة من الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمائل السيل »[1] أخرجه الترمذي، والحمم الفحم، والغثاء كل ما جاء به السيل، فدلت الآية الأولى على أن الكل داخل النار، ودلت الآية الثانية والأحاديث أن الله تعالى يخرج منها المتقين وجميع الموحدين، وترك فيها الظالمين وهم المشركون.

واعلم أن الله سبحانه منزه عن المجيء وعن الدخول في الصور، ولكن معنى الحديث أن الله تعالى يزيل عنهم الحجاب حتى يشاهدوه، تعالى عن الصفة التي كانوا يصفونه بها في دار الدنيا، وهو أن الله تعالى يرى بلا كم ولا كيفية ولا إلى جهة ولا تحيز فينعدم عند رؤيته الزوال ويبقى ما لا يزال وهو الله تعالى، فيخرون له سجدا وذلك معنى إتباعهم له. وأما المؤمنون فإن الله تعالى يقدرهم على السجود كما كانوا يسجدون في الدنيا طوعا. وأما المنافقون فإن ظهورهم تكون كالعياصي، فإذا قصدوا سجودا فلا يستطيعون، فإذا أرادوا أن يسجدوا انقلبوا على أقفائهم كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [2] ، أي في دار الدنيا.

وأما الصورة التي لا يعرفون، فإن الله يظهر لهم ملكا من ملائكته، فإذا رأوا علامة [الحوادث][1] من الحركة والسكون تعوذوا بالله منه، لأنه قد رسخ في قلوبهم من توحيده وتنزيهه ما أوجب لهم في العقبى أن ينزهوه تعالى به عن سمات الحدوث، وهذا الحديث من أحاديث الصفات، وللأمة فيه مذهبان:

أحدهما : إيراده كما ورد والإيمان به كما وقع مع عدم التصدي إلى تأويله.

---

[1] "سنن الترمذي"، أبواب: صفة جهنم، باب: ما جاء أن للنار نفسين، رقم:2597، (294/4)، وقال الترمذي: ح س.

[2] القلم: 42 – 43.

[1] في (ب): الحدوث.

المذهب الثاني: تأويله على الوجه الذي يليق به بجلال الله وكبريائه، ولا يتصدى لذلك إلا من جمع بين الرواية والدراية والذوق والإلهام الرباني، قال الله تعالى:﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [1].

ومن الجائز الواجب اعتقاده الذي لا يصح الإيمان إلا به الجزم بوقوع الحساب، وهو على قسمين: مناقشة وعرض، فمن نوقش عذب، ومن حوسب حسابا يسيرا غفر له ودخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [2]، فيقتضي ظاهر هذه الآية أن أخذ الصحف بالأيمان والشمائل، ثم الحساب، ثم الميزان.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [3] أي ساع في عملك سعيا، والكدح عمل الإنسان وجده في الأمرين الخير والشر، وقيل معناه عامل لربك وأنت كادح في لقاء ربك وهو الموت، والمعنى أن هذا الكدح يستمر بك إلى الموت أو أنك كادح في دنياك كدحا تصير به إلى ربك فتلقى جزاء عملك خيرا كان أو شرا، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي ديوان عمله، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وسوف من الله واجب. والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله فيعرف الطاعة والمعصية، فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة فيه على صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له لم فعلت هذا، ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه ، فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذرا ولا حجة فيفتضح كما يشهد لذلك حديث ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: « من حوسب

---

[1] البقرة: 269.

[2] الانشقاق: 7-8 -9.

[3] الانشقاق: 6.

عذب»، قالت: فقلت: أو ليس يقول الله عزوجل : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [1]، قال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عذب»[2].

ثم أتبع ذلك بذكر حاله فقال: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾[3]، أي إلى أهله في الجنة من الحور العين والآدميات بما أوتي من الخير والكرامات، ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾[4] ومعنى ذلك أنه تغل يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره فيعطى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقيل تخلع يده الشمال فتخرج من وراء ظهره فيعلم بذلك أنه من أهل النار فيدعوا بالويل والهلاك، فيقول: يا ويلاه و يا ثبوراه، ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾[5] أي ويقاسي التهاب النار وحرها، ثم بين سبحانه السبب في ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ [6] في دار الدنيا، ﴿مَسۡرُورًا﴾ [7] بإتباع هواه لركوب شهواته، ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [8] أي لن يرجع إلينا ولن يبعث، والحور الرجوع، ثم رد ظنه وكذبه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما يظن، بل يحور إلينا ويبعث ويحاسب، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [1] أي من خلقه إلى يوم بعثه.

ومن حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليلقي كنفه على عبد من أمتي، فيقول له يا عبدي أتدري يوم كذا إذا فعلت كذا وكذا فهل لك عذر؟ فيقول: قد فعلت أي رب، ولا عذر

---

[1] الانشقاق: 8.

[2] ح ص، وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب:الجنة وصفة نعيمها، باب: إثبات الحساب، رقم:2876، (2204/4).

[3] الانشقاق: 9.

[4] الانشقاق: 10.

[5] الانشقاق: 12.

[6] الانشقاق: 13.

[7] الانشقاق: 13.

[8] الانشقاق: 14.

[1] الانشقاق: 15.

لي، ويسجد ثم يقرره بذنب آخر فيقول له: قد فعلت أي رب ولا عذر لي ويسجد، فكلما قرره بذنب أقر به ويقول: لا عذر لي ويسجد، ويراه أهل المحشر فيقولون: طوبى لهذا العبد، فإن الله قد أدناه وقربه فهو يسجد له والناس في الحساب والأهوال الجسام، فلا يزال الله يقرره بذنوبه وهو مشفق من ذنوب كبائره لم يذكر له ربه تعالى، حتى إذا أيقن بالهلكة، قال الله له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفر لك اليوم وأجعل مكان كل سيئة حسنة، فيطمئن فيقول: أي رب إن لي ذنوبا لم أود ذكرها فيضحك الله عز وجل من حرصه، فيقول: يا ابن آدم ما أحرصك على الخير، كنت مشفقا من هذه الذنوب فلما أبدلت سيئاتك حسنات صرت حرصا عليها، قلب كتابك، فيقلبه فإذا هي فيه وقد بدل الله تعالى مكان كل سيئة حسنة»[1]. ومن حديث ابن عباس أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: « أيها الناس إنكم محشرون إلى الله حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2]، إلا أن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، إلا أنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1]، قال: فيقول لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أدبارهم منذ فارقتهم» [2]، زاد في رواية: « فأقول سحقا »[3].

قوله: «غرلا» أي غلفا، والغرلة الغلفة التي تقطع من جلد الذكر، وهو موضع الختان، قوله: «سحقا» أي بعدا، قال بعض العلماء أن المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب، ومنعوا الزكاة بعده، أخرجه أرباب الصحاح.

---

[1] ح ص، وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: "ويقول الأشهاد هؤلاء الآية"، رقم:4685 ، (74/6)

[2] الأنبياء: 104 .

[1] المائدة: 117 – 118.

[2] ح ص، بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم: 6526، (109/8).

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم:2295، (1795/4).

ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الناس حفاتا عراة غرلا»، قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض، قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك »[1]، زاد النسائي في روايته ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِئٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [2].[3]

ثم توضع صحائف أعمال العباد في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم، وقيل توضع بين يدي الله تعالى وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾[4] أي خائفين مما فيه من الأعمال السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها، ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ يا هلكتنا، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي لا يترك، ﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾من الذنوب، ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ أي عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها، قال ابن عباس:" الصغيرة التبسم، والكبيرة القهقهة"[1]، وقال سعيد بن جبير:" الصغيرة اللمم والمسيس والقبلة، والكبيرة الزنا"[2].

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود، فنضجوا خبزهم، وإن محقرات الذنوب لموبقات »[3]، الحقير الشيء الصغير التافه، وقوله: «الموبقات» أي مهلكات.

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم:6527، (109/8).

[2] عبس: 37.

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم: 6527، (109/8)، و"السنن الكبرى" للنسائي، كتاب: الجنائز، باب: البعث، رقم:2221-2222، (485/2).

[4] الكهف: 49.

[1] "تفسير البغوي"، (197/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] "شرح السنة" للبغوي، باب: خوف الهلاك إذا كثر الخبث، رقم:4203، (399/14)، وقال البغوي: هذا الحديث رواه معمر عن أبي إسحاق عن عبد الرحمان بن يزيد عن ابن مسعود موقوفا عليه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَوَجَدُواْ مَاعَمِلُواْحَاضِرًاۗ﴾ [1] أي مكتوبا مثبتا في كتابهم، ﴿وَلَايَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا ينقص من ثواب أحد عمل خيرا، ولا يأخذ أحدا بجرم لم يعمله، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعندها تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[2]، أخرجه الترمذي، وقال لا يصح هذا الحديث من قبل الحسن، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن أبي موسى الأشعري.

قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّاكَانُواْيَعْمَلُونَ﴾[3]، ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن سؤالهم عن لا إله إلا الله كما جاء عن أنس أنه قال: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّاكَانُواْيَعْمَلُونَ﴾، «أي عن قول لا إله إلا الله»[1]، أخرجه الترمذي وقال حديث غريب، وقال أبو العالية: " يسأل العباد عن حالتين: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا به المرسلين " [2]، فإن قيل: كيف يجمع بين قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنسٌ وَلَاجَآنٌّ﴾؟ [3]، فالجواب عن ذلك: أنهم لا يسألون هل عملتم، لأنه أعلم به منهم، ولكن يسألون عملتم كذا، قاله ابن عباس واعتمد عليه قطرب[4] فقال:" السؤال ضربان: سؤال استعلام، وسؤال توبيخ،

---

[1] الكهف: 49.

[2] "سنن الترمذي"، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في العرض، رقم:2425، (195/4)، وقال الترمذي: لا يصح هذا الحديث من قبل الحسن..، وقال الألباني: ح ض.

[3] الحجر: 92 – 93.

[1] "سنن الترمذي"، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة الحجر، رقم :3126 ، (149/5)، قال الترمذي: ح غ، وقال الألبان: إسناده ضعيف.

[2] انظر: "البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان الأندلسي، (497/6).

[3] الرحمان: 39.

[4] محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب: عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، من الموالي، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، وهو أول من وضع (المثلث) في اللغة، وقطرب لقب دعاه به أستاذه (سيبويه) فلزمه، وكان يؤدب أولاد أبي دلف العجليّ، من كتبه "معاني القرآن"، (ت 206 هـ / 821 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: قطرب، (95/7).

فقوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [1] يعني سؤال استعلام، وقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [2] سؤال توبيخ وتقريع "[3]، وقال ابن عباس في الجواب عن الآيتين: " إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف، فيسألون في بعض المواقف، ولا يسألون في بعضها"[4]، نظيره قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [5]، وقال في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[6].

ثم اعلم أن السؤال على قسمين: سؤال عن أعمال العبد خاصة في ذات نفسه، وهو السؤال الخاص الذي لا ينجوا منه أحد، ثم سؤال عام وهو سؤال الأمم هل علموا بما جاءت به رسلهم، وسؤال الرسل عما أرسلوا به هل بلغوه كما أمرهم أم لا كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [1]، فيقال للأمم الذين أرسلت إليهم الرسل: ماذا عملتم فيما جاءكم به الرسل؟، ويقال للرسل الذين أرسلهم تعالى إلى الأمم هل بلغتم رسالتي وأديتم إلى الأمم ما أمرتم بتأديته، أم قصرتم في ذلك؟، قال ابن عباس: " يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا "[2]، وعنه أيضا قال: " يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون"[3]، وقال السدي: " يسأل الأمم ما عملوا فيما جاءت به الرسل، ويسأل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به "[4]، فإن قيل: قد أخبر عنهم في الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بذلك، فالجواب عن ذلك: أنهم لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك

---

[1] الرحمن: 39.

[2] الحجر: 92-93.

[3] "تفسير البغوي"، (97/3).

[4] المصدر نفسه.

[5] المرسلات:35.

[6] الزمر: 31.

[1] الأعراف: 6.

[2] "تفسير الخازن"، (181/2).

[3] المصدر نفسه.

[4] "تفسير الخازن"، (181/2).

عن سبب هذا الظلم والتقصير سؤال تقريع وتوبيخ. فإن قيل ما فائدة سؤال الرسل مع علمه تعالى بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسل إليهم من الأمم، فالجواب عن ذلك: أنه إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسل، فقالوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [1]، فكانت مسألة الرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم من الأمم فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم، ثم زاد بيانا بقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ [2] أي فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم بما عملوا في الدنيا، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعن أفعالهم، وعن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا، فإن قيل ما وجه الجمع بين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1] وبين قوله تعالى:﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [2]، فإذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال؟، فالجواب عنه أن فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التوبيخ والتقريع للكفار، بأنهم إذا قروا على أنفسهم كان ذلك أبلغ في قيام الحجة عليهم، وأما سؤال الاسترشاد والاستثبات فإنه منفي عن الله عز وجل لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها، وفي حال كونها وبعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات، وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها.

ومن الأمور التي لا يتم الإيمان إلا بها اعتقاد صحة قدر الله والتسليم له في إمضاء قدره، حلوه ومره.

---

[1] المائدة: 19.

[2] الأعراف: 7.

[1] الأعراف: 6.

[2] الأعراف: 7.

يروى أن رجلا من الخوارج أتى عليا ﵁ فقال له: إني سائلك عن القدر، فقال له : بحر عميق فلا تلجه، فقال له: لابد أن تجيبني عنه، فإني في حيرة من أمره، فقال له: مدلهم فلا تقتحمه، فقال له: لابد من الجواب، فإني في حيرة أريد أن تنقذني منها، فأقبل عليه بوجهه، فقال له: يا فتى أخلقك الله يوم خلقك بإرادتك أم بإرادته؟، قال: بإرادته، فقال له: أشاورك على خلقك حين خلقك؟، قال: لم يشاورني، قال: أرزقك حين رزقك بإرادتك أم بإرادته؟، قال: بإرادته ومشيئته، قال: فيميتك بإرادتك أم بإرادته؟، قال: أو يدخلك النار أو الجنة يوم القيامة بإرادتك أم بإرادته؟، قال: بإرادته، قال له علي: إن كان كل شيء بإرادته، فما سؤالك عن قدره، فسلم له فيما يريد واسأله ما تريد، فإنه فعال لما يريد، فإنه تعالى لا يسأل خلقه يوم القيامة عن قضائه وقدره، إنما يسألهم عن أمره ونهيه، فقال الفتى: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن هذا هو الحق الذي لا غبار عليه، فقال علي لأصحابه: فقهوا أخاكم فإنه قد أسلم آنفا، فلازم عليا ﵁ فاستقام على الحق وكان من خيار الناس[1].

[فصل فيما ورد في القدر وما قيل فيه]

أخرج مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة قال: جاءت مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2] "[3]. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»، قال: «وعرشه على الماء»[4]. وروى مسلم عن طاووس قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر الله، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « كل شيء بقدر

---

[1] انظر: "الشريعة" للآجري، (844/2).

[2] القمر:47 إلى49.

[3] ح ص، بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب:كل شيء بقدر، رقم: 2656، (2046/4).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم:2653، (2044/4).

الله»، أو قال: « والكيس والعجز»[1]. وعن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يكون عبد مؤمنا حتى يومن بأربع، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»[2] أخرجه الترمذي، وله عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يومن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه »[3]، وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وفي حديث جبريل المتفق عليه: «وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت»[1]، ففيه ذم القدرية.

عن حذيفة قال: قال رسول اللهﷺ: « لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، فإنهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال »[2] أخرجه أبو داود. عن أبي هريرة مثله وزاد: « فلا تجالسوهم ولا تفاتحوهم بالكلام »[3]. وعن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب، المرجئة والقدرية »[4]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب. وروى ابن الجوزي[5] في "تفسيره" عن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، أمر مناديا فنادى نداء يسمعه الأولون والآخرون، أين خصماء

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: كل شيء بقدر، رقم:2655 ، (2045/4).

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: القدر، باب: ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره،رقم:2145، (20/4)، قال الألباني:ح ص.

[3] "سنن الترمذي"، أ بواب: القدر، باب: ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، رقم:2144،(19/4)، قال الترمذي: ح غ.

[1] ح ص، وجدته بلفظ: «وتؤمن بالقدر كله»، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: الإسلام ما هو وبيان خصاله، رقم: 10، (40/1).

[2] أخرجه أبو داود في "السنن"، كتاب:السنة، باب: في القدر، رقم:4692،(222/4)، وقال: سكت عنه.

[3] لم أقف عليه.

[4] "سنن الترمذي"، أبواب: القدر، باب: ما جاء في القدرية، رقم:2149، (22/4)، قال الترمذي: ح س غريب.

[5] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد ، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: " تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار"، (ت 597 هـ / 1201 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الجوزي، (316/3).

الله؟، فتقوم القدرية، فيأمر بهم إلى النار، يقول الله: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1]»[2] ، قال ابن الجوزي: " وإنما قيل خصماء الله، لأنهم يخاصمون في أنه لا يجوز أن يقدر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها "[3]. وروي عن الحسن أنه قال: " والله لو أن قدريا صام حتى يصير كالحبل، وصلى حتى يصير كالوتر، ثم أخذ ظلما حتى ذبح بين الركن والمقام، لكبه الله على وجهه في سقر، ثم قيل له ذق مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر" [1]. قال الشيخ محيي الدين النووي: " اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ولا يومن أحد إلا باعتقاده، ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله عليه، وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وأنها مستأنفة العلم، وإنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة، وتعالى علوا كبيرا "[2].

وسميت هذه الفرقة القدرية لإنكارهم القدر، وقال أصحاب المقالات من المتكلمين: قد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في هذه الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن تقول الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [3].

وحكى أبو محمد بن قتيبة في كتابه: "غريب الحديث"، وأبو المعالي إمام الحرمين في كتابه: " الإرشاد في أصول الدين" أن بعض القدرية قال لسنا بقدرية بل أنتم القدرية لاعتقادكم

---

[1] القمر: 48 – 49.

[2] انظر: "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي، (203/4).

[3] المصدر نفسه.

[1] "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي، (203/4).

[2] "تفسير الخازن"، (223/4).

[3] المصدر نفسه.

إثبات القدر، وقال ابن قتيبة وإمام الحرمين وهذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهتة وتواقح، فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله تعالى ويضيفون القدر والأفعال إلى الله تعالى، وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم، ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه[1].

قال إمام الحرمين: " وقد قال رسول الله ﷺ: « القدرية مجوس هذه الأمة »[1] شبههم بها لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس، فصير الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن[2]، ولا خفاء في اختصاص هذا الحديث بالقدرية"[3]. وحديث « القدرية مجوس هذه الأمة» رواه أبو حازم عن ابن عمر عن رسول اللهﷺ وأخرجه أبو داود في" سننه"، والحاكم أبو عبد الله في "المستدرك على الصحيحين"، وقال: صح على شرط الشيخين إن صحَّ سماع أبي حازم عن ابن عمر.

وقال الخطابي: " إنما جعلهم ﷺ مجوسا لمضاهات مذهبهم مذهب المجوس في قولهم في الإلهين النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعا لا يكون شيء منها إلا بمشيئته، فهما مضافان إلى الله سبحانه وتعالى خلقا وإيجادا، وإلى الفاعلين لهما فعلا واكتسابا"[4].

---

[1] "تفسير الخازن"، (223/4)، و الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني، (ص 208).

[1] "سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب في القدر، رقم:4691، (222/4)، وأخرجه الحاكم في: "المستدرك على الصحيحين"، كتاب: الإيمان، باب: حديث مسعر، رقم:286، (159/1)، قال أبو داود سكت عنه، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف: وقال الألباني: ح س.

[2] يزدان وأهرمن: إلهين حسب عقائد الزرادشتية ، وهم من أوائل من قال بالتناسخ والحلول، وتعني: النور والظلمة وأنهما أصلان متضادان، وهما مبدأ موجودات العالم، انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني، باب: الزرادشتية، (42/2).

[3] "تفسير الخازن"، (223/4).

[4] المصدر نفسه.

وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلقه لها خيرها وشرها، والقدر اسم لها مقدرا عن فعل القادر، يقال: قدرت الشيء، وقدرته بالتخفيف والتثقيل واحد، والقضاء في هذا معناه كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾[1] أي خلقهن، وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل العقد والحل من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وقد قدر ذلك أئمة المتكلمين أحسن تقدير بدلائله القطعية السمعية والعقلية والله تعالى أعلم.

وأما معاني الأحاديث المتقدمة فقوله : جاء مشركوا قريش [إلى قوله][2]: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [3]، والمراد بالقدر هنا القدر المعروف وهو ما قدره الله وقضاه وسبق به علمه وإرادته، فكل ذلك مقدر في الأزل معلوم لله تعالى مراد له. وكذلك قوله: « كتب الله مقادر الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء »[4]، المراد منه تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل القدر فإن ذلك أزلي لا أول له، قوله: « وعرشه على الماء » أي قبل أن يخلق السماوات والأرض، وقوله: « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس» أو قال: « الكيس والعجز »[5]، العجز عدو القدرة، وقيل هو ترك ما يجب فعله بالتسويف وتأخيره عن وقته، وقيل هو العجز عن الطاعات ويحتمل العموم في أمور الدنيا

---

[1] فصلت: 12.

[2] ساقط من (ب).

[3] القمر: 49.

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: 2653، (2044/4).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: كل شيء بقدر، رقم: 2655، (2045/4).

والآخرة، والكيس ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور، ومعنى الحديث أن العاجز قدر عجزه، والكيس قدر كيسه.

ثم أتبع ذلك بوصف إنشائه المخلوقات فقال: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[1]، معناه وما أمرنا لشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة وهي قولنا: كن فيكون لا مراجعة فيه، فعلى هذا إذا أراد سبحانه شيئا قال له كن، فهنا شيئان: الإرادة والقول، فالإرادة قدر والقول قضاء، وقوله: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ فيه بيان أنه لا حاجة إلى تكرار القول، بل هو إشارة إلى نفاذ الأمر. ثم بين سبحانه سرعة ذلك بقوله: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾، قال ابن عباس: " يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر "[1]، وعن ابن عباس أيضا: "معناه وما أمرنا بمجئ الساعة في السرعة إلا كطرفة البصر "[2]، فثبت بما قررناه أن الإيمان بالقدر لا يكون بمجرد النطق وإنما يكون بتحقيق ما ذكر في هذه المسودة. ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ [3] أي عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان، وقيل خيره وشره معه لا يفارقانه حتى يحاسب بهما، قال ابن عباس: " ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد "[4]، وما قضى عليه أنه عمله، وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة فهو من قوله: طار له سهم إذا خرج يريد ألزمناه ما طار من عمله لزوم القلادة، والغل لا ينفك عنه، والعنق في قوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ [5] كناية عن اللزوم كما يقال: جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلادة والأطواق والغل مما يزين أو

---

[1] القمر: 50.

[1] "تفسير البغوي"، (330/4).

[2] "تفسير الخازن"، (224/4).

[3] الإسراء: 13.

[4] انظر: "تفسير البغوي"، (124/3).

[5] الإسراء: 13.

يشين، فإن كان عمله خيرا كان كالقلادة أو الحلى في العنق وهو مما يزينه، وإن كان عمله شرا كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه، يقول الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1]، قيل بسطت للإنسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته، فإذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه في قبره، فلا ينشران إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نشرتا وقيل له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾[1] ، فيقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا، ويقال له: تظاهر للعدل ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسبا ، قال الحسن: " لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك "[2] ، وقيل يقول الكافر: إنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي، فيقول: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

ولا يكون العبد مؤمنا حتى لا يفرق بين الرسل فيكونوا عنده على حد السواء في التبليغ والصدق والأمانة مع اعتقاده ما بينهم من التفاضل، فأولو العزم من الرسل أفضل من غيرهم من الرسل، والرسل أفضل من النبيئين، والأنبياء أفضل من الصديقين والصديقون أفضل من الشهداء، والشهداء أفضل من الصالحين، والصالحون أفضل من عامة المؤمنين، والنبي ﷺ أفضل من جميع أولي العزم ، بل أفضل من جميع المخلوقات ملائكتها وبشرها كما قدمته في صدر الكتاب، فمن كذب على نبي من الأنبياء المشهورين فهو كافر بإجماع الأئمة، لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، كما قال الله تعالى لنبيه وخاصته من أوليائه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[3].

---

[1] الإسراء: 13 .

[1] الإسراء: 14 .

[2] "تفسير البغوي"، (124/3).

[3] البقرة: 136.

يروى أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة وأُهبط من الجنة، قال: يا رب بحرمة محمد إلا ما غفرت لي، قال له: وما علمك بمحمد؟، قال: لما كشفت لي عن الملكوت في الجنة رأيت اسمه مكتوبا على ساق العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك ما قرنت باسمك إلا أحب خلقك إليك، فقال له: ما علمت أنه ابنك، ولولا هو ما خلقتك، ولا خلقت أرضا ولا سماءً ولا عرشا ولا كرسيا ولا ملكا هو محمد عبدي ورسولي، فهلا سألت المغفرة لجميع الخلق، فقال: أي رب بحق هذا الولد إلا ما غفرت لهذا الوالد، فقال: إني غفرت لك واجتبيتك فأنت صفوتي من خلقي، بدأت الدنيا بك وسأختمها بمحمدﷺ، فهو محمد وأحمد، يحمده أهل السماوات والأرض، ويحمد على السراء والضراء في الدنيا والآخرة، في يوم الجمع يشفع لجميع الأمم فيحمده الكل، وهو أحمد الحامدين وأمته الحمادون، يحمدونني على السراء والضراء، أختم بهم الأمم كما ختمت بنبيهم الأنبياء، تفضح الأمم عندهم ولا يفتضحون عند الأمم، يشهدون لجميع الأنبياء بالتبليغ يوم القيامة فهم الشهداء عند ربهم لا تتم الكلمة إلا بنبيهم، أقهر بهم وبنبيهم أمم الكفر فلا يبقى جبار على وجه الأرض إلا أجاب دعوتهم طوعا أو كرها، هو الأول فضلا وهو الآخر بعثا، أنصر كلمته وأرفع ذكره وأظهر دينه على جميع الأديان ولو كره الكافرون، هو عبدي المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفوا ويصفح.

[فصل في بيان كفر جميع الملل غير الملة الإسلامية]

أما اليهود فإنهم كفروا بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الأنبياء، فلم يقبلوا إلا نبوءة موسى، فقد كفروا بعيسى وداود وسليمان، ويزعمون أن سليمان كان ساحرا، وقتلوا يحيى و زكريا مع علمهم بنبوءتهما، حتى قتلوا في قرن واحد سبعين نبيا، وقالوا عزير ابن الله، ونسبوا إلى الله التجسيم والبذاء، وكانوا لا يقرون ببعث الأجسام وإنما يقرون ببعث الأرواح وأنها غير فانية.

وأما النصارى فإنهم قد ضلوا في تعظيم عيسى حتى أطروه فنسبوه إلى الله تعالى بالولادة وهم النسطورية منهم، وذهب طائفة أخرى منهم وزعموا بأن عيسى هو الله وإنه حل في جسمه، وطائفة أخرى جعلوا الله ثالث ثلاثة، فيقولون أم وأب وروح القدس، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وأما المجوس فإنهم زعموا أن للكون إلهين، أحدهما النور والآخر الظلمة، فالنور يخلق الخير والظلمة تخلق الشر، ولهذ المعنى عبدوا الشمس والقمر والنار، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وأما الدهرية فإنهم نسبوا التأثير إلى الدهر، وأنه الذي يميتهم ويحييهم، ولم يعتبروا بتغيراته وجريان أحكام الله تعالى لطمس بصائرهم.

وأما الطبائعيون فإنهم نسبوا التأثير للطبائع الأربعة :الحرارة والبرودة، واليبوسة والرطوبة، تعالى الله عما يقول الجميع علوا كبيرا.

وأما الوثنيون فإنهم يزعمون أن أوثانهم شفعاؤهم عند الله، وأنهم أعوان الله على خلقه، وأن الملائكة بنات الله، وكانت قريش إذا عابهم النبي ﷺ بعبادة الأوثان يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [1] وكذبوا، فإن الأصنام لا تزيدهم من الله إلا بعدا.

ومن الأسباب التي كفرت بها النصارى إقرارهم بنبوة محمد ﷺ مع تكذيبهم إياه بقولهم: إنما بعث إلى العرب خاصة لا إليهم، مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [2]، فهو ﷺ رسول إلى الجن والإنس والملائكة، لأن لفظ العالمين يطلق على جميع ذلك، والإسراء به إلى السماء وإلى فوق ذلك دليل على بعثه إلى الملائكة

[1] الزمر: 3.

[2] الفرقان: 1.

ليعلمهم آداب العبادة وليصلي بهم في الملأ الأعلى، لأنه لما جاوز السماوات وبلغ إلى الحجب تخلف عنه جبريل، فقال له: «يا جبريل أفي هذا المحل يترك الخليل خليله»، فقال له: يا محمد لو جاوزت هذا قيد شبر لاحترقتُ من أنوار الحجب [1]، وما منا إلا له مقام معلوم.

وقد [أفك] [1] أهل الكتابين بدعواهم إنما بعث إلى العرب جحدا منهم وحسدا وحرصا على الرياسة، وقد كان جحودهم سببا لذهاب رياستهم من جميع الأقاليم السبعة، فورثت أمته ﷺ الأرض وطردت فارس والروم بعدما أسلم منهم إلى جزائر البحور كما وعدهم تعالى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [2]، وهم أمة محمد ﷺ حتى صار دينهم وملكهم في مشارق الأرض ومغاربها سير الشمس والقمر، وخر دين الكفر لأنفه فلم يبق إلا داخل في الإسلام أو تحت ذمة الإسلام يعطي الجزية وهو صاغر، أو مطرد مشرد في أقاصي جزائر البحور. فلما كابر أهل الكتابين وامتنعوا من الإذعان إلى دين الحق أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بغزوهم فقال: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [3]. قال مجاهد: " نزلت الآية حين أمر الله النبي ﷺ بقتال الروم من النصارى، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك " [4]. وقال الكلبي: " نزلت في قريظة ونضير من اليهود فصالحهم، فكانت أول جزية أصابها الإسلام، وأول ذل أصابه أهل الكتاب بأيدي المسلمين، وهذا خطاب للنبي ﷺ وأصحابه المؤمنين والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر "[5].

---

[1] تفسير الرازي المسمى "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير"، (445/2).

[1] في: (ب): كفر.

[2] الأنبياء: 105.

[3] التوبة: 29.

[4] "تفسير البغوي"، (335/2).

[5] المصدر نفسه.

فإن قيل: اليهود والنصارى يزعمون أنهم يومنون بالله واليوم الآخر، فكيف أخبر الله عنهم لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر؟، فالجواب: أن إيمانهم بالله ليس كإيمان المسلمين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله، ومن اعتقد أن عزيرا ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل مشرك بالله أقبح، ومن كذب رسولا من رسل الله فقد كذب الجميع فليس بمؤمن بالله، واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء فليسوا بمؤمنين بالله، وأما إيمانهم باليوم الآخر فليس كإيمان المسلمين، وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون، ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن.

ثم ببيان نوع آخر من كفرهم فقال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1] من أكل لحوم الخنازير وشرب الخمر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله في القرآن وما حرم رسوله في السنة، ولا يعملون بما في التوراة والإنجيل، لأنهم حرفوهما وأتوا بأحكام مبتدعة من عند أنفسهم.

ثم بين سبحانه وجها آخر من الوجوه التي قد كفروا بها فقال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾[2] يعني أنهم لا يعتقدون صحة الإسلام الذي هو دين الحق، فلا يدينون دين الله ودينه الإسلام بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3]، ثم بين هؤلاء الذين تقدم وصفهم بالكفر فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[4] وهم اليهود والنصارى، ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾[5]، وحقيقة الجزية ما يعطي المعاهد أهل الكتاب على عهد وهو الخراج المضروب على رقابهم، وسميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم. ثم بين سبحانه صفة أخذها منهم فقال: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي قهر

---

[1] التوبة: 29.

[2] التوبة: 29.

[3] آل عمران: 19.

[4] التوبة: 29.

[5] التوبة: 29.

وغلبة، يقال لكل من أعطى شيئا كرها من غير طيب نفس "عن يد"، قال ابن عباس: "يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم، فيعطونها نقدا لا نسيئة، بل يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم" [1]. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [1] ، من الصغار وهو الذل و الإهانة فيعطون الجزية وهو أذلة مقهورين، قال عكرمة: " يعطون الجزية وهم قيام والقابض جالس" [2]، وقال ابن عباس: " تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه "[3]، وقال الكلبي: " إذا أعطى الجزية يصفع قفاه ويؤخذ بلحيته ويضرب على لهزمتيه، ويقال له : أدّ حق الله يا عدو الله "[4]، وقال الشافعي: " الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم"[5].

وكما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يومنون بالله ولا يدينون دين الحق في هذه الآية، وأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولدا، ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من يعبد المسيح أو عزيرا، فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾[6]، فقد بان بهذا أنهم لا يومنون بالله ولا يدينون دين الحق، وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها فيعرفون الحق ويرجعون إليه.

---

[1] "تفسير الخازن"، (350/2).

[1] التوبة: 29.

[2] "تفسير الخازن"، (350/2).

[3] المصدر نفسه.

[4] "تفسير الخازن"، (350/2).

[5] المصدر نفسه.

[6] التوبة: 30 .

روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أنه أتى رسول الله ﷺ رهط من اليهود وهم: سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى و شاس بن قيس ومالك بن الصيف[1]، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله، فأنزل الله هذه الآية ، وقال عبد الله بن عمير: "إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه: فنحاص بن عازوراء[2] إذ هو الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [1] " [2]، فعلى هذين القولين فالقائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد، وإنما نسب ذلك إلى اليهود في "وقالت اليهود" جريا على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد، تقول العرب: فلان يركب الخيل وإنما يركب فرسا منها، وتقول العرب: فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا واحدا منهم.

وروى عطية العوفي[3] عن ابن عباس: " إنما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزير كان فيهم، وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عز وجل وابتهل إليه أن يرد إليه التوراة، فبينما هو يصلي مبتهلا إلى الله عز وجل إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه، فأذن في قومه وقال: يا قوم قد أتاني الله التوراة وردها إلي، فعلقوا يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت

---

[1] جماعة من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله، فأنزل الله عز وجل:" وقالت اليهود عزير ابن الله"، انظر: "تفسير البغوي"، (338/2).

[2] أحد اليهود الذين نسب إليهم قول أن الله فقير وهم أغنياء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، انظر: "تفسير البغوي"، (338/2).

[1] آل عمران: 181.

[2] "تفسير البغوي"، (338/2).

[3] محمد بن محمد بن علي ابن عطية العوفيّ، الإسكندري الأصل، المزي ثم العاتكي، أبو الفتح، شمس الدين، من سلالة عبد الرحمن بن النعمان بن عوف، فقيه شافعي متصوف، له علم بالأدب، ولد بالإسكندرية ورحل إلى مكة واليمن والهند، ورجع إلى مصر، ثم زار العراق واستقر بالمزة (من ضواحي دمشق) بعد سنة 880 ونكب في فتنة، فانتقل إلى محلة قبر عاتكة (بدمشق) وتوفي فيها، من كتبه "الحجة الراجحة في سلوك المحجة الواضحة"بخطه، (ت 906 هـ / 1501 م) انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: العوفي، (53/7).

فوجدوه مثله، فقالوا: ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله" [1]. وقال الكلبي: "إن بختنصر[2] لما غزا بيت المقدس على بني إسرائيل وقتل قراء التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيرا فلم يقتل لصغره، فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة فبعث الله عزير ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة سنة " [1]. قال: " فأوتي بإناء فيه ما آتاه به ملك فشرب منه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال: أنا عزير فكذبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فامل علينا التوراة، فكتبها لهم من صدره، ثم إن رجلا منهم قال له: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفا، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب عزير إلا أنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله[2]. فعلى هذين القولين كان فاشيا في اليهود جميعا، ثم إنه انقطع ودرس فأخبر الله تعالى عنه وأظهره عليهم، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك فإن خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم.

وأما قول النصارى المسيح ابن الله، فإن السبب فيه أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود

---

[1] "تفسير البغوي"، (338/2).

[2] نبوخذ نصر أو بختنصر أو بخترشاه و أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، وأكبر أبناء نبوبولاسر، ويعتبر نبوخذنصر أحد أقوى الملوك الذين حكموا بابل وبلاد ما بين النهرين، حيث جعل من الإمبراطورية الكلدانية البابلية أقوى الإمبراطوريات في عهده بعد أن خاض عدة حروب ضد الآشوريين والمصريين، كما أنه قام بإسقاط مدينة القدس مرتين الأولى في سنة 597 ق م والثانية في سنة 587 ق م، إذ قام بسبي سكان القدس وأنهى حكم سلالة داود، كما ذكر أنه كان مسؤولًا عن بناء عدة أعمال عمرانية في بابل مثل الجنائن المعلقة ومعبد إيتيمينانكي وبوابة عشتار، انظر: "تاريخ دمشق" لابن عساكر، باب: عزير بن جروة، (331/40).

[1] "تفسير البغوي"، (338/2).

[2] المصدر نفسه.

حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص[1] قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال بولص لليهود: إن كان الحق مع عيسى كفرنا والنار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني أحتال حتى أضلهم فيدخلون النار معنا، ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه فعقره وأظهر الندامة والتوبة فوضع التراب على رأسه، ثم إنه أتى النصارى فقالوا له من أنت: قال أنا عدوكم بولص قد نوديت من السماء أنه ليست لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم، فأدخلوه الكنيسة ونصروه ودخل بيتا فيها فلم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج وقال: قد نوديت إن الله قد تقبّل توبتك، فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم واحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر مالك[1]، فعلم نسطور أن عيسى ومريم والإله آلهة ثلاثة، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله، وعلم مالك أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي فادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحيته من البلاد، ثم قال لهم: إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم: إني سأذبح نفسي تقربا إلى عيسى، ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه، وتفرق أولئك الثلاثة، فذهب كل واحد إلى الروم وواحد إلى بيت المقدس والآخر إلى ناحية أخرى، وأظهر كل واحد منهما مقالته ودعا الناس إليها فأتبعه على ذلك طوائف من الناس، فتفرقوا واختلفوا ووقع بينهم القتال، فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله. وفشت هذه المذاهب الفاسدة في اتباع عيسى عليه السلام فبين تعالى كذبهم فيما ادعوه من ذلك بقوله ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[2]، والمعنى أنهم يقولون ذلك القول

---

[1] بولس الطرسوسي ويعرف عند النصارى بأنَّه بولس الرسول أو القديس بولس، أحد دعاة النصرانية، له مجموعة من الرسائل، وادعى ألوهية عيسى، أعدم بأمر من نيرون بعد حادثة حريق روما بعدما اتهم المسيحيون بإشعال النيران، انظر: "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب"، باب: النصرانية، (567/2).

[1] دعاة أهم الفرق النصرانية: النسطورية واليعقوبية وغيرها، انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني، باب: النسطورية، (29/2).

[2] التوبة: 30.

بألسنتهم من غير علم يرجعون إليه ولا برهان يستدلون به، قال أهل المعاني لم يذكر الله تعالى قولا مقرونا بالأفواه إلا كان ذلك القول زورا وكذبا لا حقيقة له، ثم زاده بيانا بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ والمضاهاة المشابهة، قال قتادة والسدي: معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله، وكذلك المشركون فإنهم كانوا يقولون أن الملائكة بنات الله[1].

قال الحسن: " شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الأمم الماضية الكافرة " [1]، وقال القتيبي: "يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى كانوا يقلدون أوائلهم، ثم لعنهم تعالى بمقالتهم الشنيعة فقال: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [2]"[3].

قال ابن عباس:" لعنهم الله وهو دعاء بمعنى التعجب" [4]، ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[5]، أي أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد، فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهذا التعجب راجع إلى الخلق، لأن الله تعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب وأسلوب لغتها في مخاطبتهم، والله تعالى عجب نبيه ﷺ ثم زاده بيانا بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [6] ، يعني أن اليهود والنصارى قد اتخذوا علماءهم وقراءهم أرباب من دون الله، يريد أنهم أطاعوهم في معصية الله

---

[1] "تفسير الخازن"، (352/2).

[1] المصدر نفسه.

[2] التوبة: 30 .

[3] "تفسير الخازن"، (352/2).

[4] المصدر نفسه.

[5] التوبة: 30.

[6] التوبة: 31.

تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها، فاتخذوهم كالأرباب لا إنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية.

روي عن عدي بن حاتم[1] أنه قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]، قال: « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه »[2]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وفي مثل ذلك يقول عبد الله بن المبارك:

وهل فسد الدنيا إلا الـملوك وأحـبار ســـوء ورهـبـانـهـا

فباعوا أنفسهم ولـم يـربحوا ولــم تقبل في البيع أثمانـها

لقد رتــع القوم في جـيـفـة يبـيـن لـذي اللـب أنـتانـها [3]

ثم قال: ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[4]، وهو من باب عطف الخاص على العام، يريد أنهم اتخذوا إلها اعتقدوا فيه النبوة والحلول، فلما أثبتوا له ذلك بزعمهم الفاسد اعتقدوا فيه أيضا

---

[1] عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو وهب وأبو طريف:أمير صحابي، من الأجواد العقلاء، كان رئيس طيئ في الجاهلية والإسلام، وقال ابن الأثير: خير مولود في أرض طيِّئ وأعظمه بركة عليهم، وكان إسلامه سنة 9هـ وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع عليّ وفقئت عينه ، عاش أكثر من مئة سنة، وهو ابن حاتم الطائي الّذي يضرب بجوده المثل، (ت 68 هـ - 687 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: المهلهل، (220/4).

[1] التوبة: 31.

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: سورة التوبة، رقم: 3095، (129/5)، قال الترمذي: ح س غريب.

[3] هذه الأبيات من البحر المتقارب، انظر: "تفسير الخازن"، (353/2).

[4] التوبة: 31.

الألوهية. ثم كذبهم سبحانه فيما ادعوه من إلهية عيسى فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في [الكتب] [1] الإلهية المنزلة عليهم، وعلى السنة أنبيائهم ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ لأنه المستحق للعبادة لا غيره. ثم نزه تعالى نفسه عن قولهم فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والأحكام أو أن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال، ﴿يُرِيدُونَ﴾[2] رؤساء اليهود والنصارى، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، يعني أن هؤلاء يحاولون إبطال دين الله الحق الذي جاء به محمد ﷺ بتكذيبهم إياه، والمراد بالنور الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ وهي أمور أحدها المعجزات الباهرة الخارقة للعادة التي ظهرت على يديه ﷺ الدالة على صدقه، وثانيها القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة باقية إلى الأبد، وثالثها أن دينه الذي أمر به هو دين الإسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه واتباع طاعته والأمر بعبادته والتبرء من كل معبود سواه، فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة على صحة نبوة محمد ﷺ، فمن رام إبطال ذلك بكذب أو تزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله. ثم إن الله تعالى وعد نبيه محمد ﷺ بمزيد النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين، فقال: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [1]، يريد تعالى أنه يأبى إلا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمد ﷺ ولوكره ذلك الكافرون، لأنه الغالب الذي لا يغلب فما أباه لا يكون أبدا، إذ لا قادر غيره ولا مريد على الحقيقة سواه، ثم زاد بيانا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [2] يعني أن الله الذي يأبى إلا أن يتم دينه، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني محمد ﷺ، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني القرآن الذي أنزله عليه وجعله

---

[1] في (ب) : الكتاب.

[2] التوبة: 32 .

[1] التوبة: 32.

[2] التوبة: 33.

هاديا إليه، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ يعني الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي ليعليه، ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1] على سائر الأديان، قال ابن عباس:" الهاء في ليظهره عائد على الرسول ﷺ والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها"[2]، وقال غيره من المفسرين: الهاء راجعة إلى الدين، والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها، وهو أن لا يعبد إلا الله، قال أبو هريرة و الضحاك: "وذلك عند نزول عيسى عليه السلام، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام"[1]، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: « تهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام»[2]، ومن حديث المقداد أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، فإما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به، وإما أن يذلهم فيدينون له»[3] أخرجه البغوي بغير سند، ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله عليه السلام يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى»، فقلت: يا رسول الله إن كنت لا أظن حين أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [4] إن ذلك تام، قال: « إنه سيكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحا طيبة

---

[1] التوبة: 33.

[2] "تفسير الخازن"، (353/2).

[1] "تفسير الخازن"، (354/2).

[2] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم :9632، (398/15)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح قوله :"فيصلي عليه المسلمون"، وهذا إسناده منقطع.

[3] انظر: "تفسير البغوي"، (341/2)، وورد كذلك بلفظ آخر قريب منه، انظر: الإيمان لابن منده، باب: ذكر وجوب الإيمان بالقيامة، رقم:1084، (981/2)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: حديث المقداد بن الأسود، رقم: 23814، (236/39)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[4] التوبة: 33.

تتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»[1].

قال الشافعي: " وقد أظهر الله رسوله ﷺعلى الأديان، بان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل " [2]، وقال: " وأظهره بأن إجماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب ودين الأميين، فقهر ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعا وكرها، وقتل أهل الكتاب وسباهم حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وأجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله"[1].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: شكا أصحاب محمد ﷺ قلة ذات أيديهم وكثرة أعدائهم وتظاهر الأحزاب عليهم، وكان مضطجعا فجلس فقال: « [الفقر] [2] تخافون، والذي نفسي بيده ما أخاف عليكم الفقر، ولا أن تلتبس عليكم الطرق فتضلوا، ولا أن يظهر عليكم عدوكم فتذلوا، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا فتتنافسوها فتهلككم كما أهلكت من كان قبلكم، والله لتفتحن عليكم البلاد كلها، ولتنفقن كنوز كسرى وقيصر وخافان، وحتى أن الرجل من أهل الصفة الذي لا يكاد اليوم يجد ما يتعشى به ولا ما يتغذى به ولا ما يستتر به عورته ليتغذى عليه، فمائدة فيراح بأخرى، ولا يكاد يحصي زكاة أمواله لكثرة ما يفتح على المسلمين من الكنوز ولكثرة أعطيتهم وما ينالون من الفتوحات والمغانم، ولتخوض الخيل البحار في سبيل الله، ولتفتحن عليكم القسطنطينية من بلاد الروم فتسنطنوها آمنين مطمئنين، ولتسيرن الظعينة من القادسية إلى مكة لا تخاف إلا الله أو الذيب، وليسيرن دينكم هذا الذي ارتضاه الله لكم إلى منتهى الخف والحافر، وليفتحن عليكم بكل شيء حتى تقول طائفة منهم من أعلم من مثلنا، من أعبد منا،

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، رقم:2907، (2230/4).

[2] "تفسير البغوي"، (341/2).

[1] المصدر نفسه.

[2] ساقط من (ب).

أتدرون ما هم عند الله تعالى؟، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال عليه الصلاة والسلام: «أولئك هم وقود النار»[1]، فإن من شان العلماء التواضع والانكسار والإخبات لله، وخفض الجناح لضعفاء المسلمين حتى ينتفعوا بعلومهم وإلا كانوا من حزب الشيطان، أخرجه الطبراني وابن حبان في صحيحيهما.

وفي حديث آخر: « إذا مشت أمتي المطيطا، واستقرت أبناء الملوك كانت الدولة للعدو»[1]، أخرجه الترمذي بسند يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه.

[فصل في فساد دين المجوسية وحقيقة عبادة النيرات كالشمس والقمر والنار]

وأول من أفسد دين المجوسية أصحاب رسول الله ﷺ حين فتح الله عليهم العراق وبلاد العجم، فلما قتلوا ملوك فارس واستولوا على خزائن ملكهم ومستقر عزهم وشردوا كسرلى من المدائن وجلولاء وخراسان ، جمع وجوه فارس وملوكها فقال لهم: إن هؤلاء قد قهرونا وغلبونا على أرضنا وقد أعانهم علينا خالق الأرض والسماء، فهل ننتقل بجماعتنا أو من بقي من عيالنا إلى بلاد الترك فنكون تحت خافان فهو أهون علينا من أن يملكنا هؤلاء الذين كنا قاهرين لهم، فأبى عليه ذلك عظماء فارس فقالو له: إنك قد أخطأت في الرأي، فلأن يلينا قوم ذووا دين وأحساب أحب إلينا من أن يلينا قوم لا دين لهم ولا حسب لهم، وهم ذو جفاء وغلظة سيئة أخلاقهم فتقطع بذلك عن بلادنا ومستقر ملكنا، فأبى عليهم وأبوا عليه، فاقتتلوا فهزموه حتى أفضى ذلك إلى قتلهم إياه، ثم ساروا بجماعته إلى أمير الأجناد وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فأخبروه بما وقع بينهم وبين كسرى وباختيارهم المسلمين على الأتراك، فقال لهم سعد: إنكم رجال ذو أحلام وعقول، فما عبادتكم لهذه النار؟، فإنكم تعبدونها في الدنيا وتأكلكم في العقبى، وإنما هي خلق من خلق الله تورونها بأيديكم ثم تصير بعد ذلك رمادا، فقالوا: عبدناها لأنها

[1] وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، باب: عمرة بن عوف، رقم: 40، (25/17)، و"المعجم الأوسط" للطبراني، باب: من اسمه محمد، رقم:6242، (221/6).

[1] وجدته بلفظ قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب الفتن، باب:74، رقم:2261، (96/4)، قال الترمذي: ح غ.

تغلب ولا تغلب، فقال لهم سعد: الماء يغلبها فهلا عبدتم الغالب وتركتم المغلوب، ثم إن الماء أيضا تغلبه الريح، والريح يغلبها خالقها وهو الله تعالى، فقالو له: نطقت بالحجة التي لا ينكرها عقل، لولا أن الله هو الغالب لما قهرتمونا مع كثرتنا وقوتنا، وقلتكم وضعفكم، فإن تطوعتم لنا بخصلتين دخلنا في دينكم هذا الذي تدعوننا إليه فقد ظهرت لنا محاسنه مع ما صنع الله لكم على الأعداء لصدقكم ووفائكم بالعهد، قال لهم سعد: وما الخصلتان التي أن أعطيناكموها دخلتم في الدين؟، فقالوا له: إحداهما أن لا تذلونا بالجزية، فإنا كنا نأخذ الجزية ولا نعطيها، الثانية أن تلحقونا بأصحاب رسول الله ﷺ في العطاء، فقال لهم سعد: إن فوقي أميرا لا أقطع برأي دونه، وإنما أنا خليفته على أجناده قد ولاني أمر حروبهم والقيام عليهم، فأمهلوني حتى أبعث إليه كتابا، فإن رضي بذلك فأنتم أحب إلينا من أنفسنا إذ هداكم الله بفضله ورحمته إلى الإسلام، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما اشترطوا على أن يدخلوا في الإسلام بجماعتهم ويمكنونا من بيوت أموالهم، فلما بلغ عمر كتابه جمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فقرأ عليهم كتاب سعد، فلما سمعوا سروا بذلك سرورا عظيما، ما اشترطوه على أن يدخلوا في الإسلام وعلى أن يجاهدوا الكفرة معهم وعلى أن يبطلوا نكاح الأخوات، فلما بلغهم كتاب عمر رضي الله عنه أقبلوا بجماعتهم وبيوت أموالهم حتى مكنوا سعد من جميعها ثم أسلموا كلهم، فترك لهم المسلمون رباعهم وقصورهم وأموالهم التي لم تكن من بيوت جملة الأموال، فاغتبطوا بالإسلام فصاروا وكأنهم في ملكهم القديم، فبطل من يومئذ دين المجوسية بالعراق وخراسان وأصبهان وسجستان والموصل والسواد. فلما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ إسلامهم واجتهادهم في الفقه بدين الله وجدهم في جهاد العدو وقال بعضهم لبعض أتذكرون قول رسول الله ﷺ: « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من آل فارس »[1]، وقوله ﷺ: « نزلت

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، رقم:4897، (151/6)، و "صحيح مسلم"، كتاب : فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضل فارس، رقم: 2546، (1972/4).

الحكمة على ثلاث: عقول فارس ولسان العرب وأيدي الروم »[1]. فكان منهم العلماء الأعلام منهم البخاري محمد بن إسماعيل بن بردزبة والنعمان أبو حنيفة بن زرنوط والكرماني[2] وأحمد بن حنبل وغير ذلك مما لا يحيط به ديوان، وكان أرباب المذاهب الأربعة اثنان منهما عربيان وهما: مالك والشافعي، واثنان من العجم: أبو حنيفة النعمان بن زرنوط وأحمد بن حنبل، قال الشاعر:

أئـــمـــة الخـــلق الهـــداة الأربعـــة وكـــلهـــم مفضل بما مـــعـــه[1]

واعلم أن الكفر على أربعة أقسام: كفر عناد ككفر إبليس، وكفر جبرية ككفر نمروذ وفرعون حتى أفضى بهم تجبرهم إلى دعوى الإلهية، وكفر ضلال ككفر فارس والروم، وكفر تقليد وتكبر ككفر العرب، فإنهم كانوا على دين أبيهم إبراهيم الحنيفية السمحة حتى أتاهم عمرو بن لحي الخزاعي[2] من بلاد العمالقة فرآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه التماثيل؟، فقالوا له: آلهتنا نستمطر بها على الأعداء، فقال لهم: أعطوني بعضها، فأعطوه هبل فأتى به بلاد العرب فقلدوه في ذلك حتى نصبوا هبل في المسجد الحرام، فذلك أول ما عبدت الأصنام في بني إسرائيل وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « أول من غير دين الحنيفية عمرو بن لحي، ولقد رأيته يجر

---

[1] لم أقف عليه.

[2] محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني: عالم بالحديث، أصله من كرمان، اشتهر في بغداد، قال ابن حجي: تصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة، وأقام مدة بمكة وفيها فرغ من تأليف كتابه " الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري "، (ت 786 هـ / 1384 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الكرماني، (153/7).

[1] هذه الأبيات من بحر الرجز، قائلها مجهول.

[2] عمرو بن لحيّى بن حارثة بن عمرو ابن عامر الأزدي، من قحطان: مجهول الولادة والوفاة، أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، كنيته أبو ثمامة، وفي نسبه خلاف شديد، وفي العلماء من يجزم بأنه مضريّ من عدنان، لحديث انفرد به أبو هريرة، وهو جدّ " خزاعة " عند كثير من النسابين، ورئيسها عند بعضهم، ومعظمهم يسميه " عمرو بن عامر بن لحيّ " ويقولون إنه نسب إلى جده، انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي، باب:عمرو بن لحي، (84/5).

قصبه في النار»، فقالوا: يا رسول الله وما عمرو بن لحي؟، فقال لهم: «أبو هذا لحي من خزاعة»[1].

ثم عن أصول الكفر ثمانية: العجب والكبر، والرياء والسمعة، والاعتماد على العوائد وتقليد البلاء، والشك في المقدور وطلب النفع من غير الله، ولا يؤمن عبد حتى يؤمن بجميع نصوص القرآن وما ورد فيه من خوارق العادات، ككلام الذر حين أخذ الذرية من [ظهر][1] آدم، وكلام النمل والهدهد، وكلام النار، وتسبيح الجبال والطير مع داوود عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [2]، ولأبي الشيخ في كتاب "العظمة" ما نصه: " أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم عليه السلام مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل ما بين عيني كل إنسان وميضا من نور ثم عرضهم على آدم ، فقال: أي رب من هؤلاء؟، قال: هؤلاء ذريتك، فرأى منهم رجلا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه، قال: يارب من هذا؟، قال: داوود، قال: أي رب كم جعلت عمره، قال: ستين سنة، قال: يا رب زده من عمري أربعين سنة، قال رسول الله ﷺ: « فلما انقضى عمر آدم إلا الأربعين جاءه ملك الموت، فقال له آدم: أو لم يبق من عمري أربعين سنة؟، قال: أو لم تعطها ابنك داود، تجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي فأكل من الشجرة فنسيت ذريته»[3]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾الآية[4]. عن مسلم

---

[1] وجدته بألفاظ أخرى مختلفة، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: العلم، باب:كتاب الأهوال، رقم: 8789، (647/4)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

[1] في (ب) : ظهرها.

[2] الأعراف: 172.

[3] بلفظ آخر، "المستدرك" للحاكم، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الأعراف، رقم:3257، (354/2) وقال: صحيح على شرط مسلم، و"سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: سورة الأعراف، رقم:3076، (117/5)، وقال الترمذي: ح س.

[4] الأعراف: 172 .

بن يسار الجهني[1] أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية، قال: "سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: « إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء إلى الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟، فقال رسول اللهﷺ: « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة، وإذا خلقه العبد للنار عمل بعمل أهل النار حتى يموت بعمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار»[1]، أخرجه أبو داود والترمذي. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « أخذ الله الميثاق حين أخذ من ظهر آدم ذريته بنعمان وهي عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم فقال: ألست بربكم قالوا بلى»[2]، وعن ابن عباس أيضا في معنى الآية قال: " مسح الله ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة "[3] ، وأخذ ميثاقهم حيث قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[4]، زاد في رواية عنه: " فجف القلم بما هو كائن" [5]، وفي رواية عنه قال: "لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم" [6]، وفي رواية عنه قال:

---

[1] مسلم بن يسار الأموي بالولاء، أبو عبد الله: فقيه، ناسك من رجال الحديث، أصله من مكة، سكن البصرة، فكان مفتيها، وتوفي فيها، (ت 108 هـ / 726 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: مسلم بن يسار، (223/7).

[1] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: سورة الأعراف، رقم :3075، (116/5)، و"سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب : في القدر، رقم:4703، (226/4)، وقال الترمذي: ح س، وقال الألبانيك ح ض.

[2] ورد بلفظ آخر، انظر: "السنن الكبرى للنسائي، كتاب: السنة، باب: قوله تعالى:" وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم" الآية، رقم: 11127، (102/10)، قال النسائي فيه كلثوم بن جبر ليس بالقوي، وحديثه ليس بالمحفوظ.

[3] "تفسير الطبري"، (549/10).

[4] الأعراف: 172.

[5] "تفسير الطبري"، (549/10).

[6] "تفسير الطبري"، (550/10).

" إن الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه وأن لا يشركوا به شيئا، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الثاني فوفى نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الأول، ومن مات صغيرا أقبل أن يدركه الميثاق مات على الفطرة " [1] رواه الطبراني بسند عن عبد الله بن عمر. ومن حديث ابن عباس:" أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [2]، ثم أعادهم في صلبه، فليس من أحد من الخلق إلا وقد تكلم فقال: ربي الله، وأن القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ شهد على نفسه " [3]. وفي كتاب السدي أيضا فقال: " ادخلوا الجنة برحمتي، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سودا فقال: ادخلوا النار ولا أبالي وذلك معنى قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [4]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [5]، ثم أخذ منه الميثاق فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [6]، فطائفة أقرروا طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [7]" [8]. وقال محمد بن كعب القرظي: " أقروا الله تعالى بالإيمان، الأرواح قبل وجود الأشباح، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعا "[9]. وروي أن الله تعالى قال لهم جميعا اعلموا أنه لا إله لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئا فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يومن بي، وإني مرسلا إليكم رسلا

---

[1] "تفسير الطبري"، (551/10).

[2] الأعراف: 172 .

[3] "تفسير الخازن"، (267/2).

[4] الواقعة: 27.

[5] الواقعة: 41.

[6] الأعراف: 172.

[7] آل عمران: 83.

[8] "تفسير الطبري"، (242/13).

[9] "تفسير الخازن"، (267/2).

يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتابا، فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك، فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم، فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال:هلا سوين بينهم ، فقال: إني أحب أن أشكر"[1].

فمذهب أهل السنة أن الله تعالى جعل لأمثال الذر عقولا وأفهاما كما أنطقهم قالوا: بلى، ويستدل على ذلك بنطق النملة الوارد في كتاب الله حيث قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [1]، وقال: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[2]، وقد أمر الله تعالى الجمادات والأمر لا يتوجه إلا على عاقل لقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [3]، وفي قوله: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [4] دليل ظاهر لا ينكره إلا كافر مكابر، وكما في قول الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [5]، وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي ﷺ، وللشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت. ولما أقروا له بالربوبية قال للملائكة اشهدوا قالوا: ﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [6].

وأما مذهب المعتزلة وغلاة المتكلمين فعلى عكس هذا جريا منهم على العوائد وما تقتضيه زبلات العقول مما لا حجة لهم فيه لارتكاب الأهواء، فحملوا ذلك على أن إخراج الله تعالى الذرية وإنشائهم بعد أن كانوا طفلا في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم، فأخرج الذرية في الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم من عجائب

---

[1] "تفسير الخازن"، (267/2).

[1] النمل: 18.

[2] الأنبياء: 79 .

[3] سبأ: 10.

[4] النحل: 68.

[5] النمل: 22.

[6] الأعراف: 172.

خلقهم غريب صنعه ودلائل وحدانيته، فبهذا الإشهاد صاروا وكأنهم قالوا بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم وأنه نافذ حكمه فيهم، فلما عرفوا ذلك دعاهم إلى التصديق وبوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا أنك خالقنا، فعلى هذا يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة، وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب، فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذي يؤخذ الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بني آدم ميثاقهم ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف ويترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة، فهذا تعسف في المعنى وتكلف في التأويل وتحريف للكلم من بعد مواضعه، قال الله تعالى لنبيهﷺ حين قال له الكفرة: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾[1]، حتى قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [2] ومعنى المتكلف هو الذي يتكلف إلى علمه علم ما لا يعلم اعتمادا على عقله وحدسه وتخمينه فيضل ويضل. إلا أن أهل الكلام أولوا بمثل هذا في تأويل ما لم يحيطوا بعلمه من خوارق العادة والحكم الربانية التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بحيث لم يقدروا على دفع ما جاء عن رسول الله ﷺ من ذلك مما تواطأ عليه السلف وأخذ عنهم صالح الخلف، حاولوا دفعا بتأويلات لا ضوء عليها تنج أول كلمة منها العقول السليمة والفطرة الصحيحة غير السقيمة، كما روي عن رسول الله ﷺأنه قال: « سيأتي من بعدكم أقوام أهل أهواء يحرفون معاني القرآن على قدر أهوائهم، فإن الله تعالى تولى حفظ القرآن من أن يغيروا نصه »[3]، أخرجه النسائي في سننه، والطبراني في الكبير.

---

[1] يونس: 15.

[2] ص: 86.

[3] لم أقف عليه.

قال الله تعالى حكاية لكلام النار: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [1]، فعلى هذا يكون السؤال: هل امتلأت جهنم قبل دخول جهنم أهلها فيها؟، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن الله سبحانه وتعالى قد سبقت كلمته: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [2] "[1]، فلما سبق أعداء الله إليها جعلت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأها شيء، وتقول ألست قد أقسمت لتملأني ، فيضع قدمه عليها ثم يقول هل امتلأت فتقول قط قط امتلأت فليس في مزيد[2].

ومن حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « لا تزال جهنم يلقى وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العرش»[3] وفي رواية: « رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة»[4]، ولأبي هريرة نحوه وزاد: « ولا يظلم الله من خلقه أحدا »[5]، أخرجه الشيخان وغيرهما، وهذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات، ولعلماء السلف فيه وفي أمثاله مذهبان:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين في تأويلها، بل نؤمن بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونخبر بها على ظاهرها ونعلم أن لها معنى بها وأن ظاهرها غير مراد.

والمذهب الثاني: هو مذهب جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسب ما يليق بها.

---

[1] ق: 30.

[2] هود: 119.

[1] "تفسير الطبري"، (444/21).

[2] المصدر نفسه.

[3] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: هل من مزيد، رقم:4848، (138/6): عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « يلقى في النار وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول قط قط ».

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم:2848، (2188/4).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم: 2846، (2187/4).

فعلى هذا اختلفوا في تأويل هذا الحديث، فقيل المراد بالقدم التقدم وهو سائغ في اللغة، والمعنى حتى يضع الله فيها قدمه لها من أهل العذاب، وقيل المراد به قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير في قدمه إلى ذلك المخلوق المعلوم، وقيل أنه يحتمل أن يكون في المخلوقات من يسمى بهذه التسمية، وأظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها، قال المتكلمون: ولا بد من صرفه على ظاهره ليقوم الدليل القطعي على استحالة الجارحة على الله تعالى.

قوله: « قط قط » أي حسبي حسبي قد اكتفيت وفيها ثلاث لغات، إسكان الطاء وكسرها منونة وغير منونة، قوله: « ولا يظلم ربك أحدا من خلقه » يعني أنه يستحيل الظلم في حق الله تعالى جل جلاله، فمن عذب بذنب أو غير ذنب فذلك عدل منه، لأن تصرف المالك في ملكه لا يعد ظلما.

وأقرب التأويلات إلى الصواب أنه تعالى يتجلى على النار بقِدمه بكسر القاف وكبريائه، فتتصاغر عند ذلك وينضم بعضها إلى بعض هيبة لجلاله، فتندك كما دك الجبل بتجليه تعالى هيبة وإعظاما لتجلي العظمة.

روي أن سليمان عليه السلام لما أشرف هو وجنوده على واد النمل، وكان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام، ويتسع كل قدر عشرة من الإبل، فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وهو سائر بين السماء والأرض، وقد اتخذ ميادين للدواب فتجري بين يديه، والريح تهوي به فسار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة الرسول ﷺ فقال: هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به واتبعه، ولما وصل مكة رأى حول البيت أصناما تعبد مجاوزة، فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله إليه ما يبكيك، قال: يا رب أبكاني هذا من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي، والأصنام تعبد حولي من دونك، فأوحى الله إليه لا تبك فإني سوف أملأك وجوها سجدا، وأنزل فيك قرآنا جديدا، وأبعث منك نبيا في آخر الزمان هو أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك

عمارا من خلفي يعبدونني، وأجعل زيارتك فريضة يزفون إليك زفيف النسور إلى أوطانها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان والأصنام والشياطين. ثم مضى سليمان حتى مر بواد السدين من الطائف فأتى على واد النمل، قال كعب الأحبار: "هو واد يسكنه الجن، وذلك النمل مراكبهم"[1]، وقيل إن ذلك النمل أمثال الذباب، والمشهور أنه النمل الصغير.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾[2]، قيل كانت عرجاء اسمها طاجية وقيل جرما، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ ولم تقل ادخلن، لأن الله جعل لهم عقولا كعقول الآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين، وهذا ليس مستبعدات لخلق الله فيها عقلا ونطقا لأن القدرة صالحة لجميع ذلك، فإن بني آدم منهم العاقل وغير العاقل على وفق إرادة الله، فليس من أسمع العظام وأبصر الشحم وأنطق اللحم بالكلام بعزيز عليه أن يركب العقل في جماد أو حيوان متى شاء وينتزعه متى شاء، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يكسرنكم، ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فعلم النمل أن سليمان نبي لا جبرية ولا ظلم معه، ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا وطئوكم ولم يشعروا بكم ، فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال، وكان لا يتكلم شيء إلا حملته الريح حتى تلقيه إلى سليمان، فلما بلغ واد النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوته. فإن قيل: كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهم بين السماء والأرض على متن الريح؟، فالجواب عن ذلك: أنهم أرادوا النزول عند منقطع الوادي، فلذلك قالت النملة لا يحطمنكم سليمان وجنوده لأنهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ [3] لأن أكثر ضحك الأنبياء التبسم بمعنى ضاحكا متبسما، وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك.

---

[1] "تفسير الخازن"، (341/3).

[2] النمل: 18.

[3] النمل: 19.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: " ما رأيت النبي ﷺ مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم "[1]، ومن حديث عبد الله بن الحارث بن جزي[2] قال: " ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ "[3].

فإن قلت: ما سبب ضحك سليمان؟، فالجواب: أن ضحكه كان مما استدل به من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم لقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [4]، تعني أنهم لو شعروا ما فعلوا، السبب الثاني سروره بما أتاه الله مما لم يؤته أحدا من إدراك سمعه ما قالته النملة، وقيل إن الإنس إذا رأى وسمع ما لا عهد له به تعجب وضحك. ثم إن سليمان حمد ربه على ما أنعم به عليه فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾ [5] أي ألهمني أن أشكر، ﴿نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، أي أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس: " يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين "[6]، وقيل أدخلني مع عبادك الصالحين.

ثم أتبع سبحانه كلام النملة بما هو من جنسه وأقرب، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [7] أي طلب ما فقد منه، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه إخلاله [بالنوبة][1] والهدهد فنظر فرآه خاليا، وروي عن ابن عباس: " أنه كان دليله على الماء فكان يعرف

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك، رقم: 6092، (24/8).

[2] عبد الله بن الحارث بن جزي الزبيدي: صحابي، سكن مصر، وعمي قبيل وفاته، وهو آخر من مات بمصر من الصحابة، (ت 6 هـ / 705 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عبد الله بن الحارث، (77/4).

[3] انظر: "شرح السنة" للبغوي، باب: تبسمه ﷺ، (259/13)، وقال البغوي: ح ص، و"سنن الترمذي"، أبواب: المناقب، باب: بشاشة النبي ﷺ، رقم: 3641، (38/6)، وقال الترمذي: ح غ.

[4] النمل: 18.

[5] النمل: 19.

[6] "تفسير الخازن"، (341/3).

[7] النمل: 20.

[1] في (ب): بالنبوءة.

موضعه ويراه تحت الأرض كما يرى ما وراءه تحت الزجاجة و يعرف قريبه من بعيده فينظر الأرض، فتجئ الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه "[1]، قال سعيد بن جبير:" لما ذكر ابن عباس هذا، قال له نافع بن الأزرق: يا وصاف، انظر ما تقول، إن الصبي يضع الفخ ويحثوا عليه التراب فيجئ الهدهد وهو لا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه، فقال له ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر" [2]، وفي رواية: " إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمى البصر" [3]. فنزل سليمان منزلا واحتاج إلى الماء فطلبوه فلم يجدوه، وإنما تفقد الهدهد ليدله على الماء، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ على تقدير أنه مع جنوده وهو لا يراه، ثم إنه أدركه الشك فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي أكان، وقيل بل كان من الغائبين، ثم أوعد على غيبته فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[4]، قيل هو أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممغطا لا يمنع من النمل ولا غيره، وقيل لأودعنه القفص ولأحبسنه مع ضده، وقيل لأفرق بينه وبين ألفه. ﴿أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة بينة على غيبته، وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على المسير إلى أرض الحرام، فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس والطير والوحش فحملتهم الريح، فلما أوفى الحرام أقام ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر في كل يوم مدة إقامته خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف وعشرين ألف شاة، وقال لجلسائه من أشراف قومه: إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يعطى النصر على كل من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر أينما توجه تسير أمامه، القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا: فأي دين يتدين يا نبي الله؟، قال: بدين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وآمن به، قالوا: كم بيننا وبين

---

[1] "تفسير الخازن"، (341/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] النمل: 21.

خروجه، قال: مقدار ألف سنة، فليبلغ الشاهد الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل. قال: فأقام بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحا متوجها إلى اليمن، فوفى صنعاء زوالا وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهر خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغذى، فلما نزل قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء لينظر إلى طول الدنيا وعرضها، فبينما هو ينظر يمينا وشمالا إذ وقع نظره على بستان لبلقيس فنزل إليه فإذا هو بهدهد آخر، وكان اسم هدهد سليمان يعفور وهدهد اليمن يعفير، فقال يعفير ليعفور: من أين أقبلت وإلى أين تريد؟، قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، قال: ومن سليمان بن داود؟، قال: ملك الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والريح، فمن أين أقبلت يا يعفير؟، قال: أنا من هذه البلاد، قال: ومن ملكها: قال امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبك ملكا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها تملك اليمن وتحت أيديها أربعمائة ملك كل ملك على كورة، مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل، ولها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها، ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟، قال: أخاف أن يفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة، قال: فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، أما سليمان فإنه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الإنس والجن فلم يعلموا له موضعا، فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته إلى مكان، فغضب سليمان فقال:﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾[1] الآية، ثم دعا بالعقاب هو أشد الطير، فقال له: علي بالهدهد هذه الساعة، فارتفع العقاب في الهوى حتى نظر إلى الدنيا كما ينظر أحدكم إلى القصعة بين يديه، ثم التفت يمينا وشمالا فرأى الهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب يريده، فعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء فقال له: بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا ما

[1] النمل: 21.

رحمتني ولم تتعرض إلي بسوء، فتركه العقاب وقال له: ثكلتك أمك، إن نبي الله قد حلف أن يذبحك.

ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير ويلك أين غبت يومك هذا؟، فلقد توعدك نبي الله وأخبروه بما قال سليمان، فقال الهدهد: أو ما استثنى نبي الله؟، قالوا: بلى، ولكنه قال: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[1]، قال: نجوت إذاً، فانطلق به العقاب حتى أتيا سليمان فوجداه قاعدا على كرسيه، فقال له العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله، فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجعل يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه، وقال له: أين كنت؟، لأعذبنك عذابا شديدا، فقال له : يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه.

ثم قال: ما الذي أبطأك عني؟، فقال الهدهد ما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ [2] أي طويل، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ ، أي علمت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك، ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيها له على أن أدنى خلق الله قد أحاط علما ما لم يحط به ليكون ذلك زاجر له عن الإعجاب لطفا به من الله تعالى، وكان يحاول الإحاطة بالشيء علما حتى لا يخفى عليه معلوم، فوجد ذلك غير ممكن.

﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾ وهو اسم رجل وهو أبو اليمن، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن نبي الله هود، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ سئل عن سبأ فقال: « رجل له عشرة من البنين، تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة»[3]، ﴿بِنَبَإٖ﴾أي بخبر، ﴿يَقِينٍ﴾ [4]، فقال سليمان:

---

[1] النمل: 21.

[2] النمل: 22.

[3] تفسير البغوي"، (498/3).

[4] النمل: 22 .

وما ذاك؟، قال الهدهد: ﴿وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [1]، هي بلقيس[2] بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان[3].

وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولده أربعون ملكا هو آخرهم، وكان يملك[اليمن][4] بكمالها، وكان يقول للملوك الأطراف أي ليس أحد منهم كفؤا لي وأبى ان يتزوج فيهم، فخطب إلى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن، وسبب وصوله إلى الجن حتى خطب منهم أنه كان كثير التصيد، وربما اصطاد الجن وهم على صور الظباء فيخلي عنهم، فظهر له ملك الجن فشكره على ذلك واتخذه صديقا فخطب إليه ابنته فزوجه بها، وقيل أنه خرج متصيدا فراى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء، وقد أظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء فصب عليها الماء فأفاقت وأطلقها، فلما رجع إلى داره وجلس وحده إذ معه شاب جميل فخاف منه، فقال له : لا تخف، أنا الحية البيضاء التي أحييت، والأسود الذي قتلت هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا، فعرض عليه المال، فقال: أما المال فلا حاجة لي به، ولكن إن كانت لك بنت فزوجنيها، فزوجه ابنته فولدت له بلقيس.

وجاء في الحديث أن أحد أبوي بلقيس كان جنيا، فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون، وملكوا عليهم رجلا آخر يقال له براخ

---

[1] النمل: 23.

[2] بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، من بني يعفر بن سكسك، من حِمْير: ملكة سبإ، يمانية من أهل مأرب، أشير إليها في القرآن الكريم ولم يسمّها، وليت بعهد من أبيها (في مأرب) وطمع بها ذُو الأذْعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان، فزحف عليها، فانهزمت ورحلت مستخفية بزي أعرابي إلى الأحقاف، فأدركها رجال (ذي الأذعار) فاستسلمت، وأصابت منه غرة في سُكْر، فقتلته، ووليت أمر اليمن كله، وانقادت لها أقيال حِمْير، فزحفت بالجيوش إلى بابل وفارس، فخضع لها الناس، وعادت إلى اليمن فاتخذت مدينة (سبأ) قاعدة لها، وظهر سليمان بن داود، النبي الملك الحكيم، بتدمر، وركب الرياح إلى الحجاز واليمن، وآمن اليمانيون بدعوته إلى الله، وكانوا يعبدون الشمس، ودخل مدينة (سبأ) فاستقبلته بلقيس بحاشية كبيرة، وتزوجها، وأقامت معه سبع سنين وأشهرا، وتوفيت فدفنها بتدمر، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: بلقيس، (73/2).

[3] يعرب بن قحطان بن عابر: أحد ملوك العرب في جاهليتهم الأولى، يوصف بأنه من خطبائهم وحكمائهم وشجعانهم، وهو أبو قبائل اليمن كلها وبنوه العرب العاربة، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: يعرب بن قحطان، (192/8).

[4] ساقط من (ب).

الملك وكان خبيثا سيء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهن، فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك، فقالت: لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم، فأجمع رجال أهلي واخطبني منهم، فجمعهم وخطبها، فقالوا: لا نراها تفعل، فقال: بلى إنها قد رغبت في، فذكروا ذلك لها، فقالت: نعم، فزوجوها منه، فلما زفت إليه خرجت في ملأ كثير من خدمها وحشمها، فلما دخلت عليه سقته الخمر حتى سكر فقتلته وحزت رأسه، وانصرفت إلى منزلها من الليل، فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم، وقالت: أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته، ثم أرتهم إياه قتيلا، وقالت: اختاروا رجلا تملكونه عليكم، فقالوا: لا نرضى غيرك، فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكرا وخديعة منها[1].

وعن أبي بكرة [2] قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: « لن يفلح قوم ولوا امرأة »[3]، ومن كلام الهدهد قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[4]، مما يحتاج إليه الملوك من المال والعدة، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير ضخم عال، فإن قلت: كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة سليمان؟، فالجواب: أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها، وقيل أنه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله، وكان عرش بلقيس من الذهب مكللا بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق. قال ابن عباس:" كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعا وطوله في السماء ثلاثون

---

[1] "تفسير البغوي"، (499/3).

[2] نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، أبو بكرة: صحابي، من أهل الطائف، (ت 52 هـ / 672 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو بكرة الثقفي، (44/8).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الفتن، باب: الفتنة التي تموج كموج البحر، رقم:7099، (55/9).

[4] النمل: 23.

ذراعا"[1]، وقيل كان طوله ثمانين في ثمانين وعلوه ثمانون، وقيل كان طوله ثمانين وعرضه أربعين وارتفاعه ثلاثين ذراعا.

قوله عز وجل إخبارا عن الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وذلك أنهم كانوا يعبدون الشمس فهم مجوس. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، والمزين هو الله تعالى لأنه الفعال لما يريد، وإنما ذكر الشيطان لأنه سبب الغواية. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي طريق الحق الذي هو دين الإسلام، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الصواب. ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾[3] اقرأ بالتخفيف، ومعناه ألا أيها الناس اسجدوا فهو أمر من الله مستأنف، وقرئ بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا، ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾، فعلى التشديد تكون الآية من بغية كلام الهدهد، فخباء السماوات المطر، وخبئ الأرض النبات، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس و غيرها من دون الله، لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السماوات والأرض، عالم بجميع المعلومات. وهو ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4]، فهو المستحق للعبادة والسجود لا غيره، فإن قيل: قد وصف عرش بلقيس بالعظيم وعرش الله بالعظيم، فما الفرق بينهما؟، فالجواب: أنه وصف عرش بلقيس بالعظيم بالنسبة إليها وغلى أمثالها من ملوك الدنيا، وأما عرش الله تعالى فهو بالنسبة لجميع المخلوقات من السماوات والأرض يحصل الفرق بينهما.

فلما فرغ الهدهد من كلامه، قال سليمان: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ﴾ فيما أخبرت، ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[5]، ثم إن الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا فروى الناس والدواب. ثم إن

---

[1] "تفسير البغوي"، (500/3).

[2] النمل: 24.

[3] النمل: 25.

[4] النمل: 26.

[5] النمل: 27.

سليمان كتب كتابا: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس مليكة سبأ بسم الله الرحمان الرحيم السلام على من اتبع الهدى ألا تعلوا علي وآتوني مسلمين. لم يزد على ما نص الله عليه في كتابه، وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملا لا يطولون ولا يكثرون، فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ﴾[1]، إنما قال إليهم بلفظ الجمع لأنه جعله جوابا لقول الهدهد: وجدتها وقومها يسجدون للشمس، فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنح عنهم فكن قريبا منهم، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي يردون من الجواب، وقيل تقدير الآية فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم أي انصرف إلي. فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به بلقيس وكانت بأرض مأرب من اليمن وهي على ثلاثة مراحل من صنعاء، فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الأبواب ووضعت المفاتح تحت رأسها، وكان ذلك من عادتها إذا رقدت، فأتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها. وقيل أن الهدهد حمل الكتاب بمنقاره حتى إذا وقف على المرأة وحولها القواد والوزراء والجنود، رفرف ساعة والناس ينظرون إليه، فرفعت رأسها فلما رآها قد نظرت إليه ألقى الكتاب في حجرها. وقال وهب بن منبه[2]: " كانت لها كوة مستقبلة للشمس تقع فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم منها ملكا، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هي حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم

---

[1] النمل: 28.

[2] وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله : مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات، يعد في التابعين وأصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير، ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، (ت 114 هـ / 732 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: وهب بن منبه، (125/8).

الأشراف "[1]. قال ابن عباس:" كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف، والقيل ملك دون الملك الأعظم، وكان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف، فلما جاءوا أخذوا مجالسهم[2]، ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[3]، وإنما سمته كريم لأنه كان مختوما.

روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « كرامة الكتاب ختمه »[4]، ثم بينت لهم ممن الكتاب فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[5]. فإن قيل: لما قدم إنه من سليمان على بسم الله الرحمان الرحيم؟، فالجواب عن ذلك: أنه لم يكن كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمان الرحيم، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان. ثم ذكرت ما في الكتاب وإنه بسم الله الرحمان الرحيم، ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾[6] أي لا تتكبروا علي، والمعنى لا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، أي طائعين مؤمنين، وقيل من الاستسلام وهو الانقياد، ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾[7] ، أي أشيروا علي في عرض لي، ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾، أي قاضية وفاصلة، ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي تحضرون، ﴿قَالُوا۟﴾[8] يعني الملأ مجيبين لها، ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ أي في البأس على القتال، ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عند الحرب، قيل أرادوا بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك. ثم قالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أيتها الملكة في القتال وتركه، ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فإنا مجيبون مطيعون لأمرك،

---

[1] "تفسير البغوي"، (501/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] النمل: 29.

[4] "المعجم الأوسط" للطبراني، باب:من اسمه علي، رقم:3872، لم يرو هذا الحديث عن ابن جريج إلا محمد بن مروان.

[5] النمل: 30.

[6] النمل: 31.

[7] النمل: 32.

[8] النمل: 33.

﴿قَالَتۡ﴾[1] بلقيس مجيبة لهم وناهية لهم عن التعرض للقتال وما يئول إليه أمره، ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾ عنوة، ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ أي خربوها، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ﴾ فأهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأمر بذلك مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، ثم تناهى الخبر عنها هنا وصدق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما قالت هي، ﴿يَفۡعَلُونَ﴾، وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت. ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [2]، أي إلى سليمان وقومه أصانعه بها على ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي، فإن كان ملكا قبل الهدية ورجع، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه وذلك معنى قولها: ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وذلك أن بلقيس لبيبة عاقلة قد ساست الأمور وجربتها، فأهدت إليه وصفا ووصائف، قال ابن عباس: " مائة وصيف ومائة وصيفة "[3]، وقال وهب: "عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في أيديهم أساوير الذهب وفي أعناقهم أطواق الذهب، وفي آذانهم أقرطة وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة، والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج، وبعثت إليه لبنة من الذهب ولبنة من الفضة، وتاجا مكللا بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزع معوجة الثقب، ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب عقول ورأي، وكتبت مع المنذر كتابا تذكر فيه الهدية، وقال: إن كنت نبيا ميز بين الوصائف والغلمان، وأخبرنا بما في الحُق قبل أن تفتحه واثقب الذرة ثقبا مستويا، وادخل في الخرزة خيطا من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان وقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث

---

[1] النمل: 34.

[2] النمل: 35.

[3] "تفسير البغوي"، (503/3).

وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت فإن نظر إليك نظرا فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبي فتفهم قوله ورد الجواب. فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا إلى سليمان فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنا من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسع فراسخ وأن يفرشوا فيه الذهب والفضة، وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التي معهم وأن يعملوا حائطا مشرفا من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال: أي دواب البر والبحر أحسن؟، فقالوا: يا نبي الله ما رأينا من دواب البحر أحسن من دواب يقال كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواصي، قال: علي بها الساعة، فأتوا بها فقال: شدوها عن يمين الميدان وشماله، ثم قال للجن: علي بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان وشماله، ثم قعد سليمان على سريره وأمر الإنس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع [فاصطفوا] [1] فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنى القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان فأول ما رأوا الدواب التي لم يروا مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة، فلما عاينوها تصاغرت أنفسهم وخبئوا ما معهم من الهدايا، وقيل أن سليمان أفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وترك على طريقهم موضعا على قدر ما معهم من اللبن في ذلك الموضع، ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم، وكانوا يمرون على كراديس الإنس والجن والطير والوحش حتى وقفوا على سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم ملقا حسنا وسألهم عن حالهم، فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال: أين الحُق فأوتي به فحركه فجاءه جبريل فأخبره بما كان فيه، فقال لهم: إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب، فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة، فقال سليمان: من لي بثقبها؟، وسأل الإنس والجن فلم يكن عندهم علم، ثم سأل الشياطين فقالوا: نرسل إلى الأرضة، فلما

[1] ساقط من (ب).

جاءت الأرضة أخذت شعرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟، فقالت: يصير رزقي في الشجر، فقال: لك ذلك، ثم قال: من لهذه الخرزة؟، فقالت: دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان: ما حاجتك؟، قالت: يكون رزقي في الفواكه، فقال: لك ذلك، ثم ميز بين الغلمان والجواري بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى وتغسل وجهها، والغلام وجهها، والغلام يأخذ الماء بيده فيغسل به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها، والغلام على ظاهره، فميز بين الغلمان والجواري[1].

ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[2]، معناه أنتم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض، وإن الله قد أعطاني منها ما لم يعط أحدا وإن الله أكرمني بالدين والنبوة والحكمة. ثم قال للمنذر أمير الوفد: ارجع ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾[3] بالهدية، ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ إن لم يأتوني مسلمين. فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وبلغوها مقال سليمان، قالت: والله لقد عرفت أنه ليس بملك وإنما هو نبي مرسل، وما لنا به من طاقة، فبعثت إلى سليمان أني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما الذي تدعوا إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعلته في آخر سبعة أبواب بعضها دخل في بعض ثم أغلقت عليه سبعة أبواب أخرى ووكلت به حراسا يحفظونه، ثم قالت لمن خلفت على ملكها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد، ثم أمرت مناديا ينادي في أهل

---

[1] "تفسير الخازن"، (346/3).

[2] النمل: 36.

[3] النمل: 37.

مملكتها تؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن، كل قيل تحت يديه ألوف كثيرة.

قال ابن عباس: " وكان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدئ بشيء حتى يكون هو يسأل عنه" [1]، فخرج يوما فجلس على سريره فسمع هرجا قريبا منه فقال: ما هذا؟، قالوا: بلقيس قد نزلت منا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، فأقبل سليمان على جنوده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [2]، وكان غرض سليمان في إحضار عرشها ليريها قدرة الله تعالى وإظهار معجزة تدلها على نبوته، وقيل إنما أراد أن ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها، وقد علم سليمان أنها ستسلم فإذا أسلمت حرم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه لأنه أعجبه وصفه لما وصفه له الهدهد، وقيل أراد أن يعرف قدر ملكها لأن السرير على قدر المملكة. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [3]، وهو المارد القوي وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، قال: ﴿أَنَا۟ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ هذا أي مجلس قضائك، وكان له بالغداة مجلس يقضي به إلى متسع النهار وهو نصفه، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾، أي على حمله، ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، أي على ما فيه من الجواهر وغيرها، قال سليمان: أريد أسرع من ذلك. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [4]، وهو آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى. وقيل المراد بالذي عنده علم من الكتاب سليمان نفسه لأنه أعلم بني إسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علما وفهما، فعلى هذا يكون هو المخاطب للعفريت الذي كلمه فأراد سليمان إظهار معجزة، فتحد لهم أولا ثم بين للعفريت أنه يتأتى له سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتأتى للعفريت، وذكر الدعاء الذي دعا به:" يا ذا الجلال والإكرام"،

---

[1] "تفسير الخازن"، (347/3).

[2] النمل: 38.

[3] النمل: 39.

[4] النمل: 40.

وقيل: " يا حي يا قيوم "، روي ذلك عن عائشة وروي عن الزهري أنه قال: " دعاء الذي عنده علم الكتاب، يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها "[1]، قال ابن عباس: "إن آصف قال لسليمان حين صلى: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عينه ونظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يخدون به تحت الأرض حتى نبع من بين يدي سليمان "[2]، وقيل خر آصف ساجدا أو دعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسي سليمان، [قال] [3] قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [4]، قال سليمان: هات، قال: أنت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك فإن دعوت الله كان عندك، قال: صدقت، ففعل ذلك فجئ بالعرش في الوقت. ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ يعني رأى سليمان العرش مستقرا عنده محمولا من مأرب إلى الشام في قدر امتداد الطرق، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [5]. ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ [6]، أي غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قيل هو أن يزاد فيه أو ينقص منه، وقيل أن يجعل أسفله أعلاه، وجعل مكان الجوهر الأحمر الجوهر الأخضر ومكان الأخضر أحمر، ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ إلى معرفة عرشها، ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ إلى معرفته.

قال وهب ومحمد بن كعب وغيرهما: إنما حمل سليمان على ذلك أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنية، وإذا ولدت ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأساءوا الثناء عليها فزهدوه فيها وقالوا إن في عقلها شيئا وإن رجلها كرجل الحمار وإنها شعراء الساقين، فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر

---

[1] تفسير الخازن، (347/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] زيادة في (ب).

[4] النمل: 40.

[5] النمل: 40.

[6] النمل: 41.

إلى ساقيها ببناء الصرح، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾[1]، قيل إنها عرفت ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، وقيل إنها كانت حكيمة فلم تقل نعم خوفا من الكذب، ولا قالت لا خوفا من التكذيب فقالت: كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر. ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي من قبل الآية في الدين، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين طائعين خاضعين لأمر سليمان، وقيل قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل، ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ من قبل الآية في العرش، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ومعناه وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة وكنا مسلمين، ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه أن خصه بمزيد العلم والتقدم في الإسلام، وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئهم طائعين.

ثم بين سبحانه ما فتح على يد سليمان فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] أي صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه حتى أقرت بتوحيد الله وانقادت إلى الإسلام، ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ قبل إسلامها، ﴿مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[3] لعبادتهم الشمس، فنشأت بينهم لم تعرف إلا عبادة الشمس، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾[4]، وذلك أن سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش، وأراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما أخبرته الجن أن قدميها كحافري الحمار وهي شعراء الساقين، فأمر الشياطين فعملوا له قصرا من الزجاج الأبيض كالماء، وقيل الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء وألقى فيه السمك والضفادع وغيرها من دواب البحر، ثم وضع على صدر المجلس وجلس عليه، وقيل أنه إنما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت في الوصفاء والوصائف، فلما جلس على السرير دعا بلقيس فلما جاءت، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

---

[1] النمل: 42.

[2] النمل: 43.

[3] النمل: 43.

[4] النمل: 44.

حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ماءً عظيما، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوض الماء إلى سليمان، فإذا هي أحسن النساء ساقا وقدما إلا أنها كانت شعراء الساقين، فلما نظر سليمان إلى ذلك صرف بصره عنها، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي مملس، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ زجاج وليس بماء، فحينئذ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوءة، قال الله تعالى حاكيا لقولها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1]، أي أخلصت له التوحيد والعبادة، وروي أنه لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون من هذا، فلما تبين لها خلاف ذلك قالت: رب إني ظلمت نفسي بذلك.

واختلفوا في أمر بلقيس بعد إسلامها فقيل انتهى أمرها إلى قولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولا علم ولا حد وراء ذلك لأنه لم يذكر في كتاب ولا في خبر صحيح، وقال بعضهم تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا له الموسى، فقالت: لم يمسني حديد قط، فكره سليمان الموسى، فسأل الجن فقالوا لا ندري، فسأل الشياطين فقالوا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام، فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فأثبتوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهي سلحين و[وبنيون][2] وغمدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام يتبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيها ولدا ذكرا. وقال وهب: " زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلا من قومك حتى أزوجك إياه، فقالت له: أو مثلي يا نبي الله ينكح الرجال وقد كان لي عليهم الملك والسلطان، فقال: نعم، إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله، قالت: فإن كان ولا بد فزوجني ذا [تبع] [1] ملك

---

[1] النمل: 44.

[2] الصحيح: بيسنون، انظر: "تفسير الخازن"، (348/3).

[1] في (ب) : ذا تابع

همدان فزوجها إياه وذهب بها إلى اليمن وملك زوجها ذا [تبع] [1] على اليمن، ودعا سليمان رجلا من ملوك الجن وقال له: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه، فلم يزل يعمل له ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام وحال الحول وعلم الجن بموت سليمان، فأقبل رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن فنادى بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا وتفرقوا وانقضى ملك سليمان وملك ذي تبع وملك بلقيس، وبقي الملك لله الواحد القهار، وقيل إن سليمان ملك وهو ابن ثلاثة عشر سنة ومات وهو ابن ثلاثة وخمسين سنة"[2]، وفي ذلك يقول الشاعر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له والإنس والجن فيها بينها بردوا
أين الملوك الذين كانوا لعزتهم من كل أوب إليهم وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من وروده كما وردوا[3]

وكان عمر رضي الله عنه كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات.

وكذلك يجب الإيمان بتسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام بإذن الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [4]، أي قلنا يا جبال سبحي معه إذا سبح ورجعي معه ونوحي إذا ناح وأمرنا الطير أن تسبح معه، فكان داود إذا نادى بالتسبيح أو بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت عليه الطير من فوقه، وكان إذا لحقه فتور أو ملل أسمعه الله تعالى تسبيح الجبال.

---

[1] في (ب) : ذا تابع.

[2] "تفسير الخازن"، (349/3).

[3] هذه الأبيات من بحر البسيط، لقائلها زيد بن عمرو بن نفيل، وتنسب أيضا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر: "إعراب القرآن وبيانه" لمحيي الدين درويش، (154/7).

[4] سبأ: 10.

وكذلك يجب الإيمان بعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وشفقهم من حملها فلذلك امتنعوا من قبول ذلك مخافة من ضياعها الموجب لعذاب الله واختاروا السلامة والعافية، وإنما عرضها عليهم على وجه التخيير لا على وجه الإلزام، لو ألزمهم إياها لحملوها طوعا أو كرها وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1]. فقد أجمع علماء السلف على أن الله تعالى عرض هذه الأمانة على أعيان السماوات والأرض والجبال فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها، قلن: وما فيها؟، قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن، قلن: يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا نحمل عقابا، فقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى إن لا يقمن به لا معصية ولا مخالفة لأمره، وكان العرض عليهم تخييرا لا التزاما ولو ألزمهن إياها لما امتنعن من حملها، لأن الجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة لهن قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة حتى عقلهن الخطاب فأحين ما أحين. وقيل المراد من العرض على السماوات والأرض وهو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها، والقول الأول أوضح وهو قول العلماء، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني آدم، قال الله عز وجل لآدم: إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟، قال: يارب وما فيها؟، قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فحملها آدم، فقال: بين إذني وعاتقي، فقال الله تعالى: أما إذا تحملت فبأعينك، فأجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فأرخ عليه حجابه، وأجعل لسانك لحيين وغلافا، فإذا خشيت فأغلق، واجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ما حرمت عليك[1].

---

[1] الأحزاب: 72.

[1] "تفسير البغوي"، (669/3).

قال مجاهد: " فما كان بين أن تحملها وبين أن خرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر"[1]، وقيل إنما كان الإنسان حمل ما بلغ من عظمته وثقل حمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الأجرام وأقواه، وأشده أن يتحمله ويستقل به فأبى حمله وأشفق منه وحملها الإنسان على ضعفه وضعف قوته، ﴿إِنَّهُۥكَانَظَلُومًاجَهُولًا﴾ [2]، قال ابن عباس:" إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الأمانة " [3]، وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا لا يدري ما العاقبة في تضييع الأمانة، وقيل ظلوما حين تحمل من الأمانة ثم لم يف بما تحمل، وضمنها ولم يف بضمانها. قيل أن الله تعالى ائتمن السماوات والأرض والجبال على كل شيء، وائتمن آدم وأولاده على شيء واحد، فالأمانة في حق الأجرام العظام هي الخضوع والطاعة لمن خلقهن له، وقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، أي أدين الأمانة ولم يخنَّ فيها، فالأمانة في حق بني آدم هي الطاعة والقيام بالفرائض، والمراد بالإنسان الذي وصف بالظلم والجهل إنما هو الكافر والمنافق فإنهما حملا الأمانة وخانا فيها.

ومن حديث حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا منتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: « لا ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفك رجله فتراه ومنتبرا ليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون، فما يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، وحتى يقال للرجل: ما أجلده ما أجلده ما أظن به ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل

---

[1] "تفسير البغوي"، (669/3).

[2] الأحزاب: 72.

[3] "تفسير البغوي"، (669/3).

من إيمان، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لأن كان مسلما فليردنه على دينه، ولا كان نصرانيا أو يهوديا فليردنه ساعيه وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا »[1].

قوله: « نزلت في جذر قلوب الرجال »، جذر الشيء أصله، و« الركت » الأثر اليسير كالنقطة في الشيء من غير لونه، و« المجل » غلظ الجلد من أثر العمل، وقيل إنما هو النقطات في الجلد وقد فسره الحديث، و« المتبثر » المنتفخ وليس فيه.

ومن حديث أبي هريرة أنه قال: بينما رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم فجاء أعرابي فقال: متى الساعة؟، فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: « أين السائل عن الساعة؟ »، قال: ها أنا يا رسول الله، قال: « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة »، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟، قال: « إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] أخرجه الشيخان وغيرهما.

وعنه قال: قال النبي: « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »[3]، أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب.

ثم بين سبحانه الظلوم الجهول في الآية المتقدمة بقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾[4] أي بما خانوا الأمانة ونقضوا العهد، ثم بين الفريق الآخر وماله وهم الذين أدوا الأمانة فقال: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [1]، أي يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة، وقيل عرضنا الأمانة ليظهر نفاق النافق وشرك المشرك فيعذبهم الله، ويظهر إيمان

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: رفع الأمانة، رقم: 6497، (104/8)، و"صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: رفع الأمانة، رقم:143، (126/1).

[2] ح ص، بلفظ آخر، "صحيح البخاري"، كتاب: العلم، باب: من سئل علما وهو مشتغل في حديثه، رقم:59، (21/1).

[3] "سنن أبي داود"، أبواب: الإجارة، باب: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم:3534، (290/3)، و"سنن الترمذي"، أبواب: البيوع، باب:ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر يبيعها له، رقم:1264 ، (555/2)، وقال شعيب الأرنؤوط: مرفوعه حسن لغيره، وقال الترمذي: ح س غريب، وقال أبو داود: سكت عنه.

[4] الأحزاب: 73.

[1] الأحزاب: 73.

المؤمن فيتوب الله عليه أي يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات. قال ابن مسعود:" الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل في المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع"[1]، وقيل حقيقة الأمانة جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وقيل هو الصوم وغسل الجنابة وما يخفى من الشرائع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:" أول ما خلق الله من الإنسان الفرج، وقال: هذه أمانة إستودعتكها، فالفرج أمانة والأذنان أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له، ويتناول ذلك أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن ألا يغش مؤمنا ولا معاهدا في شيء لا في قليل ولا في كثير"[2].

ومن الواجب اعتقاده مما لا يصح الإيمان إلا به اعتقاد صحة ما ورد من أشراط الساعة منصوصا عليه في كتاب الله كخروج الدابة التي تكلم الناس، والأشراط على قسمين: كبرى وصغرى:

فالصغرى ما كان كرفع الأمانة [والحب] [3] في الله والبركة وكثرة النساء وقلة الرجال، وكثرة الهرج وظهور الأتراك وغلبة الروم على الجزائر وفتح رومية، وظهور الغش والخيانة ورفع العلم و فشو الجهل.

وأما الكبرى فأولها خروج الدجال وعيسى بن مريم، وفتح يأجوج ومأجوج و خروج الدابة التي تكلم الناس أنهم كانوا بآيتنا لا يومنون، وطلوع الشمس من مغربها وهدم ذي السويقتين البيت الحرام وعبادة الأصنام، وظهور أهل الكفر على أهل الإيمان والخسف والقذف.

واختلف في طلوع الشمس من مغربها والدابة أيهما سابق، فقيل طلوع الشمس من مغربها وقيل الدابة، فأيهما ظهرت فالأخرى على إثرها وقد قال الله تعالى في شأن الدابة: ﴿وَإِذَاوَقَعَ

---

[1] "تفسير البغوي"، (668/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] ساقط من (ب).

ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً ﴾ [1]، إذا وجب عليهم العذاب، وقيل إذا غضب الله عليهم، وقيل إذا قامت الحجة عليهم وذلك حيث لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، وقيل إذا لم يرج صلاحهم وذلك في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [2]. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: « بادروا بالأعمال ستا، ستطلع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة » [3]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا»[4]، أخرجهما أبو داود والترمذي والحاكم، وقال صحيح إسنادهما ورجالهما رجال الصحاح، ومن حديث أبي هريرة أيضا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى، فتجلوا وجه المؤمن وتخط أنف الكافر بالخاتم، ثم إن أهل الخوان ليجتمعوا فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر »[5] أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن، وروى البغوي بإسناده عن الثعلبي عن النبي ﷺ أنه قال: « يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشوا ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية(يريد مكة) تمكث زمانا طويلا، ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشوا ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية(يعني مكة)، ثم بينما الناس يوما في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله (يعني مسجد مكة) لم يَرُعْهُم إلا وهي في ناحية المسجد تدنوا وتدنوا»[1].

---

[1] النمل: 82.

[2] النمل: 82.

[3] "سنن ابن ماجة"، كتاب: الفتن، باب: الآيات، رقم:4056، (1348/2)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال، رقم:2941، (2260/4)، و"سنن أبي داود"، كتاب: الملاحم، باب: أمارات الساعة، رقم:4310، (114/4).

[5] بلفظ آخر، "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النمل، رقم: 3187،(193/5)، قال الترمذي: ح س.

[1] بلفظ آخر، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: الفتن والملاحم ، باب: حديث أبي عوانة، رقم: 8490، (530/4)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أبين حديث في ذكر الدابة، ولم يخرجاه (يقصد البخاري ومسلم).

قال عمر:" فيما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك، فارفض الناس عنها وتثبت لها عصابة قد علموا أنهم لن يعجزوا الله فتخرج عليهم تنفض رأسها من التراب فتمر بهم فتجلي وجههم تتركهم كأنها الكواكب الدرية، ثم تسعى على وجه الأرض فلا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى إن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه وسما قبيحا، والناس ليتزاورون في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويسترسلون في طلب الأموال وقد ميزوا بين الكافر والمؤمن، فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر"[1]، وبإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟، قال: « من أعظم المساجد حرمة عند الله، فبينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ اضطربت الأرض تحت أقدامهم فانشقت الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا، أول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش فلا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، تسم الناس مؤمنا وكافرا، أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتكتب بين عينيه نكتة سوداء وتكتب كافر»[2].

وروي عن ابن عباس: " أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم، وقال أن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه"[3]، ومن حديث ابن عمر أنه قال:" تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى"[1]، ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « بئس الشعب شعب أحياء (مرتين أوثلاثا) »، قيل : ولم ذلك يا رسول الله؟، قال: « تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين »[2]، وروي عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال:" رأسها رأس فيل

---

[1] "تفسير البغوي"، (515/3).

[2] ح ض، إسناده ضعيف، انظر: "تفسير الثعلبي"، (225/7).

[3] "تفسير البغوي"، (516/3).

[1] المصدر نفسه.

[2] ح ض، انظر: "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه"، رقم:2355، (17/4).

وعيناها عينا خنزير، وقرنها قرن أيل وصدرها صدر أسد، ولونها لون زرافة أو نمر، وخاصرتها خاصرة هر وذيلها ذنب كبش، وقوامها قوائم بعير بين كل مفصلين من مفاصلها اثنا عشر ذراعا "[1]، ومن حديث عبد الله بن عمر أنه قال: « تخرج الدابة من شعب أجياد فتمس برأسها السحاب ورجلاها في الأرض »[2]، وقال وهب بن منبه: " وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، فتخبر كل من لقيته أن أهل مكة كانوا لا يومنون بمحمد ﷺ والقرآن لا يوقنون تكلمهم بكلام عربي فصيح تقول هذا مؤمن وتقول هذا كافر، وتقول ما أخبر الله تعالى به عنها وهو قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [3]، قرئ تُكَلِّمُهُمْ و تَكْلِمُهُمْ، أي تكلم المؤمن وتكلم الكافر. وقد نظمت صفتها فقلت:

لها وجه إنسان وجلد زرافة وحافر ثور ثم ذيل شفجطب
قوائم نجتى وصدر غضنفر وخاصرتا هر وكفل مقرب
وقرن كوعل ثم ريش نعامة وعين خنزير وجيد لالخب[4]

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ثلاث إذا خرجن لا ينفع الناس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض »[5]، أخرجه مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: أو يأتي بعض آيات ربك؟، قال: « طلوع الشمس من مغربها »[1] أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. ومن حديث أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب

---

[1] "تفسير الخازن"، (353/3).

[2] انظر: "الفتن" لنعيم بن حماد، باب: خروج الدابة، رقم: 1852، (662/2).

[3] النمل: 82.

[4] أبيات مكسورة الوزن.

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم:158، (137/1).

[1] "سنن الترمذي"، أبواب: سور القرآن ، باب: سورة الأنعام، رقم:3071، (114/5)، قال الترمذي: ح غ ورواه بعضهم ولم يرفعه، وقال الألباني: ح ص.

الله عليه»[1] أخرجه مسلم في صحيحه. وعن صفوان بن عسال المرادي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « باب التوبة من قبل المغرب مسيرة عرضه »، أو قال: « يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس»[2]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وعن أبي هريرة أيضا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها»[3]، وفي رواية : « فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعا، فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »[4]، أخرجه الشيخان في صحيحهما. ومن حديث حذيفة بن أسد الغفاري أنه قال: طلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: « ما تذاكرون ؟»، قلنا: الساعة، قال: « إنها لن تقوم حتى تروا من قبلها عشر آيات، فذكر الدخان وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم، وثلاثة خسوفات خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم »[5]، رواه مسلم في صحيحه. وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « بادروا بالأعمال ستطلع الشمس من مغربها والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة»[1]، رواه مسلم أيضا في صحيحه. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنساه بعد ما سمعت رسول ﷺ يقول: « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم:2703، (2076/4).

[2] وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: الدعوات، باب: في فضل التوبة والاستغفار، رقم: 3535، (436/5)، وقال الترمذي: ح س صحيح، وقال الألباني: ح س.

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: لا ينفع نفس إيمانها، رقم: 4635، (58/6).

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: لا ينفع نفس إيمانها، رقم: 4636، (58/6).

[5] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم: 2901، (2225/4).

[1] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال، رقم:2947، (2267/4).

الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا»[1]. وروى الطبراني بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية: « يصبحون والشمس والقمر هاهنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين»[2]، زاد في رواية عنه: « فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا»[3]. وبسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يوما: « أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ »، قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت، فتصبح طالعة من مطلعها لا ينكر الناس منها شيئا حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها »، قال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي يوم ذلك؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذلك يوم لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »[4]. وبسنده عن أبي هريرة قال: كنت ردف رسول الله ﷺ ذات يوم على حمار فنظر إلى الشمس حين غربت، فقال: « إنها تغرب في عين حمئة، فتنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها، فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول: يا رب إن مسيري بعيد فيقول لها : اطلعي من حيث غبت، فذلك لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل »[1]. وروي بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول اللهﷺ عشية من العشيات فقال لهم: « عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب، فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب، فإذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل »، قال الناس: هل لذلك من آية يا رسول الله؟، فقال رسول الله: « آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقض، ثم يأتون مضاجعهم

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض، رقم:2941،(2260/4).

[2] بلفظ آخر، "المعجم الكبير" للطبراني، رقم: 9019، (209/9)، قال الهيثمي : رواه الطبراني من طريقين، إحداهما هذه وهو ضعيف، والأخرى مختصرة، ورجالها ثقات، انظر: "مجمع الزوائد" للهيثمي، (22/7).

[3] المصدر نفسه.

[4] ح ص، بلفظ آخر، "صحيح مسلم"، كتاب:الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم:159، (138/1).

[1] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: أبي ذر الغفاري، رقم:21459، (363/35)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم، فإذا أصبحوا أو طال عليهم طلوع الشمس فبينما هم ينتظرونها إذا طلعت عليهم من قبل المغرب فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»[1].

قال ابن عباس:" لا ينفع [مشرك إيمانه] [2] عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك "[3]. قال ابن الجوزي: " قيل إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن الملاحدة والمنجمين زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم"[4]، وقيل ذلك واقع في بعض الآيات الثلاث: الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها، يروى ذلك عن ابن مسعود أنه قال:" التوبة معروضة على ابن آدم أن قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث الدابة وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج"[5]، ويروى [عن عائشة][6] أنها قالت: " إذ أخرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال"[7].

يروى عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [1]، قال: " هي مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض مرفوعا عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض »[2]. وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه

---

[1] "تفسير الخازن"، (175/2).

[2] في (ب) لا ينفع نفسا إيمانها.

[3] "تفسير الخازن"، (176/2).

[4] المصدر نفسه.

[5] "تفسير الخازن"، (176/2).

[6] ساقط من (ب).

[7] "تفسير الخازن"، (176/2).

[1] الأنعام: 158.

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم:158، (137/1).

الأحاديث الصحيحة، وثبت عن النبي ﷺ أنه طلوع الشمس من مغربها وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾[1]، يعني أنه لا ينفع مشركا إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق بالآيات قبل ظهورها، لأن من كذب ببعض هذه الآيات أو كذب بها فهو كافر.

قال الضحاك:" من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل الله العمل بعد نزول الآية كما كان يقبله منه قبل ذلك، فأما من آمن كان مشركا أو تاب بعد من معصية بعد ظهور هذه الآيات، فإنه لا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا، فإنهم لا ينفعهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة"[2].

وأما فتنة الدجال ومجيء عيسى وقتله إياه فذلك كله آية واحدة ودليل على قرب الساعة ودنوها، وقيل لبعض علماء السلف: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟، قال: نعم، قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ [1]، وذلك أنه لم يتكهل في الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء آخر الزمان بين يدي الساعة.

وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»[2]، وفي رواية : « حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: " اقرأوا إن

---

[1] الأنعام: 158.

[2] "تفسير الخازن"، (176/2).

[1] آل عمران: 46.

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير، رقم:2222، (82/3).

شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [1] " [2]، وفي رواية: « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[3] وفي رواية: « فأمكم منكم »، قال ابن أبي ذؤيب: أتدري ما أمكم منكم؟، قلت: تخبرني، قال: فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ[4] .

وفي إفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال: « فبينما هم كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق »[5]، ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ليس بيني وبين عيسى نبي وأنه نازل فيكم، فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويقتل المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[6]، أخرجه أبو داود.

ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن في حجرة رسول الله ﷺ فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم، ويؤيد هذا الأثر ما أخرجه ابن الخطيب في مواهبه أن النبي ﷺ قال: « لن يخزي الله أمة أنا قائدها وعيسى سائقها ومهديها

---

[1] النساء: 159.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى بن مريم عليها السلام، رقم:3448، (168/4).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى بن مريم عليها السلام، رقم:3449، (168/4).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: باب نزول عيسى بن مريم، رقم:155، (135/1).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم:2937، (2250/4).

[6] "سنن أبي داود"، كتاب:الملاحم، باب:خروج الدجال، رقم: 4324،(117/4)، قال شعيب الأرنؤوط والألباني: ح ص.

بينها »[1]، وفي رواية أخرى: « ليدركن المسيح بن مريم من هذه الأمة رجال إنهم لمثلكم أو خير منكم »[2]، أخرج الأخير الطبراني في الكبير في باب فضائل هذه الأمة.

وأما الدجال فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما من نبي إلا وقد أنذر قومه وحذرهم من فتنة المسيح الدجال، وإني لأخبركم بشيء من أمره لم يبينه نبي قبلي لأمته وأنه أعور العين اليمنى وإن ربكم ليس بأعور، وأنه يهودي يخرج من أصفهان يتعلم السحر على هاروت وماروت فيأتي بمثال الجنة والنار، فمن أفضاه في ناره أفضى به ذلك إلى الجنة ومن ألقاه في جنته هلك، وإن الله ليحيي الموتى على يديه امتحانا للمؤمنين، فمن صدقه كفر كفرا لا إسلام بعده، ومن كذبه نجا من قتله أو لم يقتله»[3].

ومن العلامات الكبرى التي يجب الإيمان بها ويكفر منكرها: فتح يأجوج ومأجوج، وهما أمتان من ذرية يافث خلقهما الله تعالى للنار ليس فيهم سعيد، ولم يبعث منهم رسولا وهما بالمشرق ومن وراء أقصى الصين، وروي عن النواس بن سمعان أنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: « ما شانكم؟ »، قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: « أخوفني عليكم من الدجال، فلئن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه عنكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفة على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرا عليه فواتح سورة الكهف لأنه خارج محالة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله اثبتوا»، قلنا: يا رسول الله وما

---

[1] وجدته بلفظ آخر ليس كما ذكره المؤلف: أخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه قال: لما اشتد جزع أصحاب رسول الله ﷺعلى من قتل يوم مؤتة قال رسول الله ﷺ: ليدركن الدجال من هذه الأمة قوما مثلكم أو خيرا منكم ثلاث مرات ولن يخزي الله أمة أنا أولها وعيسى بن مريم آخرها، قال الذهبي: مرسل وهو خبر منكر، انظر: "الدر المنثور" لجلال الدين السيوطي، (742/2).

[2] ح ض، لم أقف عليه في "المعجم الكبير" للطبراني، انظر كتاب: الفتن لنعيم بن حماد، رقم:1579، باب: نزول عيسى بن مريم عليهما السلام، (571/2).

[3] لم أقف عليه.

لبثه في الأرض؟، قال: « أربعون يوما، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم، قال: «لا، أقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض، قال: « كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيومنون به، ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم[أطول][1] ما كانت درا وأوسع ما كانت ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتي على القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون مملحين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، فيمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسب النحل، ثم يدعوا رجلا ممتلئا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحذر منه جمان كاللؤلؤ فيطلبه عيسى حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إليه أني قد أخرجت عبادا لا يدان لأحد بقتالهم [فحرز][2] عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقول: لقد كان بهذه البحيرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى قد ماتوا كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا وقد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء

[1] في (ب) : طول.

[2] في (ب): فحز.

الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه [بيت مدر][1] ولا وبر فيغسل الله الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[2]، أخرجه مسلم في صحيحه.

شرح غريب ألفاظه:

قوله:" حتى ظنناه في طائفة النخيل ": أي ناحية النخل وجانبه، والطائفة القطعة من الشيء، وقوله:" فخفض فيه و رفع "، أي خفض صوته ورفعه من شدة ما تكلم به في أمره، وقيل أنه خفض من أمره توهينا له ورفع من شدة فتنته و[التخويف][3] من أمره، قوله:" إنه شاب قطط " أي جعد الشعر، وقوله:" طافية عينه " أي خارجة عن حدها، وقوله:" أنه خارج لا محالة خلة " أي أنه يخرج قصدا وطريقا بين جهتين، والتخلل الدخول في الشيء، قوله: "فعاث " أي مفسد، قوله:" فاقدروا له " أي اقدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة، وصلوا في كل يوم بقدر ساعته، قوله:" فتروح عليهم سارحتهم " أي مواشيهم، قوله: " فيصبحون مملحين " أي مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أشعارهم، قوله:" كيعاسب النحل " جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها، قوله:" فيقطعه جزلتين رمية الغرض" أي قطعتين، والغرض الهدف الذي يرمى بالنشاب، قوله: " بين مهرودتين " رويت بالدال المهملة وبالمعجمة، أي شفتين ، وقيل حلتين، وقيل الهرد الصبغ الأصفر بالورس والزعفران، قوله" لا يدان لأحد بقتالهم " أي لا قدرة ولا قوة لأحد بقتالهم، و" النغف ": دود يكون في أنوف الإبل والغنم، " فرسى ": جمع فريس وهو الفتيل، قوله:" زهمهم ": أي ريحهم المنتنة، قوله:" كالزلفة " أي كالمرآة وجمعها زلف، ويروى

---

[1] ساقط من (ب).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب:ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم:2937، (2250/4).

[3] في (ب): تخويف.

بالقاف ويراد به استواءها ونظافتها، قوله:" تأكل العصابة "أي الجماعة، قيل يبلغون أربعين، و"قحف الرمانة ": في الحديث قشرها، و"الرسل" بكسر الراء اللبن، و" اللقحة ": الناقة ذات اللبن، و"الفئام": الجماعة الكثيرة إذا اجتمعت من قبائل شتى، والفخذ دون القبيلة، قوله: "يتهارجون " أي يختلفون، والتهارج الاختلاف وأصله القتل.

ومن حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وعقد بيده تسعين)»[1]. هذا من موضوعات الحساب، وهو أن تجعل رأس أصبعك السبابة في وسك الإبهام من باطنها شبه الحلقة، لكن لا يتبين لها إلا خلل يسير، وعن أيضا أن رسول الله ﷺ قال في السد: « يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قالوا: ارجعوا فستخرقونه غدا، قال: فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا إن شاء الله، قال: فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيشربون المياه، وتفر منهم الناس فيتحصن بعضهم بالحصون وبعضهم بالجبال فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا ما في الأرض وعلونا من في السماء، يزدادوا قسوة إلى قسوتهم وعلوا، فيبعث الله عليهم نغفا في رقابهم فيهلكوا، فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا »[2]، أخرجه الترمذي، والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم، وقوله: "تشكر"، يقال: شكرت شكرا إذا امتلأ ضرعها لبنا، والمعنى إنها تملأ أجسادها لحما وتسمن.

ومن حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الدجال تتقدمه ثلاث سنين مقحطة فتمطر السماء في العام الأول ثلثي ما تمطره عادة، وفي الثانية تمطر ثلثه ولا تمطر شيئا في العام الذي يخرج فيه الدجال »[1]، فيأت الناس وهم في قحط شديد فيقول لطائفة منهم: إن آمنتم بي أني ربكم واتبعتموني فيما أقول لكم أمرت السماء فأمطرتكم وأمرت الأرض تخرج

---

[1] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الفتن، باب:قول النبي ﷺ: ويل للعرب ، رقم:7059، (48/9).

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: من سورة الكهف، رقم :3151، (313/5): قال الترمذي: ح س غريب.

[1] بلفظ آخر،"سنن ابن ماجة"، كتاب: الفتن، باب: فتنة الدجال، رقم:4077، (1359/2)، قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

لكم ما فيها من رزقي، فيؤمنون به ويصدقونه فيأمر السماء فتمطرهم في الحين فتمطر أحسن مطرة، ثم يأمر الأرض فتنبت من ساعتها فيزدادون فتنة إلى فتنتهم، ثم يأتي آخرين فيدعوهم إلى ما دعا إليه من قبلهم فيكذبونه ويردون قوله ويخبرونه بعلمهم فيه وأنه ساحر كذاب جعله الله فتنة للناس فينصرف عنهم فيزدادون قحطا إلى قحطهم فتهلك ماشيتهم وأشجارهم، فيقيم كذلك في الناس أربعين يوما فاليوم كسنة والثاني كالشهر والثالث كالجمعة وسائر أيامه كأيامكم هذه، فبينما الناس منه في شدة إذ بعث الله عليهم المسيح ابن مريم فإذا وقع بصره عليه فر، فيطلبه حتى يقتله فتنهزم جنوده فيتبعهم المسلمون فيقتلونهم بكل فج وغيضة، فلا يختفي أحد منهم بحجر ولا شجر إلا نادت عليه : يا مؤمن أقبل فهذا كافر قد لاذ في، فيأتيه فيقتله حتى لا يبقى من جنوده أحد إلا قتله، وأكثر جنوده اليهود وأهل الأهواء، فبينما الناس كذلك إذ فتح عليهم يأجوج ومأجوج فيتحصنون منهم ويستغيثون بالله أن يكفيهم مئونتهم بما شاء، فيبعث الله عليهم النغف في أعناقهم فيموتون ميتة رجل واحد، حتى أن الأودية لتسيل من زهمهم فيرسل الله عليهم طيرا كرقاب البخت فتحملهم فتلقيهم في البحر، فيقيم عيسى في الناس أربعين سنة فلا تبقى على أديم الأرض ملة من ملل الكفر إلا قهرت، وذلك معنى قوله ﷺ: « خير هذه الأمة أولها وآخرها، وبين ذلك نهج أعوج، ما أنا منهم ولا هم مني»[1]، فيبقى الناس في خصب ودعة وعافية يؤمهم المهدي ويعمل فيهم عيسى بكتاب الله وسنة رسوله حتى يبعث الله عليهم ريحا لينة من جانب اليمن فتقبض روح كل مؤمن، فلا يبقى بعد ذلك إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

[فصل في قيام الساعة ووجوب الإيمان بها]

وأنه لا إيمان للمكذب بالساعة، لأن بتكذيبه إياها يكذب جميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة فيكون بذلك كافرا محضا، وإنما سمي يوم القيامة يوم القيامة لأنه يوم لا ليل بعده، فأول

[1] وجدته بهذا اللفظ : عن عروة، قال: قال رسول الله ﷺ: « خير هذه الأمة أولها وآخرها، أولها فيهم رسول الله ﷺوآخرها فيهم عيسى ابن مريم وبين ذلك ثبج أعوج ليس منك ولست منهم »، انظر: "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (123/6)، وذكره الألباني في : "سلسلة الأحاديث الضعيفة"، رقم: 3582، (77/8)، وقال: ح ض.

أمرها صيحة الصعق فلا يبقى أحد على أديم الأرض إلا مات، فيموت الجن والإنس والملائكة والدواب والطير فذلك حين يقول الله سبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [1]، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[2]، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [3]، وهي النفخة الأولى، ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [4]، أي وهم مشغولون في الدنيا من البيع والشراء والدلالة بالأسواق والمجالس وفي جميع تصرفاتهم فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها، كما في قوله ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان أثوابهما فلا يتبايعا فيه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها »[5]، أخرجه الشيخان.

ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: « ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس »[6]. قوله: " يليط حوضه " أي يطينه ويصلحه وكذلك يلوط حوض إبله وأصله من اللصوق، وقوله: " أصغى ليتا " الليت صفة العنق، وأصغى مال عنقه ليسمع، فأكمل النعت سبحانه بقوله: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾، أي لا يقدرون على الإيصاء لأنهم أعجلوا عن الوصية فماتوا، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[1]، أي ولا يقدرون على أهلهم لأن الساعة لا تمهلهم لشيء، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [2]، هذه النفخة الثانية وهي نفخة البعث، وبين النفختين أربعون

---

[1] غافر: 16.

[2] غافر: 16 .

[3] يس: 49.

[4] يس: 49.

[5] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الفتن، باب:خروج النار، رقم: 7121، (59/9).

[6] ح ص، ورد بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض، رقم:2940، (2258/4).

[1] يس: 50.

[2] يس: 51.

سنة، ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله عليه السلام قال: « ما بين النفختين أربعون »، قيل: أربعون يوما؟، قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟، قال: أبيت[1]، ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنس شيء إلا بلي إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة. فبعد هذا المطر يصيح إسرافيل عليه السلام بعد ما بعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [2]، أول أمرهم ، ثم: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [3]، فيقول الكافرون لما عاينوا الأهوال: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[4]، قال ابن عباس: " إنما يقول المشركون هذا القول لأن الله يرفع العذاب فيما بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا بعد الثانية وعاينوا أهوال القيامة دعوا بالويل، لأن الكافر إذا عاين جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جانبها كالنوم"[5].

ثم بين سبحانه قول المؤمنين وجوابهم للمشركين فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1]، ثم أتبع ذلك ببيان آخر فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد النفخة الأخيرة، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[2]، أي للحساب وقد تقدم أمر الحساب والوزن والبعث وغير ذلك يأت ما يشتمل عليه يوم القيامة وهو على الكافر كألف سنة مما تعدون وعلى المؤمن كصلاة صلاها في دار الدنيا وهم في موضع واحد يدركهم البصر ويسمعهم الصوت فطوله بقدرته على هذا وطواه لهذا وما من الفريقين إلا ويقيل في مأواه من أهل الجنة وأهل النار.

---

[1] ح ص، بلفظ آخر،انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين، رقم:2955،(2270/4).

[2] الزمر: 68.

[3] يس: 51.

[4] يس: 52.

[5] "تفسير الخازن"، (10/4).

[1] يس: 52.

[2] يس: 53.

ومن قدرته تعالى وحكمته أن أوجب على الجن والإنس الإيمان بالساعة من غير تعيين لوقتها، بل اختص سبحانه بعلم الوقت الذي يوقعها فيه فلم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا مكاشفا فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [1]، وفي آية أخرى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [2]، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [3].

ثم إنه تعالى بحكمته وعظيم قدرته قد سماها بأسماء عديدة ليستدل بذلك على عظيم قدرها حتى قيل أن الدنيا من الآخرة كحصاة من جميع حصى الأرض بالنسبة إلى كلها، قال عليه الصلاة والسلام: « لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1]. فهي الساعة لسرعة مجيئها، والطامة الكبرى لعظيم شأنها، والصاخة والقارعة لأنها تقرع القلوب بالفزع، والحاقة لكونها أحق الحق، والأزفة لقربها لأن كل ما هو آت قريب، والراجفة، وقيل المراد بالراجفة الصيحة الأولى، والرادفة الصيحة الثانية، قال قتادة:" هما صيحتان، فالأولى تميت كل شيء، والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله عز وجل"[2]، وقيل الراجفة التي تزلزل الأرض والجبال، والرادفة تشقق السماء، والراجفة القيامة والرادفة البعث يوم القيامة. وروى البغوي بسند الثعلبي عن أبي بن كعب أنه قال: كان رسول الله ﷺإذا ذهب ربع الليل قام وقال: « أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»[3]. ويوم القيامة ويوم الجمع ويوم

---

[1] النازعات: 42 إلى46.

[2] طه: 15 – 16.

[3] الشورى: 17 – 18.

[1] "مسند ابن حنبل"، باب: مسند سهل بن سعد الساعدي، رقم: 15563،(335/24)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[2] "تفسير البغوي، (205/5).

[3] "المستدرك للحاكم"، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الأحزاب، رقم:3578،(457/2)، قال الحاكم: صحيح الإسناد.

الحساب ويوم النشور ويوم الوعيد ويوم التنادي ويوم الخلود ويوم التغابن، لأن أكثر الأسماء دليل على شرف المسمى وعظمه، فهو يوم تطوى السماء كطي السجل للكتاب يكون عن يمين العرش وتكون الأرض في قبضة الجبار سبحانه، وتشرق بنور ربها وتوضع في زاوية من زوايا الجنة حين تبدل بغيرها بعد ما يمدها سبحانه مد الأديم، وبعد ذهاب جبالها ووهادها وجميع ما عليها وقذفها بما في بطنها من الكنوز، والأموات أحياء ينتشرون وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾[1]، فتنكدر الكواكب أولا ثم تتناثر في النار فتسعر بها، ثم تتفجر البحار كلها فتصب في جهنم فتكون نارا، ثم تسجر النار بالريح العقيم فتكون الأرض كلها نارا والسماء جنانا، وذلك بأن تكون النار في محل الأرض حيث حيث قبضت فألقيت في الجنة، والجنان في محل السماء وبينهما الأعراف، جبال خلقها الله تعالى يومئذ يكون عليها رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم فينظرون إلى أهل الجنة وإلى أهل النار في مكانهم ذلك، فيومئذ يذبح الموت بمشهد من الفريقين، وينادي إسرافيل عند ذلك فيقول: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت.

وأما صفة الجنة والنار فأمر لا تحمله هذه العجالة، فلنرجع إلى ما نحن بصدده من أدلة توحيد الله التي لا قدرة لأهل العقول على جلب مثلها، وهي الأدلة التي احتج بها علام الغيوب على جميع الملل فأفحمهم، روي أن الله سبحانه لما تحداهم بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [1]، ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [2]، فعجزوا عنه، أنزل هذه الأحرف التي جعلها في أوائل السور، ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الأحرف وأنتم قادرون عليها، فكان يجب أن تأتوا بمثله، فلما عجزتم عنه دلَّ ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر، وقيل أنهم لما أعرضوا عن سماع القرآن أراد الله سبحانه صلاح بعضهم فأنزل هذه الأحرف، فكانوا إذا سمعوها قالوا: لا تعجبون

---

[1] الزلزلة: 1 إلى 3.

[1] البقرة: 23.

[2] هود: 13.

مما يقوله محمد اسمعوا إلى ما يجئ وبه فإذا أصغوا إليه فسمعوه رسخ ذلك في قلوبهم فكان ذلك سبيلا لإيمانهم، وقيل أن الله تعالى جبر عقول الخلق في ابتداء خطابه على أن يعلموا أنه لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه. وكان مجموع الحروف المنزلة في أوائل السور أربعة عشر حرفا مع تسع وعشرون سورة، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، وهي نصف حروف المعجم، قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [1]، أي هذا الكتاب هو القرآن، وقيل فيه إضمار والمعنى هذا الكتاب الذي وعدك به، وكان الله قد وعد نبيه ﷺ أنه ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد، فلما أنزل عليه القرآن، قال: هذا الكتاب الذي وعدتك به، وقيل أن الله وعد بني إسرائيل أن ينزل كتابا ويرسل رسولا من بني إسماعيل، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير، أنزل الله هذه الآية: ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [1]، أي هذا الكتاب الذي وعدت به على لسان موسى أني أنزله على النبي ﷺ الذي من ولد إسماعيل، ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [2]، أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق فهو خبر بمعنى النهي، أي لا ترتابوا فيه، فإن قيل: قد ارتاب فيه قوم فمما معنى لا ريب فيه؟، فالجواب: أنه في نفسه حق وصدق، فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك، ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، فالهدى عبارة عن الدلالة وهي دلالة بلطف، وقيل الهداية : الإرشاد، والمعنى هو هدى للمتقين، وقيل هو هاد لا ريب في هدايته، والمتقي اسم فاعل من وقاه فاتقى، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، وفي عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور. قال ابن عباس:" التقى من يتقي

---

[1] البقرة: 2.

[1] البقرة: 1 – 2.

[2] البقرة: 2.

[3] البقرة: 2.

الشرك والكبائر والفواحش "[1]، وهو مأخوذ من التقاء وأصله الحاجز بين الشيئين، يقال اتقى بترسه أن جعله حاجزا بينه وبين النار، وقيل المتقي هو من لا يرى نفسه خيرا من أحد، وعند القوم التقى هي أن لا يراك مولاك حيث نهاك، وجماع التقى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الآية [2]. ثم بين حقيقة المتقين فقال هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [3]، وأصل الإيمان في اللغة التصديق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [4]، أي بمصدق، فإذا فسر الإيمان بهذا فإنه لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله ونقصانه أخرى. والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فإذا فسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يسمى مؤمنا أم لا؟، فيه خلاف، والمختار عند أهل السنة أنه لا يسمى مؤمنا لقوله ﷺ: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1]، فنفى عنه اسم الإيمان أو كمال الإيمان. وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه وقالوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكا وكفرا، وقال المحققون من أهل السنة أن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها، وبهذا التأويل أمكن الجمع بين نصوص الكتاب والسنة، وقد جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه أحاديث، وقال بعض المحققين أن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الأدلة والبراهين وقلة إمعان النظر في ذلك. ولهذا المعنى يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم، لا تعتريهم شبهة في إيمانهم ولا تزلزل، وأما غيرهم من

---

[1] انظر: "اللباب في علوم الكتاب" لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني، (275/1).

[2] النحل: 90.

[3] البقرة: 3.

[4] يوسف: 17.

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: المظالم والغصب، باب: النهبى بغير إذن صاحبه، رقم: 2475، (136/3).

أحاد الناس فليسوا كذلك إذ لا يشك عاقل أن تصديق أبي بكر ﵁ لا يساوي تصديق غيره من أحاد الأمة، وإنما سمي الإقرار والعمل إيمانا لوجه المناسبة لا من شرائطه، والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1] أخرجه الشيخان في صحيحيهما. والبضع بكسر الباء ما بين الثلاثة إلى العشرة، والشعب القطعة من الشيء، وإماطة الأذى عن الطريق هو عزل الحجر والشوك عنها، والحياء بالمد انقباض النفس عن فعل القبيح، وإنما جعل من الإيمان وهو اكتساب لأن المستحيي ينزجر باستحيائه عن المعاصي فصار من الإيمان، وقيل الإيمان مأخوذ من الأمن فسمي المؤمن مؤمنا لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله. والإسلام هو الانقياد والخضوع، فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا إذا لم يكن معه تصديق، وذلك أن الرجل قد يكون مستسلما في الظاهر غير مصدق في الباطن. عن أبي هريرة أنه قال: كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟، قال:« أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتومن بالبعث الأخير»، قال: يا رسول الله ما الإسلام؟، قال: « أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟، قال: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: يا رسول الله ما الساعة؟، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن اشتراطها، إذا ولدت الأمة ربتها فذلك من اشتراطها ، وإذا كان العراة الحفاة رؤوس الناس فذلك من اشتراطها، وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذلك من اشتراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1]، ثم أدبر الرجل

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم:35، (63/1).

[1] لقمان: 34.

فقال رسول الله ﷺ: « ردوا علي هذا الرجل»، فأخذوا ليردونه فلم يروا شيئا، فقال رسول الله ﷺ: « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم»[1]، وفي إفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب نحو هذا الحديث وبمعناه.

وقد تقدم الكلام على معنى الإيمان والإسلام في صدر الكتاب وبيان أقسامه وبقيت أشياء تتعلق بمعنى هذا الحديث: « وتؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الأخير »، هو بكسر الخاء، وقيل في الجميع بين قوله وتومن بلقاء الله وبالبعث، فإن لقاء الله يحصل بمجرد الانتقال إلى الدار الأخيرة بالموت والبعث بعده عند قيام الساعة، وفي تقييده بالآخر وجه آخر وهو أن خروجه إلى الدنيا بعث من الأرحام، وخروجه من القبر إلى الآخرة بعث آخر. وقوله: « ما الإحسان؟ » وهو هنا الإخلاص في العمل لأنه شرط في صحة الإيمان والإسلام، لأن من أتى بلفظ الشهادة وأتى بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسنا، ويحتمل أن يراد بالإحسان المراقبة وحسن الطاعة، فإن راقب الله حسن عمله وهو المراد بقوله: « فإن لم تكن تراه فإنه يراك »، وأشراط الساعة علامتها التي تظهر قبلها. وقوله: « إذا ولدت الأمة ربتها » يعني سيدتها، يعني الرجل تكون له الأمة فتلد له ولدا فيكون ذلك الولد ابنها وسيدها، و« رعاء البهم » بكسر الراء وفتح الباء وإسكان الهاء، وهي أصغر من ولد الضأن، والمعنى أنه يبسط المال على أهل البادية وأشباههم حتى يتباهون في البناء ويسودون الناس فذلك من اشتراط الساعة.

قوله: ﴿ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [1]، الغيب مصدر وضع موضع الاسم فيقال لكل غائب غيب، وهو ما كان مغيبا عن العيون، قال ابن عباس:" الغيب هنا كل ما أمرنا بالإيمان به مما غاب عن أبصارنا من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان "[2] حتى يشمل الإقرار بوحدانية الله تعالى والإيمان بالقرآن وبالآخرة وبوحي السماء جميعه وبالقدر، قال عبد الرحمان بن يزيد : كنا عند

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم: 9، (39/1).

[1] البقرة: 3.

[2] "تفسير الخازن"، (25/1).

عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقونا به، فقال عبد الله بن مسعود:" إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه ولمن لم يره، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من الإيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [1] " [2]. ومن حديث أبي هريرة أن النبيﷺ بينما هو ذات يوم بين أصحابه إذ قال : « بلى، ولكن أقواما يأتون من بعدي يومنون بي ولم يروني، يود أحدهم »، قالوا: يا رسول الله أولسنا بأحبتك؟، قال: « بلى، ولكن أقواما يأتون من بعدي يومنون بي ولم يروني، يود أحدهم أن يوتر» أي يصاب، والوتر في اللغة المصيبة، « من ماله وولده ويراني مرة أولئك أحبائي »[1]، أخرجه الطبراني في الكبير وأحمد في مسنده، والحاكم، وقال صحيح الإسناد.

ولما بعث النبي ﷺ على فترة من الرسل، بعث وقد ملئت الأرض كفرا وعدوانا والخلق أحوج إلى ما كانوا إلى بعثته، فأيده الله بأن جمع فيه الأخلاق الحميدة ما كان متفرقا في جميع الرسل، وأيده بجوامع الكلم وخصه بكتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتكفل الله تعالى له بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [2]، فبعثه الله إلى جميع أهل الملل المتباينة والأخلاق المتنافرة لعلمه تعالى أنه لا يقدر على سياستهم غيره لما ركب فيه سبحانه من العقل الوافر وأمده به من الحكمة البالغة وأيده به من التولي لأمره من غير واسطة، فقام بجميع ذلك فدعا الخلق كلهم غير ملاين ولا مداهن إلى فراق ما ألفوه من عبادة الأوثان ونسبة الأشياء إلى الدهور ودعوى الولد والصاحبة والشريك وعبادة النيران، فمن لم يجب طوعا أجبره على الإيمان بالسيف وقام لسانه مقام سيفه بالاحتجاج عليهم بما يفحمهم به من الأدلة

---

[1] البقرة 1 إلى 5

[2] "تفسير الخازن"، (25/1).

[1] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أنس بن مالك، رقم: 12579، (38/20)، و"المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين، رقم: 6992، (95/4)، و"المعجم الكبير" للطبراني، باب: حبيب بن سباع أبو جمعة الأنصاري، رقم:3538، (22/4)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره، وقال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه (البخاري ومسلم).

[2] الحجر: 9.

الظاهرة المتظاهرة، فقال للوثنيين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾[1]، أعني أن هذه الأصنام لو اجتمعت وعابدوها على خلق ذباب واحد لما قدروا على خلقه مع صغر جثته وضعفه، وهو كذلك يعلم ذلك كل من له أدنى مسكنة من عقل ولذلك المعنى وصفهم تعالى بالضعف فقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾لأنهم كانوا يطلون أصنامهم بالطيب فيأت الذباب أصنامهم فيقع على ذلك الطيب فيأكله ثم يخروا عليهم، فيأتي عبادها ليمنعوها من أكل طيبها فيطير الذباب بما معه من الطيب فلا يقدر على إدراكه واستنقاذ الطيب منه الصنم المعبود ولا عابده، ثم عاب عبادتها بالكفر والجهل فقال:﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[1]، أي ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته وما وصفوه حق وصفيته حيث أشركوا به ما لا [يمتنع][2] من الذباب ولا ينتصف منه.

ثم وصف نفسه سبحانه بما يستحقه من الكمالات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾[3]، لا يقهر، عزيز لا يغلب، منيع لا يسلب.

ولما تعجب المشركون من أين يكون الله أنزل على محمد ﷺ القرآن والنبوءة وليس بأحق منهم بذلك، رد عليهم سبحانه بنفسه فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[4]، مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم أجمعين، فأخبر الله أن الاختيار إليه يختار من يشاء من عباده لرسالته، وأنه: ﴿سَمِيعُۢ﴾ لأقوالهم،

---

[1] الحج: 73.

[1] الحج: 74.

[2] في (ب): لا ينفع.

[3] الحج: 74 .

[4] الحج: 75.

﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم لا تخفى عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[1]، فهو يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله وما عملوا وما هم عاملون قبل أن يخلقهم، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم.

ثم احتج سبحانه على اليهود والنصارى بالحجج التي تبطل ما هم عليه وتبين لهم أنهم كافرون غير تابعي ما بأيديهم من الكتب المنزلة ولا معتبرين بما فيها، بل بدلوها وغيروها، فقال موبخا لهم ومظهرا [لمثالبهم][2] بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [3]، نزلت في يهود المدينة حيث قالوا عزير ابن الله، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وفي نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله، فلما كذبهم وأفحمهم نزه نفسه سبحانه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي تنزيها لله عن اتخاذ الولد وعن قولهم وافترائهم عليه.

ومن حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله عز وجل: « كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني، فأما تكذيبه إياي فزعمه أني لا أقدر أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا »[1].

ثم أبطل عبادتهم لعزير والمسيح بأن عبادتهم إياهم كعبادة الوثنيين للأوثان، بل هما عبدان من جملة عبيده إلا أنه أكرمهما بالرسالة كما أكرم جميع الرسل، وبإظهار المعجزات على أيديهم كما أظهرها على أيدي الرسل من غيرهم، فهم أسوة الرسل في العبودية والاصطفاء، فقال: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [2]، وهما أي عزير والمسيح عيسى داخلان في عموم عباده وملكه، فكيف ينسبون إليه ولادتهما، لأن الولد لا بد أن يكون من جنس الوالد، والله تعالى منزه عن التشبيه والنظير، وأن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره والله

---

[1] الحج: 76.

[2] في (ب) : لمئابتهم.

[3] البقرة: 116 .

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه، رقم:4482، (19/6).

[2] البقرة: 116.

منزه عن ذلك كله، فإضافة الولد إليه محال. ثم أكد ذلك بقوله : ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [1]، فأهل السموات والأرض كلهم مطيعون لله ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « خير الصلوات أطولها قنوتا »[2]، بمعنى الآية: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[3]، بالشهادة ومقرون له بالوحدانية مذللون له مسخرون لما خلقوا له، ثم بين سبحانه آية أخرى فهي دليل على وحدانيته وقدرته وتنزيهه عما يقوله المشركون فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [1]، معناه أن الذي تنسبون إليه الولد يستحيل في حقه ذلك لأنه بديع السماوات والأرض ومنشأها على غير مثال سابق فكيف يحتاج إلى الصاحبة والولد فهو الذي يبدع الأشياء ويحدثها من العدم المحض بقدرته وإرادته، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي قدره وأراد خلقه، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجده عليه. فإن قيل: أن المعدوم لا يخاطب، فكيف قال فإنما يقول له كن فيكون؟، فالجواب عن ذلك: أن الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه، فإذا كان كذلك كانت الأشياء التي لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها [وإحاطته بكنهها][2] فجاز أن يقول لها كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود وإحاطته بكمها.

ثم لما قال اليهود والنصارى ومشركوا العرب عند مخاصمتهم النبي ﷺ ومحاجتهم: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾[3]، لولا يكلمنا الله عيانا أنك رسوله أو تأتينا علامة أو دلالة على صدقك، رد الله عليهم واستبشع ما قالوه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي من

---

[1] البقرة: 116.

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أفضل الصلاة طول القنوت، رقم: 756، (520/1).

[3] البقرة: 116.

[1] البقرة: 117.

[2] ساقط من (ب).

[3] البقرة: 118.

كفار الأمم الخالية، ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة وأن يسمعهم كلام الله، وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته، فأخبر الله عن الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ أنهم قالوا مثل ما قال من كان قبلهم من الأمم الكفرة، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والقسوة والتكذيب وطلب المحال. ثم رد عليهم ردا آخر مضمرا فقال: كيف تخاطبون محمدا بمثل هذا وقد بينا الآيات، أي على يد محمد ﷺ الدالة على نبوءته كانشقاق القمر ومشي الشجر وسجودها بين يديه شاهدة على نبوءته، وتفجير الماء المعين بين أصابعه حتى شرب منه الجم الغفير وشبع الألف من كبد شاة وحنين الجذع، وأعظم من جميع ذلك ما خصه به تعالى من نزول الكتاب العجيب المعجز الذي لم يسبق بمثله في غزارة علمه مع فصاحته وجزالته فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] أي آية القرآن وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات لمن كان طالبا لليقين، وإنما خص سبحانه أهل الإيقان بالذكر لأنهم أهل التثبت في الأمور ومعرفة الأشياء على يقين وبرهان من الله تعالى. ثم شهد له سبحانه وهو أكبر شاهد بالرسالة وأنها بالحق، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]، أي بالصدق، قال ابن عباس: " بالقرآن وبالإسلام، ولم يرسلك عبثا بل أرسلك بالحق"[3]، ﴿بَشِيرًا﴾ لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب العظيم، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي مخوفا لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ قرئ بفتح التاء على النهي، قال ابن عباس:" وذلك أن النبي ﷺ قال ذات يوم: « ليت شعري ما فعل أبواي » فنزلت الآية[4]، والمعنى إنا أرسلناك لتبلغ ما أرسلت به، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[5] وقرئ ولا تُسألُ بضم التاء ورفع اللام على الخبر، وقيل على النفي،

---

[1] البقرة: 118.

[2] البقرة: 119.

[3] انظر: "تفسير الخازن"، (74/1).

[4] "تفسير البغوي"، (160/1).

[5] البقرة: 119.

والمعنى إنا أرسلناك بالحق لتبلغ ما أرسلت به وإنما عليك البلاغ، ولست مسئولا عن من كفر من أهل الكتابين ومشركي العرب فإن مرجعهم إلى الجحيم قدر سابق وأمر محتوم.

ولما كانت الأمثال أقرب في الدلالة على الأشياء وأبين للدليل والبرهان وكانت العقول أميل إليها من غيرها من جميع أنواع البلاغة، ضربها الله مثلا في إدحاض حجج الكافرين وتقوية براهين المحققين من الأنبياء والمؤمنين فقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [1]. فلما نهاهم الله تعالى عن ضرب الأمثال لقلة علمهم، ضرب هو سبحانه لنفسه مثلا فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان كمثل من ساوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك لأمر نفسه قادر على التصريف قد رزقه الله ما لا يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز لعاقل أن يسوي بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة، ويمكن أن يكون هذا المثل للمؤمن والكافر، فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر لأنه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء، وقيل أن الكافر لما رزقه الله ما لم يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذي لا يملك شيئا، والمراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [1] المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سرا وجهرا فأثابه الجنة على ذلك. فإن قيل: لم قال عبدا مملوكا لا يقدر على شيء، وكل عبد فهو مملوك وهو غير قادر على التصرف،؟، فالجواب: أنه إنما ذكرت المملوك للتمييز بين الحر والعبد، يقع عليهما جميعا لأنهما من عباد الله. وأما قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [2] احترز به

---

[1] النحل: 75.

[1] النحل: 75.

[2] النحل: 75.

عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف، لأنهما يقدران على التصرف، واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئا، ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [1] ولم يقل هل يستويان، يعني هل يستوي الأحرار والعبيد، فالمعنى فكما لا يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي، كذلك لا يستوي الكافر والعاصي والمؤمن والطائع، قال عطاء في قوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾: "هو أبو جهل ابن هشام، ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو أبو بكر الصديق"[1].

فحمد سبحانه نفسه لأنه المستحق لجميع تلك المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده، وهو الخالق الرازق لهذه الأصنام التي يعبدها هؤلاء فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجزة لا يد لها على أحد ولا معروفا تحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله لا لغيره، فيجب على جميع العباد حمد الله لأنه أهل للمحامد، والثناء الحسن، فلذلك حمد نفسه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [2] يريد الكفار، فإنهم لا يعلمون أن هذه الأصنام لا تستحق الحمد والثناء، بل إنها تستحق الإهانة والجفاء.

ثم ثنا سبحانه بضرب مثل آخر فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ [3]، وهو الذي ولد أخرس، فكل أبكم أخرس، وليس كل أخرس أبكم، فالأبكم الذي لا يُفْهِمُ ولا يُفْهَم. ثم بين سبحانه صفة أخرى بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، هو إشارة على العجز التام والنقصان الكامل، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيل على من يلي أمره و يعوله، وقيل أهله من الغلظ وهو نقيض الحدة، يقال كلَّ السكين إذ غلظت شفرته، وكلَّ اللسان إذا غلظ على النطق، وكلَّ فلان على الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه، فقوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي غليظ ثقيل على

---

[1] النحل: 75.

[1] "تفسير البغوي"، (89/3).

[2] النحل: 75.

[3] النحل: 76.

مولاه، ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي حيث ما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم، ﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٖۖ﴾ يعني أنه لا يأت بنجح لأنه أخرس عاجز لا يحسن الكلام ولا يفهم الجواب، ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ﴾ صاحب هذه الصفات المذمومة، ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [1] أي ومن هو سليم الحواس بقاع ذو كفايات وهو ذو رشد وديانة يأمر بالعدل والخير، وهو في نفسه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي على سيرة صالحة ودين قويم، فيجب أن يكون الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل، وهذا مثل ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من إنعامه وما يشملهم به من آثار رحمته وألطافه، والأصنام التي هي أموات جماد لا تضر ولا تنفع ولا تعقل وهي كَلّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة، وقيل كل [المثالين للمؤمن والكافر ، فالمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، والكافر هو الأبكم الثقيل الذي لا يأمر بخير، فعلى هذا التأويل تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر، وقيل على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو رسول الله ﷺ وهو على صراط مستقيم، والذي هو أبكم هو أبو جهل.

ثم أتبع ذلك ببيان اختصاصه سبحانه بالاطلاع على الغيب: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]، فأخبر سبحانه عن كمال علمه وأنه عالم بجميع الغيوب لا يخفى عليه شيء منها، وقيل المراد بالغيب في هذه الآية قيام الساعة، كما يدل عليه قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قيامها، والساعة هو الوقت الذي يقوم الناس لموقف الحساب، ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ في السرعة، ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضا، ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ أي بل هو أقرب، لأن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة، والله تعالى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون في أسرع من لمح البصر، ثم نبه سبحانه على كمال قدرته

---

[1] النحل: 76.

[1] النحل: 77.

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، في هذه الآية دليل على كمال قدرته تعالى فمنى أراد شيئا كان في أسرع مل يكون، قال الزجاج:" ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه تعالى وصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء، لا يعجزه شيء"[1].

ولما أتم بيان ضرب المثل وفيم ضربت ولم ضربت، شرع سبحانه بين أصل جميع الكائنات الجهل بالحقائق في البراءة، ثم إنه تعالى تفضل عليهم بعد ذلك بالدلالات التي يحملون بها العلم وإدراك الأشياء على كنهها فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾[1]، لأن الإنسان في أول الفطرة ومبدئها خال عن العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلا. ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾، وأنه لما أعطاهم هذه الحواس لينتقلوا بها من الجهل إل العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها عل ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعات الله وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته، وقال ابن عباس: " يريد في هذه الآية لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم به عليكم منة منه إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم إلى أن صرتم رجالا تعقلون عظمة الله "[2]، وقيل في معنى ذلك والله خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة وجعل لكم الحواس آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم بها وعبادته والقيام بحقوقه و الترني إلى ما يسعدكم في الآخرة. فإن قيل: ظاهر الآية يدل على جعل هذه الحواس الثلاث كان بعد الإخراج من البطون وإنما خلقت هذه الحواس للإنسان في جملة خلقه وهو في بطن أمه، فالجواب: أن ذكر تقديم الإخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على أن خلقها كان بعد الإخراج لأن الواو لا توجب الترتيب، ولأن العرب تقدم وتؤخر بعض كلامها، ولما كان الانتفاع

---

[1] "تفسير الخازن"، (91/3).

[1] النحل: 78.

[2] "تفسير الخازن"، (91/3).

بهذه الحواس إنما يكون بعد الخروج من البطن، فكانت وكأنها إنما خرجت من البطن في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وإن كانت قد خلقت قبل ذلك، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [1] الله على ما أسدى إليكم بسبب خلقه هذه الحواس الثلاث التي تميزتم بها عن جميع الحيوانات ولتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم.

ثم انتقل سبحانه إلى حجة أخرى وبرهان آخر يحتج به على الكفرة ليضطرهم إلى الإيمان بتمام قدرته وأنها لا تعلق لها بالأسباب ولا بمسبباتها فقال مخاطبا للكفرة وغيرهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [2]، يعني مذللات في جو السماء، والجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء، ذكر كعب الأحبار أن الطير ترفع في الجو اثني عشر ميلا ولا ترفع فوق ذلك، لأن فلك الريح يمنعها من العلو عن ذلك[3]، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي في حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها في الهواء وفي هذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء وهو الله تعالى بقدرته التامة التي لا يعجزها شيء، ثم نبه سبحانه وتعالى على ما في ذلك من دلائل وحدانيته وقدرته على ما لا يقدر غيره عليه فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وإنما خص المؤمنون بالذكر لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم.

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر يشاكله المثال الأول فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [4] مستدلا به على وحدانيته بوجه يقرب ذلك إلى إفهام الغافلين عن حقائق الحكمة وأنوار التوحيد، وأقرب الأمثال ما كان متكررا في نفوس العالمين ولذلك قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [5].

---

[1] النحل: 78.

[2] النحل: 79.

[3] "تفسير الخازن"، (91/3).

[4] الروم: 28.

[5] الذاريات: 21.

ولذلك قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه أي عرف نفسه بالنقص والعجز والجهل، فقد عرف ربه بالكمال والعلم والقدرة، والمعنى بين لكم شبها مجالكم وذلك المثل من أنفسكم فقال تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾[1]، أي عبيدكم وإمائكم، ﴿ مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾، هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمره دون شريكه، ويخاف الرجل شريكه في الميراث وهو يحب أن ينفرد به، قال ابن عباس:" تخافونهم أي يرثونكم كما يرث بعضكم بعضا، فإذا لم تخافوا هذه من مماليككم ولا ترضونه لأنفسكم، فكيف ترضون أن يكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي" [2]، ثم زادهم كشفا وتنبيها على هذه البراهين المفحمة الملجمة: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾[3] أي الدلالات والبراهين والأمثال، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي ينظرون في هذه الدلائل والأمثال بعقولهم نظر اعتبار مع هدى الله.

ثم أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين في ضلالهم عن الهدى بعد ظهوره، وأن ضلالهم بإرادته لا يرضاه لأنه لا يرضى لعباده الكفر فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ [4]، أي أشركوا بالله، ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، جهلا بما يجب عليهم. ثم بين سبحانه أنهم من أتباعهم أهواءهم أراد ضلالهم وقدره عليهم أزلا، ﴿فَمَن﴾ يقدر على أن ﴿يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾عن طريق الهدى، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي مانعين يمنعونهم من عذاب الله.

---

[1] الروم: 28 .

[2] "تفسير البغوي"، (576/3).

[3] الروم: 28.

[4] الروم: 29.

ثم انتقل سبحانه من الأمثال يأمر حزبه بالإقامة على ما هم عليه من الهدى، فحض نبيه ﷺ بالأمر، لأن أمره أمر للجميع فقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾[1]، أي أخلص دينك لله وسدد علمك لوجهه، في الآية ما يتوجه به إلى الله تعالى من إخلاص الدين، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا إليه مستقيما عليه، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله، والمعنى الزموا فطرة الله، ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والمراد بالفطرة الإسلام الخالص لله الذي خلق الخلق من أجله. عن أبي هريرة انه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »، ثم يقول اقرءوا: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [1] »[2]، زاد البخاري: « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ الآية »[3]، ولهما في رواية: قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيرا؟، قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »[4].

قوله: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »، يريد على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [5]، فكل مولود في هذا العالم على ذلك الإقرار وهي الحنيفية التي وضعت الخلق عليها وإن عبد غير الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [6]، ولكن لا اعتبار بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى إلى قوله: « فأبواه يهودانه أو ينصرانه » فهو مع وجود الإيمان الفطري فإنه محكوم له بحكم أبويه الكافرين وذلك معنى قوله ﷺ في حديث

---

[1] الروم: 30.

[1] الروم: 30.

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: 2658، (2047/4).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم: 1359، (95/2).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: 2658، (2048/4).

[5] الأعراف: 172.

[6] لقمان: 25.

آخر: يقول الله عز وجل: « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم »[1]. وحكي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: " معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته، أي خلقته التي خلقه الله عليها في علم الله السابق من سعادة وشقاوة، فكل منهما صائر في العاقبة إلا ما فطر عليه، وعامل في الدنيا بعمل المشاكل لهان فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما "[1]، وقيل معناه أن كل مولود في مبدأ الخلقة على الفطرة أي على الجبلة السليمة والطبع المنتهي لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول السليمة، وإنما يعدل عنه من عدل إلى غيره لآفة من آفات النشر والتقليد، فمن سلم تلك الآفات لم يعتقد غيره، ثم مثل اليهود والنصارى وإتباعهم لآبائهم والميل لأديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة والمحجة المستقيمة.

قوله: « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء »، أي كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شيء، وقوله: « هل تحسون فيها من جدعاء »، هل تشرعون أو تعلمون فيها من جذعاء مقطوعة الأنف والأذن.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، أي لا تبدلوا دين الله والزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، وقيل معنى لا تبديل لخلق الله هو ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة، فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقي سعيدا. ثم بين سبحانه أن هذا الذي أمر به من سبقت له السعادة هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، أي المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. ثم قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [3]، أي فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه، لأن خطاب النبيﷺ تدخل فيه الأمة ويتناولها، والمعنى راجعين إلى الله تعالى بالتوبة ومقبلين إليه بالطاعة، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾،

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، قم: 2865، (2197/4).

[1] انظر: "إرشاد الساري لشرح صحيح البخار"ي للقسطلاني، باب: سورة لقمان، (288/7).

[2] الروم: 30.

[3] الروم: 31.

أي ومع ذلك خافوه ولا تأمنوا مكره، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي وداوموا على أدائها في أوقاتها، ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ ﴾[1]، أي صاروا فرقا مختلفة وهو اليهود والنصارى وأهل الأهواء والبدع من هذه الأمة، ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [1]، أي راضون لتزيين الشيطان تلك الأهواء لهم.

ثم لما فرغ سبحانه من ضرب الأمثال الدالة على وحدانيته انتقل يبين ما لا يقدر عليه غيره ولا نسبة للخلق فيه، فذكر أنواعا من ذلك تدل على وحدانيته وكمال قدرته:

فالنوع الأول: خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ ، فذكر أعظم الأشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته، والمعنى الأصنام خير أم الذي خلق السماوات والأرض، ثم ذكر نعمه: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، يعني المطر، ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، أي بساتين جمع حديقة وهي البساتين المحوط عليها، فإن لم يكن حائط فليست بحديقة، ثم وصفها بقوله: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، أي ذات منظر حسن، والبهجة الحسن الذي يبتهج به من يراه، ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾، أي ما ينبغي لكم لأنكم لا تقدرون على ذلك، لأن الإنسان قد يقول أنا المنبت للشجرة بأن غرسها وسقاها الماء فأزال الله هذه الشبهة بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾، لأن أنبات الحدائق المختلفة الأصناف والطعوم والروائح المختلفة الزرع تسقى بماء واحد لا يقدر عليه إلا الله تعالى ولا يتأتى لأحد وإن تأتى ذلك لغيره محال. ثم لما أزال الشبهة وأقام عليهم الحجة بطنهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، يصنع مثل صنعه هذا فتشركوا، أو هل معه معبود أعانه على صنعه، فيضطرهم ذلك أن يقولوا لا نعلمه فتقوم عليهم الحجة

---

[1] الروم: 31 – 32.

[1] الروم: 32.

أيضا، بل ليس معه إله ولا له شريك، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾، أي يميلون عن هذا الحق الظاهر إلى ارتكاب الباطل.

الدليل الثاني: والبرهان القاطع قوله عز وجل: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾[1]، أي دحاها وسواها للاستقرار عليها، فلا تميد بأهلها ، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي وبسطها بأنهار تطرد بالماء، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، ﴿حَاجِزًا﴾ أي مانعا من قدرته بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر. فلما اضطرهم إلى العلم بأنه لا فاعل لهذه الأشياء العظيمة غيره فأقروا أن لا فاعل لها غيره، فلما قامت عليهم الحجة نادى عليهم بالعجز والتبكيت لهم ولآلهتهم التي يعبدون من دونه، قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] توحيد ربهم وقدرته وسلطانه.

الثالث: من البراهين على وحدانيته وانفراده بملكه وأعمال قدرته، هو إجابته تعالى لجميع من اضطر إليه من كل مكروب ومجهود بأحد، فإنه لا يلتجئ ولا يدعوا ولا يتضرع إلا إلى الله تعالى، ولا يزيل ما به غيره، ولا يغفر ذنوب المستغفر سواه، لأنه لا يقدر على ذلك غيره، ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾[3] فيكشف ضره، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الذي هو الحال السيء من فقر وغيره إلا هو لأنه القادر على تحويل الأحوال كيف شاء ومتى شاء من فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة، ومن ضيق إلى سعة، فلا يقدر على ذلك إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا يغلب ولا ينازع. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، وذلك أنه أورثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن بعد الجن، فإنهم كانوا ساكني الأرض قبل آدم وذريته فأفسدوا فيها وطغوا وكفروا وسفك بعضهم دماء بعض، فبعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلهم وطرد بقيتهم إلى الجزائر والبحار، ثم

---

[1] النمل: 61 .

[2] النمل: 61.

[3] النمل: 62.

استخلف بعدهم آدم عليه السلام وذريته، ولذلك قالت الملائكة عند خلق آدم عليه السلام جوابا لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[1] قياسا على ما فعلته الجن قبلهم، فأجابهم الله بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1]، فلما علموا ذلك وأقروا به قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾[2] يذهب الجن ويأتي بكم خلفاء منهم، وهم أكثر منكم وأقوى، فذلك أدل دليل على قدرته تعالى التي لا يعجزها شيء، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي تتعظون.

النوع الرابع: قوله عز وجل: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾[3]، أي أمام المطر، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ينشر الرياح وينزل المطر، فيضطرهم أن يقولوا لا فتقوم عليهم الحجة، ثم نزه تعالى نفسه فقال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

النوع الخامس: قوله عز وجل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾[4] نطفا في الأرحام، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت، ﴿يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾، أي من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يصنع كصنعه فينزل الغيث من السماء ويخرج النبات من الأرض، ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم على قولكم أن مع الله إلها آخر، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، بل أنتم كاذبون ضالون مرتكبون للأهواء من غير برهان من الله.

---

[1] البقرة: 30.

[1] البقرة: 30.

[2] النمل: 62.

[3] النمل: 63.

[4] النمل: 64.

ثم أتبع ذلك ببرهان هو أعظم من جميع البراهين فقال: ﴿قُل﴾[1] يا محمد لهؤلاء الضالين: ﴿لَا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، والمعنى أن الله هو الذي يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2]، من في السماوات وهم الملائكة، ومن في الأرض وهم بنو آدم، لا يعلمون متى يبعثون والله تعالى المنفرد بعلم ذلك، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾[1]، أي تدارك واستولى علم جميع الخلق في عدم الاطلاع على الوقت الذي تقوم فيه الساعة. ثم أخبر عن حال المشركين فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من الساعة، فأكد ذلك الشك بقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، جمع عم، وهم عمي القلب، ومعنى الآية أن الله أخبر عنهم أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا لأن المؤمن مؤمن بقيام الساعة غير عالم بوقتها الذي تقوم فيه، والكافر مكذب بوقوعها رأسا.

ثم حكى سبحانه قول المشركين وما اعتقدوا في قلوبهم ووسمهم بالكفر فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[2]، من قبورنا أحياء، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾[3]، أي هذا البعث، ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ محمد ﷺ، وليس ذلك بشيء، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كذبوها، ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[4] بسبب تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ

---

[1] النمل: 65.

[2] النمل: 65.

[1] النمل: 66.

[2] النمل: 66.

[3] النمل: 68.

[4] النمل: 69 – 70.

مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [1]، نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾ [2]، أي دنا وقرب، ﴿لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [3] من العذاب، فحل منهم ذلك يوم بدر، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [4] أي على أهل مكة، حيث لم يعاجلهم بالعذاب المستأصل لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي ذلك، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [1]، من عداوة رسول الله ﷺ، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ [2] أي جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، يعني في اللوح المحفوظ.

ومن شرف الإيمان أن الله تعالى مدح به حملة عرشه، ومع عظيم أجسادهم وقوتهم يرجفون من مخافة الله عز وجل، لا ينطقون إلا بذكر الله وهم من أشرف الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [3]، [فهم] [4] حملة العرش وهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة مدهم الله بأربعة أخرى كما قال سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [5]، وهم من أشراف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله عز وجل وهم على صور الأوعال، وجاء في الحديث أن لكل وحد منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة، جناحان منهما على وجهه مخافة أن ينظر على العرش فيصعق، وجناحاه يرفرف بهما في الهواء، ليس لهما كلام إلا التسبيح والتحميد، مابين أضلافهم إلى ركبهم كما بين سماء وسماء "[6]. وقال ابن عباس:

---

[1] النمل: 70.

[2] النمل:71 – 72.

[3] النمل: 72.

[4] النمل: 73.

[1] النمل: 74.

[2] النمل: 75.

[3] غافر: 7.

[4] محو من (ب).

[5] الحاقة: 17.

[6] "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي، (270/8).

"حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدمه مسيرة خمس مائة عام " [1]، وروي أن أقدامهم في تخوم الأرض السابعة، والأرضون والسماوات إلى حجرهم، وهم يقولون: "سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح "[2]. وقيل أن أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم تحت العرش، وهم خاشعون لا يرفعون أطرافهم إلى ما فوقهم إجلالا لله تعالى، وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفا من التي تليها، والتي تليها أشد خوفا من التي تليها.

وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: « أذن الله لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله الذين يحملون العرش أن ما بين شحمة أذنيه إلى عنقه مسيرة سبعمائة عام»[1]، أخرجه أبو داود.

وأما صفة العرش فقيل أنه جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات، روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال:" ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام، ويكسى العرش كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله، والأشياء كلها في العرش كحلقة ملقاة في فلاة "[2]. وقال مجاهد: " بين السماء السابعة والعرش سبعون ألف حجاب من نور وحجاب من ظلمة "[3]، وقيل أن العرش قبلة لأهل السماء كما أن الكعبة قبلة لأهل الأرض.

قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [4]، يعني الطائفين به وهم الكروبيون وهم سادات الملائكة، قال وهب بن منبه: " إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة، صف خلف صف يطوفون بالعرش، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضا كبر هؤلاء وهلل هؤلاء، ومن ورائهم سبعون

---

[1] "تفسير البغوي"، (106/4).

[2] "تفسير البغوي"، (106/4).

[1] بلفظ آخر، انظر: "سنن أبي داود"، كتاب: السنة، باب: في الجهمية، رقم : 4727، (232/4)، قال أبو داود: سكت عنه، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

[2] "تفسير البغوي"، (106/4).

[3] المصدر نفسه.

[4] غافر: 7.

ألف صف، قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم، فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا : سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا إله غيرك أنت الأكبر والخلق كلهم إليك راجعون، ومن وراء هؤلاء مائة صف من ملائكة قد وضعوا اليمين على الشمال، ليس منهم أحد إلا يسبح بتسبيح لا يشبه الآخر، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام، وما بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه أربعمائة عام، واحتجب الله عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاب من نار وسبعين حجاب من ظلمة وسبعين حجاب من نور وسبعين حجاب من ثلج وسبعين حجاب من ماء وسبعين حجاب من برد وما لا يعلمه إلا الله تعالى" [1]. والمحجوب بهذه الحجب إنما هم الملائكة حجبهم بها، وأما الله فتعالى أن يحجبه شيء لأنه المحيط بكل شيء، وهذه الحجب كلها دلائل على عظمته وكبريائه تعالى.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2]، أي ينزهون الله عما لا يليق بجلاله، والتحميد هو الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي يصدقون بأنه واحد لا شريك له، وفائدة ذكر إيمانهم التنبيه على شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه.

ولما كان الله عز وجل محتجبا عنهم بحجب جلاله وكماله وصفهم بالإيمان به، قال شهر بن حوشب[3] :" حملة العرش ثمانية، فأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك"[4].

---

[1] "تفسير الخازن"، (69/4).

[2] غافر: 7.

[3] شهر بن حوشب الأشعري: فقيه قارئ، من رجال الحديث، شامي الأصل سكن العراق، وكان يتزيا بزيّ الجند، ويسمع الغناء بالآلات، وولي بيت المال مدة وهو متروك الحديث، ومن الأمثال: خريطة شهر يضرب فيما يختزله القراء والفقهاء من خرائط الودائع وأموال الناس، (ت 100 هـ / 718 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: شهر بن حوشب، (178/3).

[4] "تفسير الخازن"، (69/4).

وكانت ذنوب بني آدم وحسناتهم تتجلى لهم في ساق من سوق العرش، فهم أبدا يستغفرون للمؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي يسألون الله المغفرة لهم، وهذا الاستغفار من الملائكة مقابل لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[1]، فلما صدر هذا القول منهم أولا تداركوه بالاستغفار لهم ثانيا، وهو كالتنبيه لغيرهم، فيجب على كل من تكلم في أحد بشيء يكرهه أن يستغفر له.

ثم حكى سبحانه قول حملة العرش فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[1]، أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، وفيه تنبيه على تقديم الثناء على الله بما هو أهله قبل المطلوب بالدعاء، فلما قدموا الثناء على الله عز وجل قالوا: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾، أي دينك، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. قال مطرف[2]: " أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، وأغش الخلق إلى المؤمنين الشياطين" [3].

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [4]، قيل إذا دخل المؤمن الجنة، قال: أين أبي؟، أين أمي؟، أين ولدي؟، أين زوجتي؟، فيقال له: إنهم لن يعملوا عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة، فإذا اجتمع بأهله في الجنة كان أكمل لسروره ولذته. ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [5]، أي عقوبات

---

[1] البقرة: 30.

[1] غافر: 7.

[2] محمد بن أحمد بن مطرف الكناني، أبو عبد الله: ، من القراء من أهل قرطبة، له " كتاب القُرطين " جمع فيه بين كتابي " غريب القرآن " و " مشكل القرآن " لابن قتيبة، (ت 454 هـ – 1062 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن مطرف، (314/5).

[3] "تفسير الخازن"، (69/4).

[4] غافر: 8.

[5] غافر: 9.

السيئات بأن تصونهم عن الأعمال الفاسدة التي توجب العقاب، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ [1]، أي تقيه في الدنيا، ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾، في القيامة، ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، أي النعيم الذي لا ينقطع في جوار ملك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وجلاله.

ومن الجائز تكليف الله تعالى عباده بما لا يطيقون، لكن ذلك الجائز قد تفضل الله على هذه الأمة برفعه عنها بحرمة نبيها وتسليم سلفها كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [1]، وهذا يتناول أن حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يتمكن الإنسان من دفعها، فالمؤاخذة بها تجري مجرى ما لا يطاق. وأجيب عن هذا بأن الخواطر الحاصلة في القلب منها ما يوطن الإنسان عليه ويعزم على إظهاره إلى الوجود، فهذا مما يؤاخذ الإنسان عليه، والثاني ما يخطر بالبال ولا يمكنه دفعه عن نفسه ولكن يكرهه ولا يعزم على فعله ولا إظهاره إلى الوجود، فهذا معفوٌ عنه بدليل قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [2]. وقال قوم هذه الآية خاصة ثم اختلفوا في وجه تخصيصها، فقال بعضهم هي متصلة بالآية التي قبلها، وإنما نزلت في كتمان الشهادة، ومعناها على التأويل إن تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة، أو تخفوه أي تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله، وهذا التأويل ضعيف لأن اللفظ عام وإن كان واردا عقب قضية فلا يلزم صرفه إليها، وقال بعضهم أن الآية نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين، والمعنى وإن تبدوا أي تظهروا ما في أنفسكم من ولاية الكفار، أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به الله، وهذا التأويل أيضا ضعيف. وذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية عامة ثم اختلفوا، فقال قوم هي منسوخة بالآية التي بعدها، ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ:

---

[1] غافر: 9.

[1] البقرة: 284.

[2] البقرة: 286.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾[1] الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، ثم قالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد نزلت عليك آية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم، سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1]، فلما جعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ ، قال : « نعم » ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾، قال : « نعم »، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، قال: « نعم »[3]، أخرجه مسلم. وله عن ابن عباس نحوه وفيه: « قد فعلت » بدل نعم[4]. ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها ما لم يعملوا به ويتكلموا » [5]، وفي رواية: « وما وسوست به صدورها »[6]. وقال قوم أن الآية غير منسوخة، لأن النسخ لا يرد إلا على الأمر والنهي ولا يرد على الإخبار وقول الله تعالى: ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [7]، خبر فلا يرد عليه النسخ، ثم اختلفوا في تأويلها، فقال

---

[1] البقرة: 284.

[1] البقرة: 285.

[2] البقرة: 286.

[3] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان قوله تعالى "وإن تبدوا ما في أنفسكم" الآية، رقم: 125، (115/1).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: بيان قوله تعالى "وإن تبدوا ما في أنفسكم" الآية، رقم: 126، (116/1).

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس، رقم: 127، (116/1).

[6] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: العتق، باب: الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق، رقم: 2528، (145/3).

[7] البقرة: 284.

قوم قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1]، وليس لله عبد أسر عملا وأعلنه من حركة جارحة أو همة قلب إلا يعلمه الله ثم يخبر به ويحاسبه عليه، ثم يغفر ما يشاء بما يشاء، وقال آخرون في معنى الآية أن الله تعالى يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم وأخفوه ويعاقبهم عليه، غير أن معاقبتهم على ما أخفوه أخف ما لم يعملوا به، وهو ما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التي يحزنون عليها، وهذا قول عائشة عن أميمة أنها سألت عائشة عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[1]، وعن قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[2]، فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: « هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة، حتى البضاعة يضعها في كم قميصه فيفقدها فيفزع لها، حتى إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير»[3] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب، وله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وإن أراد الله بعبد شرا أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه يوم القيامة»[4]. وقال قوم في معنى الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [5] يعني مما غرمتم عليه، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فلا تبدوه وأنتم عازمون عليه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [6]، فأما حديث النفس مما لم يعزموا عليه فإن ذلك مما ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [7]، ولا يؤاخذ عليه.

---

[1] البقرة: 225.

[1] البقرة: 284.

[2] النساء: 123.

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: التفسير، باب: سورة البقرة، رقم: 2991، (71/5)، وقال الترمذي: ح س غريب، وقال الألباني: ضعيف الإسناد.

[4] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: 2396، (179/4)، وقال الترمذي: ح س غريب من هذا الوجه، وقال الألباني: ح س.

[5] البقرة: 284.

[6] البقرة: 284.

[7] البقرة: 286.

قال عبد الله بن المبارك: " قلت لسفيان أيؤاخذ الله العبد بالهمة؟، قال: إذا كانت عزما أخذ بها "، وقيل معنى المحاسبة الإخبار والتعريف، فيرجع معنى هذه المحاسبة إلى كونه تعالى عالما بكل ما في الضمائر والسرائر مما أظهر أو أخفى، ومعنى الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾[1] فتعملوا به، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ مما أضمرتم ونويتم، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾أي يخبركم به ويعرفكم إياه، ثم ﴿فَيَغْفِرُ﴾ للمؤمنين إظهارا لفضله، ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ الكافرين إظهارا لعدله. يروى عن ابن عباس أنه قال: " ويدل عليه أنه قال يحاسبكم به الله، ولم يقل يؤاخذكم به الله، لأن المحاسبة غير المؤاخذة "[1]، ويدل عليه أيضا ما روي عن صفوان بن محرز المازني[2] أنه قال: " بينما عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عبد الرحمان أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، تعرف ذنب يوم كذا؟، فيقول: أعرف رب، فيقول: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسابه، وأما الآخرون والكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »[3]، أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[4] على الذنب الصغير، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[5] ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]، يعني أنه تعالى قادر على كل شيء كامل القدرة، فيغفر للمؤمنين فضلا ويعذب الكافرين عدلا، ثم قال تعالى:

---

[1] البقرة: 284.

[1] "تفسير البغوي"، (400/1).

[2] صفوان بن محرز المازني البصري: تابعي من الثقاة، حدث عن أبي موسى الأشعري وعمران بن حصين وغيرهم، (ت74 هـ/693 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: صفوان بن محرز المازني، (286/4).

[3] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المظالم والغصب، باب: قول الله تعالى:" ألا لعنة الله على الظالمين"، رقم :2441، (128/3).

[4] البقرة: 284.

[5] الأنبياء: 23.

[6] الحشر: 6.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [1]، قال الزجاج: " لما ذكر الله في هذه [السورة] [2] فرض الصلاة والزكاة والصوم والطلاق والإيلاء والحيض والجهاد وأقاصيص الأنبياء وما ذكر من كلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبينا والمؤمنين بجميع ذلك "[3] . ومعنى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ صدق الرسول، يعني محمدا ﷺ، والمعنى صدق الرسول أن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزل من عند الله عز وجل، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي وصدق المؤمنون بذلك أيضا، كل واحد من المؤمنين ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضروريته. فأما الإيمان فهو أن يومن بالله واحد أحد لا شريك له ولا نظير له، ويومن بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأنه حي عالم قادر على كل شيء، وأما الإيمان بالملائكة فهو أن يومن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون، وأنهم السفرة الكرام البررة، وأنهم الواسطة بين الله تعالى وبين رسوله. وأما الإيمان بالكتب فهو أن يومن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله إلى رسله أنها حق وصدق من عند الله تعالى بغير شك ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغير، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسل وهو أن يومن بأنهم رسل الله إلى عباده وأمناؤه على وحيه وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق، وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[1] ، وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر وهو إثبات نبوة الأنبياء، والرد على اليهود والنصارى الذين يقرون بنبوة موسى وعيسى وينكرون محمد ﷺ، وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ

---

[1] البقرة: 285.

[2] في(ب): الصورة.

[3] انظر: "الجامع لأحكام القرآن" لشمس الدين القرطبي، (426/3).

[1] البقرة: 285.

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[1]، ومعنى قوله: ﴿ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فنومن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نومن بجميع رسله، وفي الآية إضمار تقديره وقالوا، يعني المؤمنين، ﴿لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾[2]، أي سمعنا قولك وأطعنا أمرك، والمعنى قال المؤمنون سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به، وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾، أي اغفر لنا ربنا غفرانك، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي وإليك مرجعنا ومعادنا فاغفر لنا ذنوبنا.

روي عن حكيم بن جابر أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له: إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك فاسأل تعطه، فسأل بتلقين الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾[2]، أي طاقتها، والوسع اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، قال ابن عباس وأكثر المفسرين أن هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة وذلك أنه لما نزلت[﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾][3] "[4] ضج المؤمنون منها وقالوا: يا رسول الله نتوب من عمل اليد والرجل واللسان، فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس؟، فنزلت هذه الآية[5]. والمعنى أنكم لا تستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسة وحديث النفس حيث كان ذلك مما لا تطيقونه، وقال ابن عباس في رواية عنه : " هم المؤمنون خاصة، وسع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم ما لا يستطيعون، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ

---

[1] البقرة: 253.

[2] البقرة: 285.

[1] البقرة: 285.

[2] البقرة: 286.

[3] في (ب): خطأ من الناسخ: إن تخفوا ما في أنفسكم أو تبدوه.

[4] البقرة: 284 .

[5] "تفسير الخازن"، (220/1).

وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [2] " [3]. وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [4] قال: " إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها "[5]، وهذا قول حسن لأن الوسع ما دون الطاقة، وقيل معناه أن الله تعالى لا يكلف نفسا يستعبدها بما لا تطيق، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير، أي أجره وثوابه، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر، أي عليها وزره وعقابه، وفي معنى الآية أن الله تعالى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره.

قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين كيف يدعونه، ومعناه قالوا ربنا لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا، وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد لأن المسيء قد أمكن من نفسه وجعل السبيل إليها بفعله، فكأنه ادعى إليها بما يعاقبه بذنبه ويأخذه به، ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه من النسيان الذي هو ضد السهو، وهو ضد التذكر، لأن بني إسرائيل كانوا إذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطأوا عجلت عليهم العقوبة، فيحرم الله عليهم شيئا مما كان حلالا لهم من مطعم ومشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك، فإن قيل أليس فعل الناسي في محل العفو بدليل قوله ﷺ: « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1]، فإذا كان النسيان في محل العفو قطعا فما معنى طلب العفو عنه بالدعاء؟، فالجواب عنه من وجوه الأول أن النسيان على ضربين:

أما الأول: فهو ما كان من العبد على وجه التضييع والتفريط، وهو ترك ما أمر بفعله كمن رأى على ثوبه دما فأخر إزالته عنه ثم نسي فصلى فيه وهو في ثوبه فإنه يعد مقصرا، إذ كان

---

[1] البقرة: 185.

[2] الحج: 78.

[3] "تفسير الخازن"، (220/1).

[4] البقرة: 286.

[5] تفسير الخازن، (220/1).

[1] بلفظ آخر، "سنن ابن ماجة"، كتاب:الطلاق، باب: طلاق المكره، رقم: 2043،(659/1)، قال الأرنؤوط: إسناده تالف.

تلزمه المبادرة إلى إزالته، أما إذا لم يره فإنه يعذر فيه، وكذا لو ترك ما أمر بفعله على وجه السهو وارتكب منهيا عنه من غير قصد إليه كأكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نهي عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة، ولقد اعتذر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [1].

وأما الضرب الثاني: فهو كمن ترك الصلاة ثم نسيها، فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه لأنه فرط أولا، فثبت أن النسيان على قسمين، وإذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان.

الوجه الثاني: من الجواب أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا من المتقين لله حق تقاته، فإن صدر منهم ما لا ينبغي فلا يكون إلا على سبيل السهو والنسيان، فطلبهم العفو والغفران لما يقع منهم على سبيل السهو والنسيان إنما هو لشدة خوفهم وتقواهم.

الوجه الثالث: أن المقصود من هذا الدعاء إنما هو إظهار الفاقة والضراعة والتذلل بين يدي الله تعالى.

وأما الخطأ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [1] فعلى وجهين أيضا:

أحدهما: أن يأتي العبد ما نهي عنه بقصد وإرادة، فذلك خطأ منه وهو به مؤاخذ، فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه.

الوجه الثاني: أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن بأن له فعله كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل وهو في يوم غيم فأخرها حتى خرج وقتها فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد فصار طلب العفو والغفران لأجل تقصيره لأنه لم يقع منه ذنب.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾، أي عهدا ثقيلا وميثاقا غليظا فلا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [2] يعني اليهود فلم يقوموا به فعذبتهم

---

[1] طه: 115.

[1] البقرة: 286.

[2] البقرة: 286.

عليه، وقيل معناه ولا تشدد علينا كما شددت على اليهود قبلنا، وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة منهم قطعه، ومن أصاب ذنبا أصبح وذنبه مكتوب على بابه، ونحو هذا من الأثقال والآصار التي كتبت عليهم، فسأل المؤمنون ربهم أن يعصمهم من مثل هذه التغليظات والعهود الثقيلة، وقد أجاب الله تعالى دعاؤهم برحمته وخفف عليهم بفضله وكرمه فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [1]، وقيل إلا من ذنب لا توبة، فسأل المسلمون ربهم أن يعصمهم من مثله، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [2] أي لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به لثقل حمله علينا. وتكلف ما لا يطاق على قسمين:

أحدهما: ما ليس في قدرة العبد احتماله كتكليف الأعمى والزمن العدو، فهذا النوع من التكليف الذي لا يكلف الله به عبده بحال.

القسم الثاني: من تكليف ما لا يطاق هو مالا قدرة للعبد على احتماله إلا مع المشقة الشديدة والكلفة العظيمة الفادحة، كتكليفه الأعمال الشاقة والفرائض الثقيلة كما كان في ابتداء الإسلام من إيجاب قيام الليل كله أو جله، فهذا هو الذي يسأل المؤمنون ربهم أن لا يحملهم مالا طاقة لهم به، واستدل بهذه الآية من يقول أن تكليف ما لا يطاق جائز إذ لو لم يكن جائزا لما حسن طلب تخفيفه في الدعاء من الله تعالى.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ هو حديث النفس والوسوسة كما مر، وقيل منه هيجان الغلمة والحب وشماتة الأعداء، وقيل هو الفرقة والقطيعة، وقيل هو المسخ قردة وخنازير نعوذ بالله من ذلك كله. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي تجاوز عن ذنوبنا وامحها عنا.

---

[1] الحج: 78.

[2] البقرة: 286.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضح بنا. ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾[1] أي تغمدنا برحمة تنجينا بها من عقابك فإنه ليس ناج من عقابك إلا من رحمته، فإنا لا ننال العمل إلا بتوفيقك، ولا نترك معصيتك إلا برحمتك، وأصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وإذا وصف بها الله تعالى فليس يرد بها إلا الإحسان المجرد والتفضيل على العباد دون الرقة، فطلب العفو هو أن يسقط عنه عقاب ذنوبه، وطلب المغفرة هو أن يسترها عليه صونا له من الفضيحة، فكان العبد يقول: أطلب منك العفو، وإذا عفوت عني فاستره علي، فإذا عفا الله تعالى عن العبد وستره طلب الرحمة التي هي الإنعام والإحسان أن يفوز بالنعيم والثواب، ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ووليا ومتولي أمرنا، ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1] أي الجاحدين الذين عبدوا غيرك وجحدوا وحدانيتك. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ قال: " قد غفرت لكم". وقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾، قال: " لا أؤاخذكم "، ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾، قال:" لا أحمل عليكم"، ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾، قال:" ولا أحمل عليكم ما لا طاقة لكم به، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، قال:" قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين". وكان معاذ إذا ختم سورة البقرة قال: "آمين"، ومن حديث عبد الله بن مسعود انه قال أسري برسول الله ﷺ حتى انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي من يهبط من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾[2]، قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وخواتم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك من أمته شيئا المقحمات[3]. قوله:" المقحمات "، الذنوب العظام التي تولج مرتكبها النار وأصل

---

[1] البقرة: 286.

[1] البقرة: 286.

[2] النجم: 16.

[3] ح ص، بلفظ قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى، رقم:173، (157/1).

الاقتحام الولوج. وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه »[1]، وعناه من كل ما يجد ومن كل هامة وشيطان، فلا يقربه تلك الليلة، وقيل كفتاه من قيام الليل. ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بينما رسول الله ﷺ عنده جبريل عليه السلام إذ سمع نفيضا من فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[1]، رواه مسلم في صحيحه. وعن النعمان بن بشير[2] عن النبي ﷺ أنه قال:«إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[3]، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

[باب في ذكر محاجة النبي ﷺ وفد نجران في وحدانية الله ونفي الشريك والولد عنه]

أجمع كل الصحابة أن وفد أهل نجران قدم على النبي ﷺ لما دوخ العرب وكانوا ستين راكبا، وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وهم نصارى نجران، منهم ثلاثة نفر يئول أمرهم وهم العقاب واسمه عبد المسيح وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن أمره، والسيد واسمه الأيهم وهو ثمالهم، وثمال القوم غياثهم وقوامهم وصاحب رحلهم الذي يقوم بأمر طعامهم وشرابهم، وأبو حارثة بن علقمة وهو سقفهم وحبرهم، وكانت ملوك الروم تكرمه لما بلغهم من علمه واجتهاده في دينهم، فدخلوا مسجد رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي العصر وعليهم

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم ير بأسا أن يقول: سورة البقرة، رقم:5040، (194/6).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم:806،(554/1).

[2] النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الله: أمير وخطيب و شاعر من أجلاء الصحابة، من أهل المدينة، له 124 حديثا، وجّهته نائلة (زوجة عثمان) بقميص عثمان، إلى معاوية، فنزل الشام وشهد " صفين " مع معاوية، وولي القضاء بدمشق، بعد فضالة بن عبيد سنة 53 هـ وولي اليمن لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة تسعة أشهر وعزله وولاه حمص، (ت 65 هـ / 684 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: النعمان بن بشير، (36/8).

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في آخر سورة البقرة، رقم:2882، (9/5)، قال الترمذي: ح غ.

ثياب الحبرات [جبب] [1] وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب يقول من رآهم ما رأينا وفد مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: «دعوهم»، فصلوا إلى الشرق، فلما فرغوا كلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ، فقال لهما:«أسلما»، فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: « كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولدا وعبادتكم الصليب وأكلكم الخنزير »، قالا: إن لم يكن عيسى ولدا لله، فمن أبوه، وخاصموه جميعا في عيسى، فقال لهم النبي ﷺ: « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدا لا يشبه أباه »، قالوا: بلى، قال: « ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الموت »، قالوا: بلى، قال: « ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يحفظه ويرزقه »، قالوا: بلى، قال: « فهل يملك عيسى من ذلك شيئا »، قالوا: لا، قال: « ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء »، قالوا: بلى، قال: « فهل يعلم عيسى من إلا ما علم »، قالوا: لا، قال: « ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ووضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث»، قالوا: بلى، قال: « فكيف يكون إلها كما زعمتم» ، فسكتوا، فأنزل الله سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، زاد بعضهم فقالوا: يا محمد ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه، قال: «بلى »، قالوا : حسبنا، ثم أبوا إلا جحودا، فأنزل الله رادا عليهم: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[1]"[2]، والمعنى إن كانت منازعتكم يا معشر النصارى في معرفة الإله، فهو الله لا إله إلا هو الحي القيوم، فكيف تثبتون له ولدا، فبين تعالى أن أحدا لا يستحق العبادة سواه، لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد، ثم أتبع ذلك بما يجري مجرى الدلالة عليه فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[3]، فهو الدائم الباقي الذي لا يصح في حقه الموت، وأما القيوم فهو القائم بذاته والقائم بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون

---

[1] في (ب): حبب.

[1] آل عمران: 1 – 2.

[2] "تفسير الخازن"، (223/1).

[3] آل عمران: 1 – 2.

إليهفي معاشهم ومعادهم، ولما أصروا على كفرهم بعدما قامت عليهم الحجة من أنفسهم زاده في الاحتجاج عليهم فأنزل تعالى:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] أجمع أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، قال ابن عباس: " إن وفدا من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا للنبي ﷺ: « ما شأنك تذكر صاحبنا؟ »، فقال: « من هو؟»، قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله، فقال النبي ﷺ: « أجل، إنه عبد الله »، فقالوا له : فهل رأيت له مثلا أو أنبئت به، ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل عليه السلام فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾"[1]، وقيل أن النبي ﷺ قال لهم: « إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: يا محمد هل رأيت الإنسان قط من غير أب، فأنزل الله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، في كونه خلقه من تراب من غير أب ولا أم، ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة آدم خلقه من تراب لا من أب ولا من أم، فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب اليابس فهو أبلغ في القدرة، فلم لا يقر بأن الله خلق عيسى بن مريم من غير أب، بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب، وتم الكلام عند قوله آدم لأنه تشبيه كامل، ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، فهو مستأنف على جهة التفسير بحال خلق آدم في كونه من تراب، أي قدره جسدا من طين، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾، أي أنشأه خلقا بالكلمة وكذلك عيسى أنشأ خلقه بالكلمة، فعلى هذا ذكروا في الآية إشكالا، وهو أن الله تعالى قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [2]، فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدما على قوله كن ولا تكوين بعد الخلق، فالجواب عن هذا الإشكال هو أن الله تعالى أخبر أنه خلقه من تراب، لا من ذكر وأنثى، ثم ابتدأ خبرا آخر إني أخبركم أيضا

---

[1] آل عمران: 59 .

[1] "تفسير الخازن"، (253/1)، ذكرها الشوكاني في: "فتح القدير"، (398/1)، وقال: رويت هذه القصة على وجوه.

[2] آل عمران: 59.

أني قلت له كن، وكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى خلق جسدا من تراب، ثم قال له كن بشرا فكان فصح النظم، وقيل الضمير في قوله كن يرجع إلى عيسى عليه السلام وعلى هذا فلا إشكال. فإن قيل: كيف شبه عيسى بآدم وقد وجد عيسى من غير أب، وأوجد آدم من غير أب ولا أم؟، فالجواب عن ذلك: أنه مثله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر، ثم تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران، لأن وجوده من غير أب ولا أم أغرب في العادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وحكي أن بعض العلماء أسر في بعض بلاد الروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى، قالوا: لأنه لا أب له، قال: فآدم أولى بذلك، لأنه لا أب له ولا أم، قالوا: وكيف يحيي الموت، فقال: حزقيل أولى بالعبادة منه، لأن عيسى أحيى أربعة نفر، وأحيى حزقيل أربعة آلاف، قالوا: وكيف يبرئ الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى بالعبادة منه، لأنه طبخ وحرق ثم قام سليما.

قوله: ﴿كُنفَيَكُونُ﴾ [1]، قال ابن عباس: " معناه كن، فكان أريد بالمستقبل الماضي "[2]، وقيل معناه ثم قال له كن. واعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة، ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[3]، الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، من الشاكِّين إن ذلك ليس كذلك، وهذا خطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، لأنه ﷺ لم يشك قط فهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [4]، والمعنى فلا تكن من الممترين، يأيها السامع كائنا ما كان لهذا التمثيل والرهان الذي ذكر فهو من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة. قوله تعالى:

---

[1] آل عمران: 59.

[2] "تفسير الخازن"، (254/1).

[3] آل عمران: 60.

[4] الطلاق: 1.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ [1]، أي فمن جادلك في عيسى، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، بأن عيسى عبد الله ورسوله، ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾، أي هلموا، والمراد منه المجيء والعزم، ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾، أي يدع كل منا ومنكم أبناءه، ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾، أراد بالأبناء الحسن والحسين، وبالنساء فاطمة، وبالنفس نفسه ﷺ وعليا رضي الله عنه، ﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾، قال ابن عباس:" نتضرع في الدعاء ونجتهد ونبالغ"[1]، ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، يعني منا ومنكم في أمر عيسى. فلما قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدا، فلما خلا بعضهم إلى بعض قالوا للعاقب وكان كبيرهم وصاحب رأيهم: ما ترى يا عبد المسيح، قال: لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبي مرسل، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن، فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أتيتم عليه القول في صاحبكم، فودعوا الرجل وانصرفوا عنه إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ، وقد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعلي يمشي خلفها، والنبي ﷺ يقول لهم: « إذا دعوت فأمنوا »، فلما رآهم أسقف نجران [قال][2]: يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، قالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا أن لا نبتهلك وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا، فقال لهم رسول الله ﷺ: « قد أبيتم المباهلة، فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم »، فأبوا ذلك، فقال: « فإني أنابذكم »، فقالوا: مالنا بحرب العرب من طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، وأن نؤدي إليك في كل سنة ألف أحلة في صفر، وألفا في رجب، وثلاثا وثلاثين درعا عادية، وثلاثا وثلاثين فرسا غازية، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال: « والذي نفسي بيده أن العذاب لقد تدلى على أهل نجران، ولولا عنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولأضرم عليهم نارا،

---

[1] آل عمران: 61.

[1] "تفسير الخازن"، (254/1).

[2] في (ب) : قالوا.

ولاستأصل الله بنجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا »[1]. فإن قيل: ما كان دعاه النبيﷺ إلى المباهلة إلا لتبين الصادق من الكاذب منه ومن خصمه، وذلك يختص به وبمن بَاهَلَهُ، فما معنى ضم الأبناء والنساء في المباهلة؟، فالجواب عن ذلك: أن ذلك أكد في الدلالة على ثقته في حاله ويقينه بصدقه، حيث تجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه، فلذلك ضمنهم في المباهلة ولم يقتصر على تعريض نفسه في ذلك، وعلى ثقته بكذب خصمه، حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك استئصال إن تمت المباهلة، وإنما خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، وإنما قدمهم في الذكر على النفس لينبه بذلك، وعلى رفعة مكانهم وقرب منزلتهم من رسول الله، وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوة محمد ﷺ، لأنه لم ير واحدا من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم، فلذلك امتنعوا من المباهلة بعلمهم بما يصيبهم من المكروه عقب مباهلتهم.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [1]، أي إن الذي قصصنا عليك يا محمد من خبر عيسى وأنه عبد الله، ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إنما دخلت "من" لتوكيد النفي، والمعنى أن عيسى ليس بإله كما زعمت النصارى، ففيه رد عليهم ونفي جميع ما ادعى منى المشركين أنهم آلهة، وإثبات الإلهية لله تعالى وحده لا شريك له في إلهيته. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادعى معه إلها آخر. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره، فيه رد أيضا على النصارى، لأن عيسى لم يكن كذلك. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [2]، بأن أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة

---

[1] ح ر، انظر: "تفسير الخازن"، (254/1).

[1] آل عمران: 62.

[2] آل عمران: 63.

غيره، وفيه وعيد وتهديد لهم. ثم عم جميع النصارى بالدعوة، فبعث إلى ملكهم الذي ينتهي إليه ملكهم وعلمهم وهو قيصر، كتابه يدعوه إلى الإسلام مع دحية بن خليفة الكلبي[1]، ونصه: «بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [2].

ولما كان لا دليل ولا برهان يبرئ العليل ويروي الغليل إلا في كتاب الله تعالى، دعا إلى معرفته والاكتفاء به عن جميع خلقه من الإنس، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[3]، فهو على العموم، ويريد بالموعظة القرآن. والوعظ في اللغة زجر مقترن بتخويف وتذكير بالخير فيما يرق له القلب، والإنابة إلى ما يدعوا إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة، والقرآن داع على كل خير وصلاح، وعلى هذا المعنى جعل الله شفاء لما في الصدور، فقال: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، يعني أن القرآن دواء وشفاء لما في القلوب من داء الجهل، وذلك أن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن، وأمراض القلب هي الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة، فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها لما اشتمل عليه من التوحيد المحض الذي لا شك فيه ولا ريب مع الموعظة والزجر والتخويف، والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير، فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية، وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وحجابه، وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه، ولذلك قال الرسول عليه

---

[1] دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي: صحابيّ، بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى (قيصر) يدعوه للإسلام، وحضر كثيرا من الوقائع وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وشهد اليرموك فكان على كردوس ثم نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى حكم معاوية، (ت نحو 45 هـ / 665 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: دحية الكلبي، (337/2).

[2] آل عمران: 64.

[3] يونس: 57.

الصلاة والسلام: « في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »[1]، وفي حديث آخر: « إن الجوارح تناشد القلب كل صباح ومساء فتقول له: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت [اعوججنا][2] » [3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [4]، إلى غير ذلك من الآيات.

ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾[5]، من الضلالة لمن فهمه وعمل به، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي ونعمة على المؤمنين، لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن دون غيرهم.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [6]، قال ابن عباس والحسن وقتادة: " فضل الله الإسلام ورحمته القرآن "[7]، وقال أبو سعيد الخدري: " فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله " [8]، وقال صاحب الكشاف: " إن فرحوا بشيء، فليخصوا هذا الفرح بفضل الله ورحمته، فإنه لا مفروح به أحق منهما بالفرح" [9]. والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهى، يقال فرحت بكذا إذا أدركت المأمول، وكذلك أكثر ما يستعمل فيما يرغب فيه من الخيرات، ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته لما أتاهم القرآن به من المواعظ ورحمته أن جعلنا من أهله، وقال ابن عمر: " فضل الله الإسلام، ورحمته الجنة"[1]،

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم: 52، (20/1).

[2] في (ب) : اعوجنا.

[3] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان، رقم: 2407، (184/4)، قال الترمذي: هذا حديث، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد، ولم يرفعوه، وقال الألباني: ح س.

[4] ق: 37.

[5] يونس: 57.

[6] يونس: 58.

[7] "تفسير الخازن"، (449/2).

[8] المصدر نفسه.

[9] انظر: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" للزمخشري، المسمى: (تفسير الزمخشري)، (353/2).

[1] "تفسير الخازن"، (449/2).

وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن، فعلى هذا تكون الفاء في بفضل الله متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله ورحمته.

[فصل في ذكر الأولياء وما يجب من تبجيلهم وتعظيمهم والتصديق لهم]

فلا يتم الإيمان إلا بذلك وأنهم من الله بمكان كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1]. وقد اختلف العلماء ما المستحق لهذا الاسم، فقال ابن عباس في هذه الآية:" هم الذين يذكر الله لرؤيتهم " [2]، وروى الطبراني بسنده عن سعيد بن جبير أنه قال: سئل رسول الله ﷺعن أولياء الله، قال: « هم الذين إذا ذكروا ذكر الله »[3]، وقال زيد: "هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، ولم يتقبل الله الإيمان إلا بالتقوى" [4]، وقال قوم: هم المتحابون في الله، كما يدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال:" قال رسول الله ﷺ: « إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله »، قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟، قال: « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس »، ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [5] " [6]، أخرجه أبو داود. ومن حديث أبي هريرة أنه قال: قال رسول اللهﷺ: « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: اليوم أظلهم يوم لا ظل إلا ظلي »[1]، أخرجه مسلم في صحيحه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: سمعت رسول الله ﷺيقول:

---

[1] يونس: 62.

[2] "تفسير الخازن"، (450/2).

[3] بلفظ آخر، انظر: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" للألباني، (311/4)، وقال: له عدة شواهد تقويه.

[4] تفسير الخازن"، (450/2).

[5] يونس: 62 .

[6] "سنن أبي داود"، كتاب: البيوع، باب: في الرهن، رقم: 3527،(288/3)، قال الأرنؤوط: ح ص، وإسناده فيه انقطاع.

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله، رقم: 2566، (1988/4).

«المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »[1] أخرجه الترمذي. وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: « إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة »، قال: وفي ناحية القوم أعرابي، فجثي على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدثنا يا رسول الله من هم، قال: فرأيت في وجه رسول الله ﷺ البشر، فقال: « هم عباد من عباد الله، ومن بلدان شتى وقبائل شتى، لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتبادلونها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمان، يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون »[2]. ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: « قال الله تعالى: إن عبادي من أوليائي الذين يذكرون بذكري، وأذكركم بذكرهم »[3]، هكذا ذكر البغوي بغير سند، وروى الطبراني بسنده عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء »، قيل: من هم يا رسول الله؟، لعلنا نحبهم، قال: « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال، وجوههم نور وعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4] "[5]. الغبطة نوع من الحسد، إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة، والفرق بين الحسد والغبطة هو أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها، والغبطة هو أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه.

---

[1] "سنن الترمذي"، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في الحب في الله، رقم:2390، (175/4)، وقال الترمذي: ح س، وقال الألباني: ح ص.

[2] ورد بلفظ آخر، "المعجم الكبير"" للطبراني، باب: شهر بن حوشب عن أبي مالك، رقم :3433، (90/3)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: حديث أبي مالك الأشعري، رقم: 22906، (540/37)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[3] "تفسير البغوي"، (424/2).

[4] يونس: 62 .

[5] بلفظ آخر، انظر: "مسند أبي يعلى"، باب: مسند أبي هريرة، رقم :6110، (495/10)، وورد في "صحيح ابن حبان"، باب: ذكر وصف المتحابين في الله، رقم: 573، (332/2)، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريجه للحديث: إسناده صحيح.

قال أبو بكر الأصم[1]: " أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم، وتولوا القيام بحق العبودية لله، والدعوة إليه"[2]، وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة، فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه ويكون مشتغلا بالله، مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله، فإن رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في طاعة الله، ولئن اجتهد اجتهد في ما يقربه من الله، لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى قلبه غير الله، فهذه صفة أولياء الله، وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]. وقال المتكلمون: ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، ويكون آتيا بالأعمال الصالحات على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [4]، وهو أن الإيمان مبني على جميع الاعتقادات والعمل، ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كلما نهى الله عنه، ﴿لَاخَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾[5]، يعني في الآخرة إذا خاف غيرهم، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها. قال بعض المحققين: زوال الخوف والحزن عنهم إنما يحصل لهم في الآخرة، لأن الدنيا لا تخلوا عن هم وغم وأنكاد وحزن، قال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله، وإذا كان العبد بهذه الحالة فإنه لا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء، لأن مقام الولاية والمعرفة منعاه من أن يخاف ويحزن.

---

[1] عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم: فقيه معتزلي مفسر، قال ابن المرتضى: كان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم، خلا أنه كان يخطّئ عليا عليه السلام في كثير من أفعاله ويصوّب معاوية في بعض أفعاله، (نحو 225 هـ / 840 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن كيسان، (323/3).

[2] "تفسير الخازن"، (451/2).

[3] البقرة: 257.

[4] يونس: 63.

[5] يونس: 62.

ثم أتبع ذلك بذكر ما أتحفهم به تعالى في هذه الدنيا وفي يوم الميعاد فقال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [1]، واختلفوا في هذه البشرى، فروي عن عبادة بن الصامت[2] أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له »[3]، وله عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، قال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها غيرك منذ نزلت: « هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له »[4]، قال الترمذي حديث حسن. ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات »، قالوا: ما المبشرات؟، قال: «الرؤيا الصالحة»[5] أخرجه الشيخان في صحيحيهما. ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »[6] أخرجه البخاري. ولمسلم: « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا»[1]، وفي رواية مسلم: « جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة »[2].

---

[1] يونس: 64

[2] عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي، من الموصوفين بالورع. شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وبدرا وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر وهو أول من ولي القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس، روى 181 حديثا اتفق البخاري ومسلم على ستة منها وكان من سادات الصحابة، (ت 34 هـ / 654 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عبادة بن الصامت، (258/3).

[3] شرح السنة" للبغوي ، كتاب: الرؤيا، باب: تحقيق الرؤيا، رقم:3272، (203/12)، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريجه للحديث: في سنده مجهول وباقي رجاله ثقات.

[4] "سنن الترمذي"، أبواب: الرؤيا، باب: قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا، رقم:2273، (104/4)، وقال الترمذي: ح س، وقال الألباني: ح ص.

[5] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التعبير، باب: المبشرات، رقم:6990، (31/9)، و في: "صحيح مسلم"، كتاب: الصلاة، باب: النهي عن قراءة القرآن في الركوع، رقم: 479، (348/1).

[6] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: التعبير، باب: القيد في المنام، رقم: 7017، (37/9).

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الرؤيا، رقم:2263، (1773/4).

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الرؤيا، رقم: 2263، (1773/4).

والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه.

وقال بعض العلماء، ووجه هذا القول هو أنه إذا حملنا قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[1] على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا يحمل هذه الحالة إلا لهم، وذلك أن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل، ومن كان كذلك فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته، ومن المعلوم أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق، فإذا رأى الولي رؤيا أو أريت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولي. قال الخطابي: " في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها، وإنما هي جزء من أجزاء النبوة في حث الأنبياء دون غيرهم، وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة "[2].

قال الخطابي: " قال بعض العلماء عن الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لأنها جزء من النبوة "[3].

قال الخطابي وغيره في معنى قوله: « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»: "هو أن النبي أقام في النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح، وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي، فهي جزء من ستة وأربعين جزءا "[4]، أو قيل أن المنام ربما يكون فيه إخبار بغيب وهو أحد ثمرة النبوة وهو يسير في جنب النبوة، لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد ﷺ نبيا يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب، فإذا وقع لأحد في المنام من الإخبار بغيب فإن هذا القدر يكون جزءا من النبوة، لا أنه نبي، وإذا وقع كان كذلك لأحد في المنام فإنه يكون صادقا. وقيل في تفسير الآية أن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن، وفي الآخرة

---

[1] يونس: 64.

[2] "تفسير الخازن"، (452/2).

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

الجنة، كما يدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: « تلك عاجل بشرى المؤمن»[1]، أخرجه مسلم.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: " قال العلماء: معنى هذه البشرى المعجلة بالخير هي دليل البشرى المؤخرة في الآخرة، يقال لهم: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2]، فهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنهم ومحبته لهم وتحبيبه إياهم إلى الخلق كما قال: ثم يوضع لهم القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم"[3]. قال بعض المحققين: إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا، فيفيض الله من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع، فيحبه الناس يثنون عليه فتلك عاجل بشرى بمحبة الله له ورضوانه عليه، قال الزهري وقتادة في تفسير البشرى: " هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت " [4]، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [5]، وقال عطاء عن ابن عباس:" في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشره برضوان الله تعالى، قال الحسن: " هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1]، أي لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى لسان رسوله، ولا تغيير لذلك الوعد، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [2]، أي ما وعدهم به في

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: إذا أثني على الصالح فهي بشرى، رقم: 2642، (2034/4).

[2] الحديد: 12.

[3] "تفسير الخازن"، (452/2).

[4] المصدر نفسه.

[5] فصلت: 30.

[1] يونس: 64.

[2] يونس: 64.

الآخرة. وذهب كثير من علماء السلف على أن الكرامات التي تظهر على يدي الأولياء في الدنيا هي عين البشرى لهم، لأنها دلائل على حسن أحوالهم مع الله وحسن اقتدائهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام، وهذا مذهب أهل السنة لاتفاقهم على إثبات كرامات الأولياء خلافا للمعتزلة، وأنه يجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع الوقائع في المستقبل، فيخبر به فيأتي كما أخبر وهي من اطلاع الله إياه على ذلك، ويدل على صحته ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء، وإن يكن منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب »[1]، أخرجه الشيخان وغيرهما.

قال ابن عباس: " المحدث هو الذي تتكلم الملائكة على لسانه"[2]، وقال ابن وهب: "المحدثون الملهمون"[3].

ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « كان في الأمم قبلكم محدثون (بفتح الدال)، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم »[4]، وفي هذا إثبات كرامات الأولياء. فإن قيل: لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي، فالجواب عن ذلك: أن الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي ظاهر ولو اجتمعا في الخارق، لأن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة، مقرون بالتحدي، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي، إذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته، فبان الفرق بين المعجزة والكرامة، وقد يظهر على يد الولي أمر خارق للعادة من غير دعواه وهذا أيضا يدل على ثبوت نبوءة النبي، لأن الكرامة إنما تظهر على يد من هو مصدق برسالة الرسول، محبا متشبثا بأذياله تابعا لسنته، فلو لم تكن

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم:3469، (174/4).

[2] لم أقف عليه.

[3] انظر: "الافصاح عن معاني الصحاح" لابن هبيرة، باب: مسند أبي هريرة، (201/6).

[4] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم: 2398، (1864/4).

نبوءته حقا لما ظهر الخارق على يد تابعه، لأن الكرامات نتائج المعجزات، فكل كرامة لولي فإنها معجزة لنبيه ودليل على صحة نبوءته.

وأما الكاهن فليس بمتبع للرسول، وقد انسد باب الكهانة وبدل أمرها بمبعث الرسول ﷺ، فمن ادعى منهم اطلاعا على الغيب بواسطة جني واعتمد عليه فقد كفر بما جاء به القرآن، لأنه يكون مكذبا له كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [1]، وكذلك حكم المنجم.

قال الشبلي: " من طعن في الولاية أو في الأولياء فإنا نحكم له بالكفر، وإن أظهر الإسلام، فإنه قد جرب وصح أن منكر ذلك لا يموت إلا على سوء الخاتمة والعياذ بالله، إلا أن يكون خارجيا فإن ذلك هو الذي بنوا عليه مذهبهم الفاسد " [2]، وقد اختلف الأئمة في كفرهم وبقائهم على الإسلام إلا مالكا رحمه الله قال بكفرهم لبغضهم لأصحاب رسول الله ﷺ وتحريفهم لنصوص كتاب الله. ووقوع الكرامات لأولياء هذه الأمة فقد بلغ حد التواتر حتى صار عند عامة الأمة وخاصتها كالضروري. فأول أولياء هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه فهو صاحبه عليه السلام بالنصر كما في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [3]، فهو ثانيه في الإسلام وثانيه في الغار وثانيه في الفضل، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ [1]، فالذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أعلم أصحاب رسول الله بتأويل القرآن وتأويل المرائي، وأعلم بأمر رسول الله ﷺ وحقيقته، ودليل ذلك أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

---

[1] الجن: 8.

[2] لم أقف عليه.

[3] التوبة: 40.

[1] الزمر: 33.

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]، فرح بذلك جميع أصحاب رسول الله ﷺ وبكى هو رضي الله عنه، فقالوا: ما يبكيك يا أبا بكر، وقد أنزل الله أنه قد أتمم علينا نعمته وأتم لنا ديننا وارتضانا له وارتضاه لنا، قال لهم: ويلكم، إنكم لا تفقهون أنه ما أتم شيء قط إلا نقص، ولا ينقص الدين إلا بموت رسول الله ﷺ، وإني لأرى هذه الآية نعيه. ولما تساب هو وعقيل غضب النبي ﷺ غضبا شديدا وجعل يقول: « لا تتركوا لي صاحبي، آمن بي حين كفرتم، ولازمني حين فررتم، وصدقني حين كذبتم، وأقبل إلي حين أدبرتم، ووساني بنفسه وماله، وإنه لآمنكم علي في صحبته، وإن أبا بكر لم يفضلكم بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن بشيء وقره الله في صدره ألا وهو النور ألا وهو النور(ثلاثا) »[2]، فما سبه أحد بعدها، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبيا مرسلا، ولو أن إيمانه وزن مع إيمان الأمة كلها لرجحها »[3]، وظهر مصداق ذلك عند موته عليه الصلاة والسلام، فإنه ثبت عند تلك الصدمة التي لا تقوم لها الجبال الرواسي، فثبت وثبَّت.

أما عمر فإنه قد خبل فجرَّد سيفه وجعل يقول: والله ما مات رسول الله ولا يموت يقطع أيدي رجال ورقابهم، وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه، وأما علي فإنه أقعد فلم يستطع حركة، وأما عثمان فإنه أصمت فلم يطق كلاما، وجعل يمشي في أزقة المدينة فتأخذ الجارية والصبي بيده يقودانه، فإذا طال عليه ذلك تركه حتى دخل أبو بكر المسجد فوجد عمر على حاله، فقال له: على رسلك يا عمر، فصعد المنبر من حينه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم صلى على النبي ﷺ، فأول ما قال، قال: أيها الناس إن محمدا ﷺ أقام بين أظهركم عشرين سنة يدعوكم إلى وحدانية الله وعبادته، ولم يدعكم قط إلى عبادة نفسه، فمن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، وما مات حتى نعى نفسه إليكم

---

[1] المائدة: 3.

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر مختلف، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: قل ياأيها الناس إني رسول، رقم: 4640، (59/6).

[3] لم أقف عليه.

بما أنزل الله عليه من الحق، ونعى عليكم أنفسكم فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [1]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [2] " [3]، فما من أحد إلا وهو يتلوا هذه الآية كأنه ما سمعها إلا يومئذ لما هم فيه من الغم والحزن. فكان رضي الله عنه رأس الشاكرين، والشاكرون هم الذين ثبتوا على دينهم بعد موت رسول الله ﷺ، وجاهدوا المرتدين حتى ردوهم إلى ما خرجوا منه طوعا أو كرها. فلما استقامت العرب دعاهم أبو بكر ﷺ على جهاد فارس والروم، وأول ما ظهر من كرامته رضي الله عنه أنه لما خرج بنفسه متوجها إلى جهاد أهل الردة لم يبق حي من أحياء العرب إلا سمع مناديا من السماء يقول: أيها المغترون بالله، إن خليفة رسول الله قد توجه إليكم في جنود الله وأنه منصور عليكم فالنجاد النجاد، فما سمع ذلك النداء أحد إلا ألقى الله الرعب في قلبه، فمنهم من توجه إليه قبل مجئ جنود خالد تائبا راجعا إلى ما خرج منه، ومنهم من أعطى القياد لخالد من غير قتال، ومنهم من قتل فهز، حتى تتاموا على خليفة رسول الله، فخيرهم بين السلم المخزية والحرب المجلية، فسألوه عنها ففسرها لهم، فاختاروا السلم المخزية على الحرب المجلية، فأخذ عنهم الحلقة والسلاح والخيل، وتركهم يتعبدون أذناب الإبل عزلا، فلم يزل ذلك عنده يجاهد به حتى توفاه الله، فردها إليهم عمر بعدما أعطوا العهود والمواثيق على أن يتوجهوا بها إلى جهاد فارس والروم، ففعلوا.

ومن كراماته رضي الله عنه ما وقع في زمن النبي ﷺ، وذلك أن وفدا من وفود اليمن استضافه، فصنع لهم جفنة من حيس فأتاهم بها ليلا فأكلوا منها حتى نهلوا وهي على حالها لم تنقص، فلما أوتي بها ردها إليهم فقال لهم: كلوا فإني ما آتيتكم بها إلا لتأكلوها، فقالوا له: والله ما منا من أحد إلا وقد شبع، فقال لهم: كيف شبعتم ولم تنقص، فقالوا له: لهو كذلك، فحملها إلى

---

[1] الزمر: 30.

[2] آل عمران: 144.

[3] بلفظ آخر، انظر:"سنن ابن ماجة"، كتاب: الجنائز، باب: ذكر وفاته ﷺ، رقم:1627،(520/1)، قال الأرنؤوط:ح ص.

عياله فأكلوا منها وهي بحالها، فتركها حتى أصبح فأتى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله لعل الشيطان قد تلاعب بي البارحة، فقال له رسول اللهﷺ: « وما ذاك، فإن الله تعالى لم يجعل للشيطان عليك سبيلا»، فقال له: إن وفدا من اليمن قد استضافوني، فصنعت لهم جفنة حيس ما أظنها تشبعهم، فأكلوا منها حتى نهلوا وهي بحالتها، ثم رفعتها إلى عيالي فأكلوا منها حتى شبعوا وهي بحالها، وكانت نفسي أحقر عندي من أن يكون ذلك من الله، فأقبل عليه النبي بوجهه وقد ظهر فيه السرور، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سر استنار وجهه، فقال له: « هو من الله يا أبا بكر، أما علمت أن الله تعالى يظهر الآيات على يد الأولياء كما يظهرها على أيد الأنبياء، وأن هذه كرامة أكرمك الله بها »، فأمره أن يأتي بالجفنة فبعث إليها رضي الله عنه، وقد بعث عليه الصلاة والسلام إلى أهل الصفة فجعلوا يأكلون منها أرسالا، يأكل العشرة فينصرفون، ثم يأتي العشرة كذلك وينصرفون، حتى شبعوا من عند آخرهم، ثم أمر عليه الصلاة والسلام بحملها إلى حجراته، فأكل منها أزواجه حتى شبعن، ثم أمر بها فردت على بيت أبي بكر، وقال له: «إنها ستقوم بضيفك ما أقاموا »، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يبعثها إليهم ليلا ونهارا، فقالوا له: يا أبا بكر، إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا، كنا أهل ريف ولا نقدر على هذا إلا المرة بعد المرة، فقال لهم: هذا من بركة أثر أصابع رسول الله ﷺ فيها، فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم فقالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله، فانظر إلى حسن آداب أبي بكر، فإن هذه الكرامة العظيمة لم ينسبها إلى نفسه، بل نسبها إلى رسول الله ﷺ.

ومن كراماته أيضا رضي الله عنه توليته لعمر بن الخطاب، فقال بعض من يخاف غلظته: ما تقول يا أبا بكر لله يوم القيامة إذا وليت علينا عمر؟، فقال لهم: أبالله تخوفونني في أول يوم من أيام الآخرة دخولا فيها، وآخر يوم من أيام الدنيا خروجا منها، فإني أقول: وليت عليهم خيرهم فيما أعلم، وأزهدهم في الدنيا، وأشدهم حبا لله، ولا أعلم الغيب، ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وستعلمون إذا مات عمر فتجاذبتموها فجعل بعضهم يضرب رقاب بعض، ثم دعا عمر رضي الله عنه فقال له: يا عمر إني قد وليتك أمر أمة محمد ﷺ، ولست بخير من أحد منهم إلا

أن تكون أتقى لله منه، وإن الله تعالى أوجب عليك فريضتين، فريضة بالليل وهو حظ نفسك منك، وفريضة بالنهار وهي حقوق أمة محمد عليك، وإن الله لا يقبل فريضة الليل بالنهار ولا فريضة النهار بالليل، وإنك قد صاحبت محمدا ﷺ منذ بعث إلى أن توفى، وقد رأيت زهده في الدنيا ورغبته في الآخرة وأثرته لنا على نفسه حتى جعلنا نطعمه مما لم يصل إلينا إلا من عنده، فاجعل أقوى الناس عندك وأحظاهم لديك الضعيف من المسلمين حتى تنصفه من أقويائهم، وأبعد الناس منك وأحقرهم لديك الأقوياء حتى تأخذ الحق منهم غير مداهن ولا ملاين، فإن فعلت ما أمرتك به وأوصيتك به فليكن أحب غائب إليك الموت، وإلا فليكن أبغض غائب إليك الموت، وإنك صاحبتني فرأيت ما كنت عليه، فوالله ما بدلت وما غيرت وإني لعلى السبيل ما زغت، فقال له عمر: لا قدرة لي على القيام بأمر المسلمين، فقال له: عزمت عليك إن كنت ترى لي عليك طاعة إلا قبلت ما وليتك، فإنه لا يكون إلا خيرا، واستعن بالله وأدخل الأمر بربك لا بنفسك وتوكل عليه يكفيك واستعن به يعينك واستنصر به ينصرك، فقبل عمر على كره، فقام بالأمر بعد أبي بكر أحسن قيام.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب »[1]، والحق مع عمر يدور معه حيث ما دار، وما رآه الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غيره، فهو أول خليفة دون الدواوين ومصر الأمصار ورتب الأعطية وضبط الجنود.

يروى أنه سافر إلى بلد الروم قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فبينما هو جالس يوما إذ أتاه بطريق من بطارقة الروم فأخذ بيده فأراد أن يمتنع منه، فقيل له لا سبيل لك إلى التخلص منه إلا بطاعته، فأخذ بيده يقوده حتى أدخله كنيسة من كنائسهم، فإذا فيها كثيب من رمل، وإذا زنبيل ومجرفة موضوعان، فقال له: خذ هذا الزنبيل والمجرفة وانقل هذا الكثيب وإياك أن آتيك إلا وقد فرغت منه، فجلس عمر ولم يفعل شيئا من ذلك، قال: فأتاني عندما زالت الشمس، فقال لي: ما أراك فعلت شيئا مما أمرتك به، ثم جمع يديه فضرب رأسي بهما، فقلت: ثكلتك أمك يا

[1] بلفظ آخر، "سنن الترمذي"، أبواب:المناقب، باب: مناقب أبي حفص عمر، رقم:3686،(60/6)، وقال الترمذي: ح س.

عمر أبلغت مثل هذا من الذل، فأخذت المجرفة فضربت بها هامته حتى انتثر دماغه فمات مكانه فدفنته في الكثيب، ثم هربت وأنا داهش لا أدري أين أتوجه، فبينما أنا كذلك إذ ظهر لي دير من ديران النصارى فقصدته وأنا جائع ظمآن، فجلست في ظله فإذا رجل قد اطلع علي فأمرني بالدخول إلى داخل الدير فدخلت فأخرج إلي طعاما وشرابا فأكلت وشربت، فجعل يصعد النظر في ويصوبه فقال لي: ما اسمك؟، قلت له: عمر، قال لي: أنت والله صاحبنا الذي يملك الشام ويفتح على يديه، فقلت: إنك ذهبت في غير مذهب، ما أنا وفتح الشام؟، قال: والله إنك لصاحبه من غير شك، فقلت له: إنك قد صنعت إلي معروفا فلا تكدره، فقال: لا بأس عليك، أن تكتب لي أمانا على قريتي هذه، فإن كان الأمر كما قلت لك فإن ذلك ينفعني ولا يضرك، وإن لم يكن فبطاقة كتبتها لي لا تضرك ولا تنفعني، فكتبت له عمر أمانا، فكساه وزوده وأعطاه حمارا يركب عليه حتى بلغ رفقته وقال له: إنك لا تأتي قرية من قرى الشام إلا علفوا هذا الحمار وسقوه وأطعموك لمكانك مني، قال: فكانوا يفعلون بي ذلك، حتى يرجع إلى مبعث النبي ﷺ بعد ذلك بيسير فكان عمر ممن آمن به وصدقه. فلما كان فتح الشام بعث الصحابة إلى عمر أن يتوجه إليهم، لأن أهل إيلياء امتنعوا من فتح مدينتهم حتى يأتيهم عمر، فتوجه إليهم في وجوه المهاجرين والأنصار، فلما بلغ ذلك الحبر توجهه جعل يزهزه حتى إذا دنا من قريته أتاه مع بطارقته وقد جعل كتابه على عصاه، قال عمر: فما هو إلا أن رأيته عرفته، فقال عمر: قد جاء عمر ما لا محيد له عنه، فناوله صحيفة الأمان فقال له: أعندك نفع للمسلمين؟، قال: ضيافتهم ثلاثا وهداية ضالهم وكسوة العاري، فأمضى له عمر رضي الله عنه أمانه، ثم قال: أوجدت ما قلت لك كما قلت؟، فقال له عمر: ما أراك إلا وقد صدقت. وكان عمر رضي الله عنه بابا مغلقا بين المسلمين وبين الفتنة كما في حديث عمر باب مغلق دون الفتنة فإذا كسر ذلك الباب وقعت الفتنة: يروى أنه خرج يوما إلى الصحابة فقال: أيكم يحفظ حديث الفتنة، فقال بعضهم: بلغنا عن رسول الله ﷺ: « إن فتنة الرجل في ماله وولده وزوجته »، فقال: لست عن هذا أسألكم، وإنما أسألكم عن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، فبلغ ذلك أبيا فأتاه فقال له: إنه

بلغني أنك تسال عن الفتنة، فقال: أجل، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن دون الفتنة بابا مغلقا »، فقال له عمر: أيفتح ذلك الباب أم يكسر؟، قال: بل يكسر، قال: إذا لا يغلق أبدا، ثم انصرف أبي فاتبعناه فسألناه من الباب؟، قال: هو عمر بن الخطاب، قلنا له: أيعلم ذلك عمر؟، قال: والله إنه ليعلمه، وإني قد حدثته حديثا ليس بالأغاليط[1].

ومن الكرامات الباهرات التي أظهر الله على يديه ما أشهد عليه الجم الغفير، وذلك أنه جهز جيشا إلى أقاصي بلاد فارس وأمر عليهم رجلا من الصحابة يقال له سارية بن زنيم[2]، فتجمعت له الأعاجم من كل ناحية بما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، ولم يكن في جيش كثيف فأتوهم من كل ناحية لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ليكتنفوهم، وكان عمر ساعتئذ على المنبر يخطب في يوم جمعة، فكشف له عن القوم فجعل يصيح في أثناء خطبته ثلاثا أو أربعا يقول: يا سارية الجبل الجبل من ترك الحزم ذل، فتحير الصحابة في أمره فجعل بعضهم يقول: جن عمر، ولم يتجاسر عليه أحد أن يكلمه وكان مهيبا، فأتاه عبد الرحمان بن عوف[1] وكان خليله، فقال له: يا أمير المؤمنين إنك جعلت للناس عليك سبيلا، قال: وما ذاك؟، قال: صحت في أثناء خطبتك فقلت: يا سارية الجبل الجبل، من ترك الحزم ذل، فقال له: أسمعتم ذلك؟، قال: لم يبق أحد إلا سمعه، فقال له: إنه وقع في خلدي أن العدو قد تكاثر عليهم، فأرادوا أن يكشفوهم من كل جانب، وإذا بإزائهم جبل إن هم انحازوا إليه سلموا وفتح عليهم، وإن لم ينحازوا إليه

---

[1] ح ص، بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم:3586 (196/4).

[2] سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدئلي: صحابي من الشعراء القادة الفاتحين، كان في الجاهلية لصا كثير الغارات، يسبق الفرس عدوا على رجليه ولما ظهر الإسلام أسلم، وجعله عمر أميرا على جيش، وسيره إلى بلاد فارس سنة 23 هـ ففتح بلادا منها أصبهان، وهو المعنيّ بقول عمر: يا سارية، الجبل، (نحو 30 هـ / 650 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: سارية بن زنيم، (69/3).

[1] عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، أبو محمد، الزهري القرشي: صحابي، من أكابرهم، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، قيل: هو الثام،. وكان من الأجواد الشجعان العقلاء، (ت32 هـ / 652 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عبد الرحمان بن عوف، (321/3).

هلكوا، فلم أملك من نفسي شيئا حتى قلت ما قد سمعتموه، وكان بين مدينة رسول الله ﷺ وبين تلك الأرض مسيرة شهر، فجاء البريد بعد شهر بخمس المغنم وبخبر الفتح، وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد أرخوا ذلك اليوم وتلك الساعة فسأله الصحابة: هل سمعتم شيئا في يوم الجمعة من شهر كذا؟، فقال لهم: بينما نحن قد تناهرنا مع العدو فتكاثرونا وأرادوا أن يكشفونا حتى أيقنا بالهلكة، إذ سمعنا صوت عمر لا نشك فيه ولا نرتاب وهو يقول: يا سارية الجبل من ترك الحزم ذل، فانحزنا إلى الجبل فجعلنا نقاتلوهم من وجه واحد ولا يباشرنا بالقتال منهم إلا شلنا حتى فتح الله علينا ونصرنا، فهذه كرامة من الكرامات التي لا يكاد يوجد مثلها إلا لرسول كريم أو ولي زعيم[1].

يروى أن كعب الأحبار دخل على عمر قبل أن يطعن بثلاث، فقال له: يا عمر ما أنت بفاعل فافعله، وإنك ميت بعد ثلاث، فقال له: أوحي بعد رسول الله ﷺ، قال: لا، ولكنه شيء وجدته في كتاب الله التوراة، مما لم يبدل ولم يغير ونصه: "يا عمر لست بوال ولكن والد"، وفي موضع آخر:"عمر أمام شديد وقرن من حديد، لا تأخذه في الله لومة لائم، يفتح الله جميع الأقاليم على يديه، يكون خليفة ثاني اثنين بعد رسول الله ﷺ محمد ، ومدته عشر سنين لا يزيد يوما ولا ينقص"، ولم يبق من العشرة إلا ثلاثة أيام، فبكى عمر بعد ذلك رضي الله عنه وقال له: يا كعب أنشدك بالله آلله ذكرني في كتابه التوراة، قال: إي وربي لقد ذكرك وأثنى عليك، فلما طعن جعل يقول:

وأوعــدني كعب ثـلاثا يـعـدهـا فأيقنت أن القول ما قاله كعـب

وما في حذار الموت إني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنـب[2]

---

[1] انظر: "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث" لأبي بكر البيهقي، باب: القول في كرامات الأولياء، (ص 430).

[2] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "تاريخ المدينة" لابن شبة، باب: مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (892/3).

وكان رضي الله عنه لا يقول ظننت كذا إلا وافقه الوحي، وقد وافقه الله تعالى في نحو ثلاثين آية منها آية الحجاب، ومنها عدم الصلاة على المنافقين، ومنها الإثخان في أهل بدر وعدم قبول الفداء، ومنها قتله للمنافق الذي لم يرض بحكم رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: "كان رجل من المنافقين يقال له بشر، فوقعت بينه وبين يهودي خصومة، فقال لليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف[1]، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه، وقال له: انطلق بنا على عمر، فأتيا عمر، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك، فقال عمر للمنافق: كذلك، قال: نعم، فقال لهما: رويدا حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ سيفه واشتمل عليه، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت هذه الآية: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [1]، والمراد بالطاغوت كعب بن الأشرف، فنزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال له: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فسمي من يومئذ الفاروق. وقال السدي: " كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية، فكانت قريضة حلفاء الخزرج، والنضير حلفاء الأوس، وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلا من بني النضير قتل به وأخذ ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من النضير رجلا من بني قريظة لم يقتل به وأعطوا ديته ستين وسقا، فلما جاء الله بالإسلام

[1] كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي، كانت أمه من " بني النضير " فدان باليهودية وكان سيدا في أخواله ويقيم في حصن له قريب من المدينة، ما زالت بقاياه إلى اليوم، يبيع فيه التمر والطعام، أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة " بدر" فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم وعاد إلى المدينة، فقتل في حصنه، (ت 3 هـ / 624 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: كعب بن الأشرف، (225/5).

[1] النساء: 60.

وهاجر النبي ﷺ قتل رجل من بني النضير رجلا من بني قريظة فاختصموا في ذلك، فقال بنوا النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا [تقتلوا][1] منا، وديتنا مائة وسق ودينكم ستون وسقا، فنحن نعطوكم ذلك، فقالت الخزرج هذا شيء فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: ننطلق إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون من الفريقين: بل ننطلق على النبي ﷺ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ليحكم بينهم، فقال: أطعموا اللقمة يعني الخطر، فقالوا: لك عشرة أوسق، فقال: لا بل مائة وسق ديتي، فأبوا أن يعطوا إلا عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم فأنزل الله عز وجل القصاص وأنزل هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[1] الآية، الزعم بضم الزاي وفتحها لغتان وأكثر ما يستعمل الزعم على القول الذي لا يتحقق. وقيل هو حكاية قول يكون مطية الكذب، والمراد في هذه الآية الكذب لأن الآية تدل على أنها نازلة في الذين نافقوا مؤمني أهل الكتاب كما يدل قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس سماه الله طاغوتا لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله [2] ﷺ، وقيل المراد أبو بردة الكاهن في قول السدي[3]، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾[4]، يعني بالطاغوت لأن الكفر به إيمان بالله عز وجل.

ولما أوتي رضي الله عنه بالقطف، وهو البساط الذي يجلس عليه كسرى وعظماء الأساورة عند الشرب وهو ستون ذراعا في ستين ذراعا، على حافته صور أنواع الوحش من الذهب وأعينها من الياقوت، وفيه صفة أنواع الزهر من كل حافية، وهو نبات ناعم مختلف الأنواع مصورة

---

[1] في (ب): تقتل.

[1] النساء: 60.

[2] "تفسير الخازن"، (394/1).

[3] المصدر نفسه.

[4] النساء: 60.

بالذهب والورق والحرير لا يشك من نظر إليها أنها روضة غناء، فلما أخذه المسلمون وقد فر عنه كسرى واستثقل حمله، قال لهم سعد بن أبي وقاص وكان أمير الأجناد: هل لكم أن تتركوا هذا القطف ولا تجعلوه في المغنم، فإني أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين عمر، فإنه أذكر عند ملوك الأرض وأظهر لعز الإسلام وأنصر لدين الله، فأجابوه كلهم إلى ذلك، فبعث به سعد مع الأخماس إلى عمر، فلما رأى ذلك جعل يبكي حتى غشي عليه، فقال له جميع الصحابة: ما بكاؤك إذ عز الله الإسلام وأهله وأذل الله كسرى الذي كان يزعم أنه رب الناس ومالكهم، فقال لهم: ما ذلك أبكاني، إنما بكيت لما كان يخبرنا به رسول الله من فتح كنوز فارس علينا وقد زوى الله ذلك عنه لكرامته عليه وفتحه علي لهواني عليه، وما فتحت الدنيا على قوم إلا فتنوا بها، فإن هذا مما لا قيام لنا بشكره، فأمر بتلك الكنوز أن تحمل إلى المسجد ويحمل معها القطف، فقالوا له: هلا جعلتها في دارك، فقال: والله لا يظلها سقف بيت لي، وإنما تجعل لي منها ما يحل لرجل من المسلمين، فحملت الكنوز إلى المسجد مع القطف وجعل عليها حراسا يحرسونها حتى تصبح، فلما ارتفع النهار من الغد بعث إلى وجوه المهاجرين والأنصار، فقال لهم: ما رأيكم في هذا القطف الذي بعث به سعد والأجناد إلي وخصوني به، فاختلفوا عليه، فبعضهم يقول: أنت أولى به، وبعضهم يقول كذا، وبعضهم يرد علم ذلك إليه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ساكت، فقال له: يا أبا الحسن ما أراك قلت شيئا فيما أفاض الناس فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين لا تجعل علمك جهلا، لئن أخذت هذا لنفسك اليوم ليأتين من بعدك أقواما يستحلون أكثر من هذا، وهذا القطف من عجائب الدنيا لأنه لا قيمة له، فلو أعطيت فيه ألف ألف لم تف بالنذر منه، ولكن الصواب أن تبعث به إلى الأجناد فيأخذ كل ذي حق حقه ثم يبعثون إليك بخمسه، أو تأخذ الخمس من الآن، فقال عمر: جزاك الله عني خيرا فقد صدقت ونصحت، وهو الذي كانت نفسي تميل إليه، فخمسوه وأعطى ذلك الخمس عليا فباعه بمائة ألف ولم يبلغ ثمنه، وبعثوا إليه بستة أسياف أغمادها من الذهب وقد لمعت باليواقيت والجواهر، سيف كسرى انوشروان وسيف خافان، وسيف قيصر، وسيف النعمان وسيف أبرويز ملك من

ملوك فارس، وسيف شاه ملك كرمان، فقال له: فما رأيك في السيوف؟، قال: رأيي فيها أن تبعثها إلى من انتهى إليه البأس من فرسان الأجناد، وبعث معها ستة أفراس من جياد الخيل، فبعث بالأفراس إلى بني شيبان، وبعث بالسيوف إلى بني أسد، وهم الذين كانت رحى الحرب تدور عليهم، ثم بعث على الحسن والحسين فأوتي بهما فقال: أزن لهما وزنا وأحثوا لهما حثوا، فقال له طلحة بن عبد الله: بل أحث لهما يا أمير المؤمنين حثوا، فحثا لهما حتى أثقلهما حمله، ثم نفل من يستحق ذلك من وجوه المهاجرين والأنصار، ثم أمر بقسم ما بقي فقدم أزواج النبي ﷺ وأهل بيت رسول الله، ثم أتبعهم بالفقراء والأرامل، ثم اقتسم ما بقي سائر الناس، وقد ملأ أهل السوابق من المهاجرين والأنصار ثم رضخ للوفود والأعراب ومزينة وجهينة وأسلم وغفار، فقالوا له: لم جعلت لهم نصيبا في فيء المسلمين، فقال لهم: أليسوا بإخوانكم في الإسلام وهم مادتكم على جهاد الكفار، فليست منهم قبيلة إلا وقد قربت منها فرقة تكابد زحوف فارس والروم وغيرهما من أمم الكفر، فلستم بأحق منهم بالفيء إلا من حيث السابقة والفضل في الدين، قالوا: صدقت وأصبت وأنصفت، وهذا لكراماته. وكان يبعث في كل سنة إلى رجال من رجال أجناده ممن يثق بدينه ومروءته، ويسألهم هل أحسوا في أجنادهم بغلول أو خيانة، فيقولون له: لا والله ما اطلعنا على أحد من أجنادك بشيء نغمضه عليه لا من خيانة ولا من غلول ولا من رغبة في العاجل، ولا أرى أن أهل بدر أفضل منهم إلا أنهم أذكر منهم عند الناس، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين لو خنت لخنا جميعا ولو رغبت في الدنيا لرغبنا جميعا، فإن الأمة إنما تعمل بعمل أميرها، فلما سمع ذلك خر لله ساجدا. وكان يبعث إلى جنوده ويقول لهم: استفتحوا البلاد بتقوى الله والعمل بكتابه، وإتباع سنة نبيكم والنصح لأمرائكم، والوفاء بالعهود وصدق القول والقيام بحقوق أهل الذمة فإنهم مادة الإسلام وغيظ المشركين، وإياكم أن يزال عليكم بخيانة أو غلول أو غدر، ولا تجعلوا على أموركم أحدا من الأعاجم فإنهم أهل رشوة، ولا رشوة في الإسلام.

ولما فر كسرى من العراق وخراسان وسائر بلاد فارس إلى خافان ملك الترك فغزا به المسلمين فهزما جميعا بنصر الله وجنود السماء، أمره خافان أن يبعث إلى ملك الصين، ولا يبعث إليه إلا رجالا أمناء ذوي عقل وصدق، فبعث إليه رجالا من أساورته قد اختارهم وبعث إليه بما يستظرفه من بلاده من التحف النفيسة، فلما أتوه قال لهم: أخبروني عن هذه الأمة التي قهرتكم وأخرجتكم من أرضكم أهم أكثر منكم؟، قالوا: لا، بل هم أقل منا بحيث لا يبلغون عشر عشرنا، ثم قال لهم: أهم أكثر منكم عدة؟، قالوا: لا، أكثرهم خسر، لا دروع لهم ولا بيض إلا ما سلبوه منا، ثم قال لهم: أيوفون بالعهد؟، قالوا: هم أوفى خلق الله بالعهد، قال: أيقومون بالذمة؟، قالوا: هم أقوم خلق الله بالذمم؟، قال لهم: أيستحلون الكذب؟، قالوا: لا، وهو حرام في دينهم، قال: أيطاوعون أمرائهم؟، قالوا: هم أطوع خلق الله وأنصحه لأمرائهم، قال: ألهم رغبة في الدنيا؟، قالوا: لا، بل هم أزهد الناس فيها لو أخذ أخذهم ألف ألف لم يزد على ما يواري عورته ويذهب جوعته، بل هم رهبان في الليل أسد في النهار، ثم قال لهم: أيحلون شيئا مما حرم عليهم نبيهم؟، قالوا: بل هم أحرص الناس على دينهم، فقال لهم: إني لست بجاهل بما يجب على الملوك من نصرة الملوك إذا استنصروهم، ولكنكم وصفتم لي قوما لو حاولوا إزالة جبل عن محله لأزالوه، ولو خلا لهم سربهم لملكوا موضع قدمي هاتين، وما نصروا على هذه الأمم العظيمة الكثيرة القوية مع قلة عدتهم وعددهم وضعف قوتهم إلا لخير فيهم وشر فيكم، ولولا ذلك لبعثت إليه بجند أوله عنده وآخره عندي، لكن لا أقدر على مغالبة الله لأنهم أولياؤه وجنوده، ومن غالب الله غلبه ثم سلبه، فأعط القوم ما سألوك وصالحهم قبل أن يستأصلوا شافتك فإنهم فاعلون إن طاولتهم بالحرب، فلم يفعل كسرى حتى قتل شر قتلة واستولى المسلمون على ملكه. وأسلم عامة ملوك فارس وذلك ببركة النبي ﷺ مع نصر الله وعدل عمر رضي الله عنه وسياسته الأمور، وكان مع ما فتح عليه من الكنوز والأموال على الحالة التي تركه عليها صاحباه، فلا يلبس إلا المرقعات ولا يعيش إلا بخشين العيش حتى قبضه الله إليه وهو على

ذلك، وكان إذا مر بآية وعيد في حزبه يخر مغشيا عليه ويلزم الفراش حتى يعاد، يحسبه الجاهل مريضا وليس هو كذلك، إنما أصابه من خشية الله، وكان كثيرا يتمثل بهذا البيت:

ظـلوم لنفـسي غـير أني مـسلم أصـلي الصـلاة كـلهـا وأصـوم.[1]

ولما فتح الله على النعمان بن مقرن جلولاء وفرغ منها أتاه رجل من الأساورة فقال له: إن أمنتني وأهل بيتي دللتك على كنز عظيم لم تستولوا عليه بخيل ولا ركاب، بل هو في جبل في هذه الجبال، فقال له: أفعل إن صدقت، فبعث معه بعض خاصته فأتوه بذلك الكنز وهو آنية من ذهب وآنية من ورق، وصورة ناقة من ذهب ورجلها من اليواقيت، وسفطين مملوءين بيواقيت ودر وزمرد، وبصورة إنسان من ذهب وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالدرر والياقوت، فلما أوتي به قال لأهل العسكر: عن هذا خاص بي لم تجفوا عليه بخيل ولا ركاب، وإنما هو كنز في جبل فلو لم يطلعني عليه هذا الرجل لما علم به أحد آخر، ألا بد وأني أريد أن أبعث به إلى عمر مع الأخماس، فأذنوا له في ذلك، فبعثه مع رجل من خاصته وصاحبه بمن يقدر على حمل تلك الأموال. قال الراوي: فتوجهت بذلك كله، فلما دنونا من المدينة تقدمتهم فأتيت عمر وقد انتصف النهار، فإذا أمير المؤمنين بارز للناس يطعمهم فانتظرته حتى فرغ ثم أتيته فسلمت عليه، فقال: من أنت؟، فقلت: أنا بشير، وذلك اسمه، فقال: من عند من؟، قلت له: من جيش النعمان، فأقبل علي وجعل يقبل بين عيني، فكأنما خرجت من صلبه فاستتبعني إلى بيته، فلما دخل قال لأهله: هل عندكم من شيء؟، فأخرجوا له طعاما خشينا، فقال لي: كُلْ، وكان ما عندي من الزاد أحسن من طعامه، فجعلت آكل أكلا ضعيفا وهو يأكل أكل جائع، فلما فرغنا من الطعام قال لي: هل أخذ أهل الجيش [سهمانهم] [1] ؟، قلت: نعم، ثم أمسك، فقلت له: قد بعث معي كنزا غبيطا لم يوجف عليه، إني أريد أن أخبرك بشيء، قال لي: ما هو، بعد أن أخذ

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "الرياض النضرة في مناقب العشرة" لمحب الدين الطبري، (418/2).

[1] في (ب): سهمهم.

الناس [سهمانهم] [1]، وأتيت بالخمس، فقلت له: إن النعمان قد بعث معي كنزا غبيطا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فانتهرني، وقال لي: ثكلتك أمك، مالي من الله، ما قمت البارحة إلا تعللا بك من هول حيات دهم، يردن أن ينهشنني، وما ذلك إلا هذا المال الذي أتيتني به، فلا مرحبا بك ولا بما جئت به ولا بمن أرسلك به، فخرجت من عنده ذليلا، فلم أنشب أن قدم أصحابي بالخمس وبالمال الذي بعث به النعمان، فقلت له: أين أجعل هذا؟، قال: ارجع به إلى مستحقيه، وإن لم تفعل أنت ولا صاحبك الذي بعثك به لأوجعتكما ضربا، ولأجعلنكما نكالا، ولا تقم بالمدينة إلا يومك هذا، وتعجل بالمال قبل أن يفرق الجيش، فلما كان من الغد قلت له: قد أبدع بي، فاجعل لي راحلة أتبلغ عليها، فقال لي: لو أنك لم تأتني بما أكره لحملتك، ولكن أطلب من يحملك غيري، فاستحملت عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحملني. ثم أتيت أمير المؤمنين فقلت له: يا أمير المؤمنين إن النعمان لم يبعث لك بهذا المال إلا ويرى أنه له، قال: ولم؟، قال: هو ما أخبرتك به من اطلاع الأسوار عليه ، لئن زدت لأكذبن ولئن لأكذبن، فقال: قل للنعمان إن المال ليس أولا له إنما هو للجيش الذي ألجأ الأساور على أن أطلعه عليه، وإياكم والتأويل، فإنه ما هلك أمره إلا عن تأويل، فانصرفت بالمال ولم ينظر إليه أحد من أهل المدينة، لا أمير المؤمنين ولا غيره، فكأني قد أتيتهم بميتة أحملها، فرجعت بالمال وأخبرت النعمان بما قال له عمر وبموجدته علي وعليه، فقال: الحق مع عمر، فقسم المال على أهل العسكر جميعهم على سنة الفيء.

وقد شهد له النبي ﷺ بالولاية إذ جعله من المحدثين، وكل محدث ولي، والمحدث هو الذي تتكلم الملائكة على لسانه بالحق.

وكذلك عثمان، أخرجه الطبراني بسند يرفعه إلى أبي هريرة أن النبي ﷺ لما أراد الغزو غزو جيش العسرة حث الأغنياء من أصحابه على تجهيزه، فأتى كل واحد منهم بما يقدر عليه، ثم إن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتاه بألف جمل عليها أقتابها وأحلاسها وبأزواد الراكبين عليها، ثم أتاه بألف دينار يحملها في كمه فصلها في حجر رسول الله ﷺ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك تهلل وجهه

[1] في (ب): سهمهم.

نورا، واستقبل القبلة فرفع يديه وهو يقول: « اللهم اغفر لعثمان ما قدم وما أخر وما أسر وما أعلن »، فلما فرغ من دعائه التفت على الناس، وقال: « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم »[1]، وما قال ذلك إلا عن وحي وإعلام من الله تعالى لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وقد زوجه رسول الله ﷺ بابنتيه وبذلك سمي ذا النورين، ولما ماتت الأخيرة عنده، قال له رسول الله: « لو كانت لي مائة بنت لزوجتكهن واحدة بعد واحدة»، يروى أنه بينما هو جالس يوما وقد حسر الثوب من فخذيه إذ دخل عليه أبوبكر فلم يسترها، ثم دخل عليه عمر كذلك، فلما دخل عثمان سترهما، فقالا له: دخلنا عليك يا رسول الله فلم تستحيي منا، فلما دخل عثمان غطيت فخذيك، فقال لهم:«ألا استحيي من رجل تستحيي منه ملائكة الرحمان »، وكان عثمان رضي الله عنه حييا روي أنه يدخل البيت المظلم ويغلق عليه بابه ولا يغتسل إلا مستترا بثيابه، فقيل له في ذلك فيقول لهم: إن معي من لا يفارقني يريد الحفظة، وبلغه مرة أن بيوت النبي ﷺ خاوية من القوت، فأخذ ثلاثين جملا وحمل عليها جميعها دقيقا من البر، وحمل على كل واحدة منها عكة سمن وعكة عسل، ثم بدأ بعائشة فلم وضع عندها ما ينوبها همت بقسمته، فقال لها: طيبي نفسا فإن كل بيت من بيوت رسول الله يأتيه مثل ما أتاك ففعل، وكان النبي ﷺ في المسجد لم يعلم بشيء من ذلك، فلما صلى العشاء الأخيرة وانصرف إلى بيته وقد عزم على أن يبيتوا طوايا، وكانت الليلة ليلة عائشة فإذا البيت ممتلئ جمالا فقال لهم: من أين لكم هذا؟، قالت: عثمان أتى به، قال لها: فهلا بعثت لربات البيوت مما أتاك، فقالت له: ما من بيت إلا وقد أتاه مثل هذا، فجعل ﷺ يقول: « سد عثمان خلة آل محمد، سد الله خلقه في الدنيا والآخرة»[1]، وهو الذي زاد في المسجد لما ضاق على أهله وكثر البنيان حتى جاوز سلعا وذلك كله من ماله. ولما كان اليوم الذي قتل فيه رضي الله عنه طلب ماء يتسحر به فلم يجده لأنه كان محصورا، فأتاه النبي ﷺ بماء من ماء الجنة فسقاه حتى روى، وقال له: « أحصروك يا

[1] ورد بلفظ آخر، "المعجم الأوسط" للطبراني، باب: من اسمه أحمد، رقم: 7255، (195/7)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، (85/9): رواه الطبراني، فيه سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف، وقال الطبراني: تفرد به سعيد بن محمد الوراق.

[1] لم أقف عليه.

عثمان»، قال: أجل بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال له: «إن شئت قاتلتهم فنصرت عليهم، وإن شئت كففت فأفطرت عندنا»، قال: بل أكف يا رسول الله وأفطر عندكم أحب إلي، فهو أول أمير جاد بنفسه في سبيل الله ولم يرض أن يهرق في شأنه قدر محجم من دم مسلم. ولما بلغ عليا رضي الله عنه أن أهل العراق وأهل مصر يريدون قتل عثمان[لبس][1] لامته وأمر بنيه فاستلاموا وصاح في المهاجرين والأنصار فخرجوا معه فحمل على القوم حتى فرقهم وهزمهم ثم رجع فدخل على عثمان رضي الله عنه فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، اعلم أن رسول الله ﷺ لم يجلس مجلسك هذا حتى ضرب المدبر بالمقبل وأنت في منعة عن أن تسلم نفسك لهؤلاء القوم حتى يقتلوك، فإنهم قاتلوك لا محالة فآذن لنا في قتالهم فإنهم لا قبل لهم بنا، فقال لهم عثمان: أنشد الله رجلا يرى أن لي عليه طاعة أن يهرق في شأني قدر محجم من دم مسلم، فلئن يقتلوني صابرا محتسبا أحب إلي من أن أهرق دماءكم، فخرج علي وهو يقول: اللهم إنك تعلم أني قد بذلت المجهود وليس لي خلافة، ثم ترك الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية في عصبة من أبناء المهاجرين والأنصار، فقال لهم: إياكم أن يصل أحد إلى أمير المؤمنين وفيكم عين تطرف، فلما رأى القوم عليا قد أدبر ومعه وجوه المهاجرين والأنصار هجموا على الدار، فحمل عليهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ومن معهم فهزموهم، فأصاب الحسين جرح في رأسه، فلما رأوا الحسين قد تخضب بالدماء، قالوا لئن رأوا أهل المدينة الحسين مخضبا بالدماء ليحولون بينكم وبين ما تريدون ولا طاقة لكم بحربهم فتسوروا على عثمان من ظهر الدار فذبحوه رضي الله عنه، وكان فيهم رجل من أهل الشام فلما صاحت زوجته وقالت إن أميركم مقتول، أخذ بكمها فجذبها حتى سقطت، فالتفت إليه عثمان وقد تغرغرت عيناه بالدموع فقال له: مالك قطع الله يديك ورجليك وفقأ عينيك وأدخلك النار حيا، ولم يزد الرجل على ذلك وانصرف راجعا إلى الشام، فلما كان بالبيداء إذ هو بفارس وبيده حربة كانت شعلة من النار، فلما رآه خافه فأدبر فإذا هو أمامه فوقف حتى أتاه، فقطع يديه من المنكبين بتلك الحربة وقطع رجليه، وفقأ عينيه

[1] محو في (ب).

وتركه مكبوبا على وجهه، فمر به بعض السيارة فإذا هو يصيح ويقول: قطعت يداي ورجلاي وفقئت عيناي فأين النجاة من النار، فوقفوا عليه وقالوا له ما شأنك: قال لهم أنا ممن حضر قتل عثمان فقص عليهم ما قال عثمان وما فعل به الفارس، فقال بعضهم: هلم نحرقه، وقال بعضهم: اتركوه أبعده الله وما تحمل، وقال بعضهم: والله لا نتركه، فأخذوا حطبا وأوقدوا عليه النار، فأجاب الله فيه دعوة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه كرامة أيضا، لأن الذي فعل به الأفاعيل إنما هو ملك من ملائكة الرحمان، ويروى أن قتلته خبلوا وهم أربعة، رجال اثنان من أهل العراق، واثنان من أهل مصر. وأما محمد بن أبي بكر فإنه دخل عليه فيمن دخل، فأخذ بلحيته وقال: أغيرت سنة رسول الله ﷺ يا نعثل؟، فقال له: والله ما غيرت سنة رسول الله، ولكني على البيضاء، ولقد أخذت لحية كان يكرمها أبوك ولو رأى مكانك مني لساءه ذلك، فلما سمع ذلك ترك لحيته وانصرف تائبا نادما.

وأما علي فلا يختلف اثنان في ولايته، وقل ما أتاه رجل من الأهواء إلا حدثه بما في نفسه وبما هو عليه [حتى يظهر][1] مثالبه، فمنهم من يتوب ويرجع، ومنهم من يصر على ذلك ويرجع مفضوحا. وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: اللهم إني أعوذ بك من معضلة لا يشهدها أبو الحسن، وذلك أن قيصر بعث إلى عمر بألغاز ومشكلات فلم يفهمها عمر، فقال: مالي وللألغاز، فقال له رجل من الصحابة: يا أمير المؤمنين إن لم تجبه سقطت من عينيه، و [اعتقدت] [2] النصارى أنكم لستم على شيء، ولكن ابعث إلى علي فإنهم لا يقفلون قفلا إلا فتحه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أنا مدينة العلم وعلي بابها، من أراد العلم فليأتي الباب»[3]. ولما بعثه إلى الشام قال: اللهم أطلق لسانه وثبت جنانه، وعلمه الحساب والكتاب وقه العذاب، فبعث إليه فأتاه فقال له: إن قيصر بعث إلي كتابا فيه مشكلات، فقال له: ائت به، فقد وقع قيصر على الخبر، فقال: ناولني الكتاب، فناوله الكتاب فقرأه فإذا نصه: أسألك عن شيء، وعن نصف شيء، وعن

[1] ساقط من (ب).

[2] في (ب): اعتقد.

[3] "المعجم الكبير" للطبراني، باب: مجاهد عن ابن عباس، رقم:11061، (65/11)، قال الهيثمي: إسناده ضعيف.

قبر مشى بصاحبه، وعن بقعة لم تر الشمس إلا ساعة من نار، وعن شجرة نبتت من غير مطر، وعن يوم لا ليل له، وعن قوم أوحى الله تعالى إليهم، ليسوا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة، وعن جبل تنشأت منه الجبال، وعن المجرة وعن قوس قزح، وعن الطعام الذي أكل منه ثم حيي، وعن أول ما خلق الله من العالم، وعن الأصل الذي تفرع منه الأصول، وعن كنز الجنة وعن مفتاح الجنة، وعن شجرة في الدنيا تخرج أولا مثل الزبرجد ثم تكون مثل الياقوت الأحمر، وهي في الدنيا لرجلين، وفي الآخرة لرجل واحد، وعن الروح، وعن ما يقول الناقوس في نقره، وعن رجل لا أب له ولا أم، وعن شيء خلقه الله واستضعفه، وعن شيء خلقه الله وتعجب منه، وأين يذهب الليل إذا جاء النهار؟، وأين يذهب النهار إذا جاء الليل؟، وقد بلغني أنكم تقولون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، وأين مثال ذلك في الدنيا؟، وأن خزائن الله لا تنقص، وأين مثال ذلك في الدنيا؟، وأنكم قلتم في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، وأن في كل بيت من بيوت الجنة غصنا من أغصانها، وقد قلتم أن عرض الجنة كعرض السماوات والأرض، فكيف يكون في كل بيت من بيوت الجنة غصن منها مع سعة الجنة وقلتها؟، وأين مثال ذلك في الدنيا؟، وأنكم قلتم أن أجسام الموتى تبعث أعيانها لا أمثالها يوم القيامة، وأين مثال ذلك في الدنيا؟.

فأجابه علي ﷺ فقال له: أما سؤالك عن شيء فهو الرجل يجمع الله له بين الدنيا والآخرة، وأما نصف شيء فالرجل يكون له حظ في الدنيا ولا نصيب له في الآخرة، وأما لا شيء فهو الرجل لا حظ له في الدنيا ولا نصيب له في الآخرة، وأما القبر الذي مشى بصاحبه فهو حوت يونس، فإن الله تعالى جعله قبرا لجثته فمشى به في الماء، أتى تخوم الأرض في ثلاث ظلمات، ظلمة البحر وظلمة الحوت وظلمة الغم، ولما أراد الله أن يخرجه إلى الدنيا ألهمه التسبيح فرفع صوته بالتسبيح قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فسمعت الملائكة صوته، فقالت: إلهنا صوت معروف من محل مجهول، فقال لهم: ذلك عبدي يونس سجنته في بطن حوت لما أساء الأدب وإني مخرجه، فأمر الله الحوت أن يخرج إلى البر ويلقيه

بالعراء، ففعل، وكان جلده قد رق حتى صار كجلد الفرخ، فصار الذباب إذا نزل عليه أدماه، فأنبت الله شجرة اليقطين بأن قال لها كوني فكانت من غير قطر فهي الشجرة التي أنبت الله بغير مطر. وأما البقعة التي لم تر الشمس إلا ساعة من نهار، فهي البقعة التي فلق الله عنها البحر لموسى وبني إسرائيل حتى أنجاهم من فرعون وجنوده، ونبذ فيها فرعون وجنوده فانطبق عليهم اليم فأغرقوا وأدخلوا النار. وأما اليوم الذي لا ليل معه فيوم القيامة ، فإنه لا ليل معه ولا ليل بعده، لأن أهل الجنة في نور دائم، وأهل النار في ظلمة دائمة. وأما الجبل الذي تنشأت منه الجبال فجبل قاف خلقه الله من درة خضراء وجميع جبال الدنيا عروقه ومن خضرته اخضرت السماء والبحر المحيط، ليس بينه وبين السماء إلا قدر قامة إنسان، وما خلفه من عالم الآخرة لا من عالم الدنيا، ووراءه أرض عرضها سير الشمس خمسين سنة وأرضها كلها من ذهب وجبالها من ذهب وأشجارها كأشجار الجنة ليس فيها شوك ولا مرارة، سكانها ليسوا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة، لم يسمعوا بإبليس ولا بآدم، تعبدهم الله بالصلاة على محمد ﷺ، لا يعرفون الشر، خلقهم الله تعالى ليملأ بهم الجنة. وأما المجرة التي في السماء فإنها من أثر الطوفان الذي بعثه الله تعالى على قوم نوح فأهلكهم به، وهي أبواب السماء التي تنشق منها يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [1]، وقال في أمر الساعة: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [2]. وأما قوس قزح فإنما يسميه بهذا الاسم العامة، وهي اليد التي جعل الله تعالى لنوح ومن أسلم معه علامة لصحو الطوفان ورفع العذاب وهي أمان له ولذريته إلى يوم القيامة، فكل مطر رئيت فيه فهي أمان من الصواعق ومن الإغراق. وأما الطعام الذي أكل منه ثم حيي فهو حوت موسى ويوشع الذي حملاه في المكتل فكانا يأكلان منه، فلما نزلا عند الصخرة التي تحتها عين الحياة أصابها ماء الحياة فحييت، وصار أثرها في البحر سربا بأن يبس ما حولها من الماء، وصار ذلك لموسى وفتاه عجبا، وذلك أنهم أكلوا منه مدة سفرهم

[1] القمر: 11.

[2] النبأ: 19.

ثم صار بعد ذلك حيوانا واتخذ سبيله في البحر سربا. وأما أول ما خلق الله من العالم فالدرة البيضاء، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق نظر إليها بعين الهيبة والإجلال فذابت لهيبته وجلاله فصار بعضها ماء وبعضها نارا وبعضها نورا وبعضها ظلمة وبعضها ريحا، فخلق من النور العرش والكرسي واللوح والقلم وأجساد الملائكة وأرواح المؤمنين، وخلق من النار الجن والشياطين، وخلق من الظلمة الوحش والسباع وأرواح الكفرة وأهل الأهواء، وخلق من الريح الطير والذباب والخيل، وخلق من الماء كل شيء حي. وأما الأصل الذي تفرعت عنه الأصول فالقلم، لأنه أول ما خلق الله من الخلق فقال له: اكتب، قال: رب وما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب: أمة مذنبة، فقال له الله: تأدب يا قلم، فانشق هيبة لجلال الله فكتب: ورب غفور، وقد جف القلم بما هو كائن قبل خلق الكائنات وبعد ذلك فهو كل يوم في شأن، وذلك الشأن هو سوق المقادير إلى المواقيت في طول القلم مسيرة مائة عام، وهو من الذهب الأحمر واللوح من ياقوتة حمراء. وأما كنز الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما مفتاح الجنة فلا إله إلا الله محمد رسول اللهﷺ. وأما الشجرة التي أولا مثل الزبرجد الأخضر ثم تصير مثل الياقوت الأحمر، فهي عندنا في بلادنا وهي النخلة، فهي لي ولك في الدنيا، ولي دونك في الآخرة، لأني مؤمن وأنت كافر، ولا نصيب للكافر يوم القيامة في الجنة. وأما الروح فإن الله تبارك وتعالى خلق أرواح المؤمنين من النور وأرواح الكفرة من الظلمة وقرارها القلب، ومنتهاها الدماغ، فهي تلازم العقل ويلازمها، ولم يطلع الله تبارك وتعالى كنهها أحدا من خلقه ليضطرهم بذلك إلى رد العلم إليه، فإذا لم يحيطوا بأقرب الأشياء إليهم ومناه حياتهم به فعجزهم عن إدراك كنه ذات الله من باب أحرى. وأما ما يقول الناقوس عند نقره، فإنه يقول: سبحان الله حقا حقا، والحمد لله صدقا صدقا، انظر يا ابن آدم شرقا وغربا فإنك لا ترى فيها أحدا يبقى. وأما الرجل الذي لا أب له ولا أم فهو أبونا آدم عليه السلام، وقد سكت عن مثله أيها الملك وهو معبودك الذي تعبد بالباطل وهو عيسى بن مريم له أم وليس له أب، لأن الله تعالى لما خلق آدم أمر إسرافيل فحمل من طينة آدم فقال له: يا إسرافيل على تلك التربة

فإني أخلق منها نبيا صالحا في آخر الزمان من غير أب كما خلقت آدم، فأخذها إسرافيل، فلما أراد الله خلق عيسى عليه السلام في بطن أمه بعث الله سبحانه جبريل إلى إسرافيل، فقال له: يمكن لك الأمانة التي استودعته زمن خلق آدم عليه السلام، فناولها إسرافيل عليه السلام جبريل عليه السلام، وكانت مريم قد حبستها أمها على خدمة بيت المقدس فكانت تحطب على رأسها من البر وتأتي به فتبيعه في مصالح بيت المقدس، فأتاها جبريل عليه السلام وقد طهرت من حيضتها فذهبت إلى حائش تغتسل فيه، فلما فرغت من غسلها تمثل لها جبريل بشرا سويا فلما رأته يقصدها: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1]، فألقى التربة في رحمها وأخذ بكمها فنفخ فيها، فدخلت النفخة في فرجها حتى انتهت إلى رحمها فحملت بعيسى كما يحمل النساء، ووضعته كما يضع النساء، فالله تعالى خلقه من نفخة جبريل ومن بقية طينة آدم، فإن القدرة لا يعجزها شيء، فحملكم الشيطان على أن عبدتموه جهلا وضلالا، وصار بولص سبب غوايتكم حسدا منه لأسلافكم لما كانوا على الهدى، فتحيل حيلة أهلك نفسه وأهلككم بها فاتق الله يا قيصر ووحده، فإنه لا والد له ولا ولد له ولا شريك له في ملكه، فإن عيسى بعث كما بعث الأنبياء وأيده الله بروح القدس كما أيد به جميع الأنبياء ليبرئه بما رمته به اليهود من السحر والفاحشة. وأما الشيء الذي خلقه الله وسأل عنه فعصا موسى عليه السلام، فإنه لما رأى النور فحسبه نارا فقصده فبعث الله تعالى بالكلام، فأدركه الدهش فلاطفه الله سبحانه بأن آنسه بذكر عصاه التي كان يستأنس بها، فـقال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾[1]، فذهب عنه بذلك شدة الروع والدهش ليفهم ما يراد به من أمر الرسالة وفهم التوحيد. وأما الشيء الذي خلقه الله تعالى واستعظمه فهو كيد النساء كما في قصة يوسف حيث يقول العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ

[1] مريم: 18 – 19.

[1] طه: 17 – 18.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [1]. وأما الشيء الذي خلقه الله تعالى واستضعفه فإنه كيد الشيطان، ووجه ضعفه فإنه لا حجة ولا دليل معه ومبناه على الغرور والخديعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2]. وأما الذي خلقه الله ولم يرضه فكفر الكافر، فإنه تعالى خلق كفره وأراده وقدره ولم يرض به ونهى عنه، فقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [3]، وإن الله لا يأمر بالسوء والفحشاء، والكفر من أفحش الفواحش. وأما الذي خلقه الله وتعجب منه فكفر الكافر أيضا مع إقامة الحجة كما في قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [1]، وقوله: ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [2]، وقوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [3]، ومعنى تعجب الله إظهاره ما يتعجب لخلقه، وأما الله تعالى فإنه لا يتعجب لشيء. وأما كون أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون فهو كذلك، ومثال ذلك في الدنيا الجنين في بطن أمه، فإن الله تعالى جعل عرقين من باطن ظهر أمه يرتضع منهما رزقه، أحدهما بارد والآخر حار، فيرتضع الحار في الشتاء والبارد في الصيف لئلا يضر به الحر أو البرد، ولا يبول في بطن أمه ولا يتغوط، إذ لو بال وتغوط في بطن أمه لهلكت. وأما قولنا أن خزائن الله تعالى لا تنقص فإنه كذلك، ومثاله في الدنيا شعلة نار، فلو أن جميع الناس استوقد منها لكفتهم وهي بحالها لم تنقص. وأما مثال شجرة طوبى في الدنيا فالشمس، فإن الإنسان يغطيها بكفيه وليست بقعة من جميع العالم إلا وهي مشرقة عليها مع صغرها فيما يرى الناس وسعة الأرض وتباعد أطرافها. وأما قولك إنكم تقولون أن الله يبعث الأجساد بأعيانها لا

---

[1] يوسف: 28.

[2] النساء: 76.

[3] الزمر: 7.

[1] الرعد: 5.

[2] البقرة: 175.

[3] عبس: 17.

مثلها ولا مجرد الأرواح، فإن ذلك كذلك، ومثله من الأحياء العندم[1] فإنه إذا انقطع زمن المطر مات فأكلته التراب، وإذا جاء المطر بعثه الله تعالى فلقد رأيناه أحمر ناعما صدره وهو يجز بقيته أعوادا وترابا حتى يتم بعثه فيكون أنعم ما كان، فإنه يبعث كل سنة ويموت في كل سنة حتى تذهب مدة الدنيا، وأما المثال الذي ضربه الله تعالى في كتابه للبعث فإنه تعالى يميت الأرض بالجذب حتى يظن الظان ومن لا يقين له أن الله لا يحييها بعد ذلك، ثم يرسل عليها المطر فتهتز وتربوا وتنبت من كل زوج بهيج حتى كأنها لم تمت قبل ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[2]، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [1] الآية. ثم بعث عمر بالكتاب على قيصر فلما جاءه الكتاب من عند عمر مكتوبا بإسمه، قال قيصر: والله إن قاله عمر فمثل هذا لا يخرج إلا من صدر رجل من أهل بيت النبوة، فقال عمر عند ذلك: اللهم إني أعوذ بك من معضلة لا يشهدها أبو الحسن[2].

ولما وقع الحرب بينه وبين معاوية أتته طائفة من أحبار اليهود فقالوا له: ما أسرع ما اقتتلتم واختلفتم، فقال لهم علي رضي الله عنه: ما أسرع ما كفرتم إذ ما جفت أقدامكم من ماء بحر القلزم حتى قلتم لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فأفحموا وحجلوا فقالوا له: إنكم أوتيتم علم الأولين والآخرين والكرامات ودلائل الولاية، أعظمها الفتح في العلوم وإعطاء الحكمة، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [3]. وقد قال النبي ﷺ: « أنت في هذه الأمة بمنزلة عيسى بن مريم في بني إسرائيل، يهلك فيك اثنان: محب مفرط

---

[1] العندم : هو نبات "الأخوين" أو البقم، انظر: "تاج العروس" لمرتضى الزبيدي، فصل: العين المهملة مع الميم، مادة: ع ن د م، (153/33).

[2] فصلت: 39.

[1] الحج: 5.

[2] انظر: "تذكرة الخواص" المعروف بتذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة، لأبي المظفر يوسف بن قز أوغلي، الشهير بسبط ابن الجوزي، (ص 125).

[3] البقرة: 269.

ومبغض مفرط »[1]، فكان ذلك كذلك، فإن الشيعة أطره حتى اقتصروا بالثناء عليه على الثناء على النبي ﷺ، وبنو قشير ومن كان على مذهبهم يرمونه بالكفر لقتله أصحاب [ ][2] إلى غير ذلك من هذيانهم.

وكانت أمراء بني أمية يأمرون أهل طاعتهم بلعنه على المنابر، فهو رضي الله عنه أول من استنبط النحو وأسرار الحروف و[الجعفرية][3] وكثير من علوم الحقيقة. يروى أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن ليقضي بينهم ويعلمهم دين الله، قال له علي رضي الله عنه: تبعثني يا رسول الله إلى قوم أهل كتب وأنا شاب حدث ولا علم معي، فقال له: «ادن»، فدنى منه، فوضع ﷺ يده على صدره وقال: « اللهم ثبت جنانه وأطلق بالحكمة لسانه واجعل له فرقانا »، فقال علي رضي الله عنه: فوالله ما شككت في معضلة منذ دعا لي رسول الله ﷺ ووضع يده على صدري إلى يومي هذا، ولقد كانت العلوم تزدحم على صدري[1]، ولا زائد على قول النبي ﷺ: « أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي »[2]، فحملت الشيعة هذا الأثر الصحيح على غير ما هو له وحذفوا منه: «إلا أنه لا نبي بعدي»، فأوجبوا خلافته وأن هذا الحديث نص في خلافته، وقد أخطؤوا في ذلك خِطْئا بينا فتجارت بهم الأهواء حتى نسبوه إلى النبوة واشتغلوا بتكفير الشيخين، وأنهم نازعوا في أمر الخلافة من هو أحق بها منهم ومن غيرها، وقد ثبت وصح أنه قال: «علي مني وأنا منه » [3].

---

[1] ورد بلفظ آخر، انظر: "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم:1376، (468/2)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف الحكم بن عبد الملك القرشي.

[2] فراغ في (أ) و (ب).

[3] في (ب): الجفرية.

[1] "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند علي بن أبي طالب عليه السلام، رقم: 666، (92/2)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب.

[2] ح ص، "صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم:2404، (1870/4).

[3] "سنن ابن ماجة"، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل علي رضي الله عنه، رقم:119، (44/1)، و"سنن الترمذي"، أبواب: المناقب، باب: مناقب علي رضي الله عنه، رقم: 3719، (79/6)، قال الترمذي: ح س غريب.

و« اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[1]، وفي حديث آخر: « لا يحبك يا علي إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق »[2]، وفي حديث آخر: « حب علي من الإيمان وبغضه من الكفر»[3].

ولما كانت الليلة التي طعن فيها، بات في بيت ابن عباس فجعل يخرج وينظر إلى النجوم ويقول: ما كذب رسول اللهﷺ وما كذبت، ولكنها الليلة التي وعدت، ولما كان السحور خرج متوجها إلى مسجد الكوفة فاجتمع عليه الإوز فجعلوا يطردونه عنه، فقال لهم: اتركوهن فإنهم نوائح على علي، وجعل يقول:

اشـدد [حـيازيـمـك][1] للـمـو ت فـإن الـمـوت لاقـيـك

ولا تـجـزع مـن الـمـوت فـإن الـمـوت آتـيـك[2]

ورأى النبي ﷺ قبل ذلك بليال في النوم، أو في نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم، فقال له: ما لقيت يا رسول الله من أمتك؟، فقال له: هلا دعوت عليهم، فقال له: وبم أدعو عليهم يا رسول الله؟، قال: قل اللهم أبدلني منهم خيرا لي، وأبدلهم مني شرا لهم مني[3]، فكان الأمر كذلك.

ولما رأى من أهل العراق ما لا يعجبه وكثر خلافهم له قال: اللهم سلط عليهم الفتى الثقفي، لا يتجاوز عن مسيئهم ولا يحسن إلى محسنهم، ويحكم فيهم بحكم الجاهلية، ولما أحس أن أجله قد قرب وصل خطبته ثلاثة أيام، فأخبر فيها بالكوائن والدول وبعلم الجفر، فجعل أصحابه يتلقون ذلك منه ويكتبونه على النحو الذي أمرهم به من الرمز والإخفاء، فجاءت الأمور بعد ذلك على نحو ما بين لهم في أولئك الأيام.

---

[1] "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم ، باب: مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رقم: 4576، (118/3)، وقال الحاكم: ح ص على شرط الشيخين.

[2] ورد بلفظ قريب منه، انظر: "سنن النسائي"، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب:علامة الإيمان، رقم:5018، (115/8)، وقال الألباني: ح ص، وذكره أبو نعيم في: "حلية الأولياء"، (185/4)، وقال: هذا ح ص متفق عليه.

[3] لم أقف عليه.

[1] فراغ في (ب).

[2] هذه الأبيات من بحر الهزج لعلي بن أبي طالب عليه السلام، انظر: "الميسر في شرح مصابيح السنة" للتوربيشتي، باب: الفصل الذي في المعجزات، (1280/4).

[3] "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، باب: ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، (738/2).

ويروى أن عمر رضي الله عنه قال: والله ما تمنيت الخلافة أبدا إلا في يومين: في اليوم الذي بعث النبي ﷺ أبا عبيدة مع وفد نصارى نجران على أن يأخذ منهم الجزية، فقالوا: لا تبعث معنا إلا أمينا، قال لهم: « لأبعثن معكم غدا أمينا»[1]، أي أمين، فتشوفت لها يومئذ لأفوز بشهادة رسول الله ﷺ بالأمانة، فلما أصبحت بكرت وجعلت إزاء الرسول ﷺ ليبعثني معهم فلم يفعل، فقال: «أين أبو عبيدة؟ »، فجئ به إلى رسول اللهﷺ، فلما جاءه أخذ بيده فقال: « هذا أمين هذه الأمة »، ففاز بها أبو عبيدة [2]، اليوم الثاني في فتح خيبر فإنا قاتلناهم ثلاثة أيام فلم يفتح لنا بشيء فقال النبي ﷺ: « غدا أعطي الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه »[1]، فتشوفت لها يومئذ أيضا للفوز بشهادة النبي ﷺ ويحبني الله ورسوله، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ: « أين علي؟ »، فقلت له: إنه أرمد يا رسول الله ﷺ، فقال: «إيتوني به ولو كان أرمد »، فجئ به يقاد، فبصق عليه الصلاة والسلام في عينيه فبرئتا من حينهما وما رمدتا بعد ذلك حتى مات، فناوله الراية فقال له: « جاهد القوم ولا تتهيب ولا تلتفت، فإن الله يفتح على يديك »[2]، فقصد أحصن حصونهم فما رضي دونه ملكهم مرحب وعلى رأسه بيضة من حجر قد ثقبها وتحتها المغفر وهو يقول:

أنـــا الـــذي ســمتـني أمي مرحبا شـاكي السلاح بعد مـجرب[3]

فحمل عليه وهو يقول:

أنـــا الـــذي ســمتـني أمي حيدرة رحـب الذراعين فهي المنظرة

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المغازي، باب: قصة أهل نجران، رقم:4381، (172/5).

[2] عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي: الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، والصحابيّ، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وكان لقبه أمين الأمة، ولد بمكة وهو من السابقين إلى الإسلام، (ت 18 هـ – 639 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن عبد قيس، (252/3)، و سير أعلام النبلاء للذهبي، باب: أبو عبيدة بن الجراح، (5/1).

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في لواء النبي ﷺ، رقم: 2976، (54/4).

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب:غزوة خيبر، رقم:4210، (134/5).

[3] هذه الأبيات من البحر الرجز، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الجهاد والسير، باب:غزوة ذي قرد، رقم:1807، (1433/3).

أكيلكم بالسيف كيل السندرة [1]

فضربه على هامته ففلق الحجر والمغفر وفلق هامته تحتها، ثم توجه على حصنهم فجعلوا يلقون عليه الحجارة من الأرحية حتى أخذ باب الحصن فاجتذبه وكان محكما بسلاسل الحديد، فأخذه وتترس به وجعل يقاتل به حتى فرغ من فتح حصونهم، فجربوا ذلك الباب بعد ذلك فلم يقدر عشرة رجال على حمله حتى قال بعض علماء السلف: إن عليا رضي الله عنه معجزة من معجزات رسول اللهﷺ بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجر أخا من الأنصار ولم يبق إلا علي رضي الله عنه فقال له: وأين أخي يا رسول الله؟، قال: « أنا أخوك »، وأخذ بيده فكان ذلك فخرا وشرفا إذ لم يرض له بأخ دون نفسه.

ولما بلغه من بني أمية غض من منصبه، بعث إليهم بهذه الأبيات:

محمد النبي أخي وصـهـري وحمزة سيد الشـهداء عمـي

وجعفر الـذي يغـدوا ويمـسي يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعـرسي منوط لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ابناي مـنـهـا فأيكم من له سهم كسهـمي

سبـقـتكم إلـى الإسـلام طـرا صبيا ما بلغت أوان حلـمـي

وضعت العلم كأسا بعد كأس فأيكم من لـه عـلم كعلـمـي

ويشـهـد لي بالولاية علـيكم رسول الله يـوم غـديـر خـم[1]

وغدير خم غدير بين مكة والمدينة على أربعة مراحل من المدينة، فنزل عليه الصلاة والسلام واجتمعت عليه أمته، فأخذ بيد علي فقال: « أتعرفون هذا؟ »، قالوا: نعم، هو علي بن أبي

[1] من بحر الرجز، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الجهاد والسير، باب:غزوة ذي قرد، رقم:1807، (1433/3).

[1] هذه الأبيات من البحر الوافر لعلي بن أبي طالب، انظر: "المجتنى" لابن دريد، (26/1).

طالب، فقال: « من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[1]، فقام رجل من قريش فجعل يقول: نحن قد رضينا بولايتك علينا فما لنا ولولاية ابن عمك فلا نرضى بها، اللهم إن كان ما يقول حقا فأسقط علي حجارة من السماء، فشرخ رأسه ففقده أصحابه لما بطي عنهم فوجدوه قد سقط عليه حجارة فمات بها، فرجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه، فأمر بعض أصحابه أن يذهبوا إليه فيواروه فإنه كفر بعد إيمانه وشاق الله ورسول، فذهبوا إليه فواره، وذكر أن قوما من الصحابة مروا به من الغد فوجدوا قبره قد رمى به، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بذلك، فقال لهم: « إن الأرض تقبل من هو شر منه، ولكن الله تعالى أراكم ذلك لتعتبروا »[2]، انتهى.

ولم يبلغنا أن أحدا رمى به قبره إلا هذا الرجل ومحلم بن أثاثة التميمي، لأنه قتل رجلا مسلما من أشجع غيلة، فقدم على النبي أشجع وتميم وهم يطلبون بدم صاحبهم وتميم يستعفون رسول الله ﷺ لئلا يثور الحرب بين تميم وقيس فحقن دمه، فلما حقن دمه أمره قومه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له ففعل، فلما أتوا رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تغفر لمحلم»، فانصرف وهو يبكي ويمسح دموعه بكم حلته[1]، فلم ينشب أن مات فحفروا له قبرا فقذفه، ثم ثانيا فقذفه، ثم ثالثا فقذفه ولم يقبله، فقال بعضهم: لو حفرتم له جميع الأرض لم تقبله، لأن رسول الله ﷺ قد غضب عليه فلما أعياهم تركوه كذلك.

واتفق جمهور أهل السنة على أن تفاضل الخلفاء الأربعة على قدر تفاوتهم في الخلافة، فأفضلهم على الإطلاق أبو بكر ثم عمر ثم علي، فمن فضل أبا بكر ثم عمر ثم عثمان وعرف لعلي حقه من الفضل فهو سني، وكذلك من فضل الشيخين ثم عليا وأعطى عثمان حقه فهو أيضا سني، فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلفوا، فمنهم من يفضل عليا على عثمان

---

[1] انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب : معرفة الصحابة رضي الله عنهم باب:ما ذكر من اعتزال سعد بن أبي وقاص، رقم:4601، (126/3)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند علي بن أبي طالب عليه السلام، رقم 950، (262/2)، وهذا الحديث سكت الحاكم عن تصحيحه، وقال الأرنؤوط في تخريجه للحديث في المسند: صحيح لغيره.

[2] لم أقف عليه.

[1] بلفظ آخر، "المعجم الكبير" للطبراني، باب: سعد بن ضميرة السلمي، رقم: 5455، (41/6)، و"سنن أبي داود"، كتاب: الديات، باب: الإمام يأمر بالعفو في الدم، رقم: 4503، (171/4)، قال الألباني: ح ض، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

ومنهم من يفضل عثمان على علي بخلاف من فضل عليا على الشيخين فإنه لم يختلف أحد من السلف الصالح على كونه بدعيا لخرقه الإجماع وتكذيبه لما ورد عن رسول الله ﷺ في الأثار الصحيحة أن أبا بكر وعمر أفضل من غيرهما من جميع الصحابة، قال عليه الصلاة والسلام: « إن لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض، أما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر، فهما مني بمنزلة السمع والبصر »[1]. ثم بقية الستة من العشرة فهم أفضل ممن بقي من الأمة بعد الخلفاء الأربعة لما روي أن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: « أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة بن عبد الله في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمان بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»، ثم سكت فقلنا له: ننشدك الله من العاشر، فقال: «إذ أنشدتموني فهو سعيد بن زيد»[1] يريد نفسه، أخرجه الطبراني وغيره بأسانيد صحيحة. ثم سباق المهاجرين والأنصار، ثم من شهد بدرا، ثم أصحاب بيعة الرضوان، ثم عامة المهاجرين والأنصار، ثم عامة الصحابة، ثم عامة أهل قرنه، كما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(مرتين)»[2]، وفي رواية أخرى: « خير القرون الذي بعثت فيه»[3].

وفي كل أصحاب رسول الله خير، من باشر منهم الفتنة ومن لم يباشرها لأن صحبة رسول الله ﷺ لا يعدلها شيء لأن جميعهم على حق وحقيقة، فإن عليا وحزبه اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران، وأما معاوية وحزبه فإنهم اجتهدوا فأخطؤوا فلهم أجر واحد.

---

[1] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "مسند البزار" (البحر الزخار)، باب: مسند ابن عباس رضي الله عنهما، رقم: 4919، (178/11)، و"المستدرك على الصحيحين"، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرحمان الرحيم من سورة البقرة، رقم: 3047، (290/2)، وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه، وعبد الرحمان بن مالك لين الحديث، وسكت عنه الحاكم في مستدركه.

[1] ورد بلفظ آخر، "المعجم الأوسط " للطبراني، باب: من اسمه أحمد، رقم: 869 ، (267/1).

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم:2652، (171/3).

[3] لم أقف عليه.

ولما سئل عمر بن عبد العزيز عن أمر علي ومعاوية قال لهم: " تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلا نلطخ بها ألسنتنا "[1]، بل الواجب الإمساك عما شجر بينهم والتماس أحسن المخارج لهم وأن لا يذكر أحد إلا بخير، ومن ذهب إلى غير ذلك بتأويل أو بغير تأويل فقد احتمل ما لا طاقة له بحمله وكلف نفسه ما لا يطيق ويخاف عليه أن يجره ذلك إلى الكفر الصراح، لأن الله تعالى قد مدحهم في غير ما آية وهو العالم بسرائرهم وما هم آيبون إليه فقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [2]، وقال في أصحاب بيعة الرضوان وكانوا أربع عشرة مائة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [1]، وقد أثنى على الجميع في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2]. فإن الله تعالى إذا رضي على عبده لا يمحوا رضوانه شيء كما في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3]، فلا شيء في الدنيا ولا في الآخرة يعادل رضوان الله تعالى، يمحوا السيئة بالحسنة ولا يمحوا الحسنة بالسيئة فما ظنك برضوان الله تعالى.

ومن الواجب اعتقاده براءة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل النفاق، فمن سبها بشيء مما برأها الله منه أو تنقصها أو اعتقد في قلبه فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه، وأوثق نفسه في المهالك والكفر لتكذيبه كتاب الله، كيف وقد ورد في براءتها عشر آيات مشتملة على التهديد والوعيد الشديد وتقبيح حال من رماها، بل الواجب حسن الظن والحب والإجلال لجميع أزواج النبي ﷺ وجميع زوجات الأنبياء إلا ما استثنى الله تعالى منهن كزوجة نوح وزوجة لوط،

---

[1] انظر: "شرح الطيبي على مشكاة المصابيح" المسمى: (الكاشف عن حقائق السنن)، باب: كتاب الفتن، (3416/11).

[2] آل عمران: 110.

[1] الفتح: 18.

[2] التوبة: 117.

[3] التوبة: 72 .

قال ابن عباس:" ما بغت زوجة نبي قط "[1]. ومن حديث ابن المسيب عن عائشة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ، قالت: فأقرع بيننا في غزوة له فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين، أذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قلت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهو يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم ينقلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديث السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي به [بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به] [1] وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة بمنزلي إذ غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الدكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وأهوى حتى أناخ راحلته فوطأ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين، وفي رواية: موغرين في نحر الظهيرة، [قالت: فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبر الإثم عبد الله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك إلا أنه يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول

[1] انظر : "تفسير ابن عرفة"، (255/4).

[1] ساقط من (ب).

كيف تيكم ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني منه ولا أشعر بشيء حتى نقهت فخرجت أنا وأم ومسطح قبل المناصع وهي متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، فأقبلت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فحين فرغنا من شأننا رجعنا نمشي فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، تسبين رجلا شهد بدرا، فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قال؟، قلت: وما قال؟، فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، وقال: كيف تيكم؟، فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبواي، قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فأتيت أبواي، فقلت: يا أماه ماذا يتحدث الناس به؟، فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند زوجها يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله، لقد تحدث الناس؟، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرق لي دمع ولا اكتحلت بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، فاسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة هل رأيت منها شيئا يريبك؟»، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق بشيرا إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: وهو على المنبر: « من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي »، وفي رواية: « في أهل بيتي »، « فوالله ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي »، قالت: فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله إنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن

كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه وكان رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله والله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يوم ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى بكيت ليلتي المقبلة لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبحت عند أبواي وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: « أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»، فلما قضى رسول الله ﷺ قوله، قلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، وقالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن، فقلت: والله إني لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بذنب والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ إني بريئة، وأن الله سيبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحيا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر أن يتكلم الله فيَّ] [1] بأمر يتلى، ولكن كنت أرجوا أن يرى

[1] مبتور من (أ).

رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: « يا عائشة احمدي الله »، وفي رواية: « أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك »، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي من الإفك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[1] العشر آيات، ولما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته وفقره، والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال في عائشة ما قال، فأنزل الله:﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله:﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1]، فقال أبو بكر الصديق: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه. وكان رسول الله ﷺ قد سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: « يا زينب ما علمت؟»، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبيﷺ، فعصمها الله بالورع [2]، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك، قال ابن شهاب في مصنفه:" فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط "، زاد في رواية: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك شهيدا [3]، وهذا الحديث متفق على صحته، وقد أخرجه الشيخان في صحيحيهما. إلا أن البخاري زاد في رواية عن عروة عن عائشة: أن الذي تولى كبره منهم: عبد الله بن أبي بن سلول، وقال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقرره ويشيعه ويستوشيه، قال عروة: لم يسم لي من أهل الإفك

[1] النور: 11.

[1] النور: 22.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم: 2661، (173/3).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: المغازي، باب: حديث، رقم:4141، (116/5).

إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحصينة بنت جحش في أناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى، قال عروة: وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: أنه الذي قال: فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم فداء، أخرجاه من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان ينشد شعرا بسبب ما نسب إليه، ومن ذلك الشعر:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[1]

فقالت عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق: فقلت لها: أتأذنين له أن يدخل عليك بعد ما قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [1]، قالت: وأي بلاء أشد من العمى، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ[2].

واختلف علماء السلف في عائشة وخديجة أيهما أفضل، فمذهب الجمهور إلى أن خديجة أفضل، لأن منزلتها في النساء كمنزلة أبي بكر في الرجال، فكذلك خديجة صديقة النساء، ويشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد »[3].

واختلفوا أيضا في فاطمة وخديجة أيهما أفضل، فذهبت طائفة إلى أن خديجة أفضل لأن الله تعالى أقرأها السلام من عنده، وكانت وزيرة رسول الله ﷺ فأعانته بنفسها ومالها، وكانت امرأة شريفة في قريش تاجرة ذات أموال، ولم يبق شريف من شرفاء قريش إلا خطبها فأبت عليه، فلما

---

[1] الحديث رواه مسلم، وهذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، رقم:2488، (1934/4).

[1] النور: 11.

[2] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: المغازي، باب: حديث، رقم:4146، (121/5).

[3] ح ص، ورد بلفظ مختلف قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: "ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون "، رقم:3411، (158/4).

تفرست في رسول الله ﷺ علامة النبوة دعته إلى نفسها، وكان لا يهمه أمر إلا سهلته عليه وأعطته جميع أموالها ليستعين بها على أمر ربه.

ويروى أن آدم عليه السلام كان يقول: فضلني ابني محمد بخصلتين: إحداهما أن زوجته كانت عونا له على دينه، وزوجتي كانت عونا علي حتى أكلت من الشجرة، الثانية أن قرينه من الجن أسلم وكان لا يأمره إلا بخير، وقريني بقي على كفره.

قيل إن أفرس النساء أربعة: صفورا بنت شعيب في موسى حيث قالت له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[1]، وما قالت ذلك إلا لرغبتها في موسى أن يتزوجها، لأنها قد تخيلت فيه النبوة بفراستها، الثانية آسية بنت مزاحم فيه أيضا حيث قالت لفرعون لما أراد قتله: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [1]، فقال فرعون: وهبته لك، وأما أنا فغني عنه، فهداها الله إلى الإسلام والسعادة الأبدية [بدعوته] [2] إياها وحبها له مع تفرسها فيه النبوة، الثالثة خديجة بنت خويلد في النبي ﷺ، والرابع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في عمر، فلأجل ذلك استحلفه على الأمة، فأتى عمر على فراسته فيه وفوق ذلك.

وكان النبي ﷺ لا تأتيه امرأة من النساء التي كن تأتين خديجة إلا أكرمها وأقبل عليها حتى أتته امرأة يقال لها حسانة في أيام عائشة، فقال لها: « من أنت؟ »، فقالت: أنا حسانة، فقال لها: « أنت حسانة التي كنت تأتينا زمن خديجة »، فرحب بها وأقبل عليها ووصلها، فقالت له عائشة: تقبل مثل هذا الإقبال على عجوز، فقال لها: « يا عائشة، حسن العهد من الإيمان، كانت تأتينا أيام خديجة »[3]، فقالت له عائشة: « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين، قد بدلك الله خيرا منها »، فغضب النبي ﷺ حتى احمر وجهه، فقال: « والله ما بدلني الله خيرا منها، آمنت في حين كفر الناس، وأعطتني حين حرص الناس، وآزرتني على دين الله أحسن

---

[1] القصص: 26 .

[1] القصص: 9 .

[2] ساقط من (ب).

[3] بلفظ آخر، انظر:"المستدرك" للحاكم، رقم:40، باب: حديث معمر، (62/1)، وقال الحاكم: ح ص على شرط الشيخين.

المؤازرة[1]، وأتاني جبريل بالسلام عليها من ربها، فقال لي قل لخديجة إن ربك يسلم عليها ويبشرها ببيت في أعلى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب »[2].

وأما عائشة فهي أفضل من بقية أزواجه بعد خديجة، يروى أن جبريل نزل على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة فقال له: سلم على عائشة مني، فقل لها إن فضلها على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [1]، وكانت عالمة فقيهة ولها خبرة أيضا بأنساب العرب وأيامها وأشعارها. يروى أن معاوية بعث إليها لما ولي الشام أن ابعثي لي بوصية وأوجزي، فكتبت إليه أن اخش الله في الناس ولا تخش الناس في الله، فإنك إن أغضبت الناس في مرضاة الله رضي عنك وأرضاهم، وإن أسخطت الله في الناس سخط عليك وأسخطهم، فإن قلوب الخلق في يد الله يقلبها كيف يشاء، ولا تغرنك الدنيا، فإنها كما وصلت إليك من غيرك، فإنها واصلة إلى غيرك منك، واتق الله في أمة محمد ﷺ، فإنك المسؤول عنها يوم القيامة، ولا يغرنك المهل، فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل، يقسي قلبك طول الأمد، فإن الله تعالى يقول في ذم اليهود: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [2]، ولا تحدث نفسك بما تفعل في غد، فإنه ليس لك إلا اليوم الذي أنت فيه، فانظر ما أنت مقدم ليومك من غدك، فإن يومك دنياك وغدك آخرتك، وإنما هي أيام خالية وأجسام بالية وأحلام كاذبة وآجال طالبة ومقادير سالبة وأحكام غالبة، فإذا دعتك قوتك إلى ظلم من هو دونك فتذكر قوة من هو أقوى منك ومن جميع العالمين، فإن قبلت وصيتي وفهمتها فليكن الموت أحب غائب إليك، وإن طرحتها فليكن الموت

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم:3821، (39/5)، و"مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، رقم: 24864، (356/41).

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم: 3819، (39/5).

[1] لم أقف عليه.

[2] الحديد: 16.

أبغض غائب عنك والسلام[1]. ومن حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل فقيل له: من أحب الناس إليك؟، فقال:« عائشة »، فقيل له: ثم من؟، قال: « أبوها؟ »[2].

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقد اتفق جمهور علماء السلف على أنها أفضل من أمها خديجة فضلا عن عائشة، واحتجوا بقول النبي ﷺ: « فاطمة بضعة مني، من أرضاها فقد أرضاني، ومن أغضبها فقد أغضبني »[1]، ولا يعادل بضعة رسول الله ﷺ شيء، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قدم من غزوة بدأ بها فتلقاه فيقبلها بين عينيها ويجلس عندها هنيئة، ثم يأتي المسجد فيصلي فيه تحية المسجد ويجلس لأصحابه هنيئة، ثم ينصرف إلى بيت عائشة، ثم إلى بيوت أزواجه بعد ذلك برسم التحية، وكانت فاطمة أشبه الناس برسول الله ﷺ، ولما انصرف من غزوة تبوك بدأ بها على عادته فوجدها وقد اتخذت قلادة من ورق وسوارين فلم يجلس عندها، بل انصرف إلى المسجد، ففهمت ذلك منه فبعثت إليه بالقلادة والسوارين فلحقا به وهو بالمسجد، وقالت للرسول: قل له يجعلها في أهل الصفة، فلما رأى ذلك سر حتى استنار وجهه، فجعل يقول: « فعلت فداها أبوها، فعلت فداها أبوها »، ثم رجع إليها فجلس عندها كما كان يجلس، فقال لها: « أتدرين يا فاطمة لما سماك الله فاطمة؟»، ثم قال: «لأنه فطمك عن الشهوات »، ثم قال لها: « أتدرين لما سماك الله البتول؟، لأنك منقطعة عن الشهوات ومن الرجال »، ثم قال لها: « إن المؤمنين والمؤمنات ليسوا بالمتنعمين ولا بالمتنعمات »، ثم انصرف عنها [2].

---

[1] لم أجد الوصية كما ذكرها المؤلف، وجدتها موجزة بهذا اللفظ، انظر: "الزهد والرقائق" لابن المبارك، باب: الاخلاص والنية، (66/1): كتب معاوية إلى عائشة: أن اكتبي إلي بكتاب توصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت: من عائشة إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺيقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله عز وجل وكله الله عز وجل إلى الناس، والسلام عليك».

[2]بلفظ آخر،"سنن الترمذي"، أبواب:المناقب،باب:فضل عائشة رضي الله عنها،رقم:3890،(190/6)، قال الترمذي: ح س.

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر:"صحيح البخاري"، كتاب: أصحاب النبي ﷺ باب:مناقب قرابة رسول الله ﷺ، رقم:3714، (21/5).

[2] لم أقف عليه.

يروى أن رجلا من أعراب اليمن بلغه أمر النبي ﷺ فاشتاق إليه فركب حتى أناخ بالمسجد وقد هزلت ونقبت، فقال: يا محمد إنما سافرت من أقصى بلاد اليمن لأنظر إليك، وأصل حبلي بحبلك ، وجعل يقول :

من بـطن برهـوت تهـوي في عذافـرة إليـك يا خـير من يحـفى ويـنتعل[1]

في أبيات غير هذا، فعرض عليه ﷺ الإسلام فأسلم، وعلمه سورا من القرآن، ثم قال لهم: «فقهوا أخاكم في دينه فإنه صادق »، فقال للنبي ﷺ بعدما تفقه في دينه: إني قد أبدع بي وأحب أن ترى علي آثار فضلك، فقال: « من يأتيه بقلوص، وله قلوص في الجنة »، فقال عثمان: أنا يا رسول الله، فقال: « من يرديه وله رداء في الجنة »، فقال علي: أنا يا رسول الله، فقال: « من يتوجه وله تاج في الجنة »، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، وبعث ﷺ إلى نسائه ليزودوه فلم يوجد في بيوتهن شيء، وكان الرسول سلمان، فذهب إلى بيت فاطمة فقال لها: هل عندك من شيء يزود به ضيف رسول الله ﷺ، فقالت له: إن الحسن والحسين منذ ثلاثة أيام طاويان، ولكن اذهب بقميصي هذا إلى فلان اليهودي، وقل له إن فاطمة تقول لك خذ درعي هذا وابعث إلي بصاع أزود بها ضيف رسول الله ﷺ، فإذا فتح علينا بشيء قضيتك وأخذت درعي، فقال اليهودي لسلمان: أنشدك الله يا سلمان، هذا درع فاطمة بنت محمد، فقال له سلمان: اللهم نعم، فجعل اليهودي يقول: هذا الزهد وإلا فلا زهد، فأعطاه صاعا من تمر وآصعا من شعير وآصعا من بر، ثم قال: ارجع إليها بدرعها، وقد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، وبرئت لله من دين اليهودية، فأتيت فاطمة فقالت لي: اذهب بجميعه إلى رسول الله ﷺ، فقلت لها: ألا تأخذي ما تقوتي به الحسن والحسين، فقالت: سيفتح الله عليهما، فاذهب بهذا، فما هو إلا انصرفت رفعت يديها فقالت: اللهم إن كان لك بي عناية، فأنزل علي ما تذهب به جوعة الحسن والحسين من غير منة لأحد، فأنزل الله عليها مائدة من السماء، فلما نزلت عليها تركتها بحالها، ثم بعثت إلى النبي ﷺ وعلي فأتياها، فلما دخلا بيت علي وجدا

[1] هذه الأبيات من البحر البسيط، انظر: "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (399/3).

رائحة الطعام، فقال النبي ﷺ لفاطمة: « ما هذه الرائحة الزكية التي أجدها في بيتك؟ »، فقالت: هي رائحة جفنة من طعام، فقال لها رسول الله ﷺ: « ومن أين لك هذا الطعام؟ »، فقالت: هو من عند الله، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمتي مثل مريم بنت عمران »، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]، فأخرجتها لهما فأكلا طعاما لم يريا مثله، ثم أكلت هي والحسن والحسين، فلما شبع الجميع رفعت حتى توارت في السماء [1]، وهذه كرامات من كرامات الأولياء أكرم بها فاطمة وابنيها.

ولما أحس بنفسه عليه الصلاة والسلام دخلت عليه، فلما رأت ما به من كرب الموت بكت، فأشار إليها أن تدنوا منه فسارها، فقال لها: « إني مقبوض الآن، وإن الله خيرني بين الدنيا وما عنده، فاخترت ما عنده، وإنك أول أهلي لحوقا بي »، فضحكت سرورا بالموت [2]. فلم تلبث بعده في الدنيا إلا أربعة أشهر، ولما جعلوا يحثون التراب في قبره قامت عليه وهي تبكي، فقالت لهم: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول اللهﷺ، فقالوا لها: وهو يبكون، لم يكن ذلك عن طيب أنفسنا، فأخذت قبضة من تراب قبره وجعلت تقول:

ماذا علي من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا[3]

ثم جعلت تقول أيضا:

قد كنت لي جبلا ألوذ بركنه فتركتني أمشي بأجرد ضاح

---

[1] آل عمران: 37.

[1] لم أقف عليه.

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضائل فاطمة بنت محمد عليها السلام، رقم:2450 ، (1905/4).

[3] هذه الأبيات من البحر الكامل للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، انظر: "شرح المشكاة" للطيبي، المسمى (الكاشف عن حقائق السنن)، باب: البكاء على الميت، (1422/4).

إلى أن قالت:

فـاليـوم أخضع لـلذليل وأتـقـي بــه وأدفــع قـاصـدي بـالــراح[1]

ولما قبضت بعد رسول الله ﷺ جعل علي يقول:

أرى عــلل الدنـيا علـي كـثيرة وصاحـبها حـتى الممات عليل

وإن افتقادي واحدا بعد واحـد دلـيل على أن لا يـدوم خليل

شـهدت بـأن الله لا رب غـيره وأن الــذي دون الـممات قـلـيـل[1]

فما اكتحلت رضي الله عنها بعده بنوم، ولا ذاقت طعاما ولا شرابا إلا وهو ممزوج بدمعها حتى لحقت به رضي الله عنها، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول أبي سفيان بن الحارث[2] وهو:

أرقت فبات لـيلي لا يــزول وليل أخي المصـيبة فيه طول

وأرقني الـبكاء وذاك فـيـما أصـيـب المـسلمون بـه قليل

لقد عظمت مصيبتنا وجلـت عـشية قيل قد قبض الرسول

وأمست أرضنا مما عـراهـا تـكاد بـنا جـوانبــها تـميل

فقدنا الوحي والتنزيل فـيــنا يـتـروح به ويـغدوا جـبـريـل

فذاك حقا ما سـألت عـليـه نفوس الناس أو كـادت تسـيـل

نبي كان يجـلي الشك عـنـا بـما يـوحى إلـيـه ومـا يـقـول

ويهدينا فـلا نـخـشى ضـلالا عـلــيـنا والرسول لـنـا دلـيـل

أفاطم إن جزعت فـذاك عـذر وإن لـم تـجـزعي ذاك السـبـيـل

---

[1] هذه الأبيات من البحر الكامل للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، انظر: "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لابن سيد الناس اليعمري، (409/2).

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل ، لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر: "سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي" لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، (80/3).

[2] أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : صحابي، وابن عم رسول الله ﷺ، تأخر إسلامه حتى فتح مكة، ثم شهد مع النبي محمد غزوتي حنين والطائف، وتوفي في المدينة المنورة في خلافة عمر بن الخطاب، (ت 15 هـ / 637 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: أبو سفيان بن الحارث، (202/1).

فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول[1]

ومما أكرم الله به زوجاته ﷺ تخييره لهن بأمر الله، فأنزل الله في شأنهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ [سَرَاحٗا جَمِيلٗا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [1]، وإنما خيرهن ليظهر الله فضلهن، لأن الله خيره بين العبودية والملك فاختار العبودية، فأمره أن يعرض على نسائه ذلك فعرضه عليهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فصيرهن أمهات لجميع المؤمنين فلا أحداد عليهن ولا أعداد وأوجب توقيرهن وإجلالهن والثناء عليهن واحترامهن. ثم أثنى عليهن بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [2]. ثم إن نساء النبي ﷺ سألنه من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة، وأذينه بغيرة بعضهن على بعض، فهجرهن ﷺ وآلى أن لا يقربهن شهرا، ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا: ما شأنه، وكانوا يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر: لأعلمن لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أطلقتهن؟، قال: «لا»، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه، قلت: فأذن لي أن أخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: « نعم إن شئت »، فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي، فقلت: لم يطلق رسول الله نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [3]، فكنت أنا الذي استنبطت هذا الأمر، وأنزل الله آية التخيير، وكان تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة، خمسة منهن من

---

[1] هذه القصيدة من البحر الوافر لأبي سفيان بن الحارث، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: أبو سفيان بن الحارث، (204/1).

[1] الأحزاب: 28 – 29.

[2] الأحزاب: 33.

[3] النساء: 83.

قريش، وهي عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيب بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وأربع غير قريشيات، وهي زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب النضيرية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة وكانت أحبهن إليه، فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرئي الفرح في وجه رسول الله ﷺ وبايعها على ذلك، فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك فقصره عليهن، فقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ] [1] لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ [2] "[3]. ومن حديث جابر بن عبد الله قال: أتى أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، فأذن له، فوجد رسول الله ﷺ وحوله نساءه واجماً ساكناً، قال: فقلتُ: لأقولنَّ شيئاً أضحك النبي ﷺ شيئا أضحك به، فقال: يا رسول الله لقد رأيت من بنت خارجة، سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ فقال: « هن حولي كما ترى يسألنني النفقة »، فقام أبو بكر إلى عائشة فجعل يؤجي عنقها، وقام عمر إلى حفصة فوجأها، وكلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرا، أو تسعا وعشرين، حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ﴾ حتى بلغ : ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [4]، فبدأ بعائشة، فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك»، قالت: وما هو يا رسول الله؟، فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبواي، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: « لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا »[5].

---

[1] مبتور من (أ).

[2] الأحزاب: 52.

[3] "تفسير البغوي"، (632/3).

[4] الأحزاب: 28-29.

[5] ح ص، "صحيح مسلم،" كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية،رقم:1478، (1104/2).

قوله:" واجما ": أي مهتما، والواجم هو الذي أسكته الهم وعلته الكآبة، وقيل الوجوم الحزن.

قوله: " فوجأت عنقها " أي دققته.

وقوله:" لم يبعثني متعنتا "، العنت المشقة والصعوبة.

ومن حديث الزهري أن النبيﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا. قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة: فلما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهن، دخل رسول الله ﷺ على عائشة فقالت: تراني يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا، وأنك من تسع وعشرين أعدهن، فقال: « إن الشهر تسع وعشرون »[1]، أخرجه مسلم في صحيحه.

واختلف العلماء في هذا الخيار، هل كان من باب تفويض الطلاق إليهن حتى يقع نفس الاختيار أم لا ؟، فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم أنه لم يكن تفويض الطلاق، وإنما خيرهن على أنهن إذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى: ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [2]، بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور وأنه قال لعائشة: « لا تعجلي حتى تستشيري أبويك »، فتفويض الطلاق فإذا كان بمعنى الطلاق فإن الجواب لا يكون إلا على الفور، وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق، فلو اخترن أنفسهن لكان طلاقا. فالتفريع على حكم الآية هو أن أهل العلم قد اختلفوا في حكم التخيير، فقال ابن مسعود وابن عباس: إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها فإنه لا يقع شيء من الطلاق، وإن اختارت نفسها فإنما تقع طلقة واحدة ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي، وذهب قوم إلى أن الواقع طلقة بائنة، وإذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك، روى على أنها إذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة، وإذا اختارت نفسها فطلقة بائنة، والذي عليه أكثر العلماء أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شيء، وعن مسروق قال: ما أبالي اختارت امرأتي واحدة أو مائة أو ألفا بعد أن تختارني،

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء، رقم: 1475، (1103/2).

[2] الأحزاب: 28.

ولقد سألت عائشة رضي الله عنها: فقالت: خيرنا رسول الله ﷺ فكان طلاقا، وفي رواية: فلم يعد ذلك شيئا [1].

واعلم أن الله ضاعف أجورهن وعقباهن لعلو منصبهن كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ [1]، أي معصية ظاهرة، وهذا مجرد فرض لأنه ما وقع منهن ما يكون من باب خلاف الأولى فضلا على أن يأتين بفاحشة، فإن الله تعالى قد صان أزواج الأنبياء عن الفاحشة، وقال ابن عباس: " إن المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق "[2]. ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، وسبب تضعيف العذاب لهن شرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة لأن نسبة النبي ﷺ إلى غيره من الرجال كنسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فكذلك أزواجه بالنسبة إلى غيرهن كنسبة الحرة إلى الأمة، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [3]، أي عذابهن إن استوجبن ذلك، ثم أتبع ذلك بما يقوي رجاءهن فقال: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [4]، أي تطع الله ورسوله، ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾، أي تثيبها على الضعف من أجر غيرها، فتكون الحسنة بعشرين حسنة، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن، وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين. ثم بشرهن تعالى بالجنة فقال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ [5]، أي الجنة. ثم نص سبحانه على فضلهن على سائر نساء العالمين دنيا وأخرى وبرزخا فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [6]، قال ابن عباس:" ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم علي وثوابكن

---

[1] "تفسير البغوي"، (634/3).

[1] الأحزاب: 30.

[2] "تفسير البغوي"، (635/3).

[3] الأحزاب: 30.

[4] الأحزاب: 31.

[5] الأحزاب: 31.

[6] الأحزاب: 32.

أعظم لدي" [1]، لأن الأكرم عند الله هو الأتقى، وقد أكرمهن الله تعالى بالتقى ثم أمرهن بالآداب الحسنة، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا تلن بالقول للرجال، ولا ترفقن الكلام. ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، أي فجور وشهوة أو نفاق، فلا تقلن قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا إلى الطمع فيكن، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لتقطع الأطماع فيها، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، يوجب الدين والإسلام عند الحاجة إليه ببيان من غير خضوع، وقيل القول المعروف ذكره تعالى الأدب الثالث. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1]، أي إلزمن بيوتكن مع الوقار والسكون والإحسان وبذل النصيحة. ثم نهاهن عما لا يليق بمنصبهن فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ومعنى التبرج هو التكسر والتبختر وإظهار الزينة وإبراج المحاسن إلى الرجال. ثم بين صفة ما نهاهن عنه فقال: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، فالجاهلية الأولى هو ما بين عيسى ومحمد ﷺ، وقيل هو زمن داوود عليه السلام، فكانت المرأة في ذلك الزمان تلبس قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلفها منه، وقيل كان ذلك في زمن النمرود الجبار، كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي به في جادة الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال، وقال ابن عباس: " الجاهلية الأولى ما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة "[2]، وإن بطنين من ولد آدم عليه السلام كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكانت رجال الجبل صباحا وفي نسائهم ذمامة، وكان نساء السهل صباحا وفي الرجال ذمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فآجره نفسه وكان يخدمه، واتخذ شيئا مثل المزمار، فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيدا يجتمعون فيه بالسنة، فتبرج النساء للرجال، ويتبرج الرجال لهن، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك،

---

[1] "تفسير البغوي"، (635/3).

[1] الأحزاب: 33.

[2] "تفسير البغوي"، (636/3).

فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهم فنزلوا معهم، فظهرت الفاحشة بينهم، فذلك قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

والصحيح أن الجاهلية ما قبل الإسلام، والجاهلية الأخيرة قوم يجيئون في آخر الزمان يفعلون مثل فعلهم.

ثم أمرهن سبحانه بآداب الدين، فقال لهن: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الواجبة، ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي المفروضة، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [1]، فيما أمر به ونهى عنه. ثم بشرهن سبحانه بما يريد بهن من الخير ورفع المنصب وهو الفعال لما يريد، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [2]، أي الإثم الذي نهى النساء عنه، وعمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا، والشك والسوء، ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي نساء يا نساء النبي، لأنهن في بيته، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وتلا قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [3]، وهو أيضا قول عكرمة ومقاتل[4]، وذهب غيرهم إلى أن المراد بأهل البيت علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، واستدلوا على ذلك بما روي عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس، فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [5]. المرط: الكساء، والمرحل: بالحاء، المقوش عليه صور، الرجال: بالجيم المنقوش عليه صور الرجال.

---

[1] الأحزاب: 33.

[2] الأحزاب: 33.

[3] الأحزاب: 34.

[4] "تفسير البغوي"، (637/3).

[5] ورد بلفظ قريب منه، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: من مناقب أهل رسول الله، رقم:4707، (159/3)، وقال الحاكم: هذا ح ص على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

ومن حديث أم سلمة أنها قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [1]، قالت: وأنا جالسة عند الباب، فقلت: ألست من أهل البيت، فقال: « أنت إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ »، قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ، وعلي وفاطمة وحسن وحسين، فجلاهم بكساء وقال: « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »[2]، أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب.

ومن حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، فيقول: « الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3]»[4]. والصحيح أن المراد بذلك تطهير أزواجه ﷺ كما يقتضيه سياق الآية ما تقدمها وما يأتي بعدها، وبذلك احتج ابن عباس ومثله من المحققين، واستدل بقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [5]، والمراد بالآيات القرآن، وبالحكمة السنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾، بأوليائه وأهل طاعته، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه.

ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[6] الآية، وسبب نزولها أن نساء النبي ﷺ قلن: يا رسول الله؟، إن الله ذكر الرجال في القرآن، ولم يذكر النساء بخير بما فينا خير نذكر به، إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة، فأنزل الله هذه الآية[7].

---

[1] الأحزاب: 33.

[2] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: من سورة الأحزاب، رقم:3205، (204/5)، وقال الترمذي: هذا ح غ من هذا الوجه، وقال الألباني: ح ص.

[3] الأحزاب: 33.

[4] "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر مناقب فاطمة بنت محمد عليهما السلام، رقم:4748، (172/3)، وقال الحاكم: وهذا ح ص على شرط مسلم ولم يخرجه.

[5] الأحزاب: 34.

[6] الأحزاب: 35.

[7] "تفسير الخازن"، (425/3).

ومن حديث أم عمارة الأنصارية أنها قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كل شيء يضاف إلى الرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [1] "[2]، أخرجه الترمذي.

وروي أن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وأنيسة بنت كعب الأنصاري قالتا للنبي ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء بشيء من كتابه، ونخشى أن لا يكون فيهن خير، فنزلت هذه الآية [3].

وروي أن أسماء بنت عميس لما رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن، قلن: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسارة، قال: «ومم ذلك؟»، قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [4]، فذكر لهن عشر مراتب مع الرجال فمدحهن بها:

الأول: الإسلام، وهو الانقياد لأمر الله تعالى، كما جاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [5].

الثانية: الإيمان بما يرد به من أمر الله تعالى، وهو تصحيح الاعتقاد، وموافقة الظاهر الباطن كما في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

الثالثة: العمل بالطاعة كما في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

الرابعة: الصدق في الأقوال والأفعال كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

---

[1] الأحزاب: 35.

[2] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن، باب: من سورة الأحزاب، رقم:3211، (207/5)، وقال الترمذي: هذا ح س غريب.

[3] "تفسير الخازن"، (425/3).

[4] المصدر نفسه، (426/3).

[5] الأحزاب: 35.

الخامسة: الصبر على أمر الله فيما ساء وسر كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

السادسة: الخشوع في الصلاة، وحقيقته مباشرة الهيبة والإجلال والخوف بالقلب كما في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾.

السابعة: الصدقة مما رزق الله كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

الثامنة: المحافظة على الصوم كما في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

التاسعة: كما في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ أي عما لا يحل لهم، ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾.

العاشرة: كثرة الذكر كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[1]، قيل إن العبد لا يكون ذاكرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبق المفردون »، قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟، قال: « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات »[2] . وقال عطاء بن رباح: "من فوض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[3]، ومن أقر بأن الله ربه ومحمدا رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، ومن صان قوله على الكذب فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الزوجة، فهو داخل لفي قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلى فلم يعرف من على يمينه ومن على شماله، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ ، ومن صام في كل شهر أيام

---

[1] الأحزاب: 35.

[2] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم: 2676، (2062/4).

[3] الأحزاب: 35.

البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عما لا يحل، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾"[1].

ثم ذكر سبحانه ثواب من هذه صفاتهم من النساء والرجال، فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ بمحو ذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وهو دخول الجنة، والنظر إلى وجهه الكريم.

ثم ذكرهن سبحانه في آية أخرى عاطفا بهن على النبي ﷺ فيما يجب لهن، فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [2]، أي هن بعضهم لبعض في نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته، قال ابن عباس: " يعني إذا دعاهم النبي ﷺ، ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعة النبي ﷺ أولى لهم من طاعة أنفسهم" [3]. وهذا صحيح، فإن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، ورسول الله ﷺ يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، وهو أيضا أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، روي أن طائفة كانت إذا خرج النبي ﷺ إلى الجهاد يقولون نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية. ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه»[4].

---

[1] "تفسير الخازن"، (426/3).

[2] الأحزاب: 6.

[3] "تفسير البغوي"، (408/4).

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: تفسير القرآن، باب: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، رقم:4781، (116/6).

قوله: « أو ضياعا »: أي عيالا، واصله مصدر ضاع يضيع، وإن كسرت الضاد، كان جمع ضائع.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، يعني أنهن أمهات المؤمنين في تعظيم الحرمة، وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجانب، ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعي: " تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، وهي أخت عائشة أم المؤمنين"[1]، فقيل إن ذلك يشمل النساء والرجال جميعا، وقيل كن أمهات الرجال دون الرجال، بدليل ما روي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة: يا أمة، فقالت: لست لك بأم، إنما أم رجالكم[2]، فبان بذلك أن معنى الأمومة إنما هو في تحريم نكاحهن.

وقد اختلف علماء السلف في فضل أزواج النبي ﷺ على آسية ومريم، وفضلها عليهن، فذهبت طائفة منهم ابن عباس والسدي والضحاك وابن وهب إلى فضلية أزواج النبي ﷺعليهما، محتجين بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [3]، واللفظ للعموم فينسحب على مريم وآسية وأم موسى وغيرهن من النساء، هذا فيما عدا خديجة فإنها أفضل من الجميع بالإجماع، لأن الله تعالى أقرأها السلام من غير واسطة، وآزرت النبي ﷺ أحسن المؤازرة، وأعانته على تشديد الدين بنفسها ومالها كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [4]، يعني فقيرا فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقيل أرضاك بما أعطاك من الرزق، وهذا حقيقة الغناء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه فإنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس »[5]، العرض: بفتح العين والراء المال، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

---

[1] "تفسير البغوي"، (607/3).

[2] المصدر نفسه.

[3] الأحزاب: 32.

[4] الضحى: 8.

[5] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم:1051، (726/2).

عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه » [1]، أخرجهما مسلم في صحيحه. ومن حديث ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « سألت ربي عز وجل مسألة، ووددت أن لم أسأله إياها، قلت يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكا عظيما، وآتيت فلانا كذا وفلانا كذا، قال: يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك، قلت: بلى، أي رب، قال: ألم أجدك ضالا فهديتك، قلت: بلى، أي يا رب، قال: ألم أجدك عائلا فأغنيتك، قلت: بلى، أي رب »[2]، زاد في رواية: « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك؟، قلت: بلى، أي رب »[3].

فإن قلت: كيف يحسن بالجواد الكريم أن يمن بإنعامه على عبده، والمن مذموم في صفة المخلوق، فكيف يحسن بالخالق تبارك وتعالى؟، فالجواب عن ذلك: أن الله تعالى اسمه المنان، فلا يرى خير إلا منه، فلذلك حسن منه من على العبيد أولا بالإيجاد. ثم من عليهم بعد ذلك بالإمداد لجميع الخلق، فلقد استغرقتهم منته، فلذلك حسن منه كما حسن كبره وجبروته، فهما مذمومان في وصف المخلوق ومحمودان في وصف الخالق، فهذه الصفة إنما حسنت في وصفه تعالى لأنه لا يقدر عليها غيره ولا يستحقها سواه، فمن نازعه فيها بأن ادعى شيئا منها لنفسه عذبه بناره ورماه بهوانه وصغاره، وقال الله تعالى: « الكبرياء ردائي، والجبروت إزاري، فمن نازعني فيهما أحرقته بناري »[4].

وجواب ثان، وهو أنه تعالى قصد بذلك تقوية قلب عبده، حيث وعده بدوام نعمته عليه، فظهر الفرق بين امتنان الله تعالى الممدوح، وبين امتنان المخلوق المذموم، لأن امتنان الله زيادة في إنعامه، فكأنه يقول له: مالك تقطع رجاءك عني، ألست الذي ربيتك وآويتك وأنت يتيم

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة، رقم:1054، (730/2).

[2] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والضحى، رقم: 3944، (573/2)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[3] "المعجم الكبير" للطبراني، باب: سعيد بن جبير عن ابن عباس، رقم:12289 ، (455/11)، وأخرجه الهيثمي في : مجمع الزوائد، (254/8)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

[4] بلفظ آخر، انظر: "سنن أبي داود"، كتاب: اللباس، باب: ماجاء في الكبر، رقم:4090، (59/4)، قال الأرنؤوط:ح ص.

صغير، تظنني تاركك ومضيعك كبيرا، بل لا بد أن أتم نعمتي عليك، فقد حصل الفرق بين امتنان الخالق وامتنان المخلوق.

ثم أوصاه بثلاث: شكر للنعم الثلاثة التي أكرمه الله بها بعد ما ابتلاه بأضدادها، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ [1]، أي لا تقهر اليتيم فلقد كنت يتيما، وقيل: لا تقهره على ماله فتذهب به لضعفه، كما كانت العرب في الجاهلية تفعل في أمر اليتامى، يأخذون أموالهم ويظلمونهم حقوقهم. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[2]، ثم قال: « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » ويشير بالسبابة والوسطى[3]، أخرجه أرباب الصحاح كلهم. فهذا في مقابلة شكر زوال اليتم بإيواء أبي طالب له وحسن تربيته له، وكذلك كان جده عبد المطلب يفعل به وكان يؤثره على بنيه لصلبه ويقول لهم: اتركوا ابني فإن له شأنا، لما حدثه به سيف بن ذي يزن من أمره عليه الصلاة والسلام، وأخبره أنه خير نبي أرسل وأنه خاتم الأنبياء، فكان يكرمه لذلك، وبذل لعبد المطلب من الأموال في وجه رسول الله ﷺ ما لا يحاط بحصره، ولما مات أوصى به عمه أبا طالب، فقال: أوصيك يا عبد مناف بعدي بيتيم خلف أبيه فرد مات أبوه وهو خلف المهد.

ثم أوصاه تعالى على القيام بأمر السائل فقال له: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [4]، يريد الساعي على الباب فلا تزجره إذا سألك، فقد كنت فقيرا مثله، إما أن تطعمه وإما أن ترده ردا لينا برفق. قال إبراهيم بن أدهم: " نعم القوم السؤال يحملون أزوادنا إلى معادنا، وقال السائل يريد الآخرة يجئ إلى باب أحدكم فيقول: هل توجهون إلى أهلكم بشيء "[1]. وقيل السائل هو طالب العلم، فيجب

---

[1] الضحى: 9.

[2] "سنن ابن ماجة"، كتاب: الأدب، باب: حق اليتيم، رقم:3679، (1213/2)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[3] "سنن الترمذي"،أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته، رقم:1918،(385/3)،وقال الترمذي:ح س.

[4] الضحى: 10.

[1] "تفسير البغوي"، (270/5).

إسعافه وإكرامه بمطلوبه، فلا يعبس في وجهه ولا ينهر ولا يلقى بمكروه، ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « أكرموا طالب العلم، فإن من أكرمه فقد أكرمني، ومن أكرمني فقد أكرم الله، ومن أكرم الله فجدير أن يكرمه الله بكرامة الأنبياء يوم القيامة »[1]، وفي رواية: « أكرموا طلبة العلم فإنهم شفعاؤكم يوم القيامة، فمن أكرمهم أكرمه الله يوم القيامة وشفعهم فيه، وإن ملائكة الرحمان لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن الطير لتستغفر لهم في الهواء، وإن حيتان البحر لتستغفر لهم في قعر البحر، وإن الله تعالى لم يبعثني تاجرا، وإنما بعثني معلما، فعليكم بطلب العلم وتحصيله، فلئن يحصل أحدكم مسألة واحدة خير له من قيام ليلة »، وفي رواية: « من قيام شهر »، وفي رواية: « من قيام سنة »، وإن الله لا يرزق أحدا إلا بسبب، ما عدا طالب العلم فإن الله يرزقه بغير سبب، فمن أدرك العلم لم يفته شيء، ومن فاته العلم لم يدرك شيئا، وفضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[2]، وفي رواية: «كفضل القمر على سائر الكواكب »[3]، وما بين العالم العامل الورع التقي وبين النبي الأفضل درجة.

النوع الثالث: مما أوصاه به على وجه الشكر قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [4]، قيل أنه تعالى أراد بالنعمة النبوة، أي ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي أكرمك الله بها أو النعمة، والمراد بالنعمة القرآن، فأمره أن يقرأه ويقرئه، وقيل لما ذكره بنعمته عليه في هذه السورة من جبر يتمه وهداه بعد ضلالته وإغناءه إياه بعد عيلته، فأمره أن يشكره على إنعامه عليه وتحدث بنعمة الله شكرا عليها. ومن حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: « من أعطي عطاء فليجزه إن وجد، وإن لم يجد فليثن عليه، فإن من أثنى عليه فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن بخل

---

[1] لم أقف عليه.

[2] لم أقف عليه.

[3] "سنن ابن ماجة"، كتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم:223، (81/1)، قال شعيب الأرنؤوط في تخريجه للحديث: حسن بشواهده.

[4] الضحى: 11.

بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور»[1]، أخرجه الترمذي، وله عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: « من لم يشكر الناس لا يشكر الله »[2]، وله عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[3]، ومن حديث النعمان بن بشير أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب »[4].

وذهبت طائفة إلى تفضيل مريم على نساء النبي ﷺ وغيرهن محتجين بقوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [5]، فإن كان الله قد فضل أزواج النبي ﷺ على النساء، فقد فضل مريم على نساء العالمين، وخصها بالاصطفاء وذكر اسمها صريحا ولم يكن عنه ولم يذكر غيرها، صريحا باسمها. فإن الحكمة بالتصريح المراد بها الرد لما ادعته النصارى من كونها زوجته، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، لأن من عادة الأشراف ألا يذكروا أسماء زوجاتهم في الملأ صريحا، فكذبهم بذكرها، ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [6]، ومن يأكل الطعام لا بد أن يبول ويتغوط، وقيل الطعام هنا كناية عن البول والغائط، ومن هذه صفته مع وجود النقص لا يصح أن يكون إلها ولا شريكا لله تعالى، ووصفها بالصديقية لا يوجب فضلها على نساء النبي، فإن كل مؤمن مصدق وشهيد. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [1]، فإن مريم لم تزد على أن أمها حبستها على خدمة بيت المقدس، فكانت

---

[1] بلفظ آخر،"سنن الترمذي"،أبواب: البر والصلة، باب:ما جاء في المتشبع،رقم:2034، (447/3)، وقال الترمذي: ح س.

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: البر والصلة، رقم:1954، باب: ما جاء في الشكر، (403/3)، وقال الترمذي: ح س.

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع ، باب:43، رقم:2486، (234/4)، وقال الترمذي: ح س.

[4] "مسند ابن حنبل"، باب:حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ، رقم:18449،(390/30)، قال الأرنؤوط:ح ص لغيره.

[5] آل عمران: 42.

[6] المائدة: 75.

[1] الحديد: 19.

عابدة، وكذلك أزواج النبي ﷺ قد شاركنها في العبادة وفضلنها بالبذل والصدقة ونشر العلم والجهاد في سبيل الله، فما غزا عليه الصلاة والسلام غزوة إلا غزا ببعضهن معه، فيداوين الجرحى وينفقن على الضعفاء ويحرضن على قتال المشركين، فهذه الأشياء لم ينلها أحد من نساء العالمين غير أزواجه ﷺ. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[1]. قال أبو كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض، قيل أراد بهذه الإشارة تفسير الضمير أي في قوله: « خير نسائها »، ومعناه أنهما خير من كل نساء بين السماء والأرض. قال النووي: " والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير من نساء الأرض في عصرها "[2]. وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه وهذا عند النووي، كيف وقد تقدم الكلام عن السلف في التفضيل فيكون مراده أن كل طائفة من السلف اقتضى قولها تفضيل جانب من السابقات واللاحقات، فلم يسلم بعضهم لبعض فاقتضى ذلك السكوت. وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: « كمل من الرجال كثيرون، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[3]. قال العلماء: معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق، وثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه بغير ثريد، وليس في هذا تصريح بفضلها على مريم وآسية لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة، ولا حجة في ذلك لأن اسم الأمة يشمل النساء والرجال، وقد فضل الله تعالى بالنص هذه الأمة على سائر الأمم فيشمل ذلك الرجال والنساء فإنه تعالى يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم: 2430، (1886/4).

[2] انظر : "تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي" لعبد الرحمان المباركفوري، (265/10).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى" وضرب الله مثلا للذين آمنوا"، رقم:3411، (158/4)، و"سنن ابن ماجة"، كتاب: الأطعمة، باب: فضل الثريد على سائر الطعام"، رقم: 3280، (1091/2).

أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾[1]، وحده فمن كان من النساء والرجال أفضل من هذه الأمة المحمدية، فإنه أفضل من جميع الأمم لأن المفضل على الفضل فاضل، وقد قال ﷺ في الصحيح: « أنتم آخر سبعين أمة وقد جعلكم الله خيرها وأحبها إليه »[2]، أخرجه الطبراني وغيره. فإذا قلنا بفضل أزواج النبي ﷺ على نساء هذه الأمة ففضلهن على غيرهن من نساء الأمم الماضية من باب أحرى، ووجه آخر وهو أن فضل التابع على قدر فضل المتبوع ولا خلاف أن النبي ﷺ هو أفضل من العالمين فوجب بذلك أن يكون جميع ما أضيف إليه أفضل مما أضيف إلى غيره من جميع الأنبياء فضلا عن غيرهم، فبهذا الاعتبار يجب تفضيل أزواج النبي ﷺ على جميع نساء الأمم الماضية، وقد يكون الفاضل مفضولا ولا ينقص ذلك من منصبه، فإن فضل النبي ﷺ على جميع العالمين قد تواترت به الكتب المنزلة كلها من لدن آدم إلى بعثته عليه الصلاة والسلام، فيكون فضل نسائه على جميع نساء الأنبياء تابعا لفضله عليهم، فإن كانت مريم قد اختصت دونهم برؤية جبريل ونفخه في كمها حتى اتصل النفخ برحمها، وتبشيره إياها بعيسى بن مريم، قد خصص أزواج النبي ﷺ برؤيته عليه الصلاة والسلام ومضاجعته إياهن وتبشيرهن بالجنة وبفضلهن على نساء العالمين. ولا خلاف أن محمد ﷺ الذي اختصصن به وبرؤيته أفضل من جبريل، بل من جميع العالمين بإجماع جميع الأمم الإسلامية فيكن أفضل، فإن كانت قد حظيت بالقوت الذي يأتيها من الجنة أو غيرها، فإن فاطمة رضي الله عنها قد حظيت بمثل ذلك كما كان النبي ﷺ يضع يده على الطعام القليل فينموا ويكثر حتى يسعهن، وما ذلك إلا من مدد الله تعالى بالأمر الخارق للعادة.

---

[1] آل عمران: 110.

[2] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، رقم:1012، باب: الميم، (419/19)، و"المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم باب: ذكر فضائل هذه الأمة على سائر الأمم، رقم: 6987، (94/4)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرج ابن الخطيب القسطلاني[1] في مواهبه أنه لما أسرت بنوا عامر خبيبا وذهبت به إلى مكة جعلوه في بيت امرأة من قريش وهي يومئذ كافرة، فكانت تقول بعدما أسلمت: ما رأيت أسيرا مثل خبيب كنت كثيرا ما أجده يأكل قطفا من العنب، كل واحدة منه أعظم من بيضة دجاجة، ووالله ما بمكة يومئذ حبة عنب، ولم يكن في إبان نضجه، فعلمت بعدما أسلمت أنه إنما هو رزق من الله ساقه إليه من الجنة أو غيرها، ومع ذلك لم أسلم حتى قذف الله الإيمان في قلبي. ويروى أنها قالت له يوما: من أين لك هذا يا خبيب، وليس بمكة أقصاها وأدناها حبة عنب، وليس هذا بإبان نضجه؟، فيقول لها: هو رزق رزقنيه الله تعالى[2].

وهذا وما قبله أدل دليل على صحة كرامة الأولياء رضوان الله عليهم، وكان مدة حمل مريم بعيسى ثمانية أشهر، وذلك آية أخرى لأن العادة قد جرت أن من ولد لثمانية أشهر لا يعيش، وولد عيسى لهذه المدة فعاش، وقيل ولدته وهي بنت ستة عشر سنة، وقد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى، وكان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار، فبينما هما منطلقان إلى المسجد الذي بجبل صيهور كانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل الأرض يومئذ أحد أشد عبادة واجتهادا منهما، وأول من اطلع على حمل مريم يوسف، فبقي متحيرا في أمرها، كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وأنها لم تغب عنه، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر بها من ظهور الحمل، فأول ما تكلم به أن قال: إنه قد وقع في نفسي من أمرك شيء حرست عن كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن أتكلم به حتى أشفي صدري، فقالت: قل قولا جميلا، قال: أخبريني يا مريم هل ينبت الزرع من غير بذر؟، وهل ينبت الشجر بغير غيث؟، وهل يكون ولد من غير ذكر؟، قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، ألم تعلم أن الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث؟، أو تقول أن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى

---

[1] أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث، مولده ووفاته في القاهرة، له : "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"، (ت 923 هـ / 1517 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب:القسطلاني، (232/1).

[2] انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للقسطلاني، (232/1).

يستعين على نباتها بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟، قال يوسف: لا أقول هذا، ولكن أقول أن الله تعالى يقدر على كل شيء فيقول له كن فيكون، قالت له مريم: ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى، فعند ذلك زال ما في نفسه من التهمة، وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل. فلما كان وقت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾[1]، أي ألجأها. ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾[2]، وكانت نخلة يابسة في الصحراء في شدة البرد ولم يكن لها سعف، فالتجأت إليها لتستدفئ بها وتستمد بها من شدة الطلق. ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾، فتمنت الموت استحياء من النساء وخوف الفضيحة. ﴿ وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾[3]، أي شيئا حقيرا متروكا لم يذكر ولم يعرف لحقارته، فتمنت أنها لم تخلق. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾[4]، قيل أن مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها، وقيل ناداها من سفح الجبل، وقيل أن المنادي هو عيسى، وذلك أنه لما خرج من بطن أمه ناداها ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[5]، أي نهرا، قال ابن عباس رضي الله عنهما:" ضرب جبريل عليه السلام برجله الأرض فظهرت عين عذبة وجرت"[6]، وقيل كان هناك نهر يابس فأجراه الله سبحانه بقدرته واخضرت النخلة اليابسة فأورقت وأثمرت وأرطبت، وقيل المراد بالسري عيسى، وكان عبدا سريا رفيعا[7]. ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [1]، والجني هو الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه، قال الربيع

---

[1] مريم: 22 – 23.

[2] مريم: 23.

[3] مريم: 23.

[4] مريم: 24.

[5] مريم: 24.

[6] "تفسير الخازن"، (185/3).

[7] المصدر نفسه.

[1] مريم: 25.

بن خيثم: " ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل " [1]. ﴿فَكُلِي﴾ [2] يا مريم من الرطب، ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر، ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، أي طيبي نفسا بولدك عيسى، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ يسألك عن ولدك، ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾، أي صمتا، وكانت من عادة بني إسرائيل أن من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام حتى يمسي، وقيل أن الله تعالى أمرها أن تقول هكذا نطقا ثم تمسك عن الكلام. فإن قيل: ما الحكمة في امتناعها من الكلام؟، قيل: هو طلب أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها، وفيه تفويض الكلام إلى الأفضل مع كراهة مجادلة السفهاء، لأن السكوت عن السفيه واجب. ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ [3]، قيل إنها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته في الحال إلى قومها، وقيل أن يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى إلى غار فمكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته إلى قومها، فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أمي أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين [4]. ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾[5]، أي عظيما منكرا. ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [6]، أي يا شبيهة هارون، قيل كان رجلا صالحا في بني إسرائيل شبهت به في عفتها وصلاحها، وليس المراد الأخوة في النسب، قيل أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بني إسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الأسماء. وعن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على

---

[1] "تفسير البغوي"، (230/3).

[2] مريم: 26.

[3] مريم: 26 – 27 .

[4] "تفسير الخازن"، (186/3).

[5] مريم: 27.

[6] مريم: 28.

رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: « إنهم كانوا يسمون بأنبياءهم والصالحين قبلهم »[1]، وقيل كان هارون أخا مريم لأبيها من أمثل رجل في بني إسرائيل، وقيل إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم، وقيل كان هارون في بني إسرائيل فاسقا أعظم الفسق فشبهوها به[2]. ﴿مَاكَانَأَبُوكِ﴾ [3]، يعني عمران، ﴿ٱمۡرَأَسَوۡءٖ﴾، أي زانيا، ﴿وَمَا كَانَتۡأُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [4]، أي زانية أي تسعى بفرجها، فمن أين لك هذا الولد؟، ﴿فَأَشَارَتۡإِلَيۡهِ﴾ [5]، أي إلى عيسى أن يكلمهم، قال ابن مسعود: " لما لم تكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها " [6]، وقيل أنها لما أشارت إليه غضب القوم مع ما فعلت، فقالوا لها: تسخرين بنا. ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَنۡ كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [7]، فلما سمع كلامهم ترك الرضاع واتكأ على يسراه وأقبل عليهم، و﴿قَالَإِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [8]، قال وهب بن منبه: " أتاها زكرياء عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى: أنطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى وكان ابن أربعين يوما: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما نطق لئلا يتخذ إلها " [9]. فإن قيل: إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه، وأن عيسى لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبوديته لله تعالى، فالجواب: أنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى من إزالة التهمة من أمه، فلهذا كان أول ما تكلم إنما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل إزالة التهمة عن الأم، لأن الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد من الزنا، والتكلم

---

[1] ح ص، "صحيح مسلم"، كتاب: الآداب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم، رقم: 2135، (1685/3).

[2] "تفسير الخازن"، (186/3).

[3] مريم: 28.

[4] مريم: 28.

[5] مريم: 29.

[6] "تفسير الخازن"، (186/3).

[7] مريم: 29.

[8] مريم: 30.

[9] "تفسير الخازن"، (186/3).

بإزالة التهمة عن أمه لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى. ثم قال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[1]، أي سيجعلني نبيا ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل، وهذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيا؟، قال: « وآدم بين الروح والجسد »[2]. قال الأكثرون إنما أوتي الإنجيل وهو صغير، وكان يعقل عقل الرجال الكمال. ثم قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾[3]، أي نفاعا أينما توجهت، معلما للخير أدعو إلى عبادة الله وتوحيده، ثم قال: ﴿وَأَوۡصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾[4]، أي كلفني فعلهما ما دمت حيا، فإن قيل: كيف يؤمر بالصلاة والزكاة في حال طفوليته وقد قال عليه الصلاة والسلام: « رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ»[5] الحديث؟، فالجواب عن ذلك: أن معنى قوله: ﴿وَأَوۡصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ في الوقت المعين لهما وهو البلوغ، وقيل أن المراد بذلك أن الله أعطاه عقل البالغين الكهول وهو أظهر في سياق الآية، وقوله: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في جميع زمان حياته حين كان في الأرض حين ينزل إلى الأرض بعد رفعه. ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾[6]، أي عاصيا لربي متكبرا على خلقه، بل جعلني خاضعا متواضعا، قال العلماء: لا يعد العاق لوالديه إلا جبارا شقيا [7]. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾[1]، معنى ذلك السلامة عند ولادتي من طعن الشيطان، ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾، أي عند الموت من الشرك، ﴿وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [2]، أي من أهوال يوم القيامة.

---

[1] مريم: 30.

[2] "الشريعة" للآجري، رقم:945، (1407/3)، وأخرجه ابن كثير في: "البداية والنهاية"، (534/3)، وقال: إسناده جيد.

[3] مريم: 31.

[4] مريم: 31.

[5] "سنن أبي داود"، كتاب:الحدود، باب:في المجنون يسرق أو يصيب حدا،رقم:4402،(140/4)، وقال الأرنؤوط: ح ص.

[6] مريم: 32.

[7] "تفسير الخازن"، (186/3).

[1] مريم: 33.

[2] مريم: 33.

فلما كلمهم عيسى بهذا الكلام علموا براءة مريم. ثم سكت عيسى فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال، انتهى كلام عيسى.

ثم افتتح الله سبحانه الكلام فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [1]، أي الذي قال أنا عبد الله هو عيسى بن مريم. ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾، أي هذا الكلام هو القول الحق، أضاف القول إلى الحق تأكيدا للأمر. ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [2]، أي يشكون ويختلفون، وذلك أن النصارى تحزبت في أمره أحزابا، فقائل هو ابن الله، وقائل هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذه الولد ونفاه عنه فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ [3]، أي ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغي له ذلك. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾، أي إذا أراد أن يحدث أمرا، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [4]، لا يتعذر عليه إيجاده على الوجه الذي أراده. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [5]، هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك للنصارى لما أحس منهم الكفر لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى، فاثبتوا على توحيده ولا يستفزنكم الشيطان فيهلككم كما أهلك الأمم من قبلكم، فاعبدوه ووحدوه لا شريك له. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [6]، أي هذا الذي أخبرتكم به أن الله أمرني به هو الصراط المستقيم، فلم ينفعهم ذلك ولذلك قال الله تعالى في أمرهم: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [1]، يعني النصارى، سموا أحزابا لأنهم تحزبوا ثلاثة فرق في أمر عيسى، النسطورية والملكانية واليعقوبية، فلما تحزبوا هذه الأحزاب الضالة نعت الله الجميع بالكفر وسجل عليهم به فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

[1] مريم: 34.

[2] مريم: 34.

[3] مريم: 35.

[4] مريم: 35.

[5] مريم: 36.

[6] مريم: 36.

[1] مريم: 37.

مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، يعني يوم القيامة. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [2]، أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم البصر، أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا، ومعناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوؤهم ويصدع قلوبهم. ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، أي يوم القيامة. ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [3]، أراد باليوم في الدنيا يعني أنهم في الدنيا في خطأ بين، وفي الآخرة الحق، أي لكن الظالمون في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين.

ثم أمر نبيه ﷺ بإنذارهم بالخزي والهوان يوم القيامة الذين يتحسرون عند مشاهدته فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾[4]، أي خوِّف يا محمد كفرة النصارى وغيرهم من يوم الحسرة، سمي بذلك لأن المسيء يتحسر، هلا أحسن العمل، والمحسن هلا زاد في الإحسان، كما يدل عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من أحد يموت إلا ندم »، قالوا: ما ندامته يا رسول الله؟، قال: « إن كان محسنا ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم ألا يكون نزع »[5]، أخرجه الترمذي. قوله: « ألا يكون نزع »، النزع عن الشيء الكف عنه.

وقال أكثر المفسرين: المراد بالحسرة حين يذبح الموت كما يدل عليه حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح، فينادي منادي: يا أهل الجنة، فيشرفون وينظرون، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرفون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت »، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

---

[1] مريم: 37.

[2] مريم: 38.

[3] مريم: 38.

[4] مريم: 39.

[5] "سنن الترمذي"، أبواب: الزهد، باب:58، رقم:2403، (182/4)، وقال الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيى بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة، وهو: يحيى بن عبيد الله بن موهب مدني، وقال الألباني: ضعيف جدا.

﴿ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [1]، وأشار بيده إلى الدنيا ، زاد الترمذي فيه: « فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار»[2]. قوله: « كهيئة كبش أملح»، الأملح المختلط بالبياض والسود. قوله: « فيشرفون »، يقال أشرف إلى الشيء إذا تطلع ينظر إليه ومالت نحوه نفسه. قوله: « فيذبح بين الجنة والنار»، فعارض هذا الحديث طائفة من أهل الكلام كما هو من عادتهم، فقالوا أن الموت عرض ليس بجسم، فكيف يكون في صورة كبش أو غيره؟، فإن ذلك فضول من القول ومجازفة في الأمر، فإن الله تعالى هو الفاعل لذلك، فإن الله على كل شيء قدير، فهو القادر على أن يجعل العرض جسما والجسم عرضا، كيف وثبت وصح بالنص الذي يفحم المتنطعين أن الموت جسم خلقه الله لا يمر بشيء إلا مات، ولا يشم رائحته إلا هلك، له أربعة أجنحة، جناح فوق العرش وجناح تخت تخوم الأرض السابعة، وجناح بالمشرق وجناح بالمغرب، قد أحاط بمنتهى الخافقين، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [3]، فإنهم كادوا يسلكون مسلك المعتزلة لمعارضتهم ما ورد من خوارق العادة في كتاب الله وسنة رسوله، بل الواجب الإيمان الذي لا يخلطه زلزلة، والتسليم الذي لا يخالطه تحير، لأن أمور الآخرة كلها مبنية على الخوارق بخلاف أمور الدنيا فإن جلها مبني على العادة، وقد تقع الخوارق في الدنيا أيضا ليستدلوا بذلك على كمال قدرته تعالى، وليلجئهم إلى التسليم والإيمان بما بلغهم من خوارق العادة في الغيب، ويؤيد ما ذكر ما رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي منادي: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى

---

[1] مريم: 39.

[2] وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: صفة الجنة، باب: ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار، رقم: 2557 ، (274/4)، وقال الترمذي: ح س.

[3] الملك: 2.

حزنهم »[1]. ومن حديث أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة أحد إلا أري مدخله من النار ليزداد شكرا، ولا يدخل أحد النار إلا أري مقعده من الجنة ليكون عليه حسرة»[2]، أخرجه أرباب الصحاح كلهم.

فإن قيل: قد ثبت وصح في الحديث أن آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران يكونان زوجتين للنبي ﷺ في الجنة جزاء لهن وإكراما لما كانتا عليه في الدنيا من العفة والتبتل إلى الله تعالى، فإذا كانتا من أزواج النبي ﷺ في الجنة، فما وجه تفضيل أزواجه عليهما؟، فقد شاركتاهن في فضل الاختصاص في النبي ﷺ والإضافة إليه، فلم يبق التفاضل إلا بنسبة ما بين الأمم من التفاضل وما بينهم من التفاوت في الطاعات والأعمال الصالحات، فأما مريم فنظيرتها من أزواج النبي ﷺ خديجة، لأن النبي ﷺ ذكرهن نسقا في قوله: « لم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»[3]، وفي حديث آخر: « حسبك من النساء مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[4]، ولعل ذلك في العلم، لأن من فضل بالعلم فقد فضل. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾[5]، أي بطاعتكم لله ورسوله وامتثال أوامره وقيامهم [من] [1] مجالسهم وتوسعهم لإخوانهم. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي ويرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على من في الجنة، فيقال للمؤمن الذي ليس بعالم إذا انتهى إلى باب الجنة: ادخل، ويقال للعالم: قف، واشفع للناس، فأخبر الله عز

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم:6548، (113/8).

[2] ح ص، ورد بلفظ: «لايدخل أحد الجنة»، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم: 6569، (117/8).

[3] انظر: "تفسير الثعلبي"، (353/9).

[4] ورد بلفظ قريب منه، انظر: "سنن الترمذي"، أبواب: المناقب، باب: فضل خديجة رضي الله عنها، رقم:3878، (186/6)، وقال الترمذي: هذا ح ص.

[5] المجادلة: 11.

[1] في (ج): عن.

وجل أن رسوله مصيب فيما [أمر] [1]، وأن أولئك المؤمنين مثابون فيما اعتبروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما أمروا به من الإكرام. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[2] ، قال الحسن: " قرأ ابن مسعود هذه الآية، ثم قرأ: ولترغبكم في العلم، فإن الله تعالى يقول يرفع المؤمن العالم فوق الذي ليس بعالم درجات " [3]، وقيل أن العالم يحصل له بعلمه من المنزلة والرفعة ما لا يحصل لغيره، لأنه يتقوى به في أقواله وأفعاله كلها. عن قيس بن كثير قال: قدمت على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال لي: ما أقدمك يا أخي؟، قال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: ما جئت لحاجة غيره؟، قال: لا، قال: ما قدمت في تجارة؟، قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟، قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سلك طريقا يبتغي فيه علما، سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر »[4]، ولأبي داود نحوه.

ومن حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »، وعن ابن عباس مثله[1]، أخرجه الترمذي.

وأخرج البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال: « كلا

---

[1] في (ج): قال.

[2] المجادلة: 11 .

[3] "تفسير البغوي"، (46/5).

[4] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "شرح السنة" للبغوي، كتاب: العلم، باب: فضل العلم، رقم: 129، (275/1)، وقال البغوي: هذا ح غ، لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء ابن حيوة، وقال الأرنؤوط في تخريجه لشرح السنة: ح س.

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم:71، (25/1)، و"سنن الترمذي" أبواب: العلم، باب: إذا أراد الله بعبد خيرا يفقهه في الدين، رقم: 2645، (325/4).

المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيعبدون الله ويرغبون إليه، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل، وإنما بعثت معلما »، ثم جلس فيهم[1].

وكان ابن عباس يقول: " كانت عائشة عالمة فقيهة ولها خبرة بأنساب العرب وأيامها، لو أن في أحاديثها اضطرابا لفاقت العلماء "[2]، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « لا أنكح إلا سعيدا، ولا ينكح إلي إلا سعيد »[3].

وكانت امرأة من السلف يقال لها أم صفوان عائشة بنت خالد، وكان بعلها أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الكوفي، قال: قمت ليلة رمضان إلى وردي وتركتها نائمة على فراشها، إذ قامت وطاش عقلها وذهب لبها واصفر وجهها، وأقبلت ترتعد كالورقة في يوم ريح، فسلمت من صلاتي ثم أقبلت نحوها فوجدتها قد غشي عليها، فلما أفاقت قلت لها: [ما بالك؟][4]، قالت: أمر عظيم، قلت: وما ذاك؟، قالت: بينما أنا نائمة أتاني آت، فقال لي: قومي، قلت: إلى أين؟، قال: إلى مشيئة الله، فانطلقت معه، فمر بي على نساء قد اسودت وجوههن وازرقت أعينهن، منهن فلانة وفلانة، ثم عدت نساء، ما منهن إلا وأنا أعرفها، وإذ بهن قد أحاط بهن ملائكة غلاظ شداد، وقد وكل بكل واحدة منهن ملك قد ألقى في عنقها غلا لا يعلم قدره إلا الله تعالى، وإذ النساء يستغثن بكلام لا يشبه كلام البشر، غير أني كنت أفهم منه الحسرة والتأسف والتوجع، فلما دنوت منهن تبادر إلي الملائكة، فلما احتوشوني حال بيني وبينهم شخص جميل حسن الثياب طيب الرائحة، وقال لي: لا حرج عليك فسيري، فانطلق بي حتى مررت بنسوة قد غير عذاب الله صفتهن، يخرج من أفواههن لهيب النيران وهن يستغثن بأصوات عاليات وملائكة العذاب قد أحدقوا بهن وضيقوا بالمجامع عليهن، فلما دنوت تبادر إلي جمع من الملائكة، فلما احتوشوني وهموا بعذابي جاء شخص ثان على صفة الأول فحال بيني وبينهم،

---

[1] بلفظ آخر، "سنن ابن ماجة"، افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء، رقم 229، (83/1)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[2] لم أقف عليه.

[3] لم أقف على هذا الحديث.

[4] في (ب): مالك؟.

وقال: لا حرج عليك، ثم مر بي على حفرة ضيقة فيها نساء معذبات، فتبادر إلي ملائكة الرحمة فقالوا لي: سيري لا حرج عليك، فانطلق بي إلى موضع متسع قد ملئ زهرا وعطرا وفيه منابر من الذهب والياقوت والفضة وعلى المنابر نساء أعرفهن منهن فلانة وفلانة، فأردت اللحوق بهن، فجاء شخص أسود قبيح الصورة أسود الثياب فحال بيني وبينهن، ثم رفع لي مقام أحسن منه فيه منابر قد غلب ضياؤها على كل مشرق، وعلى تلك المنابر نساء وجوههن كضوء الشمس، فأردت اللحوق بهن، فحال بيني وبينهم شخص أسود يخرج من فيه لهب النار، ثم رفع إلي مقام فوق ذلك لا يوصف بوصف إلا وهو فوقه، فيه من النور عليها نساء لا أعرفهن، ثيابهن نور ووجوههن نور، لا يخطر وصفهن على قلب بشر، فأردت اللحوق بهن، فحال بيني وبينهم شخص أسود، فقلت لمن كان معي: بالذي صوركم بقدرته كيف شاء، ما الذي أوجب عذاب من تقدم من النسوة؟، فقال لي: أولئك النجاسات، كن إذا أصابهن نجاسة لا يغسلنها ولا يتحفظن منها، قلت: فما الشخص الكريم الذي حال بيني وبينهن؟، قال لي: ملك خلقه الله من صلاتك على محمد ﷺ في كل ليلة عند النوم، قلت: فما النسوة التي كن في المقام الثاني من العذاب؟، قال: كن يرمين أولادهن من بطونهن، قلت: قد فعلت ذلك، فمن الشخص الكريم الذي حال بيني وبين ما كن فيه من العذاب؟، قال لي: ملك خلقه الله من صدقتك التي كنت تخفينها، قلت: فما الذي أوجب عذاب النسوة التي كن في الموضع الثالث؟، قال: كن لا يقمن بما أوجب الله عليهن من حق بعولتهن، قلت: قد فعلت ذلك، فمن الشخص الكريم الذي حال بيني وبين ما كن فيه؟، قال لي: شخص من الملائكة خلقه الله من [برك] [1] لوالديك، قلت: فبم استوجب النسوة التي كن على المنابر في المقام الأول ذلك؟، قال لي: بملازمتهن البيوت، قلت: قد لزمت، فمن الشخص الأسود الذي حال بيني وبينهن؟، قال لي: شخص خلقه الله من خروجك في جنازة أخيك بغير إذن بعلك، قلت: فما النسوة التي كن في المقام الثاني على حالة النعيم، فبم استوجبن ذلك؟، قال: بملازمتهن الصلوات الخمس، قلت: قد لزمت، فمن الشخص

[1] في (ب): بروك.

الذي حال بيني وبينهن؟، قال لي: شخص خلقه الله من سوء خلقك، قلت: فمن النسوة التي كن على منابر من نور، ووجوههن نور وثيابهن نور، فبم استوجبن ذلك؟، قال لي: بالعناية الأزلية والإرادة الصمدية، ذلك مقام نساء محمد ﷺ وبناته ومن آمن به، ومن أعطيه ممن تقدم عليه كمريم وآسية ونساء النبيئين المؤمنات، قلت: فمن الشخص الأسود الذي حال بيني وبين ذلك المقام؟، قال: ذلك شخص خلقه الله من حرصك على الدنيا، و طلبك للرئاسة، قالت: فانتبهت، وأنا على هذه الحالة، ثم أقبلت على البكاء والنحيب والتضرع، ثم أقبلت علي بوجهها فقالت: قد قل انتفاعك بي، فخل سبيلي أتفرغ لعبادة ربي، فأجبتها إلى ذلك، فخرجت[من عندي] [1] ملبية إلى مكة حرسها الله. فلما كان العام المقبل خرجت حاجا، فبينما أنا أطوف بالبيت في سواد الليل إذ سمعت صوتا يقطع القلوب رقة، فاتبعت الصوت، فإذا بامرأة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا من هو لي وأنا له، يا من هو بي وأنا به، يا من هو علي وأنا عليه، يا من هو في وأنا فيه، فوقفت فقلت: يا هذه في هذا المقام، تقولين هذا القول؟، فنظرت إلي وتبسمت، وقالت: يا أبا إسحاق، ما الذي أنكرت من كلامي؟، أما قولي يا من هو لي وأنا له فهو لي رب وأنا له أمة، وأما قولي يا من هو بي وأنا به فهو بي مشفق وأنا به واثقة، وأما قولي يا من هو علي وأنا عليه فهو علي مترحم وأنا عليه مجرمة، وأما قولي يا من هو في وأنا فيه فهو في مدبر وأنا فيه متحيرة، فقلت: أحسنت، فمن أعلمك أني أبو إسحاق؟، قالت: لا إله إلا الله، أوقع النكران بعد المعرفة، فقلت: من أنت يرحمك الله؟، فتأملتها فإذا هي أم صفوان، فقلت: ما الذي أفادك في هذه المدة، فتبسمت وقالت: هل رأيت وزيرا يبوح بسر الملك؟، فقلت لها: أوصني بوصية أجد بردها على قلبي، فقالت لي: يا شيخ وهي غصن شبابك وأنت مقيم على زهوك وإعجابك، بيض بالتقوى سواد كتابك، واسمع صوت الداعي فالشيب أول داع وناع، يا شيخ أما علمت أن الدنيا سجون وجالس، فمنها داع إلى قرب الرحمان، ومها ما هو قائد إلى لمة الشيطان وموسم العصيان، وجميعها مراحل أعدت للأشغال لا للسكون، فمن لهي بزينتها خسر ووقع في

[1] زيادة في (ج).

الملامة، ومن لهي عن زخرفها فاز بالسلامة منها والغنيمة، فما آن لك أن تتصرف من مجلس ملامتك إلى مجلس كرامتك ومناجاة ربك مع ما عاينت من نذير الشيب الذي لا يحسن معه ارتكاب العيب ومخالطة الريب، فما تنتظر بعد الستين إلا أن تسقى بكأس المنية، فلا تنفع حينئذ التوبة ولا يقبل العذر، فقلت لها: [زيدي][1]، فقالت: قد أسمعتك إن كنت حيا.

ومن أعظم الكرامات تسخير دجلة لجيش حتى ساروا عليه بخيلهم ورجلهم وركابهم وهو يرمي الكرانف بموجه، فقالت فارس لما رأت ذلك إنما تعالجون الجن فرعبوا فلم ينظر حميم حميما، فتسخير البحر لموسى وقومه للهرب وهذا للرغب، فشتان بين الطالب والمطلوب. قال سليمان: "إني شهدت الفوارس يقفون بخيلهم على ظهر الماء كما يقفون على وجه الأرض، يتحدثون كأنهم على الأرض، وإن موج البحر ليقذف الزبد وهو كالجبال"، فهذه الكرامة التي أظهرها الله على يد أصحاب محمد تكاد توازيها معجزة من معجزة الأنبياء.

روي عن النعمان بن مقرن أنه قال: لقد نزلنا على شاطئ دجلة بعد الفراغ من القادسية، ونحن هائبون للبحر خائفون منه، وقد جمعت فارس سفنها إلى مدائنها لئلا نجد إلى العبور إليهم سبيلا، فبينما سعد بن أبي وقاص يصلي حزبه من آخر الليل إذ سمع هاتفا يهتف من السماء يقول: يا معشر المسلمين اقتحموا البحر قبل أن يمتنع منكم عدوكم، فالذي سخر لكم البر قادر على أن يسخر لكم البحر كما سخره لموسى، فلما سمع ذلك سعد بن أبي وقاص أمر مناديا أن ينادي بالرحيل، فأتاه من لم يسمع الهاتف فقال له: يا سعد، كيف نقتحم البحر وهو مزيد يرمي الكرانف، وموجه كالظلل؟، فقال: لقد سمعت النداء من السماء، وإني مقتحمه ولو لم يصاحبني منكم أحد، فلما سمعوا ذلك طابت أنفسهم على الاقتحام، فتقدمهم سعد رَحِمَهُ اللَّهُ فقام على شاطئ البحر، فقال: اللهم إن كنت تعلم من نياتنا أنا لم نقاتل هؤلاء منا ولا رغبة في دنياهم، وإنما نقاتلهم ابتغاء مرضاتك وإنجازا لوعدك الذي وعدت به نبيك، فبشرنا به ونحن أذلة مقهورون ببطن مكة، فذلل لنا هذا البحر وسخره لنا حتى نعبر، فإنك مالك الأرض والسماء، ثم

[1] في(ب): زديني.

قال: اعبروا على اسم الله، ثم أقحم فرسه البحر، واقتحم الناس كلهم فساروا عليه كما كانوا يسيرون على الأرض وهم بين مكبر ومهلل وقارئ حتى خرجوا إلى الجانب الأقصى، فلما رأتهم الأعلاج تجمعت على شاطئه لتمنعهم من العبور، فلم يقدروا على ذلك لأنهم قد رعبوا لما رأوا من سير الخيل والركاب على وجه البحر، فاستعجلوهم على كنوزهم فلم يحملوها واستولى عليها أصحاب رسول الله ﷺ والمسلمون، فلما وقف سعد رضي الله تعالى عنه على إيوان كسرى قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [1]، ثم قال: هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله، اللهم زدنا إيمانا وتسليما [2].

ومن ذلك تسبيح الحصى في كف أبي بكر وعمر وعثمان بعدما سبحت في كف النبي ﷺ، وقد أخرج هذه المعجزة والكرامة محمد بن يحيى الزهري في "الزهريات"، قال: أخبرنا أبو اليمان: قال: أنبأنا شعيب عن الزهري قد ذكر الوليد بن أسيد أن رجلا من بني سليم كبير السن، كان ممن أدرك أبا ذر بالربدة، عن أبي ذر قال: هجرت يوما من الأيام، فإذا النبي قد خرج من بيته فسألته عن الخادم فأخبرني أنه في بيت فاطمة، فإذا هو جالس وحده وكأني أراه يوحى إليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: « ما جاء بك؟ »، قلت: الله ورسوله ، فأمرني أن أجلس فجلست إلى جنبه لا أسأله عن شيء، ثم جاء أبو بكر فقال له مثل ما قال لي، فجلس عن يمينه، فجاء عمر ففعل مثل ذلك، ثم قال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، ثم جاء عثمان ففعل مثل ذلك، ثم قال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، فجلس كل منهم على جنب صاحبه، ثم قبض رسول الله على حصيات سبع أو تسع أو ما قرب من ذلك فسبحن في يده، سمع لهن حنين كحنين النحل، ثم ناولهن أبا بكر فسبحن في [يده حتى سمع لهن حنين كحنين النحل] [1]، ثم أخذهن منه فوضعن في الأرض فخرسن وصرن حصى، ثم ناولهن عمر فسبحن في كفه كما سبحن

---

[1] الدخان: 25 إلى 28.

[2] انظر: "الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء" لأبي الربيع الكلاعي، (512/2).

[1] زيادة في (ج).

في كف أبي بكر، ثم أخذن فوضعن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه كما سبحن في كف أبي بكر وعمر، ثم أخذن فوضعن في الأرض فخرسن[1].

وأما تسبيح الطعام فقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام[2].

وفي ذلك تصريح بكرامة الصحابة وكونهم أولياء لسماع هذا التسبيح وفهمه، وذلك مما أمدهم به وأفاضه عليهم من تلألأ مشكاة أنواره ونبوءته وبركة مواجهة الله لهم بخطابه وتجليات كتابه. ومن ذلك تأمين أسكفة الدار والباب وحوائط البيت على دعائه عليه الصلاة والسلام، عن أبي الساعدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعباس عمه: « يا أبا الفضل لا ترم منزلك أنت وبنوك غدا حتى آتيكم، فإني لي فيكم حاجة »، فانتظروه حتى جاء بعد الضحى فدخل عليهم فقال: « السلام عليكم »، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال لهم: « تقاربوا »، فتقاربوا يزحف بعضهم إلى بعض حتى [إذا][1] أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته فقال: « يا رب هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه »، فانشق أسكفة الباب وحوائط البيت [فقالت] [2]: آمين آمين[3]، رواه البيهقي في "الدلائل"، وابن ماجة في مسنده.

ومن الدليل على كون أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أولياء لمشاهدتهم لملائكة الرحمان، وإعانتهم إياهم على حرب عدوهم من المشركين، ما وقع لعبد الرحمان بن عوف لما فقدوه يوم أحد فخافوا عليه القتل، فقال لهم رسول الله ﷺ: « كلا، إنه بشعب كذا، وقد قاتلت معه الملائكة »، فابتدر رجال من أصحابه ﷺ الشعب، فإذا هم به في الشعب وحوله رجال

---

[1] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "مسند البزار المسمى البحر الزخار"، مسند: أبي ذر الغفاري، رقم: 4040، (431/9)، وقال البزار: في إسناده صالح بن أبي الأخضر لين الحديث، وقد احتمل حديثه جماعة من أهل العلم وحدثوا عنه.

[2] ح ص، وجدته بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الاسلام، رقم: 3579، (194/4)

[1] ساقط من (ب).

[2] في (ب): فقال.

[3] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "دلائل النبوة" للبيهقي، (71/6)، وقال البيهقي: تفرد به عبد الله بن عثمان الوقاصي.

مصرعون، فقالوا له: من قتل هؤلاء؟، قال: أما هذا وأشار إلى [رجل][1] فأنا قتلته، وأما هؤلاء فقتلهم رجال بيض حسان لا أعرفهم، فقالوا: تلك الملائكة، إنا لما فقدناك خفنا عليك القتل، فقال رسول الله ﷺ: « كلا، ولكنه في شعب كذا، وقد قاتلت معه الملائكة »، فنشهد أنه رسول الله ﷺ [2].

ولما وضع رسول الله ﷺ السلاح حين فرغ من حرب الأحزاب جاءه جبريل معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة ديباج، فقال له: إن كنت وضعت السلاح فوالله ما وضعناه، أخرج، وأشار إلى بني قريظة [3]، وفي رواية: فإن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم ومزلزل بهم، قال أبو ذر: فسلك من زقاق بني [غنم] [1] في مركب من الملائكة، وكأني أنظر الآن إلى غبار خيل الملائكة حين سلكت زقاق بني غنم ساطعا إلى السماء، وكنت مع رسول الله ﷺ، فلما أمر بجماعة الناس، قال: « هل مر عليكم أحد؟ »، قالوا: مر علينا دحية الكلبي، والله ما عرفنا منهم غيره، فتبسم رسول الله ﷺ فقال لهم: « ذلك جبريل في ركب من الملائكة »[2] انتهى. فيومئذ رآها الخاص والعام، فسار جبريل والملائكة إلى داخل حصنهم يزلزلون حصونهم ويرعبونهم، والنبي والمؤمنون من ورائهم يحصرونهم، فلم يلبثوا أن نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكم فيهم سعد كما هو معلوم. وأخرج ابن ظفر في كتاب " البشر بخير البشر" أن الملائكة لا تزال تقاتل المشركين مع كل إمام حق ما أقامت هذه الأمة الدين، واتبعت سنة خير المرسلين [3]. ومما يؤيد ما قلته ما رواه ابن قتيبة عن الواقدي أنه لما جاشت الأعاجم

---

[1] في (ب): أحدهم.

[2] لم أقف عليه.

[3] ح ص، "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين كتاب: المغازي والسرايا، رقم: 4332 ، (37/3)، وقال الحاكم: هذا ح ص على شرط الشيخين.

[1] في (ب): غانم.

[2] انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، كتاب: المغازي والسرايا، رقم:4332، (37/3).

[3] لم أقف عليه في كتاب: "البشر بخير البشر" للشيخ ابن ظفر الصقلي المكي الحموي.

من فارس وغيرها على أصحاب رسول الله ﷺ بجندى [سابورا][1] حتى هموا بالفرار بين أيديهم، سمع بعضهم قائلا يقول: يا معشر المسلمين لا يوحشنكم ما جاش عليكم من عدوكم، فإن الله ناصركم وممدكم بالملائكة، فنشطهم وقوى رجاءهم ما سمعوا من قول الهاتف، فلما ناهدوهم أمرهم أميرهم أن يكبروا، ثم ليقولوا: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، فما هو إلا أن قالوها ثارت عجاجة بينهم وبين المشركين، قالوا: فلقد رأينا الرؤوس تندر وما ضربها أحد من القوم، ولقد سمعنا ضرب السياط، ولقد غشينا التكبير حتى اتصل بالعنان، وما شككنا أنه تكبير الملائكة. وحدثنا من أسلم من العجم ممن حضر تلك الوقعة أنهم عاينوا خيلا بلقا عليها رجال بيض طوال بأيديهم مخاريق من نار يضربونهم ويصيحون بهم: أن انهزموا قبل أن ينزل بكم عذاب الله، فكانت هزيمتنا التي رأيتم، وما كنا نرى إلا أننا إذا لقيناكم أخذناكم أخذا لكثرتنا وقوتنا، وقلتكم وضعفكم، فلما رأوا الناس ما لم يحتسبوا رعبوا. ولما كانت الليلة التي قبل يوم اليرموك رأى أبو مرثد الخولاني[1] لما خرجوا لعدوهم وتواقفوا معهم، أرسل الله عليهم طيرا من السماء بيضا عظاما لها مخالب كمخالب الأسد، فهي تنقض عليهم من السماء [انقضاض العقبان] [2] ، فإذا حادث الرجل من المشركين ضربته ضربة يخر منها متقطعا، وكان الناس يقولون: أبشروا يا معشر المسلمين، قد أيدكم الله بنصره وبملائكته، فكان المسلمون يومئذ في نحو ثلاثين ألفا، والروم ينيفون على أربع مائة ألف [3].

---

[1] في (ج): سابور.

[1] عبد الله بن ثوب الخولانيّ: تابعيّ، فقيه عابد زاهد، نعمة الذهبي بريحانة الشام، أصله من اليمن، أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر: وفاته بدمشق، وقبره بداريّا، (ت 62 هـ / 682 م)، انظر: "الأعلام"، باب: أبو مسلم الخولاني، (75/4).

[2] في (ب): بانقضاض العقاب.

[3] لم أقف عليه.

وعن أبي جهضم[1] أيضا أن رجلا من بطارقة الروم رأى في تلك الليلة كأن رجالا نزلوا من السماء، طول كل واحد منهم أبعد من مد بصره، فنزعوا سيوفنا من أغمادها، وأسنة رماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منا رجلا إلا كتفوه، ثم قالوا لنا: اهربوا وأكثركم مقتول، فأخذنا نهرب، فمنا من يسقط على وجهه، ومنا من يتبلد فلا يستطيع أن يبرح من مكانه، ومنا من يحل كتافه ثم يسعى حتى لا أراه. فلما أصبح قص رؤيته على باهان[2]، فقال: أما من رأيت يسقط على وجهه ومن رأيته يتبلد فلا يستطيع أن يسعى ولا يتنحى من مكانه، فهم الذين يهلكون، وأما الذين رأيتهم يحلون كتافهم فيسعون حتى لا تراهم فأولئك الذين ينجون، ثم لم يذكر الملائكة مخافة أن يميل ذلك قلوب عساكره إلى الإسلام، ورأى باهان قائلا يقول له: لا تقاتل القوم فتهلك وتهلك جنودك، فإنهم حزب الله، فأرسل بما رأى إلى قيصر، وأمره بالفرار والتخفف إلى القسطنطينية [1].

وحكى الطبراني عن سفيان أن هرقل لما بلغه مقتل أهل المرج، أمر أمير حمص بالمضي إليها وقال له: إنه بلغني عن المسلمين أن جل طعامهم وشرابهم لحوم الإبل وألبانها، وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل غداة باردة فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد هذا جل طعامهم وشرابهم إلا مات، فكان أهلها يغادون المسلمين ويراودونهم في كل يوم بارد فلقي المسلمون بردا شديدا والروم حصارا طويلا، وإنما تمسك الروم بالمدينة رجاء أن يهلك المسلمون بالشتاء، وكانوا يتواصون فيما بينهم أن تمسكوا بحصونكم فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، فكانت الروم ترجع وقد تقطعت أقدام بعضهم في خفافهم، وإن المسلمين لفي النعال

---

[1] أبو جهضم الأزدي، رجل من أهل الشام، تابعي كبير، لم أجد له ترجمة مفصلة، عن: عبد الله بن حوالة الأزدي، وعبد الله بن حوالة، صحابي جليل، ولعل أبو جهضم هذا هو: موسى بن سالم، العباسي، مولاهم، البصري، مولى عبد الله بنعباس، وروايته عنه مرسلة، انظر:"المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري" لأكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، (689/2).

[2] أحد ملوك الروم ولا ترجمة له في المصادر.

[1] عرفت قديمًا باسم بيزنطة، ثم القسطنطينية، وكانت مطمعًا للغزاة والفاتحين على مر العصور، اتخذها سلاطين الدولة العثمانية عاصمة لدولتهم منذ فتحهاعام (857 هـ / 1453 م) حتى عام (1342 هـ / 1923 م)، وهي مدينة اسطنبول حاليا وتقع في الجمهورية التركية، انظر: "أطلس الحضارة الإسلامية" لإسماعيل راجي الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي، (ص315).

وما أصيب أصبع أحد منهم. حتى إذا [انخمس] [1] الشتاء قام فيهم شيخ يدعوهم إلى مصالحة المسلمين، قالوا: كيف نصالحهم والملك في عز ليس بيننا وبينه شيء، فتركهم وقام فيهم آخر فقال: ذهب الشتاء وانقطع الرجاء فما تنتظرون؟، قالوا: البرد سام، فإنما يسكن في الشتاء ويثور في الصيف، قال: إن هؤلاء قوم معانون منصورون مصنوع لهم، ولئن تأتوهم بعهد خير لكم من أن يأخذوكم عنوة، فقالوا: شيخ خرف ولا علم له بالحرب، فأثاب الله المسلمين أن زلزل بأهل حمص، وذلك أن المسلمين ناهدوهم، فكبروا وكبرت الملائكة بتكبير حتى بلغ التكبير العنان، فزلزلت الروم بذلك التكبير حتى تصدعت الحيطان، ففزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم ممن كان يدعوهم إلى المسالمة، فلم يجيبوهم وأذلوهم بذلك، ثم كبروا ثانية فتهافتت دور كثيرة وحيطان، ففزعوا وضجوا وقالوا لذوي رأيهم: ألا ترون إلى عذاب الله، فأجابوهم أنه لا يطلب الصلح غيركم، فأشرفوا ينادون: الصلح الصلح، ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم على أن يناصفوهم في غير أموال ملوك الروم وبنيانهم وعلى الجزية [1].

ومن ذلك ما رواه الطبراني في "الكبير"، وأخرجه السيوطي في "المعجزات": أن رجالا من مشركي قيس أسلموا، فقالوا لرسول الله عليه السلام: كنا نرى معك ونحن مشركون من الخيل المسومة البلق، والرجال والعدة المضاعفة، والسلاح الفاضل، والرهج الجائل [ما فقدناه] [2] بعدما أكرمنا الله بالإسلام، فقال ﷺ: « ذلك مدد السماء، وقل ما يراه إلا مشرك »[3].

ويروى أن رجلا من أسد اضطره الجهد إلى الإنضواء إلى رسول الله ﷺ، فأظهر الإسلام تقية، فغزا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فلما تراءى الجمعان جاء مدد الملائكة وكان إلى جنبه رسول الله ﷺ، فقال له: ما هذه الرجال البيض الطوال، والخيل البلق التي خالطت الجيش، فإني لم أر قط مثلها؟، فقال له رسول الله ﷺ: « أسلم ويلك، فإنك لم تسلم قبل، فتلك

---

[1] في (ج) انسلخ.

[1] "الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء" لأبي الربيع الكلاعي، (247/2).

[2] ساقط من (ج).

[3] لم أقف عليه في المصادر التي ذكرها المؤلف ولا في غيرها.

خيل الملائكة ولا يراها إلا مشرك »، فأسلم من حينه، فلما أسلم قال له رسول الله ﷺ: « انظر هل ترى من تلك الخيل أحدا؟ »، فقال: غابت عن عيني أو ذهبت [1].

وإن كان الله تعالى قد ألقى في رحم مريم عيسى بنفخة جبريل، فقد أكرم الله تعالى زينب بنت جحش بأن زوجها من رسول الله ﷺ من غير واسطة ملك ولا بشر، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [2]. ثم بين حكمة ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [3]، ولا يلتفت إلى ما يحكيه القصاص وجهلة المفسرين بما لا يليق بمنصبه ﷺ مما يوهمه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [1] الآية، وليس في هذه الآية ما يدل على عدم تقواه عليه الصلاة والسلام، وخوفه من الله ، ولا تقديم خشية الناس على خشية الله تعالى، حاشاه من ذلك، قال عمر وابن مسعود وعائشة: " لو كتم رسول الله ﷺ شيئا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآيات[2]، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وأما ما فسرها به بعض جهالة المفسرين من وقع محبتها في قلب النبي ﷺ عندما رآها وإرادته طلاق زيد لها، ففيه من الحرج ما لا يليق بمنصبه عليه الصلاة والسلام من مد عينيه إلى ما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا، فكيف وهي أجنبية، ولها زوج ينسب إليه بالتبني، وقد زوجه إياها طوعا واختيارا وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت مع أن النساء لا يحتجبن منه لحاجتهن إليه في أمر دينهن، فمن اقتحم هذا التأويل فقد اقتحم بابا عظيما من الإفك لقلة

---

[1] لم أقف عليه.

[2] الأحزاب: 37.

[3] الأحزاب: 37.

[1] الأحزاب: 37.

[2] بلفظ آخر،"سنن الترمذي"، أبواب: تفسير القرآن،باب: من سورة الأحزاب، رقم:3208،(206/5)، وقال الترمذي: ح س.

معرفته بالنبي ﷺ وعصمته وفضله، واشتغاله بالباقيات الصالحات على الفانيات، فكيف يقول مسلم إنه رآها فأعجبته؟، ولقد كان يراها قبل تزويج زيد بها بما أعجبته وما مالت إليها نفسه، فكيف تعجبه بعد تزويج زيد إياها وكونها في عصمته؟.

وأصح ما قيل في هذا الباب ما روي عن سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد بن جدعان قال: سألني زين العابدين علي بن الحسين، قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [1]، قلت: يقول: لما جاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أريد أن أطلق زينب، أعجبه ذلك وقال: أمسك عليك زوجك واتق الله، فقال علي بن الحسين: ليس كذلك، ولكن الله تعالى أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيد سيطلقها، فلما جاء زيد قال: إني أريد أن أطلقها، قال له: أمسك عليك زوجك، فعاتبه الله تعالى وقال: قلت لزيد أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك[1]، وهذا هو الأولى واللائق بحال الأنبياء وهو المطابق لمعنى الآية، لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [2]، فلو كان الذي أضمره ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يخبر أنه [يظهره] [3] ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله به من أنها ستكون من زوجاته، وإنما أخفى ذلك استحياء من أن يقول لزيد إن التي تحتك وفي عصمتك ستكون زوجتي وهذا قول حسن مرضي، وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحيي من إطلاع الناس عليه وهو في نفس الأمر مباح لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الحامل على الدخول في ذلك المباح ليتوصل به إلى واجبات يعظم أثرها في الدين، وذلك أنه تعالى إنما جعل طلاق زيد لها وتزويج النبي لها سببا لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال الله تعالى:

---

[1] الأحزاب: 37.

[1] "تفسير البغوي"، (642/3).

[2] الأحزاب: 37.

[3] في (ب): يظنه.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[1]، : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[2].

فإن قيل" فما الفائدة في أمر النبي ﷺ زيدا بإمساكها؟، فالجواب هو: أن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون زوجته، فنهاه النبي ﷺ عن طلاقها، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به، فلما طلقها خشي قول الناس أن محمدا يحرم تزويج زوجات البنين ثم يتزوج امرأة ابنه، فأمره الله تعالى بزواجها ليباح مثل ذلك، وقيل كان في أمره بإمساكها قمع للشهوة ورد النفوس عن هواها وهو غير مُسلم لأنه يقتضي جواز ما قاله المفسرون مما ينبغي في حقه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [1]، لم يرد به تعالى أنه لم يكن يخشاه فيما سبق ولا فيما ذكر هنا، ولكن لما خشي قول الناس في الإقدام على نكاح زينب مع إعلام الله بحليتها له، واستحيى من إعلام زيد حين شاوره في طلاقها أنه سيطلقها وتكون زوجة النبي ﷺ مع ما تحت ذلك من فائدة التشريع، صار وكأنه قدم خشية قول الناس فيه على أمره له بتزويجها حين نزع حبها من قلب زيد، ولم يكن له فيها إرب وتقاصرت همته عنها، وطابت نفسه بطلاقها من غير سبب من رسول الله ﷺ، ولا ميل نفس، فلذلك عاتبه بقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [2]، فيما أبحته لك، وجعلت تحته من غوامض الحكمة ما ستظهر ثمرته من [حسم][3] سنة الجاهلية بالتبني ونحوه، وإلا فهو ﷺ أتقى العالمين وأخشاهم منه كما في قوله ﷺ: « إني لأخشاكم لله وأتقاكم له »[4]، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء

---

[1] الأحزاب: 40.

[2] الأحزاب: 37.

[1] الأحزاب: 37.

[2] الأحزاب: 37.

[3] ساقط من (ب).

[4] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، رقم: 5063، (2/7).

فرضا وتقديرا وبيانا لجميع الأمة بأن لا يتركوا شيئا من مصالحهم المأذون فيها شرعا لأجل الحياء من الناس، فكيف بما كان واجبا ومندوبا إليه والله تعالى أعلم.

وكانت زينب تفخر على نساء النبي فتقول: زوجكن أولياؤكن من رسول الله ﷺ، وزوجني الله به من فوق سبع سماوات فكان وليي الله دون سائر النساء، فعزل أوليائي عن ولايتي إكراما لي، وتولى أمري بنفسه وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [1].

واحتج من قال بتفضيل مريم على سائر أزواج النبي من غير خديجة بأنها لم يغمص عليها شيء في دينها ولا في آدابها منذ ولدت حتى ولدت عيسى إلا مصاحبة ابن عمها لها في الاحتطاب لأجل خدمة المسجد التي حبسها عليه وحرزا له، حتى برأها الله من جميع ذلك بما أجراه على لسان عيسى وهو في المهد.

وأما نساء النبي ﷺ فإنه قد أغمص عليهن تغايرهن فيما بينهن حتى أدخلن رسول الله ﷺ في ذلك كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [1]. وقال من يميل من العلماء إلى [ترجيح][2] نساء النبي ﷺ: إنما هذا أدب أدبهن الله به لعنايته بهن، وكان في بداية أمرهن، فلما تمكن اليقين والمعرفة من قلوبهن أمر الله نبيه ﷺ بتخييرهن ليظهر فضلهن، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ظهر فضلهن وطهرهن تطهيرا، وأمرهن بتعليم الأمة وإرشادها بما أوتين من علم الكتاب والسنة، وما اختصصن به مما يطلعن عليه مما لم يطلع عليه سواهن من أسرار النبي ﷺ وخاصة أمره وباطن أحواله، فانتفعن ونفعن، فبث العلم مما لم تصل إليه مريم ولا غيرها.

---

[1] الأحزاب: 37 .

[1] التحريم: 4 – 5 .

[2] في (ب): تزويج.

ولما هم عليه الصلاة والسلام بطلاق حفصة بنت عمر نزل عليه جبريل فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك لا تطلق حفصة فإنها قوامة، وإنها من أزواجك في الجنة»[1]. ومن حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فدخل على حفصة بنت عمر، واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي منه ﷺ شربة ، فقلت : أما والله لأحتالن له، فذكرت ذلك لسودة فقلت لها: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافر؟ فإنه سيقول: «لا»، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن توجد منه الريح الكريهة، فإنه سيقول لك: «سقتني حفصة شربة عسل »، فقولي له: جرست نحلة العرفط، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية مثل ذلك، فلما دخل على سودة فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافر؟، قال: « لا »، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟، قال: « سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرست نحلة العرفط، فلما دخل علي قلت له مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك، فلما دخل على صفية قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟، قال: « لا حاجة لي فيه »، قالت سودة: سبحان الله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي[1]، أخرجه مسلم وغيره.

قوله: " جرست نحلة العرفط : هو بالجيم والراء والسين المهملة، ومعناه أكلت نحلة العرفط فتغير العسل من ذلك.

ثم أنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية تخويفا لأزواج النبي ﷺ وإطماعا لهن في فضل الله فقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[2]. وهذا مثل ضربه

---

[1] بلفظ آخر، "المعجم الكبير"للطبراني، رقم: 306،(188/23)،وقال الهيثمي في"مجمع الزوائد"،(244/9) :إسناده ضعيف.

[1] ح ص، بلفظ آخر،انظر:"صحيح مسلم"، كتاب:الطلاق، باب:وجوب الكفارة على من حرم امرأته،رقم:1474،(1101/2).

[2] التحريم: 10.

الله تعالى للصالحين والصالحات، وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره، ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت قرابة متصلة بهم، وإن الأقارب كالأجانب، بل أبعد إن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبيا كامرأة نوح وامرأة لوط لما خانتهما لم يغن هذان الرسولان عن امرأتيهما شيئا، فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية ويظن أن ينفعه صلاح غيره، وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما، وتحذيرا لهما على أغلظ وجه وأشده.

ثم ضرب مثلا آخر يتضمن أن معصية الغير لا تضره إن كان مطيعا، وأن وصلة المسلم بالكافر لا تضر، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، فهي آسية بنت مزاحم، قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت به امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، فكانت تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة. ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، [فكشف الله عن بيتها في الجنة، وقيل أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة، ﴿قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾] [2]، فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع الله روحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألما، وقيل رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب فيها، ثم سألت الله أن ينجيها في الدنيا والآخرة فقالت: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [3].

ثم أتبعها بذكر مريم فبرأها مما رمتها به اليهود من الفاحشة، فقال: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾[4]، عن الفواحش. ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾، أي في جيب درعها، ولذلك ذكر الكناية ﴿مِن رُّوحِنَا﴾، أي من نفخة جبريل، والإضافة هنا إضافة تمليك وتشريف كبيت الله وناقة الله.

---

[1] التحريم: 11.

[2] ساقط من (ج).

[3] التحريم: 11.

[4] التحريم: 12.

ثم مدحها بتمام الإيمان، فقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1]، أي بالشرائع التي شرعها لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه، وكتابه أي المنزل على إبراهيم وموسى وداود وعيسى. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1]، أي العابدين، لأنها كانت من قوم قانتين، أي مطيعين، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت صلاح وطاعة لله.

ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « حسبك من نساء العالمين، مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[2]، أخرجه الترمذي، وقال حديث صحيح.

ومن الكرامات الباهرات الدالة على ولاية أصحاب رسول الله سوى ما تقدم، ما أخرجه السيوطي في "الطبقات" من حديث أبي ذر أن معاوية لما أجرى العين الزرقاء التي استنبطها من أرض الطائف فخرق لها جبال تهامة، حتى إذا بلغ بها قبور الشهداء من أهل أحد استصرخ أهل المدينة، فقال لهم: إني أريد أن أجري هذه العين إلى منتهى السباخ، ولا ممر لها إلا على قبورهم، فمن كان له ميت فليأته، فأتوهم فنبشوا عنهم فإذا هم رطاب يتثنون، فأصابت المسحتة قدم حمزة فانبعث جرحه دما، ووجدوا رجلا من الشهداء واضعا يده على جرحه في صدغه، فلما طواها انبعث الجرح دما فقال أبو ذر: "لا يشك بعد هذا في البعث، ولا في كرامات الأولياء إلا كافر مكابر" [3]، ولهم يومئذ في الأرض خمسون سنة، وقيل أربعون وهو الصحيح. ومن ذلك ما وقع لعاصم الأنصاري[4] من حماية لحمه من المشركين حين قصدوا قطع رأسه ليذهبوا به إلى

---

[1] التحريم: 12.

[1] التحريم: 12.

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: المناقب، باب: فضل خديجة رضي الله عنها، رقم:3878، (186/6)، وقال الترمذي: ح س.

[3] لم أقف عليه في "الطبقات" للسيوطي، انظر : "تفسير الثعالبي" المسمى " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" لأبي زيد الثعالبي، (139/2).

[4] عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي، أبو سليمان: صحابي، من السابقين الأولين من الأنصار، شهد بدرا وأحدا مع رسول الله ﷺ واستشهد يوم الرجيع ورثاه حسان بن ثابت، (ت 4 هـ / 625 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (248/3).

سلافة، كما في رواية بريرة بن أبي سفيان أن عاصما لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد [1]، وهي أم مسافع و[جلاس] [2] ابن طلحة العبدري، وكان عاصم قتلهما يوم أحد، وكانت قد نذرت حين قتل ابنيها لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، وجعلت لمن أتاها برأسه مائة ناقة، [فمنعتهم] الدَّبْر وهي الزنابير السود، فلم يقدروا منه على شيء، وكان عاصم بن ثابت قد أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا، ولما بلغ خبره عمر، قال: " إن الله يحفظ عهد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته ". ولما وفى لله في حياته دون نفسه ليكرمه بالشهادة على أيديهم، ومنعه من هتك حرمته بقطع لحمه ليريهم كرامته عليه ومعجزة نبيه، لأنها آية عظيمة من دلائل نبوته، وكرامة جليلة من كرامات خواص أمته لا تكاد توجد لرسول فضلا عن نبي، وهذا أعظم في الإعجاز من كلام الطير وتضليلها وإتيانها بأخبار الملوك والمماليك في عهد سليمان عليه السلام.

وأخرج السيوطي في "خصائصه" أن رجلا من حمير خرج من اليمن على حمار، فلما كان في أثناء الطريق مات حماره، فأتاه من كان معه من قومه ليحملوه، فقال: أمهلوني رويدا، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: اللهم [إن كنت] [3] تعلم من نيتي أني إنما حججت ابتغاء لمرضاتك، فلا تحملني منة غيرك، فقام حماره ينفض أذنيه، وكأنه لم تصبه غلبة مرض، فركبه حتى قضى عليه مناسك الحج، ثم رجع عليه إلى اليمن [4]، وفي ذلك يقول الحميري:

ومن ذا الذي أحيى الإله حماره وقد مات منه كل عضو ومفصل[5]

---

[1] سلافة بنت سعد بن شهيد: أنصارية من بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس، وليس لها ترجمة في المصادر، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: غزوة الرجيع، (1 سيرة/447).

[2] في (أ) و (ب): خلاس، وفي (ج) : خلاد، والصحيح: "جلاس".

[3] ساقط من (ب).

[4] لم أقف عليه في الكتاب الذي ذكره المؤلف رحمه الله، انظر: "دلائل النبوة" للبيهقي، باب: ما جاء في المجاهد في سبيل الله، (48/6).

[5] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "دلائل النبوة" للبيهقي، باب: ما جاء في المجاهد في سبيل الله، (48/6).

ومن ذلك ما أخرجه ابن الخطيب القسطلاني في "مواهبه": مما أكرم الله تعالى به عامر بن فهيرة [1] وكان ممن قتل من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بئر معونة من رفعه إلى السماء بعد موته حتى حالت دونه، وروى ذلك رجل من بني عامر ممن كان في الجيش الذين قتلوا أصحاب بئر معونة، فكان سبب إسلامه أنه لما طعنه فنفذه، قال: فزت ورب الكعبة، فقلت له: ما فزت وقد قتلتك ، فلما جذبت رمحي رفع علوا وأنا أنظر إليه حتى حالت السماء دونه، فأتيت من بقي من أصحابه بأيدينا فقلت لهم: تفقدوا أصحابكم ففعلوا، فقالوا: قد فقدنا رجلا واحدا وهو عامر بن فهيرة، فقلت لهم: ما كان موضعه في دينكم هذا الذي تدعون الناس إليه، قالوا: من خيرنا عفة، وأذأبنا في عبادة ربه، فأجمعت على الإسلام من يومي حتى أتيت رسول الله بالمدينة فبايعته وأسلمت على يديه[2]، وفي ذلك يقول بعضهم:

رحـم الله عـامر بن فهـيرة رحمة المبتغي سبيل الجـهـاد

صابرا صادق اللـقاء إذا مـا أكثـر القوم قال قول السداد[3]

ومن ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهز جيشا إلى البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي[4] رضي الله عنه، فتوجه إليهم، فبدورا به، فتحصنوا منه بخليج من البحر، فلما رأى ذلك قام على شاطئ الخليج، فقال: اللهم يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن سخر لنا هذا البحر، و ذلله لنا كما ذللت لنا البر، فإن الجميع مسخر بقدرتك وإرادتك، ثم قال: سيروا على اسم الله، فساروا على وجه الماء لا يبتل لهم خف ولا حافر حتى دهموا العدو وهم غارون اتكالا على البحر،

---

[1] عامر بن فهيرة : صحابي مولى أبو بكر الصديق، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان من المستضعفين الذين عُذّبوا لما اعتنقوا الإسلام، فاشتراه أبو بكر الصديق فأعتقه فصار مولى له، وكان يرعى غنم أبي بكر التي يمحو بها آثار أقدام عبدالله بن أبي بكر الذي كان يتردد على النبي ﷺ وأبوه أبي بكر أثناء تخفيهما في غار ثور، وهاجر إلى المدينة، وشارك مع النبيﷺ في غزوتي بدر وأحد، وقتل في سرية بئر معونة، (ت 4 هـ / 626 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: غزوة بئر معونة، (1 سيرة/453).

[2] "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للقسطلاني، باب: غزوة حمراء الأسد، (266/1).

[3] هذه الأبيات من البحر البسيط ، وقائلها مجهول.

[4] العلاء بن عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع بن حضر موت، من سادة المهاجرين، (ت 14 هـ/ 635 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: العلاء بن الحضرمي، (262/1).

فغنموا وسبوا وقتلوا المقاتلة، ثم دعا من بقي منهم إلى الصلح والمسالمة وإعطاء الجزية، ثم انصرفوا قافلين، فلما كانوا على الساحل توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجهزوه ثم دفنوه، فلما هموا بالإنصراف، قال بعض أهل الأرض: إن الأرض التي دفنتموه فيها لا تقبل الموتى ، وإن البحر يسيح عليها إذا مر، ففتحوا القبر فإذا هو مد البصر قد ملئ خضرة ونورا، ولم يروه في القبر، فأغلقوا القبر ثم انصرفوا[1].

ومن ذلك أيضا ما روي أن النبي ﷺ جهز سرية إلى سيف البحر، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فذهبوا حتى نفذت أزوادهم، فجعلوا يأكلون ورق الشجر، فلما بلغوا سيف البحر رأوا شيئا يظنونه أكمة فقصدوه، فلما بلغوه إذا هو دابة يقال لها العنبر، فأقاموا عندها شهرا يأكلون من لحمها ويذيبون شحمها فيجعلونه ودكا حتى ملئوا أوعيتهم كلها [ثم انصرفوا][2]، فلما انصرفوا إلى المدينة، فلما أتوها أخبروا النبي ﷺ بشأنها، فقال لهم: « تلك كرامة أكرمكم الله بها، هل بقي معكم شيء من لحمها؟ »، فقالوا: نعم، قال لهم: « فأتوني بشيء منه »، فأتوه به فأكله ﷺ [3]، أخرج هذين الحديثين جميع أرباب الصحاح بأسانيد رجالها رجال الصحيح.

ومن ذلك ما روي أن ثلاثة أخوة من أهل الشام وكانوا أبطالا شجعانا، لم يتركوا للروم شاذة ولا فاذة إلا أخذوها، وقتلوا جماعة من بطارقتهم، وكان لا يغزوا عسكر إلا غزوا [فيه] [4]، وربما غزوا وحدهم، فلما اشتد على الروم بلاءهم جمع ملكهم يوما جميع بطارقته وأرباب مشورته، فقال لهم: إن هؤلاء الغلمان قد ألحقوا علينا وقتلوا من قد علمتم من بطارقتكم وخياركم، ولم يتركوا لنا شاذة ولا فادة إلا أخذوها، فاجعلوا جهدكم وكيدكم في الظفر بهم أحياء حتى تأتوني بهم، فلئن يدخلوا في دينكم هذا لهو خير لكم من الدنيا وما فيها، ففعلوا ما أمرهم به حتى ظفروا بهم، فذهبوا بهم على خيولهم إلى ملكهم، فلما أتوه أكرمهم غاية الكرامة وبجلهم،

---

[1] ورد بلفظ آخر، "المعجم الكبير" للطبراني، باب: علاء بن الحضرمي، رقم: 167، (95/18).

[2] في (ج): فانصرفوا.

[3] ح ص، بلفظ آخر، "صحيح مسلم"، كتاب الصيد والذبائح، باب: إباحة ميتات البحر، رقم:1935، (1535/3).

[4] في (ب): معه.

فقال لهم: أجعلكم على ملكي وأنخلع لكم منه، وأزوجكم بناتي على أن تدخلوا في ديني، فقالوا له: إنا لا نترك ديننا لشيء من أمر الدنيا كائنا ما كان، وما كان جهادنا إياكم لطلب دنياكم، وإنما هو لطلب مرضاة الله تعالى والجنة، وليس لنا في دنياكم حاجة، ولا في ملككم ولا نسائكم، إنما قصدنا وحاجتنا مرضاة الله تعالى، فلما يئس من تركهم دينهم أمر بقدور ثلاثة، فجعل فيهم الزيت، ثم أوقد تحته حتى غلى، فألقى فيه واحدا منهم، ثم أقبل على الإثنين الباقيين، فقال لهما: هل لكما إلى الملك؟، فقالا: لا حاجة لنا به، بل ما نرى من العذاب أحب إلينا من ترك ديننا، والدخول في دين الكفر، فأمر بالثاني فألقي في القدر الثاني، ثم أقبل إليه بعض بطارقته فاستوهبه الثالث على أن يفتنه عن دينه، فقال له: وكيف تفتنه عن دينه وقد عرضت عليهم ملكي وبناتي فأبوا عن ذلك؟، فقال له: قد علمت الروم أنه ليس فيها مثل ابنتي، وقد تعلم ميل العرب إلى النساء، فإني أخلي بينه وبينها حتى تفتنه عن دينه، فأسلمه له. فذهب به إلى داره وجعل فيها من جميع أنواع الحلى وألبسها أفخر الثياب، ثم أتى بها يقودها حتى أدخلهاعليه، وقال لها: لا تمنعي منه شيئا أراده منك، ثم قال له: هذه ابنتي قد جعلتها لك أمة تخدمك، فمكثت معه زمانا وهو لا يلتفت إليها، بل كان يصوم النهار ويقوم الليل، فلما طال عليها ذلك قذف الله الإيمان في قلبها، فقالت له: يا هذا، إني أراك تقدس ربا عظيما، وقد رغبت في دينك، ثم فيك، فقال لها: أما ديني فنعم، وأما نفسي فلا، فإن أهل هذه البلدة كلهم كفار، ولا يعقد كافر لمسلم، فقالت له: إني سأحتال لك، فذهبت إلى أبيها، فقالت له: إني قد طمعت في الرجل، وإنما يمنعه مما أريد ما يرى من مقتل أخويه، فلئن أخرجتمونا إلى قرية نائية ضمنت لكم فتنته، فذهب أبوها إلى الملك فأذن له وسر بذلك، فجهزهما أبوها بما يحتاجان إليه إلى تلك القرية، فلما وصلا إليها وجن الليل، قالت له: قد أعددت ما نحتاج من الزاد، فاذهب بنا الليلة إلى بلاد المسلمين، فنخرج من أرض الكفر. فركبا سفينة فجاوزا بحر الروم في تلك الليلة، ثم ساروا في البر وقد زويت [لهما][1] الأرض، فما باتا إلا بقرب مدينة الرسول ﷺ، فبينما هما معرسان إذ

[1] في (ب): لهم.

سمعا جلبة الخيل والرجال، فقال للرومية: إن الطلب قد أدركنا، فقالت له: ثق بالله، أليس قلت لي أن الله على كل شيء قدير؟، فقال لها: قلت ذلك وهو كذلك، فقالت له: ادع الله تعالى، وأنا أؤمن على دعائك، فبينما هما كذلك، إذا بأخويه الشهيدين فعرفهما، فقال لهما: ألستما قد حرقكما، قالا: نعم، ما هي إلا الغمسة التي قد رأيت، ثم سلك بنا إلى الفردوس الأعلى، وقد بعثنا الله إليك وإلى صاحبتك، وهو يقرئكم السلام، وبعث معنا طائفة من الملائكة يشهدون عقد نكاحكما، وإن الله تعالى هو ولي المرأة، ونحن شاهدان، والملائكة يهنئونكما ويدعون لكما بالبركة، وإن الله تعالى قد طوى لكما المسافة، فأنتما معرسان بقرب مدينة الرسول ﷺ، وإنكما ستغاديان المسلمين غدا، ويتولى أمير المؤمنين عمر وليمتك بنفسه بإذن من الله تعالى. فلما كان من الغد بكر عمر إلى المسجد، وكان يفعل ذلك فيقرأ سورة من الطوال حتى يمتلئ المسجد من الناس فيقص، ولم يفعل ذلك في يومه ذلك، بل إنما قرأ في الصبح بسورتين من المفصل وتجوز في صلاته، ثم التفت إلى الناس فقال لهم: إن فلان بن فلان قد قدم من بلاد الروم ومعه رومية قد أسلمت على يديه، وإن الله وملائكته قد تولوا العقد بينهما، ومع الملائكة أخواه الشهيدان ليشهدا عرسهما ويحضراه، ثم خرج وخرج الناس معه ليبتدرونهما، فلما بلغوا باب المدينة إذا هما مقبلان، فعانقه عمر رضي الله عنه وقبل ما بين عينيه، وقال له: مرحبا بك وبمن جاء معك، والحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من يتولى الله والملائكة أمره ويكرمه بمثل هذه الكرامات، وأقبل بهما حتى أدخلهما دارا له، وأعطاها إياهما إكراما لهما رضي الله تعالى عنهما، فأقام معها في المدينة حتى ولد الأولاد، وقد عاهد أن لا يتزوج عليها ما دامت في عصمته.

ومن هذا الباب ما روي عن عامر بن الطفيل الدوسي [1] رضي الله عنه، روى عنه صاحب "الإكتفاء" أن عامرا قال: قدمت مكة زمن مظاهرة قريش على رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة: وكان عامر

[1] عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري، من بني عامر بن صعصعة: فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية ولد ونشأ بنجد، وأدرك الاسلام شيخا، فوفد على رسول الله ﷺ وهو في المدينة، بعد فتح مكة، يريد الغدر به فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة، وأن يجعله ولي الأمر من بعده=

سيدا مطاعا في قومه، وكان شاعرا لبيبا كفؤا ، قال: فلما قدمت مكة أقبل علي جلة قريش فقالوا لي: إنك سيد من سادات العرب، وإنا نحذرك من رجل خرج فينا يقال له محمد، قد أفسد ألفتنا وخالف بين وجوهنا، لا يسمع أحد قوله إلا سحره فيميله إلى ما هو عليه من الأمور التي لا تعرف، ونخشى أن يدخل عليك وعلى قومك من البلاء ما أدخله علينا، فإياك أن تسمع منه من قوله، فأبى الله إلا أن أن يسمعنيه. فبينما أنا أطوف بالكعبة إذا به يصلي في الحجر ووجهه إلى الكعبة، فسمعت قولا حسنا لم أسمع بمثله، وأيقنت أنه ليس من كلام البشر، فقلت في نفسي ثكلتك أمك، إنك لرجل لبيب لا يخفى عليك الحق من الباطل، ولا الحسن من القبيح، فما يمنعك من الإستماع؟، فلما انصرف إلى بيته اتبعته حتى دخل بيته فدخلت معه، فأخبرته بقول قريش وبما أسمعني الله من قوله، فقلت له: اعرض علي أمرك، فعرض علي الإسلام، فأخذ الله بمجامع قلبي إليه، فوالله ما سمعت قولا أحسن من القرآن، ولا سبيلا أعدل من الإسلام، فأسلمت، وعلمني سورا من القرآن وما افترض الله علي فحفظت جميع ذلك، فقلت له: يا رسول الله، إني مطاع في قومي، وإني منصرف إليهم بهذا الأمر الذي جئت به من عند الله، وإني داعيهم إليه ومخالف لما هم عليه، فاسئل الله أن يجعل لي آية تكون برهانا لي وعونا، فقال لي عليه الصلاة والسلام: « إن الله جاعل لك آية، فادع قومك إلى الله ورسوله ». فانصرفت، فلما كنت على الجبل الذي يشرفني على قومي، سطع بين حاجبي نور كالشمعة العظيمة، فقلت: اللهم في غير وجهي، لئلا يقول المشركون إنها مثلة حدثت بي لما فارقت دينهم، فانتقل ذلك النور إلى يده اليمنى، فإذا هي وكأنها منارة، فقلت: اللهم في غير جسدي، فانتقل النور إلى سوطي، فجعل يلمع فيه كالبرق الخاطف، فلما دنوت من قومي رأوا ذلك النور، فأقبلوا كلهم ينظرون إليه ويتعجبون منه، فلما أنخت أقبلت إلي زوجتي، فقلت لها: إليك عني، ما أنت مني ولا أنا منك، فقالت لي: لم ذلك، بأبي أنت وأمي؟، فقلت لها: فرق الإسلام بيننا، فإني آمنت

=فرده، فعاد حنقا، وسمعه أحدهم يقول: لأملأنها خيلا جردا ورجالا مردا ولأربطن بكل نخلة فرسا! فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه، (ت 11 هـ / 632 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عامر بن الطفيل، (252/3).

بمحمد ﷺ واتبعته واستبدلت دين الكفر بدين الإسلام، فقالت: ديني دينك، فقلت لها: إن كنت صادقة فاذهبي إلى الوشل الذي عند صنمنا فاغتسلي، فقالت: ألا تخافه علي؟، فقال: أنا ضامنك، فإن لكع جماد لا ينفع ولا يضر، فذهبت واغتسلت، ثم أقبلت لي فعرضت عليها الإسلام فأسلمت، ثم أتاني أبي وهو شيخ كبير، فلما دنا مني، قلت له: إليك عني، فلست منك ولست مني، قال: ولم يا بني؟، قلت: لأني قد أسلمت وتابعت محمدا وأنت كافر، ولا وصلة بين الكافر والمسلم، فإن الإسلام نور والكفر ظلمة، والنور والظلمة لا يجتمعان، قال: فديني دينك، فقلت له: إن كنت صادقا فاذهب فاغتسل ثم ائتني، فرجع إلى بيته فاغتسل ثم جاءني، فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أقبلت على دوس أدعوهم إلى الإسلام، فجعل بعضهم يسلم لما رأى من ذلك النور، وبعضهم يأبى ذلك ويزعم أن ذلك النور من باب السحر، فأقول لهم: ويلكم إنه عربي ومن صميم قريش، إنما السحر لليهود والحبشة وما شاكلهم من الأعاجم. فلما استعصوا علي، رجعت للنبي ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن دوسا قد أبى معظمها إلا الكفر، وقد استصعبت علي، فادع الله عليهم، فقال النبي ﷺ: « اللهم اهد دوسا وآت بهم تائبين»[1]، فقلت: يا رسول الله، أتيتك لتدعوا عليهم فدعوت لهم، فقال لي: « يا عامر، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء تنفقها في سبيل الله، ارجع إلى قومك وصابرهم وسايسهم، وادعهم إلى الله، ولا تكن ضجرا ولا ملوما، فإن الهدى بيد الله، فعسى الله تعالى أن يقر عينك بإسلامهم ». فرجعت إلى دوس وجعلت أدعوهم إلى الله وأصابرهم وأحتج عليهم بما يظهر لمن نور الله بصيرته من آيات الله والنور الذي معي، فجعلوا يسلمون. ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فلما كان فتح خيبر أتيته في مائة أهل بيت من دوس فكانوا عضدا للإسلام، ثم لما فتح النبي ﷺ مكة وأسلمت قريش، أقبل على الإسلام جميع العرب، فجمع الله قومي على الإسلام، فأسلم بإسلامها جميع أهل السرات وأزد شنوءة وجميع الأزد. فلما دعا أبو بكر إلى جهاد الروم بالشام، أتيت من قومي في عشرة آلاف معها نساءها

[1] ح ص، بلفظ آخر، "صحيح البخاري"، كتاب: الجهاد والسير، باب: الدعاء للمشركين ، رقم: 2937، (44/4).

تحمل أولادها على أكبادها، فلما كان يوم اليرموك كانت رحى الحرب تدور على قومي[1]. ولما توفي النبي ﷺ كانت دوسا ممن ثبت على الإسلام فلم يرتد منهم رجل ولا امرأة، ويروى أنه خطب بخطبة مثل خطبة أبي بكر بالمدينة، وكذلك سواد بن قارب [1]، وكذلك ابن ذي المشقار[2] ملك حمير، فلم يرتد من جميع حمير رجل واحد ولا امرأة، ولا من الأزد، ولا من همدان.

ومن ذلك ما أظهره الله تعالى على يد تميم الداري[3]، وذلك ما أخرجه ابن حبان أن نارا خرجت من سلع ثم صارت حريقا تقصد المدينة، فأتى [الصارخ] [4] عمر فوجد عنده تميم الداري، فقال له: قم يا تميم فردها حتى ترجع من حيث خرجت، فقصدها حتى خرجت إذا جاءها جعل يضربها بردائه وهي تسعى أمامه وهو يزجرها، وحيثما وجهها توجهت حتى ردها من حيث خرجت، ثم رجع إلى عمر رضي الله [تعالى] [5] عنه وقال له: إني رددتها من حيث خرجت يا أمير المؤمنين، فقال: ليهنك الفضل من الله، فإنها كرامة خصك بها، ويوشك أن تخرج نار من جبال تهامة، فلا يردها أحد حتى تنطلق إلى اليمن[6]. وقد خرجت في القرن السادس كما أخبر عنها عمر رضي الله عنه، وقد صنف فيها السيوطي مصنفا أتى فيه بالعجب العجاب سماه بكتاب " الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز" [7]. وقد لقي الجساسة وأخبرته عن الدجال وعن هاروت وماروت، وقد اختطفه الجن حتى طافت به جميع البلدان، وله قصة غريبة لقي

---

[1] لم أقف على هذا الحديث.

[1] سَواد بن قَارب الأزدي، صحابي كان كاهنا في الجاهلية، وكان شاعرا، انظر: "الاصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر العسقلاني، باب: سواد بن قارب، (181/3).

[2] لا ترجمة له.

[3] تميم بن أوس بن خارجة الداريّ، أبو رقية: صحابي، نسبته إلى الدار بن هانئ، من لخم، أسلم سنة 9 هـ ، وكان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان فنزل بيت المقدس وهو أول من أسرج السراج بالمسجد وكان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين، روى له البخاري ومسلم 18 حديثا، (ت 40 هـ / 660 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (87/2).

[4] ساقط من (ب)، وفي (ج): صارخ.

[5] زيادة في (ب).

[6] وجدت الرواية بلفظ آخر، انظر: "دلائل النبوة" للبيهقي، باب: ما جاء في الكرامة التي ظهرت على تميم، (80/6).

[7] من مؤلفات قطب الدين القسطلاني وعنوانه: "الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز"، وليس من مصنفات السيوطي كما ذكر المؤلف رحمه الله، انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (145/3).

فيها جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والخضر عليهم السلام، ثم كانوا سبب مرجعه إلى المدينة، فدخل على زوجته ففرت منه لما رأت من تغير حاله، فلما أصبح ذهب إلى عمر رضي الله [تعالى][1] عنه فردها إليه.

ولما فتح الصحابة [رضي][2] الله عنهم الشام في دولة عمر ﷺ واستولوا على أقصاه وأدناه خلفوا على كل كورة رجالا يقومون بأمر أهل الذمة من الروم وغيرهم، وكان عسكر المسلمين نازلا ببحيرة طبرية، فذهب رجل كان يتهم بالصلاح من الأشعريين ففقدوه أسبوعا وأكثر حتى يئسوا منه وتيقنوا أنه قد اغتيل، فبينما هم يوما جلوس إذ أقبل إليهم وبيده ورقة خضراء مشرفة ذكية الرائحة، لا تشابه شيئا من أوراق الدنيا لطولها وعرضها وبهجتها وذكائها، فهي أذكى من المسك والعنبر، فقالوا له: ما كان نبأك؟، فقد أيقنا بهلكتك وخفنا عليك أن يكون قد اغتالك بعض الروم، فقال لهم: ما هو إلا أني أصابتني جنابة، فإذا بإزائي ركية ماء، فدخلت في تلك الركية لأغتسل، فلما اغتسلت وصليت ركعتين إذ أنا بأرض لم أر مثلها أشجارا ولا بهجة، فذهبت فيها وهي تتسع وتمتد كلما ذهبت، فتحيرت فلم أدرس أين جئت، ولا من أين ذهبت، فأقمت فيها هذه المدة التي لا أعلم ما نهايتها، فلم أبل في تلك المدة ولم أتغوط، وكنت آكل من جميع ثمارها وفواكهها، ولا أجد له ثقلا ولا ألما كما كنت أجده في طعام الدنيا، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل فأخذ بيدي، وقال لي: إن الله يأمرك بالخروج والرجوع إلى أصحابك، وقل لهم: عليكم بالتقى والوفاء بالعهود، فخرجت فإذا أنا عندكم كما ترون، ومع هذه الورقة بقيت في يدي من أوراق تلك الأشجار، فجعل الناس يشمونها ويتعجبون من حسنها وبهجتها وسعتها، فهي على قدر ورقة مصحف، ومكثت قدر شهر وهي على حالها لم تتغير، وكان الناس يقصدونها من كل ناحية لينظروا إليها، فلما خاف الأمير أن يفتتنوا بها انتزعها من أيديهم فغيبها، فلا يدرون ما فعل بها، ولا يشك الناس أنه دخل الجنة ثم خرج منها.

---

[1] زيادة في (ب).

[2] في (ب): رضي الله عنهم.

ومن ذلك ما رواه ابن عساكر في كتاب "الاستسقاء" أنه لما استمر الموت بالناس من شدة الجوع، شكي ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فقال: " أيها الناس استسقوا بالعباس، فإن النبي ﷺ كان يرى له ما يراه الولد للوالد"، فاقتدوا بالنبي ﷺ في عمه العباس، فاتخذوه وسيلة إلى الله، فأتاه عمر والناس، فقال له: يا عباس، قم فاستسق لأمة محمد ﷺ، فقد أشفت على الهلاك، وقد استمر فيها الموت من الجوع، فعمد العباس إلى أهل بيته فأمرهم أن يلبسوا ثيابا بيضا جددا وأن يتطهروا، ففعلوا فخرج إلى المصلى، فلما قام استقبل القبلة فقال: اللهم إن عندك سحابا وعندك ماء، فانشر السحاب ثم أنزل منه الماء، [ثم أنزله] [1] علينا، واشدد به الأصل، وأطل به الفرع، وأدر به الضرع، اللهم إنا تشفعنا إليك عمن لا منطق له من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقيا ودعة بالغيث طبقا، اللهم لا نرغب إلا إليك وحدك لا شريك لك، اللهم إنا نشكوا إليك سغب كل ساغب، وعدم كل عادم، وجوع كل جائع، وعرى كل عار، وخوف كل خائف[2].

وفي رواية الزبير بن بكار[3] أن العباس لما استسقى به عمر، قال: اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس[4]، وعنده أيضا: فما برحوا حتى سقوا[5]، وفي ذلك يقول العباس بن عتبة بن أبي لهب[6]:

---

[1] ساقط من (ج).

[2] انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (374/3).

[3] الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكيّ، من أحفاد الزبير بن العوام، أبو عبد الله: عالم بالأنساب وأخبار العرب وراوية ، ولد في المدينة وولي قضاء مكة فتوفي فيها، له تصانيف، منها " أخبار العرب، وأيامها "، (ت 256 هـ / 870 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (42/3).

[4] "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (374/3).

[5] المصدر نفسه.

[6] الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من قريش: شاعر، من فصحاء بني هاشم، كان معاصرا للفرزدق والأحوص وله معهما أخبار، ومدح عبد الملك بن مروان وهو أول هاشمي مدح أمويا بعد ما كان بينهما فأكرمه، وكان شديد السمرة جاءته من جدته وكانت حبشية ويقال له " الأخضر " لذلك، واللهبي نسبة إلى أبي لهب، وفي شعره رقة وهو دون الطبقة الأولى من معاصريه، (ت نحو 95 هـ / 714 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الفضل بن عبد الرحمان، (150/5).

بعـمي سقى الله الحجاز وأهلـه عـشـية يستسقـي بشـيبـتـه عمـر
توجه بالعباس في الجدب راغبا إليه فما إن راح حتى أتى المـطـر
ومـنـا رسـول الله فيـنا تـراثـه فـهل فوق هذا للمفاخر مفتـخر[1]

ومن هذا الباب استسقاؤه عليه الصلاة والسلام في بعض غزواته لما سبقه المشركون إلى الماء، فأصاب المسلمين عطش شديد، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، وقال بعض المنافقين: لو كان نبيا لاستسقى لقومه كما استسقى موسى لقومه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « وقد قالوها عسى ربكم أن يسقيكم »، ثم بسط يديه ودعا، فما رد يديه من دعائه حتى أظلم السحاب وأمطروا إلى أن سال الوادي، فشرب الناس وارتووا [2].

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعا أنه كان إذا استسقى قال: « اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من البلاء والجهد والضنك ما لا يشكوه إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا، فأرسل السماء علينا مدرارا » [3]، أخرجه الشافعي. وروى الجوزي أنه قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة، فقالت: [ائتوا][4] قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تعققت من الشحم، فسمي عام التعقق[5].

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدري قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله استسق

---

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (375/3).

[2] بلفظ آخر، انظر: "مستخرج أبي عوانة" لأبي عوانة الاسفراييني، باب: زيادات في الاستسقاء، رقم: 2514، (119/2).

[3] ورد بلفظ آخر، انظر: "معرفة السنن والآثار" للبيهقي، كتاب: الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء، رقم: 7210، (177/5)، وأخرجه الشافعي بلفظ قريب منه معلقا في الأم، (287/1)، وقال: وأحب أن يدعو الإمام بهذا.

[4] ساقط من (أ)، وفي (ج): اذهبوا إلى قبر النبيﷺ.

[5] بلفظ آخر، "سنن الدارمي"، باب: ما أكرم الله به نبيه ﷺ، رقم: 93، (227/1)، وذكره ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز، (267/1)، وقال: لا يصح، وأخرجه الدارمي في سننه، وفيه أبو النعمان وهو محمد بن الفضل، وقد اختلط.

لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فأتى النبي ﷺ ذلك الرجل في المنام فقال له: ائت عمر وقل له: استسق بالمصلى، فقال لعباس: قم فاستسق[1].

وذكر الزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة، بفتح الراء وتخفيف الميم، وسمي به لما حصل من شدة الجدب حتى أغبرت الأرض جدا من عدم المطر[2].

ومن حديث ابن مسعود أن قريشا أبطئوا عن الإسلام، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله، فقرأ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [3]، ثم عادوا إلى كفرهم فذلك قوله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾[4]، يوم بدر، زاد [أسباط] [5] عن [منصور] [6]: فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعا، وشكى الناس كثرة المطر، فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجابت السحابة عن رأسه، فسقي الناس حولهم[7].

---

[1] ورد بلفظ آخر، انظر: "مصنف بن أبي شيبة"، كتاب: الفضائل، باب: ما ذكر في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم : 32002، (356/6)، وأخرجه القسطلاني في "المواهب اللدنية"، (374/3)، وقال: رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار.

[2] ورد في: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة، باب: ذكر إسلام العباس رضي الله عنه، رقم: 5438، (377/3)، وأخرجه شمس الدين الذهبي في "سير أعلام النبلاء"، (92/2)، وقال: فيه داود وهو ضعيف (يقصد داود بن عطاء).

[3] الدخان: 10.

[4] الدخان: 16.

[5] في (ج) : بساط.

[6] في (أ): منصوب.

[7] ح ص، "صحيح البخاري"، أبواب: الاستسقاء، باب: إذا استشفع المشركون بالمسلمين، رقم: 1020، (30/2).

ويروى أنه لما اشتد البلاء بمضر، أتاه كعب بن مرة الفزاري[1] فقال له: ادعوا الله لقومك فإنهم قد هلكوا، فإنك استنصرت الله فنصرك، وسألته فأجابك، فرفع يديه فقال: « اللهم اسقنا غيثا مغيثا »، فلم يزل ﷺ على المنبر حتى مطروا، ثم طلب منع الدعاء بالاستصحاء، فدعا ﷺ بالاستصحاء فصحوا [2].

وروى البيهقي في الدلائل من طريق [يزيد] [3] بن عبيد السلمي قال: لما قفل النبي ﷺ من غزوة تبوك، أتاه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلا، وفيه خارجة بن محصن والحر بن قيس، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار، وقدموا على إبل عجاف وهم مستنون، فأتوا مقرين بالإسلام، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقالوا: يا رسول الله أسننت بلادنا، وأجدب جنابنا وغرث عيالنا وهلكت مواشينا، فادع ربك أن يغيثنا وتشفع لنا إلى ربك، ويشفع ربك إليك، فقال ﷺ: « سبحان الله، ويلك، إن أنا شفعت إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه، لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو يئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد »، فقال النبي ﷺ: « إن الله ليضحك من شفعتكم وقرب غياثكم »، فقال الأعرابي: أو يضحك ربنا يا رسول الله؟، فقال: « نعم »، فقال الأعرابي: لن نعدم يا رسول الله من رب يضحك خيرا، فضحك ﷺ من قوله، فقام ﷺ فصعد المنبر وتكلم بكلمات ورفع يديه، وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رئي بياض إبطه، وكان مما حفظ من دعائه: « اللهم اسق بلدك وبهيمتك وانشر رحمتك وأحيي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مرينا مريعا طبقا واسعا عاجلا غير آجل نافعا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء »، فقام أبو لبابة بن

---

[1] كعب بن مرة البهزي السلمي وليس الفزاري، وقد قيل في البهزي هذا أنه مرة بن كعب، والأكثر يقولون: كعب بن مرة له صحبة، سكن الأردن من الشام، قيل (ت 57 هـ / 676 م)، انظر: "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: الأشقري، (260/24).

[2] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، باب: مرة بن كعب السلمي، رقم: 755، (318/20)، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية"، (596/8)، وقال: فيه غرابة.

[3] في (ب) : زيد.

عبد المنذر فقال: يا رسول الله، إن التمر في المرابد ثلاث مرات، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا يسد ثقب مربده بإزاره »، قال: فلا والله ما في السماء من قزعة ولا سحاب، وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت فأمطرت، فلم ير الناس الشمس سبعا، وقام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره[1]، الخبر بطوله.

[فصل في فضائل أهل بيت النبوة وكراماتهم]

منها ما روي عن علي بن أبي طالب أنه سمع بكاء [عزرائيل] [2] عليه السلام وهو صاعد بين السماء والأرض يقول: " وامحمداه كل هذه المصائب تهون عند هذه المصيبة "[3]، أخرجه أبو نعيم كما في سنن ابن ماجة.

[ولما] [4] صلى على النبي ﷺ أهل بيته، لم يدر الناس ما يقولون في الصلاة عليه ﷺ، سألوا ابن مسعود فأمرهم أن يسألوا علي، فقال لهم قولوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [5]، لبيك ربنا وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين على محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير وعليه السلام " [6]، أخرجه الشيخ زين الدين المراغي [1] في كتابه : "تصحيح النصرة".

---

[1] "دلائل النبوة" للبيهقي، (143/6)، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية"، (94/6)، وقال: لبعضه شواهد.

[2] في (ج): جبريل.

[3] لم أقف عليه في: "سنن ابن ماجة"، انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (571/3).

[4] في (ج): فلما.

[5] الأحزاب: 56.

[6] "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (581/3).

[1] أبو بكر بن الحسين بن عمر، القرشي العبشمي الأموي العثماني، زين الدين، وكنيته أبو محمد ويقال اسمه (عبد الله) والمشهور (أبو بكر) المصري الشافعيّ المراغي: مؤرخ ولد بالقاهرة وقرأ واشتهر، وتحول الى المدينة فاستوطنها نحو 50=

ولما مر علي رضي الله [تعالى] [1] عنه عند توجهه للعراق بكربلاء، وقف بها واستعبر، وقال: " كربلاء دار غم وبلاء"، ثم التفت إلى الحسين فقال له: " صبرا يا أبا علي، هنا مسقط رؤوسكم، وهرق دمائكم، عصبة من آل محمد تبكي عليهم الأرض والسماء " [2]، وذلك قبل مقتل الحسين بزمان طويل، وهذه كرامة من كرامات علي كرم الله وجهه، ولعله سمع ذلك من النبي ﷺ كما روي عن أبي نعيم أنه بينما رسول الله ﷺ جالس، إذ أقبل إليه فتية من بني عبد المطلب، وهم يومئذ أفضل أهل الأرض بعد النبي وجلة أصحابه، ولما رآهم النبي ﷺ استعبر باكيا، فقال له بعض أصحابه: لما رأيت هؤلاء الفتية استعبرت، فقال لهم: « يرون بعدي تطريدا وتشريدا، وإنهم لمقتولون ظلما، وإن السماء لتبكي عليهم أربعين سنة »[3]، وكانوا ممن قتل مع الحسين من أهل بيته، قتلهم ابن شملة [4] وأهل العراق بإذن يزيد بن معاوية[5].

وقد ذاع واشتهر في كتب التواريخ عن الشافعي وغيره أنه لما قتل الحسين وأهل بيته احمرت السماء أربعين يوما حتى صار لونها كلون الدم، وقد تيقن الناس بوقوع العذاب لولا بركة

=سنة، وولي قضاءها وخطابتها وإمامتها سنة 809 وصرف بعد سنة ونصف، وأقام بمكة سنتين، ومات بالمدينة، (ت816هـ - 1414 م)، انظر : "الأعلام" للزركلي، باب: التاهرتي، (63/2).

[1] زيادة في (ب).

[2] لم أقف عليه.

[3] ح ض، ورد بلفظ آخر، انظر: "سنن ابن ماجة "، كتاب : الفتن، باب: خروج المهدي، رقم: 4082، (1366/2).

[4] لا ترجمة له .

[5] يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي: ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون، ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 60 هـ وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي عليه السلام ، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة ، وفي أيام يزيد هذا كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي عليه السلام سنة 61 هـ وخلع أهل المدينة طاعته سنة 63 هـ فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري، وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيام وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، ففعل بها مسلم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيرا من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين، وفي زمن يزيد فتح المغرب الأقصى على يد الأمير عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه، (ت 64 هـ / 683 م)، انظر : "الأعلام" للزركلي، (189/8).

رسول الله ﷺ لنزل بهم العذاب، فإن الله تعالى وعده أن لا يعذبهم وهو فيهم، وما حمل أهل العراق والشام حبلا ولا جرة ولا حجرا إلا وجدوا دما عبيطا[1].

ولما احتزوا رأسه وجعله ابن ذي الجوشن[2] على سنان رمحه، مر عليهم رجل وهو يقول: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [3]، التفت عليه الرأس، وقال بلسان فصيح يسمعه جميع الحاضرين: أعجب من أصحاب الكهف والرقيم، قتلي وحمل رأسي على الرماح، وكان إذا جن عليهم الليل يسمعون الرأس يتلوا كتاب الله تلاوة لم يسمعوا بمثلها. ولما نزلوا الموصل متوجهين إلى يزيد بالشام، فنزلوا على دير راهب وجعلوا يشربون الخمر، إذا مكتوب على حائط الدير كتابة بينة:

أترجوا أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب [4]

فسألوا الراهب متى كتب البيت، فقال لهم: إن البيت مكتوب على الدير قبل مولد محمد بألفي عام، فلا أدري أكتبه بعض الأنبياء أو هو مكتوب بقلم القدرة، فلما رأوا ذلك فروا عن الرأس وتركوه، ثم رجع إليه ابن ذي الجوشن فجعله على رمحه حتى أتى به يزيد فوضعه بين يديه، وجعل يقول:

املأ ركابي فضة وذهبا فقد قتلت الملك المحجبا

ومن يصلي القبلتين في الصفا وخيرهم إذ يذكرون النسبا

---

[1] انظر: "المحن" لأبي العرب التميمي، (161/1).

[2] شمر بن ذي الجوشن (واسمه شرحبيل) ابن قرط الضب أبي الكلابي، أبو السابغة: من كبار قَتلة الحسين الشهيد عليه السلام، كان في أول أمره من ذوي الرياسة في هوازن موصوفا بالشجاعة، وشهد يوم صفين مع علي ثم أقام في الكوفة، يروي الحديث، إلى أن كانت الفاجعة بمقتل الحسين، فكان من قتلته وأرسله عبيد الله بن زياد مع آخرين إلى يزيد بن معاوية في الشام، يحملون رأس الشهيد وعاد بعد ذلك إلى الكوفة فسمعه أبو إسحاق السبيعي، يقول بعد الصلاة: اللَّهمّ إنك تعلم أني شريف فاغفر لي، فقال له: كيف يغفر الله لك وقد أعنت على قتل ابن رسول الله؟، (ت 66 هـ / 686 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (175/3).

[3] الكهف: 9.

[4] هذه الأبيات من البحر الوافر، منسوبة لأبي الأسود الدؤلي، انظر: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية"، (138/3).

قـتـلت خيـر النـاس أمـا وأبـا [1]

فقال له يزيد: ولم قتلته إذ علمت أنه خير الناس أما وأبا؟، والله لألحقنك به، وأمر به فضربت عنقه[2].

فذكر السيوطي في كتابه المسمى: "بالصواعق المحرقة" [3]، أنهم مروا في وجهتهم تلك بدير من أديار الرهبان، فخرج إليهم منه راهب فقال لهم: هل لكم إن أعطيتكم ألف دينار أن تتركوا هذا الرأس عندي هذه الليلة، ففعلوا، فأخذ الرأس فغسله وطيبه وجعله على فخذه، وبات ليلته كلها ينظر إلى الرأس وإذا نور أصفر يخرج من فيه ومنخريه حتى خالط العنان، فلما كان الثلث الأخير من الليل جعل الرأس يتلوا كتاب الله تلاوة لم يسمع السامع مثلها، فلم يزل كذلك حتى أصبح، فلما أصبح الراهب نزل من الدير إلى أصحاب يزيد فدفع إليهم الرأس وأعطاهم ألف دينار، ثم قال لهم : دلوني على رجل صالح أسلم على يديه، فدلوه على عبد الله بن عمر، فأتاه فأسلم على يديه فعلمه شرائع الإسلام حتى تفقه في الدين وصار من عباد الله الصالحين. وروي ابن عمر سأله عن سبب إسلامه، فأخبر بما رأى من كرامات الحسين[4].

وأخرج البيهقي من طريق أبي أمامة الباهلي أن ملك القطر استأذن الله في زيارة النبي ﷺ فأذن له، فأتى النبي وهو يومئذ في بيت أم سلمة، فقال لأم سلمة: « احفظي علينا الباب، فإن ملك القطر أتاني زائرا »، فاقتحم الحسين الباب حتى دخل على النبي ﷺ فترامى عليه، فجعل النبي ﷺ يقبله، فقال له الملك: أتحبه؟، فقال: « وما يمنعني من محبته؟ »، فقال له: إن أمتك ستقتله من بعدك، فإن شئت أريتك الموضع الذي يقتل فيه، فأراه إياه، فأخذ كفا من تلك التربة فناوله أم سلمة، فقال: « احتفظي على هذه السهلة، فإن رأيتها صارت دما، فاعلمي أن الحسين

---

[1] هذه الأبيات من بحر الرجز، انظر: "الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم" لابن الوزير، (393/2).

[2] "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن عماد الحنبلي، (275/1).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يقصد كتاب: "الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة" لابن حجر الهيتمي.

[4] انظر: "الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة" لابن حجر الهيتمي، (581/2)، و"الإنباء في تاريخ الخلفاء" لابن العمراني، (30/1).

قد قتل »، فلم تزل من يومئذ تتعاهدها، وتقول إن يوما تنقلب فيه دما ليوم عظيم، وأرتها أهل المدينة من الصحابة وغيرهم، فعلموا بمقتل الحسين قبل مجيء البريد بقتله[1].

ومن الكرامات المأثورة عن علي الملقب بزين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب[2] رضي الله عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعدت فرائسه، واصفر لونه حتى كأنه نزف منه الدم، فقيل له في ذلك، فقال: " ويلكم أتدرون إلى من أقوم ومن أناجي، فلا أدري أتقبل فريضتي فأهنأ، أو ترد علي فأعزا " [3]، وكان رضي الله عنه من الأبدال.

روي أنه حج، فجعل الناس يلبون وهو ساكت لا يلبي، فقيل له: هلا لبيت كما يلبي الناس، فقال لهم: إني خفت إذا لبيت أن يقال لي لا لبيك ولا سعديك، وحجتك مردودة عليك، فقالوا له: لا بد من التلبية، فإنها سنة مولانا رسول الله ﷺ، فقال: لبيك، فلما قالها غشي عليه وسقط عن ظهر بعيره إلى الأرض فأسندوه وهو مغشي عليه، وقد امتلأ فمه ترابا لما عرفوا فيه من غلبة الخشية والهيبة[4].

ويروى أن رجلا من أهل مكة ذهب ذات ليلة في الثلث الأخير من الليل ليطوف بالبيت فإذا هو برجل يطوف بالكعبة، يبكي مرة ويغشى عليه أخرى، فجلس ينظر إليه وهو لا يعرفه، فلما كان في آخر طوافه قال:

أتحرقني بالنار يا غاية المنا فأين رجائي ثم أين مخافتي[5]

---

[1] بلفظ آخر، انظر: "مسند أحمد بن حنبل"، باب: مسند أنس بن مالك ، رقم: 13794، (308/21)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وورد كذلك في: "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لشهاب الدين القسطلاني، (138/3).

[2] علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقب بزين العابدين السجاد: رابع أئمة أهل بيت النبوة الكرام، وأحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع قال له: علي الأصغر للتمييز بينه وبين أخيه عليّ الأكبر الذي استشهد مع أبيه الحسين السبط ، حصي بعد موته عدد من كان يقوتهم سرا، فكانوا نحو مئة بيت، قال بعض أهل المدينة: ما فقدنا صدقة السرّ إلا بعد موت زين العابدين السجاد، (ت 94 هـ / 712 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (277/4).

[3] "الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة" لابن حجر الهيتمي، (582/2).

[4] "سير أعلام النبلاء للذهبي"، باب: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، (392/4).

[5] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "المستطرف في كل كل فن مستطرف" لأبي الفتح الأبشيهي، (141/1).

ثم سقط، فأقبل عليه الرجل فإذا هو مغشي عليه، فأسنده على صدره ونزع التراب من فيه، فإذا هو علي زين العابدين[1].

ولما استخلف عبد الملك بن مروان[2] وتم له الأمر، بعث ابنه هشاما أميرا على الحج، فلما بلغوا مكة جهد هشام أن يطوف بالكعبة، فلم يستطع لكثرة الزحام، فنصبوا له كرسيا في رحبة المسجد فجلس عليه، وجلس حوله مشايخ أهل الشام ليجد فسحة فيطوف ويطوفوا معه، فبينما هم كذلك إذ خرج على الناس علي زين العابدين فتفسحوا له حتى طاف بالبيت، فعجب مشايخ أهل الشام من ذلك، وسألوا من الطائف؟، فقال لهم هشام: لا أدري، مخافة أن يرغب فيه مشايخ أهل الشام، وكان الفرزدق[3] حاضرا، فقال مرتجلا:

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يبتسم

فكفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم

ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا تشهده كانت لاؤه نعم

---

[1] "المستطرف في كل فن مستطرف" لأبي الفتح الأبشيهي، (141/1).

[2] أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي ، الملك الخامس من ملوك بني أمية، والمؤسس الثاني للدولة الأموية، (ت86 هـ / 705م) انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: عبد الملك بن مروان، (246/4).

[3] همَّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارميّ، أبو فراس، الشهير بالفرزدق: شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس و يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهلية، والفرزدق في عصر الإسلام وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر، (ت 110 هـ /728 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الفرزدق، (93/8).

مـــن معشـر حبهم دين وبـغضـهـم كـفـر وقـربـهـم مـنجـى ومـعـتـصـم
إن عـد أهـل التقى كانوا أئـمـتـهـم أو قيل من خير أهل الأرض قـيـل هـم
لا يـستطـيـع جـواد بـعد غايـتـهـم ولا يـدانـيـهـم قـوم وإن كـرمـوا[1]

فأمر به عند ذلك فحبس بين المجلل والتنعيم، فذهب إليه زين العابدين باثني عشر ألف درهم، وقال للفرزدق: اعذر يا فرزدق، لو بلغت الطاقة إلى أكثر من هذا لوصلناك به، فقال الفرزدق: مدحتكم لله لا للعطاء، فقال له علي: الله يعلم نيتك ويثيبك عليها، ونحن أهل البيت لا ترجع إلينا مواهبنا، فعند ذلك قبل الفرزدق المال وشكر الله، وجعل يهجوا هشاما، فلما خاف هشام أن يتعالى في هجوه، بعث إليه من أطلقه وأحسن إليه[2]. ولما رجع هشام من الحج إلى الشام خلا بأبيه عبد الملك، فقال له: إني رأيت فتى من بني عبد المطلب رغب فيه الناس رغبة عظيمة، وقد هابوه هيبة لم أرها لأحد من الملوك، فإن لم تعاجله فسد علي ما أنت فيه، فبعث إليه رهطا من خاصته وأمرهم أن يأتوا به مغللا مقيدا، وكانوا كلما حان وقت الصلاة أشار بيده إلى القيد فسقط عن رجليه ونزع الغل من يديه، فتوضأ وصلى ثم رد القيد والغل إلى رجليه ويديه، فلما رأوه يسقط الحديد عن يديه ورجليه لإشارته من غير علاج، قالوا له: حيث كنت قادرا على إزالة الحديد عنك من غير علاج، فلم تعيده على نفسك؟، فقال لهم: أريد بذلك أن أتذكر قيود النار وأغلالها فأستعد لها. ولما كانوا من دمشق على مسيرة عشرة أيام، أرادوا أن يحولوا بينه وبين الصلاة، ألقى الحديد من يديه ورجليه والغل من عنقه، ثم غاب عن أعينهم، فدخل من ساعته على عبد الملك بن مروان وهو بين نسائه، فلما رأوه فزعوا منه، فقال له عبد الملك: أجني أنت أم إنسي؟، قال له: بل إنسي مظلوم، قال له: ومن ظلمك؟، قال له: عبد الملك بن مروان، فقال: وكيف ذلك؟، قال: أنت الذي بعثت إلي أعوانك فأخرجوني من حرم الله مقيدا ومكبلا، فقال: ولعلك علي بن الحسين؟، قال له: أنا هو، قال: وأين تركتهم؟، قال: تركتهم

[1] هذه الأبيات من البحر البسيط، انظر: "الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة" لابن حجر الهيتمي، (584/2).

[2] "الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة" لابن حجر الهيتمي، (584/2).

بين الحجر وتبوك، قال له: فمتى فارقتهم؟، قال: فارقتهم الآن لما هموا أن يحولوا بيني وبين صلاتي ابتغاء مرضاتك في سخط ربي، فلما قال له ما قال، غاب عن عينيه فلم يدر أصعد إلى السماء أم غاب في الأرض، فذهب إلى حراسه وقال لهم: فإنكم ضيعتم الأبواب، فقالوا: والله ما ضيعنا لك بابا، ولا نام منا أحد، فقال لهم: كيف وقد دخل علي رجل وأنا بين حريمي، فخاطبني وخاطبته ثم انصرف؟، فقالوا: والله لا يدخل عليك من هذه الأبواب إلا يكون نزل من السماء أو خرج من الأرض، فأرخ تلك الليلة. فلما أصبح عبد الملك بعث إليه رجلين من خاصته بفرسه التي يركب عليها، وبغلة أخرى، وثوبين رفيعين، وكتب إليهم أن يزيلوا عنه الحديد وأن يأتوا به مكرما، فتلاقوا معهم بأثناء الطريق، فأعطوه الفرس والثياب، فركب الفرس ولم يقبل الثياب، فلما أتوا به عبد الملك بن مروان أقبل عليه بالإكرام والتبجيل وخلع عليه، وأقبل عليه بالجوائز السنية فلم يقبل منه شيئا من ذلك، فقال له: إن شئت أقمت عندنا مكرما مبجلا، وإن شئت رددناك إلى الحرم الذي منه أزعجناك مبجلا مكرما، قال له: مرادي أن تخلي سبيلي، فإنه لا حاجة لي في جميع ما ذكرت، فقال له عبد الملك: إنه بلغني أنك تتعرض للملك، فقال له: أما ملككم هذا، فإنه لا يزن عندي جناح بعوضة، وأما ملك القلوب فنعم، فمن كان يريد قتلنا على ذلك فمن الآن، فقال له عبد الملك: لعن الله من يريد ذلك، فإنكم بيت النبوة ومعدن الحكمة والرسالة. ثم خلا بأصحابه فقال لهم: ما رأيتم من الرجل في سيركم هذا؟، فقالوا: والله يا أمير المؤمنين ما رأينا من الناس مثله، فإنه إذا أقبل على عبادة ربه ارتعدت جوارحه واصفر لونه، وهملت عيناه بالدموع حتى يبل الصعيد من دموعه، والله ما أكل وما شرب منذ حملناه من الحرم حتى أتيناك به، وما رأينا عليه أثر جوع ولا عطش، وكنا نعرض عليه الطعام والشراب فيأباهما، وكلما أراد الصلاة أشار إلى الحديد فتناثر عنه من غير علاج حتى يفرغ من عبادته، فإذا فرغ من عبادته أعاده على نفسه بيده، فقال لهم: ومتى فارقكم؟، قالوا له: ليلة كذا من شهر كذا، لما أردنا أن نحول بينه وبين صلاته، فنثر عند ذلك الحديد وغاب عن أعيننا، فلم نقدر منه على شيء، قال لهم: ومتى رجع إليكم؟، قالوا: بعد ساعة، فإذا الليلة التي ذهب

عنهم هي الليلة التي أتى فيها عبد الملك من ساعته ورجع إليهم، قالوا لعبد الملك: سألناه أين ذهبت؟، فقال: حيث شاء الله، ولم يزد على ذلك، فقال لهم عبد الملك: إن أمره لعجيب، وما هو إلا ولي من أولياء الله، وقال له أصحابه: لو كان بعد النبي نبي لكان هو نبيا، والله ما رأينا ولا سمعنا بمثله، وكان كلما طالت صحبته معنا، تزايدت هيبته في قلوبنا، فبعث عبد الملك إلى أطراف ملكه وجميع خلفائه، أن كفوا عن بني عبد المطلب، فإن بني حرب لما أولعوا بدمائهم والتعرض لهم، استأصل الله شافتهم وذهب ملكهم ودولتهم، فالحذر الحذر من أن تتعرضوا لهم في شيء[1]. فرجع علي زين العابدين إلى الحرم وبقي على زهده وعبادته ودعوته للناس إلى البر والتقى حتى توفي رحمه الله، فقام ابنه زيد[2] بعده مقامه، وهو الذي صلبه يزيد بن عبد الملك [3]عريانا، فنسجت العنكبوت على عورته، وهو الذي جر إلى ذهاب دولة بني مروان، وذلك أن عبد الله السفاح مر على صبي من أبناء زيد يطوف بالجذع الذي صلب عليه أبوه، وهو يقول:

فحتى بنو مروان تقتل منكم سراتكم والدهر جم الغرائب

لكل قتيل عصبة يطلبونه وليس لزيد ويحكم من مطالب [4]

---

[1] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (135/3).

[2] زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، من أئمة أهل البيت الكرام، ويقال له (زيد الشهيد) عدّه الجاحظ من خطباء بني هاشم، وقال أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا، كانت إقامته بالكوفة، وأشخص إلى الشام، فضيق عليه هشام بن عبد الملك، وحبسه خمسة أشهر وعاد إلى العراق ثم إلى المدينة، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرضونه على قتال الأمويين، ورجعوا به إلى الكوفة سنة 120 هـ فبايعه أربعون ألفا على الدعوة إلى الكتاب والسنة، وكان العامل على العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فكتب إلى الحكم بن الصلت وهو في الكوفة أن يقاتل زيدا ففعل، ونشبت معارك انتهت بمقتل زيد، (ت 122 هـ / 740 م)، انظر: الأعلام للزركلي، باب: زيد بن علي، (59/3).

[3] يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد: من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق، وولي الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة 101 هـ بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وكانت في أيامه غزوات أعظمها حرب الجراح الحكمي مع الترك وانتصاره عليهم، وخرج عليه يزيد بن المهلب بالبصرة فوجه إليه أخاه مسلمة فقتله، (ت 105 هـ / 724 م)، انظر: "الأعلام"، باب: يزيد بن عبد الملك، (185/8).

[4] هذه الأبيات من البحر الطويل، انظر: "البدء والتاريخ" للمطهر بن طاهر المقدسي، باب: مقتل زيد بن علي بن الحسين، (50/6).

فلما سمع عبد الله قول الصبي احتمله الغضب حتى كاد يغشى عليه، ثم توجه إلى خراسان، وجعل يدبر في زوال دولة بني مروان، وأعانه على ذلك أبو مسلم الخراساني حتى سار إليهم بالرايات السود وجيوش العجم والشيعة فاستأصل شافتهم واستولى على الملك، وفي ذلك يقول:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذا حشروا
ما زلت أسعى بجهد في دمارهم والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما بأرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد[1]

ومن ذلك ما روي عن محمد الباقر[2] من الفضل والكرامات، ذكر الشبلي أنه حج إلى بيت الله الحرام في عام من الأعوام، فلما فرغ من فرائض الحج توجه إلى أبي قبيس على وجه الزيارة والتبرك، فلما علاه إذا هو برجل عليه ثوبان لبيسان، وترى عليه آثار التنسك، قال: فسلمت عليه فرد علي السلام، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: يا رب يا رب يا رب حتى انتهى نفسه، ثم قال: يا الله يا الله يا الله حتى انتهى نفسه، ثم قال: يا حي يا قيوم حتى انتهى نفسه، ثم قال: إني عار فاكسني، فما استتم كلامه حتى وضع بين يديه ثوبان لم أر مثلهما في الدنيا، فقال لي: تنح حتى ألبس ثوباي هاذين ففعلت، فنزع خلفيه ولبس الجديدين، فلما ألبسهما أقبلت إليه فناولني ثوبيه اللبيسين، فقلت له: إني غير محتاج إليهما، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال مثل ما قال أولا، ثم قال: إني جائع، فإذا بمائدة قد وضعت بين يديه، فقال لي: هلم إلى الغداء المبارك والبركة من الله فأكلت معه، فإذا هي جفنة من ثريد عليها جبنة وتين رطب كأنما قطع الآن، فأكلنا منه حتى اكتفينا منها وهي بحالها، ثم رفعت فجعلت أنظر إليها حتى توارت في السماء

[1] هذه الأبيات من البحر البسيط، انظر: "الإنباء في تاريخ الخلفاء" لابن العمراني، (67/2).

[2] محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أبو جعفر الباقر: من أئمة أهل بيت النبوة الكرام، كان ناسكا عابدا وله في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال، ولد بالمدينة، وتوفي بالحميمة ودفن بالمدينة، (ت114 هـ – 732 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الباقر، (270/6).

فاستحييت أن أسأله من هو، فاتبعته حتى دخل مكة، فلما دخل ابتدره المساكين فأعطاهم ثوبيه اللبيسين، فاتبعته حتى إذا دنا من المسجد الحرام أقبلت إليه حاشيته وغاشيته فإذا هو على غير الحال الأولى، فسألت عنه فقالوا لي: هو من ذرية الحسين وهو محمد الباقر بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وحاصل الأمر أن كرامات الأولياء بحر لا يدرك ساحله لأنها مستمرة من عهد النبي ﷺ إلى أن ينفخ في الصور، يؤمن بها أهل السعادة، وينكرها الأشقياء.

روى الأوزاعي أنه قدم عليه شيخ من أهل الشام فجعل يلازم مجلسه حتى أنس به لما رأى من حبه أهل الخير ولصوقه بهم وكثرة بحثه عن شرائع الإسلام، قال: فكنت إذا فقدته في الوقت الذي كان يأتيني فيه هالني ذلك وأرمضني حتى عرف ذلك مني أصحابي، فكان إذا طلع قالوا لي: يا أبا عمر قد جاء شيخك، قال: فبينما هو عندنا ذات يوم جالسا، إذ تداركنا الرهبان وصبرهم على ضنك العيش وانفرادهم عن الإنس وتخليهم عن العمران والمنازل والبساتين والأوطان، فقال: يا أبا عمر وأنا أحدثك بأعجوبة رأيتها من راهب بأرض الروم، قال: قلت له نعم، وكان قبل ذلك قليل الكلام، لا يتكلم إلا فيما يعنيه من أمر دينه، فقال: إني كنت أسيرا في زمن صقلان الخادم[1]، فأتى بي حصنا من الحصون بقرب ساحل البحر فأدخلني في دهليز ضيق، لا أرى فيه شمسا ولا قمرا، فمكثت بذلك حينا، فلما طال ذلك واشتد الوثاق وضاق الخناق، قلت للعلج الذي كنت بيده وكان يتعاهدني بالطعام والشراب، وقد فهمت كلامهم وأحكمت لسانهم: ويحك، إلى كم هذا الحبس الطويل؟، أو ما وثقت بناحيتي بعد؟، أو ما أمنت غائلتي؟، أو ما تخشى الذي تعبده في [تعذيبي] [2] ؟، قال: فما تقول يا [عربي] [3]، وماذا تريد؟، قلت: أطلقني على أن لا أعصي لك أمرا ولا أخالف لك رأي، قال: أوتفعل؟، قلت: نعم، قال: لم أقل لك هذا إلا على الوفاء بذلك، قال : فأخرجني من حبسه، وأمر بغل من حديد

[1] لا ترجمة له.

[2] في (ب): ديني.

[3] في (ب): أعرابي.

فجعله في عنقي، وجعلني راعيا وأطلق معي ماشية، فقال: ارعها قريبا من الحصن ولا تبعد، فكنت أغدوا وأروح، فمكثت كذلك حينا، ثم تباعد المرعى فانتهيت إلى جبل، فقلت: لعل بهذا الجبل من الكلأ ما أشبع به غنمي، فصعدت بها حتى صرت إلى أعلاه فإذا هو جبل أقرع يابس كثير الحجارة قليل الرعي، فبينما أنا أطوف به إذا بصومعة من حجارة، فلما رأيتها كبرت الله تكبيرا وهللته ومجدته وحمدته، فاطلع علي منها شيخ أبيض اللحية والرأس قد سقط حاجباه إلى عينيه، فقال: يأيها المكبر لله بهذا المكان، من أنت؟، قلت: رجل من العرب، فإذا هو يكلمني بلسان عربي مبين، فقال لي: من أمة محمد النبي العالم الخاتم للأنبياء القائم الصائم، قلت: نعم، ومن أعلمك بذلك النبي وقيامه وصيامه؟، قال: سبحان الله، ومن يجهل معرفة خاتم الأنبياء إلا الجاهل الغبي، فما هذا الوثاق الذي في يديك؟، قلت: أوثقتني الذنوب، ففعل بي ما ترى، قال: فما بالك بهذه البلاد التي ليس بها سلطانكم؟، قلت: أسرتني الخطايا والمعاصي، وهكذا يفعل بالعاصي، قال لي: إذا أقررت بالخطايا والذنوب فإن الرحمة منك قريب، فأبشر إن كنت صادقا، قلت: تبشرني بالمغفرة والرحمة وأنا على غير ملتك، فقال: أما أنا فعلى الإسلام، فعلام أنت أيها السائل؟، فقلت: لقد أقررت عيني وأنستني مع [ما] [1] أنا فيه من الأسر بذكر الإسلام وانتحالك له، قال: فبكى، ثم قال: ويحك، أفي قلبك من حب الدنيا ما يشغلك عن ذكر مولاك الذي بيده مماتك ومحياك؟، ما كنت أرى أحدا يخرج من قلبه ذكر مولاه، قلت: أيها الصديق، مالي أراك في هذا الموضع، ومن أين يأتيك القوت، ومن يأتيك به؟، قال: فصاح صيحة أفزعتني، ثم قال لي: لو كنت صادقا لكنت مع الصادقين ولما أقمت مع المجرمين، ثم قال: يا ضعيف اليقين، إن الذي خلق الرحى قد أعد لها الطحين، فما سؤالك عن غيب قد حجب عنك يا مسكين؟، قال: قلت: قد أحببت أن أعلم ذلك لأزداد يقينا وإيمانا، وليكون قلبي من جولان الفكر مستريحا، قال: إن الحاجة لها وجوه، ولكن اخدم المولى عن نصح يطعمك، ولا تخدمه على طمع فيمنعك، اعمل لله عمل المخبتين إن كنت من المتقين، ولا تعمل لمولاك

[1] ساقط من: (ب).

عمل من يطلب الأجر كعبد السوء إن خاف مولاه أو رجاه عمل وإلا كسل وفشل، قلت: صف لي الطريق حتى أسلك، قال لي: الطريق صعب على من أحب الدنيا، فيه خشونة وحزونة، وسهل على من كان قلبه بالآخرة معلقا، قلت: أنبئني لعل الله أن يسددني بيمنك ويرشدني إليه بدلالتك، قال لي: إن كنت تريد ذلك و[تبتغيه] [1] وتطلبه فإياك أن تدخل حب الدنيا قلبك، أو تخطر ذكرها ببالك، ولا تبال على أي حال أصبح فيها حالك، فإنما هي منزل نقلة ودار قلعة ومنزل انتقال، وإياك والحطام الفاني، فإن جديدها يخلق وأمنها فرق وحبها ملق، تخدم سكانها وتقتل أبناءها وتغوي أهلها بحيث تمكنهم من درها، حتى إذا رضعوا من لبنها وتذوقوا حلاوة طعمها، سقتهم كأس مرها فتفرقوا عنها على ما تذوقوا فعرفوا عند ذلك وخيم عاقبتها وشدة مرارتها، فرفضوها حين لا ينفعهم الرفض، فويل لأبناء الدنيا، أي حسرة تجرعوا وأي ندامة فيها وقعوا، لو كانت أغطية القلوب انكشفت لهم لما أحبوا الدنيا ولا تدنسوا بعيوبها، فتأمل كلام أرباب الهمم العلية المعرضة عن الدنيا بالكلية، ولله در القائل:

لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال[2]

وكان الحسن البصري: " تفقدوا قلوبكم في ثلاث، في الصلاة والقرآن والذكر، فإن وجدتموها فامشوا وأبشروا، فإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلوق دونكم، فابكوا بكاء الثكلى وتحسروا" [3]، ومر الحسن بقوم يبكون، فقال: " رقة كرقة النساء ولا عزم إن كنتم صادقين في خوفكم، فأصلحوا ما بكيتم من أجله، وصمموا على العزم، ولازموا الحزم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وعذبوها بالعذاب قبل أن تعذبوا، فما كان لله فاحملوها عليه، وما كان لغير الله فاطرحوه عنها "[4].

---

[1] في (ج): تبتغيه.

[2] هذه الأبيات من البحر البسيط لأبي العتاهية، انظر : "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر، (433/1).

[3] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (171/6).

[4] لم أقف عليه.

قال منصور[1]: " كان الحسن يحدثنا ويبكي حتى نرق له [2]، فإذا فرغ قال: والله إني لا أغتبط بهذا الحديث والبكاء، فإني مسئول عنهما يوم القيامة"، فيقال له: حدثت للنصح أو لطلب المكانة، فإن كان للنصح أكرمت، وإن كان لغير ذلك عذبت. [وقال الحسن: " إن المؤمن والله لا يصبح إلا حزينا ولا يمسي إلا حزينا "[3]] [4]. وقال: الحسن لا تكاد تلقاه إلا وكأنه رجل أصيب بمصيبة[5]. قال يونس: " ما رأيت أحدا أطول حزنا من الحسن"[6]. قال الحسن:" مات هرم بن حيان[7]، فجعلت سحابة تتبع جنازته وتظلل على سريره حتى بلغ القبر فأظلت القبر، فلما فرغ من دفنه رشت قبره، وما [صبت] [8] حوالي قبره شيئا، وكان هرم بن حيان كثيرا ما يقول:" لم أر مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها، ثم يقول: من خاف أدلج"[9]، وقال الحسن: "أدلج والله هرم في طاعة الله، وأمسك عن محارم الله"[10].

---

[1] منصور بن زاذان الواسطى، أبو المغيرة الثقفي، مولى عبد الله بن أبي عقيل الثقفي، مُحدَّث ثقة ثبت حُجّة من صغار التابعين، وعابد من الزهاد، وقبره بواسط، وهو صاحب الحسن البصري، (ت 131 هـ / 441 م)، (441/5).

[2] "الرقة والبكاء" لابن أبي الدنيا، (168/1).

[3] "الزهد" للإمام أحمد بن حنبل، (168/1).

[4] ساقط من (ب).

[5] "الزهد" للإمام أحمد بن حنبل، (168/1).

[6] المصدر نفسه.

[7] هرم بن حيان العبديّ الأزدي، من بني عبد القيس: قائد فاتح، من كبار النساك، من التابعين، كان أمير بني عبد القيس في الفتوح وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان بأرض فارس، (ت بعد 26 هـ / 647 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: هرم بن حيان، (82/8).

[8] في(ب): أصابت.

[9] انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: هرم بن حيان العبدي البصري، (49/4).

[10] لم أقف عليه.

قال عامر بن عبد قيس[1]: " عظمت هيبة الله في صدري، فما هبت شيئا غير الله قط "[2]. ودخل واديا يقال له وادي السباع، فصلى فيه من الليل، فأتاه سبع منها فأخذ بمنكبيه وهو يتلوا هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [3]، فلما رآه السباع لا يكترث به خلا عنه وربض بإزائه، فقال له رجل: يا عامر أنشدك بالله أما هالك شيء مما رأيت؟، وقال عامر: إني لأستحيي من ربي أن أهاب غير الله شيئا[4].

وكان مسروق بن الأجدع طويل القيام في الصلاة، قالت امرأته: ما كان يدخل مسروق إلا وساقاه قد انتفخا من طول القيام، فلما احتضر بكى وجزع، فسئل عن ذلك فقال: " مالي لا أجزع وإنما هي ساعة، ثم لا أدري أين يسلك بي"[5].

وكان الأسود بن يزيد[6] يجتهد في العبادة فيقوم حتى يخضر جسده ويصفر، فيقول له علقمة بن قيس[7]: كم تعذب هذا الجسد المسكين، فيقول: إنما أريد كرامته، إن الأمر جد ولا يسلم من الجد إلا بالجد، فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟، فقال: ما لي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني، والله لو أني أنبئت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد ضيعت، فإن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب فيعفوا عنه فلا يزال مستحييا منه أن ينظر في وجهه أيام حياته،

---

[1] عامر بن عبد قيس أبو عبد الله ويقال أبو عمرو التميمي العنبري البصري وصفه الذهبي بالقدوة الولي الزاهد، قال العجلي: كان ثقة، من عباد التابعين، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة، (61 هـ / 680 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: عامر بن قيس التميمي، (15/4).

[2] "صفة الصفوة " لأبي الفرج عبد الرحمان بن علي الجوزي، باب: عامر بن عبد الله ، (120/2).

[3] هود: 103.

[4] "صفة الصفوة" لأبي الفرج عبد الرحمان بن علي الجوزي، باب: عامر بن عبد الله ، (120/2).

[5] "صفة الصفوة" لابن الجوزي، باب: مسروق بن الأجدع بن مالك، (16/2).

[6] الأسود بن يزيد بن قيس النخعي: تابعي، فقيه، من الحفاظ، كان عالم الكوفة في عصره، (ت 75 هـ / 694 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الأسود النخعي، (330/1).

[7] علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي الهمدانيّ، أبو شبل: تابعي، كان فقيه العراق، (ت62 هـ / 681 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: علقمة بن مجزز، (248/4).

فكيف بنا وقد أمرنا ذو الجلال والإكرام فتركنا ونهانا فارتكبنا. وكان رضي الله عنه قد حج ثمانين حجة[1].

وكان عطاء السليمي[2] إذا جن عليه الليل خرج إلى المقابر فيقف عليها ثم يقول: يا أهل القبور متم فواموتاه، ويا أهل القبور ما عملتم فواعملاه ثم يبكي، فلا يزال كذلك حتى يصبح[3].

قال عطاء: خرجت أستسقي مع الناس لقحط كان بالبصرة، فلما صرت في بعض الخرابات إذا أنا بكف قد وقع بين كتفي، فالتفت فإذا بسعدون المجنون[4]، فقلت: يا أبا يعلى، قال: نعم، قلت له: من أين أقبلت؟، قال: من عنده، قلت: وأين تريد؟، قال: إليه، قال: يا عطاء، وأنت أين تريد؟، قلت: أستسقي مع الناس، فقال: يا عطاء، بقلب سماوي أو بقلب خلوي؟، قلت: بل بقلب سماوي، قال: هيهات يا عطاء، قل للمدلسين يدلسوا، فإن الناقد بصير، ثم قال: يا عطاء، استأنس ثم استوحش، ثم ادخل ترى العجب، قلت: اشرح لي شرحا أبين من هذا رحمك الله، فرفع طرفه إلى السماء ثم قال: بحرمة السر الذي بيني وبينك البارحة إلا سقيتنا الغيث، قلت: وما كانت قصتك البارحة؟، فأنشأ يقول[5]:

أنست به فلم أبغ سواه مخافة أن أضل فلا أراه

فحسبك حسرة وضنا وسقما نفور من مجالس أولياه [6]

---

[1] "الزهد" لأحمد بن حنبل، (281/1).

[2] عابد من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك وسمع من الحسن البصري، وجعفر بن زيد، واشتغل بنفسه عن الرواية، (ت بعد 140 هـ / 758 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: عطاء السليمي البصري، (86/6).

[3] "صفة الصفوة" لابن الجوزي، باب: عطاء السليمي، (194/2).

[4] سعدون المجنون: يقال إن اسمه سعيد وكنيته أبو عطاء ولقبه سعدون، من أهل البصرة، كان من عقلاء المجانين وحكمائهم، له أخبار ملاح وكلام سديد ونظم ونثر يستحسن، وطوف البلاد، ودونت أخباره، (ت بعد 250 هـ / 865 م)، انظر: "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: المجنون، (119/15).

[5] "صفة الصفوة" لابن الجوزي ، باب: سعدون المجنون، (571/1).

[6] هذه الأبيات من البحر الوافر، انظر: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (370/9).

ثم ولى وهو يقرأ هذه الآية: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]، فسقانا الله غيثا مغيثا ببركته.

[فصل فيما جاء عن الحسن بن جعفر الصغاني]

روى في مصنفه أن ثابت البناني[2] بكى من خشية الله تعالى حتى كاد يذهب بصره، مع ما هو عليه من التمسك والزهد في الدنيا وبذل المجهود وحسن المعاشرة وبذل النصيحة للخاص والعام ونشر العلم والحطة لوجه الله تعالى، ويروى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا روعة ولا حزن ولا نكبة إلا كان كفارة لخطاياه»[3].

وقال محمد بن واسع سمعت نهار بن شمر يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « قال الله تبارك وتعالى لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتم صوت الرعد»[4]. وقالوا لو أن المؤمن لا يعصي ربه ثم أقسم على الله أن يزيل الجبال لأزالها، وأن المؤمن لعلى خير ترحب به الأرض وتستبشر به السماء، ولن تسئ إليه الأرض في بطنها، وقد أحسن العمل على ظهرها». وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال: " كيف سلطت من لا يعرفك على من يعرفك "، قال تبارك وتعالى:"إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني"[5].

---

[1] ق: 22.

[2] اسمه ثابت بن أسلم البُنَانِي، وبنانة هم بنو سعد بن لؤي بن غالب، كنيته أبو محمد، سكن البصرة، كان يقرأ القرآن في كل يوم وليلة ويصوم الدهر، صحب أنس بن مالك أربعين سنة، (ت 127 هـ / 745 م)، انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، باب: ثابت بن أسلم، (224/5).

[3] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرضى، رقم: 5641، (114/7).

[4] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الرعد، رقم: 3331، (380/2)، وقال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[5] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (91/8).

قال الحسن بن جعفر الصاغاني[1]: " كان إبراهيم بن أدهم على بعض جبال مكة يحدث أصحابه، فقال له بعضهم: يا أبا إسحاق، ما بلغ من كرامات المؤمنين على الله تعالى؟، قال: بلغ المؤمن من كرامته على الله سبحانه أن لو قال لجبل زل لزال عن مكانه، قال: فتحرك الجبل من تحته فضربه إبراهيم برجله، وقال: ليس إياك أردنا، إنما ضربتك مثلا لأصحابي[2].

وقال عتاب بن سعيد[3]: رأيت إبراهيم بن أدهم في البحر على سفينة وهو غاز مع قوم غزاة، وقد عصبت بهم ريح حتى أشرفوا على الغرق، فسمعوا هاتفا يهتف بأعلى صوته يقول: أتخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم[4].

وعن سفيان الثوري أنه قال: قال عز وجل في بعض كتبه: " ما من عبد من عبادي أطاعني إلا استجبت له من قبل أن يدعوني، وأعطيته من قبل أن يسألني" [5].

وقال الصاغاني عن سفيان:" ليس الخائف من عصر عينيه وبكى، وإنما الخائف من ترك العمل الذي يخاف منه " [6]، وأنشد سفيان فقال:

أطوف بأبواب الملوك كأنني أخو بضعة والثوب مني نظيف

ومن شق فاه الله قد رزقه وربي بمن يلجأ إليه لطيف[7]

---

[1] الحسن بن محمد الصغاني هو أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي، العدوي العمري الصغاني الأصل، المحدث الفقيه الحنفي اللغوي، صاحب التصانيف ، (ت 650 هـ / 1252 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الرضى الصاغاني، (214/2).

[2] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (321/6).

[3] من رواة الحديث، لا توجد ترجمة واضحة عنه، انظر: "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم الرازي، (13/7).

[4] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (323/6).

[5] "المجالسة وجواهر العلم" لأبي بكر الدينوري، (285/3).

[6] "روح البيان" لأبي الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، باب: سورة الشورى: الآيات 28 إلى 31، (320/8).

[7] هذه الأبيات من البحر الطويل وهي منسوبة لأبو علي الثقفي، هكذا وجدت:=

قال الصاغاني عن سفيان: " ما من شيء أفضل من طلب العلم إذا صحت النية فيه "، قيل له: وأي شيء النية فيه يا أبا عبد الله، قال: " هي أن يريد به وجه الله والدار الآخرة من قلبه"[1].

وخرج سفيان الثوري يريد أبا حبيب البدوي[2]، وكان يرعى غنما فأتاه فسلم عليه ولم يكن رآه قبل ذلك، فقال له: أنت سفيان الثوري الذي يقال: قال؟، فقال سفيان: [أسأل] [3] الله بركة ما يقال، قال: فقال لي سفيان: ما رأينا خيرا قط إلا من الله ربنا، قال: قلت أجل، قال: فما بالنا نكره لقاء من لم نر خيرا إلا منه، قال: ثم قال: يا سفيان منع الله عطاء، وذلك أنه لم يمنعك من عدم ولا بخل، وإنما منعه نظر لك واختيار، ثم قال: يا سفيان، إن فيك لأنسا، ثم معك شغلا، سلام عليك، ثم أقبل على عمله[4].

وقال سفيان: " لن يبلغ الرجل درجة من درجات الأولياء حتى لا يكون شيء أحب إليه من الله، ومن أحب القرآن فقد أحب الله"[5].

ثم قال: " من خاف الله لم يضره شيء، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد، ومن أطاع الله لم تضره معصية أحد، ومن عصى الله لم تنفعه طاعة أحد، ومن خاف الله خاف منه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء"[6].

= أمر بأفناء القبور كأنني*//*أخو فطنة والثواب فيه نحيف

ومن شق فاه الله قدر رزقه *//* وربي بمن يلجأ إليه لطيف، انظر: تفسير القرطبي ، (17/16).

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر، باب: تفضيل العلم على العبادة، (123/1).

[2] من كبار الزهاد، انقطع عن الدنيا وأهلها وسكن البادية، ولا توجد ترجمة وافية عنه، انظر: "حلية الاولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (287/8).

[3] في (ب): أنالنا.

[4] "المجالسة وجواهر العلم" لأبي بكر الدينوري، (239/2).

[5] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (302/7).

[6] من أقوال الفضيل بن عياض رحمه الله، انظر: "شعب الإيمان"، باب: الخوف من الله، رقم: 944، (305/2).

وقال سفيان: " العالم طبيب الدين، والمال داء للدين، فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره، وحرام على قلب أن يجد حلاوة الإيمان حتى يزهد في الدنيا، وحرام على قلب محب للدنيا أن يسكنه الورع الخفي"[1].

وقال حميد القشيري[2]: رأيت داود الطائي في النوم فقلت له: إلى ما صرت؟، قال: إلى الجنة، قلت: بأي شيء؟، قال: رحمني الله سبحانه بالقرآن[3].

وروي عن الصاغاني أنه قال:" أربعة من كنوز الجنة: كتمان الفاقة، وكتمان المعصية، وكتمان الوجع، وكتمان الصدقة "[4].

ولعله يريد بالصدقة صدقة التطوع، وأما الواجبة فإظهارها أفضل للإقتداء وليدفع عن نفسه سوء الظن.

يروى أن الحسن خرج يوما في جنازة ومعها نوائح وكان معه رجل، فهم ذلك الرجل بالرجوع، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحا تركت له حسنا أسرع ذلك في دينك[5].

---

[1] "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" لأبي حاتم البستي، (36/1).

[2] عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، أبو نصر: واعظ من علماء نيسابور من بني قشير، علت له شهرة كأبيه، زار بغداد في طريقه إلى الحج ووعظ بها، فوقعت بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية فاستدعاه نظام الملك إلى أصبهان (إطفاء للفتنة ببغداد) فذهب إليه ولقي منه إكراما، وعاد إلى نيسابور فلازم الوعظ والتدريس إلى أن فلج وتوفي بها، كان ذكيا حاضر الخاطر وفصيحاو جريئا، يحفظ كثيرا من الشعر والحكايات، (ت 514 هـ / 1120 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القشيري، (346/3).

[3] لم أقف عليه.

[4] "نثر الدر في المحاضرات" لأبي سعد الآبي، (132/4).

[5] "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، (98/2).

وقال محمد بن الحسن: سمعت مشدالا الطويل[1] يقول: "مررت أنا وسلام الأسود على إبراهيم بن أدهم ببعض القصور، فإذا مغنية تغني وهي تقول:

إن كنت ملت إلى سواكا وزال قلبي عن هواكا

أو كان غيرك سيدي فحرمت يا أملي رضاكا [2]

فجعل سلام يقول:

وما مال قلبي إلى سواكا ولا تعديت عن هواكا

وقد باعد السرور قلبي وقد ألف الحزن أو يراكا[3]

ثم صرخ صرخة فخرجت فيها روحه[4].

وقال بشر بن الحارث [5] :" بينما أنا أسير في بعض الطرقات بالشام، فإذا بفتى من أحسن الناس وجها، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت له: من أين أقبلت؟، قال لي: من عنده، قلت: وإلى أين؟، قال: إليه، قلت: رحمك الله وأين النجاة؟، قال: في التقوى والمراقبة لمن أنت له مبتغ، قلت: أفلا توصني بوصية أحفظها عنك؟، قال: أوتفعل؟، قلت: إن شاء الله، قال: فر منهم ولا تأنس بهم، واستوحش عن الدنيا فإن الدنيا تعرضك للمعاطب، ثم قال: من عرف

---

[1] لم أقف على ترجمته في كتب التراجم.

[2] هذه الأبيات من البحر السريع، وقائلها مجهول.

[3] هذه الأبيات من البحر السريع.

[4] لم أقف على هذه الرواية.

[5] بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها، (ت 227 هـ / 841 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، (54/2).

الدنيا لم يطمئن إليها، ومن أبصر ضرارها أعد لها دواءها، ومن عرف الآخرة طلبها فأنجح، ومن توهمها اشتاق إلى ما فيها فهان عليه العمل لها، ومن اشتاق إلى مالكها الذي يقول لها كوني فتكون فإنه أجدر به وأولى، وذلك حياة قلوب المشتاقين وطبيب أفئدة المستأنسين. ثم قال: أنسوا بربهم وأسقطوا كل غفلة تقطعهم عن وصله، وكل عارض يمنعهم من قربه، فوصلوا إليه فسقاهم بكأس حمياه شربة، في عطشهم روايا وفي ريهم عطاشا، ثم قال: يا هذا أتفهم ما أقول؟، فلا تعنني، قلت: بلى، أفهم إن شاء الله، فقال: الحمد لله الذي فهمك، ورأيت السرور في وجهه، ثم قال: نعم، هم الذين لا يملون عطاياه ولا يشبعون من تحفهم الواصلة إلى قلوبهم، فالحكمة إليهم مائلة متواصلة لأنهم الأكياس الذين لا تدنسهم المطامع، ولا تقطعهم عن الله القواطع، ليوث في تقلبهم، أغنياء في توكلهم، أقوياء في بصائرهم، قد هذبتهم الخشية، وتوالت عليهم العزلة، فعيشهم اليقين، وروحهم السكون، ألين الناس عريكة ، وأشدهم حياء، وأشرفهم مطلبا، لا يركنون إلى الدنيا جزعا، ولا يطمئنون إليها فزعا، فهم خيرة الله وصفوته من خالص عباده، ثم قال لي: يا هذا إن للقلوب الحية بما هو دون هذا المقام مقنعا، ثم انصرف وتركني[1].

[فصل في الكشف عن مثالب الدنيا وغوائلها]

فهي كما قال الحسين بن جعفر الصاغاني في كتابه:" حلية الأنوار" [2]: قال وهب بن منبه: "قرأت في بعض الكتب المنزلة حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وظمأ الدنيا ري الآخرة، وري الدنيا ظمأ الآخرة، وجوع الدنيا شبع الآخرة، وحزن الدنيا فرح الآخرة، وفرح الدنيا حزن الآخرة "[3].

[1] "صفة الصفوة" لأبي الفرج ابن الجوزي، (477/2).

[2] لم أجد هذا الكتاب ضمن كتب الصاغاني المعروفة، وقد يكون مخطوطا قديما كان في متناول المؤلف رحمه الله.

[3] "الزهد" لأحمد بن حنبل، (78/1).

وفي الخبر: « لا أجمع على عبد من عبادي حزنين ولا فرحين، فمن أحزنته في الدنيا فرحته في الآخرة»[1].

وعن بعض الزهاد قال:" ما وجدنا شيئا هو أعون على الزهد في الدنيا من ذكر الموت، فأميتوا بذكره ذكر الشهوات من قلوبكم، واجعلوه نصب أعينكم، وكونوا على عدة من نزوله بكم.[2]

قال أحمد بن أبي الحواري[3]:" بلغني أن هارون الرشيد[4] قال: ما كلمت عالما قط أعلم من مخلد [5] ولقد عجزت النساء أن تلد مثل مخلد، وذلك أن هارون الرشيد راوده على أن يخرجه من الثغر ويحمله معه إلى العراق، فقال: يا أمير المؤمنين أحدثك بحديث ثم ترى بعد ذلك رأيك، بلغني أن إبراهيم الخليل عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه رفيقه في الجنة، فأوحى الله إليه: أرأيت موضع كذا وكذا، قال: فأتاه، فإذا هو بشيخ يحمل حزمة من الحطب وهو يقول: من يشتري الطيب بالطيب، قال: وكان إذا احتطب لا يكسر شجرة، إنما كان يلتقطه، قال: فباع

---

[1] بلفظ آخر،"صحيح ابن حبان"، باب:ذكر البيان بأن حسن الظن..،رقم: 640،(406/2)،وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

[2] "الفتوحات المكية " لمحيي الدين المعروف بابن العربي، (345/8).

[3] أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، أصله من الكوفة، وسكن دمشق في سوريا. وصفه ابن كثير بأنه «أحد العلماء الزهّاد المشهورين، والعباد المذكورين، والأبرار المشكورين، ذوي الأحوال الصالحة، والكرامات الواضحة»، وقال عنه يحيى بن معين «إنّي لأظن أن الله يسقي أهل الشام به»، ووصفه الجنيد بأنه «ريحانة الشام»، صحب أبا سليمان الداراني، وروى عن سفيان بن عيينة وبشر بن السري، وغيرهم، وروى عنه أبو داود، ومحمد بن ماجة، وأبو حاتم، وأبو زرعة الدمشقي، (ت 230 هـ /845 م)، انظر : "طبقات الصوفية" لأبي عبد الرحمان السلمي، (91/1).

[4] هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالريّ لما كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان ونشأ في دار الخلافة ببغداد، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة 170 هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، (ت 193 هـ / 809 م)، انظر:"الأعلام" للزركلي، باب: هارون الرشيد، (62/8).

[5] يُكنى أبا محمّد، وهو ابن امرأة هشام بن حسّان، وكان راوية عنه، وكان ثقةً فاضلًا، وهو من أهل البصرة، ثم نزل المصّيصة، ومات بها في خلافة هارون الرشيد، (ت191 هـ / 807 م)، انظر ترجمته في : "صفة الصفوة" لابن الجوزي، (410/2).

حزمته برغيفين، فتصدق بأحد الرغيفين وحمل الآخر، فصحبه إبراهيم حتى انتهى إلى بحيرة بينه وبين الغار الذي يسكن فيه الشيخ، فقال لإبراهيم: ارجع إني أريد أن أمشي على هذه البحيرة إلى الغار، قال: فقال له إبراهيم: وأنا أمر معك، قال: ما أراك تطيق، قال: ولم؟، قال: لأني أمشي على الماء بتسخير الله، فقال إبراهيم: الذي سخره لك قادر على أن يسخره لي، قال: فمشينا جميعا عليها، قال: فلما انتهينا إلى باب الغار، قال له إبراهيم: لو دعوت لي بدعوة صالحة، قال: وما ترجوا من دعوتي ولي دعوة مستجابة، ولم أر إجابتها، قال: وما هي؟، قال: بلغني أن لله [سبحانه] [1] خليلا، فسألته أن يريني إياه، قال له إبراهيم: إني هو، فأعشقه وهو أول ما تعانق الناس، فقال له إبراهيم: إني أحب أن تصحبني، فقال له: الأمر الذي نلت به مرافقتك في الجنة دعني عليه يا إبراهيم خليل الرحمان، ولا تخرجني منه، قال له هارون الرشيد: فنحن ندعك لا نخرجك من الثغر[2].

قال أحمد بن أبي الحواري: " سمعت أبا سليمان الداراني[3] يقول: قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: يا موسى ما تعبد المتعبدون إلي بمثل الورع عما حرمت عليهم، وما تزين المتزينون بمثل الزهد في الدنيا، وما تقرب المتقربون بمثل البكاء من خوفي، فقال موسى: يا أكرم الأكرمين، ما مثوبة هؤلاء عندك؟، قال: فقال الله تبارك وتعالى: أما عبادي الورعون فإنه لم يرد علي الموقف أحد إلا ناقشته إلا الورعين فإني أجلهم إن أنا أناقشهم الحساب، وأما

---

[1] في (ب): عز وجل.

[2] وجدت هذه الرواية عن داود عليه السلام حين سأل ربه أن يريه رفيقه في الجنة، وليس إبراهيم عليه السلام، وربما وجدها الشيخ رحمه الله هكذا في بعض الكتب، انظر: "تاريخ الأنبياء" للخطيب البغدادي، (ص248).

[3] عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان: زاهد مشهور، من أهل داريّا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين و له أخبار في الزهد، من كلامه: (خير السخاء ما وافق الحاجة)، (ت 215 هـ / 830 م)، انظر : "الأعلام" للزركلي، باب: أبو سليمان الداراني، (293/3).

عبادي الزاهدون فإني أبيحهم جنتي يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما عبادي البكاءون من خشيتي فإني أسكنهم الرفيق الأعلى لا يزاحمهم فيها أحد[1].

قال أبو سليمان الداراني: " الدنيا تطلب الهارب منها، وتهرب من الطالب لها، فإن أدركها الطالب قتلته، وإن أدركت الهارب جرحته " [2]، وقال أيضا:" إذا جاع القلب وعطش صفا ورق، وإذا شبع وروى عمي وطغى"[3].

قال بعض الصالحين: " بينما أنا أسير في طريق إذ سايرني رجل، فقال: ما تعدون الزهاد؟، قال: أن لا تبالي بمن أقبل عليك من الناس بوجهه، أو من أدبر عنك، وأنت في ذلك مؤد لحقوقهم، ثم ألتفت فلم أر أحدا "[4].

ووعظ علي بن أبي طالب رجلا فقال له: " لا تكن ممن يرجوا الآخرة بغير عمل، ويسوف التوبة بطول الأمل[5]، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يحب المحسنين وليس منهم، ويبغض المسيئين ويعمل عملهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ولا ينتهي عنها في حياته، يتمنى المغفرة ويدأب في المعصية، والله عز وجل يقول: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [6]، إن سقم ندم على ما ترك، وإن صح فهو آمن مغتر بصحته، تعجبه نفسه ما عوفي وتقنطه إذا ما ابتلي، لا يرضى من الرزق بما قسم له، ولا يثق منه بما قد ضمن له، وهو في أمره من شك، لا يبيت قائما ولا يبح صائما، يصبح وهمته التصبح، ويمسي وهمته العشاء، يعرف الحق لنفسه

---

[1] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (154/61).

[2] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (258/9).

[3] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (266/9).

[4] «الزهد" لابن أبي الدنيا، (159/1).

[5] "روائع التفسير" المسمى (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، (314/1).

[6] فاطر: 37.

على غيره، ولا يعرف الحق لغيره على نفسه، واللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، ومجالسة المترفين أحب إليه من مجالسة المخبتين، فهو في حرفته متردد، وفي فتنته متلذذ، فإنا لله وإنا إليه راجعون"[1]. نسأل الله تعالى أن يعافينا وإياكم من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه غفور رحيم جواد كريم.

قال صاحب "حلية الأنوار": " مر الإسكندر[2] بمدينة قد ملكها سبعة ملوك ثم بادوا، فقال: هل بقي من نسل أولئك الملوك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟، فقالوا: نعم، إنسان واحد يسكن المقابر، فدعا به، فقال: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟، فقال: أردت أن أميز بين عظام الملوك وعظام عبيدهم، فوجدتهم سواء، فقال له الإسكندر: إنك لست كغيرك، أنت من أبناء الملوك، فهل لك أن تتبعني فأحيي لك شرفك وذكرك، وأملكك إن كانت لك همة، قال: إن همتي لعظيمة، إن كانت بغيتي عندك، قال: وما بغيتك؟، قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم بعده، وسرور لا مكروه فيه، فقال له: لا أقدر على هذا؟، فقال له الفتى: إن كنت لا تقدر على هذا فامض لشأنك، ودعني أطلب من يقدر عليه، فقال الإسكندر: ما رأيت في الناس أحكم من هذا الفتى"[3].

وروي عن وهب بن منبه أنه قال:" طلبت صحف إبراهيم عشرين سنة فوجدتها بأرض الروم، فإذا في أولها : إنما تقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف عن الشهوات ابتغاء مرضاتي،

---

[1] لم أقف عليه.

[2] الإسكندر الثالث المقدوني، المعروف بأسماء عديدة أخرى أبرزها: الإسكندر الأكبر، والإسكندر الكبير، والإسكندر المقدوني، والإسكندر ذو القرنين، هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ، وُلد الإسكندر في مدينة پيلا، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ ربيعه السادس عشر. وبحلول عامه الثلاثين، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم والتي امتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا و يُعد أحد أنجح القادة العسكريين في مسيرتهم، إذ لم يحصل أن هُزم في أي معركة خاضها على الإطلاق، (ت 323 ق م)، انظر: "تاريخ مختصر الدول" لأبي الفرج المعروف بابن العبري، (57/1).

[3] "سراج الملوك" لأبي بكر الطرطوشي، (18/1).

وقطع نهاره في ذكري، ولم يمت مصرا على معصيتي، ولم يتطاول على خلقي، يكسوا العاري ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب، أكلأه بقوتي، وأستحفظه بملائكتي، مثله في الناس كمثل الفردوس في الجنان، لا تيبس ثمارها ولا تتغير عن حالها، إذا دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن استغفر غفرت له بذلك، الذي أشرق نوره مثل إشراق الشمس، أجعل له في الجهالة علما، وفي الظلمة نورا "[1].

قال محمد بن الحنفية [2] : " من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا"[3]. وأنشد بعض الحكماء في المعنى فقال:

كفلت لطالب الدنيا بهم طويل لا يئول إلى انقطاع

وذل في الحياة بغير عز وفقر لا يئول إلى اتساع

وشغل ليس يعقبه فراغ وسعي دائم مع كل ساع

وحرص لا يزول عليه عبدا وعبد الحرص ليس بذي اقتناع[4]

قال رجل لحكيم: عظني، فقال: إن كل يوم يرحل بك مرحلة إلى الآخرة، فكم عسى الأيام أن تدوم معك، وهي لم تبق لغيرك[5].

---

[1] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (18/4).

[2] محمد بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين غير أن أمهما فاطمة الزهراء وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، يُنسب إليها تمييزا له عنهما وكان يقول: الحسن والحسين أفضل مني، وكان واسع العلم ، (ت 81 هـ /700 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الباقر، (270/6).

[3] "عيون الأخبار" لابن قتيبة، (356/2).

[4] من البحر الوافر لمحمود الوراق، انظر: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (217/10).

[5] "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (348/2).

وقال هشام بن عبد الملك لرجل من أهل الشام: عظني، فقال له: أفعل، فقرأ عليه: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، حتى بلغ قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [1]، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا الوعيد لمن طفف أو بخس أموال الناس، فكيف بمن أخذها كلها[2].

قال أبو ذر رضي الله عنه: " الدنيا كلها كدر، ولن ينجوا منها إلا أهل الحذر، لله فيها علامات يغفل عنها الجاهلون و[يعتبر] [3] بها العالمون منها إن حفها بالشهوات فارتطم بها أهل البطالات ثم عقبها بالآفات"[4].

[فصل أذكر فيه جملا من مناقب أهل الفضل]

إذ بحكاية أحوالهم تستنير القلوب ويرجى لها الفوز من لدن علام الغيوب، فكما ترجى لمعتقد فضلهم بركاتهم كذلك تخشى على منتقدهم سوء الخاتمة عافانا الله من بلائه ومن الوقوع في أوليائه.

وقد ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى قال: من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، إن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنه»[5].

---

[1] المطففين:1 إلى 6 .

[2] موعظة ابن السماك لهارون الرشيد، انظر: "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، (108/3).

[3] في (ج): يغتر.

[4] "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" لمحمد بن الحسن الحجوي الفاسي، (253/1).

[5] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم: 6502، (105/8).

قال صاحب الرياض[1] : " وقفت على كتاب سماه صاحبه "بتلبيس إبليس"[2]، وذكر فيه أنواعا من الكلام، ثم جعل يقع في أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن المجمع على فضلهم، فوقع في الغزالي وفي المحاسبي[3] وأبي القاسم القشيري[4]، وطعن على أبي نعيم الحافظ [5] على حليته، وعلى أبي عبد الرحمان السلمي[6]، وبالجملة فإنه طعن على هؤلاء وعلى إضرابهم المجمع على فضلهم عند جميع أهل المذاهب الحقية". قال صاحب الرياض:" لما وقف شيخنا أبو مهدي عيسى الغبريني[7] خاتمة علماء افريقية على هذا الكتاب وتأمله، ألقاه من يده وقال له: عليك والله لبس إبليس يا مسكين" ، ورأيت هذا الكتاب هناك مهجورا لا يلتفت إليه، وزعم كاتبه أنه للجوزي، وليس إنشاؤه كإنشاء الجوزي، ولا سبيله كسبيله حاشاه من ذلك، ولقد وقفت على

---

[1] عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي: من أئمة اللغة والأدب. من أهل نيسابور، كان فراءاً يخيط جلود الثعالب، فنسب إلى صناعته. واشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ، وصنّف الكتب الكثيرة الممتعة، من كتبه "يتيمة الدهر"ط، (ت 429 هـ / 1038 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الثعالبي، (163/4)، وكتاب الرياض الذي ذكره المؤلف، هو كتاب: "رياض الصالحين وتحفة المتقين" لأبي منصور الثعالبي، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية برقم: 833.

[2] كتاب "تلبيس ابليس" منسوب جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، انظر: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" ، باب: تلبيس إبليس، (471/1).

[3] الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظا مُبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، (ت 243 هـ – 857 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الحارث المحاسبي، (153/2).

[4] عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوريّ القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام: شيخ خراسان في عصره، وزاهدا وعالما جليلا، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها، وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه، (ت 465 هـ / 1072 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القشيري، (57/4).

[5] أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم: حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية، ولد ومات في أصبهان، من تصانيفه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو العلاء المعري، (157/1).

[6] أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السُلميّ في حياة النبي محمد، وكان والده حبيب بن ربيعة السلمي من أصحاب النبي، وكان أبو عبد الرحمن أعمى، وقد توفي أبو عبد الرحمن في ولاية بشر بن مروان على الكوفة، (ت 74 هـ / 694 م)، انظر: "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي، باب: عبد الله بن حبيب، (65/17).

[7] أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغبريني: مؤرخ، نسبته إلى (غبرى) من قبائل البربر في المغرب، ومولده في بجاية، وتولى قضاءها ومات فيها شهيدا، له: (عنوان الدراية في من عرف من علماء المئة السابعة في بجاية – ط)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الغبريني، (90/1).

كتابه المسمى "بالمورد العذب" [1] فإنه مناقض لهذا الكتاب المختلق، لأن كتاب الجوزي قد طرزه بذكر أعيان الأولياء الذين تعسف عليهم هذا الشخص بالرد في تلبيسه. قال:" ولما تأملت كلام هذا الشخص وجدته ينحوا إلى مذهب الظاهرية، فلم أشك أنه ظاهري، إذ لم أر له ذوقا في طريق القوم، نسأل الله أن يعفوا عنا وعنه وأن ينجينا وإياكم من الوقوع في أوليائه، فإذا لم يفتح للعبد بما فتح الله به عليهم من جزيل مواهبه، فلا أقل من حسن الاعتقاد والتصديق بما يذكرونه من المواهب الربانية والتسليم لهم، فالحذر الحذر من مثل هذا المذكور. قال: " ولقد وقف بعض الطلبة بهذا الكتاب المذكور فحذرته منه وخوفته من مصيبة عاجلة تقع به، فلم يكن إلا ليلة أو نحوها حتى أصابته محنة، فسجن وامتحن محنة ما رأى مثلها في عمره [2]، وهذا أدنى ما يصيب المعترض عليهم، فإنهم على حق وحقيقة وبصيرة من أمرهم، ينظرون بنور ربهم فيفيض عليهم من العلوم الربانية والمواهب الصمدانية ما تكل الأقلام والمحابر عن كتابة النزر منه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[3]، وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [4] . وهذه المواهب السنية والفتوحات الربانية قد اختص بها سبحانه أولياءه في جميع العصور وعلى ممر الدهور، وناهيك من كثرتها وفخامة أمرها أن الله سبحانه وتعالى استكثرها بقوله: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾، ولا يستكثر الله تعالى إلا ما لا نهاية له ولا حد وإلا فعلم الشريعة كثير وقد استقله تعالى بالنسبة إلى علمه المفاض على أنبيائه وأوليائه، كما في رواية الخضر رضي الله عنه أنه قال لموسى عليه السلام وقد رأى عصفورا على طرف السفينة وهو ينقر بمنقاره في البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا

---

[1] من مصنفات ابن الجوزي، عنوانه : "المورد العذب في المواعظ والخطب"، وهو مطبوع، انظر: "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون" لإسماعيل باشا البابانى، باب: الميم، (605/4).

[2] انظر: مقدمة تحقيق كتاب: "مشيخة ابن الجوزي" من تحقيق: محمد محفوظ، (ص 25 –26).

[3] لقمان: 27.

[4] البقرة: 269.

العصفور من جميع بحار الدنيا، وكان الخضر ﵇ على علم من علوم الغيب لا يعلمها موسى، وموسى على علم من علوم الشهادة لا يعلمها الخضر ﵇، وعلم موسى والخضر بالنسبة إلى علم الله كحصاة واحدة من جميع حصى الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [2]، فلم يجعل سبحانه [للعلم الذي هو العلم] [3] سببا إلا التقوى، فإذا استدار نور التقوى في سويداء القلب انفسح واتسع حتى يصل شعاعه بشعاع العرش فيمد من علم اللوح المحفوظ، فحينئذ يستحق أن يسمى قلبا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [4]، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي يرويه عن ربه، قال الله تعالى: « لا تسعني أرضي ولا سمائي ولا عرشي ولا كرسيي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[5]، أي علما ومعرفة مع أنه تعالى لا يعلم كنهه غيره.

يروى أن الله تعالى قال لداود فقال: أي رب لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فقال له تعالى: قد أثنيت وبالغت في الثناء علي يا داود، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [6]، فأمر سبحانه بالزاد عموما ثم نبه أهل الخصوص بأعلى الزاد وهو التقوى، فمن كان من أهل التقوى فقد أخذ بأعلى الزاد وهو التقوى، ومن لم يكن له تقوى فلا يجوز له السفر إلا بالزاد المحسوس، فإن سافر بدونه كان عاصيا ودخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [1]، وبالجملة فلا ينبغي الاعتراض على أولياء الله تعالى، ولله در أبي

---

[1] البقرة: 255.

[2] البقرة: 282.

[3] ساقط من (ج).

[4] ق: 37.

[5] "تفسير ابن رجب الحنبلي"، (52/2)، وذكره زين الدين العراقي في "تخريج الإحياء"، (890/1)، وقال: لم أر له أصلا.

[6] البقرة: 197.

[1] البقرة: 195.

العباس الغبريني، فإنه لما ذكر بعض كرامات الأولياء في كتاب عنوان "الدراية"، وقد يقع في مثل هذا إنكار من ملحد لا علم له وحقه الإعراض عنه وعدم الالتفات إليه، وإن زاد يصفع وجهه عوضا عن قفاه كما جمع الله له الخزي في أولاه وأخراه[1].

قال الشيخ الجليل أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي[2] : قال:" حدثنا الشيخ الأجل الفقيه العلامة الأوحد أبو بكر بن طفيل رحمه الله، قال: حدثني رجل صالح من عقب ابن عباد[3] يكنى بأبي الحسن عن الحاج المعروف بالبغدادي[4].

روى أبو بكر بن طفيل[5] أن الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله ونفعنا ببركاته، مال في آخر عمره إلى التبتل وغلب عليه استصحاب أحوال المشاهدة، وكان يأوي إلى موضع على مسافة أميال من بغداد ينفرد فيه للعبادة، وكان يخدمه رجل من أهل الفضل والإرادة ويتكفل له بضروریاته حتى قضى نحبه، وظهر له بذلك من الكرامات ما أعرب عن علو منصبه في مقامات الأولياء، فبما وصفه الحاج المذكور من ذلك أنه قال: كنت ملتزما للحضور بحلقة أخيه لسماع العلم، وكان في بعض الأيام يلم به الرجل الذي كان يقوم بخدمة أبي حامد رحمه الله، قال: فبينما نحن في بعض الأيام جلوس عنده إذ دخل عليه المذكور فدنا من الفقيه أكثر من

---

[1] "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (50/1).

[2] يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي، أبو الحجاج، المعروف بابن الزيات: لغويّ أديب، من قضاة المالكية من أهل " تادلة " بالمغرب، بين تلمسان وفاس، له كتب، منها " التشوف إلى رجال التصوف" – ط "، (ت 627 هـ / 1230 م)، انظر : "الأعلام" للزركلي، باب: ابن الزكي، (257/8).

[3] هو ثالث وآخر ملوك بني عبَّاد في الأندلس، وابن أبي عمرو المعتضد حاكم إشبيلية، كان ملكاً لإشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف قبل أن يقضي على إمارته المرابطون، (ت 488 هـ / 1095 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: المعتمد ابن عباد، (181/6).

[4] لم أقف على ترجمته.

[5] أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، ابن طفيل فيلسوف و عالم و طبيب عربي مسلم و رجل دولة وهو من أشهر المفكرين العرب الذين خلفوا الأثار الخالدة في عدة ميادين منها: الفلسفة والأدب والرياضيات والفلك والطب، وكان من وزراء دولة الموحدين في وقت عظمتهم، (ت 581 هـ / 1185 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن طفيل، (249/6).

عادته وأسر إليه حديثا، فرأينا عليه أثر التغير العظيم في وجه الفقيه وقام على الفور ولم نقدر على مكالمته، فغاب عنا يوما أو نحوه، فلما رأيناه سألناه عن السبب الذي أزعجه، فأخبرنا بوفاة أبي حامد رحمه الله، وذكر عنه أن ذلك الرجل المذكور المختص بخدمة أخيه حدثه أن أبا حامد رحمه الله قد استأذنه ولم يكن به ألم ولا ظهور تغير، فأعلمه أنه يموت في تلك الليلة، وعهد إليه أن يدرجه إذا مات في أكفان عينها له، ويستدعي قوما من قرية كانت قريبا من موضعه لحضور الصلاة عليه، وأن يضرح قبره في موضع عينه له، وأن يضعه على شفيره، وأن لا يتقدم أحد للصلاة عليه حتى يأتيهم شخص لا يعرف فيتقدم للصلاة عليه بغير أمر، قال: وبقي على حالته التي كان عليها لم يظهر عليه مرض، ثم انغمس في الماء وتطهر، وقد جن عليه الليل فأقبل على صلاته وذكره، قال: وكنت أتفقده الساعة بعد الساعة فأسمع تضرعه وخشوعه، فلما أصبح تفقدته فوجدته قد قضى نحبه رحمة الله عليه مستقبل القبلة، ففعلت جميع ما أمرني به، وحضر الناس للصلاة عليه وهو موضوع على شفير قبره، فلما اعتدلوا للصلاة عليه شاهدوا رجلا يقبل من البرية ملتفا في ثوب، فلما وصل النعش سلم على القوم واستقبل وتقدم للصلاة فصلى عليه وصلينا بصلاته، ثم سلم وانصرف على أدراجه دون أن يكلمنا ولا نكلمه، ولم نزل نتبعه بأبصارنا حتى توارى عنا، واشتغلنا بعد بدفن الفقيه أبي حامد رحمه الله، وقضينا مما شاهدنا من كراماته كل العجب، وتوفي ﷺ عام ثلاثة عشر وخمسمائة "[1].

[1] انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 11-12).

[قال التادلي: ومن الأولياء أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزم[1]، كان فقيها حافظا للفقه زاهدا في الدنيا، سالكا في التصوف، سبيل لملامته وهو من أهل فاس وبها مات عام سبعة وخمسين وخمسمائة[2]]. [3]

وكان أبو الحسن يقول: " اعتكفت على قراءة "إحياء علوم الدين" للغزالي رحمه الله مدة، فجردت المسائل التي تنتقد عليه وعزمت على حرق الكتاب، فنمت فرأيت قائلا يقول: جردوه واضربوه حد الفرية، فضربت ثمانين سوطا، فلما استيقظت جعلت ألتمس ظهري فكنت أجد الألم الشديد من ذلك الضرب، فتبت إلى الله سبحانه مما اعتقدت، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة "[4].

قال صاحب الرياض: " حدثني بذلك غير واحد من الثقات عن أبي محمد عبد الله بن عثمان[5] عن أبي الحسن بن حرزهم، قال: وحدثني الشاذلي عند وفاة هذا المضروب أنه لما جرد للغسل وجدوا أثر ذلك السياط في ظهره، وهذا الرجل لطف الله به إذ حصل له الزجر

---

[1] أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم بن زيان بن يوسف بن سومران بن حفص بن الحسن، يعتلي نسبه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهائها في زمانه، ومدرسيها العباد الزهاد، أحكم كتاب "الإحياء" للغزالي وضبط مسائله، فكان يستحسنه ويثني عليه، وكان رحمه الله متعبدا عالما زاهدا في الدنيا، (ت559 هـ / 1164 م)، انظر ترجمته في: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، (ص112).

[2] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 112).

[3] ساقط من (أ) و(ب).

[4] هذه الأبيات من البحر البسيط، وقائلها مجهول، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 112).

[5] لم أقف على ترجمته.

الموجب لتوبته في دنياه ولم يمهل لمعاده"[1]، اللهم انفعنا ببركة أوليائك واحشرنا في زمرة أصفيائك، ولا تطردنا بفضلك عن بابك، وباب الله تعالى أولياؤه وفي ذلك يقال:

عـبـاد الله سـادات كـرام لـهم في الخير إن لاح انبعاث

علامتـهم نـحـول واصـفـرار وإخـبـات وإطـمـار رثـاث

فـهم للناس في الدنـيا أمـان من الأمـر المخوف وهم غياث

أبـانـوا صـحبة الدنيا وقـالـوا طـلاقـك فـي شـريـعتـنا ثـلاث[2]

[فصل فيما ورد عن مشايخ السلف في كرامات أبي مدين الغوث]

روي أنه كان في عصره إمام الزهاد والعباد وخاصة الخاصة من فضلاء العباد، فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل، وارتقى فيها إلى غاية ما يوصل.

قال صاحب الرياض:" سمعت عنه رضي الله عنه أنه قرأ حتى انتهى إلى سورة الملك، فظهرت له معالم العلى وتحلى من مواهب الله بأجمل حلى، فكانت تلك السورة سورة منتهاه وغاية مرماه، قال: أخبرني بعض المشايخ رضي الله عنهم أن الشيخين الفاضلين أبا علي المسيلي[3] وأبا عبد الحق الإشبيلي[4] رحمهما الله سمعا أنه يأتي من العلم بفنون وأنه اطلع من علم الله على سره

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 121).

[2] هذه الأبيات من البحر البسيط، وقائلها مجهول، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 112).

[3] حسين أبو علي بن محمد بن سلمون المسيلي، فقيه مالكي من أهل المسيلة، هاجر إلى قرطبة فولاه سليمان بن حكم الشورى بها، توفي بقرطبة، (ت 431 هـ / 1040م)، انظر: "موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين"، من إعداد مجموعة من الأساتذة، (557/2).

[4] أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد الأزدي الأندلسي الإشبيلي المعروف في زمانه بابن الخراط، فقيه أندلسي، سكن مدينة بجاية وقت الفتنة التي زالت فيها الدولة اللمتونية بالدولة المؤمنية فنشر بها علمه،=

المكنون مع أنه لم ينته بالقراءة إلا إلى السورة المذكورة، فكانا يتعجبان وكاد أن يحيلان ما عنه يسمعان، فاتفق رأيهما على الإجتماع به والاطلاع على ما عنده، فسارا إليه حتى وجداه بأحد المسجدين الذين كان يجلس فيهما مع بعض خواص أصحابه، فدخلا عليه فألفياه يفيض في أمور وتستخرج الدرر من قيعان البحور، فجلسا حتى فرغ من كلامه ورجع إلى ما يخص من مرامه، فسلما عليه وسلم عليهما ولم يكن لهما رؤية به قبل، فقال لهما: أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو علي المسيلي، فقالا: نعم، فكان هذا من جملة كراماته، ويحتمل أن يقال أن هذا مما تقرر له من رسم الصفة، فسألاه حيث انتهى بدراسته وأنهما سمعا عنه أنه انتهى عنه بدراسته إلى سورة تبارك الملك، وأنه لم يزد عليها، فأجابهما رَحِمَهُ اللَّهُ قال: نعم، كانت سورتي ومنتهى سدرتي، ولو تعديتها لحرقتني سبحات الوجه الكريم، ثم التفت إليهما بنزعة صوفية مشيرا عن يمينه ويساره [وهو يقول] [1]: في قل وعلي دل، فأنا الكل، فانفصلا عنه وقد تأكد العلم عندهما بأن لله سبحانه مواهب لا تسعها المكاسب وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء" [2]. وقال أيضا: " أخبرني بعض الطلبة وقع بينهم نزاع في بعض الأحاديث المروية عن النبيﷺ وهو قوله ﷺ: « إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة»[3]، فتردد الكلام بينهم في أن مؤمنين استحقا الجنة وبقي الناس أجمع دون شيء، فساروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين[4] رَحِمَهُ اللَّهُ

=وصنف التصانيف ، واشتهر اسمه ، له كتاب "الأحكام الصغري"، (ت 581 هـ / 1185م)، انظر: "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (41/1).

[1] ساقط من (ب).

[2] "شيخ الشيوخ في الأمصار أبو مدين الغوث" لأحمد فريد المزيدي، (ص13).

[3] "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين الألوسي، باب: سورة الفجر: الآيات 1 إلى 30 ، (347/15).

[4] أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري والمعروف باسم سيدي بومدين أو أبو مدين التلمساني ويلقب بشيخ الشيوخ ولقبه ابن عربي بمعلم المعلمين، فقيه ومتصوف وشاعر أندلسي، يعد مؤسس أحد أهم مدارس التصوف في بلاد المغرب العربي والأندلس، تعلم في إشبيلية وفاس وقضى أغلب حياته في بجاية وكثر أتباعه هناك واشتهر أمره، فوشى به البعض عند يعقوب المنصور الموحدي بمراكش، فبعث إليه الخليفة للقدوم عليه لينظر في مزاعم حول خطورته على الدولة الموحدية، وفي طريقه مرض وتوفي نواحي تلمسان، وبنى سلاطين بني مرين بضريحه مسجداً ومدرسة، ولأبي مدين شعيب مؤلفات=

ليطلعوا على ما عنده في المسألة، فلما استقر بهم المجلس، وكان حديثه في ذلك المجلس على " رسالة القشيري" رحمه الله تعالى، ترك كلامه الذي كان يحدث فيه، وقال:" نزيل الإشكال عن أصحابنا عن أصحابنا، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة »، أراد ﷺ نصف جنته، لأن كل مؤمن له جنة تخصه، وما كان يستحقه إذا مات نصف جنته، وإذا كان بعد الحشر يعطى النصف الثاني من جنته، فبعد البعث تكمل له جنته، وفي القبر يعطى نصف جنته، والمعنى أنه يكشف له في القبر عن مقعده في الجنة، وأنه يتنعم برؤيته، وأن أرواح المؤمنين تسرح في الجنة[1].

وفي هذه المسألة من العلم ما لا ينتهي إلى حقيقته إلا أهل الصفا خاصة أولياؤه، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وسعة جوده، وهذه إحدى كراماته رضي الله عنه حيث أخبرهم لما أتوا إليه قبل أن يستخبروه.

وقال الغبريني: " أخبرني شيخنا أبو محمد عبد الحق بن ربيع[2] عن أبيه الفقيه أبي الزهر ربيع[3] رحمه الله تعالى، أن والده أبا الزهر كان كاتبا لبعض الولاة ببجاية[4] واكتسب معه مالا ثم رأى رؤيا هالته، وهي أن القيامة قد قامت وأنه يساق ليقذف به في النار، وأنه سأله عن السبب فقيل له: بسبب ما اكتسبت من المال، فسأل واستغاث فخلي عنه، فتاب إلى الله سبحانه وخلع

=كثيرة في التصوف، وديوان في الشعر الصوفي، (ت594 هـ/ 1198 م)، انظر: "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (22/1).

[1] "شيخ الشيوخ في الأمصار أبو مدين الغوث" لأحمد فريد المزيدي، (ص 30).

[2] عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري، أبو محمد: فقيه مالكي، صوفي، من أهل بجاية، وأصله من أبدة بالأندلس، وجده عمر هو الذي دخل بجاية مستوطنا، (ت 675 هـ / 1285 م)، انظر: "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (57/1).

[3] ليس له ترجمة واضحة، وذكره الغبريني في كتابه عنوان الدراية، فهو إمام وشيخ وعالم جليل وله أحوال ومقامات، ولما اشتهر ذكره، طلبه خلفاء عبد المؤمن بمراكش وكتبوا لوالي بجاية أن يرسله، فحز على أصحابه فراقه، فأخبرهم رحمه الله أن منيته ستكون في غير هذه البلدة، فتوفي الطريق على مقربة من تلمسان ودفن هناك، انظر: "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (26/1).

[4] مدينة بجاية، هي مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، انظر: معجم البلدان"، (339/1).

نفسه من الكتابة، واشتغل بملازمة العبادة ولزوم القراءة، وجعل حرفته الخياطة للمعيشة فلم تكفه فضاق حاله، فمشى يوما إلى والدته فأخبرها بضيق حاله، فقالت له: يا بني والله ما عندي شيء ولا أعلم لك نفعا سوى هذا الرسم، وهو رسم دار كانت لها واغتصبها الموارقة عند دخولهم بجاية واستمر الغصب عليها، فخذه واطلب الدار فهي لك، قال: فأخذت الرسم ومشيت به إلى الفقهاء واستفتيتهم فيه، فأفتوني بجواز الطلب وأن الحق لمستحقه وجب، فعرضتها على الشيخ أبي مدين فقال لي رحمه الله: " استفت ربك سبحانه يفتك، وكان هذا وهو ينتظر صلاة الصبح، فأقام المؤذن الصلاة فتعلقت نفسي بالفتيا، فلما كنت في الركعة الثانية من الصلاة عرض لي شبه السنة فرأيت مرجا مخضر الجناب رائق الجلباب وفي وسطه بركة ماء كالماء اللجين، وفي ذلك المرج طاووس لم أر في طواويس الدنيا مثله، وإذا به يخاطبني بلسان فصيح ونطق بين صريح: اطلب حقا واجبا، اطلب حقا واجبا، فأتممت الصلاة وجلست بمجلسه المبارك لسماع الذكر، فلما فرغ منه وانصرف الناس عنه، أقبل علي وقال: أفتاك ربك؟، قلت له: أفتاني يا سيدي، وفي هذا عدة كرامات إحداها إحالته على فتيا ربه سبحانه، والثانية صدر الفتيا له، والثالثة إخباره له بأن ربه سبحانه أفتاه وأطلعه على ذلك، فكراماته لا تحصى كثرة[1].

قال التادلي: " ذكر الشيخ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري[2]، وكان ممن أدركه وأخذ عليه وانتفع به، قال: " كان الشيخ أبو مدين رحمه الله زاهدا فاضلا عارفا بالله سبحانه قد خاض من الأحوال بحارا ونال من المعارف أسرارا وخصوصا مقام التوكل فإنه لا يشق فيه غباره ولا تجهل

[1] "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (28/1).

[2] فقيه علامة من أهل سبتة، صحب أبا يعزى وأبا مدين وابن غالب، ورحل إلى المشرق فلقي العلماء والفضلاء، وقدم مراكش واستشهد في وقع العقاب، (ت 609 هـ / 1212م)، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 281).

آثاره، وكان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى، حتى ختم الله تعالى بذلك، ولقد أخبرني من أثق به ممن شاهد وفاته، قال رأيته عند آخر ما يقول: الله"[1].

قال صاحب الرياض: " حدثني أبو علي حسين بن محمد الطواف [2] وكان من أصحاب الشيخ أبي مدين، وكان قد لازمه نحوا من ثلاثين سنة ولم يفارقه حتى مات، قال: " سمعت الشيخ أبا مدين يقول: كنت بقطنيانة [3] فأردت التخلي عن الدنيا، فسرت قاصدا نحو المغرب، فلما رحلت ثلاثة مراحل لاحت لي كدية على شاطئ البحر وإذا عليها خيمة، فتوجهت نحوها فخرج منها شيخ وقصدني، فإذا هو عليه من اللباس إلا ما يستر عورته، فجعل ينظر إلي وهو يظنني أسيرا فررت من أرض الروم، فسألني فأخبرته، فأخذ حبلا وربط فيه مسمارا ورمى به في البحر، فأخرج حوتا وشواه لي فأكلته، فأقمت عنده ثلاثة أيام، فكلما جئت رمى بالحبل والمسمار في البحر فيخرج حوتا فيشويه لي فآكله، ثم قال لي بعد الثلاثة: أراك تروم أمرا، فارجع إلى الحاضرة فإن الله سبحانه لا يعبد إلا بالعلم، فرجعت إلى إشبيلية من جزيرة الأندلس، ثم ذهبت إلى شريش[4]، ومن شريش إلى الجزيرة الخضراء[5]، ثم عبرت البحر إلى سبتة، وذهبت إلى فاس فلقيت بها المشايخ، فسمعت " رعاية "[6] المحاسبي عن أبي الحسن بن حرزهم، وسمعت كتاب

---

[1] "شيخ الشيوخ في الأمصار أبو مدين الغوث" لأحمد فريد المزيدي، (ص 41).

[2] لم أقف على ترجمته.

[3] حصن قديم ذكره الإدريسي، وكان يقع في الطريق الرابطة بين قرطبة وإشبيلية، وبه ولد الشيخ أبي مدين الغوث رحمه الله، انظر: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي، (573/2).

[4] هي بلدية بمقاطعة قادس من منطقة الأندلس حاليا، وهي مدينة كبيرة ذات حصون وأسوار، انظر: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي، (340/3).

[5] هي إحدى بلديات مقاطعة قادس حاليا، التي تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا وعلى بعد 20 كيلومتر من الشمال الشرقي لمدينة طريفا، وهي من المدن القديمة، انظر: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي، (527/2).

[6] كتاب "الرعاية" في التصوف للشيخ الحارث بن أسد المحاسبي، انظر: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة، (1420/2).

"السنن" لأبي عيسى الترمذي على ابن غالب[1]، وأخذت طريق التصوف عن أبي عبد الله الدقاق[2]، وأبي الحسن السلاوي[3]، فكنت أقيم بفاس وآخذ آية من القرآن وحديثا فأخرج إلى موضع خال بجبل متصل بالساحل، فإذا فتح لي بالعمل بالآية والحديث عدت إلى فاس، فآخذ آية وحديثا كذلك فأعمل عليها، وكان الموضع الذي آوي إليه في الجبل عمرانا طرا عليه الخراب، فلم يبق من بنيانه شيء قائم إلا مقصورة المسجد، فكنت إذا قعدت فيها تأوي إلي غزالة كانت عند أهل ذلك المكان فرحلوا عنها وبقيت تأنس بالمكان، وكانت تأوي إلي كلما جئت إلى ذلك المكان، فتشم من قرني إلى قدمي ثم تربض أمامي، فذهبت يوم خميس إلى فاس وبت فيها ليلة الجمعة، فلقيت رجلا من الأندلس أعرفه فسألت أبا عبد الله بن أبي حاج عن ثوب كان عنده، فقال لي: ما تريد به؟، فقلت: أريد أن يباع ويدفع ثمنه لهذا الرجل ويكون ذلك ضيافته، فقال لي: خذ عشرة دراهم وادفعها له، فأخذتها وطلبت الرجل فلم أجده، فصررت الدراهم في صرة وجعلتها في مئزر، وخرجت إلى الجبل فمررت بقرية على طريقي فيها كلاب كثيرة، وكنت قبل ذلك إذا مررت بها تبصبص إلي كلابها وتدور بي، فلما قربت من تلك القرية ومعي الدراهم أنكرتني كلابها ونبحتني وما كدت أتخلص منها إلا بأهل القرية، فلما وصلت مكان خلوتي من الجبل أتتني الغزالة فشمتني ثم تنحت عني وجعلت تنظر إلي نظرا منكرا، ثم نطحتني مرة ثانية وثالثة بقرنيها، وكنت أتقي قرنيها بيدي، فتفكرت في سبب ذلك وفي إنكار

---

[1] أبو الحسن علي بن خلف بن غالب الأنصاري، وقيل القرشي الأندلسي، ولد بقرطبة، انتقل الشيخ أبو الحسن إلى مدينة فاس فاتخذها قرارا ومسكنا، فأصبح من كبار فقهائها وعلمائها، وذاع صيته في الآفاق، وأصبح مقصودا من طلاب العلوم والمعرفة، وبقي سنين ينشر العلم والصلاح، ثم انتقل بعد ذلك إلى القصر الكبير، واستقر به بقية حياته، وأصبح يعمل على نشر العلوم والمعارف، واستفاد من علمه وسلوكه خلق كثير من أهل القصر الكبير، وقد تولى الخطبة في الجامع الأعظم، ولا تزال بقايا داره بجانب المسجد المذكور، (ت 568 هـ / 1173م)، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 152).

[2] من أهل سلجماسة، وكان رحمه الله يتردد إلى مدينة فاس، وهو من كبار الصوفية وأحد مشايخ أبي مدين الغوث ومن أصحاب أبي عبد الله الأصم وأبي عمرو التلمساني، انظر ترجمته في: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 156).

[3] من شيوخ أبي مدين الغوث في التصوف، ولم أقف على ترجمته.

كلاب القرية فعلمت أنه من أجل الدراهم التي صررتها في مئزري، فنزعتها ورميت بها ناحية، فلما فعلت ذلك نظرت إلي نظرا لينا وربضت أمامي على عادتها، فبت في ذلك المكان، فلما أصبحت أخذت الصرة وحملتها إلى فاس فوجدت الرجل الذي أعددتها لضيافته فدفعتها له، ثم رجعت إلى الجبل على عادتي فمررت على القرية ذات الكلاب فبصبصت إلي كلابها ولم تنبحني، فلما بلغت موضعي من الجبل جاءتني الغزالة فشمت من قرني إلى قدمي ثم ربضت أمامي على عادتها "[1].

قال أبو محمد بن عبد السلام التونسي [2]: " أخبرنا الشيخ أبو مدين رحمه الله أنه بلغه عن رجل اسمه موسى أنه كان يمشي على الماء، فكان يأتيه كل يوم عند انصداع الفجر فيسأله عن مسائل لا يفهمها الناس، قال أبو مدين: فوقع في نفسي أن الرجل الذي يأتيني كل غداة فيسألني هو موسى الذي بلغني عنه من ظهور الكرامات ما بلغني، فطال علي الليل فلما انصدع الفجر قرع الباب قارع فخرجت إليه، فإذا هو الرجل الذي يأتيني، فسألني عن مسألة فأجبته، ثم قلت له: أنت موسى؟، فقال: نعم، وكان يختلف إلي في أكثر الأوقات، فجاءني ومعه رجل آخر، فقال لي: كنت قد صليت أنا وصاحبي هذا ببغداد صلاة الصبح ثم أتينا مكة فوجدناهم يصلون تلك الصلاة فأعدنا معهم وقمنا بمكة حتى صلينا الظهر، ثم أتينا بيت المقدس فوجدنا أهله يصلون الظهر فقال لي صاحبي هذا: نعيد معهم، فقلت: لا نعيد، فقال: لأي شيء أعدنا بمكة ولا نعيدها هنا؟، فقلت له: هكذا أدركت شيخي يفعل وبهذا أمرني، فاختلفنا، فجئنا نسألك، فقلت له: الصواب معك، فقال لي صاحبه: كيف ذلك؟، فقلت له: لأنكما صليتما ببغداد على علم

---

[1] انظر: "المعزى في مناقب سيدي أبي يعزى" للشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي، (ص 108- 109 - 110).

[2] إمام زاهد، أصله من تونس، صحب عمه عبد العزيز التونسي بأغمات، فلما مات بها عمه نزل إلى تلمسان وبها توفي، انظر ترجمته في : "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 110).

اليقين، وصلاتكما بمكة عين اليقين، وصلاتكما على اليقين أولى من علم اليقين، وأيضا فإن مكة أم القرى، وما صلي في الأمهات لا يعاد في البنات، فقنعا بذلك وانصرفا "[1].

قال صاحب عنوان " الدراية ": " رأيت من كلام أبي مدين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: " طالعت أخبار الأولياء من عهد أويس القرني[2] إلى زمننا، فما رأيت شيخا كالشيخ أبي يعزى[3]، وطالعت كتب التذكير فما رأيت فيها كالإحياء للإمام الغزالي رحمه الله "[4].

قال الشيخ محيي الدين أبو بكر بن العربي[5]: " إن الشيخ أبا مدين رَحِمَهُ اللَّهُ لم يمت حتى تقطب قبل موته بثلاث ساعات، والقطبانية للعارف هي منتهى مآله وغاية آماله "[6].

قال التادلي:" سمعت أبا علي الصواف[7] يقول: سمعت أبا مدين يقول: الملتفت إلى الكرامة كعابد وثن، فإنه إنما يصلي ليؤتى الكرامة"[8]. ومعنى كلامه أن الصديقين لا ينبغي لهم أن

---

[1] "المعزى في مناقب سيدي أبي يعزى" للشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي، (ص124).

[2] أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد: أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد علي عُمَر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، (ت 37 هـ / 657 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أويس القرني، (32/2).

[3] يَلَنُّور بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري (من هزميرة ايرجان) وقيل: هو من بني صبيح من هشكورة، دفين قرية تاغيا من بلاد مغراوة، المعروف بأبي يعزى: أحد الزهاد المشتهرين في المغرب، أخذ العلم عن جمع كثير من العلماء منهم الشيخ أبوشعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الزموري، الملقب بالسارية، وممن تتلمذ عنه الشيخ سيدي أبي مدين الغوث، (ت 572 هـ- 1176 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن أبي اليمان، (208/8)

[4] "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (23/1).

[5] محمد بن علي بن محمد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم، ولد في مرسية (بالأندلس) وانتقل إلى إشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية – ط)، (ت 638 هـ / 1240م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن العربي، (281/6).

[6] "عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة" لأبي العباس الغبريني، (23/1).

[7] أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصواف، كان من أصحاب أبي مدين الغوث رحمه الله وصحبه نحو ثلاثين سنة ولم يفارقه إلا بالموت، انظر: "شيخ الشيوخ في الأمصار أبو مدين الغوث" لأحمد فريد المزيدي، (ص256).

[8] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 216).

يكون قصدهم بالطاعة نيل الكرامات، بل المطلوب منهم إخلاص عباداتهم لخالقهم سبحانه بحيث لا يبغون بها عوضا ولا غرضا من الأغراض، إن أكرمهم الله سبحانه بكرامات أوليائه حمدوا الله سبحانه على ذلك، لأنها علامة على استقامتهم، فيرون المنة لله سبحانه ويتبرؤون من رؤية أنفسهم ومن حولهم وقوتهم، ويحتقرون أنفسهم ويرون أنها ليست بأهل للكرامة لولا تفضل المولى سبحانه عليهم، وأعظم الكرامات الاستقامة على منهاج الكتاب والسنة وما درج عليه سلف هذه الأمة.

قال ابن عباد[1]: " كل ما ظهر للعبد من الكرامات فإنه لا ينبغي له أن يسكن إليه ولا أن يعول عليه، فإن ذلك من المصائب القادحة في عبوديته"[2]، ولهذا قالوا كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك تطلب منك الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة، وتشوفك بما يطالبك به مولاك أولى من تشوفك بما تطالبك به نفسك وهواك.

ولذلك قال ابن عطاء الله في "الحكم": " تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب "[3].

قال القشيري في" رسالته ": " ظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله"[4].

---

[1] محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزي الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد، متصوف باحث، من أهل " رندة " بالأندلس، تنقل بين فارس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر خطيبا للقرويين بفاس وتوفي بها، له كتب منها " الرسائل الكبرى – ط " في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات، (ت 792 هـ / 1390 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: ابن عباد، (299/5).

[2] لم أقف عليه.

[3] "شرح الحكم العطائية" المسمى الهدى للإنسان إلى الكريم المنان، لنور الدين سيدي علي البيومي، (ص66).

[4] "الرسالة القشيرية" لعبد الكريم بن هوازن القشيري، (520/2).

وذكر عن شيخه وجوب ستر الكرامة وإخفاؤها، وأن الولي لا يدعيها ولا يقطع بكونها كرامة لجواز أن يكون ذلك مكرا واستدراجا، ثم قال: "واعلم لأنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر ولا ملاحظة، وربما يكون لهم جنسها قوة يقين لعلمهم أن ذلك من فعل الله سبحانه فيستدلون بذلك على صحة ما هم عليه من العقائد"[1]. ثم قال: "وكل كرامة للولي فإنها معجزة لنبيه، إذا لو لم يكن ذلك الرسول صادقا لم تظهر على من تبعه كرامة، وكل من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة"[2]. ثم قال:" والكرامات أنواع: فقد تكون إجابة دعاء، أو ظهور طعام في أوقات فاقة، أو ماء في وقت عطش، أو تسهيل قطع المسافة الطويلة في مدة قصيرة، أو تخليصا من عدو، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة "[3].

واعلم أن من أجل الكرامات للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة من المعاصي والمخالفات، قال أبو الحسن الشاذلي[4] رحمه الله تعالى: " وفائدة الكرامة تعرف الله إليك بإظهار الخارق على يديك، فشتان ما بين من تعرف الله إليه بنوره، ومن تعرف إلى الله بفعله، ومن أجل أنها تثبيت لمن ظهرت له، إذ ربما وجدها أهل البدايات وفقدها أهل النهايات بسبب ما هم عليه من الرسوخ واليقين والقوة والتمكين، فلا يحتاجون مع ذلك إلى مثبت، كما لا تحتاج الجبال إلى مرساة، فالكرامات رافعة لزلزلة الشك فضلا من الله سبحانه "[5].

---

[1] "الرسالة القشيرية" لعبد الكريم بن هوازن القشيري، (522/2).

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي، أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة " حزب الشاذلي – ط "، ولد في بلاد " غمارة " بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن " شاذلة " قرب تونس فنسب إليها، وطلب " الكيمياء " في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحجّ ودخل العراق ثم سكن الإسكندرية وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج، (ت656 هـ / 1258 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: أبو الحسن الشاذلي، (305/4).

[5] "جامع كرامات الأولياء" ليوسف بن إسماعيل النبهاني، (38/1).

واعلم نور الله سري وسرك بأنوار العرفان، ومن علينا وعليك بزيادة الزلفى والإحسان أن الكلام في كرامات الأولياء رحب المجال، واسع المنوال، لأنها سبب الفتح لأبواب الخيرات والتقريب إلى حضرة رب البريات، فأول ما يجدون من الفتوحات فتح أبواب المجاهدات، فيتوصلون بفتح البدايات إلى فتح خزائن النهايات بمفتاح الهدايات كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [1]. فأول الأمر مجاهدة وآخره مشاهدة، وأول الأمر شوق وآخره ذوق، وأول الأمر عناء وآخره فناء، واعلم أن أصل كل فتح ونجاح تصديق أصفياء الله من أنبيائه وأوليائه، وتعظيمهم وحبهم وتبجيلهم كما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « بجلوا المشايخ، فإن تبجيلهم من تعظيم جلال الله »[2]، وكما يؤيده ما روى الشيخان من حديث عروة بن مسعود الثقفي لما نظر إلى تعظيم أصحاب النبي ﷺ النبي، جعل يرفقهم بعينه فقال: « فو الله ما تنخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وما يحدون النظر إليه تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف واحد منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها»[3].

---

[1] العنكبوت: 69.

[2] انظر : "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" لعلاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الشهير بالمتقي الهندي، باب: التعظيم والقيام، رقم: 25503، (156/9)، وأخرجه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة"، رقم:824، (226/2)، وقال: ح م.

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: 2731، (193/3).

وكان مالك رحمه الله إذا خرج من بيته احتوشه الناس من كل جانب، فيزدحمون عليه حتى أنه ربما مات الرجل من شدة الزحام، وما ذلك إلا لرغبتهم في الخير وتعظيمهم لدين الله، وإجلالهم لمن انتسب إلى العلم والدين، ووجدوا عظمة الله في سويداء قلوبهم، فأثمر ذلك تعظيم المنتسبين إلى الله تعالى وإقبالهم عليه بالكلية، فنفعوا وانتفعوا كما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « على قدر التعظيم تكون البركة »[1]، وفي رواية أخرى: « لو اعتقدتم في هذا الحجر لانتفعتم به»[2].

يروى أن رجلا من أهل العراق أتى زائرا للروضة الشريفة، فلما كشف له عنها سقط إجلالا لساكنها عليه الصلاة والسلام.

وأخرج البيهقي أن رجلا من الحبشة أتى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، إن الله قد فضلكم علينا بالنبوة والكتاب، وحسن التخطيط واللون والمنطق، فهل إن أسلمنا وصدقنا بما جاء عن الله تعالى، وعبدنا الله كما عبدتموه أن نكون مثلكم في الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم، فقال له رسول الله ﷺ: « إي والله، إن لكم لمثل الذي لنا »، فلما سمع ذلك من النبي شهق شهقة واحدة خرجت منها روحه، فقال النبي ﷺ: « طوبى لهذا الأسود، فإن الله يبعثه يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإني لأرى الآن أبواب السماء وقد فتحت له، وأرى الملائكة قد أقبلت من جميع أبوابها اعتناء بروحه وحضور جنازته »، فلما قضى من غسله وكفنه، جاء النبي ﷺ ليصلي عليه، فرأيناه عليه الصلاة والسلام أقبل بوجهه عليه ثم التفت عنه، فسألناه عن سبب التفاته، قال: « ألتفت لأن زوجته من الحور العين أتته فقبلته، ودخلت بين أكفانه، فالتفت حياء من ذلك » [3]، وقد قال النبي ﷺ: « الولي في قومه كالنبي في أمته »[4]، فكل ما يجب للنبي

---

[1] لم أقف عليه.

[2] لم أقف عليه.

[3] لم أقف عليه في متون الحديث.

[4] "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، (83/1)، وذكره العراقي في تخريج الإحياء، (98/1)، وقال:سنده ضعيف.

على أمته من التبجيل والتعظيم يجب للولي على أصحابه وعلى أهل زمانه، ممن له رغبة في دين الله وله ذوق من معارف الله.

ولما بلغ بعض المشايخ طعن الروافض وأهل الأهواء وبعض غلاة المتكلمين في أولياء الله وكراماتهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إنكار بعض المعجزات الواردة عن رسول الله ﷺ كانشقاق القمر الوارد بالنص، وحنين الجذع وكلام الشجر والحجر، قال مكذب لهم ومحتجا عليهم بالنصوص التي لا ينكرها إلا كافر مكابر:

لا تسترب بكرامات يخص بها ... من اتقى الله في سر وإعلان

فاصغ سماعا لما تروي أئمتنا ... عمن مضى من ذوي الأقدار والشأن

وأمر مريم يكفي المستدل به ... في شأن محرابها بآل عمران

وفتية الكهف في إيقاظهم عجب ... بعد المئين كما تتلوا بحسبان

وعرش بلقيس في إيصاله عبر ... ما بين سرعة جني وإنسان

جاءت به قدرة الرحمان في زمن ... حتى استقر بمرءا من سليمان

علم الكتاب وأعمال بموجبه ... أعاد آصف ذا قول وإيقان

كانت مسارعة الجني سابقة ... فاحرز السبق هذا العالم الثان

وكم دليل بأقوال رسول لنا ... فيها وكم حجة فيها وبرهان

ثم الكرامة أنواع إذا نظرت ... كالزهر في حسن أنفاس وألوان

مشى على الماء أو في الجوقد نقلا ... وشبع ذي سغب أو ري ظمآن

وكم أجيب ولي حيت دعوته ... وكم أغيث ولي دون إذعان

وفيهم من يجيبه الجماد ومن يغيب عن درك أسماع وأجفان

ومنهم من يرى المجتاز من ملك ومن يجالسهم في حال إخوان

وكم لهم من مقامات مكرمة هذا الذي قلته منها كعنوان

صفوا فصفوا ونالوا ضعف سعيهم والمرء يكسب إحسانا بإحسان

في عيش أرواحهم ماتت نفوسهم وقد تموت نفوسا دون أبدان

فافعل كفعلهم تقرب كقربهم والفضل عمه في القاص وفي الدان

فإن عجزت عن الجد الذي لهم فاصمت فليس مجد القوم كألوان[1]

[فصل فيما ورد عن الخضر رضي الله عنه ونفعنا ببركاته]

قال التادلي:" خرج أبوبكر المطوعي[2] عن أحمد بن محمد العبداني[3]، قال: بينما أنا جالس في بيت المقدس عند باب سليمان عليه السلام في يوم جمعة بعد العصر إذ أقبل شيخان جليلان ، أحدهما يشبه خلقه خلقنا، والآخر عظيم الخلق، عظيم الجبهة وفيها أثر ضربة، فسلما علي وجلس الذي يشبهنا إلى جنبي، وجلس الآخر جانبا، فقلت للذي جلس إلى جنبي: ممن أنت يرحمك الله؟، قال: أنا الخضر، لا بأس عليك، لولا أنا نحبك ما جئناك، قلت له: كما آنستني آنسك الله بقربه، ثم قلت له: أكل ولي لله في الأرض تعرفه؟، قال: أما المعدودون فنعم، وقلت له: فما المعدودون؟، قال لي: اعلم أنه لما قبض رسول الله ﷺ بكت الأرض بفقده،

[1] من البحر البسيط، وصاحبها مجهول، "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 54).

[2] أبي بكر محمد بن علي بن محمد بن عمر المطّوعي الغازي النيسابوري، وليس له ترجمة كاملة، ذكره أبي يعقوب التادلي، (كان حيا في سنة 435هـ / 1044 م)، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 61).

[3] لم اقف على ترجمته.

فسألها تعالى عن سبب بكائها وهو أعلم، فقالت: إلهي وسيدي، بقيت لا يمشي على ظهري نبي إلى يوم القيامة، فأوحى الله تعالى إليها: سأجعل على ظهرك من هذه الأمة من قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، لا أخليك منهم إلى يوم القيامة، قلت: فكم عددهم؟، قال: فعددهم ثلاثمائة وهم النجباء، وسبعون وهم النقباء، وأربعون وهم البدلاء، وعشرة وهم الأخيار، وسبعة وهم الأوتاد، وثلاثة وهم المختارون، وواحد وهو الغوث، فإذا مات الغوث نقل من الثلاثة واحد فجعل الغوث، ونقل من السبعة إلى الثلاثة، ومن العشرة إلى السبعة، ومن الأربعين إلى العشرة، ومن السبعين إلى الأربعين، ومن الثلاثمائة إلى السبعين، ومن سائر الخلق إلى الثلاثمائة، وهكذا يدور دولب الولاية حتى ينفخ في الصور، فمنهم من يكون قلبه مثل قلب موسى، ومنهم من يكون قلبه مثل قلب نوح عليه السلام، ومنهم من قلبه مثل قلب إبراهيم عليه السلام، فقلت: إبراهيم، تعظيما له، قال: نعم، وقلب داود وسليمان وأيوب وعيسى بن مريم عليهم السلام، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [1]، وما من نبي إلا وعلى طريقته رجل يسلكها من هذه الأمة إلى يوم القيامة، فلو اطلع الأربعون على قلوب العشرة لرأوا قتلهم ودماءهم حلالا، وكذلك لو اطلع السبعون على قلوب الأربعين لرأوا قتلهم ودماءهم حلالا، أما بلغك ما كان بيني وبين موسى عليه السلام؟، قلت له: فأي شيء طعامك؟، قال: أما أنا فطعامي الكرفس والكمأة، وأما أخي إلياس فرغيفان في كل يوم، قلت: فأين مقامك؟، قال: في جزائر البحر، قلت: فهل تجتمعان؟، قال: نعم، إذا مات أحد من المعدودين اجتمعنا فتوليناه، ونجتمع من موسم إلى موسم، فيأخذ من شعري وآخذ من شعره، فلما قام قمت معه، فقال لي: إلى أين؟، قلت: أصحبك، فقال: ما إلى ذلك من سبيل، قلت: فأين تصلي؟، قال: وما تريد من ذلك؟، قلت، أتبرك بموضع صلاتك، قال: أما أنا فأصلي الصبح في حجر الكعبة، وأجلس حتى يرتفع النهار، فأطوف بالكعبة سبعا، وأصلي ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام، وأصلي الظهر بمدينة الرسول عليه السلام، وأصلي العصر هاهنا ببيت المقدس، وأصلي المغرب على جبل

[1] الأنعام: 90.

الطور، وأصلي العشاء الأخيرة بسد ذي القرنين أحرس المسلمين، وأسير فأصلي الصبح بمكة، ثم غاب عني"[1].

[باب ما ورد عن سكان الجبال والكهوف من أولياء الله تعالى]

استئناسا بقوله ﷺ: « إذا مرت على أمتي خمسمائة عام فقد حلت لها العزلة والغربة والترهب على رؤوس الجبال »[2].

ومن سكان الكهوف إبراهيم بن نصر الكرماني[3] رحمه الله، روي عن أبي بكر المطوعي عن أبي عبد الله أحمد بن مالك السجستاني أنه قال: "سرت في جماعة ومعنا أبو بكر الدمشقي إلى جبل لبنان نلتمس فيه من العباد على وجه التبرك والاعتبار، فسلكنا فيه ثلاثة أيام فما رأينا فيه أحدا، فلما كان اليوم الرابع تألمت رجلي لأني كنت أمشي حافيا، والحال أنا قد علونا ذروة جبل شامخ فإذا فوقه شجرة عظيمة ذات ظل ظليل، فقال لي أصحابي: اجلس في موضعك هذا فإنا نريد الذهاب لعلنا نرى أحدا من سكان الجبل، فمضوا جميعا وبقيت وحدي. فلما جن علي الليل صعدت على الشجرة حتى أصبحت، نزلت ألتمس الوضوء فوجدت الماء قد استقر في بطن الوادي، فتوضأت وقمت أصلي فسمعت صوت قارئ، فلما سمعته ذهبت نحو الصوت، فوجدت كهفا فرميته بحجرين خشية أن يكون فيه سبع، فلم أر شيئا، فدخلت الكهف فإذا فيه شيخ ضرير، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: أجني أنت أم إنسي؟، فقلت: إنسي، فقال: لا إله إلا الله، ما رأيت إنسانا منذ ثلاثين سنة غيرك، ثم قال: لعلك قد تعبت، فاطرح نفسك داخل الكهف، فإذا فيه ثلاثة أقبر، فلما زالت الشمس نادى، فقال: الصلاة رحمك الله، فخرجت إلى العين

---

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 55).

[2] بلفظ آخر، "الترغيب والترهيب" لعبد الله بن أسعد اليافعي،(ص137)، وقال ابن الجوزي في:"الموضوعات"،(19/3): ح م.

[3] إبراهيم بن نصر الكرماني، أحد الزهاد وممن عرف عنه أحوال وكرامات، وقيل أنه أحد الأبدال، وكان يعيش في جبال لبنان، وحكى عنه أبو عبد الله محمد بن مانك السجستاني، انظر: "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (239/7).

فتطهرت وصلينا جماعة، ثم قام فلم يزل يركع حتى دخل وقت العصر، ثم أذن فصلينا العصر، ثم قام يدعوا فسمعت من دعائه: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، ولم يزل ذلك دأبه حتى غابت الشمس، فأذن ولم أر أحدا أعرف بأوقات الصلاة منه، فلما صلى المغرب قلت له: لم أسمع منك من الدعاء إلا هذه الكلمات الثلاث، قال: من قالهن كل يوم ثلاث مرات كتبه الله من الأبدال، فقلت له: من أين لك هذا؟، فقال: لا يحتمل إيمانك أن أخبرك بذلك، فلما صلينا العشاء الأخيرة، قال لي: أتأكل؟، قلت: نعم، قال: ادخل داخلا فكل مما ثمه، فوجدت صخرة كبيرة عليها جوز ناحية، وفستق ناحية، ومن ناحية تفاح يابس، فأكلت منه ما أردت، فلما كان السحر دخل فأكل شيئا يسيرا ثم أوتر فما زال يدعوا فسمعت من دعائه: اللهم من علي بإقبالي عليك، وإصغائي إليك، وإنصاتي بين يديك، والفهم عنك، وبصيرة في أمرك، ونفاذا في خدمتك، وحسن الأدب فيه معاملتك، فلما رفع رأسه قلت له: من أين لك هذا الدعاء؟، قال: ألهمته، ولقد كنت في بعض الأوقات أدعوا به فسمعت هاتفا يقول: إذا دعوت به ففخمه فإنه مستجاب، فلما صلينا قلت له: من أين لك هذه الفاكهة، فإني لم آكل مثلها؟، فقال: ترى ذلك معاينة، فلما كان بعد ساعة دخل الكهف طائر له جناحان أبيضان وصدره أخضر، وفي منقاره حبة زبيب وبين رجليه جوز، فوضع الزبيب على الزبيب والجوز على الجوز، فقال لي: أرأيته؟، قلت: نعم، فقال: إنه منذ ثلاثين سنة يأتيني بها، فقلت له: كم مرة يدخل عليك؟، فقال: سبعا، فلما كان ذلك اليوم عددت دخلاته فإذا هو قد دخل أربع عشرة مرة فقلت له ذلك، فقال: لعله زاد السبعة مراعة لضيافتك، وكان عليه قميص بلا كمين، وميزر يشبه لونه لون الورس، فقلت له: من أين لك هذا؟، فقال: يأتيني به كل سنة هذا الطائر، فلما كان بعد ليال دخل عليه سبعة أنفس أعينهم مشققة إلى الطول ليس فيها دوارة، فسلموا عليه فرد عليهم السلام، ثم قال لي: لا تخف، هؤلاء الجن، فقرأ واحد منهم سورة طه والآخر سورة الفرقان، وتلقى من الثلاث شيئا من سورة الرحمان ثم مضوا، فقلت: كم لك في هذا الجبل؟، فقال: أربعون سنة، عشر سنين منها كنت بصيرا، فكنت في الصيف أجمع من هذه

المباحات إلى هذا الكهف، فلما فقدت بصري بقيت أياما لم أذق شيئا، وجاءني هؤلاء فقالوا: يا هذا نحملك إلى حمص أو دمشق، فقلت: اشتغلوا بما وكلتم به، فلم تك إلا ساعة حتى جاءني هذا الطائر الذي رأيت بتفاحة فطرحها في حجري، فقلت: لا تشغلني، اطرحها ثم إلى وقت الحاجة إليها، ثم قال لي: إن هؤلاء قد أخبروني أن القرمطي[1] قد دخل مكة وقتل بها وفعل وصنع، فقلت له: قد كان ذلك وقد كثر الدعاء عليه، فقال: فلم منع الناس الإجابة فيه؟، فقلت له: لا أدري، فقال لي: إنما منعت منهم الإجابة لعشرة خصال فيهم فكيف تستجاب لهم دعوة، الأولى أنهم أقروا بوحدانية الله تعالى وتركوا أمره، الثانية قالوا نحب رسول الله ﷺ ولم يتبعوا سنته، وقرءوا القرآن ولم يعملوا به، وقالوا نحب الجنة وتركوا طريقها، وقالوا نكره النار وازدحموا طرائقها، ودفنوا أمواتهم ولم يعتبروا بهم، وقالوا إن إبليس لنا عدو ووافقوه واشتغلوا بعيوب إخوانه ونسوا عيوبهم، وجمعوا المال ونسوا الحساب، وبنوا القصور ونسوا القبور، فأقمت عنده أربعة وعشرين يوما في أطيب عيش، فلما كان اليوم الرابع والعشرون، قال لي: كيف وصلت إلى هنا؟، فحدثته بحديثي، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمت أن قصدك هذا لم أتركك تلبث عندي هذه المدة، قد شغلت قلوب عيالك وآلمتهم، ورجوعك إليهم أفضل، فقلت له: إني لا أعرف الطريق فسكت، فلما كان عند طلوع الشمس، قال: قم، فقلت: إلى أين؟، قال: تمضي إلى أهلك، قلت: أوصني، قال: إذا حججت، فأمهل إلى يوم الزيارة، فاطلب عند المقام أو بين المقام وزمزم رجلا أشعريا خفيف العرضين، فأقرئه مني السلام واسأله أن يدعوا لك فإنها فائدة كبيرة إن شاء الله تعالى، فخرجنا من الكهف فإذا سبع قائم، فقال لي: لا تخف منه، وكلمه بكلام لا أفهمه إلا أني أظنه سريانيا، فقال: اذهب خلفه، فإذا وقف فانظر عن يمينك، فإنك تجد

[1] سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي الهجري، أبو طاهر القرمطي، نسبته إلى جنابة من بلاد فارس، اشتهر بغارة شنها على مكة يوم التروية سنة 317 هـ والناس محرمون، ونهب أموال الحجاج وقتل منهم الكثير، قيل بلغ قتلاه في مكة نحو ثلاثين ألفا، واقتلع الحجر الأسود وأرسله إلى هجر مكث فيها عشرون سنة حتى أعاده أبو محمد شنبر بن الحسن إلى موضعه، بعدما بعث إليه أمير الدولة الفاطمية برسالة تهديد شديدة يأمره بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه، فأعادوه إلى مكانه، (ت 332 هـ / 944 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: سليمان القرمطي، (123/3).

الطريق إن شاء الله، فسرت أتبع السبع ساعة أمشي خلفه حتى وقف، فلما وقف نظرت عن يميني فإذا أنا على عقبة دمشق، فدخلت دمشق والناس قد انصرفوا من صلاة العصر، فقالوا: هذا الذي قالوا أنه هلك بالجبل، من يبشر أهل داره، فقمت فمضيت أنا وجماعة فسروا سرورا شديدا فحدثتهم بحديثي، فقال القوم: ما رأينا إلا نصرانيا واحدا، ثم بكروا فخرجنا جماعة فوق الخمسين إلى ذلك الجبل فما رأينا شيئا، فقالوا: كشف له هو ومنعنا نحن، فرجعنا، فكنت أحج وأطلب الرجل الذي وصف لي، فلما كان في سنة ست وعشرين وثلاث مائة وجدت الرجل بين المقام وزمزم جالسا بعد صلاة العصر عليه ثوب شعر وميزر دبيقي، وهو قاعد على منديل وبين يديه كوز نحاس ونعل، فسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت له: إن إبراهيم بن نصر الكرماني يقرئك السلام، فقال: وأين رأيته؟، فقلت: في جبل لبنان، فقال: رحمه الله تعالى قد مات، قلت: متى؟، قال: الساعة دفناه، ودفنا الطائر عند رجليه، ثم قال: قم بنا إلى الطواف، فطفت معه شوطين ثم غاب عني[1]، وفي ذلك يقول:

يا من يشكك جهلا في كرامتهم حقق وصدق فإن القوم قد صدقوا

جدوا وقصرت عن إدراك جدهم والكيس والعجز أمر ليس يتفق

القوم أظمأهم خوف وأرقهم وأذهب الأمن منهم ذلك الفرق[2]

وقال غيره:

[1] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (242/7).

[2] هذه الأبيات من البحر البسيط، صاحبها مجهول، انظر:"التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 73).

ولا تحسبوا أن المعالي رخيصة ولا أن إدراك العلا هين سهل

فما كل من يسعى إلى المجد ناله ولا كل من يهوى العلا نفسه تعلوا [1]

وفي كتاب: " التشوف في ذكر رجال التعفف"، قال مصنفه:" كان أبو زكرياء بن موسى المليجي[2] من أكابر الأولياء، وهو من أشياخ عبد الخالق، يقال أنه من الأبدال، روي عنه أنه كان يحج كل عام في عشر ذي الحجة من الغرب الأقصى، وكان من أصحاب الخطوات، تواتر عنه عجائب الكرامات، حدثوا عنه أن أبا بكر المنادي[3] شكا إليه الجوع في عام مجاعة وكان في أول إبان الحرث، فأمره أن يدخل في الصومعة، فلما دخلها ألقي عليه النوم فلم يستيقظ إلى زمن حصاد الزرع، قال أبو بكر: فانتبهت من نومي وقد نسيت أكثر القرآن وأكل السوس كسائي من الجانب الذي يلي الأرض. وحدثوا عنه أنه لما توجه إلى مكة شرفها الله لأداء فريضة الحج دخل سفينة فمكث فيها أياما، فرأى يوما خدمة السفينة يعملون بالمعاصي فلم يصبر على الإقامة في السفينة، فشمر أثوابه وأخذ متاعه وألقى بنفسه في البحر، فقال صاحب السفينة: أجُن هذا؟، فقالوا له: من يعرفه ذلك حق، فدخل في الماء حتى بلغ إبطيه ثم قال: أيها البحر أنت خلق من خلق الله، وأنا خلق من خلق الله، وقال في دعائه: اللهم إنك تعلم أني ما فررت من مشاهدة معصيتك، فأعني وكن معي، فأحس بشيء يحمله من تحت قدميه كأمثال الأحاريش التي تكون بجوانب البحر، فانحط الماء إلى كعبيه فافتتح قراءة القرآن، فجعل يمشي على ذلك الشيء الذي أحس به تحت قدميه حتى تألمت قدماه من الحفا، وخرج إلى الساحل وقد أجهده الجوع والعطش، فمشى على الساحل حتى وصل الإسكندرية، فإذا به قد سبق السفينة بأيام كثيرة ففاته الحج في ذلك العام، فتوجه إلى الشام وجال فيه حتى دخل مسجدا

---

[1] من البحر الطويل، لابن أبي حصينة، انظر: "المدهش" لأبس الفرج عبد الرحمان بن علي الجوزي، (188/1).

[2] أبو زكرياء يحيى بن موسى المليجي، من أهل قرية مليجة من بلاد رجراجة، يقال أنه من أكابر الأولياء ومن الأبدال وتواترت عنه كرامات، انظر: "تكملة جامع كرامات الأولياء" لمحيي الدين الطعمي، (ص501).

[3] لم أقف على ترجمته.

من مساجد الشام فوجد فيه رجلين فلم يكلمهما ولا كلماه، وكل واحد منهما مقبل على صلاته، فلما صلوا المغرب خرج أحد الرجلين ثم دخل بصحفة فيها ثريد وعليها منديل فاستدعياه للمواكلة فأكل معهما، فلما كان اليوم الثالث وصلوا المغرب نظر أحدهما إلى الآخر، فقال أبو زكرياء: وصلتني النوبة وقد أكلت طعامهما وفرطت، فخرج من المسجد فصلى ركعتين ودعا الله تعالى، وسأله أن لا يفضحه، فالتفت فرأى صحفة كصحفتيهما وعليها منديل، فشكر الله ورفعها إليهما فوضعها بين أيديهما، فقالا له: أنت يحيى بن موسى؟، قال: نعم، فسلما عليه ورحبا به، فأقام معهما أياما، ثم قال لهما: إني أرغب في المقام معكما، ولكني فاتني الحج، وأريد أن أؤدي فريضتي، أحج وأزور النبي ﷺ، فودعاه، فقال له أحدهما: إذا قضيت مناسك الحج، فسر إلى بئر زمزم فإنك تجد على البئر رجلا محتزما أسود يسقي الناس، فخذ بأصبعه الفلانية، فإنها أمارة بيني وبينه. فلما قضى حجه فعل ما أمره به، فقال الرجل الذي وجده على بئر زمزم، هل رأيت فلانا؟، قال له: نعم، فأقبل عليه، فلما صلى معه العتمة، قال له: ما حاجتك؟، قال له: كنت قد دخلت البحر من بلاد المغرب، ثم دخلت الشام، وقد نفد زادي ولا أدري ما أصنع، قال له: من أي البلاد أنت؟، قال له: من المغرب الأقصى، فقال له: من أي بلد منه؟، قال: بلاد رجراجة، فقال له: من أي بلاد منها؟، فقال له: من واد شفشاو، وجعل يكرر شفشاو، ثم قام وتحزم وشد على نفسه بثيابه، وأخذ بعضديه ورفعه من الأرض، فمال به ذات اليمين فوضعه، ثم رفعه ومال به ذات الشمال فوضعه، ثم رفعه فمال به ذات اليمين فوضعه وغاب عنه، فانتظره أن يرجع إليه حتى قرب طلوع الفجر، فنظر فرأى سوادا كسواد الوادي ذي الشجر، فقصد إلى ذلك السواد فإذا هو بالوادي، فلما أبلج الضوء رأى شجر الصفصاف وأنواع الشجر وعاين الجنات، فقال في نفسه: ما أشبه هذا الوادي بواد شفشاو، فأبصر قرية فيها صومعة، فقال: ما أشبه هذه الصومعة بصومعة مليحة، ثم عاين راعي بقر قد خرج به إلى المرعى، فقال له: ما هذا الوادي؟، فقال له: وادي شفشاو، فقال: وما هذه القرية؟، قال: قرية مليحة، فقال له: أتعرف يحيى بن موسى؟، فقال له: هذا بقره، وأنا راعيه، وقد سافر إلى المشرق، فدخل أبو

زكرياء القرية وقصد أهله فسروا به[1]، قال التادلي: " قد سمعت غير واحد من أصحاب أبي زكرياء يحدث بهذه الكرامة، وهي صحيحة متواترة " [2]، قال صاحب الرياض:" وقد قرأتها في بعض مصنفات صلحاء رجراجة وعلمائها "[3].

قال يونس بن محمد [4]: " ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين"[5].

[باب ما جاء في فضل العارفين بالله تعالى يوم القيامة]

روى أبو نعيم من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، نادى مناد من بطنان العرش: أين أهل المعرفة بالله تعالى؟، أين المحسنون؟»، قال: « فيقوم عنق من الناس حتى يقف بين يدي الله تعالى، فيقول وهو أعلم بهم: من أنتم؟، فيقولون: نحن أهل المعرفة بك، الذين عرفتنا إياك وجعلتنا أهلا لذلك، فيقول: صدقتم، ما عليكم من سبيل، ادخلوا الجنة برحمتي»، ثم تبسم رسول الله ﷺ وقال : « لقد نجاهم الله من أهوال يوم القيامة »[6].

قال أبو نعيم: " طرق الحديث كلها مرضية لولا الحارث بن منصور[7] وكثرة وهمه"[8].

---

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 85).

[2] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 184).

[3] لم أقف عليه.

[4] لم أقف على ترجمته.

[5] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 12).

[6] "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" لشمس الدين القرطبي، (827/1).

[7] الحارث بن منصور الواسطي الزاهد، أبو سفيان ويقال أبو منصور، من المحدثين، توفي بين سنتي 211 هـ- 220 هـ، انظر: "تاريخ الإسلام" لشمس الدين الذهبي، (290/5).

[8] "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" لشمس الدين القرطبي، (827/1).

وروى ابن المبارك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الحمادون الله على كل حال، فيقومون ويبرحون إلى الجنة، ثم ينادي ثانية: ستعلمون من أصحاب الكرم، ليقم الذين كانت ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]، قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة، ثم ينادي ثالثة: ستعلمون من أصحاب الكرم، ليقم الذين كانت ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2] الآية، فيقومون فيسرحون إلى الجنة، ثم ينادي مناد: أين عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، فيقومون وكأن وجوههم البدر أو الكوكب الدري ركبانا على نجائب من نور، أزمتها من الياقوت، تطير بهم على رؤوس الخلائق حتى يقوموا عند ساق العرش، يقول الله تعالى: السلام على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم، وأنا اخترتكم، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب، فلا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم الجنة أبوابها، ثم إن الخلائق في الحشر موقوفون، فيقول بعضهم لبعض: يا قوم، أين فلان وفلان؟، فذلك حين يسأل بعضهم بعضا، فينادي مناد: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [3]»[4].

قال القرطبي[5] في "تذكرته" : " هذه رحمة من الله سبحانه لمن أطاع مولاه وجاهد نفسه وهواه وخالف شيطانه ودنياه فكانت الجنة نزله ومثواه، ومن تمادى في غيه وعصيانه وأرخى في

---

[1] السجدة: 16.

[2] النور: 37.

[3] يس: 55.

[4] انظر:"التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" لشمس الدين القرطبي، (827/1).

[5] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، فقيه مفسر عالم باللغة وُلد في مدينة قرطبة، وقد رحل بعد سقوطها إلى الإسكندرية ثم إلى صعيد مصر حيث استقر فيه، كان القرطبي عالمًا كبيرًا منقطعًا إلى العلم=

الدنيا ووافق نفسه في هواه ومناه كانت النار أولى به وهي مقعده ومثواه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]"[2].

روى التادلي في مصنفه الذي صنفه في مقامات الأولياء ما نصه:" أن من أولياء الله تعالى أبا عثمان سعيد بن ميمون الرجراجي[3]، حدثوا عنه أنه كان له أصحاب يأخذون عليه العلوم من مؤمني الجن، ومن ذرية النفر الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ. ورووا أن مؤذن مسجده طلبه ذات يوم بداره فلم يجده، فمر في طلبه إلى البحر فوجده نائما على ثلج البحر وفي حجره كتاب تقلب الرياح أوراقه ولا يصل إليه رشاش الأمواج، فأراد المؤذن أن يدخل إليه فغلبه الماء وخاف الغرق، فخرج من البحر وقعد على شاطئه ينتظره، فلما أفاق أبو عثمان من نومه خرج من البحر يمشي على وجهه كما يمشي على الأرض، فلما علم أن المؤذن قد رآه قال له: يا فلان عاهدني على أن لا تحدث بما رأيت، فعاهده على ذلك فلم يحدث به أصحابه حتى مات أبو عثمان "[4]، فانظر إلى مقامات العارفين العاملين على القطع واليقين، ترك القوم لربهم هواهم فأنعم عليهم بما تسمع سيدهم ومولاهم.

=منصرفًا عن الدنيا، فترك ثروة علمية تقدر بثلاثة عشر كتابًا مابين مطبوع ومخطوط، أبرزها تفسيره الكبير "الجامع لأحكام القرآن الكريم"، (ت 671هـ / 1273م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: القرطبي، (322/5).

[1] النازعات: من الآية37إلى 41.

[2] "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" لشمس الدين القرطبي، (880/1).

[3] أبو عثمان سعيد بن ميموناسن الرجراجي، من بلد رجراجة أقصى المغرب، وهو جد أبي عبد الله محمد بن ياسين جد المصامدة، وكان أبو عثمان من أكابر الأولياء، انظر: "تكملة جامع كرامات الأولياء" لمحيي الدين الطعمي، (ص 201).

[4] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 116).

نقل القشيري في "رسالته" عن أبي عمران الواسطي[1] أنه قال: " انكسرت بنا السفينة فبقيت أنا وامرأة على لوح، وقد ولدت في تلك الحال صبية فصاحت بي وقالت: كاد أن يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، فرفعت رأسي فإذا برجل في الهواء جالس وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر، فقال: هاكما فاشربا، قال: فأخذت الكوز فشربنا منه، فإذا هو أطيب رائحة من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، فقلت له: من أنت يرحمك الله؟، فقال لي: عبد لمولاك، فقلت: بم وصلت إلى ما أرى؟، قال: تركت هواي لمرضاته فأجلسني في الهواء، ثم غاب عني فلم أره بعدها. فلله در أقوام بادروا أيامهم فجعلوا الصوم طعامهم والصمت كلامهم وحمامهم أمامهم، فأبدانهم بين أهل الدنيا تسعى، وقلوبهم في رياض الملكوت ترعى، ذهب القوم وبقي في المناخ من غره النوم، لبسوا في الدنيا جنة الهجر، وسمعوا فيها من مواعظ الزجر، حسبوا أيامها وصاموها للأجر، وسهروا لياليها فما أسرع طلوع الفجر"[2].

وروى صاحب " التشوف في علوم أهل التصوف"، قال:"حدثني علي بن عيسى عن شيخ أخبره عن رجل صالح كان يسكن قرية تامرورت، وكان له بأغمات صديقان يعرف أحدهما بأبي اللواتي، ويعرف الآخر بابن الفقيه فماتا فدفنا قبلة مدينة أغمات، فلما احتضر هذا الرجل الصالح أوصى أن يدفن بجوار قبري صديقيه، فلما مات تنازع الناس في دفنه، فقال قوم: إنما ندفنه حيث أوصى أن يدفن بجوار قبري صاحبيه، وهم الفريقان بالقتال على ذلك، فمكث ثلاثة أيام ولم يدفن وهو في البيت، فدخلت بين الرجال امرأة وجعلت على ظهرها ثوبا لتوهمهم أن ذلك ولدها في ظهرها ورغبت أن تدخل عليه على وجه التبرك، فأخذت الرجل وجعلته على ظهرها، وخرجت وهم يظنون أن الذي على ظهرها ولدها، فدخلوا إلى محله بعدما ذهبت به فإذا هو، فحملوه ليدفنوه في مقابر أغمات قرب صديقيه، فكانوا إذا وضعوه بالأرض يسمعون حوله دويا كدوي النحل فيرفعون أصواتهم بالتهليل فيشير هو معهم بسبابته إلى التوحيد فيتعجبون من

---

[1] لم أقف على ترجمته.

[2] "الرسالة القشيرية" لعبد الكريم بن هوازن القشيري، (536/2).

ذلك، فسمي من يومئذ بذي القبرين، وهذه الكرامة من عجائب صنع الله وآثار قدرته وأنه لا يعجزه شيء، وأن أولياؤه رضوان الله عليهم لا يستحيل في حقهم شيء من الكرامات لعناية الله تعالى بهم، وهو سيدي أبو يعزى ذو القبرين، وهو إلى الآن مشهور القبرين، يزار فيهما ويستغاث به عند النوائب" [1]. ومنهم أبو عبد الله الدقاق [2]، وكان من أكابر أولياء الله وأحد مشايخ أبي مدين.

ذكر القشيري في "التحبير" عن بعض الأولياء قال: " رأيت فقيرا عليه عباءة وفي يده كوز، فقال لي: إني كنت أقصد الورع، فلا آكل من شيء تقدم عليه ملك أحد، فربما أجد قشرة قد سبقني إليها النمل فألقيها وأتناول منها، فهل علي في ذلك من حرج؟، فقلت في نفسي أنه لم يبق على وجه الأرض من يتورع في مثل هذا كالمنكر عليه، فنظرت إلى الرجل فإذا هو واقف على أرض من فضة صافية وهو يقول لي: الغيبة حرام، والإنكار على أولياء الله بدعة وحرمان، وغاب عن بصري في الحين". قال القشيري:" ومعنى الحكاية أنه لما ترك ما حجب الخلق عن الله عز وجل أكرمه الله سبحانه بأنوار الكشف حتى ظهر له ما خطر بقلب المعترض من الإنكار عليه، ثم أخفاه الله سبحانه عن الأبصار لشؤم الاعتراض، وهكذا سنة الله في أوليائه أن يسترهم عمن لم يبلغ رتبتهم، وينبغي للعبد أن ينزه مطعمه عن الحرام والشبهات"[3]، وقد ورد الخبر بأن: « كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به»[4].

---

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 116).

[2] أبو علي الدقاق هو الحسن بن علي بن محمد النيسابوري الأصل الزاهد العارف شيخ الصوفية صحب الأستاذ أبا القسم النصر آباذي وكان شيخ أبي القاسم القشيري، والقشيري تزوج بابنته فاطمة، كان فارها في العلم، متوسطا في الحلم، محمود السيرة، مجهود السريرة، جنيدي الطريقة، سرّيّ الحقيقة، أخذ مذهب الشافعي عن القفّال، والحصري، وغيرهما، انظر: "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد الحنبلي، (40/5).

[3] لم أقف عليه في كتاب: "التحبير في التذكير شرح أسماء الله الحسنى" لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري.

[4] ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، كتاب: الأطعمة، باب: حديث أبي بكر، رقم: 7164، (141/4)، وأخرجه ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ، (1849/4)، وقال: فيه عبد الواحد بن زيد، وليس بشيء.

ومنهم أبو عبد الحليم يعقوب بن هارون الصديني[1] من بلاد تادلا، كان كبير الشأن من أهل العلم والعمل والزهد، كان إذا خرج من منزله يأتي بركة يتوضأ منها فيجد الأسد فيها فيطرده ويتوضأ منها. قال القشيري في" التحبير" : " حدثني عيسى بن علي قال: حدثني عيسى بن يوسف تلميذ أبي عبد الحليم، قال: لما مات أبو عبد الحليم حضر جنازته قوم جاءوا من مواضع بعيدة، لا أدري متى علموا بموته، فلما استوت الصفوف للصلاة عليه سمعوا تكبيرا هالهم، وتجاوبت به الأصوات قبل أن يكبر الناس عليه، فلم يشك الحاضرون أنه تكبير الملائكة الذين جاءوا ليصلوا عليه. اللهم هب لنا من مواهب أوليائك واحشرنا في زمرة أصفيائك"[2].

وفي كتاب" التحبير" للقشيري ما نصه:" حدثني يوسف بن يحيى، حدثني يوسف بن موسى، قال: حدثني رجل صالح كان يلازم مجلس أبي الحسن بن حرزهم، قال: كان يحضر معنا في المجلس شاب عليه ثياب بيض، وفي وجهه صفرة، فقال لنا أبو الحسن: إن هذا الشاب تظهر عليه آثار الفاقة، فالتمسوا لنا شيئا يستعين به على أمره، فجمعوا له دراهم واستحيوا أن يدفعوها له، فقال مؤذن المسجد: أنا أتبعه بها إذا خرج من المسجد فأدفعها له، فلما انقضى المجلس خرج الشاب واتبعه المؤذن، فلما خرج من باب الجيسة[3] إذا هو لا يكاد يدركه حتى دخل في بستان فدخل المؤذن في أثره، فطرح رداءه على شجرة وذهب إلى الماء ليتوضأ والمؤذن يتباعد

---

[1] أبو عبد الحليم يعقوب بن هارون الصديني: من أهل داي من بلد تادلة، كبير الشأن ومن العلماء، (ت 509 هـ / 1116 م)، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 111).

[2] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 111).

[3] أحد أبواب مدينة فاس المغربية، ويطلق عليه أيضا باب الكيسة أو عجيسة، يقع في الشمال الشرقي للمدينة العتيقة، مقابل جبل زالاغ، أسسه الأمير عجيسة بن دوناس المغراوي إبان استبداده بأمر عدوة القرويين بفاس، وذلك في عهد أخيه الأمير فتوح بن دوناس ما بين عام 452 – 455 هـ ، وقد بناه برأس عقبة السعتر فوق باب حصن سعدون الذي أنشأه الإمام إدريس الثاني، انظر: "السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر"، لأبي الربيع سليمان الحوات الشفشاوني، (ص 509).

منه، فانتظره حتى ظن أنه قد تطهر وخاف فوات الأذان في المسجد، فتقدم إليه المؤذن وسلم عليه، وقال له: إن الفقيه أبا الحسن بعثني إليك بهذه الدراهم، قال: متى عهدك به؟، فقال: الساعة، فأمسك ثم قال: قطعني عن مجلسه وأنا إليه شائق، رد إليه الدراهم فلا حاجة لي بها، قال: فدخل بين تلك الأشجار فلم أجد له خبرا، قال: فطلبت أن أخرج من ذلك البستان فلم أجد مسلكا، فسمعت أصوات سيارة فتسويت الحائط ونزلت في المحجة وقلت: أين الطريق إلى باب الجيسة؟، فضحكوا من قولي وقالوا: بينك وبينه خمسون ميلا، فتعجبت من ذلك، وأكريت دابة وصلت عليها بعد يومين، فأخبرت أبا الحسن بذلك، فرد الدراهم إلى أهلها، ثم قال[1]:

كم في البرية من بهمته إلى معالم أهل الفضل والدين

هم الذين إذا عاينت ظاهرهم عاينت ظاهر أقوام مساكين

وفي البواطن أسرار تلوح لهم على الأسرة في كل الأحابين

غرائب العلم تجنى من تعرفهم فيما تناقل أرباب الدواوين

راموا بفقرهم أنفاس عمرهم خير المسير على خير القوانين

فلا المطامع تجنى من مساكنهم ولا الدراهم تجنى في الميامين

لا يسألون وقد عفت أكفهم من القبول لدار الخلد والعين[2]

روى أبو الفرج بن الجوزي في " المورد العذب " : "عن بعض التجار أنه قال: ركبت في مركب إلى الحج فانكسر المركب، وبقي الناس طامعين فيما يخرج من المركب، وعزم رجل

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص117).

[2] هذه الأبيات من البحر البسيط، لأبي الحسن بن حرزهم، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص 117).

على الرحيل إلى مكة، فقال له بعض الناس: هلا تأنيت لعل أن يخرج لك شيء من حوائجك، قال: لا أوثر على وقفة بعرفة شيئا من الأشياء، فقالوا له: وما الذي أورثك هذه المنزلة، فقال لهم: كنت مولعا بالحج فحججت سنة فأصابني عطش في الطريق، فطلبت الماء في الركب فما وجدته، وإذا الناس في شدة من العطش، فسرت يسيرا عن الناس ألتمس الماء، فمررت بفقير قاعد والماء ينبع من أصل عصاه وهو يشرب، فشربت معه حتى رويت ثم جئت إلى المركب والناس قد نزلوا على عطش، فأخذت قربتي ومشيت إلى ذلك الموضع الذي فيه الفقير فمليتها ورجعت، فلما رآني الناس أحمل القربة ملئا أسرعوا إلى الماء فاستقوا عن آخرهم، فموسم يحضرني فيه مثل ذلك لا أوثر عليه حوائج ولا غيرها، ثم مضى على حاله إلى مكة"[1]. فسبحان من آنسهم بذكره وأوحشهم من خلقه وأجزل لهم من عطائه وأسبغ عليهم سوابغ نعمائه، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا يمنع ذا الجد منك الجد، اللهم لا مضل لمن هديته، ولا هادي لمن أضللته، ولا مشقي لمن أسعدته، ولا مسعد لمن أشقيته، ولا معز لمن أذللته، ولا مذل لمن أعززته، ولا رافع لمن خفضته، ولا خافض لمن رفعته، اللهم اهدنا لما أمرتنا، ووف لنا بما ضمنت لنا من خير الدنيا والآخرة، وقو يقيننا فيما رجيتنا، وانصرنا على أعدائنا في الظاهر والباطن، وأسألك اللهم بما سألك به إبراهيم خليلك عليه السلام من النور واليقين، وما سألك به محمد عليه السلام من النصر والتمكين. وهذ الدعاء حفظه ابن أبي حمزة من النبي ﷺ في النوم، وقال له: ادع به متى شئت وقدمه في أول دعائك ثم تدعوا بعده بما شئت يستجاب لك، ومن دعا به قوي إيمانه، وأوله من قوله: اللهم لا مانع لما أعطيت، وله أيضا: اللهم اختم بالسعادة آجالنا واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى جنتك مصيرنا ومآلنا، وتقبل بفضلك أعمالنا، واجبر برحمتك أحوالنا، واجعل بطاعتك اشتغالنا، إلهنا قطرة من بحر جودك تكفينا، وغرفة من بحر فضلك وإحسانك تغنينا، ها نحن أسارى الذنوب ببابك واقفون، وعلى ما وعدتنا من فضلك وإحسانك معولون، ثم أنشد:

[1] "المورد العذب في المواعظ والخطب" لأبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي، (ص324).

أسير الخـطايا عنـد بابـك واقـف على وجل مـما بـه أنت عـارف

يخاف ذنوبا لم يغب عنك غـيبها ويـرجوك فيها فـهـو راج وخائـف

ومن ذا الذي يرجى سواك ويتـقى ومالك في فصل القضاء مـخالف

فيا مالكي لا تخزني في صحيفتي إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يـصد ذووا ود ويـجـفـوا الـموالف

لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أرجى لإسـرافي فـإني لـتـالـف[1]

وفي كتاب يوسف بن يحيى ما نصه:" ومنهم أبو يحيى الورياغلي[2] المعلم من مدينة سلا، وكان بها معلما للقرآن، وهو من الأفراد، قال: حدثني علي بن عبد الرحمان، قال:حدثني مفضل الدباغ وكان جار العبد الله بن صالح، قال: قام عبد الله بن صالح ليلة فاتبعته حتى أتى باب الدرب فانفتح له فوجد أبا يحيى المعلم ينتظره، فقال له: ما حبسك؟، فقال: حبسني عذر فرأيت شخصا واقفا في البحر ينتظرهما فدخلا إليه وغابا ساعة ثم رجعا، فلما أصبح أعلمت عبد الله بن صالح بما شاهدته، فقال لي: اكتم ما رأيت حتى أموت وإلا دعوت عليك، فكتمت ذلك حتى مات. وحدثني أحمد بن محمد البكري، قال: حدثني أبي، قال: خرجت يوما في الغلس إلى المقابر فلقيت عبد الله بن صالح، فقال لي: إلى أين؟، فقلت: إلى المقابر، فقال: ائت أبا يحيى المعلم توفي البارحة، فاذهب بنا لنعلم خبره، فلما وصلنا بابه، قرعنا الباب فخرجت إلينا امرأته فسألتها عن أبي يحيى فقالت: توفي البارحة، فجمعنا حنوطا واشترينا كفنا، فقال لي عبد الله بن صالح: أنا أغسله واصبب لي أنت الماء، فلما جردناه لنغسله وجدنا ذراعيه قد تعلقت من الأكلة، فقال لي عبد الله بن صالح: متى أصاب أبا يحيى هذا؟، فقلت: لا أدري، وما علمت

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل، لابن الفرضي، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف"، (ص118).

[2] أحد أعلام التصوف، كان معلما للقرآن بمدينة سلا المغربية، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص184).

أنت بهذا وأنت صاحبه، فقال: ما علمت إلا الساعة، فلما فرغنا منه استدعينا امراته لتودعه، فقلنا لها: متى أصاب أبا يحيى هذا الذي رأيناه بذراعيه، فقالت: والله ما علمت بهذا إلا الآن، فكشفنا لها عن وجهه وكان أسمر، فإذا وجهه أشد بياضا من بياض القطر فسترناه بالكفن، وقلنا: وجبت، وجعل عبد الله بن صالح يقول لما رأى ذلك:

رجال الله قد سعدوا وفازوا ونالوا فضل رحمته وحازوا

رجال طلقوا الدنيا بتاتا ولو جاز الرجوع لما استجازوا

وقد علموا النجاة فيمموها فنالوا فوق بغيتهم وحازوا

فبعض تشرق الأبصار منه وبعض تستنير به المفاز

تميز كل ذي دنيا بدنيا وهم لهم بدينهم امتياز

وما اعتزوا بمخلوق ولكن لهم بالخالق الأحد اعتزاز

أردت لحاقهم وعجزت عنهم وحدت عن الإجازة إذا جازوا

فأنت أخوهم نسبا ولكن طرازك فوقه ذاك الطراز

دع الدعوى فلست بند وهل تخفى الحقيقة والمجاز[1]

[1] هذه الأبيات من البحر الوافر، قائلها مجهول، انظر: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص119).

ومنهم أبو بكر التوجي[1] رحمه الله:" وهو تلميذ جدنا سيدي عمر الملقب بالشيخ بن سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي[2]، وكان ملازما له حتى توفي، فانتقل إلى سجلماسة على وجه التعبد والخلوة، وكان من أكابر الأولياء، قال صاحب الرياض:"حدثني بعض الفضلاء، قال: أخبرني أبو القاسم بن أبي الفضل[3]، قال: مررت أنا وأصحابي بمسجد فوجدناه مغلقا فعالجنا فتحه ففتح، فدخلناه وأغلقنا بابه، فاتبعنا أبو بكر التوجي فلم نشعر إلا وهو معنا، فقلنا له: كيف دخلت؟، ومتى دخلت؟، فقال: دعوا السؤال، فضايقته حتى قال لي: أكثرت على أن الأولياء لا يغلق أمامهم باب"[4]. قال أبو القاسم:" فتواعدنا أن نخرج إلى موضع بخارج سجلماسة، وكان من عادتنا الخروج إليه للصلاة، فجئنا إلى دار أبي بكر التوجي فلم نجده، قلنا لأهله: إذا جاء فأعلموه وقولوا له يلحق بنا في الموضع الفلاني، فلما كان بعد العشاء الأخيرة دخل علينا في ذلك الموضع، فهبنا أن نسأله، فلما رجعنا إلى البلد سألنا أهله، وقلنا لهم: متى خرج من عندكم أبو بكر البارحة؟، فقالوا: صلى العتمة وخرج، وعادة البلد أن تغلق أبوابه بعد المغرب"[5]. قال يوسف بن يحيى:" حدثني الثقات أن أبا بكر التوجي مات في مسجد ببلد صنهاجة، فأصبح الناس وقد اجتمعوا لينظروا في تجهيزه إلى قبره، فبينما هم كذلك إذا اختطف

---

[1] أبو بكر التوجي، من أهل سلجماسة، عرف عنه الزهد والورع، وذكرت عنه كرامات كثيرة، وتتلمذ على يد سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي الكنتي، ولازمه إلى حين وفاته رحمه الله، انظر: "جامع كرامات الأولياء" ليوسف بن إسماعيل النبهاني، (347/1).

[2] الابن الأصغر للشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي، وهو جد كنتة الشرق، خلف والده على رأس الطريقة القادرية الكنتية البكائية، وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ولازمه وتبعه في كل جولاته الداعية لنشر الدين والإصلاح، (ت960 هـ / 1553 م)، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، (ص32).

[3] من أهل سلجماسة، من أهل العلم والورع، (ت 601 هـ / 1205 م)، انظر: "تكملة جامع كرامات الأولياء" لمحيي الدين الطعمي، (ص 56).

[4] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص122).

[5] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص122).

من بين أيديهم، فطلبوه فلم يجدوه فضجوا واعولوا، وقالوا: لو أراد الله بنا خيرا لتولينا تجهيز هذا العبد الصالح ولكان قبره فينا "[1].

ومن أولياء الله تعالى المشهورين في العلم والولاية شيخنا وجدنا سيدي عمر الملقب بالشيخ، تواتر عنه أنه حفظ قبل الكهولة ألف مجلد في جميع فنون العلم، وأنه ذهب إلى الغرب الجواني من المغرب الأقصى في طلب الإفادة بعدما غمره أبوه وشيخه سيدي أحمد البكاي، فطاف جميع بلاد المغرب فلم يجد من يفيده كذلك ولا من يتعلم عليه، بل كانوا يأخذون العلوم عنه، ثم حج ورجع إلى المغرب ثم جال بلاد التكرور حتى لقي الشيخ الجليل القطب الكامل سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي[2]، وقد أقبل من بلاد هوص[3] يريد التكرور بالمغرب الأقصى، وكانت رحلته على رسم دعوى الناس إلى الإسلام والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحمل الناس على السنة والكتاب، فتفاوضا في العلم، فقال له: من أين أقبلت يا فتى، قال له: من المغرب الأقصى وهو مسقط رأسي ومحل إقامتي، فقال: إن أرضا يأتي منها مثلك في صغر سنه لا يحتاج إلى مثلي. ثم تفاوضا في علم الباطن فوجد الشيخ السيد محمد بن عبد الكريم قد أربى عليه فيه، فلازمه ثلاثين سنة ثم توجها إلى المشرق، فلما بلغا برقة إذا رجل من رؤساء عرب برقة[4] قد تزوج بربيبته فبلغ ذلك الشيخ فتوجه إليه، فلما رآه وبخه، وقال له: يا ملعون، خالفت الكتاب والسنة وإجماع الأمة بما فعلت، فحمل عليه ليطعنه برمحه فأشار إليه بأصبعه فسقط رأسه عن جثته بمجرد إشارته إليه، فسارا على وجهتهما حتى بلغا قرية مضرة،

---

[1] "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، المعروف بابن الزيات، (ص121).

[2] محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: مفسر وفقيه وعلامة من أهل تلمسان، اشتهر بمناوأته لليهود، ورحل إلى السودان وبلاد التكرور لنشر أحكام الشرع وقواعده، وتوفي في توات، له كتب منها: (البدر المنير في علوم التفسير)، (ت 909 هـ / 1503 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: محمد السمان، (216/6).

[3] هوسا، شعب من أكبر المجموعات الإثنية ومجالها الجغرافي حاليا جنوب النيجر وشمال نيجيريا، أسس الهوسا سبع ممالك في المنطقة، انظر: "الإسلام في نيجيريا ودور عثمان بن فودي في ترسيخه" لمحمد لواء الدين أحمد، (ص47).

[4] برقة: إقليم في شرق ليبيا حاليا، انظر: "معجم البلدان"، الباب: برقة، (388/1).

وهي على شاطئ بحر الروم من جهة برقة، فوجدا فيها الشيخ الفاضل السيد عبد الرحمان السيوطي[1]، فسألهما عن مقدمهما وما رأيا في طريقهما، فأخبراه بما وقع بينه وبين رئيس عرب برقة وموته على يديه بإذن الله تعالى، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال له: أتظن يا عبد الرحمان أنا قد جئنا مستغيثين بك؟، فلو شئت لألقيت قريتك هذه في البحر المحيط، فبينما هم يتكلمون فإذا بالطالب يريدهما، فخرجا إليهم وأشار إلى الأرض فانشقت الأرض من بين أيديهم بقدرة الله تعالى، فلما رأوا ذلك طلبوا العفو، فقالا لهم: لا يكون العفو إلا بالتوبة بأن لا تعودوا والمثل فعل رئيسكم، ولا تتعرضوا للحاج ما بقيتم، فتعاهدا معهم على ذلك فرجعت الأرض كما كانت، ثم انصرف القوم إلى أهلهم راجعين أدراجهم، ودخلا على السيوطي في مسجده، فقال الشيخ ابن عبد الكريم للسيد عبد الرحمان السيوطي: ما معك من العلوم يا عبد الرحمان؟، فقال له: إني أحصي أحاديث النبي ﷺ من أولها إلى آخرها، فقال له: لعلك تكذب، فإن كنت صادقا فإني أسألك في الأحاديث التي صح ورودها عن رسول الله ﷺ، فجعل ينص له على الحديث فيقول له: لم يبلغني، ثم يقوم حتى يجاوز سارية من سواري المسجد ثم يقبل إليه ويقول له: صدقت، حتى أفاده خمسمائة حديث، فقال سيدي عمر الشيخ للمغيلي: ماله لا يصدقك في الحديث حتى يطوف بالسارية؟، فقال له: لا يقدر على رؤية النبي ﷺ حتى يجاوز السارية، فيرى النبي فيسأله عن الحديث فيقول له: عني، ولو كان النبي ﷺ يغيب عني طرفة عين لما أعددت نفسي من المؤمنين، يومئذ أقر السيوطي لابن عبد الكريم بالفضل في العلم والولاية، فأخذ كل منهما عن صاحبه الأوراد. وكان ابن عبد الكريم لا يقول له إلا عبيد الرحمان، فلما ألف التلقين قال: صار الطالب عبد الرحمان عالما، فلما ألف "الإتقان" قال: تبحر سيدي عبد

[1] عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو 600 مصنف، نشأ في القاهرة يتيما، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي، من كتبه: (الإتقان في علوم القرآن – ط)، (ت 911هـ-1505م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: الجلال السيوطي، (301/3).

الرحمان في العلوم. فلما توجها إلى الحج فحجا ثم انصرفا إلى المدينة على رسم زيارة النبي ﷺ، فلما أشرفا على المدينة ارتجل قصيدته العجيبة التي مطلعها:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم

فلما قام عند الروضة الشريفة ليدخلها، هم الوكلاء بها بمنعه فقال:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي فالعبد ضيف وضيف الله لم يضم

فاهتزت الروضة الشريفة وانفتح بابها وفر الوكلاء لعظم ما رأوا، فدخل الروضة الشريفة فمكث فيها ساعة، فأقبل الناس عليه وهو يقول: لست هنالك، فلا تشغلوني عما أنا بصدده، فمن كان منكم يريد البركة فعليه بالروضة الشريفة فإنها عين الرحمة ومنبع الحكمة وأصل الهداية، ونص القصيدة الدالة على غوصه على المعارف:

بشـــراك يا قـلـب هـذا ســـيد الأمـم وهذه حـضرة الـمـختار فـــي الحـــرم

وهــذه الــروضـة الغـــراء ظـاهــرة وهـــذه الـقبــة الخـضراء كـالـعـلـم

ومنبر المصطفى الهـادي وحـجـرتــه وصـــحـــبـــه وبـــقـــيـــع دائـــرهـــم

فطب وغب عن هموم كنت تـحمــلها وسل تنل كـلما تـرجـــوه مـــن كـــرم

يا سيدي يا رسول الله خـــذ بـيـــدي فالعبد ضيف وضيـف الله لـم يـضم

يا سـيدي يا رسول الله خـذ بيـــدي يـا مـن لـقـاصـده أمـن مـن الـنـقـم

يا سـيدي يا رسول الله خـذ بـيدي فبـحـر جـودك مـورود لـكـــل ظـم

يا سـيد الرسل يا من ضيف ساحتـه يبـيـت بـالأمـن فـي خـير وفي نـعم

يا أكـرم الخـلق مـن حـاف ومنتعل يا أفـضل الناس فـي ذات وفـي شـيم

يا أشـرف الأنـبياء يا من شفاعـته عمت عـلى الخلق في الوجدان والعـــدم

يا صـفـوة الله يـا مـولى مـكـارمـه عمت على الخلق من طـفل إلى هـــــرم

إنــي فـقـــير إلى عفو ومرحـمـة وأنـت أدرى بـما في الـقـلب مـن ألـــم

وقد أتـيـتـك أرجوا مـنك مكـرمـة فـأنت أهـل الـتـقى والـجـود والـكـرم

فالحـال يغني عن الشكوى إليك وقد عـرفـت حـالـي وإن لـم أحـك بـفـم

فاشفع لعبدك واجـبـر كسـره فـلقـد أودى بـه الكـسـر فـما نـال مـن جـرم

يا أحـمـد يـا أبا بكر ويا عـمـر نـزيـلكم فـي أمـان غـيـر منـهضـم

وقد سعيت إلى أبواب حجـرتـكـم سـعيـا على الرأس لا سـعيا عـلـى القدم

أتى من أم القرى يرجوا القرى كـرمـا لسـادة هـم بـحـور الـفضـل والكـــرم

فـإن قـبـلـتـم فـإنـي مفلح بـكـم فـــي زورة واقـتـراب وافـر الـقـســم

يا من أجل ملوك الأرض قاطـبـة فـي بـاب أفـضلهم من أصغر الخـدم

فهل عسى نظرة منـكم لـزائـركـم يفـنى بهـا عن جميع الخلق كـلهـم

محـمد وضجـيعاه الـذيـن بـهـم طـبنا وغـبـنا عـن الخسران والـنـدم

يا رب يا رب يا مـولاي عبدك فـي بـاب الـرجاء يـرتجي أمنـا من النقـم

فخـذ عـليه بـما يرجوه مـن كـرم فـقد تـوسـل فـي الدنـيا بـحـقـهم

ثـم الصلاة وتـسليـم الإلـه عـلى هـذا النـبي رفـيـع القـدر والـشـيـم

محـمـد المصطفى والآل ثـم علـى أصـحابـه مـا سـرى ركـب لربـعهم[1]

فلما رجعا من حجهما وجد الشيخ بن عبد الكريم قرية من أهل توات [2] قد تعدوا على ابن له فقتلوه، وكان أسكيا [3] يجل الشيخ ويخدمه فأخبره بقتل تلك القرية لولده، فقال له: اقتل قاتله، فقال: لا أرضى بذلك، فإن أهل القرية كلهم تمالوا على قتله، ولئن لم تفعل لأدعون الله فليخرجن مدينتك هذه وليذهبن دولتك، ولأدعون الله على أهل القرية المقتول فيها فيهلكوا وتخرب قريتهم فتفسد ثمارها فأغضب ذلك اسكيا، فانصرف الشيخ حتى بلغ مدينة يقال لها كاش[4]، فأقبلوا عليه بالتعظيم والإجلال وأخذ الدين عليه، فلما رأى ذلك رد صاحبه إلى كوكو، وهي مدينة اسكيا، وقال له: إذا سألك عني فقل له: إن الشيخ قد مات، فإن حزن واسترجع تركته ودولته وبقيت مدينته عامرة إلى آخر الدهر، وإن رأيته لم يبال فإني أنقل دولته إلى كاش هذه فتبقى مدينته خرابا إلى آخر الدهر، فلما أتاه صاحب الشيخ سأله عنه، فقال له: إن الشيخ توفي رحمة الله عليه، فقال: لا أبال، فلما رجع إلى الشيخ وأخبره بذلك أشار بكمه ثم قال: مدينة كوكو[5] خراب ودولة سنغاي تباب، نقلنا عمارتها إلى كاش فهي عامرة حتى يأتي أمر الله. وروي أنه وجد يهوديا ساحرا قد أبطل النار في بلاد توات، فأتاه فقال له: أرني رأسك، فأخرج له رأسه من كوة فأمر الحائط بخنقه فخنقه فاستغاث به، فقال له: إن أطلقت النار للمسلمين وإلا خنقك الحائط حتى تموت، فأطلق النار، فلما أطلقها أشار بيده إلى عنقه فزال رأسه من عنقه،

---

[1] هذه الأبيات من البحر السريع، للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، انظر: "أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته" لعبد الباقي مفتاح، (ص373).

[2] توات هي إقليم يقع في المنطقة الغربية للصحراء الجزائرية، جنوب غرب العرق الغربي الكبير بالتحديد في ولاية أدرار حاليا، انظر: "تاريخ السودان" لعبد الرحمان السعدي، (ص61).

[3] محمد أسكيا حاكم إمارة السنغاي الذي انتزع الحكم من أبي بكر داعو بن سني علي، انظر : "شرح التبيان في علم البيان" لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، (ص24).

[4] بلاد كاش أو كشن أحد أقاليم الهوسا وأوسطها جنوب النيجر وشمال نيجيريا، انظر: "شرح التبيان في علم البيان" لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، (ص25).

[5] كوكو أو غاو إحدى أقاليم بلاد الهوس التي كان كان يحكمها السلطان أسكيا محمد، انظر: "شرح التبيان في علم البيان" لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، (ص25).

فقال للمسلمين: إن الذمة قد برئت من اليهود لأنهم قد نقضوا العهد واشتغلوا بالسحر، فقتل منهم عددا كثيرا، وهو الذي جعل لهم القصة والزنار والخف الأسود وأذلهم رحمه الله حتى ردهم إلى ما كانوا عليه زمن السلف الصالح. ولما احتضر رحمه الله جمع من ثم من الناس، وقال لهم: من يريد مني بركة أو نفعا فليطلبها من سيدي عمر الشيخ، فإنه أكل ما عندي أكل الإنسان للتمرة، يأكل التمرة ويلقي النواة، فلم يبق إلا النواة.

فلما مات الشيخ المغيلي، استن بسنته سيدي عمر الشيخ في الدعوة إلى الله وإرشاد الضال وتعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الموسم والحيطة على الضعفاء والمساكين، وزجر الطغاة والأخذ على أيديهم، وكان يأمر بنيه بذلك ويحضهم عليه ويستعملهم في ذلك. فلما كان في آخر عمره وقام بنوه بمصالح العامة تجرد للعبادة حتى مات وهو على رأس جبل من جبال السوس، وذلك أنه بينما هو يصلي إذ مر به بعض قطاع البربر فرموه ببندقية، فلما جرح وخرج دمه خالط نوره العنان، ففزعوا من ذلك، فأتوا قرية يقال لها: أقا، فقالوا لهم: لقد رأينا هذه الليلة عجبا، وجدنا رجلا يصلي على الجبل فرميناه ببندقية، فلما خرج دمه خرج معه نور حتى خالط السماء، ففررنا إليكم لنخبركم بذلك، فذهب إليه أهل القرية فحملوه وجهزوه، فلما وضعوه ليصلوا عليه غشيتهم طيور بيض كثيرة، ووجدوا رائحة المسك، فلما كبروا عليه سمعوا التكبير بين السماء والأرض اتصلت له الأصوات إلى العنان، فبنوا عليه قبة فهو إلى الآن يزار ويتصدق على روضته بالدراهم والدنانير فيحمل ذلك من يحتاج إليه من الفقراء، وكانوا يأتون الروضة بالتمر والزرع ليأكل من ذلك الزائرون، وتواترت الأخبار عن صلحاء أهل سوس أنه لا يأتيه أحد في حاجة إلا قضيت كانت ما كانت.

وورث الولاية عنه ابنه سيدي المختار الشيخ[1]، وتوفي سيدي عمر الشيخ وهو ابن مائة سنة وأربعين سنة وأربعة وأربعين يوما، وما مات حتى بلغ القطبانية العظمى، تواتر عنه أنه كان ينظر إلى ما بين العرش والفرش كما ينظر إلى الدرهم في كفه، وورث ابنه عنه الولاية كذلك ومات على عمره. ولما ذهب إلى مراكش بقافلة جرارة من جميع المساكين وجد نصرانيا بمراكش قد أخذه بعض الملوك السعدية وزيرا وأذن له في الفساد، فوجده السيد الوافي[2]، فسأل عنه فقيل له: هو نصراني، فقال لهم: كيف يمكن أن يفعل مثل هذا نصراني في بلاد الإسلام؟، فقالوا له: إن السلطان أذن له في ذلك، فدعاه إلى المصارعة فصارعه فضمه حتى كسر أضلاعه ثم أخذ برجليه فضرب به الحائط فانتثر دماغه فمات، فبلغ ذلك السلطان فغضب، فبعث إليهم وهو غضبان وقد لبس السواد وركب على جواد أدهم وبيده رمح أسود، فقال السيد المختار لأخويه: إن شئتما شققتما الأرض وأنا أصلح، وإن شئتما شققت وأنتما تصلحان، فقالا له: نحن نشق وأنت تصلح، فتقدما إليه فخطا حوله بعكاز لهما فانشقت الأرض وجعلت ترجف به وهو يقول: العفو يا ساداتي، فقالا له: إن خليت بسبيلنا خلينا سبيلك، فقال: لكما ذلك من غير طوع من علي، فجاء السيد المختار فمسح الشق بيده فالتأم بإذن الله تعالى، فكتب لهم: أن لا سبيل عليهم ما بقي الملك في الملوك السعدية، ولا على من ينسب إليهم من المساكين، ثم قال: لا تعد إلى مثل هذا، تعمد إلى كافر فتسلطه على المسلمين من غير وجه شرعي، وإنما حق الكافر إذا كان في أرض المسلمين وتحت ذمتهم الذل والهوان، أو ما بلغلك أن الله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[3]، فاتبع السنة يمتد ملكك ويبقى سلطانك، وإلا فقد عرضت نفسك للهوان، فإن الملك بيد الله يجعله حيث يشاء وإنه يقول: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي

[1] سيدي المختار الشيخ الابن الثاني لسيدي عمر الشيخ، كان عالما مشهورا، توفي في توات ودفن بها، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص37).

[2] سيدي الوافي: الابن الثالث لسيدي عمر الشيخ، من أكابر العلماء، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص37).

[3] التوبة: 29 .

ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ إلى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [1]، فقال: سأفعل عن شاء الله ما أمرتموني به، ويروى أنه حسنت سيرته من يومئذ حتى مات[2].

ويروى أن السيد المختار بن سيدي عمر دعا على قبيلة يقال لها ازنيكات، وكانوا طغاة فبلغ عددهم أربعمائة رجل، فنزل بهم الوباء فما حال الحول على أحد منهم، وكان يؤخذ عليه العلم كثيرا ويأتيه المتعلمون من الآفاق، وكان إذا كان في مجلس التدريس لا يكلم أحدا ولا يرد السلام على أحد حتى ينقضي المجلس، وكانت قبيلة يقال لها أبناء عبد الرحمان متكبرة متجبرة فوقف عليه رئيسهم على فرس حالة التدريس فسلم فلم يرد عليه أحد السلام فغضب وجعل يقول: بلغتم من التكبر غاية، وإنما أنتم مساكين حتى جعلتم لا تردون السلام على المسلم، فلا تستحقون إلا أن يفعل بكم ويفعل بكم حتى تعرفوا قدركم، فلم يرجع عليه أحد بشيء حتى فرغ إليه المجلس، وكان من عادتهم أن لا يركب أحد منهم إلا تبعه عبد يحمل زربية أو بساطا فلا ينزل عن فرسه إلا على بساط، فلما انقضى المجلس رأى بعض بني أخيه التغير في وجهه فاتبع الرجل حتى لحق به فقال له: انزل لأريك قدرك، فإنك وجدتنا مشتغلين بالتدريس، فنزل عن فرسه وهو يظن أنه يريد إكرامه، فلما نزل قال له: تهيأ فإني أريد بك سوءا، فأخذ بعنقه وجعل يخنقه حتى سقط وغشي عليه، ففر عبده إلى حي البرابيش[3]، فقال لهم: إن كناتة قد قتلوا فلان، فلما علم الشيخ به أتاه واعتذر إليه أنه لم يأمر بذلك، فأخذ ثيابه ودفع إليه ثيابا جددا وغسل ثيابه من الأذى، فتجمع أبناء عبد الرحمان على حرب كناتة فأمرهم الشيخ بالإرتحال،

---

[1] آل عمران: 26 – 27.

[2] هذه الرواية ذكرها العباس بن إبراهيم السملالي قاضي مراكش المتوفى 1959 م، قال: " المختار بن عمر الملقب بالشيخ، جد الشيخ سيدي المختار الكنتي، ولي ابن ولي، قال في كتاب التوحيد له بعد ذكره (يقصد المنة في اعتقاد أهل السنة): ولما ذهب إلى مراكش بقافلة جرارة من المساكين إلى آخر الرواية، انظر: "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، (7 / 229).

[3] البرابيش قبيلة بربرية، كانت موجودة منذ عدة قرون، وقد أخضعت من لدن الهجرات العربية الأولى خلال القرن 15 م، وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: مجموعة طارقية ، ومجموعة عربية (حسان بن حم)، ومجموعة عربية أخرى هي حسان أولاد رزق، انظر: "إسعاف المسائل بالكلام على بعض المسائل" لمحمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، (ص78).

فلما تجمعوا تبعوهم فلحقوا بهم في بلاد يقال لها أركشاش[1] فهزموهم وقتلوا منهم سبعة وعشرين رجلا فيهم الرئيس المذكور واسمه محمد بن الفلالي[2]، ثم غزوا ثانية فأغاروا على بني حسان [3] فأتبعوهم فقتلوا منهم أربعمائة، وكانت معهم طائفة من الطوارق فجعلوا كلما وجدوا منهم رجلا أخذوا جمله وتركوه، فأخبر أهلهم من سلم منهم أن من مات منهم لم يقتله إلا أبناء عبد الرحمان، فبيتوهم فأحاطوا بهم فلم يتركوا منهم إلا ما لا بال له، ولما أتى الشيخ بعض المنهزمة فقال لهم: إن الناس قد انهزموا ساعتئذ، فقال: أرجوا الله، قال له: إن الهزيمة لا تكون ما بقي من بني أحد، ثم التفت نحوهم وقال: انهزموا، فانهزموا ساعتئذ، وقال: أرجوا الله أن لا أموت حتى لا يبقى منهم أحد على وجه الأرض، فكان الأمر كذلك.

وكانت له ابنة ولي يقال لها خديجة مشهورة بالولاية والتعبد. ذكر أن رجلا من بني ملوك[4] أصابه القطاع فأخذوا ما عنده ثم حملوه إلى موضع في جرف تحته ماء يغرق فوقه جرف لا يطاق، فوضعوه [ثم مكتوفا][5] فإن سقط سقط في الماء فغرق، وإن بقي مات جوعا وعطشا، فلما رأى ذلك استغاث بالصالحين والصالحات من أبناء سيدي محمد الكنتي[6]، فأتته في الجبل

---

[1] أركشاش : في الإصطلاح هي السلاسل الرملية الممتدة بشكل طولي، والمقصود هنا هو أركشاش الواقع في جنوب شرق لُحْمَادَة من الشمال الموريتاني الحالي، انظر: "الرسالة الغلاوية المسماة (مبردة الغليل وشافية الغل) للشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي ، (ص219).

[2] الفلالي بن عيسى بن سليمان رئيس قبائل البرابيش، انظر: "الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية" لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصري، (ص85).

[3] بني حسان قبيلة عربية وأحد أكبر بطون بني معقل موطنها درعة والساورة وتيديكلت إلى المحيط الأطلسي، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومستوفة ولمتونة وقد استولوا على تلك البلاد المعروفة حاليا بالصحراء وموريتانيا وأزواد بقيادة الشيخ العلامة سيدي محمد الكنتي الفهري، وفرضوا لهجتهم العربية المعروفة بالحسانية نسبة إليهم، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص25).

[4] بني ملوك قبيلة من بدو توات، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص75).

[5] في (ب): مكتفا.

[6] سيدي محمد الكنتي بن سيدي علي بن سيدي يحيى الفهري، عاش في القرن (9 هـ – 15 م)، جد الشيخ سيدي المختار الكنتي وسائر قبيلة كنتة، ومؤسس مجتمع البيضان (المجتمع الحساني)، من الأولياء والعلماء والأقطاب المشهورين،=

فحلت وثاقه ثم قالت له: الحق بهم وقل لهم، قلت لهم لئن لم يرجعوا إليك ما أخذوا منك عاجلهم الهلاك فلا يرون أهلهم إلى يوم القيامة، فلما لحقهم وأخبرهم رجعوا معه حتى رأوا أثرها حين حلت وثاقه وانصرفت، فصاحبوه حتى أتوا الحي وبعثوا إلى أهلهم، فذلك أول نزول بني إدريس[1] بكناتة على وجه التوبة ثم انتقلوا بعد ذلك إلى البرابيش.

ولما مات سيدي المختار بتوات بنوا عليه قبة عظيمة على عادتهم بالأولياء، فرأوا أنه خرج من قبره فهدمها ثم بنوا عليه ثانيا فهدمها ثم بنوا عليه ثالثا، فأتى بعض صلحاء توات فقال له: قل لهم: يقول لكم المختار إنه هو أبو المساكين في الدنيا والآخرة، فإذا بنيتم علي قبة لم يصل إلى الأقوياء من الناس وليس البناء على الموتى من السنة المستعملة، ونحن أصحاب السنة في الدنيا والآخرة، فلم يبن عليه من يومئذ وهو مشهور بتوات يزار إلى يومنا هذا، وتواتر أنه لا يأتي أحد قبره في حاجة إلا قضيت.

وورثه ابنه سيدي أحمد بن سيدي المختار[2]، وكان عالما متفننا قد عمره أبوه، وكانت الكرامات تظهر على يديه كثيرا، حتى قيل أنه كان يحج البيت في كل جمعة، وكان رحيما بالمساكين متعطفا على الأرامل والأيتام، وكان ورده مائة ركعة في كل ليلة، وخمسين ركعة بالنهار، مسرمد الصوم لا يفطر إلا يوم عيد، وكان إذا استغاث به أحد في الفلوات يأتيه عيانا حتى يقضي حاجته ويغيثه، وكان مجاب الدعوة ولي خزانة أبيه، وكان يدرس كما كان أبوه يدرس قبله، وكان كريما كثير الصدقات، ولم يبلغني عن أحد من بنيه شيء.

=وشخصية علمية ذات أثر كبير في تاريخ وحضارة بلاد البيضان، وكان له دور محوري في حرب شربة الكبرى بين القبائل الصنهاجية المرتدة والقبائل العربية الوافدة من بني حسان والتي أدت إلى انهيار دولة لمتونة وقيام دولة بني حسان بقيادة سيدي محمد الكنتي ، وانتهت هذه الحرب: (885هـ –1480 م)، كما قاد إلى بلورة اجتماعية جديدة ، كما فرض الرجوع إلى اللغة العربية، والرجوع إلى الأصول من كتاب وسنة، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي،(ص 25).

[1] أحد القبائل التي كان مجال تنقلها بين سوس والصحراء، كان مقرها في تكوست (لقصابي حاليا) نواحي مدينة كليميم جنوب المغرب، حسب الروايات الشفوية المتداولة.

[2] من ذرية سيدي المختار الشيخ بن سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي الكنتي، ومن أعلام الأسرة الكنتية الذين ترجم لهم الشيخ سيدي المختار الكنتي في هذا الكتاب.

ومن أولياء الله المشهورين بالتنسك والعبادات سيدي أبو بكر بن علي بن محمد بن المختار الشيخ[1]، ومن مشاهير ما روي عنه من الكرامات أن قوما من الطوارق يقال لهم هكار[2] أغاروا على كناتة ثم أتوا بذلك المال إلى أهلهم، فبينما هم جلوس بعد الظهر إذا هم بفارس على فرس بيضاء بينهم، فقال لهم: أنا أبو بكر بن علي بن محمد بن المختار وإن وفد كناتة يأتوكم بعد ثلاثة أيام فلا يبقى في بيت من بيوتكم حبل من متاعهم إلا أهلك الله أهل ذلك البيت به، فبينما هم ينظرون إليه إذ غاب عن أبصارهم فلم يروا له خبرا ولم يقفوا على أثر، فقاموا من حينهم واشتغلوا بجمع تلك الأموال بواد من أوديتهم، ومن أتى منهم بشيء يقول: يا صاحب الفرس البيضاء هذا مالك، فقدم الركب بعد ثلاث أيام فوجدوا جميع أموالهم وأمتعتهم مجموعة فأخذوها بغير كلفة استخلاص ولا رد، إلا أن حدادا خبأ أربع قرب في بيته ولم يعلم بهذا أحد، ولما أصبحوا من الغد طلعت الشمس وإبل الحداد لم يخرج إليها أحد من أهل البيت، فأمر كبيرهم صالح ابنه أن يوقظهم فإذا هم أموات كلهم كبيرهم وصغيرهم، فرجع إلى أبيه فأخبره فقال له: ارجع إلى البيت فإنهم قد خانوا، ففتشوا البيت فإذا فيه القرب الأربع، فكلف رجل من رعيته أن يحملها حتى يلحق بكناتة فيدفعها لهم وتوعده إن لم يفعل، فذهب بالقرب حتى لحق بهم فمكنها منهم وأخبرهم [بخبر] [3] الصناع وما فعل الله بهم فشكروا الله على صنعه، فمن يومئذ كانت عازيتهم لا تمر ببعير عليه وشم كناتة إلا تركوه ولم يصحبوه. فلما انتقل الناس إلى هذه الأرض وبلغهم أن كناتة ساروا يعطون لكردن شيئا أدركتهم الغيرة فطلبوا تافها، فصار الناس تارة يفون لهم وتارة يتخلف ذلك عنهم فكان ما كان مما هلكت هكار بسببه، وتضررت كناتة بذلك بعض الضرر والله ولي المتقين، لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

---

[1] من ذرية سيدي المختار الشيخ، ومن أعلام الأسرة الكنتية الذين ترجم لهم الشيخ سيدي المختار الكنتي في هذا الكتاب.

[2] الهكار طوارق ملثمين يعيشون جنوب الجزائر حاليا، وهذا الإسم نسبة إلى جبال الهكار، انظر: "صحراء الجزائر الكبرى: في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية" لحفناوي بعلي، (ص56).

[3] في (ج): بقصة.

ومن أولياء الله تعالى سيدي أحمد الملقب بالفيرم بن سيدي عمر الشيخ[1]، وقد تواتر عنه أنه كان يقرئ تلاميذ الجن والإنس، ومن كراماته المأثورة عنه أنه بينما هو في قافلة كثيرة وهم يريدون توات، إذ عاينوا جيشا وعاينهم الجيش، فلما كان ذلك أمرهم بحبس القافلة فحبست ثم أشار بأصبعه إلى جهة العدو، فقال لهم: قد كفيتموهم فانزلوا، ففعلوا ما أمرهم به فجاء العدو إلى القافلة فإذا هي حجارة فيما يرون، فأخذ رجل من العدو رمحه وقال: والله لقد كان هذا الحجر رجلا على جمل أبيض وعليه ثياب بيض، فصادف ذلك سنه فكسرت وبذلك لقب بالفيرم للفرمة التي وقعت في سنه، ثم قال لهم: أيها الناس إن كنتم ناسا فأزيلوا الحجاب فيما بيننا وبينكم، فلكم عهد الله وميثاقه أن لا نضركم ما بقينا ولا تضر ذريتنا ذريتكم ما بقيت الدنيا، فأشار بكمه فأزال الحجاب وعينوا القافلة، وإذا الطباخون يطبخون وإذا الإبل والأمتعة كما هي، فتاب كادي وطائفة من العدو وذريته إلى الآن في كناتة ورجع سائرهم إلى أهله من غير يرزءوهم شيئا. وكان رضي الله عنه عابدا متنسكا زاهدا في الدنيا لا يفتر عن تلاوة القرآن إلا حالة التدريس[2].

ثم ورثه ابنه سيدي محمد الرقاد [1]، وسبب تلقيبه أنه أتاه قوم يختصمون في معضلة فوجدوه نائما فقضى بينهم وهو نائم، ثم جاء تلاميذه ففسروا لهم وهو نائم فلذلك لقب بالرقاد، وذكر أنه حفظ ألف مجلد وكان يعزى إليه من العلوم ما يعزى لجده سيدي عمر الشيخ. وتواتر أنه إذا نام يخرج النور من منخريه وفيه حتى يشاهده الخاص والعام، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم

---

[1] سيدي أحمد الفيرم بن سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي الفهري، خلفه والده على رأس الطريقة القادرية الكنتية، وكزعيم سياسي لكنتة، وهو جد عشيرة الرقاقدة إحدى فروع كنتة الشرق، واشتهر بغزارة علمه وصلاحه، وأخذ عنه العلم العديد من العلماء بما في ذلك أبناءه وذريته، (ت 961 هـ / 1553 م)، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي ، (ص36).

[2] انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص36).

[1] سيدي محمد الرقاد بن سيدي أحمد الفيرم، من كبار العلماء وخليفة والده، من أهل العلم والورع، وسبب تلقيبه بالرقاد أنه ورد عليه قوم يختصمون في معضلة فوجدوه نائما، فقضى بينهم في منامه، فحضر تلامذته ففسر لهم في نومته تلك، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص142).

بحيث لا يرى منكرا إلا غيره بيده، فصار الطغاة يتحامون مباشرة المعاصي حيث يعلم وربما دعا على الفاعل فيصيبه البلاء، وكان رجل من العرب طاغيا ببعض قرى توات فدعا عليه لما يبلغه عنه فأجاب الله دعوته فيه فهلك وانقطع نسله، فقصره خراب إلى الآن، وكان إذا سافر يكثر الزاد فيقولون له في ذلك فيقول: من لا يحصى عياله لا ينبغي له التقلل من الزاد، ويذكر عنه أنه أتاه وفد فوضع لهم طعاما قليلا فاستقلوه في أنفسهم، فقال لهم: كلوا فإن لم يشبعكم زدناكم، فأكلوا منه حتى شبعوا وهو بحاله، فقالوا: هل قرأت عليه شيئا، قال: لا، إلا أن الله تعالى بارك فيه ليريكم فضله وكرمه ولتعلموا أن الطعام لا يشبع بطبعه، وإنما المشبع الله تعالى، فتاب بعضهم ولزمه وصار من تلامذته من يومئذ حتى انتفع ونفع[1].

ثم ورثه ابنه سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد[2] وكان من أكابر أولياء الله علما ودينا مع ما ظهر على يديه من خوارق العادات التي لا تعد ولا تحصى، وكان كثيرا ما يقول في سجوده: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ترثني إنك سميع الدعاء، فأجاب الله دعوته فانتشرت ذريته، فكان له سبع بنين كلهم أولياء علماء نجباء قد انتشر عنهم من العلم ما لم ينتشر من بيت من بيوت الولاية مثله إلا ما انتشر من بيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يروى أن ثلاثة من البيوت لم ينتشر من بيت ما انتشر عنهم من الخير: بيت يعقوب بن إسحاق، وبيت علي بن أبي طالب وكانت منه سلسلة الذهب، وبيت سيدي أحمد بن الرقاد

---

[1] انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص143).

[2] سيدي أحمد بن سيدي محمد الملقب بالرقاد بن سيدي أحمد الملقب بالفيرم، إمام عالم في المنقول والمعقول، ومحدث وأديب وفقيه ونحوي، ولد بواد نون (جنوب المغرب) ونشأ بوادان (مدينة بموريتانيا)، ودرس بها الفقه والعلوم الشرعية، ثم انتقل إلى توات (جنوب الجزائر) واستقر بها، أخذ عن والده، وعم أبيه سيدي المختار الشيخ بن سيدي عمر الشيخ، وابن عمه سيدي الأمين الأزرق، وخلف والده على رأس الطريقة القادرية الكنتية، وهو الذي بنى زاوية كنتة بتوات، (ت بعد 1022 هـ / 1613م)، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص 143).

وكانت منه سلسلة الذهب كما كانت من بيت علي، فكان من بيت علي النفس الرضية[1] ولي عالم، وأبوه عبد الله[2] كذلك ولي عالم، وأبوه موسى الكاظم[3] كذلك ولي عالم، وأبوه جعفر الصادق[4] ولي عالم، وأبوه محمد الباقر كذلك ولي عالم، وأبوه زيد كذلك ولي عالم، وأبوه علي زين العابدين ولي عالم، وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ سيد شباب أهل الجنة، وأبوه علي بن أبي طالب.

منهم سيدي المختار[1] كان وليا عابدا عالما، وأبوه سيدي محمد الأمين[2] كان وليا عابدا عالما، وأبوه سيدي المختار[3] الملقب بعنترة كان عالما متفننا عابدا متنسكا كثير الخوارق، وأبوه

---

[1] أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه، ولد الإمام الرضا في المدينة المنورة، ومنها انتقل إلى خراسان بضغط من المأمون لمنحه ولاية العهد مكرهاً، وفي طريقه وهو في نيسابور روى حديث سلسلة الذهب. اشتهرت مناظراته التي كان يعقدها المأمون بينه وبين كبار علماء الأديان والمذاهب الأخرى، استمرّت إمامته 20 عاما، توفّي بطوس مسموماً على يد المأمون، ودفن بمدينة مشهد، (ت 203 هـ / 819 م)، انظر: "وفيات الأعيان" لابن خلكان، باب: علي الرضا، (269/3).

[2] عبد الله بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، الملقب بعبد الله العوكلاني، من أئمة أهل البيت الكرام، انظر: "البشرى شرح المرقاة الكبرى" للشيخ محمد التسليمي، (ص172).

[3] موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، من ذرية الحسين بن علي عليه وعلى جده أفضل الصلاة والسلام، كان من سادات بني هاشم ومن أعبد أهل زمانه وأحد كبار العلماء الأجواد، ولد في الأبواء (قرب المدينة) وسكن المدينة، فأقدمه المهدي العباسي إلى بغداد، ثم رده إلى المدينة، وبلغ الرشيد أن الناس يبايعون للكاظم فيها، فلما حج مر بها سنة 179 هـ فاحتمله معه إلى البصرة وحبسه عند واليها عيسى ابن جعفر، سنة واحدة، ثم نقله إلى بغداد فتوفي فيها سجينا، وقيل: قتل، (ت 183 هـ / 799 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: موسى الكاظم، (321/7).

[4] جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق: من أئمة أهل البيت، وله منزلة رفيعة في العلم، أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئا عليهم صداعا بالحق، وله (رسائل) مجموعة في كتاب، ورد ذكرها في" كشف الظنون"، يقال إن جابر بن حيان قام بجمعها، مولده ووفاته بالمدينة، (ت 148 هـ / 765 م)، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: المصدق، (126/2).

[1] من أعلام الأسرة الكنتية الذين ترجم لهم المؤلف رحمه الله، انظر: انظر: "البشرى شرح المرقاة الكبرى" للشيخ محمد التسليمي، (ص172).

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

سيدي عمر[1] بلغ الغاية القصوى في العلم والعبادة والزهد، وأبوه سيدي أحمد الرقاد، وهو الذي بنى الزاوية بمدد الله وخوارق العادة، وكان قد بلغ في العلم والولاية الغاية القصوى، وأبوه سيدي محمد الرقاد كذلك، وأبوه سيدي أحمد الفيرم كذلك، وأبوه سيدي عمر الشيخ كذلك وفوق ذلك، وأبوه سيدي أحمد البكاي[2] كذلك وفوق ذلك.

وقد تواتر عنه وصح أنه لبث مائة عام لم ترق دمعته، وذلك البكاء كله من صلاة واحدة فاتته في الجماعة، وحدثني الفقيه محمد أن عبد الله الولاتي قال: حدثني أبوه الفقيه محمد بن الفقيه أحمد عن أبيه الفقيه أحمد عن جده سيدي عبد الرحمان المحجوبي[3] أنه تقطب وأخذ العلم والولاية على القطب الكامل سيدي أحمد البكاي، وأنه لما انتقل إلى بلاد السودان من بلاد ولاتة إلى غانة صار موضع البلدة مسيلا للمياه، فلبث المطر عن ولاتة أعواما وذلك الوادي لم يسل حتى هموا بالجلاء، فأتى سيدي أحمد البكاي في النوم بعض الأولياء من ذرية سيدي عبد الرحمان المحجوبي، فقال لهم: إن أردتم أن يسيل واديكم فانقلوني من مجرى السيل، فإنه لا ينبغي للسيل أن يمر على قبري، ثم أتى ثانيا في نومه فقال له مثل ذلك، ثم أتى ثالثا في النوم فقال له مثل ذلك، فأخبر الثاني الناس بما رأى، فقال الآخر: أنا رأيت مثل ما رأيت، وقال

---

[1] سيدعمر بن سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد، من أكابر العلماء، انظر : "كنتة" الشرقيون لبول مارتي، (ص147).

[2] سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي بن سيدي علي الفهري، لقب بالبكاي لأنه تواتر عنه وصح أنه لبث مائة عام لم ترقأ دمعته، وذلك من أجل صلاة واحدة فاتته في الجماعة، وقد عاش الشيخ سيدي أحمد البكاي أغلب حياته في الحيز الجغرافي الممتد بين منطقة الساقية الحمراء وتيرس زمور إلى أن استقر بمدينة ولاتة المشهورة وبها توفي ودفن بها، وفي حياته واصل دعوة والده سيدي محمد الكنتي في التعليم والدعوة والإرشاد، وقد أسس الطريقة القادرية الكنتية البكائية، وانشرت في أغلب بقاع الشمال والغرب الإفريقي، وله ثلاثة أبناء وهم: سيدي محمد الكنتي الصغير جد كنتة الغرب، وسيدي بوبكر الحاج جد عشيرة الهمال، وسيدي عمر الشيخ جد كنتة الشرق، وهذا الأخير هو خليفته من بعده الذي تولى رئاسة الطريقة من بعده، والشيخ سيدي أحمد البكاي هو من جعل من كنتة دعاة الإسلام والمشرفين الروحيين على القبائل الصحراوية، وانساحت طريقته الصوفية في بلاد الزنج وعملت على تحقيق أول إسلام للزنوج، (ت 920هـ / 1514 م)، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص28).

[3] عبد الرحمان المحجوبي الملقب (أمبوي)، عالم ولاتي مفت متبحر، (ت 1277 هـ / 1860 م)، انظر: "تاريخ بلاد شنكيطي من العصور القديمة إلى حرب شربة الكبرى بين أولاد الناصر ودولة إبدوكل اللمتونية" لحماه الله ولد السالم، (ص298).

الثالث: وأنا رأيت مثل ما رأيتما، فاجتمعوا كلهم وكان في ولاتة يومئذ سبعون عالما متفننا، فاجتمع رأيهم على أن الأولياء لا تأكلهم التراب، فذهبوا إليه ونبشوه فإذا هو كالنائم لم يتغير شيء من أكفانه فضلا عن جسده، فأدخل رجل منهم يده بين وجهه والكفن فإذا عيناه تهملان بالدموع كما كانت في دار الدنيا، فنقلوه إلى موضعه الذي هو فيه الآن.

وتواتر أنه لما قدم على ولاتة، فنزل بشعب من شعابها وكانت يومئذ كثيرة السباع والنمور فأتوه وهم لا يعرفونه فقالوا له: أيها الشيخ إذا بت في هذا الشعب يأكلك السباع فإنهم يختطفون الناس من وسط المدينة جهارا، فقال لهم: ما كان الله ليسلطهم علي، فلما كان الليل اجتمعت السباع كلها عليه على وجه التبرك، فلما أصبحوا تيقنوا أنه يؤكل، فذهبوا إليه، فإذا السباع مجتمعون عنده يتمسحون بثيابه، فرأوا ما لم يحتسبوا فقالوا: ما هذا إلا ولي من أولياء الله فتهيبوا من الإقدام عليه لكثرة ما عنده من السباع، فأشار إليهم أن تقدموا فإنه لا خوف عليكم فأتوه وهم يمشون بين السباع، فقال لهم: ما تريدون من هذه السباع آمرهم به؟، فقالوا له: نريد أن تأمرهم بالخروج عن بلادنا هذه، فأمرهم بذلك فانصرفوا إلى أرض باغتة كالبقر الصادر عن الماء يتبع بعضهم بعضا. ثم اشتغل بالمسير، فقال لهم: تقدرون عليه، قالوا: وبم؟، قال: تقدرون عليه بالشرع فإنه لا يخالف الشرع، فاتبعوه حتى لحقوا به وهو يريد المشرق على وجه السياحة، فقالوا: نحن بالله وبالشرع معك، فلما سمع ذلك سقط لوجهه وكتف يديه وراء ظهره، وقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولامتثال شرعه، فرجع معهم إلى المدينة، فأتوا عالمها فقالوا له: نشارعك إلى هذا العالم، فقال لهم: رضيت، فقال لهم العالم: إلا من ظاهر هذه مدينة فاسدة، قد بلغ الفساد فيها الغاية حتى أن الرجل لا يقدر على منع زوجته من خدن السوء، فقال لهم: بشرط ألا تخالفوني فيما آمركم به من أمر الله تعالى وما جاء به رسوله، فأطاعوه إلى ذلك، فأمرهم بالحجاب ففعلوا، وأن لا يدخل أحد بيت أحد إلا أن يكون محرما، فاستقاموا على السنة وأخذوا عليه العلوم حتى توفي رضي الله عنه. وكان من أمره ما قد تقدم وأكرمهم الله من يومئذ بغزارة العلم وحدة الفهم إلى يومنا هذا، وكان لا يؤذيهم أحد من الأعراب إلا أذهب الله دولته

ونفاه من أرضهم إلى غيرها، ولقد رأيت ليلة عند روضته أسدا ولبؤة فلما قربا مني حادث الأنثى عني، وأتاني الذكر فقال لي: لم يبق من السباع الذين تبركوا من جدك هذا إلا أنا وهذه، فلا أدري أهما من نسل أولائك أو بقيا حيين حتى أتياني والله قادر على الجميع.

وقد نظم الولي الصالح المشهور بالحب للنبي ﷺ وأولياء الله تعالى ذو الكرامات الظاهرة والمناقب الباهرة محمد بن محمد العلوي[1] بعض مآثرهم، فقال: يقول الفقير إلى الله تعالى خديم رسول الله ﷺ محب الصالحين في ذكر الأولياء من ذرية سيدي محمد الكنتي على وجه التبرك بهم والتوسل إلى الله بجاههم، وقد شاع وذاع أن من توسل بأربعين منهم في كل أمر مهم وجد الفرج عن قريب وقضيت حاجته كائنة ما كانت، وإن كان في ورطة عوفي، وإن كان خائفا أمن، ومطلعها:

ألا مـــقلتي باتت كمقلة أرمد ... وحالي مما نابها حـال مـكـمد

تجود وقد ضاقت علي مذاهبي ... بدمع كمنظوم الـنفيـس المبـدد

وقـد غـاب أقـوام ألفت جـوارهم ... فنومي من الأحزان نـــوم مســهـد

تراني ونـابتني على الـقوم غـيرة ... كأنـي لأشتات الخـطوب بـمرصـد

تطالبني نفسي بصـبر نوائـبـي ... نهارا وعـز خطبها عن تـجـلـد

ولما دجى ليل الأسى وتعاظمت ... همـومي وذادت عن مبـيت ومرقـد

وهاجت فأنست ناظري لذة الكرى ... وظلـت علـى قلبي تروح وتغـتدي

فزعت إلى باب المهيمن ضارعـا ... بعـصبة صـدق جلـة أهـل سـؤدد

[1] الشيخ سيدي محمد بك العلوي الإداوعلي، يصل نسبه إلى الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يعد من أشهر علماء وأدباء عصره، وشعره يضاهي الشعر العربي القديم من الناحية الأدبية، (ت قبل 1198 هـ / 1784 م)، انظر: "الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية" لمحفوظ بن ساعد بوكراع السطيفي، (ص373).

إلى الله بالكنتي أعني محمدا تـوسلت والمشهور بالنسك أحمد

فهذا هو المعروف بالبث والبكا من الله خوفا لا من المتمرد

وبالأصغر الذي قد تعاظم فخره وكل تقي من بنيه مسود

فمنهم أويس ذو المكارم والندى تليد المعالي أو حد كفه ند

إلى عمر عج بالركاب فإنه لدى بيته تلفى مآرب مجتد

ومنهم أبو بكر أخو الجود والتقى ومنهم حبيب الله كهف المطرد

وفي أحمد الكريم ما شئت من ندا وما رمت من فضل ومجد وسؤدد

ألا بادر الشواف بالسؤل تلقه كريما ومن وافى الكريم يزود

ولذ بحمى المختار إن كنت خائفا تجده حمى في حرز سور مقرمد

فمالك لا ترفع لذي الحج حاجة ولم تتبع نهج الفقيه وتقتد

فدونك للرحمان عبد فسل به من الله ما تهواه من كل مقصد

أيا صاح سل مولاك وارغبه بالذي يرى في الفيافي فوق ظهر خفيدد

تمسك بعروة التقى فإنه ينجيك من غيظ الظلوم المهدد

كذلك سل بالشيخ أمنا فكم به يفرج حقا كل أمر معقد

كذا بأبي العباس سل وادع طالبا من الله كشف الضر عن كل مكمد

فما شئت في الرقاد قله ولا تخف وسل تعط ما تهواه في اليوم والغد

إلى أحمد وجهت كل مآربي وأحمد لا يرضى بحرمان مجتد

فهل عمر إلا كريم مهذب صبور حليم ذو تقى وتزود

فإن لعبد الله بيت مواهب فكم ريء للأضياف يبنى بأعمد

فكم في علي من خصال جليلة مدى الدهر لا تخفى على كل مهتد

فكم فيه من حلم وكم فيه من ندى وكم فيه من نسك وكم من تعبد

وكم لاذ أرباب الخطوب ببيته وحف به مما جرى كل منتد

وكم ريئ عبد المؤمن القوم دافعا بوائق بطش [الكاشح المتمرد][1]

وما زال نجل الشيخ دهر حياته يذل له من خوفه كل معتد

عن المصطفى سل ما عرتك نوائب فإن له فضلا أعده وردد

ففيه إذا ما أشكل الحكم واختفى بيان يروي نصه علة الصد

فمهما نهى بثي وعزت مآربي وقابلني عض الخطوب بموبد

مددت يدي نحو الخليفة سائلا وحق لهذا أن تمد له يد

وبالسيد الأمين أعلنت حاجتي إلى الله كم قالت طوالبه قد

كذاك بعبد القادر الفاضل الذي نما شرفا في نسكه والتعبد

لمولاي بالمختار أخلصت وجهتي لعلي أحظى من لدنه بأسعد

كذاك له بالأكرمين محمد وأحمد والحبيب وجهت مقصد

خصال أبي بكر فلا تهملنها وسر لعلي بالدعاء المردد

---

[1] في (ب): كاشح متمرد.

وبالسيد الوافي تضرعت خالقي إليك وفي الوافي وفاء بموعد

وفي أحمد جود ومحض سماحة وما قلته في ضمن جيب محمد

فهل عمر إلا أبي سميذع إذا اهتز يلفى كالحسام المهند

فما زال في المختار خير ولم تزل مواهبه تزداد في كل مشهد

فأما حبيب الله سحب نواله تسح بوبل من لجين وعسجد

ألا يا بني الكنتي إني بجاهكم توسلت للمولى فهل من تزود

ليقضي تباعاتي ويذهب فاقتي ويصلح أحوالي وينجح مقصد

فكم فيكم من سيد ذي تصرف لديه كان الكون في قبضة اليد

وكم فيكم من سيد ذي سماحة وكم فيكم من عابد متجرد

وكم من فقير الكف أغناه بذلكم وكم قد فككتم من أسير مقيد

فقد رفع الباري دعائم مجدكم وشاد على أس التقى والتعبد

تداعى لكم من الورى ضعفاؤهم ففازوا بأمن في الحياة مؤبد

أحباي مهما اشتاق قلبي إليكم وغيبكم عن منظري في كل فدفد

و[غبتم][1] وغابت فكرتي في هواكم وعاينت بحر الهوى أي مزبد

تنشقت زهرا قد بدا من فروعكم حياتي وطيب الفرع من طيب محتد

[1] في (ب): غبت.

عليكم من الله الرضـــا ما تعاقـبـت سحائـب أفـضال على كـل مهـتـد[1]

ولما قدمت على ولاتة إذ هم في ضيق وحزن من خبر بلغهم عن قافلتهم وكانت توجهت إلى تاودن[2]، فقائل يقول لهم: قد أخذت أموالهم، وقائل يقول لهم: قد قتلوه، وفي القافلة جميع أهل عقدهم وحلهم، فأتوني بجماعتهم فقالوا: إنا نعتقد فيك ما نعتقده في جدك هذا، فإنه قد وجدنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا منها، ووجد السباع تخطفنا فأذهبها عنا حتى تطهرت منهم بلادنا، وإن جميع رجالنا ممن نرجوا أن تكون به عمارتنا قد كان في هذه الرفقة، وقد جاءنا عنهم أنهم قتلوا وجاءنا أنهم نهبت أموالهم ونريد منك أن تخبرنا بحقيقة أمرهم لنكون من ذلك على بصيرة، فإن جميع من ينسب إلى الصلاح في بلدتنا هذه قد سألناهم فلم يبينوا لنا ما يشفي العليل ولا ما يروي الغليل، فقلت لهم: إن كان الغد فأتوني، فلما صليت العشاء من تلك الليلة المستقبلة وذهبت إلى روضة الشيخ فإذا عند روضته سبعة رجال من الصالحين، فجعل كل واحد يجعل يده على رأسي ويدعوا لي وما عرفت منهم أحدا إلا سيدي علي بن سيدي محمد بن سيدي علي بن سيدي أحمد الملقب بالأحول[3]، فأراد أن يدعوا لي فقلت: لا أريد منك ذلك، إنما أريد منك أن تخبرني بقافلة هؤلاء الناس فإنهم من الخوف عليها في كرب شديد مكان ما دللتك على إبلك قبل، فقال لي: مررنا عليهم قريبا، فإذا أصبحت فقل لهم من كان له غائب فليستحضر عشاءه الليلة المقبلة وقد ربحوا، فلما كان من الغد أقبلوا علي، فقلت لهم: من كان له غائب فليستحضر عشاءه الليلة، فإنهم لا يبيتون إلا عندكم وإنهم سالمون كما تحبون، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهبوا إلى عاملهم، فقالوا له: إنا أولياءنا نسألهم ولا يبينوا، وهذا الصبي قد

---

[1] هذه الأبيات من البحر الطويل لسيدي محمد بك العلوي الإداوعلي، انظر: "البشرى شرح المرقاة الكبرى" للشيخ محمد التسليمي، (ص172).

[2] تَوْدِنّي منطقة نائية تعرف بمناجم الملح في الإقليم الصحراوي الواقع شمالي دولة مالي، والمعروف بأزواد، انظر: "تاريخ بلاد شنكيطي من العصور القديمة إلى حرب شربة الكبرى بين أولاد الناصر ودولة إبدوكل اللمتونية" لحماه الله ولد السالم، (ص326).

[3] من أعلام الأسرة الكنتية الذي انفرد المؤلف بترجمتهم، انظر: "البشرى شرح المرقاة الكبرى" للشيخ محمد التسليمي، (ص176).

صرح بالأمر، فقال لهم: ذلك صبي قد ترك له أبوه كنزا وافرا فهو ينفق منه كيف شاء، وأما هؤلاء فيتامى لم يرثوا عن آبائهم شيئا، فهم يلتقطون مرة ثوبا ومرة درهما.

فلما انصرفنا من صلاة الظهر إذ البشير يبشر بقدومهم وسلامتهم، فقالوا له: قد علمنا قبل قدومك، فلم تغرب الشمس حتى تكلمت القافلة كلها.

ومما شاهدته عند روضته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الزوال من يوم الجمعة إذ سمعت قارئا يقرأ وهو مقبل تحت الأرض حتى قابل الروضة ، فلما قابلها اهتزت وانفتحت فلم أشعر إلا وأنا مد البصر من القرية على الجانب الشرقي، فلما أفقت ندمت على أن لا أكون ثبت حتى أراه، فرجعت طالبا ذلك فلم يتفق لي، وسبب إتياني للروضة أني لما فرغت من قراءة العلم ذهبت إلى كناتة غير طامع وإن وجدت شيئا لم أكرهه، وكنت حينئذ لا أبيت مع الناس إنما أبيت في البرية، فبينما أنا ليلة أصلي ما كتب الله لي إذ سمعت وطأ رجل مقبل إلي حتى جعلت الأرض تهتز من تحتي من شدة وطئه فرعبت فذهبت قليلا ثم قلت لنفسي: كيف أخرج إلى الله تعالى ثم أفر إلى الناس من أمر يقصدني حتى أعلم ما هو، فرجعت فإذا الأمر بحاله، فانصرفت ثانية إلى موضعي فإذا الأمر بحاله، فعزمت أن لا أنصرف حتى أعلم ما هو، فإذا برجل لم أر قبله ولا بعده مثله طولا وعرضا وحسنا وبياض ثياب، فجعل يشير علي بكمه ويقول لي: ما تريد من هؤلاء إن كنت تريد علما فقد أغنيناك عن علمهم، وإن كنت تريد دنيا فقد أغنيناك عن دنياهم، وإن كنت ولا بد ذاهبا إلى أحد فاذهب إلى سيدي أحمد البكاي فإنك ستجد عنده ما تريد، وأشار بكمه نحو المغرب، فجعلت الأمور تتدافع بإذن الله حتى أتيت تلك الأرض فقصدته في جماعة، فلما قربنا من ولاتة أنخنا ثم ذهبت إلى البرية كما كنت أفعل، إذا بعشرة رجال قد أقبلوا إلي وعلى رؤوسهم ظلة من النور، فلما دنوا مني بادرتهم فجعلوا يسلمون علي واحدا بعد واحد، وكل من سلم علي منهم يضمني إلى صدره ويدعوا، فلما كان الأخير قال: أتعرف هؤلاء؟، قلت: لا، إلا أني علمت أنكم صالحون لهذه الظلة التي أراها على رؤوسكم، فقال لي: أنا جدك الأدنى، وهؤلاء

أجدادك الأعلون، وإنما قدمتهم تأديبا ولأنهم أفضل مني، فإياك أن تبيت عني هذه الليلة فإني مشتاق إليك، فرجعت في الحين إلى أصحابي وشددت رحلي، فقال لي أصحابي: هذا لا يمكن فإنا نخاف اللصوص في هذه الساعة، فقلت لهم: كل شيء يمكن إلا أني لا أبيت الليلة إلا عند الشيخ، فلما لم يجدوا بدا من ذلك ركبوا معي، فلما أنخنا الإبل ببطحاء ولاتة، ذهبت إلى الشيخ فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا أو لا تسأل عن الخبر.

وقد شاع وذاع وبلغ حد التواتر تنسكه رَحِمَهُ اللَّهُ وأنه لا ينام إلا ساعتين إذا انتصف النهار، فقيل له في ذلك فيقول: كفى من الخسارة أن يخسر الرجل سدس عمره، ولولا أنه بلغني أن النبي ﷺ قال: « استعينوا بالقيلولة على قيام الليل »[1] لما نمت. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يصوم يوما ويفطر يوما امتثالا لقول النبي ﷺ: « أفضل الصوم صوم داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما »[2]. وكان كثير الصدقة لا يكاد يمسك شيئا إلا تصدق به أو جعله في خلة من خلال المسلمين، وكان لا يفتر عن الذكر كلما فرغ من التدريس ونشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة أود المسلمين، وكان كثيرا ما يلهج بقول النبي ﷺ:« ليس منا من لم يهتم للمسلمين »[3]. وكان يحض تلامذته على الدعوة إلى الله تعالى ويقول لهم: إن من لم يدع الخلق إلى الله فليس من أتباع رسول الله ﷺ، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [1]. وكان يأمر المسلمين بالتواصل والتوادد والتعاضد ويقول لهم: أما بلغكم قوله ﷺ: « لن تدخلوا الجنة حتى تومنوا ولن تومنوا حتى تحابوا بروح الله »[2]، ويقول لهم: صحبة ساعة صحبة، وصحبة شهر عهد، وصحبة سنة رحم قطع الله من قطعها ووصل من وصلها. وكان رضي الله عنه كثيرا ما يحض على حسن الجوار والقيام بحق الجار ويقول لهم:

---

[1] ورد بلفظ آخر، انظر: "المعجم الكبير" للطبراني، باب: عكرمة عن ابن عباس، رقم: 11625، (245/11).

[2] بلفظ آخر، "مسند ابن حنبل"، باب: مسند عبد الله بن عباس ، رقم: 2876، (63/5)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[3] بلفظ آخر، "المعجم الأوسط" للطبراني، رقم: 747، (270/7)، وقال الطبراني: تفرد به عبد الله بن أبي جعفر الرازي.

[1] يوسف: 108.

[2] بلفظ آخر، "سنن الترمذي"، أبواب: الإستئذان، باب: ما جاء في إفشاء السلام، رقم: 2688، (349/4)، وقال: ح س.

إن الجار ليتعلق بجاره يوم القيامة، ويقول: يا رب إني كنت جارا لهذا فغلق دوني بابه ومنعني معروفا، يبيت ويظل شبعانا وأبيت وأظل جائعا، فيؤخذ له من حسناته بقدر ذلك، ويجمع النساء في بيت ويجعل بينه وبينهن حجابا ويقول: أيتها النساء إن الله كلفكن كما كلف الرجال وخصكن بأمور دون الرجال وهي الحجاب وثني القدم و ملازمة البيوت وطاعة البعولة والشفقة على العيال، وإن نبيكم كان يقول للنساء: « لا تحقرن جارة لجارتها ولو بفرسن شاة»[1]، فإن الجيران إذا تواصلوا كثر خير بيوتهم وغشيتهم رحمة الله وذكرهم الله فيمن عنده، وإذا تقاطعوا أصابهم الفقر وفارقتهم الرحمة ومقتهم الله تعالى، وعليكم بالتودد إلى بعولتكن واحفظوهم في أموالهم وأنفسكن، فإن صلاح البيوت بصلاح النساء وفسادها بفسادهن، فإن نبيكم ﷺ كان يقول: « اللهم حبب بين نسائنا وخالف بين رعائنا واجعل المال بأيدي سمحائنا »[2]. وكان رضي الله عنه حريصا على الاستتان بسنة رسول الله ﷺ جليلها وقليلها ويقول: أيها الناس إن عملا قليلا في سنة خير من عمل كثير في بدعة، وإن الله تعالى لا يقبل من ذي بدعة عملا صالحا، واعملوا في أيام قليلة ذاهبة لأيام طويلة دائمة، ويقول لهم: وما هذه إلا حياة قليلة تعدوا أيام تمر سراع، ثم يتلوا قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [3]، ويقول لهم: اعلموا أن خزفا يبقى خير من ذهب يفنى، فكيف إذا كان الذهب باقيا والخزف فانيا، وإنكم لو علمتم عمر الدنيا الفانية في طلب الجنة العالية لكان ذلك ربحا، وإنما كلفتم بالعمل في قليل من الأيام من قليل من الزمان.

ويروى أنه أرى أصحابه حجرا يجالس عليها الخضر، فحملها أصحابه إلى بيوتهم فاقتسموها، فلا يبتلع أحد منهم قليلا إلا أكرمه بالفهم والذكاء، ويروى أن ذكاء فهم أهل ولاتة الذي خصهم الله تعالى به من ذلك.

---

[1] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الأدب، باب: لا تحقرن جارة لجارتها، رقم: 6017، (10/8).

[2] ليس حديثا، بل من أقوال أبي سيارة عميلة بن خالد العدواني، انظر: "المستقصى من أمثال العرب"، (205/1).

[3] الحاقة: 24.

ويروى أنه ﵀ كان إذا أخذ في سرد الحديث يتصبب جبينه عرقا في اليوم الشديد البرد هيبة وإجلالا لحديث رسول الله ﷺ، وكان ﵀ مدة إقامته بولاتة لا يترك بنيه من بعث الكتب إليهم بالوصايا الحكمية في الحض على التمسك بالسنة والنصح للعامة والخاصة، ويقول لهم: إن الله تعالى قد كلفكم أمور العامة وحمل أعباء الرسالة فاجعلوها في الله ولله تنجوا وتربحوا وتسعدوا، وإياكم ثم إياكم واتباع الهوى فيما خولكم الله وأنعم به عليكم فيكون وشيك الزوال قريب الاضمحلال مع ما تنتقلون إليه من الخيبة والخسران والنكال، فالنجا النجا يا بني، وأقول لكم كما قال يعقوب لبنيه : ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [1]، واعلموا أن نبيكم قد قال: « المسلم من سلم الناس من يديه ولسانه»[2]، هذا حيث كان إنما يتعلق بخاصة نفسه، ولم يتحمل ما حملتم من إقامة أمر العامة وتحمل أعباء الرئاسة فيكون كالسفينة إذا سلمت من الغرق نجت وأنجت، وإذا غرقت هلكت وأهلكت، فأنتم إذا نصحتم العامة وقمتم فيها قيام الخازن الأمين نجوتم، وإلا هلكتم وأهلكتم، وإن الله تعالى قد جعل في أيديكم وصدوركم ما كان عليه النبي وأصحابه من العمل في خاصة أنفسهم والسيرة فيما كلفوا به من أمر الأمة والعامة، فإن اقتفيتم آثارهم حذو النعل سلمتم وسلمتم، وإن خالفتموهم بعد العلم بما هم عليه فقد رغبتم عن سنتهم، ومن رغب عن سنتهم فليس منهم، ومن لم يكن منهم كان من حزب الشيطان وإن حزب الشيطان هم الخاسرون، وإن الله تعالى قد اختصكم بنعمته ووجه إليكم مئونة خلقه، فإن شكرتموه على ذلك وقمتم بتلك المئونة أعانكم الله على القيام بها في الدنيا ورحمكم بها في العقبى، وإن تبرمتم منها وسئمتموها وتساهلتم بما حملتم سلبها منكم ونقلها إلى غيركم، فإن نبيكم ﷺ يقول: « إن لله عبادا اختصهم بنعمه ووجه إليهم طلابها، فلا يزالون كذلك ما بذلوها وتحملوا مئونتها، فإن تبرموا منها نقلها إلى غيرهم»[1].

---

[1] البقرة: 132.

[2] "سنن النسائي"، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: صفة المؤمن، رقم: 4995، (104/8)، وقال الألباني: ح ص.

[1] بلفظ آخر، "المعجم الأوسط" للطبراني، رقم: 5162، (228/5)، وقال الطبراني تفرد به عبد الله بن زيد الحمصي.

ولما هم ﵁ بالسياحة على عادة آبائه الكرام جعل يكثر النظر في بنيه ويجعل يده على رأس سيدي عمر الشيخ وصدره، فلما رأت ذلك زوجته علمت أنه يريد السياحة وأنه يريد أن يخلف أحدهم ويسأل الله قبض غيره، فذهبت إلى أبيها فأخبرته بذلك وكان أبوها رجلا عالما صالحا، فقال لها: إن أردت بقاء أبناءك فأمهليه حتى إذا توجه قبل المشرق حين تنام العيون وتهدأ الأقدام فخذي بطرف ثوبه واتبعيه فإنه لا يقف حتى يشاهد رسول الله ﷺ، فإذا وقف فخذي بظهره وقولي له : توجهت إليك برسول الله ﷺ إلا ما تركت لي بني وتسأل الله أن يجعل فيهم البركة، فلما فعلت ما قال لها أبوها، قال لها ﵁: أتيت بشفيع لا يرد، ولو تركتينا على ما كنا عليه لم يكن فينا شقي ولا محروم، لكن لا يزال في كل قرن ذكر وأنثى يبلغان القطبانية تعيش الأمة في بركتهم، لكني قد استخلفت ابني عمر على الجميع وفي كل البركة، وأستودعكم الله وأستخلفه عليكم إنه لا تضيع ودائعه، فكانت تلك وجهته سائحا إلى المشرق حتى مر بولاتة فكان من أمره مع أهلها ما تقدم ذكره.

وذكروا عن تلميذه عبد الرحمان المحجوبي أنه قال:" سألته هل من آبائه من بلغ درجته، فقال لي: إنما مثلي بالنسبة إلى أبي كنسبة سم الخياط إلى جميع الخياط، وكذلك أبي من أبيه، وكذلك إلى عقبة بن عامر صاحب رسول الله ﷺ"، وهو عقبة المستجاب[1] بن عامر بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن ضبة بن زيد بن عبد مناف بن سعيد بن عبد الله بن فهر بن

[1] الأمير عقبة بن نافع القرشي الفهري: فاتح، من كبار القادة في صدر الإسلام، وهو باني مدينة القيروان، ولد في حياة النبي ﷺ وشهد فتح مصر، وكان ابن خالة عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة 42هـ واليا، فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها في طريقه، وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالا سنة 50 هـ، وسير إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل في بلاد إفريقية حتى أتى وادي القيروان، فأعجبه، فبنى فيه مسجدا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وأمر من معه فبنوا فيه مساكنهم، وعزله معاوية سنة 55 هـ فعاد إلى المشرق، ولما توفي معاوية بعثه يزيد واليا على المغرب سنة 62 هـ، فقصد القيروان، وخرج منها بجيش كثيف وفتح حصونا ومدنا، وصالحه أهل فزان، فسار إلى الزاب وتاهرت وتقدم إلى المغرب الأقصى، فبلغ البحر المحيط، وعاد فلما كان في تهودة (من أرض الزاب) تقدمته العساكر إلى القيروان وبقي في عدد قليل فطمع به الفرنج، فأطبقوا عليه فاستشهد ومن معه ودفن بالزاب، انظر: "الأعلام" للزركلي، باب: عقبة بن نافع، (241/4).

مالك، وهو الذي فتح الله المغرب على يديه، ودوخ البربر والنصارى حتى بلغ منتهى موطئ الخف والحافر، وأسلم على يديه كثير من خلق الله، وكانت قبائل العرب والبربر تتبرك بهم وتأخذ الدين عليهم والعلوم واحدا بعد واحد حتى كان زمان سيدي أحمد البكاي، انتشرت حينئذ ذريتهم وتفرعت فروعهم كما تقدم، وبنوه ثلاثة لا غير، سيدي عمر الشيخ وهو أصغرهم سنا، وأبو بكر الحاج[1]، وسيدي محمد الكنتي الصغير[2] سماه على جده سيدي محمد الكنتي بن علي بن يحيى، وهؤلاء الثلاثة ما منهم من أحد إلا وقد بلغ القطبانية العظمى وانتفع ببركته خلق كثير.

ومن وصاياه رَحِمَهُ اللَّهُ:" يا بني عليكم بتقوى الله فإنها سبب كل فتح والسلم التي يرتقى بها إلى كل نجاح، وعليكم بالفرار بدينكم فإن هذا الزمان لا يسلم فيه لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن جبل إلى جبل، وحتى يروغ المسلم بدينه كما يروغ الثعلب، واقتدوا في ذلك بقول نبيكم ﷺ: « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن »[3] أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وقوله: «إن هجرة عند هيجان كهجرة إلي»[1] رواه الطبراني وغيره، فاجتهدوا في طلب العلم فإن عبادة بلا علم تكون يوم القيامة هباء منثورا، ولا تفارقوا جماعة العلم فتفارقوا دينكم وأنتم لا تشعرون، واحفظوا وصيتي، فإنكم إن حفظتموها عشتم سعداء ومتم شهداء، واعلموا يا بني أن من قنع بما قسم الله له مات غنيا، ومن مد عينيه إلى ما في أيدي الناس مات فقيرا، قال تعالى لنبيه عليه

---

[1] الطالب بوبكر الحاج بن سيدي أحمد البكاي الكنتي، جد عشيرة الهمال وعشيرة أهل الأزرق، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص29).

[2] الإبن البكر لسيدي أحمد البكاي الكنتي، وهو جد كنتة الغربيين عن طريق أبنائه السبعة، انظر: "كنتة الشرقيون" لبول مارتي، (ص29).

[3] ح ص، "صحيح البخاري"، كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن، رقم: 19، (13/1).

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح مسلم"، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: فضل العبادة في الهرج، رقم: 2984، (2268/4): عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي».

السلام: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1]، فإن من لم يرض بما قسم الله له فقد اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استعظم زلة نفسه استصغر زلة غيره، ومن كشف عورة غيره انكشفت عورات نفسه، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيه، ومن خالط السفهاء احتقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ولا تزدروا بالرجال فتزدري بكم الرجال، وإياكم والدخول فيما لا يعنيكم فتذلوا بذلك، واتبعوا الحق لكم أو عليكم، وكونوا لكتاب الله تالين وللسلام فاشين وبالمعروف آمرين وعن المنكر ناهين، ولمن قطعكم واصلين ولمن هجركم مبتدئين ولمن سألكم معطين، وإياكم والنميمة فإنها تورث شحناء بين الرجال، وإياكم التعرض لعيوب الناس، يا بني إن طلبتم الجود فعليكم بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصول، وللأصول فروع، وللفروع ثمر، ولا يطيب ثمر إلا بفروع، ولا فروع إلا بأصول، ولا أصول إلا بمعدن طيب، إذا زرتم فزوروا الأخيار ولا تزوروا الفجار فإن زيارتهم لا خير فيها، وعليكم بالحرث في المعادن الطيبة، فإن البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، فإن نبيكم عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «إياكم وخضراء الدمن»، قالوا: يا رسول الله، وما خضراء الدمن؟، قال: « المرأة الحسناء في المنبت السوء »[2].

وقال: انكحوا في الحجر الصالح، واعلموا يا بني أن سلفكم كانوا لا ينكحون إلا صالح كل قوم وأشرف كل قبيل، وإن الشاعر يقول:

فأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح[1]

---

[1] طه: 131.

[2] "مسند الشهاب" لأبي عبد الله القضاعي المصري، باب: إياكم وخضراء الدمن، رقم: 957، (96/2)، و"إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي، (41/2)، وأخرجه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة"، (69/1)، وقال: ضعيف جدا.

[1] من البحر الطويل، منسوبة لبغثر الأسدي، انظر: "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار" لأبي القاسم الزمخشري، (255/5).

واعلموا يا بني أن العرق نزاع، وأن المرأة تلد أباها وأخاها وعمها وخالها، وإن آباءكم كانوا يحفظون أنسابهم ويحافظون على دينهم وأحسابهم، وقال للذي استفتاه [في النكاح] [1]: «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها، فعليك بذات الدين تربت يداك » [2]، وروي عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآءَاتِنَافِي ٱلدُّنۡيَاحَسَنَةً﴾ [3]:" إنها الزوجة الصالحة التي إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها " [4]، وأستودعكم الله تعالى فهو خليفتي عليكم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

والإحاطة بكراماتهم رضوان الله عليهم بحر لا يحاط بساحله، وإنما أدرك السعادة من أدركها لما سبق له من العناية في الأزل فوفقه الله لحسن العمل، والهمة تقصير الأمل. فاعلم نور الله بصيرتي وبصيرتك أن طول الأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتقاعس ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه ببرهان، كما أن قصده يبعث على العمل ويحيل على المبادرة ويحث على المسابقة. وسأضرب لك مثلا، فإن المثل أقرب إلى الإفهام وأوجز في الكلام ومثل ذلك ولله المثل الأعلى، مثل ملك من الملوك كتب إلى رجل يقول له: افعل كذا وكذا وأصلح كذا وكذا، وانتظر رسولي فلان فإني سأبعثه إليك ليأتيني بك، وإياك ثم إياك أن يأتيك رسولي إلا وقد فرغت من اشتغالك وتخلصت من أعمالك ونظرت في زادك وأخذت ما تحتاج إليه في سفرك، وإلا أحللت عليك عقابي وأنزلت عليك سخطي وعذابي وأمرته أن يأتيني بك مغلولة يداك، مقيدة رجلاك، مشمتا بك عداك، مسحوبا إلى دار خزيي وهواني وما أعددته لمن عصاني، وإن هو وجدك قد فرغت من أعمالك

---

[1] ساقط من(ب).

[2] ح ص، ورد بلفظ آخر، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم: 5090، (7/7).

[3] البقرة: 201.

[4] ليس قول ابن عباس، بل هو حديث مروي النبي ﷺ ، انظر: "مسند البزار"، باب: مسند أبي حمزة أنس بن مالك، رقم: 8537، (175/15): عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»، وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه، يروى إلا من هذا الوجه.

وقضيت جميع أشغالك، أتى بك مكرما مرفعا إلى دار رضواني وكرامتي وإحساني وما أعددته لمن امتثل أمري وعمل بطاعتي ورعاني، واحذر أن يخدعك فلان وفلانة عن امتثال أمري والاشتغال بما أمرتك به من الامتثال، وكتب إلى رجل آخر بمثل ذلك، فأما الرجل الأول فقال: هذا كتاب الملك جاءني يأمر فيه بكذا وكذا، وذكر أن رسوله يأتيني ليحملني إليه، وأنا لا أمضي إليه حتى يأتيني رسوله، ولعل رسوله لا يأتيني إلا إلى الخمسين سنة أو أكثر، فأنا على مهل وسأنظر فيما أمرني به، ولم يقع كتاب الملك منه بذلك الموقع، ولم ينزله من نفسه تلك المنزلة وقال: والله لقد أتى كتابه إلى خلق كثير بمثل ما أتاني ولم يأتهم رسوله إلا بعد السنين الكثيرة والمدة الطويلة وأنا واحد منهم، ولعل رسوله يتأخر عني كما تأخر عنهم وجعل الغالب على ظنه أن الرسول لا يأتيه إلى الخمسين سنة ظنا أو أكثر، أو إلى المدة التي جعل لنفسه بزعمه، ثم أقبل يشغل نفسه بما لا يحتاج إليه وكان غنيا عنه، وترك أوامر الملك والشغل الذي كلفه بالنظر فيه والاشتغال به، فكلما دخلت سنة سوف وقال: سأنظر في الأخرى، أو سأنظر في نفس السنة أو في الشهر الفلاني منها، فبينما هو كذلك في تسويفه واغتراره بطول أمله إذ فاجئه رسول الملك في صورة المغضب فكسر بابه وهتك حجابه وحصل معه في جوف بيته، وقال له: أجب الملك، فقال الرجل: والله لقد جاءني كتابه يأمرني فيه بأعمال أعملها، وأشغال أنظر له فيها، وما قضيت منها شغلا، فقال له الرسول: ويلك، وما الذي أبطأك عنها؟، وما الذي حبسك عن الاشتغال بها والنظر فيها؟، فقال له: لم أكن أظن أن تأتيني في هذا الوقت، فقال له: ويلكن ومن أين لك هذا الظن ومن أخبرك به؟، ومن أعلمك أني لا آتيك إلا في الوقت الذي تظن؟، قال: ظننت ظنا وطمعت وسولت لي نفسي ومنتني وخدعني الشيطان وغرني، فقال له: ألم يحذرك الملك في كتابه منهما؟، وأمرك أن لا تسمع منهما؟، قال: بلى والله لقد فعل وجاءني في كتابه، ولكني خدعت فانخدعت، وفتنت فانفتنت، فقال له: ويلك غرك الغرور وخدعتك المخادع، أجب الملك لا أمر لك فقد حل بك الهوان وأحاطت بك الزبانية والأعوان، وسترى من العذاب ألوانا في كل زمان، فقال: أنشدك بحق الملك إلا ما تركتني حتى أنظر فيما

أمرني به الملك، فقال: هيهات هيهات، ليس إلى ذلك من سبيل، ثم دفعه دفعة ألقاه على وجهه، ثم جمع يداه إلى عنقه وانطلق به يجره من خلفه خزيان ندمان جائع عطشان، قد أحاطت به الزبانية جهاته، قد غضبوا لغضب الملك عليه، لا يمرون به على محفل إلا وقد أخبروهم بعصيانه وموجبات هوانه، فلا تسأل عن سوء حاله وشدة ما يلقاه من إنكاله ووبال سوء عصيانه، يقصر اللسان عن وصف ما يلقاه من العذاب والهوان بسبب المخالفة والعصيان. وأما الأخير الموافق الذي كتب إلي الملك بمثل ما كتب به إلى هذا البائس، فإنه أخذ كتاب الملك وقبله وقرأه وتصفحه وتدبره، وقال: أرى الملك قد كتب إلي بأن أعمل كذا وأقضي له كذا، ومن أين سبقت لي هذه السابقة عند الملك؟، ومن ذا الذي أنزلني منه بهذه المنزلة حتى جعلني من خدامه والقائمين بأمره والناظرين في أعماله؟، والله إن هذه لسعادة، والله إن هذه لعناية، الحمد لله رب العالمين، ثم نظر في الكتاب فقال: واسمع الملك قد قال لي في كتابه وانتظر رسولي فإني سأبعثه إليك ليأتيني بك، وأراه لم يحد لي الوقت الذي يبعث فيه الرسول إلي ولأسماه لي، ولعلي لا أفرغ من قراءة كتابي إلا ورسوله قد أتاني ونزل علي، والله لا قدمت شغلا على شغل الملك ولا نظرت في شيء إلا بعد فراغي مما أمرني به الملك، وأعد زادا ومركوبا أركبه إن جاءني رسوله وحملني إليه، فتعرض له فلان وفلانة وقالا له: لم هذه الساعة كلها وفيم المبادرة كلها؟، فقال: ويحكما أما تريا كتاب الملك بما جاءني، أما تسمعا ما فيه، أما تصدقانه، أما تؤمنان به؟، قالا: بلى، ولكن لم يقل فيه أن رسوله يأتيك اليوم أو في غد ولا وقت، لك وقتا معلوما وقد جاء كتابه إلى فلان بهذا الذي قد جاءك أنت به، وقد بقي منتظرا إلى رسوله أكثر من سبعين سنة، وفلان أتاه الرسول بعد ثمانين سنة، وفلان وفلان وأنت واحد منهم، فقال له: ويحك أتدلني على الغرور، أو ما ترى أنت فلانا قد جاءه كتاب الملك بهذا الذي قد جاءني به وجاءه الرسول إثر مجيء الكتاب وفلان كذلك مما لا يحصى كثرة، وفلان جاءه الرسول بعد شهر، وفلان بعد سنة، فدعني من غرورك، والله إني لأخاف أن يأتيني الرسول وأنا أكلمك، فدعني من شرك، ثم أقبل على ما أمره به الملك وامتثل بقدر وسعه وطاقته واشتغل بما

يجب أن يشتغل به، وأعد ما ينبغي أن يعد من الزاد لسفره وجعل ينتظر الرسول أن يأتيه ويفرح بالسفر إلى حضرة الملك لما يأمله من الخير من الملك، فبينما هو كذلك إذ هو برسول الملك قد أتاه بخلع الكرامة وبأنواع التحف والهدايا والبشرى برضا الملك عنه، فسلم عليه وبشره بإقبال الملك عليه وأن له عنده المنزلة الرفيعة وأنه محبوب عند أهل حضرته وأنهم منتظرون لقدومه، فأجب على بركة الله الملك وارتحل إليه مكرما معظما، قال: نعم، فهنيئا لك، قال: بسم الله، فخلع عليه خلعة الأولياء وكساه كسوة الأصفياء وأعطاه مركوبا يليق به من مراكب الملك، وانطلق به في حبور وسرور وهو ينشد بلسان حاله[1]:

هنـئوني بـغـبطتي وســـروري فـجـــديـر بـأن يـهنـأ مـثـلـي

ربحت صفـقـتي وزكي سـعيـي وارتـقى للإلـه قـولـــي وفـعـلـي

كيف لـي أن أعبر اليوم عـــني بمـقال يـبـــيـن وصف محلـي

ضاقت الكتب أن تضم حديـثي بل تلاشت عن بعض ما أنا أملي

قـد بلغت المـنا وزدت عـليـها وتـــمـلأت بـالمـــسـرة كـــلـي

ليـت قومـي يعلمون بـما مـــن نـــعمة الله عـلـــي وفـــضـلـــي

طـــاب عيشـي وقر فيه قـراري وتـقـلبـــت بـــيـــن مـاء وظـلـي

أنا ذاكـم حقيـــقة أم غـــيـري فاعـــذروني فـقد تـأله عـقلي[1]

---

[1] انظر: "العاقبة في ذكر الموت" لعبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الإشبيلي المعرف بإبن الخراط، (78/1).

[1] هذه الأبيات مكسورة الوزن، قائلها مجهول، "العاقبة في ذكر الموت" لعبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الإشبيلي المعرف بإبن الخراط، (78/1).

[فهذا مثال حال الناس] [1] في الدنيا، فمنهم مغرور مفرط مثبور، ومنهم مشمر مبشر مسرور، ورحم الله عبدا قصر من أمله قبل حلول أجله، وأخذ من يومه وأمسه ما يستضئ به في ظلم رمسه.

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[2]، قال أبو عيس: هذا حديث حسن غريب. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان ثلثي الليل قام فقال: « يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»[3]، الحديث.

روى الترمذي قال: قال الرسول عليه الصلاة والسلام: « اتقوا الله حق تقاته واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، والآخرة بالبقاء، واعلموا أنما بعد الموت فكأنكم بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل، أيها الناس اعلموا أن كل من في الدنيا ضيف وما في يديه عارية وأن الضيف مرتحل والعارية مردودة، ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فرحم الله امرءا نظر لنفسه ومهد لرمسه مادام رسنه مرخيا وحبله على غاربه ملقيا قبل أن ينفد أجله ويبطل عمله»[4].

وقال علي كرم الله وجهه: " من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار كف عن الشهوات والمحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب[1]، ومن ارتقب الموت بادر إلى الخيرات، ومن لم يسخط نفسه في شهواتها لم يرض ربه بطاعته، ومن لم يتق الله في

---

[1] ساقط من (ب).

[2] "سنن الترمذي"، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، رقم: 2450، (214/4)، وقال الترمذي: ح س غريب.

[3] "سنن الترمذي"، أبواب: صفة يوم القيامة والرقائق والورع، باب: 23، رقم: 2457، (218/4)، وقال الترمذي: ح س.

[4] لم أقف عليه في: "سنن الترمذي"، انظر: "الفتوحات المكية" محيي الدين ابن عربي الحاتمي، (376/8).

[1] حديث رواه علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ، وورد بلفظ آخر، انظر: "مسند الشهاب القضاعي"، باب: من اشتاق إلى الجنة ، رقم: 348، (226/1)، وأخرجه ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ، (2205/4)، وقال في سنده ضعيف.

سره لم ينفعه بما يتحلى به في علانيته، فلا تغرنكم لذة الدنيا العاجلة فمع كل جرعة غصص ومع كل أكلة غصص، ولا يكاد أحد ينال نعمة منها إلا بفراق أخرى فأعرضوا عن إدراك دار كتب عليها الفناء لا بقاء لها، وبادروا لدار كتب عليها البقاء ولا فناء لها، ولا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، وقطعوا طول الأمل بقصر الأجل[1]، وأنشد:

تفكرت في الدنيا وفي شهـواتها ولذاتها حتى أطلت التـفـكرا

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها لحر مـقل كان أو كان مكثـرا

وكيف يلذ الـعيش من هو سالك سبيل المنـايا رائـحا ومـبكرا[2]

ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس وتسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، وإن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط »[3]. إنك لن تدع شيئا تقربا إلى الله إلا أجزل لك الثواب، فاجعل همك وسعيك للآخرة التي لا ينفد ثواب المرضى عنه ولا يقطع فيها عقاب المسخوط عليه.

وروى وهب بن منبه أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام أن: « من أحب حبيبا صدق قوله، ومن أنس لحبيب رضي فعله، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه، ومن اشتاق إلى

---

[1] لم أقف عليه.

[2] من البحر الطويل، منسوبة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر: "أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين" للمعافى بن إسماعيل الموصلي، (425/1).

[3] "شعب الإيمان للبيهقي"، باب: القدر خيره وشره من الله عز وجل، رقم:203، (382/1)، وقال البيهقي: فيه محمد بن مروان وهو ضعيف.

حبيب جد في السير إليه، يا داود ذكري للذاكرين، وجنتي للمنقطعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة المحبين»[1].

وروي عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تكون أمتي في الدنيا على ثلاث طبقات، أما الطبقة الأولى فإنهم لا يرغبون في جمع المال واحتكاره وإنما رضاهم من الدنيا ما سد جوعة وستر عورة وغناهم في ما بلغ الآخرة فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما الطبقة الثانية فإنهم يحبون جمع المال من أطيب سبله وصرفه في أحسن وجوهه، يصلون به أرحامهم ويقربون به إخوانهم ويواسون به فقراءهم، ولقص لحم أحدهم أسهل عليه من أن يكتسب درهما من غير حله وأن يضعه في غير وجهه وأن يمنعه من محقه أو أن يكون خازنا له إلى حين موته، فأولئك الذين إن نوقشوا عذبوا وإن عفي عنهم سلموا، وأما الطبقة الثالثة فإنهم يحبون جمع المال مما حل أو حرم، ومنعه مما وجب إن أنفقوه إسرافا وبدارا وإن أمسكوه بخلا واحتكارا، أولئك الذين ملكت الدنيا أزمة قلوبهم حتى أوردتهم النار بذنوبهم»[2].

ذكر أنه لما حضرت حذيفة رضي الله عنه الوفاة جعل يقول: " مرحبا بالموت وأهلا، مرحبا بحبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، أما والله إني لا أحب الدنيا لحفر الأنهار ولا لغرس الأشجار، وإنما كنت أحب الدنيا للإنفاق على الإخوان وإسعاف المساكين، وكان يعجبني البقاء فيها لسهر الدياجر وظمأ الهواجر وكثرة الركوع والسجود والخشوع وذكر الله، ومزاحمة العلماء بالركب"[3].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: « بسط الأمل متقدم حلول الأجل والمعاد مضمار العمل فمغتبط بما احتقب من العمل غانم، ومبتئس بما فاته من العمل نادم، أيها الناس إن الطمع فقر واليأس غنى والقناعة راحة والعزلة عبادة والعمل كنز

---

[1] حديث يذكره أغلب الصوفية في كتبهم ولا أصل له في مصادر الحديث، انظر: "محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار ﷺ ومحاسن السادة الأخيار" للشيخ محمد بن شعيب الأبشيهي، (ص353).

[2] بلفظ آخر، انظر: "الزهد والرقائق" لابن المبارك، باب:ما جاء في ذم التنعم في الدنيا، رقم:726،(268/1).

[3] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (299/12).

والدنيا معدن، والله لا يسرني ما مضى من دنياكم ولا ما بقي منها إلا كبيع الماء بالماء وكل إلى نفاذ وشيك وزوال قريب، فبادروا وأنتم في مهل الأنفاس من أخذة الإختلاس قبل أن يؤخذ بالكظم ولا يغني الندم»[1].

ومن حديث أبي هريرة ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إياكم وفضول المطعم فإنه يقسي القلب، وإن القسوة تبطئ بالجوارح عن الطاعة وتصم الفهم عن سماع الموعظة، وإياكم وفضول النظر فإنه يبرز الهوى ويولد الغفلة، وإياكم واستشعار الطمع فإنه يشرب القلب شدة الحرص ويختم على القلوب بطابع حب الدنيا وهو مفتاح كل سيئة وسبب إحباط كل حسنة»[2].

يروى أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليه السلام فلهي عنه فأوحى الله إلى يحيى أن اسأله فإنه يصدقك، فسأله عن مسائل منها أن قال له: هل قدرت علي قط؟، قال: نعم، ليلة واحدة امتلأت من الطعام فنمت عن وردك، فقال له يحيى: إذا لا أشبع من الطعام أبدا، فقال إبليس: إني لا أنصح أحدا بعدك أبدا [3]، وأنشدوا في المعنى:

وكم من أكلة منعت أخـاها بأكلة ساعـة أكـلات دهـري

وكـم من طالب يسعى لشيء وفـيه هلاكه لو كـان يـدري[4]

ومن حديث أنس ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: من آذى لي وليا فقد استحل محارمي، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال العبد يتقرب إلي بنوافل

[1] انظر: "الكشكول" لبهاء الدين العاملي، (197/2).

[2] انظر: "الفتوحات المكية" لمحيي الدين ابن عربي الحاتمي، (376/8).

[3] "أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين" للمعافى بن إسماعيل الموصلي، (435/1).

[4] هذه الأبيات من البحر الوافر، لإبراهيم بن هرمة، انظر: "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (355/60).

الخير حتى أحبه، وما ترددت في شيء كترددي عن وفاة عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد منه»[1].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أيها الناس إن الرزق مقسوم لن يعدم امرؤ ما كتب له فأجملوا في الطلب، وإن العمر محدود فلن يجاوز أحد ما قدر له فبادروا قبل نفاد الأجل والعمل، فحصيه لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة، فأكثروا من صالح الأعمال، أيها الناس إن في القناعة لسعة وإن في الاقتصاد لبلغة وإن في الزهد لراحة، ولكل عمل جزاء وكل ما هو آت قريب»[2].

وعنه رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أكثروا من ذكر هادم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فأجرتم، وإن ذكرتموه في غنى نغصه عليكم فجدتم به فأثبتم، إن المنايا قاطعات الآجال، وإن المرء بين يومين، يوم قد مضى أحصي فيه عمله فختم عليه، ويوم لا يدري لعله لا يصل إليه، وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف وقلة غناء ما خلف، ولعله لا يدري أمن باطل جمعه أو من حق منعه»[3].

ذكر عن الرشيد أنه لما حضرته الوفاة أمر بالرماد ففرش وبالأكفان فاحتضرت، فجعل يتمرغ على الرماد ويمد يديه إلى الأكفان وهو يبكي ويقول:" ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه، يا من لا يزال ملكه ارحم من قد زال ملكه "[1].

---

[1] ح ص، ورد بلفظ آخر قريب منه، انظر: "صحيح البخاري"، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم: 6502، (105/8).

[2] انظر: "أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين" للمعافى بن إسماعيل الموصلي، (440/1).

[3] ورد بلفظ آخر، انظر: "مسند الشهاب القضاعي"، باب: أكثروا من ذكر هادم اللذات، رقم: 668، (391/1)، و"العاقبة في ذكر الموت" لعبد الحق بن عبد الرحمان الأندلسي الإشبيلي، المعروف بابن الخراط، (87/1)، وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد"، (308/10)، وقال: إسناده حسن.

[1] "تاريخ دمشق" لابن عساكر، (322/73).

ولما كثر سب الناس للدنيا وعيبهم لها قال رسول الله ﷺ: « لا تسبوا الدنيا فإنها نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير ومنها ينجوا من الشر، وإذا قال العبد لعن الله الدنيا تقول لعن الله أعصانا لربه»[1].

وفي ذلك يقول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فنهجوه ونشتمه بظلم ولو نطق الزمان بنا هجانا [2]

ذكر أن شاه الكرماني[3] رحمه الله خرج في بعض أيامه يصطاد وهو يومئذ ملك كرمان[4]، فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده، فبينما هو متحير بتلك المفازة إذ وقع بصره على شاب راكب على أسد وحوله أُسْدٌ كثيرة، فلما رأت شاها ابتدرت إليه فزجرها الشاب عنه فكفت، فلما دنا منه سلم عليه، فقال: يا شاه ما هذه الغفلة عن الله؟، اشتغلت بدنياك عن آخرتك وبلذتك عن خدمة مولاك، إنما أعطاك الدنيا لتستعين بها على خدمته فجعلتها ذريعة إلى الإشتغال عنه، فبينما الشاب يحدث شاها إذ ظهرت لهما عجوز وبيدها شربة ماء فناولتها الشاب فشرب منها ثم دفع بقيتها إلى شاه فشرب، وقال: والله ما ذقت شيئا ألذ منه ولا أبرد ولا أعذب، ثم غابت العجوز فقلت للشاب: من هذه العجوز؟، قال: هي الدنيا وكلها الله تخدمني، فما احتجت لشيء إلا وأحضرته إلى حين يخطر ببالي أو ما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا، قال لها: يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه، فلما رأى شاه ذلك تاب

---

[1] بلفظ آخر، "الدعاء" للطبراني، رقم: 2052،(568/1)،أخرجه الألباني في "السلسلة الضعيفة"، (699/11)، وقال: ح م.

[2] من البحر الوافر للإمام الشافعي، انظر: "عيون الأخبار" لابن قتيبة، (284/2).

[3] جلال الدين شاه شجاع ابن مبارز الدين محمد بن مظفر بن منصور بن بهلوان حاجي الكرماني الخوافي الخراساني. تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 761 هـ، وقيل سنة 759 هـ، هو ثاني ملوك آل المظفر حكام يزد وكرمان والعراق وفارس، وهو إلى جانب ذلك أديب وحافظ للقرآن، (ت 785 هـ / 1384 م)، انظر: "حلية الأولياء وطبقات الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني، (237/10).

[4] محافظة في إيران حاليا، وهي من المدن التاريخية، انظر : "معجم البلدان" لياقوت الحموي، باب: كِرْمَان، (454/4).

ورجع وكان على ما كان عليه من العدل في السيرة وحسن العمل فقد شاع وانتشر واسودت به الدواوين[1].

ويروى أن الدنيا تطلب الهارب عنها وتفر من الطالب لها فإن أدركها الطالب أهلكته وإن أدركت الهارب منها جرحته[2].

***انتهى القسم الأول ***

[1] "حياة الحيوان الكبرى" لأبي البقاء لمحمد بن موسى بن عيسى الدميري، (22/2).

[2] "البصائر والذخائر" لأبي الحيان التوحيدي، (33/8).

الفهارس:

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام والأسماء

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس القبائل والعشائر

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس موضوعات القسم الأول من كتاب المنة

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في قسم التحقيق

فهرس الآيات القرآنية

﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 1إلى 5] 322

﴿الم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:1 – 2] 318

﴿بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3] 319–321

﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: 17] 115

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة: 18] 115

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة:23] 317

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة:28] 14

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] 33

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30] 33–342–337

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 44] 189

﴿مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:98] 130

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: 109] 31

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة: 116] 325–324

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: 117] 325

﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة:118] 325–326

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119] 326

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]–50

﴿ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132] 102–557

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [البقرة: 136] 255

﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:163] 31

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة: 165] 26

﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار ﴾ [البقرة:175] 390

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْر ﴾ [البقرة:185] 349-350

﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195] 497

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]- 497

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201] 561

﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: 225] 345

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253] 79-348

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ الآية [البقرة: 255] 31-33-82-83-85-87-89-90- 497

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257] 363

﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [البقرة: 269] 242-391- 496

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282] 101- 497

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية [البقرة: 284] 343-344- 345-346-348

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ﴾ الآية [البقرة: 285] 344- 347

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ الآية [البقرة: 286] 343-344- 345-348-351-352

﴿ الم اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران 1 -2] 354

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6] 139

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 7] 126

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]- 141

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران: 19]- 259

﴿قلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26 - 27] 540

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33] 189

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ [آل عمران: 37] 408

﴿ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42] 424

﴿ وَكَهْلاً ﴾ [آل عمران: 46] 307

﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: 49] 145

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ الآية [آل عمران: 59] 355-356

﴿ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [آل عمران: 60] 356

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 61] 357

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ﴾ [آل عمران: 62]

﴿ فإن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: 63] 358

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: 64] 359

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: 83] 274

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ الآيـة [آل عـمـران: 102] 98-102

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ الآية [آل عمران: 103] 40-70-103

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران: 105] 91-93

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ ﴾ الآية [آل عمران: 106] 93-94-95-97

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 110] 398-426

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: 144] 370

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: 181] 261

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: 191] 41

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء: 31] 193

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] 199

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: 60] 377

﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: 69] 101

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: 76] 390

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] 410

﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ [النساء: 94] 13

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 108] 167

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: 115] 41-88

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123] 345

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: 159] 308

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: 164] 33

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] 36-369

﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19] 248

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] 101

﴿ مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: 75] 424

﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116] 192

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:116 إلى 118] 192

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: 117-118] 244

﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119] 192

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: 59] 32

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية [الأنعام: 75] 42-44-50

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾ الآية [الأنعام: 76] 45-47-51

﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ الآية [الأنعام: 77] 48-50-51

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ الآية [الأنعام: 78] 47-51

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: 79] 52

﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآية [الأنعام: 80] 52

﴿ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ الآية [الأنعام: 81] 53-54

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: 82] 53-54

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ الآية [الأنعام: 83] 54-55

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الآية [الأنعام: 90] 80-81-515

﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: 103] 61-63-64

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 104] 66

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: 125] 13

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ﴾ الآية [الأنعام: 158] 306

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 6] 247-248

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: 7] 248

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ [الأعراف: 8] 222

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: 8-9] 223

﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 21] 190

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ الآية [الأعراف: 54] 126-127-129-131

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً﴾ الآية [الأعراف: 55] 131-132-133-138

﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ الآية [الأعراف:56] 132-137-138

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143] 63

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: 144] 189

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [الأعراف: 170] 70

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: 172] 95-272-274-333

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: 6] 33

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [التوبة: 29] 258-259-539

﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30] 260-263-264

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة:31] 265

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: 32] 266

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33] 266-267

﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ﴾ [التوبة: 40] 368

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] 398

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 95-96]- 206

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة:106] 201

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:111] 58-

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة: 117] 201-206

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ الآية [التوبة: 118]- 201

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] 206

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: 3]- 126

﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15] 276

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] 62

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [يونس:57] 359-360

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58] 360

﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] 361-362-363

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63] 363

﴿ لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية [يونس: 64] 364-365-366

﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101] 14-157

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: 13] 317

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ [هود: 45] 191

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ الآية [هود: 71] 577

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88] 189

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103] 481

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] 277

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف: 17]- 319

﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: 28] - 390

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] 88

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: 5] 390

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية [الرعد: 17] 180-181-183-184

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى﴾ [الرعد: 17-18] 184

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [الرعد: 18] 185

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35] 50

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] 322

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92-93] 246-247

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً﴾ [النحل: 58] 94

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ﴾ [النحل: 62] 119

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: 68] 275

﴿ فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: 74] 30

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل: 75] 327-328

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: 76] 328-329

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ﴾ الآية [النحل: 77] 329

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ الآية [النحل: 78] 330-331

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: 79] 331

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى﴾ [النحل: 90] 319

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128] 100

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ [الإسراء: 13] 254-255

﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: 14]- 255

﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 42] 113

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً﴾ [الإسراء: 43] 31-113

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: 44] 113

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ إلى: ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [الإسراء: 74-75] 59

﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء: 81] 180

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84] 28

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: 110] 135

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ [الكهف: 9] 469

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13] 22

﴿ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ﴾ [الكهف: 16] 15

﴿ رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ الآية [الكهف: 22] 23

﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ الآية [الكهف 49] 245-246

﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾ [الكهف: 105] 220

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خفيا﴾ [مريم: 3] 133

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً﴾ إلى قوله: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾ [مريم: 18-19] 389

﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً﴾ [مريم: 22] 428

﴿ فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الآية [مريم: 23] 428

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً﴾ [مريم: 24] 428

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً﴾ [مريم: 25] 428

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً﴾ الآية [مريم: 26] 429

﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسِياً فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: 26-27] 429

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً﴾ [مريم: 27] 429

﴿ يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً﴾ [مريم: 28] 429-430

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْدِ صَبِياً﴾ [مريم: 29] 430

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾ [مريم: 30] 430-431

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾ [مريم: 31] 133-431

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إلى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً﴾ [مريم: 31-32] 431

﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَياً﴾ [مريم: 33] 431

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34] 432

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ الآية [مريم: 35] 432

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36] 432

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ الآية [مريم: 37] 432-433

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ألآية [مريم: 38]- 433

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ الآية [مريم: 39] 433-434

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ﴾ [مريم: 54] 210

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ الآية [مريم: 71] 224-234-236-237

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [مريم: 72] 102-236-237-238

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] 123-128

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ إلى : ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: 14-15] 68-316

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ إلى: ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: 15-16] 316

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه:17- 18] 68-389

﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 92-93-94] 115

﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ [طه: 97] 50

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: 110] 64

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: 115] 190-350

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121] 185-186-190

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [طه: 122] 191

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ﴾ الآية [طه: 131] 160-161-560

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية [طه: 132] 161

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] 180

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: 21] 106

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22] 31-105-107

﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] 27-107-346

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ الآية [الأنبياء: 24] 107-108

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] 108

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ الآية [الأنبياء: 26] 108

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنبياء: 28]- 108

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ [الأنبياء: 29]- 109

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً﴾ [الأنبياء: 30] 109

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31] 110

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ [الأنبياء: 32] 110

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: 33] 111

﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 34] 49

﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ﴾ [الأنبياء: 47] 219-220

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63] 191

﴿ يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] 56

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 79] 275

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونُ فِي الخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: 90] 189

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء:101-102] 235

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ الآية [الأنبياء: 104] 242

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] 258

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ﴾ الآية [الحج: 5] 141-143-391

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾ [الحج: 6] 144

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: 7] 144

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: 14] 32

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ﴾ [الحج: 32] 100

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] 115-116

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ [الحج: 73] 323

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 74] 323

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75] 189-323

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج: 76] 324

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] 349-351

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] 144

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: 13]-144

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية [المؤمنون: 14] 144

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: 15] 146

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 16] 146

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: 17]-146

﴿ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 84] 111

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: 85]-111

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [المؤمنون: 86] 112

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: 87] 112

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: 88] 112

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: 89]-112

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: 90] 112

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: 91] 112

﴿ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 92] 113

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11]-402

﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور: 22]-402

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] 217-218

﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ و﴾ [النور: 37] 523

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: 1] 71-257

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ [الفرقان: 11]-39

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]- 135

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ﴾ [الشعراء: 61-62] 63

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-194] 33

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215] 163

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: 18] 275-279

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: 19] 279-280

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ﴾ [النمل: 20] 280

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 21] 281-282-283

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: 22] 283

﴿ وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 23] 284

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 24] 286

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ﴾ [النمل: 25] 286

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل: 26]- 286

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النمل: 27] 286

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: 28] 287

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: 30] 288

﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 31] 288

﴿ يَاأَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: 32] 288

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ﴾ [النمل: 33] 288

﴿ قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: 34] 289

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 35] 289

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: 36]- 291

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل: 37] 291

﴿ قَالَ يَاأَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38]- 292

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ [النمل: 39]- 292

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ﴾ [النمل: 40] 292-293

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: 41] 293

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 42] 294

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 43]- 294

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: 44] 294

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ [النمل: 61] 336

﴿ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62] 336-337

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: 63]- 337

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل: 64] 337

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: 65] 338

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [النمل: 66] 338

﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [النمل: 68]- 338

﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل: 69-70] 338

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ [النمل: 70]- 339

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ ﴾ [النمل: 71-72] 339

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [النمل: 74]- 339

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: 75]- 339

﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: 80] 14

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ [النمل: 82] 300-301-302

﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا] [القصص: 9] 404

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 23] 235

﴿ يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: 26] 404

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] 51

﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 27] 43

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]-511

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: 28] 331-332

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: 29] 332

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: 30] 333-334

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: 31] 334

﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: 31-32] 335

﴿ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] 53-195-217

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25] 333

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27] 496

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ ﴾ الآية [لقمان: 34] 320

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: 10] 156

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [السجدة: 16] 523

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]- 419

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الآية [الأحزاب: 28] 412

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ﴾ إلى: ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: 28-29] 410-411

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب: 30] 413

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: 31] - 413

﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: 32] 413-420

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] 410-414-415

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34] 415

﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: 35] 416-417-418

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ الآية [الأحزاب: 37] 59-447-448-449-450

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40] 449

﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: 52] 411

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 56] 467

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الآية [الأحزاب: 72] 297-298

﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 73] 299

﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: 10] 275-296

﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13] 80

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: 24] 24

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39] 174

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر: 3] 145

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] 31

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: 37] 491

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ [يس: 37] 120

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: 38] 120-121

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 39] 121

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ﴾ [يس: 40] - 122

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: 49] 314

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 50] 314

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51] 314-315

﴿ يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52] 315

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 53] 315

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: 55] 523

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ إلى: ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: 74-75] 26

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: 77]- 151

﴿ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78]- 151-150

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 79]- 152-150

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً﴾ [يس: 80] 151-152

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [يس: 81] 32-151

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] 32

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: 16-17-18] 152

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الصافات: 19] 152

﴿ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: 20] 152

﴿ هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: 21] 152

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الصافات: 22] 152

﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوَهُمْ إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ وَقِفُوَهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 22-23-24] 153

﴿ وَقِفُوَهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: 24-25] 153

﴿ بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: 26] 154

﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] 191

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] 29-159

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 100] 211

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: 101-102] 209

﴿ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: 102] 208-211-212

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] 212

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: 103-104-105] 214

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾ [الصافات: 106] 214

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107] 214

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: 108] 215

﴿ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 109-110-111]-215

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: 112] 209-210

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾ [الصافات: 158] - 119

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ﴾ [ص: 44] 80

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ إلى: ﴿ لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: 45-46-47] 190

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86] 276

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3] 257

﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ﴾ [الزمر: 7] 27-390

﴿ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16] 102

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] 370

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31] 247

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ [الزمر: 33] 368

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] 199

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62] 145

﴿ ثمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] 147-152-315

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ﴾ [غافر: 7] 339-340-342

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ [غافر: 8] 342

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: 9] 342-343

﴿ لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [غافر: 16] - 314

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] 136

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12] 253

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: 30] 366

﴿ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: 37] 27

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ [فصلت: 39] 391

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] 30

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ إلى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 17-18] 316

﴿ وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ [الزخرف: 19] 118

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف:20]- 27

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: 84] 30

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: 10] 465

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى﴾ [الدخان: 16] 465

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ إلى: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الدخان: 25-26-27-28] 441

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49] 50

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان: 56] 14

﴿ حم تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 1-2] 83

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] 42

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18] 398

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الآية [الفتح: 29] 35-38

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ [الحجرات: 7] 13

﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ الآية [الحجرات:11] 217

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4] 156

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: 22] 483

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ﴾ [ق:30] 277

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] 360-497

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق: 39] 62

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلى: ﴿ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ [ق: 41-42] 157

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] 331

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22] 158

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] 158

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] 164

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الآية [الذاريات: 57] 164

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات: 58] 159-165

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: 21] 72

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 10] 60

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: 16] 352

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: 27-28] 118

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم ﴾ الآية [النجم: 32] 139-193-194-198

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: 11]- 387

﴿ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 47-48-49] 249

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] 253

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]- 254

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] 31-101

﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُهْطِعِينَ] [القمر:7-8] 157

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمان: 39] 246

﴿ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ﴾ [الواقعة: 27] 274

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 39] 75-77

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 39-40] 75

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: 47-48] 154

﴿ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 49] 154

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ [الواقعة: 50-51] 154

﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ إلى: ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ﴾ [الواقعة: 52-53-54-55] 154

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: 57] 154

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: 58] 155

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: 59] - 155

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ [الواقعة: 60] 155

﴿ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: 61] 155

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى﴾ [الواقعة: 62] 156

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] 167

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ [الواقعة: 64] 168

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ [الواقعة: 65] 168

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: 66] 168

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: 67] 169

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلى: ﴿ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: 68-69] 169

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ [الواقعة: 70] 169

﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: 72] 169

﴿ أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ [الواقعة: 72-73] 169

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82] 171

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ﴾ الآية [الحديد: 3] 30

﴿ بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحديد: 12] 366

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16] - 405

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: 19] 424

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] 436

﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6] 446

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7] 40

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: 5] 42

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] 13

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: 1] 356

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: 2] 175

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3] 174

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ الآية [الطلاق:3] 175-176

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ إلى: ﴿ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ [التحريم: 4-5] 450

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم: 6] 118

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [التحريم: 10] 451

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: 11] 452

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾الآية [التحريم:12] 452-453

﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2] 434

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى: ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 42-43] - 441

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17] 339

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24] 556

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] 33

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ إلى: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾ [الحاقة: 44-45-46] 59

﴿ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] 157

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ إلى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: 10-11-12] 177

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ [نوح: 11] 178

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12] 178

﴿ وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ [الجن: 8] 368

﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26-27] 33-87

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ إلى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 42-43-44-45-46-47-48] 74

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22-23] 61-64

﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: 35] 247

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ [النبأ: 19] 387

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ إلى: ﴿ فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات: 37-38-39-40-41] - 524

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ إلى : ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 42-43-44-45-46] 316

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ [عبس: 1-2] 59

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17] 390

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: 21] 14

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: 19] 33

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [التكوير: 29] 32

﴿ وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: 4] 147

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ إلى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [المطففين: 1-2-3-4-5-6] 494

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 15] 61

﴿ يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: 6] 242

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إلى: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ [الانشقاق: 7-8-9] 242

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [الانشقاق: 8] 243

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾[الانشقاق: 9] 243

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾[الانشقاق: 10] - 243

﴿ وَيصلَى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق: 12] 243

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الانشقاق: 13] 243

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: 14] 243

﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ [الانشقاق: 15] 243

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ إلى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى: 9-10-11] 14

﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي ﴾ [الفجر: 27-28-29] 116

﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى: ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27-28-29-30] 58

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ إلى: ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: 14-15-16] 39

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ [الضحى: 8] 420

﴿ فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: 9] 422

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: 10] 422

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: 11] 423

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إلى: ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: 1-2-3] 317

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: 2] 147

﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: 3] 148

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: 4] 148

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] 148

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ [الزلزلة: 6] 148

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7] 149

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8] 149-150

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: 4] 157

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: 1] 226

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1] 31-34

فهرس الأحاديث النبوية

«اللهم اهد دوسا وآت بهم تائبين» 460

«اللهم اغفر لعثمان ما قدم وما أخر»383

«اللهم حبب بين نسائنا وخالف بين رعائنا واجعل المال بأيدي سمحائنا» 556

«اللهم لا تغفر لمحلم» 396

«اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» 416

«اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» 393

«المتحابون بجلالي لهم منابر من نور » 362

«المسلم من سلم الناس من يديه ولسانه» 557

«المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما» 100

«الولي في قومه كالنبي في أمته» 512

«أمامكم حوضي ما بين جنبيه كما بين جرباء وأدرج» 226

«أمتي كالمطر لا يدرى أخير أوله أم آخره» 179

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»–13

«إن الأرض تقبل من هو شر منه » 396

«إن الدجال تتقدمه ثلاث سنين مقحطة » 312

«إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه » 273

«إن الله تعالى أنزل علي ثلاثة علوم » 60

«إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها » 344–

«إن الله تعالى جعل لكل نبي دعوة مستجابة » 79

«إن الله تعالى قال: من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب» 494

«إن الله تعالى يوقف عبده المؤمن يوم القيامة بين يديه » 136

«إن الله جاعل لك آية، فادع قومك إلى الله ورسوله» 459

«أن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا» 194

«إن الله عز وجل لا ينام » 84

«إن الله كتب كتبا قبل ن يخلق السماوات والأرض بألفي عام » 353

«إن الله ليلقي كنفه على عبد من أمتي » 243

«إن الله يبعث الشفعاء إلى النار » 73

«إن الله يحب العبد الملحاح» 135

«إن الله يرضى لكم ثلاثا » 104

«إن الله يستخلص رجلا من أمتي » 220

«إن المؤمن يرى ذنوبه فوق رأسه كالجبل » 207

«إن أهل البيت ليتتابعون في الجنة » 72

«إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها » 301

«إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا» 304

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما»- 194

«إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن » 228

«إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما» 140

«إن دون الفتنة بابا مغلقا» 374

«إن روح القدس نفث في روعي » 159

«إن فتنة الرجل في ماله وولده وزوجته» 373

«إن لكل حق حقيقة وما حقيقة إيمانك؟» 115

«إن لله عبادا اختصهم بنعمه ووجه إليهم طلابها» 575

«إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون» 362

«إن لي وزيرين من أهل السماء » 397

«إن مثل ما بعثني الله به من الهدى» 181

«إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس وتسخط الله» 566

«إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء» 362

«إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء » 361

«إن هجرة عند هيجان كهجرة إلي» 559

«أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» 449

«أنا فرطكم على حوضي » 227

«أنا مدينة العلم وعلي بابها» 385

«أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» 422

«أنت إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ» 416

«أنت في هذه الأمة بمنزلة عيسى بن مريم في بني إسرائيل » 391

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» 392

«أنتم آخر سبعين أمة » 426

«أنظروا إلى من هو أسفل منكم في الرزق » 163

«إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر» 62

«أنه لها فذهب من حينه حتى سجد » 72

«إنهم كانوا يسمون أنبياءهم والصالحين فيهم» 430

«إني خلقت عبادي حنفاء » 434

«إني لا أعلم آخر أهل النار خروجا منها» 240

«إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن » 227

«إني مقبوض الآن، وإن الله خيرني بين الدنيا وما عنده» 408

«أول من غير دين الحنيفية عمرو بن لحي » 271

«إي وربي إنهم يبعثون من جميع ذلك » 157

«إياكم وخضراء الدمن» 560

«إياكم وفضول المطعم فإنه يقسي القلب» 568

«إياكم ومحقرات الذنوب » 245

«أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة» 316

«أيها الناس إن الرزق مقسوم » 569

«أيها الناس إنكم محشرون» 244

«باب التوبة من قبل المغرب مسيرة عرضه» 304

«بادروا بالأعمال ستا » 301

«بادروا بالأعمال ستطلع الشمس من مغربها » 304

«بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل » 96

«بجلوا المشايخ فإن تبجيلهم من تعظيم جلال الله» 100

«بجلوا المشايخ، فإن تبجيلهم من تعظيم جلال الله» 511

«بسط الأمل متقدم حلول الأجل» 567

«بلى، ولكن أقواما يأتون من بعدي يومنون بي ولم يروني » 322

«بئس الشعب شعب أحياء » 302

«تخرج الدابة من شعب أجياد » 303

«ترد علي أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه» 227

«تفكر ساعة خير من عبادة سنة » 41

«تقئ الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان » 147

«تكون أمتي في الدنيا على ثلاث طبقات» 567

«تمسكوا بكتاب الله » 81

«تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها، فعليك بذات الدين تربت يداك» 561

«تهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام» 267

«توبوا إلى ربكم » 218

«ثلاث إذا خرجن لا ينفع الناس إيمانها » 303-306

«ثلاث من أمر الجاهلية لا تتركها » 178

«ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد » 314

«جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة» 364

«حب علي من الإيمان وبغضه من الكفر» 393

«حبيبتي تحرق أعدائي » 170

«حسبك من النساء مريم بنت عمران » 435

«حسبك من نساء العالمين، مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» 453

«حوضي مسيرة شهرا» 226

«خرج رسول الله ﷺ عشية من العشيات» 305

«خير القرون الذي بعثت فيه» 397

«خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » 397

«خير أمتي أولها وآخرها» 197

«خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه» 422

«خير نسائها مريم بنت عمران» 425

«خير هذه الأمة أولها وآخرها » 313

«ذلك مدد السماء، وقل ما يراه إلا مشرك» 446

«رب اغفر لي وتب » 218

«رفع القلم عن ثلاث: الصبي حتى يبلغ» 431

«رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » 349

«سألت ربي عز وجل مسألة » 421

«سبحان الله، ويلك، إن أنا شفعت إلى ربي » 466

«سبق المفردون» 418

«سد عثمان خلة آل محمد، سد الله خلقه في الدنيا والآخرة» 383

«سيأتي من بعدكم أقوام أهل أهواء » 276

«شرككم، يقولون مطرنا » 172

«صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب » 250

«عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» 67

«عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط » 75

«على قدر التعظيم تكون البركة» 100

«على قدر التعظيم تكون البركة» 512

«عليكم بالجماعة فإنها حبل الله » 104

«عن شبابه فيما أبلاه» 153

«غدا أعطي الراية رجلا يحب الله ورسوله » 394

«فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعا » 304

«فاطمة بضعة مني، من أرضاها فقد أرضاني » 406

«فبينما هم كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم » 308

«فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج » 312

«فضلت الأنبياء بست » 79

«في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» 360

«فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها » 239

«فيه أباريق كنجوم السماء» 226

«قال آدم: بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق» 186

«قال الله تبارك وتعالى أنفق أُنْفِقْ عليك» 174

«قال الله تبارك وتعالى لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر » 483

«قال الله تعالى ما من عبد من عبادي » 176

«قال الله تعالى: إن عبادي من أوليائي الذين يذكرون بذكري » 362

«قال الله تعالى: من آذى لي وليا فقد استحل محارمي» 568

«قد أفلح من أسلم ورزق كفافا » 421

«قدر كما بين أيلة وصنعاء » 226

«كان رجل ممن قبلكم مسرفا على نفسه فلما حضرته» 11

«كان في الأمم قبلكم محدثون » 367

«كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض» 40

«كتب الله مقادر الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض » 253

«كتب الله مقادير الخلائق كلها » 249

«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك » 324

«كرامة الكتاب ختمه» 288

«كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به» 526

«كلا المجلسين على خير » 436

«كلا، إنه بشعب كذا، وقد قاتلت معه الملائكة» 442

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع » 403

«كمل من الرجال كثيرون » 425

«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» 308

«لا أجمع على عبد من عبادي حزنين ولا فرحين » 489

«لا أنكح إلا سعيدا » 437

«لا تتركوا لي صاحبي، آمن بي حين كفرتم» 369

«لا تحقرن جارة لجارتها ولو بفرسن شاة» 556

«لا تزال جهنم يلقى وتقول هل من مزيد » 277

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق » 40

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق » 88

«لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع » 153

«لا تسبوا أصحابي » 91

«لا تسبوا الدنيا فإنها نعم المطية للرجل الصالح» 570

«لا تسعني أرضي ولا سمائي » 497

«لا تغبطن فاجرا بنعمته » 162

«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها » 304

«لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر » 267

«لا يحبك يا علي إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» 393

«لا يدخل الجنة أحد إلا أري مدخله من النار » 435

«لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد » 236

«لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» 267

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» 192

«لا يكون عبد مؤمنا حتى يومن بأربع » 250

«لا يلج النار إلا تحلة القسم» 236

«لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد » 236

«لا ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه » 298

«لأبعثن معكم غدا أمينا» 394

«لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان أثوابهما » 314

«لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون » 367

«لكل أمة مجوس » 250

«لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة » 82

«لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات» 364

«لم يكمل من النساء إلا أربع » 435

«لما خلق الله تعالى آدم بيده » 117

«لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض » 43

«لموضع سوط أحدكم من الجنة » 316

«لن تدخلوا الجنة حتى تومنوا ولن تومنوا حتى تحابوا بروح الله» 555

«لن تقوم الساعة حتى يسب آخر هذه الأمة أولها أولئك كلاب النار» 91

«لن يخزي الله أمة أنا قائدها » 308

«لن يخزي الله أمة أنا قائدها وعيسى سائقها ومهديها وسطها» 179

«لن يفلح قوم ولوا امرأة» 285

«لو اعتقدتم في هذا الحجر لانتفعتم به» 512

«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا » 103

«لو أنكم تتوكلون على الله حق» 176

«لو عذبني الله وابن مريم ما كان ظالما لنا » 217

«لو كان العلم في الثريا لناله رجال من آل فارس» 270

«لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» 372

«ليدركن المسيح بن مريم من هذه الأمة رجال » 309

«ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني » 227

«ليردن علي أناس من أمتي» 227

«ليس الغنى عن كثرة العرض » 420

«ليس بيني وبين عيسى نبي » 308

«ليس ذلك إنما هو الشرك » 53

«ليس منا من لم يتغن بالقرآن» 162

«ليس منا من لم يهتم للمسلمين» 555

«ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه»-54

«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أفضل من أبي بكر » 369

«ما أعددت لها؟» 101

«ما أنا عليه وأصحابي » 39

«ما أنزل الله من السماء بركة » 172-173

«ما بين النفختين أربعون» 315

«ما بين لابتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة» 226

«ما تفعل إن كنت ماشيا في أرض ذات شوك كثير» 102

«ما ضل قوم بعد هدى أتاهم إلا أتوا الجدل» 97

«ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفا يوم القيامة» 153

«ما من رسول إلا وقد أوتي ما آمن الخلق على مثله » 70

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة» 333

«ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به » 419

«ما من نبي إلا وقد أنذر قومه من الدجال » 69

«ما من نبي إلا وقد أنذر قومه وحذرهم من فتنة المسيح الدجال» 309

«ما من يوم يصبح العباد» 174

«ما نقصت صدقة من مال » 174

«ماأنزل الله علي فيها شيء إلا هذه» 150

«مالي أراك تجهر في كل شيء من أمرك؟» 135

«مثل مابين المدينة وعمَّان» 226

«من أحب قوما حشر معهم» 101

«من أحل شيئا مما حرم الله » 193

«من أخذت حبيبتيه فاحتسب وصبر » 115

«من أراد من المؤمنين خرير » 234

«من أعطي عطاء فليجزه إن وجد » 423

«من أنجاه الله من ثلاث » 69

«من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه» 218- 303

«من حوسب عذب» 242

«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل » 565

«من سلك طريقا يبتغي فيه علما » 436

«من فارق الجماعة شبرا » 94

«من قال لاإله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة» 78-192

«من قال لاإله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة» 78-192

«من قرأ حين يصبح آية الكرسي » 83

«من كنت مولاه فعلي مولاه » 396

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير » 424

«من لم يشكر الناس لا يشكر الله» 424

«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» 436

«ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا » 169

«نزلت الحكمة على ثلاث: عقول فارس ولسان العرب وأيدي الروم» 270

«هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى » 345

«هما جميعا من أمتي» 77

«والذي نفسي بيده آنيته أكثر من عدد نجوم السماء » 227

«والذي نفسي بيده لأذود عنه رجالا » 228

«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم» 307

«وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما» 142

«وتومن بالقدر خيره وشره، قال صدقت» 250

«وقد قالوها عسى ربكم أن يسقيكم» 464

«وقع في نفس موسى هل ينام الله» 86

«وكّل الله بالرحم ملكا» 140

«ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» 41

«يا أبا الفضل لا ترم منزلك أنت وبنوك » 442

«يا أبا المنذر أنذرني أي آية من كتاب الله معك أعظم » 82

«يا ابن آدم أنفق أنفق عليك » 174

«يا ابن رزين أليس كلكم يرى القمر » 62

«يا جبريل أفي هذا المحل يترك الخليل خليله» 258

«يأيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة » 565

«يبعثه الله يوم القيامة أمة وحده » 24

«يحشر الناس حفاتا عراة غرلا» 245

«يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه » 312

«يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن » 96

«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله » 238

«يخرج منه قوم يقرأون القرآن » 96

«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير » 74

«يدنوا المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه »346

«يرد على حوضي يوم القيامة رهط من أصحابي» 227

«يرون بعدي تطريدا وتشريدا» 468

«يصبحون والشمس والقمر هاهنا » 305

«يعذب ناس من أهل التوحيد حتى يكونوا حمما» 240

«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات » 246

«يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: اليوم أظلهم يوم لا ظل إلا ظلي» 361

«يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر» 301

«يؤتى بالرجل العظيم يوم القيامة » 219

«يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح » 433

«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة » 559

«أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة» 397

«أبى الله أن يقبل عملا صالحا من صاحب بدعة» 91

«أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسارة» 417

«أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» 305

«أتدري أين ذهبت الشمس» 305

«أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» 76

«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم» 344

«اتقوا الله حق تقاته واسعوا في مرضاته» 565

«أتى أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه» 411

«أتى النبي ﷺ فشكى إليه» 175

«أتى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله لعل الشيطان قد تلاعب بي البارحة» 371

«أتيت النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كل شيء يضاف إلى الرجال» 417

«أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب»- 265

«أجمع كل الصحابة أن وفد أهل نجران قدم على النبي ﷺ» 353

«أحب الأعمال إلى الله العج والثج» 136

«احتج آدم وموسى» 186

«أخذ الله الميثاق حين أخذ من ظهر آدم ذريته»- 273

«أد الأمانة إلى من ائتمنك» 299

«إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا» 345

«إذا أراد الله بقوم نماءً فتح» 178

«إذا استقبل الرجل قبلتنا» 12

«إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب» 364

«إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب»364

«إذا النبي قد خرج من بيته فسألته عن الخادم» 441

«إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد»522

«إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة » 250

«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة » 434

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم» 523

«إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة» 502

«إذا مرت على أمتي خمسمائة عام» 516

«إذا مشت أمتي المطيطا» 269

«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال» 162

«أذن الله لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله» 340

«استعينوا بالقيلولة على قيام الليل» 555

«أسعد الناس بشفاعتي» 78

«أسعد الناس بهذا القرآن من عمل» 42

«أسلم ويلك، فإنك لم تسلم قبل» 446

«اطلبوا فضلة من ماء» 114

«اعتقها فإنها مؤمنة» 12

«أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» 70

«أفضل الصوم صوم داود» 555

«اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر» 40

«أكثروا من ذكر هادم اللذات» 569

«أكرموا طالب العلم، فإن من أكرمه فقد أكرمني»423

«أكرموا طلبة العلم» 423

«ألا استحيي من رجل تستحيي منه ملائكة الرحمان» 383

«ألا وإني تارك فيكم ثقلين» 104

«الأعمى ميت لم يقبر» 116

«الأولى لك والثانية عليك» 195

«الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما » 353

«الإيمان بضع وسبعون شعبة » 320

«الحمى رابد الموت» 193

«الحمى كير من جهنم » 237

«الحمى من فيح جهنم» 237

«الدعاء مخ العبادة» 135

«الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» 424

«العلوم ثلاثة: آية محكمة وسنة قائمة» 41

«القدرية مجوس هذه الأمة » 29-252

«الكبرياء ردائي» 421

«الكبيرة رابدة الكفر» 193

«الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب » 226

«الله أفرح بتوبة عبده» 218

«الله الله في أصحابي» 91

«اللهم اسق بلدك وبهيمتك وانشر رحمتك» 466

«اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين» 464

«اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة» 467

«اللهم اسقنا غيثا مغيثا» 466

«اللهم إني أعوذ بك من هم الرزق» 166

«أن الله تعالى يوقف المؤمن الغني يوم القيامة» 163

«أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم عليه السلام مسح ظهره» 272

«إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة» 443

«أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ » 238

«أن النبي ﷺ أخبر عبد الله بن عباس » 116

«أن النبي ﷺ جهز سرية إلى سيف البحر وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح» 456

«أن النبي ﷺ سئل عن سبأ فقال: رجل له عشرة من البنين» 283

«أن النبي ﷺ سئل فقيل له: من أحب الناس إليك؟» 406

«أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمر بن نفيل بأسفل بلدح» 25

«أن النبي ﷺ لما أراد الغزو غزو جيش العسرة حث الأغنياء من أصحابه» 382

«أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن ليقضي بينهم ويعلمهم دين الله» 392

«أن النبي ﷺكان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة» 161

«أن النبيﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا» 412

«إن النطفة إذا استقرت في الرحم » 142

«أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة» 200

«أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له: إن الله قد أثنى عليك» 348

«أن جبريل نزل على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة» 405

«أن رجلا أتى النبيﷺ فسأله عن الآخرة» 101

«أن رجلا من أعراب اليمن بلغه أمر النبي ﷺ فاشتاق إليه فركب» 407

«أن رجلا من الحبشة أتى النبي ﷺ» 512

«أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ » 103

«أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر» 416

«أن زيد بن عمر بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين» 25

«أن ملك القطر استأذن الله في زيارة النبي ﷺ فأذن له» 470

«أنه أتى رسول الله ﷺ رهط من اليهود» 261

«أنه لما طال الحصار على بني قريظة أرسلوا إلى رسول الله ﷺ» 200

«أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف» 160

«أهل الجنة عشرون ومائة صنف » 76

«بينما رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم» 299

«بينما رسول اللهﷺ ذات يوم بين أظهرنا » 225

«تحسنون الظن بالله»103

«تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى » 301

«تقولون أكثر أبو هريرة والله ما أكثرت» 61

«جاءت مشركوا قريش إلى النبي ﷺ» 249

«خرج رسول اللهﷺ عشية من العشيات» 305

«ذكر رسول الله ﷺ الدابة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟» 302

« ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع» 309

«رحمك الله أبا عمارة، فلقد كنت فعالا للخير »– 156

«سألت النبي ﷺعن قوله تعالى: والشمس تجري لمستقر لها» 120

«سألت رسول الله ﷺ عن قوله :

﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾» 364

«سألت عائشة عن قوله تعالى: إنا أعطيناك الكوثر» 226

«سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ» 202

«سئل النبيﷺ ما الكوثر؟» 225

«سئل رسول الله ﷺعن أولياء الله، قال:«هم الذين إذا ذكروا ذكر الله» 361

«شكا أصحاب محمد ﷺ قلة ذات أيديهم وكثرة أعدائهم» 268

«صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية » 171

«طلع رسول الله ﷺعلينا ونحن نتذاكر» 304

«علي مني وأنا منه » 392

«عن النبي ﷺ في قوله: أو يأتي بعض آيات ربك» 303

«قال آدم: بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق» 186

«قال النبي ﷺ في قوله تعالى: لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون» 246

«قالتا للنبي ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر» 417

«قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيرا؟» 333

«قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها» 148

«قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير» 366

«قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيا ؟» 431

«كان النبي ﷺ لا تأتيه امرأة من النساء التي كن تأتين خديجة إلا أكرمها» 404

«كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه» 399

«كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل» 451

«كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس فأتاه رجل»320

«كان عليه الصلاة والسلام إذا قدم من غزوة بدأ بها» 406

«كتب الله على ابن آدم نصيبه من الزنا » 195

«كنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلا» 228

«كنا مع رسول اللهﷺفجعل الناس يجهرون بالتكبير» 133

«كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام» 442

«كنت ردف رسول الله ﷺ ذات يوم على حمار» 305

«كنت مع رسول الله ﷺ، فلما أمر بجماعة الناس» 443

«لا يزن عند الله جناح بعوضة» 219

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» 192

«لكل وحد منهم وجه رجل ووجه أسد» 339

«لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: « لك ذلك ومثله معه» 239

«لما جاء زيد إلى رسول الله ﷺ» 448

«لما خلق الله تعالى آدم بيده ونفخ فيه من روحه» 117

«لما نزلت على رسول الله ﷺ: لله ما في السماوات وما في الأرض» 343

«لما هم عليه الصلاة والسلام بطلاق حفصة بنت عمر» 451

«لما وضع رسول الله ﷺ السلاح» 443

«لو كتم رسول الله ﷺشيئا أمر بتبليغه لكتم أربع آيات» 59

«ما أنزل الله من السماء » 172-173

«ما تفعل يا زيد بكلمة الإخلاص» 12

«ما رأيت النبيﷺ مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته» 280

«ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها غيرك» 345

«ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فكله بعز وافتخار» 167

«مستقرها تحت العرش» 120

«من سره أن يسكن بحبوحة الجنة » 94

«من قرأ ولم يتدبر كان كالحمار يحمل أسفارا» 42

«نهى النبي ﷺ عن كلامي و كلام صاحبي» 206

«يؤتى بالرجل العظيم السمين » 223

فهرس الأعلام والأسماء

أبو بكر المنادي 520

أبو حبيب البدوي 485

أبو سليمان الداراني 490-491

أبو علي الصواف 508

أبو علي المسيلي 501-502

إبراهيم (عليه السلام) 24-25-42-45-46-49-50-51-57-58-102-191-207-208-211-212-213-214-215-235-244-490-515

إبراهيم بن أدهم 422-484-487

إبراهيم بن نصر الكرماني 516-519

أبرويز 378

ابن أبي ليلى 412

إبن أبي مريم 162

ابن إسحاق 213

ابن الجوزي 250-251-306-465-495-496-528

ابن الخطيب القسطلاني 427-455

ابن الزبير (عبد الله) 210-302

ابن العربي (أبو بكر) 128-129-508

ابن جريج 134-180

ابن حيان 60-219-272

ابن حيان 60-219-272

ابن ذي الجوشن 469

ابن ذي المشقار 641

ابن سيد الناس 67-89

ابن شملة 468

ابن عباد 498-509

ابن عباس 15-23-43-44-45-46-60-62-64-68-75-77-79-85-86-89-92-94-98-99-103-107-108-109-113-120-131-142-144-148-149-152-153-154-157-161-164-168-172-175-177-181-194-196-198-208-209-210-212-214-215-217-221-223-234-244-245-246-247-250-254-260-261-264-267-273-274-277-280-281-285-288-289-292-293-298-302-305-306-315-318-321-324-326-330-332-339-344-346-348-352-352-353-355-356-357-360-361-366-367-376-377-385-393-397-399-412-413-414-415-416-419-420-421-428-436-437-523-555-561-567-569

ابن عطاء الله (السكندري) 44-509

ابن عيينة (سفيان) 124-125-130-162-349-448

ابن غالب 506

ابن قتيبة 186-251-252-443

ابن مسعود 53-76-104-114-140-142-150-175-194-208-226-227-228-236-240-300-303-305-306-322-352-353-412-430-436-442-447-465-467-511

ابن وهب 200-367-420

أبو إسحاق الإسفراييني 196

أبو الحسن الأشعري 36-38-83-127-128

أبو الحسن بن حرزم (حرزهم) 500-505-527

أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري 504

أبو القاسم بن أبي الفضل 532

أبو الهذيل 188

أبو أمامة 92-93-228-470

أبو بردة الكاهن 377

أبو بكر ابن فورك 128

أبو بكر الأصم 363

أبو بكر الباقلاني 83

أبو بكر التوجي 532

أبو بكر الحاج 559

أبو بكر بن طفيل 498

أبو حارثة بن علقمة 353

أبو حنيفة بن زرنوط 271

أبو روق 46

أبو زكرياء بن موسى المليجي 520

أبو زيد 99

أبو سعيد الخدري 239-360-433

أبو سليمان الخطابي 65-124-181-186-252-365

أبو عبد الحليم يعقوب (الصديني) 527

أبو عبيدة بن الجراح 394-397

أبو علي حسين بن محمد الطواف 505

أبو عمر بن عبد البر 230

أبو عمرو بن الصلاح 198- 234

أبو محمد بن عبد السلام التونسي 507

أبو محمد عبد الحق بن ربيع 503

أبو مخلد 133

أبو مرثد الخولاني 444

أبو مهدي عيسى الغبريني 495-498-503

أبو نعيم 467-522

أبو هريرة 61-147-194-239-267-307-309-315-333-458

أبو يحيى الورياغلي 530

أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي 498-500-504-508-514-522-524

أبوبكر المطوعي 514-516

أبو الحسن عن الحاج (البغدادي) 498

أبو الزهر ربيع 503

أبو العالية 77- 246

أبو القاسم القشيري 495-503-509-525-526-527

أبو بكر الصديق 40-223-228-230-320-369-371-372-400-403-441-442-461

أبو بكرة 285

أبي بن خلف الجمحي 151

أبي بن كعب 82-95-98-316-565

أبو جهضم 445

أبو جهل 154

أبو ذر 78-94-120-227-305-366-441-453

أبو رزين العقيلي 62

أبو عبد الرحمان السلمي 495

أبو عبد الله الدقاق 506-526

أبو عمران الواسطي 525

أبو غالب 93

أبو محمد عبد الله بن عثمان 500

أبو موسى الأشعري 84-133-181-246

أبو نعيم الحافظ467-468-495-522

أبو يعزى 508-526

أحمد بن أبي الحواري 489-490

أحمد بن حنبل 124-172-271

أحمد بن محمد العبداني 514

آدم (عليه السلام) 28-32-58-75-89-110-117-118-119-142-144-156-167-174-186-187-190-194-195-203-205-215-223-239-243-244-249-253-256-272-273-274-275-276-279-291-297-298-306-214-336-337-338-342-350-355-356-385-387-388-389-404-414-426-428-431-441-463-477-567-569

أرطنوس 20

أريوس 18-19-20-21

آزر 45-46-47

إسحاق (عليه السلام) 80-208-209-210-211-280

أسطيوس 18-19-20

الإسكندر 492

أسكيا 537

أسماء بنت أبي بكر 25-228-420

أسماء بنت عميس 417

إسماعيل (عليه السلام) 81-207-208-209-210-211-214-215-280

الأسود بن يزيد 481

آسية بنت مزاحم 403-404-435-452

آصف بن برخيا 292-293

الأصمعي 211

أم بشر الأنصارية 236

أم حبيب بنت أبي سفيان 410

أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة 200-207-228-410-416-417-470-471-602

أم عمارة الأنصارية 417

إمام الحرمين (الجويني) 36-38-251-252

أمية بن خلف 150

أميمة 345

أنس بن مالك 79-136-218-238-277-345-416-453-566

أنيسة بنت كعب الأنصاري 417

الأوزاعي 125-477

أولياس 16

أويس القرني 508-550

أيوب (عليه السلام) 80-515

باهان 445

البخاري (محمد بن إسماعيل) 25-162-182-225-228-271-333-364-402-442

بختنصر 262

براخ الملك 284

بريرة 400

بشر بن الحارث 487

البغوي 43-75-94-124-162-301-316-362

بلقيس 282-284-285-286-287-288-289-291-292-294-295-296-513

بندروس 15-16-21

بولص 263-389

البيضاوي 48

البيهقي 97-123-124-127-128-136-229-442-466-470-512

تمليخا 16-17-18-19-20-23

تميم الداري 461

ثابت البناني 483

الثعلبي 75-77-301-302-316

جابر بن عبد الله 70-411-423

الجبائي 188

جعفر الصادق بن محمد الباقر 546

الجنيد 30

الجوهري 170

جويرية بنت الحارث 411

الجيلي 167

الحارث بن منصور 522

حذيفة بن اليمان 298-302-312

حسانة 401

الحسن البصري 132-137-150-171-209-215-219-255-264-360-366-412-436-479-480

الحسن السلاوي 506

الحسن بن جعفر الصاغاني 484

الحسن بن علي 357-379-384-407-408-415

الحسين بن البجلي 124

الحسين بن علي 357-379-384-407-408-415-468-469-470-471-546

حفص الفرد 37

حفصة بنت عمر 236-237-410-411-451-452-604

الحكيم الترمذي 134

حكيم بن جابر 348

الحلاج 34

حميد القشيري 486

خافان 268-269-378-380

خالد بن معدان 237

خديجة بنت خويلد 403-404-405-406-420-425-435-450-453-541

الخضر 462-496-497-514-556

داود (عليه السلام) 80-117-137-219-220-256-272-296-453-497-515-555-566-567

دحية بن خليفة الكلبي 116-359-443

دريونس 23

دقيانوس 15-16-17-18-19-20-21

ديبونس 20

الرازي (فخر الدين) 105-126-129-187

الراغب 123-491

الربيع بن أنس 209

الربيع بن خيثم 92-150-175-428

الربيع بن صبيح 178

الرجراجي (أبو عثمان سعيد بن ميمون) 524

الرشيد (هارون) 489-490-569

الزبير بن العوام 397-420

الزبير بن بكار 463-465

الزجاج 78-131-132-330-347

زكرياء (عليه السلام) 80-256-430

الزهري (ابن شهاب) 65-202-208-293-366-412-441

زيد بن أرقم 104-228

زيد بن ثابت 98

زيد بن ثابت بن أسلم 194

زيد بن حارثة 12

زيد بن خالد الجهني 171

زيد بن علي (ابن زين العابدين) 475-546

زيد بن عمر بن نفيل القرشي 24-25-604

زين الدين المراغي 467

زين العابدين بن الحسين 448-471-472-473-475-546

زينب بنت جحش 402-411-447

سارية بن زنيم 374-375

ساريونس 23

السدي 45-64-79-89-92-99-208-247-264-274-279-376-377-420

سعد بن أبي وقاص 269-378-397

سعدون 482

سعيد بن المسيب 155-209-399

سعيد بن جبير 99-139-208-245-261-273-281-361-415

سفيان الثوري 125-484-485

سلافة بنت سعد 454

سلام بن مشكم 261

سليمان عليه السلام 80-256-278-283-286-290-291-292-293-296-440-454-514-515

سواد بن قارب 461

سودة بنت زمعة 410-451

السيد الوافي 593-252

سيدي أبو بكر بن علي بن محمد بن المختار الشيخ 543

سيدي أحمد (الفيرم) 544

سيدي أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي 533-547-554-559

سيدي أحمد بن الرقاد 544-545-547

سيدي أحمد بن سيدي المختار 542

سيدي المختار (الشيخ) 539-542

سيدي المختار بن سيدي الأمين 546

سيدي المختار بن سيدي عمر 546

سيدي عبد الرحمان المحجوبي 547

سيدي علي بن سيدي محمد (الأحول) 553

سيدي عمر الشيخ بن سيدي أحمد البكاي 538-539-544-547-558-559

سيدي عمر بن سيدي أحمد الرقاد 547

سيدي محمد الأمين (عنترة) 546

سيدي محمد الرقاد 544-547

سيدي محمد الكنتي 541-549

سيدي محمد الكنتي الصغير 559

السيوطي (جلال الدين) 446–453–454–461–470–534

شاس بن قيس 261

الشافعي 36—62–124–172–188–209–260–268–271–412–420–464–469

شاه الكرماني 570

الشبلي 222–368–476

شرهائيل 119

الشعبي 177–194–210

شهر بن حوشب 341

الصاغاني 484–485–486–488

صفوان بن محرز المازني 346

صفية بنت حيي 411–451

صقلان الخادم 477

الضحاك 77–79–267–307–420

طاووس 99–249–504

طلحة بن عبد الله 205–379

عاصم الأنصاري 453

العاقب 23–354–355

عامر بن الطفيل (الدوسي) 458

عامر بن عبد قيس 481–491

عامر بن فهيرة 455

عائشة (بنت أبي بكر) 59–91–102–150–226–228–237–242–245–267–280–293–306–345–367–383–398–399–401–402–403–404–405–406–410–411–412–413–415–420–425–435–437–447–451–452–465

عبادة بن الصامت 364

العباس بن عتبة بن أبي لهب 463

عبد الحق الإشبيلي 501

عبد الرحمان بن عوف 374–397–442

عبد الله بن الحارث بن جزي 280

عبد الله بن المبارك 125–265–334–346

عبد الله بن سلام 35–209

عبد الله بن شداد 92

عبد الله بن عمر 249–274–303–470

عبد الله بن عمرو بن العاص 194–220–226–228–249–300–301–304–314–420–436

عبد الله بن عمير 15–261

عبد الله بن مغفل 134

عبد الله بن موسى الكاظم 546

عبد الله بن وهب 123–200–367–420

عبد المسيح 260–353–357

عبد الملك بن مروان 472–473–474–

عتاب بن سعيد 484

عثمان بن عفان 179-369-382-383-384-385-396-397-407-441-442

عدي بن حاتم 265

عز الدين بن عبد السلام 197

عزير (عليه السلام)

عسكلان بن عواكن 232

عطاء السليمي 482

عطاء بن أبي رباح 77-208-209-328-366-418

عطية العوفي 261

العقاب 353

عقبة المستجاب (ابن نافع الفهري) 558

عكرمة 208-236-260-261-415

العلاء بن الحضرمي 455

علقمة بن قيس 481

علي النفس الرضية 546

علي بن أبي طالب 42-90-96-113-172-250-378-385-395-400-425-467-468-471-477-491-545-546-565

عمر بن الخطاب 24-94-150-177-198-228-250-270-275-321-361-367-367-369-371-372-374-375-376-455-465-536

عمر بن عبد العزيز 41-210-398-412

عمرو بن لحي الخزاعي 271

عوف بن عبد الله بن عيينة 163

عوف بن مالك الأشجعي 174

عيسى (ابن مريم) عليه السلام 17-80-89-110-140-141-145-179-192-216-256-257-262-263-266-267-300-302-304-307-308-309-310-312-313-323-324-347-354-355-356-357-358-388-389-391-414-426-427-428-429-430-432-447-450-453-483

الغزالي 197-495-498-508

فاطمة الزهراء 357-403-406-407-408-415-416-426-435-441-453-472

الفرزدق 472-473

فرهائيل 119-120

فنحاص بن عازوراء 261

القاضي عياض 196

قتادة 44-99-208-264-316-360-366-412

القرمطي 518

قس بن ساعدة 23

قطرب 246

القفال 126-129

قيصر 268-359-378-385-389-391-445-511

كسرى 268-269-377-378-380-511

كسطنوس 20

كشطونش 23

كعب الأحبار 208–213–279–331–375

كعب بن الأشرف 376–377

كعب بن مالك 201–202–203–204–205

كعب بن مرة الفزاري 466

الكلبي 201–202–203–204–205

لبابة بن المنذر 199–200–202–467

الليث بن سعد 125

مالك بن الصيف 261

مالك بن أنس 11–37–88–123–124

الماوردي 38

مجاهد 77–80–98–173–180–193–209–222–237–258–298–340

المحاسبي 495–505

محسلمينا 20

محمد الباقر 476–477–546

محمد بن أبي بكر 25–385

محمد بن الحنفية 384–393

محمد بن الفلالي 541

محمد بن كعب القرظي 149–274

محمد بن محمد العلوي 549

محمد بن يحيى الزهري 441

محيي الدين أبو بكر بن العربي 508

محيي الدين النووي 84–121–181–193–228–234–251–366–425

مخلد 489

مرارة بن الربيع 201–204

مريم بنت عمران 403–408–425–427–428–435–453

مسروق 176–182–194–208–403–412–420–481

مسلم بن يسار الجهني 272

مسيلمة الكذاب 230

مشدالا الطويل 487

مطرف 342

معاذ 98–203–352–361

معاوية بن أبي سفيان 391–397–398–405–436–453

مَعْمَرْ 86

المغيلي (محمد بن عبد الكريم) 533–538

مقاتل بن حيان 97–208–415

مكسلمينا 16–20–23

منصور 465–480

موسى (عليه السلام) 35–50–63–68–75–85–86–
114–115–186–187–191–318–326–347–
369–387–389–391–404–429–430–440–
452–453–464–490–496–497–515

موسى الكاظم بن جعفر الصادق 546

ميطونس 20

ميكائيل (عليه السلام) 56–118–130–397–462

ميمونة بنت الحارث (الهلالي) 411

نافع بن الأزرق 234–235–281

نسطور 263

النعمان بن أوفى 261

النعمان بن بشير 353–424

النعمان بن مقرن 381–382–440

نمرود 45–46–47–55–56–57–58–414

هرم بن حيان 480

الهروي 182

هلال بن أمية 201–204–205

الواحدي 212

الواقدي 443

وهب بن منبه 287–303–340–430–488–492–
566

يبرونس 20

يبنونس 23

يحيى (عليه السلام) 80–256–568

يزيد بن عبد الملك 475

يزيد بن معاوية 468

يعرب بن قحطان 283–284

يعقوب (عليه السلام) 80–209–210–280–545–557

يوسف النجار 427–429

يوسف بن كامل 209

يوشع (ابن نون) 387

يونس بن محمد 522

فهرس الأماكن والبلدان

أدرج 226-229-231

أركشاش 541

الإسكندرية 520

أسوس 17

إشبيلية 505

أصبهان 270

أغمات 525

أقا 538

الأندلس 505-506

أيلة 226-227-228-229-231

باب الجيسة 527-528

بجاية 503-504

بحر الروم 457-534

بحر القلزم 158-391

برقة 533-534

بغداد 498-507

بنجلوس 20

تاودن 553

الترك 269

التكرور 533

توات 537-542-544-545

الجابية 224

جبل لبنان 516-519

جربا 226-229-231

جزائر البحور 258

الجزيرة الخضراء 505

جلولاء 269

الحبشة 417-460-512

الحديبية 171

حضر موت 232

خراسان 267-270-380-476

دمشق 58-92-93-231-308-310-436-473-518-519

رجراجة 521-522

الروضة الشريفة 535

سبأ 287

سبتة 505

سجستان 270

سجلماسة 532

السواد 270

السودان 547

الشام 25-58-165-204-208-211-226-231-282-293-295-309-373-384-385-405-456-460-462-469-472-473-476-477-487-494-520-521-606

شريش 505

صنعاء 224-226-229-231-282-287

الصين 309-380

طبرية 310-462

عدن 228

العراق 58-96-127-269-270-309-380-384-385-393-468-469-489-512

عرفة 273

عمان 226-227-229

غانة 547

غدير خم 395
فارس 269-285-370-374-378-379-380-440-444
فاس 505
القسطنطينية 286-445
قطنيانة 505
كاش 537
كربلاء 468
كرمان 379
كوثى 56
كوكو 537
مأرب 287-293
المدينة 369-381-382-384-395-399-453-455-456-458-460-461-462-465-471-535
مذحج 232
مراكش 539
مصر 231-364-384-385
المغرب 119-166-521-533-559
مكة 111-112-158-166-211-268-278-282-301-303-339-395-427-439-440-458-460-471-472-477-484-507-508-516-518-520-529
مليحة 521
الموصل 270-469
نجران 23-232-353-394-429
هوص 533
واد شفشاو 521
وادي السباع 481
ولاتة 547-548-553-554-555-556-557-558
اليمن 155-226-227-229-231-232-278-282-284-287-292-293-295-296-301-313-371-392-407-454-461

فهرس القبائل والعشائر

أبناء عبد الرحمان 540–541

الأزد 460–461

ازنيكات 540

الأوس 97–98–232–376–400–401

البرابيش 540–542

بني إدريس 542

بني حسان 541

بني قريظة 98–200–376–377–443

بني ملوك 541

حمير 232–454–461

خزاعة 108–272

الخزرج 97–98–232–376–377–401

دوس 460–461

قريش 25–202–233–249—253–257–396–403–410–427–458–459–460–465

كناتة 540–542–543–544–554

نضير 258–376–377

هكار 543

همدان 296–461

فهرس الأبيات الشعرية

الأبيات الشعرية	الروي	البحر الشعري	الصفحة
عَلَيك بأرباب الصدور فمن غدا **مُضَافا لأرباب الصدور تصدرا	الألف	الطويل	22
خليلي هبا طالما قد رقدتما** أجدكما لا تقضيان كراكما	الألف	الطويل	23
وإن تسأل عن الصفات فادرها** فقل هو الله إلى آخرها	الألف	الرجز	35
يا رب جوهر علم لو أبوح به** لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا	الألف	وزن مكسور	60
إذا أظمأتك أكف اللئام**كفاك القناعة شبعا وريا	الألف	المتقارب	137
ألا فاستوقد النيران وهنا**فإن النار فاكهة الشتاء	الألف	الوافر	170
إذا نزل السحاب بأرض قوم**رعيناه لو كانوا غضابا	الألف	الوافر	178
وهل فسد الدنيا إلا الملوك** وأحبار سوء ورهبانها	الألف	المتقارب	265
مشيناها خطا كتبت علينا**ومن كتبت عليه خطا مشاها	الألف	الوافر	167
ماذا علي من شم تربة أحمد**أن لا يشم مدى الزمان غواليا	الألف	الكامل	408
املأ ركابي فضة وذهبا**فقد قتلت الملك المحجبا	الألف	الرجز	469
أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت**عنه ملوك بني مروان إذا حشروا	الألف	البسيط	476
إن كنت ملت إلى سواكا** وزال قلبي عن هواكا	الألف	السريع	487
وما مال قلبي إلى سواكا** ولا تعديت عن هواكا	الألف	السريع	487
يا من يشكك جهلا في كرامتهم**حقق وصدق فإن القوم قد صدقوا	الألف	البسيط	519
رجال الله قد سعدوا وفازوا** ونالوا فضل رحمته وحازوا	الألف	الوافر	531

تفكرت في الدنيا وفي شهـواته**ولذاتها حتى أطلت التـفـكرا	الألف	الطويل	566
نعيب زماننا والعيب فـينا** وما لـزماننا عـيب سـوانـا	الألف	الوافر	570
لها وجه إنسان وجلد زرافة** وحافر ثور ثم ذيل شفجطب	الباء	وزن مكسور	303
وأوعدني كعب ثـلاثا يـعدهـا**فأيقنت أن القول ما قاله كعـب	الباء	وزن مكسور	375
أتـرجوا أمـة قـتـلت حـسينا** شـفـاعة جـده يـوم الحـساب	الباء	الوافر	469
فـحتى بـنـو مروان تقـتل منكم**سـراتـكـم والدهـر جـم الـغرائب	الباء	الطويل	475
أنـــا الــذي ســمتـني أمي حيدرة**رحـب الذراعين فهي المنظرة	التاء	الرجز	394
عــبــاد الله سـادات كـــرام**لـهم في الخير إن لاح انبـعاث	الثاء	البسيط	501
فأول خبث الماء خبث ترابه** وأول خبث القوم خبث المناكح	الحاء	الطويل	560
قد كنت لي جبلا ألـوذ بـركـنـــه**فـتركـتـني أمـشـــي بـأجـرد ضاح	الحاء	الكامل	408
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته**يبقى الإله ويفنـى المال والولـد	الدال	البسيط	296
رحـم الله عــامر بن فـهـيرة**رحمة المبتغي سبيل الجـهـاد	الدال	البسيط	455
ألا مـــقلتي باتت كمقلة أرمـد**وحالي مـما نابـها حـال مـكـمـد	الدال	الطويل	549
إن فـقـد النـبـي جـزعـنـا الـيـوم**فـــدتـه الأســـمـاع والأبـصـار	الراء	الخفيف	233
بعـمي سقى الله الحجاز وأهـلـه**عـشـية يستسقـي بشـيـبـتـه عمـر	الراء	الطويل	464
كفلت لطـالب الدنـيـا بـــهـــم**طـــويل لا يئول إلـى انـقـطـاع	العين	الوافر	493
أطوف بأبواب المـلوك كأنـــني**أخو بضعة والثوب مني نظيف	الفاء	الطويل	484
أسير الخـطايا عنـد بابـك واقـف**على وجل مـما بـه أنت عـارف	الفاء	الطويل	530
ثم استوى بشر على العراق**من غير سيف ودم مهراق	القاف	الرجز	127

اشـدد حـيازيـمـك للـمـو**ت فـإن الـمـوت لاقـيـك	الكاف	الهزج	393
حصان رزان ما تزن بريبة**وتصبح غرثى من لحوم الغوافل	اللام	الطويل	403
من بـطن برهـوت تهـوي في عذافـرة**إليـك يا خـير من يحـفى وينتعل	اللام	البسيط	407
أرى عـلل الدنـيا علـي كـثيرة**وصاحـبها حـتى الممات عليل	اللام	الطويل	409
أرقت فبات لـيلي لا يـزول**وليل أخي المصـيبة فيه طول	اللام	الوافر	409
ومن ذا الذي أحيى الإله حماره**وقد مات منه كل عضو ومفصل	اللام	الطويل	454
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى**ما شئت من عبر فيها وأمثال	اللام	البسيط	479
ولا تحسبوا أن المـعالي رخيـصة**ولا أن إدراك الـعـلا هيـن سـهل	اللام	الطويل	520
ظـلوم لنفـسي غـير أني مسلم أصـلي الصـلاة كـلهـا وأصـوم	الميم	الطويل	381
هـذا ابن خـير عـبـاد الله كـلهم**هـذا الـتـقـي النـقي الطاهر العلم	الميم	البسيط	472
بشـــراك يا قـلـب هـذا سـيد الأمـم**وهذه حضرة الـمختار في الحـرم	الميم	السريع	535
عزلت اللات والعزى جميعا**ولا غـنما أدين ولا الجنون	النون	الوافر	62
كـم فـي الـبـريـة مـن بهـمتـه** إلـى مـعـالم أهل الفضل والديـن	النون	البسيط	528
لا تسترب بكرامـات يخص بهـا**مـن اتقى الله فـي سـر وإعـلان	النون	البسيط	513
وكلما صح أن يكون معجزة**للأنبياء فللولي مـناحره	الهاء	وزن مكسور	87
إن أخاك مـا اسـتـغ** نـيت عـنه أخـوه	الهاء	مجزوءالرمل	137
أئـمـة الخـلق الهـداة الأربعـة**وكلهم مفضل بما معـه	الهاء	الرجز	271
أنسـت به فلم أبـــغ سـواه** مـخـافـة أن أضـل فـلا أراه	الهاء	الوافر	482
إذا ما بسط الكف التمس الغنا**إلى غير من قال اسألوني فشلتي	الياء	وزن مكسور	137

وأنت تبدي ما خلقت وبعـ**ـض القوم يخلق ثم لا يبدي	الياء	الكامل	145
محمد النبي أخي وصـهـري** وحمزة سيد الشـهداء عمـي	الياء	الوافر	395
أتحـرقني بالـنار يا غـاية الـمنا**فأيـن رجـائي ثـم أين مـخافتـي	الياء	الطويل	471
هنـئوني بـغـبطتـي وســـروري**فـجـــديـر بـأن يـهنـأ مـثـلـي	الياء	وزن مكسور	564
وكم من أكلة منعت أخـاها**بأكلة ساعـة أكـلات دهـري	الياء	الوافر	568

فهرس موضوعات القسم الأول من كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة

- مقدمة المؤلف.....11
- باب في أقسام الإيمان والمؤمنين وأركانه.....114
- فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك.....187
- فصل في الكبائر وحدِّها وتمييزها عن الصغائر.....195
- فصل في ذكر الورود على النار ووجوب اعتقاده.....234
- فصل فيما ورد في القدر وما قيل فيه.....249
- فصل في بيان كفر جميع الملل غير الملة الإسلامية.....256
- فصل في فساد دين المجوسية وحقيقة عبادة النيرات كالشمس والقمر والنار.....269
- فصل في قيام الساعة ووجوب الإيمان بها.....313
- باب في ذكر محاجة النبيﷺ وفد نجران في وحدانية الله ونفي الشريك والولد عنه..353
- فصل في ذكر الأولياء وما يجب من تبجيلهم وتعظيمهم والتصديق لهم 361
- فصل في فضائل أهل بيت النبوة وكراماتهم.....467
- فصل فيما جاء عن الحسن بن جعفر الصاغاني.....483
- فصل في الكشف عن مثالب الدنيا وغوائلها.....488
- فصل فيما ورد عن مشايخ السلف في كرامات أبي مدين الغوث.....501
- فصل فيما ورد عن الخضر رضي الله عنه ونفعنا ببركته.....514
- باب فيما ورد عن سكان الجبال والكهوف من أولياء الله تعالى.....516
- باب ما جاء في فضل العارفين بالله تعالى يوم القيامة 522

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في قسم التحقيق

- **القرآن الكريم:** برواية حفص عن عاصم.
- **الإبانة الكبرى** لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: 387هـ)، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- **أحكام الجنائز**، أبو عبد الرحمان محمد ناصر الدين الألباني بن الحاج نوح بن نجاتي الأشقودري الألباني (المتوفى 1420هـ)، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة: 1406هـ- 1986م.
- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ الطبع.
- **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (المتوفى: 272هـ)، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر – بيروت، الطبعة: الثانية، 1414هـ.
- **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، 1323 هـ.
- **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، عبد الملك بن عبد الله أبو يعلى الجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى- علي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، طبعة: 1369هـ-1950 م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، سنة النشر: 1415هـ – 1994 م.
- **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة** المعروف بالموضوعات الكبرى، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ)، تحقيق: محمد الصباغ، الناشر: دار الأمانة ومؤسسة الرسالة – بيروت، بدون تاريخ الطبع.
- **إسعاف المسائل بالكلام على بعض المسائل**، محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، طبعة: 2014م.

❖ **الإسلام في نيجيريا ودور عثمان بن فودي في ترسيخه،** الدكتور: محمد لواء الدين أحمد، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، طبعة: 2013م.

❖ **الأسماء والصفات للبيهقي،** أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م.

❖ **الإصابة في تمييز الصحابة،** أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ.

❖ **الإصابة في تمييز الصحابة،** أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ.

❖ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،** محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت– لبنان، عام النشر: 1415هـ- 1995م.

❖ **أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته،** عبد الباقي مفتاح، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2014م.

❖ **أطلس الحضارة الاسلامية،** إسماعيل راجي الفاروقي و لوس لمياء الفاروقي، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى 1419هـ -1998 م.

❖ **الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث،** أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1401هـ.

❖ **إعراب القرآن وبيانه،** محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : 1403هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة ، 1415 هـ.

❖ **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام،** العباس بن إبراهيم السملالي (قاضي مراكش)، مرجعة: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، طبعة: 1413هـ- 1993م.

❖ **الأعلام**، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – 2002 م.
❖ **الإفصاح عن معاني الصحاح**، يحيى بن (هُبَيْرَة بن) محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين (المتوفى: 560هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، سنة النشر: 1417هـ.
❖ **الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والثلاثة الخلفاء**، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع (المتوفى: 634هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
❖ –**الأنساب**، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: 562هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، 1382 هـ – 1962 م.
❖ –**الإيمان** لابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: 395هـ)، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1406هـ.
❖ **الأم**، الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبي القرشي المكي (المتوفى 204هـ)، دار المعرفة–بيروت، طبعة" 1410هـ–1990م.
❖ **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني (المتوفى: 580هـ)، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2001 م.
❖ **الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم القرطبي (المتوفى: 463هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، بدون تاريخ الطبع.
❖ **أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين**، المعافى بن إسماعيل الموصلي (المتوفى 1156هـ)، تحقيق: رضا أحمد اغبارية، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2006م.
❖ **الأنس في شرح عيوب النفس**، وفيه رجز عيوب النفس للشيخ أحمد زروق، محمد بن علي الخروبي، تحقيق: محمد طيب إدريس، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى، 2010 م.
❖ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (المتوفى: 1399هـ)، عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا

رئيس أمور الدين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، بدون تاريخ الطبع.

❖ **إيقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني**، ت 1266هـ، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، طبعة: 2016 م.

❖ **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت ، طبعة: 1420 هـ.

❖ **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، طبعة: 1419 هـ.

❖ **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو 355هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، بدون تاريخ الطبع.

❖ **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418هـ- 1997 م، سنة النشر: 1424هـ / 2003م.

❖ **البشرى شرح المرقاة الكبرى**، محمد التسليمي، طبعة قديمة، طبعة: 1954م.

❖ **البصائر والذخائر**، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو 400هـ)، تحقيق: د/ وداد القاضي، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

❖ **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون تاريخ الطبع.

❖ **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003م.

❖ **تاريخ الأنبياء**، أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي، تحقيق: آسيا كليبان علي البارح، دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة: 2010 م.

❖ **تاريخ السودان**، عبد الرحمان السعدي، دار الكتب: بيروت–لبنان، طبعة: 2012م.

❖ **تاريخ المدينة لابن شبة،** عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: 262هـ)، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد – جدة، عام النشر: 1399هـ.

❖ **تاريخ بلاد شنكيطي من العصور القديمة إلى حرب شربة الكبرى بين أولاد الناصر ودولة إبدوكل اللمتونية،** حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2010م.

❖ **تاريخ دمشق،** أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: 1415 هـ - 1995 م.

❖ **تاريخ مختصر الدول،** غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) بن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري (المتوفى: 685هـ) تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1992 م.

❖ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي،** أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: 1353هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **تحفة اللطائف في فضائل الحبر عبد الله بن عباس ووج الطائف،** جار الله محمد بن عبد العزيز بن عمر بن فهد المكي المتوفى 954هـ، تحقيق: الأستاذ الدكتور فاروق عبد الرزاق حسين الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى 2012م.

❖ **تذكرة الخواص** (تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة)، أبي المظفر يوسف بن قز أوغلي، المعروف بسبط ابن الجوزي (المتوفى: 654هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2005م.

❖ **التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة،** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1425 هـ.

❖ **الترغيب والترهيب،** عبد الله بن أسعد اليافعي، تحقيق: محمد فارس، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 1996م.

❖ **الترغيب والترهيب،**عبد العظيم بن عبد القوي، أبو محمد زكي الدين المنذري، (المتوفى: 656هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ.

❖ **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بالزيات، تحقيق: الدكتور عاصم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، طبعة : 2016 م.

❖ **تفسير ابن عرفة**، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: 803هـ)، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 2008 م.

❖ **التَّفسِير البَسِيط**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ.

❖ **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

❖ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1420هـ-1999م.

❖ **التفسير المظهري**، المظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الراشدية – الباكستان، الطبعة: 1412 هـ.

❖ **تكملة جامع كرامات الأولياء**، محيي الدين الطعمي، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، طبعة: 2008م.

❖ **التهجد وما ورد في ذلك من الكتب الصحاح وعن العلماء والصلحاء والزهاد رضي الله عنهم**، أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الاشبيلي(المتوفى 581هـ)، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني و أبو عبد الله محمد بن الحسن بن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، 1415هـ-1994 م.

❖ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: 742هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة: الأولى، 1400 – 1980.

❖ **الثقات،** محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، 1393 هـ - 1973م.

❖ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم،** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م.

❖ **الجامع الكبير (سنن الترمذي)،** محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م.

❖ **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)،** محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

❖ **جامع بيان العلم وفضله،** أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م.

❖ **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)،** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

❖ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن،** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

❖ **الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية،** محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي (المتوفى: 1272 هـ)، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2015م.

❖ **الحكم العطائية**، أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عَطَاء الله الإسكندري: (المتوفى:709هـ)، تحقيق: محمد عبد المقصود هيكل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة: الأولى، 1408هـ-1988م.

❖ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م، ثم صورتها عدة دور منها: دار الكتاب العربي - بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة 1409هـ بدون تحقيق).

❖ **حياة الحيوان الكبرى**، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: 808هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الثانية، 1424 هـ.

❖ **الدر المنثور**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، الناشر: دار الفكر- بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ)، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمرير، دار الفكر - عمان، الأردن، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.

❖ **الدعاء للطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1413هـ.

❖ **دلائل النبوة**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - 1408 هـ - 1988 م.

❖ **ذخيرة الحفاظ** (من الكامل لابن عدي)، أبو الفضل محمد بن ظاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، المعروف بابن القيسراني (المتوفى 507هـ)، تحقيق: عبد الرحمان الفريوائي، دار السلف - الرياض، الطبعة الأولى: 1416هـ -1996م.

❖ **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، جار الله الزمخشري (المتوفى 583 هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ.

❖ **الرسالة الغلاوية**، المسماة: (مبردة الغليل وشافية الغل)، الشيخ سيدي محمد الكنتي بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، (المتوفى: 1242هـ)، تحقيق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، طبعة: 2013م.

❖ **الرسالة القشيرية**، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ)، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ الطبع.

❖ **الرقة والبكاء**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: 281هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1419 هـ - 1998 م.

❖ **روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى 1422 – 2001 م.

❖ **روح البيان**، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ)، دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415هـ.

❖ **الرَّوضُ البَاسِمْ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسِم – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، (وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصّنعاني)، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: 840هـ)، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

❖ **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري (المتوفى: 694هـ)، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة: الثانية، بدون تاريخ الطبع.

❖ **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

❖ **الزهد لابن أبي الدنيا**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: 281هـ)، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999م.

❖ **الزهد والرقائق لابن المبارك** (يليه «ما رواه نعيم بن حماد في نسخته زائدا على ما رواه المروزي عن ابن المبارك في كتاب الزهد»، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: 181هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **الزهد**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م.

❖ **السر الظاهر فيمن لأحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر**، لأبي الربيع سليمان الحوات الشفشاوني (المتوفى: 1231هـ)، تحقيق: حسن بلحبيب، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2019م.

❖ **سراج الملوك**، أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: 520هـ)، من أوائل المطبوعات العربية – مصر، تاريخ النشر: 1289هـ، 1872م.

❖ **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: 1285 هـ.

❖ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ / 1992 م.

❖ **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: 1111هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

❖ **سنن ابن ماجة**، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ الطبع.

❖ **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **السنن الكبرى**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

❖ **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : 748هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، 1405 هـ / 1985 م.

❖ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.

❖ **-شرح التبيان في علم البيان**، محمد بن عبد الكريم المغيلي (المتوفى: 909 هـ)، تحقيق: أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، طبعة: 2010م.

❖ **-شرح التصريح على التوضيح** أو **التصريح بمضمون التوضيح في النحو**، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفى: 905هـ، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى 1421هـ- 2000م.

❖ **شرح السنة**، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 516هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1403هـ - 1983م.

❖ **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح** المسمى بـ **(الكاشف عن حقائق السنن)**، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (743هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.

❖ **الشريعة**، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: 360هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن – الرياض / السعودية، الطبعة: الثانية، 1420 هـ - 1999م.

❖ **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.

❖ **شيخ الشيوخ في الأمصار أبي مدين الغوث**، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2010 م.

❖ **صحراء الجزائر الكبرى**: في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، حفناوي بعلي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، طبعة: 2018م.

❖ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1414 هـ– 1993م.

❖ **صفة الصفوة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، طبعة: 1421هـ/2000م.

❖ **طبقات الصوفية**، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (المتوفى: 412هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ– 1998م.

❖ **طبقات الفقهاء**، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (المتوفى: 476هـ)، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور (المتوفى: 711هـ) ، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1970م.

❖ **العاقبة في ذكر الموت**، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: 581هـ)، تحقيق: خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى– الكويت، الطبعة: الأولى، 1406 – 1986م.

❖ **العرش**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1424هـ/2003م.

❖ **عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة**، أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغِبْرِيني (المتوفى: 714هـ)، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثانية، 1979 م.

❖ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: 1329هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1415 هـ.

❖ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المتوفى: 734هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1414هـ–1993م.

❖ **عيون الأخبار**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت تاريخ، طبعة: 1418 هـ.

❖ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ، 1416 هـ.

❖ **غريب الحديث**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، الطبعة: الأولى، 1397هـ.

❖ **فتح القدير**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ.

❖ **الفتن**، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (المتوفى: 228هـ)، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1412هـ.

❖ **الفتوحات المكية**، أبي بكر محيي الدين محمد بن علي الحاتمي المعروف بابن العربي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، طبعة: 2011 م.

❖ **الفرقد النائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر**، محفوظ بن ساعد بوكراع السطيفي، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، طبعة: 2016م.

❖ **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي (المتوفى: 1376هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى – 1416هـ– 1995م.

❖ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، وصورتها دور عدة مثل: دار الكتب العلمية – بيروت، ودار أم القرى – القاهرة)، طبعة: 1414 هـ – 1991م.

❖ **الكامل في التاريخ**، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م.

❖ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ.

❖ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: 1067هـ)، مكتبة المثنى – بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية)، تاريخ النشر: 1941م.

❖ **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1422هـ – 2002 م.

❖ **الكشكول**، محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين (المتوفى: 1031هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1418هـ –1998م.

❖ **كنتة الشرقيون من عرب مالي والنيجر**، بول مارتي، تعريب: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق – سوريا، 1985م.
❖ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: 975هـ)، بكري حياني – صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة: 1401هـ/1981م.
❖ **كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَارِي**، محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1354هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م.
❖ **-لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.
❖ **اللباب في علوم الكتاب**، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.
❖ **-لسان العرب**، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
❖ **-لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن**، تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء السكندري، التوفي 709 هـ، تحقيق: الدكتور عاصم ابراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية- بيروت، طبعة: 2017م
❖ **لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية** لمحيي الدين ابن عربي، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق: الشيخ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى 2015 م.
❖ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، الطبعة: الثانية، 1402 هـ - 1982 م.

❖ **المجالسة وجواهر العلم**، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : 333هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت – لبنان)، تاريخ النشر : 1419هـ.

❖ **المجتنى**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، دائرة المعارف العثمانية، بدون تاريخ الطبع.

❖ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى 807هـ)، تحقيق: حسام الدين المقدسي، مكتبة القدسي– القاهرة، طبعة: 1414هـ.

❖ **محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار ومحاسن السادة الأخيار**، الشيخ محمد بن شعيب الأبشيهي (المتوفى: 1030 هـ)، دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، طبعة: 2007 م.

❖ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

❖ **المحن**، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، أبو العرب (المتوفى: 333هـ)، تحقيق: د عمر سليمان العقيلي، دار العلوم – الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، 1404هـ – 1984م.

❖ **مختصر تاريخ دمشق** لابن عساكر، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1402 هـ – 1984م.

❖ **المدهش**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، تحقيق: الدكتور مروان قباني، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1405هـ – 1985م.

❖ **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، محمد بن عمر نووي الجاوي، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 2016م.

❖ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

❖ **مستخرج أبي عوان**، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: 316هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ-1998م.

❖ **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ- 1990م.

❖ **المستطرف في كل فن مستطرف**، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: 852هـ)، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ.

❖ **المستقصى في أمثال العرب**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1987م.

❖ **مسند أبي يعلى**، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: 307هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، 1404هـ – 1984م.

❖ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، لطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م

❖ **مسند البزار** المنشور باسم **البحر الزخار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).

❖ **مسند الدارمي** المعروف بـ **(سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: 255هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 2000 م.

❖ **مسند الشهاب**، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: 454هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1407هـ – 1986م.

❖ **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (صحيح مسلم)**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ الطبع.

❖ **مشيخة ابن الجوزي**، أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي– بيروت لبنان، الطبعة: الثالثة : 2006 م.

❖ **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع** (الموضوعات الصغرى)، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1398 هـ.

❖ **معالم التنزيل في تفسير القرآن** (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : 510هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ.

❖ **المعجم الأوسط**، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، بدون تاريخ الطبع.

❖ **معجم البدع**، رائد بن صبري بن أبي علفة، دار العاصمة لِلنَّشْرِ وَالتَّوزيع، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م.

❖ **معجم البلدان**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م.

❖ **المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري**، أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، تقديم: علي حسن عبد الحميد الأثري، الدار الأثرية، الأردن – دار ابن عفان، القاهرة، بدون تاريخ الطبع.

❖ **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثاني، بدون تحديد تاريخ الطبع.

❖ **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**، عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1409 هـ - 1988 م.

❖ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (المتوفى: 1408هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، 1414 هـ - 1994 م.

❖ **معرفة السنن والآثار**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق -بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، الطبعة: الأولى، 1412هـ - 1991م.

❖ **المعزى في مناقب سيدي أبي يعزى المتوفى 572 هـ**، الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، طبعة: 2007 م.

❖ **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار**، المعرف بتخريج الإحياء، (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى 806هـ)، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: 1426هـ- 2005م.

❖ **مفاتيح الغيب** (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.

❖ **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ.

❖ **المقدمات في الجغرافيا الطبيعية**، عبد العزيز طريح شرف، مركز الإسكندرية للكتاب، بدون تاريخ الطبع.

❖ **الملل والنحل**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: 548هـ)، مؤسسة الحلبي، بدون تاريخ الطبع.

❖ **مناقب الإمام الشافعي**، محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم، أبو الحسن الآبري السجستاني (المتوفى: 363هـ)، تحقيق: د / جمال عزون، الدار الأثرية، الطبعة: الأولى 1430 هـ - 2009 م.

❖ **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.

❖ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ.

❖ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، بدون تاريخ الطبع.

❖ **المورد العذب في المواعظ والخطب**، أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي، (المتوفى 597هـ)، تحقيق: أروى سمير مجذوب، دار التبيان للطباعة والنشر: بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1434 هـ.

❖ **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، المؤلفين: إعداد الأساتذة: رابح خدوسي، الطاهر حسيني، عائشة بنور، فضيلة بن سهادة، آمال بن سهادة.، الناشر: منشورات الحضارة، طبعة: 2014 م.

❖ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1420 هـ.

❖ **الميسر في شرح مصابيح السنة**، فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف أبو عبد الله، شهاب الدين التُّورِبِشْتِي (المتوفى: 661 هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الثانية، 1429 هـ - 2008 هـ.

❖ **نثر الدر في المحاضرات**، منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى (المتوفى: 421هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2004م.

❖ **نزهة الأنام في محاسن الشام**، أبي البقاء عبد الله البدري (ت 894هـ)، دار المنهل، الطبعة: الأولى-2012م.

❖ **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، المشهور بالرحلة الورثلانية، الشيخ محمد بن الحسين بن محمد الورثلاني السطيفي الجزائري، المتوفى 1193 هـ، تحقيق: محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى 2016 م.

❖ **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي (المتوفى: 560هـ)، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1409 هـ.

❖ **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت

❖ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعات:

الجزء: 1 – الطبعة: 1، 1900

الجزء: 2 – الطبعة: 1، 1900

الجزء: 3 – الطبعة: 1، 1900

الجزء: 4 – الطبعة: 1، 1971

الجزء: 5 – الطبعة: 1، 1994

الجزء: 6 – الطبعة: 1، 1900

الجزء: 7 – الطبعة: 1، 1994